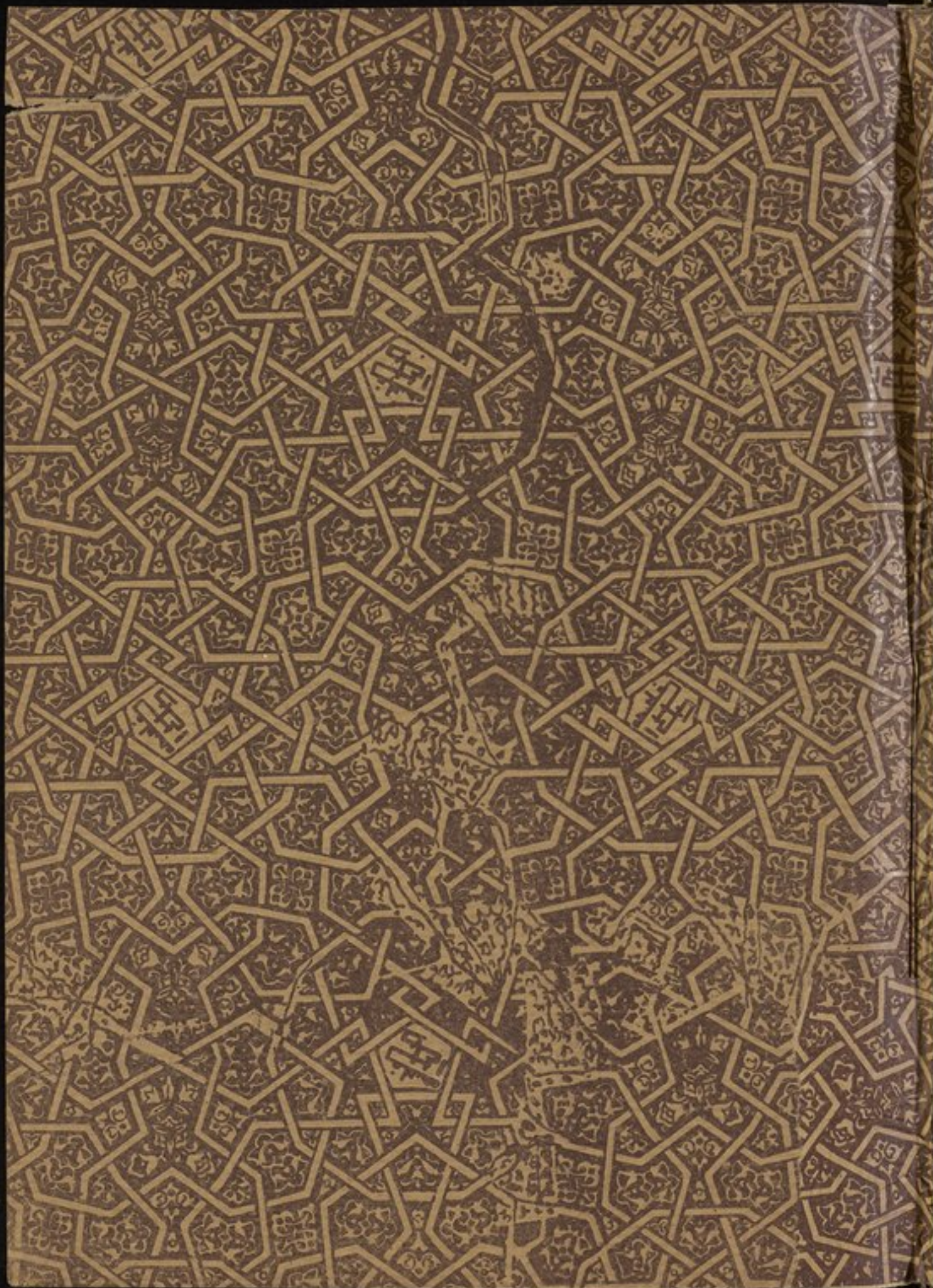


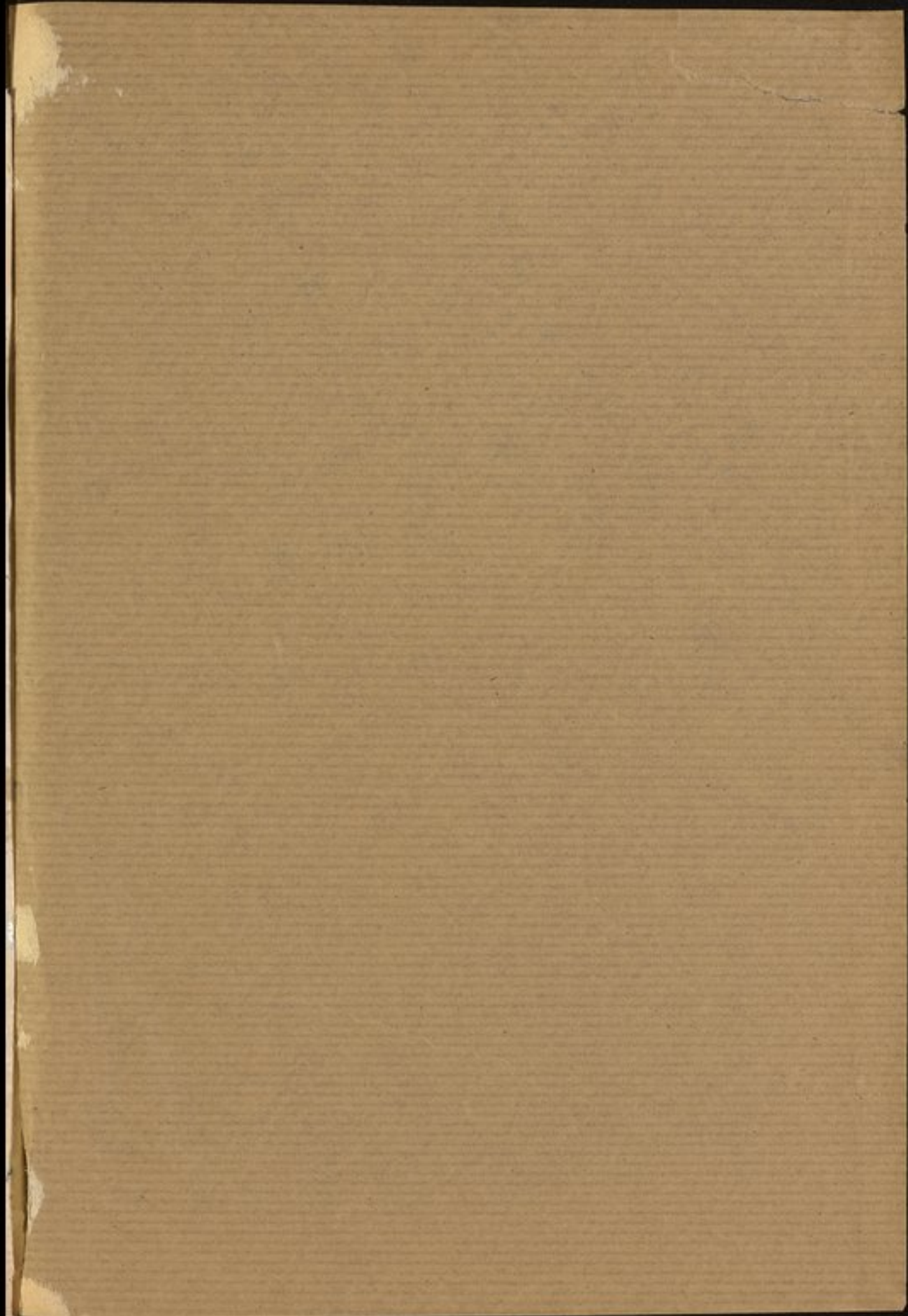
1931



THE LIBRARIES  
COLUMBIA UNIVERSITY

—◆—  
GENERAL LIBRARY





الجواهر

في تفسير الفلز الكبريت

السيد علي عجمي بنع المكنون و غراب اللبأ اباهراً

تأليف

الأستاذ المكي شمع طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقاً  
مع الله المسلمين بحمائه آمين

الجزء الخامس

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مصطفى الباقى الحلبي وأولاده بمصر

BP  
130.4  
J 27  
v. 5-6

[ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ]

قرآن كريم

## بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية وهي ست وسبعون آية

وهي تشتمل على خمسة أقسام

- [ القسم الأول ] من أول السورة إلى قوله « ورزق كريم » في صفات المؤمنين الكاملين .  
[ القسم الثاني ] في ذكر غزوة بدر من قوله « كما أخرجك ربك » إلى قوله « وأن الله مع المؤمنين »  
[ القسم الثالث ] في وصايا ومواظب للمسلمين من قوله « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله » إلى قوله « والله ذو الفضل العظيم » .  
[ القسم الرابع ] في ذكر ضلالات الكفار وخبائثهم مع وعيدهم وزجرهم من قوله تعالى « وإذ يأمركم أن تكفروا » إلى قوله « نعم للمولى ونعم النصير » .  
[ القسم الخامس ] في قصة الغنائم ، وكيف يعامل الأسرى . وصايا عامة في الحرب والاحتباس من الأعداء من قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء » إلى آخر السورة .

### مقدمة السورة

اعلم أن الله عز وجل لما أبان في سورة البقرة الأحكام الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وجعل آل عمران للدلالة على الله وإزالة الشبهات عن رسالة بعض الأنبياء وأكمل في سورة النساء الأحكام التي في البقرة فبين البراث وأحوال الأزواج والأقارب وأتبها بالمائدة ذات الفائدة مبنية ما يحل من الصيد وما يحرم وجعل الأنعام ميدان الحكمة والعلم . والأعراف لتعريف زوال الملك وموت المالك التي نام ملوكها وشذ أفرادها عن النهج القويم فهلكت مدنهم بعد أن بارت تجارتهم . ولما انتهى السلام إلى هذا المقام ناسب أن يؤتى بعدها بسورة الأنفال ليؤسس مجدا إسلاميا جديدا ويرفع شأن أمة جديدة ويبين لها صرحا على أنقاض الأمم السالفة في (سورة الأعراف) . فهو عز وجل يقول لقد « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » كما جاء في سورة المائدة ، وذلك لم يكن إلا بعد أن شرح في البقرة كثيرا من الأحكام الشرعية . وكذا في (سورة النساء) .

وأبان في آل عمران النصرانية والإسلامية . وأبان في الأنعام المحرمات والمهللات . وفي الأعراف ذكر  
القصة التي استبان فيها كيف تكون سيئات الأخلاق من أسباب الفضيحة والحرامان . وكيف تصبغ ديار  
الأمم قانا صفصفا متى زاعت عقائد أهلها وتولوا عن النصائح وأمرضوا عن القويمات الصحائح وبغسوا الناس  
أشياءهم وعثوا في الأرض فسادا وبغوا وطفوا . هنالك تفرعهم القارعة وتنزل عليهم الصاعقة وتمحقهم للمأفة  
وتذرم حصيدا حامدين . هذا هو المقصود من سورة الأعراف .

وإذا كان هذا هو المثل القديم للأمم العابرة . فقد ذكر سورة الأنفال والتوبة جد ذلك ليبين للمسلمين  
كيف نفى الأمم وتبيد ويقول ها أناذا فعلت بالأمم السالفة وقد أنلتكم قوة وأعطينكم خلافة الأرض ومكنت  
لكم فيها وجعلتكم خلفاء لأهلها فلكم فارس ولكم الروم ، فلا يبين لكم في سورة الأنفال والتوبة معاملتكم مع  
الأمم وكيف تحاربون وتماهدون . وإياكم أن ينزكم أنى جعلتكم أقوياء فإذا تكبرتم وأبينتم فاقروا الأعراف  
إن شتمت ويونس وهودا إن أردتم ولا تفرنكم سورتنا الأنفال والتوبة الدالتان على أن لكم شأننا وأنكم  
منصورون . فالأعراف ويونس وهودا للكتنفات للأنفال والتوبة تنبهدان أن الأرض لله بورثها من يشاء  
من عباده « وتلك الأيام نداولها بين الناس » وما مثلكم إلا كمثل الأمم قبلكم ، وأنا الحكم العدل . ولتلك لما  
انصرم الزمان وذهبت تلك الأيام سلطت الفرنجة عليكم كما سلطت أمما ودولا وحوادث جوية وزلازل أرضية  
على الأمم المذكورة في يونس وفي هود وفي الأعراف .

ولقد تبين صدق هذا المعنى للأخوذ من الترتيب المذكور باجتياح الفرنجة بلاد الإسلام وغلهم عليهم  
فساروا في ذلك بعد عزم . وفي شفاء بعد سعدم . وفي شمر بعد خيرم . وفي ضرر بعد نفعهم .  
« سنة الله التي قد خات في عباده - ولن تجد لسنة الله تبديلا » وقد آن أن أشرع في تفسير سورة  
الأنفال . فأقول :

### ( الْقِسْمُ الْأَوَّلُ )

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )

يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ؟ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ  
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ  
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ \* الَّذِينَ يُقِيمُونَ  
الصَّلَاةَ وَيَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ \* أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ  
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

#### التفسير اللفظي

اعلم أيها الذي أن هذه السورة مدنية كلها وهي (٧٦) آية . واعلم أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر  
كيف تقسم ، ومن الذين يستحقونها : المهاجرون أم الأنصار ؟ . وورد أن الشبان تسارعوا إلى الهيحاء فقتلوا  
سبعين وأسرروا سبعين . ثم طلبوا الغنائم وكان المال قليلا ، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الزايات  
كتاردها لكم وفئة تنحازون إليها فزلت الآية فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء فلم يخص

الشان اقتلهم وأسرم الأعداء، ولا الشيوخ لحافظتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا للمهاجرين لسبقهم في الإسلام، ولا الأنصار لنصرهم الرسول صلى الله عليه وسلم وإيوائهم النبي والمهاجرين. وهذا قوله تعالى (بأولئك عن الأفعال) أي الثنائيم بمعنى حكمها. وإنما سميت الثنائيم ثنائيم لأنها من فضل الله وعطائه، والنقل في الأصل الزيادة (قل الأفعال لله والرسول) أي أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمر الله به.

وقد علمت أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم سوى بين المهاجرين في القسم وقد نزل بيان القصة بعد ذلك في قوله تعالى «واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه الآية» فذلك الآية تبيان لكيفية القسم فتكون هذه الآية محكمة كما قاله عبد الرحمن بن زيد.

ولما كان أمر الثنائيم أمرا دنيويا والأمور للآدية تنزل بالنوع الإنساني إلى دركات الأخلاق وشماتت الأعمال أخذ سبحانه يردعهم عن ذلك ويردّهم إلى الفضائل الحلقية لأن التمداد في اللأية يقطع الأرحام ويفرق الجماعات ويولد البغض فقال (فانضوا الله) في الاختلاف وللشجرة والتنايد والشقاق في حوز الثنائيم (وأصلحوا ذات بينكم) حقيقة وصلحكم أو أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة وعبية واتفاق، ولا تصلح أحوال الألفة إلا بالمساعدة واللواصاة وتسليم الأمور لله تعالى لا بالشاكية وللشجرة (وأطيعوا الله ورسوله) فيما أمرتم به في الثنائيم وغيرها (إن كنتم مؤمنين) كالمؤمنين.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «نزلت فينا معاشر أصحاب بدر اختلافنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فزرعه الله من أيدينا لخطه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء». وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر قتل أخى عمير وقتل به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبه منه فقال ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته وبني ملائمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سبلي فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأفعال فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتني السيف وليس لي وإياه قد صار لي فذهب غنمه» اهـ.

ومقتضى هذه الآية أن كمال الإيمان بطاعة الأوامر وانقاء العاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان ثم أخذ يبين صفات كمال الإيمان فوصفهم بخمس صفات. وهالك بيانها:

(١) أن توجه قلوبهم وتفزع قد كره استعظاما وتهبيا من جلاله. وهذا الخوف عند الصاة من العامة يكون من العقاب. وعند الخواص يكون من الهيبة والعظمة لأنهم يعلمون عظمة الله فيخافونه أشد خوف فالخوف على مقتضى المراتب. وفي آية أخرى «وتطمئن قلوبهم بذكر الله» والاطمئنان إنما يكون بالمعرفة للذكورة في الصفة الثانية، وهي:

(٢) أنهم إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانا. فمن كانت الدلائل عنده أكثر كان إيمانه أقوى فالعامة يكفهم دلائل الدين والقرآن. والخاصة يذكرون في ما سكوت السموات والأرض وهجائب النبات والحيوان والإنسان وهجائب هذا الوجود.

وعما يزيد الإيمان عند العائنين العبادات ومزاولة الأعمال الدينية. ومق كان للرء وجلا من خشية الله موقنا به لتتابع الآيات الكونية والقرآنية على قلبه بموكل عليه وفوض أمره إليه. وإليك بيان الوصف الثالث:

(٣) وهو التفويض لله، فلا يخشى إلا هو، ولا يرجو إلا ربه.

(٥٥٤) صفتان عمليتان، وهما إقامة الصلاة للفروضة بمحدودها وأركانها في أوقاتها. وإتقان الأموال فيما



أمرهم الله به من الاغواق فيه كالتزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الاغواق في أنواع البر . وهذا قوله تعالى ( إنما للذين آمنوا ) الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ( فزعت لذلك ) وإذا نزلت عليهم آياته ( أي القرآن ) زادتهم إيماناً ) زيادة للمؤمن به أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين : إما بالآيات القرآنية ، وإما بالأدلة الكونية التي يشير لها القرآن . وإما بالعمل بما تقتضيه الآيات ( وعلى ربهم يتوكلون ) ومن وثق بوعده الله ووعده كان من المتوكلين عليه لا على غيره ، وهي درجة عالية ومرتبعة شريفة . وهذه الصفات الثلاث وهي : [ الوجع ، وزيادة الإيمان ، والتوكل ] من أعمال القلوب ، وقوله ( الذين يقيمون الصلاة ) وما رزقاهم ينفقون ( أي الذي يحافظون عليها ويؤدونها كاملة تامة حاضرة قلوبهم وينفقون المال لمستحقه فلا تربط قلوبهم كما حصل للذين تشاجروا لأجل الغنيمة ، فهؤلاء وأمثالهم خير لهم ألا يحملوا المال مقصوداً لئانه بل هو وسيلة والوسيلة لأحبوب غير المحبوب ، والمحبوب هو الكمال والفضائل والوصول لله بما قدموا من أعمال مبرورة وأفعال مشكورة ، وقوله ( أولئك هم المؤمنون حقا ) أي لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الحشية والإيقان والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح من الصلاة والصدقة ، وحذا مصدر مؤكد ( لهم درجات عند ربهم ) مراتب بعضها أعلى من بعض . وتلك المراتب والدرجات هي مقتضى تلك الصفات ، فمن الناس من يعرف جمال الله في السموات والأرض ولكنه غير واثق به قلق القلب .

ومن العامة من هم متوكلون على الله واثقون به ولكنهم لا يعرفون جلال الله ، ومنهم المتوكلون للوقتون ولكن الأموال شغلت بهم وقلوبهم لا تحضر في الصلاة وإن حضرت كانت غير تامة الحضور . فهذه المراتب للتفاوتة تكون درجات الإنسان بعد الموت ويوم القيامة على مقدارها وهي إلى الزهد في الدنيا والولوع بالله وآياته أقرب ، فهؤلاء لهم درجات عند ربهم ( ومنفرة ) لما فرط منهم ( ورزق كريم ) أعد لهم في الجنة لا منتهى له .

### لطائف القسم الأول لسورة الأنفال

#### اللطيفة الأولى

اعلم أيها الذكي أن المسلمين اليوم قد نسوا حفظاً من هذا القرآن ، وإلا فكيف تحاذلوا وتناذبوا وتشاجروا فترى ملوك العرب في الجزيرة ورؤساء القبائل في بلاد العرب وبعض عظماء المصريين متقاطعين متدابرين متكالبين على الأموال والمظنة والرياسة جهالة ونذالة وقلة كمال .

أو مارأوا أهل أوروبا مع تباعد مذاهبهم الدينية . فهنا ( كأوليكي ) وهذا ( بروستاني ) ومع تباعد مطامعهم وتشعبها فإنهم يتقاتلون على دول وممالك ، أفلا ينظر رؤساء المسلمين إلى هؤلاء وهم يجلسون على النضدة ويتحاسبون ويصطحبون حقناً للدماء وحفظاً للجوارح وراحة للشعوب .

أما هؤلاء الأسماء الإسلامية فإنهم يتقاتلون على أمور صغيرة . أو ما قرءوا هذه الآية فاطلموا على فعل الله ورسوله وكيف زالت الآية عند التشاجر على الفنائم فقسمها صلى الله عليه وسلم بين المجاهدين بالسوية فكيف لا يفعل هؤلاء ماضيه نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف لا يقيمون الوزن بالقسط ولا يجلسون مجلساً يدلى فيه كل بحجته ؟ ومتى ظهر الحق أطاعوه واتبعوه ولن يفعلوا ذلك إلا إذا كانوا كاملين في الإيمان . فهؤلاء لا بالإسلام عملوا ولا بالعدل اصطلموا « إنها لاتسمى الأجر ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » وقد شغل قلوبهم عرض الدنيا فضت على قلوبهم غشا كثيف .

واعلم أن الدنيا لاتنقاد إلا لتفوس عالية وقلوب واعية بيدة النظر ، فإن للواد والأعراس تأج للاني فلا عمل إلا بعد فكر ، ولا نتائج إلا بعد تعقل . فهؤلاء الذين ملكوا للمالك لهم أراء أدتهم إلى ذلك ولم

مواهب وعقول وجيوش، فلا مادة إلا حيث يكون صدق وعدل وفكر وتكون للمادة على مقتضاه . وهذا بأحد أمرين : إما بدين يذكر للمرء صفات المؤمنين ، وهي هذه الحسة وغيرها . وإما بقول كما اتفق لكثير من ملوك الفرنجة ، فبعض أمراء الشرق المسلمين لم يناوؤا نصيبا من الحكمة ولا حظا من الدين فلذلك يتقاتلون على صفائر الأمور وعقورات الأشياء وهم ساهون لاهون . والفرنجة من حولهم على أذقانهم يضحكون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون . فهلا وجلت قلوبهم ؟ وهلا ذكروا ربهم ؟ وهلا نظروا نظرة في المال الذي تعادوا لأجله ضرفوا أن اتصافهم بحمائل الصفات يعطيهم ملكا أوسع ورزقا أشرف « والله هو الولي الحميد » اه .

#### اللطيفة الثانية

اعلم أيها الدكي أن التوكل على الله يستفيد فائدتين : [ الأولى ] ألا يحزن في الحال للمستقبل . [ الثانية ] أنه يجد التوفيق عند حصول مأموله في المستقبل . وليس يكون متوكلا حقا إلا إذا أتقن عمله إتقاناً تاماً وقام بشروطه على الوجه اللائق وفكر فيه وعمل ولم يتأخر وسما ولم يبق إلا أن تبعه عنه الآفات النادرة والأحوال العارضة ، فهذا هو التوكل حقا . فأما الكسالى الساهون اللاهون الذين لا يعملون وبدعون أنهم متوكلون فأولئك هم اللقرورون وهم كثير من عامة المسلمين اه .

#### اللطيفة الثالثة

تبين من هذه الآية أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح . ألا ترى أن الإيمان بالله وخشيته والاطلاع على محاببه والتوكل عليه مقدمات على الصلاة والزكاة ، وهذا من لطائف القرآن . إن أعمال القلب وتوافرها عند الناس تنيلهم خيري الدنيا والآخرة . ولقد أجمع العلماء أن أثر القلب في أحوال الإنسان أقرب إلى الثواب من أثر الجوارح ، ولولا النية وهي من أعمال القلب لكانت العبادات كلها باطلة وهكذا في أحوال الدنيا .

فانظر كيف أصبح الناس في هذا الزمان وفي غيره لاصح بينهم ولا اتحاد ولا التثام إلا بنظافة البواطن ولذلك ترى أم الإسلام المتخاذلة إنما حصل لها ذلك بالجهل السائد بمصالح الدنيا والآخرة . والجهل من صفات القلب . ومن أعظم الجهل أنهم أعرضوا عن محاببه هذه الدنيا وما فيها من البدائع واللطائف التي تزيد للمرء إيقانا بربه وهي التي جاءت في قوله « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » فهذه الدنيا كلها من آيات الله ومعرفتها عمل قاي ولا سبيل إلى استنثار ما فيها من معادن ونبات وحيوان إلا بعد العلم ، فهؤلاء الأمراء لما جهلوا آيات الله نقص إيمانهم . ولما نقص الإيمان انحصرت عقولهم فبا بين أيديهم من موارد ضئيلة فتقاتلوا وتحاسدوا وتعادوا وذلك لجهلهم بآيات الله وهي إحدى الحصائل القلبية الثلاثة . ولقد جعل الله صلح ذات البين وإطاعة الله ورسوله مطلقين على هذه الأمور القلبية ، فمن فقدتها فقد الطاعة والصلح ، ومن جمعها نال الصلح ، وهؤلاء السليون أعرضوا عن جمال الله في هذا العالم فلم يدرسوا محاببه هذه الدنيا وفرحوا بما عندهم من العلم الضئيل والمال الكثير « وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » فلا سبيل لرقبهم وصلحهم وطاعتهم لربهم إلا بما يأتي :

(١) أن ينتشر العلم بينهم بمحاببه هذه الدنيا ، وما علم أدب اللغة والتاريخ إلا مقدمة لذلك العلم الشريف .

(٢) أن تهذب النفوس حتى يحمى الناس ربهم ، وذلك بذكر الآيات والأحاديث الزاجرة والخوفية بطش المنتقم الجبار .

(٣) إقامة الصلوات وبذل المال . فهذه هي المهذبة للنفوس وأهمها تعميم العلوم العصرية .

حكم ظهرت في هذه الآيات

قد يظن القارىء أن هذا العنوان كبيره مما يجعل للتشويق أو للبالغة والإغراق . ولكن أقول إن المقام مقام علم وحكمة . وإذا كان صدق السكتب الدينية مرجعه العلم كان ذلك أثبت .  
ألا ترى إلى ما ذكره علاؤنا كالإمام الغزالي إذ يقول : [ إذا أردت أن تعرف صدق هذا الدين فاعمل ببعض ما فيه ثم انتظر النتيجة ] مثل قوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين » وكقوله صلى الله عليه وسلم « من استغفرت بغيره الله ومن استغفرت بغيره الله » فإنه جعل صدق النتائج للحديث أو للآية هو العيار لصدقهما .  
قد قدمت لك هذا لتتظن في تركيب هذه السور كما أشرت إليه سابقا . ولكن يجدر بي هنا أن أعطي المقام حقه وأبينه فأقول :

قد قلت سابقا : إن سورة الأعراف جاءت إنذارا للكافرين وذكرى للمؤمنين بنص الآية في أولها : وهاتان إذا قد اطلعت على هلاك الأمم السالفة مثل قوم نوح وعاد وعمود الخ وختمتها بثلاثة أشياء :

(١) أن يصفح الإنسان عن الجاهلين ولا يتبع خطوات الشيطان في العداوات .  
(٢) وأن يسمع القرآن وينصت له . (٣) وأن يذكر ربه في نفسه مع المراقبة .  
هذان هما اللذان جاءت بهما سورة الأعراف مضمون السورة كلها ونصائح في آخرها ؛ فانظر في سورة الأنفال والتوبة اللتين جاءتتا في أمر الغنيمة والحرب والنصر ، فهنا أمران :

(١) أمر مفاصد السورة العامة وهذا يطول الكلام على مناسبتها لهاتين السورتين .  
(٢) وأمر مناسبة آخر سورة الأعراف لأول سورة الأنفال ، فلا تنكلم عن ثأني الأمرين أو لآثم أئبهم بالأول الذي هو المقصود بالحكم فأقول :

الناسبة بين السورتين : أى بين آخر الأعراف وأول الأنفال ، أن آخر الأعراف كما اشتمل على الإعراض عن الجاهلين وترك العداوة والبغضاء وعلى الإنصات للقرآن وعلى ذكر الله ذكرًا بحضور القلب هكذا أول سورة الأنفال فيها الصلح بين للتخاصمين وهو راجع للأول وفيه قوله تعالى « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وقوله تعالى « وإذا نلت عليهم آياته زادتهم إيمانًا » وهما راجعان إلى الثاني والثالث .  
فهذا هو تمام الكلام على ثأني الأمرين وهو النسبة بين آخر الأعراف وأول الأنفال . أما الكلام على أولهما وهو منخص الأعراف ومنخص الأنفال والتوبة وهو المقصود من ذكر الحكم فأقول مفصلا بعد أن ذكرته مجملا في آخر سورة الأعراف :

اعلم أن هذا العلم لا يمكن معرفته إلا في زماننا الحاضر لأننا جئنا بعد ١٣ قرنا فشاهدنا بأعيننا وقرأنا في كتبنا وتاريخنا ما دلنا على حسن نظام هذا القرآن . إن سورة الأعراف فيها هلاك الأمم التي فسقت ، وبماذا فسقت ؟ فسقت بالتترف والتعيم والظلم وأكل أموال الناس بالباطل والتعالى على الناس الخ كل هذا مع الكفر هؤلاء هلكوا وقد أنذر الله الكفار به وذكر للمسلمين بما ذكرهم ، ذكرهم بأنكم أيها المسلمون يوما ما ستفتح لكم البلاد وستجوسون خلالها وستعمرون أرض ربكم ؛ فلتعلموا أيها المسلمون أني أنا الحكم ، أنا العدل . أنا لا أتقى في أرضي من لا ينفذ الناس ، إن الناس جميعا عبادي فسكل من ساعدتم أحببته . وكل من حافظ عليهم ساعدته . أنا أساعد الطيور في أعشاشها والأسود في آجامها والحشرات في محابثها . فكيف أترك الإنسان سهيلا بلا نظام ؟

فها أنتم أولاء أيها المسلمون قد ملكتم الأرض في العصور الأولى فصدقتم ثم بعد ذلك فسقتم . أما

وعدتكم بالنصر في سورة الأنفال وقسمت الغنائم بينكم وهي التي تأخذونها من عبادي ، وهكذا توالى النصر عليكم وذهبت البأساء والضراء وكانت الحرب سجالات كل ذلك في الأنفال والتوبة ، ثم كانت القلبة لكم مع علمكم بأن سورة الأعراف لم تزل ماثلة أمامكم تفرعونها بحيث إذا أخلتكم بنظام عبادي أهلكتكم وأذلتكم ولن تجدوا لسنق تبديلا .

سورة الأعراف منذرة ، وسورة الأنفال والتوبة مبشرتان بالنصر والفتنة . مضى العصر الأول بعد نبينا فماذا حصل ؟ تفرقت شيعا وذاق بعضكم بأس بعض وأصبحت الخلافة ترفا ونعيا وصار الملك للعلو والفساد ، ومن أراد العلو في الأرض أو الفساد أذنته وأهلكته ، فلما توالى الملك في العباسيين أجيالا واستناموا إلى عماليكهم سلطتهم عليهم فأخذوا يحبسونهم ويقتلونهم . وقال شاعرهم :

خليفة في قفس بين وصيف وبشا

يقول ما قال له كما تقول البيضا

فكيف تكون حال قوم خليفتم عبد لعبد من عبيدهم وبشا وصيف وبشا . وسبب ذلك أنكم تركتم الشورى التي سميت سورة باسمها ولا قائمة للإسلام إلا بها ، ولما تعاديتهم في الضلال أرسلت النار فأزالوا الدولة العباسية ، وهكذا في الأندلس استفحل ملككم ولما فسقتم واكتفيتم بالشعر والشعراء وتركتم مواهبكم وعقولكم ، سلطت عليكم الفرنجة فاحتلوا بلادكم .

ثم إن الأمة التركية أصابها ما أصاب العرب ، فهي في أولها حازمة وفي آخرها اضمحلت ملكها بسبب الترف والنعيم وجهل اللوك وفساد النظام والظلم ، وهذا ترك الشورى كما تقدمت التي هي أقرب إلى إصلاح ذات البين المذكور هنا .

أيها اللسبون ها أنتم أولاء ذقتم الأمرين وأصبحتن من أضعف الأمم ، لماذا هذا ؟ لأنى أنا الذي جعلتكم خلافت الأرض مريدا بذلك أن ترقوا النوع الإنساني وقد حصل فعلا ، ولما فشلتم وتنازعتن وتقاتلتم على الملك أذلتكم للفرنجية .

أندرون لماذا هذا كله ؟ لأن علماءكم وأدباءكم وحكامكم لم يريدوا أن يدرسوا لكم القرآن وسرته ولم يفهمواكم لماذا وضعت سورة الأعراف قبل الأنفال والتوبة ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم « إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ؟ » قد استخلفتكم في الأرض كما قلت في كتابي وكما قال نبينا ونظرت كيف تعملون ، فأرأيتم في الزمان الأخير لاصحابون لقيادة أهل الأرض فتجيتكم عن الملك وأقصيتكم عن الرياسة على عبادي . إن خليفتي لا بد أن يتخاقي بأخلاق ، ألم تدرسوا ماجاء في سورة هود بعد يونس ، ألم أقل لكم قها ؟ « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » فها أنا ذا استخلفتكم وأنا بصير بعمالك فتجيتكم عن السيادة في الأرض . إني أنا القائل « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » .

قدمت سورة الأعراف على سورتي : الغنائم والحرب والنصر وذكرتمك بعدها بعدم الطغيان ، فها أنتم إذن قد طغيتم وبغيتم فأقصيتكم عن قيادة خلق ، هذا هو الذي فهمته الآن من ترتيب هذه السور الأربعة : سورة للإنداز ، وسورتان للغنائم والحرب ، وسورة فيها الأمر بعدم الطغيان .

انظر لم يقل الله لنا لا تطغوا في سورة الأعراف وهي مكية ، بل آخرها بعد ذكر الغنائم والنصر في السورتين لأنه هنا يمكن الطغيان .

هذا هو السر في ذكر النهي عن الطغيان في سورة يونس لا في سورة الأعراف ؟ فانظر أيها الدكي كيف كان ترتيب السور مفيدا طال قد حققنا الحوادث وأظهرها الزمان .

وقد كنت في آخر سورة الأعراف ذكرت معنى حديث ذم الدنيا ، وها أنا ذا الآن أذكره بنصه :  
 عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال « جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله  
 فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرضاء ، وقال أين هذا السائل ؟ وكأنه  
 حمده فقال إنه لا يأتي الخير بالشر وإن مما يبت الرضيع ما يقتل جبطا أو يلم إلا آكلة الخضر فأنها أكلت حتى  
 امتدت خاصرناها فاستقبلت عين الشمس فثلعت وبات ثم ربت وإن هذا للمال خضر حلو ونعم صاحب  
 للسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ويكون  
 عليه شهيدا يوم القيامة » أخرجه الشيخان والنسائي . ويحسن أن نذكر تفسير بعض ألقاب هذا الحديث  
 الشريف فنقول ( زهرة الدنيا ) حسننا وهيجتها ( الرضاء ) العرق الكثير ( الجبط ) النفع : يقال جبط  
 بطنه إذا انتفع فهلك به ( يثلط<sup>(١)</sup> ) إذا ألقى رجيعة سهلا رقيقا ، وفي الحديث مثلان : أحدهما للفرط في جمع  
 الدنيا ، والآخر لتقصده في أخذها والانتفاع بها ، انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول .

دواء هذا الداء

على أنا وعليك أنت وعلى كل مطلع على هذا التفسير أن نجعل كل حياتنا وقفا على إرشاد الأمم الإسلامية  
 في قرانا وبلادنا وأمننا فنقول لهم : لنترجع مجد الإسلام ومجد أمنا السالفة وأن نسلك سبيلا أخرى غير ما يسلكها  
 التأخرون من المسلمين فلنتعمم التعليم ولنعلم الصغار كيف ينظرون في هذه الدنيا وإذا أسمناهم القرآن فلنتعلمهم  
 نماذج من الطبيعة جميلة حلوة سارة شارحة للصدور ، فلذا قرأ التلذذ « والشمس وضحاها » وسمنا له سورة  
 الشمس وذكرنا له منافها وجمالها وشرحنا صدره بالجمال والحكمة التي أبدىها الله فيها وأثرنا له سبل العلم  
 فيها كما ستره إن شاء الله في ( سورة الشمس ) عند تفسيرها هناك . وكيف كان الفحم والنبات والماء والرياح  
 كلها مسخرات بضوء الشمس وهي التي سخرها الله فيخرج الطالب من تلك الصور بلم وحكمة لاحفظ مجرد  
 ولا معان مدعجة لاثير في النفس إعجابا وتشويقا . هكذا فليكن القرآن ودرسه : أي أنه يكون مصحوبا  
 بحمال العلم حتى يشقه ويمشق النظر والبحث الطلاب من صفرهم ، فهذا يستوى صغار المسلمين على عرش  
 الحكمة في إبان صفرهم فيدرّبون على النظر والجمال فيشبون على البحث عاكفين وعلى الدراسة مجتدين .  
 وهذا أولا شكر الله والشكر واجب وجوبا عينيا ، وثانيا زيادة في التوحيد ، وثالثا زيادة في حب الله ،  
 ورابعا زيادة في عمق عقولهم للبحث فيما خباؤه الله في هذا العالم من النافع التي يكون استخراجها فرض كفاية  
 يقوم بها أمر العاش في هذه الدنيا .

هذا هو الذي قصر فيه المسلمون فناموا ، وهذا هو الذي سيكون العمل به بعد انتشار هذا التفسير  
 وستكون التمايم الإسلامية مخالفة كل المخالفة لما عليه التأخرون من قديم بل ويصبح في الإلزام جيل هو  
 خير الأجيال ويكونون رحمة للعالمين لأنهم ورثة من خصه الله بهذا الوصف الجليل ، انتهى .

الحكمة العامة في هذه الآيات

إن هنا مراتب ثلاثا : وجل عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان بزيادة الدلائل ، وتوكل على الله بحيث يفوق  
 أمره إليه ولا يرجو ولا يخاف غيره لعله أن العالم نظام تام وهو سبحانه وتعالى قد تكفل بالجليل والحقير  
 من خلقه . هذه أعمال القلوب ، وهناك عملان للجوارح ، وهما إقامة الصلاة وإتقان المال في الوجوه المطلوبة ؛  
 فمن انصف بهذه الصفات الحسنة فهو المؤمن حقا . قال الواحدى : من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان

(١) يثلط بوزن ينصر .

إيمانه أزيد ، لأنه عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفة الله أقوى فيزداد اليقين اتعنى ، والدلائل المذكورة صمعية وعقلية على حسب درجة الاستدلال ، ثم إن المؤمن يخاف الله لمصيابه أو لهيبه جلالة وتطمئن نفسه باليقين متى كثرت الدلائل ؛ فالإيمان إذن يشمل الأعمال العقلية والأعمال الجسمية ، ويؤيده حديث الشيخين ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطاة الأذى من الطريق والحياء شعبة من الإيمان » اهـ فالإيمان يزيد وينقص على مقتضى أعمال العبد .

قال عمر بن حبيب وكان له صحبة : إن للإيمان زيادة ونقصا ، قيل له لما زيادته ؟ قال إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته ، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه اهـ .

أقول : ولما كانت هذه الآيات بهذه المثابة بحيث تجمع جميع فروع الدين من العقلى والعملى وبها وبحديث الشيخين صار المؤمن حقا عزيز الوجود فإن انصف بوصف نقص آخر . أقول لما كانت كذلك أورتت خلافا بين المتقدمين الأجلاء من أئمة الإسلام . هل يقول المسلم أنا مؤمن حقا كما في هذه الآية ، أم عليه أن يجترس ، وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله لا يعمنون للمسلم أن يقول أنا مؤمن حقا ، وأصحاب الشافعى رضى الله عنه يقولون الأولى للمسلم أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله .

وسأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه ، فقال أمؤمن أنت ؟ فقال الحسن : إن كنت سألتني عن الإيمان بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن ، وإن سألتني عن قوله تعالى « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فلا أدري أنا منهم أم لا .

هذه جملة سالحة من مجامع أقوال ساداتنا وآبائنا المتقدمين ، فهل تحب أن ألقى إليك ما نتيجة هذه الأقوال للسليين في المستقبل ؟ أقول لك إن آباءنا السابقين قد أحضروا لنا الحجارة والآجر والجرس والزجاج والخشب والحديد وجميع ما يلزم لبناء البيت العظيم وهو الإيمان ، وقالوا لنا هذه تركناها لكم فابنوا مساكن الإيمان وأسسوه ، وها نحن أولاء قد مهدنا لكم الطرق وسهلنا لكم السبل فقلينا الأساس وعليكم البناء .

هذا ملخص ما ذكره في هذا المقام . اجتهد أبو حنيفة واجتهد الشافعى في هذه الآية ، وهذا الحسن وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين فاسمع ما وقر في نفسى مفصلا وموضحا .

اعلم أيها الحكيم أني مستول عن العلم وعن الأمة ، وأنت وجميع من قرءوا هذا الكتاب وأمثاله عن هذه الأمة مسئولون ، المسئولية مشتركة بين أهل العلم لافرق بين متقدم ومتأخر .

أقول : اعلم أن الإنسان في أول أمره يحول بخاطره أمور مجهولة عمومية وهو يحاول فهمها فلا يقدر حتى إذا كشف الحجاب كان ذلك اطمئنانا للنفس ، والاطمئنان هو سعادة الدنيا والآخرة ، يسمع الوعيد ويخاف ربه من ذنوبه ، فإذا أكثر الاستغفار والاعتبار والنظر فاستبصر عرف الحقائق فاطمأن قلبه ، وللأول إشارة بقوله « وجلت قلوبهم » وللثاني بقوله « زادتهم إيمانا » وقوله في سورة أخرى « ألا يذكر الله تطمئن القلوب » لانطمئن القلوب ولا يكون الإيمان حقا مستكلا جميع شرائطه إلا إذا قننا بما جاء في حديث الصحيحين في الإيمان وأتينا بشعب الإيمان كلها ، الله أكبر ، ما الإيمان الحق ؟ الإيمان الحق علم وعمل ، العلم له فروع والعمل له فروع ، فروع العلم كثيرة والعمل فروع كثيرة ، ذكر الله إجمالا لهذا كله في هذه السورة خمسة أمور ، ولكن حديث الشيخين جعله جميع فروع الحياة صغيرها وكبيرها ، جل العلم وجلت الحكمة ونصح العلماء وجد الأمة وصدق رسول الله الذى هو أفضل من الجميع وكيف لا يكون كذلك ، إنه جعل الإيمان أشبه بإنسان .

الإنسان له عقل يفكر وجوارح وحواس ، الإنسان لانتم إنسانيته إلا بجميع الحواس والعقل وسائر الأعضاء حتى الظفر والشعر ، هكذا الإيمان إن لم يستكمل هذا كله فإنه لا يكون حقا كما إذا لم يستكمل الإنسان جميع هذه القوى والقدر فانه لا يكون تام الأعمال .

إن النبوة أنارت للوضع وشرحته ولكن الأئمة تحمروا واختلفوا وكل له حجة ، الإنسان إذا قصر ظفرا أو أصبعا أو عينا أو أذنا فانه لانسب منه صفة الإنسانية ولكنه يكون غير متمكن من جميع مطالبه بل ينقصه بعضها مادام أنه من نوع الإنسان ، هكذا الإيمان لا يقال إنه قد ذهب من الإنسان إذا نقصت بعض الأعمال ، ولكن لا يكون مستوفيا جميع ما يكون به السكّال . ولكن هنا حكمة عجيبة وآية غريبة وبدائع مدهشة ، يقول الله « إنما المؤمنون أتدين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم الخ » لم يقل المؤمن بل قال للمؤمنون كأنه فتح لنا باب حل المشكلة التي حيرت الألباب بل فتح الباب على مصراعيه فعلا ، وها أنا ذا أدخل معك في ساحات العلم الواسعة وأشرب معك من رحيقها المختوم والشراب المتق اللذيذ للشاربين .

علم الله قبل أن يخلق الناس وقبل أن ينزل القرآن أن الحياة لا تكال لها إلا بالاجتماع ، والناس في اجتماعهم أشبه بإنسان واحد ، فكل واحد عليه عمل لا يناسب الآخر ، فإذا لم يقدر صاحب العلم على عمل ما قدر عليه صاحب العمل ، وترى النجار والحديد والزرّاج وصانع الكهرباء وسائق القطار وصانع السفن ومحرك الطائرات والمنطاد كل واحد قام بعمل لا يحسنه الآخر ، فاجتماع هؤلاء يكونون قد أكلوا الإيمان في الأئمة .

ثم إن علماءنا رحمهم الله هم الذين قالوا إن هذه فروض كفايات ؛ ففى قصرت الأئمة في أمر منها عذب المجموع في الدنيا بالقدرة وفي الآخرة بمعهم على التصير ؛ فالأئمة كلها متضامنة هنا في الدنيا والآخرة ، فأنا مكلف أن يكون في بلاد الإسلام كل صناعة وكل علم ، ومعنى ذلك أن أكون مساعدا بالفسر أو بالمال أو بما أستطيع فعله ، ومعنى قصرت كان إيماني نافعا على مقدار تصيرى في منفعة المجموع ؛ ففى استكمل في الأئمة أهبتها بما يطابق زمانها كان الناس في حال تشبه حال تمام الإيمان ، ولكل فرد من الأفراد قسطه من السكّال الذى يناسبه وبلائمه .

فإذا سمعت أصحاب الشافعى يحترسون من قول القائل : أنا مؤمن حقا ، وإذا سمعت الحنفية لا يجتمعون أن يقولوا : أنا مؤمن حقا ، وإذا سمعت الحسن يقول : أنا لأدرى حالى فيما عدا الإيمان بالله الخ . فاعلم أن ما ذكرناه لك واف بما قالوه كاف . إن الحسن يعلم أنه لا يقدر أن يقوم بجميع الأعمال فى حديث الصحيحين « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله الخ » وقد تقدم ذكره قريبا فى هذا المقام .

إذن الإيمان لا يذر زراعة ولا تجارة ولا صناعة ولا سياسة ولا طرقا تهجد ولا أنهرها تحفر إلا دخلت فيه ، فإذا كان الكناس والزبال ومصلى الطرقات للقطرات ورجال مصلحة المجرى التى فى القاهرة التى لا عمل لها إلا إخراج اللواد البرازية منها إلى جهة الجبل الأصفر بالحانكة .

إذا كان هؤلاء كلهم أعمالهم من الدين الإسلامى بنص نفس الحديث . فإذن الإيمان فى ديننا قد ابتلع جميع الفنون والصناعات . هذا هو الدين ، وهذا هو الذى أخاف الشافعى والحسن أن يقولوا نحن مؤمنون حقا . وعلى هذا يكون للمؤمنون فى هذا الزمان مقصرين حقا ولا يقولون إنا مؤمنون حقا لأننا قصرنا فى الأعمال العاتية التى نص بعض علماء الأصول أنها أفضل من فرض العين .

هذا هو الجواب الذى فتح الله به فى هذه المسألة وصار الإيمان حقا يرجع لشبوع النظام العام فى الأئمة ؛ ففى مقدار استتباب النظام وكمال العلوم والصناعات يقال إن هذه الأئمة إيمانها حق وكامل ، وعلى مقدار النقص يكون النقص والأفراد فى الأئمة متضامنون لم يخلق الإنسان وحده .

يذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث « إمطة الأذى » ومعنى ذلك المحافظة على راحة الجمهور ورفاهيته وهذا لا يتم بالأعمال الفردية البتة . إننا لم نقدر أن نخرج القاذورات من القاهرة إلا برجال متعلمين .

إذن علينا أن نجتمع شملنا لسائر مصالح الحياة ، فمضى كانت كنا مؤمنين حقا ويكون الفرد الواحد إيمانه على مقدار ما أثر في هذه الحياة الماتمة . هكذا يقول هنا « إنما المؤمنون » ولم يقل المؤمن مشيرا بذلك إلى الاجتماع العام كما في قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » بالنون لا بالهمزة مشيرا للجميع ، وإياك أن تظن أني أريد إيمانا خياليا للمجموع ! كلا بل أقول إن كمال المجموع في المصالح الدنيوية والأخروية يدعو لتكثير إيمان الأفراد وذلك بتعاونهم واتحادهم . فالمؤلف يبين القارى على إحداث الأعمال النافعة والقارى يماضه إخوانه فيحدثون أعمالا في نظام الأمة ، وهذه الأعمال ينتفع بها السكان وغيره من عباد الله .

ومن أهم أعمال الإيمان الصلح بين المتخاصمين عملا بقوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم » .

#### الصلح في بلاد الإسلام

يقول الله « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله » إن هذا من أهم شعب الإيمان ، ولذلك ذكرها هنا . فإذا كان الإيمان يدخل فيه إمطة الأذى من الطريق فما أحرى أن يدخل فيه ما ذكره الله هنا من الصلح بين المتخاصمين ، فإن إمطة الأذى من النفوس وإحياءها بالمودة والمحبة أفضل وأفضل وآلاف الآلاف من إزالة الأذى من الطريق .

إن الأمة للتفرقة للتباغضة لا ترفع منارا ولا تدفع عارا ولا توري نارا ولا تحفظ الحرث ولا النسل بل يقربها البلا ويجر عليها أذياله الردى وتنفس في العداوات وتفرق في بحر الضلالات ويحيط بها الأعداء ويستعمل الماء ويستعمل الدواء .

ولم يمرى ما قلل الإيمان ولا أضعف شوكة أهله إلا الجهل القاضح الذى غمر هذه الأم للسكينة إذ جعلوا بأسهم بينهم شديدا ، فهم في غمرة ساهون والجهل مرتع وخيم وأعشاش تبيض فيها وتفرخ نواصب الغربان ومنفردات الدمار .

أمر الله عز وجل بصلح ذات البين في هذه السورة ، ثم ذكر حقيقة الإيمان أو الإيمان الحق وحوار العلماء في وصفه وصرفت مقصود القرآن والسنة والأئمة أنه عبارة عن حقيقة جامعة لجميع أعمال الحياة الدنيا والآخرة ، فالإيمان أمر واحد ؛ كما أن الإنسانية عبارة عن الجسم والروح من حيث السكال ، فالجسم بلا روح ليس بإنسان ، والروح بلا جسم نسما جنا أو ملكا ، فإدما في الأرض فعلينا حفظ الأمرين [الجسم والروح] هكذا الإيمان ، وهذه الحقيقة الإيمانية التي شرحها النبي صلى الله عليه وسلم في معنى الإيمان هي ما شرحت لك الآن من النظام العام في الأمة . ولكن هذه الحقيقة لم يرد الأئمة رضوان الله عليهم أن يوضحوها مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أحاط بها في حديث الشيخين لأنهم رأوا أن السائلين لم يستعدوا لهمها . وهكذا الحسن رضى الله عنه ، فكل من هؤلاء الأعلام نحا نحوا في الإيمان يناسب زمانه وعصره . ولكن هذا هو الزمان الذى يلقي العلم فيه صريحا ولا يوجه إليه طمن ولا لوم ولا قدح .

إن نور النبوة يظهر في هذا الزمان حقا ، حقا هذا هو نور النبوة ظاهر ، نعم ظاهر في هذا التفسير ، ظاهر أشد الظهور أن المسلمين اليوم مساكين متعشون إلى العلم يريدون الهدى ، والله لقد جاء الهدى ووضح الحق وجاء النصر وهذه بشائر بنت اليوم هي بشائر العلم والهدى والنور البين .



هذا هو الزمان الذي يحق لنا أن نكشف النقاب عن تلك الأنوار المحجبة التي منع ظهورها للناس فيها مضي نوازع اللوك فألجوا العناء ؛ غططوا الناس على قدر عقولهم وما يسمع به زمانهم في حقيقة الإيمان ، فالإيمان حقيقته اليوم في هذا التفسير مشرفة مسفرة ضاحكة مستبشرة . وخصال الإيمان ترفع أعلام الدنيا والدين . وقد أوضحنا لك فيما تقدم أن أهم خصال الإيمان صلح ذات اليبين ولذلك خصصها الله بالذكر في هذا المقام .

#### الكلام على صلح ذات اليبين

قد ذكرت في المقام السابق مضار التفرق والشقاق ، وأزيد الآن إيضاحاً فأقول :  
إن المسلمين اليوم في قرايم وفي مدنهم وفي أمهم ابتلوا بأمرين : أولهما شرٌّ من ثانيهما ، وهما الجهل والشقاق . إن الشقاق يكون على مقدار الجهل . والعلم هو الذي يجمع القلوب . وأين العلم في الإسلام الآن فتش في القرى وفي المدن لا تجد إلا جهلاً فاضحاً وشقاقاً شديداً ، وربما يقوم النزاع بين بعض الأفراد على شيء لا يذكر وقد يؤدي إلى ما لاحمد عقباه .

#### القرى

لقد ولدت في بلاد (الشرقية) من البلاد المصرية وكنت أقرب حركات الناس في إبان صغري فكنت أراهم يحقرون كل صادق ويمقتون كل صريح العبارة ويمدونه رجلاً لا وزن له ، وعندهم الرجل العظيم هو الذي يخادع الناس ويخدعهم ويقول بلسانه ما ليس في قلبه .

#### المدن

ثم إنني وجدت أهل المدن الذين عاشرتهم عدّة من السنين لا يعيشون إلا بالهابة والباجلة . ولما قلت سعادة القلوب لعدم الإخلاص اخترع الناس سعادة لفظية . أما للمظماء فألقاب الفخامة كقولهم [سعادة الباشا] و[معالي الوزير] ويلقبون سلاطينهم وأمراءهم بأصحاب الجلالة أو أصحاب الدولة أو ما أشبه ذلك . كل هذا لكي يسمعوها باسم السعادة من جلساتهم وهذه قامت مقام ما كان الشعراء في الصور الأولى يقومون به من مدح اللوك والأمراء . كل هذا ليستعيب الإنسان عن اللذة والسعادة الحقيقية النفسية بالسعادة اللفظية . وليس معنى هذا أن كل من أطلق عليه لقب من هذه الألقاب لا يعمل له أو لا سعادة ؟ كلا . فكثير منهم يحسون في نفوسهم بسعادة عظيمة لما لهم من الأعمال ، ولكن للمقام مقام بحث وتنقيب فإن قلة الإخلاص وعدم السعادة النفسية حملت بعض الأمراء في الأزمان السالفة على اختراع هذه الألفاظ السمجبة ليستظل في ظلها الذي هو «من يحوم لبارد - ولا يقى من اللمب» بل هو له شرر يرمى به عليهم ويورثهم ذلًا ومهانة ويتحملون ذلك لأجل المظاهر الكاذبة ويسعدون سعادة لفظية أي يقال لأحدهم [سعادتك] . وإذا كانت هذه حال المدن فإن التقاطع والتدابير يحصل بين القلوب إذ لم يجتمع على فضيلة إلا قليل فلهذا كثر الشقاق والنفاق ، كل هذا لعدم الناقص أو للجهل اليبين .

#### الأم الإسلامية

اعلم أيها الدكي أن الأئمة من الفرد ، فأخلاق الفرد هي أخلاق الأمم ، فالذي رأيت في قريبي ورأيت في بعض المدن رأيت بين أم الإسلام قاطبة .

#### الأم الإسلامية وجمعية الأمم في أوروبا

انظر وعاك الله نحن أولاء في عصرنا الحاضر كيف نسمع أوروبا لها جمعية أم وإن لم تقم بواجبها بل ظهر أنها تريد ابتلاع الشرق وهضمه . وأهم بلاد الشرق بلاد الإسلام . فلماذا ترى أم الإسلام لا رابطة بينها

ولا قوة تحفظ توازنها ولو صورية بجمية الأمم الصورية ، فإن هذه الجمية وكذلك محكمة [لاهاي] ربا تأنيان بالمرض على طول الزمان وهم الآن يلجأون إليها عند الاصطدام ، فلماذا نرى المسلمين ليس بين دولهم مثل هذه الجماعات .

### الإصلاح العام

واعلم أن دواء هذا الداء في الأمم الإسلامية يجب له الشروط الآتية :

- (١) أن كل من يعنى له فـكـر يجب عليه أن يديه بإخلاص .
- (٢) يجب تعميم التعليم العقلي والديني ولكن بشرط التعقل والتفكير، فقد مضى زمن الحفظ بلا عقل وفي هذا التفسير بعض طرق التفكير مطوّلة .
- (٣) أن تلقى آيات الأخلاق واللواءظ للمسلمين بهيئة جذابة ولا يتكل الناس على المفسرين بل يطعمون نفوسهم بطابع السكّال فيؤثرون في السامعين .
- (٤) أن تلقى إلى الناس آيات العلوم التي تبلغ (٧٥٠) آية بشرط أن يكون إلقاءها بهيئة تمثّلهم في مخلوقات الله فيحبونه بحمّيل صنعه وبديع أفعاله كما ذكرنا في هذا التفسير غير مرة .
- (٥) أن يعتمد الناس عن التعالى في الألقاب، فكل أمة ارتقت أقلت عن هذه العادة العقيمة التي هي بالأطفال أولى منها بالرجال .

(٦) أن يتعلم الناس التعقل والإخلاص والاستقلال الفكري فكفي ما أضناه .

(٧) ويجب الاتجاه السكّلي لتعميم التعليم .

هذه هي التي تحدث في العقول انقلابا وفي الأمم رجلا وههنا ندر أن نقول : تؤلف جماعات في كل قرية وفي كل مدينة وفي كل أمة لإصلاح ذات البين . وإذن تقبل النفوس قول الصالحين . فأما الآن فحسبنا الله ونعم الوكيل .

### تخسر المؤلف على الأمم الإسلامية

فياليت شمري مق نسمع بالتعليم العام ( الاجباري ) في الإسلام . ومق نسمع انخادا بين الأمم الإسلامية كأنخاد الأمم الأوروبية ضدّ الشرقيين ، ومق نسمع شيوع العلم والصناعات بينهم ، ومق يكون لهم جمعية عامة للفصل في مشاكلهم للآديّة والأديّة ، بل مق يكون فيهم حكاه ناظرون وعداء مدققون وخلفاء في الأرض دارسون ينظرون في أمر الأمم الإسلامية كلها شرقها وغربها .

إن الله وضع للمسلمين في وسط الأرض بين الشرق الأقصى وأوروبا ، فحق يقومون بهيئة الوساطة بين الطائفتين ويكونون حكما عادلا بين الشرق والغرب . هذا هو للركز العام للأمم الإسلام . هذا ما سطرته ليله الجمعة (٣١) ديسمبر سنة ١٩٣٦ وسأبعه بمقالة كنت كتبها قبل ذلك في بلدة للرج توضع ما في آخر هذا المقال إيضا حاشا فاقول :

فـه كتابان : كتاب كتبه يده وهو عالم النبات والحيوان ونحوها . وكتاب أنزله كلاما نسمعه وهو الكتب السماوية ، والكتابان متطابقان .

### تفسير القرآن في الحقول والحشرات

هل لك أيها الذكي أن أحدثك حديثا عجيبا يطول شرحه ويحسن وضعه ؟ إن جمال الطبيعة وبهاءها ونورها وإشراقها وبدائنها شاخصات أمامنا ظاهرات بهجات ولكن أكثر الناس لا يعفون . يملون ظاهرا وهم عن التفكير معرضون . إن صلح ذات البين نتيجته الاتحاد وحسن النظام في الأمة بأسرها .

وفي سورة الحجرات خاطب الله الناس جميعا لأنهم عباده فقال «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» هانان الآيتان في القرآن صلح ذات البين بين المسلمين وتعارف بين جميع الناس . والمسلمون اليوم لم يقوموا بأولها ولم يسمعوا وصية ربنا في ثانيتهما «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا» .

فها أنا ذا أحدث المسلمين المعاصرين لنا والذين من بعدنا وأذكر لهم نظرتي في الحقول إذ توجهت إلى ناحية للرج من ضواحي القاهرة بمصر لأموور زراعية . خرجت وأنا كاره لأنى يرعبنى كل ما يقطع النظر العنقلى على فركبت القطار في الطريق للوصول من القاهرة إلى بلدة للرج ، فإذا حصل ؟ عاودنى الله عبادة الإكرام . ذلك أنه قابلنى بمض قراءة هذا التفسير وهو مفتش من مفتشى الزراعة ، وقد توجه للرج ليشرف على أعمال فرقته من العمال التى تتمثل الحشرة الفانكة بالأشجار السامة (بق المهبسكس الدقيق) فقلت له صف لى هذه الحشرة . فقال إن (بق المهبسكس الدقيق) من الفصيلة النصفية الجناح وهى ذكور وإناث ، والذكر أصغر حجما من الأنثى :

(١) وطوله من مليمتر تقريبا إلى مليمتر ونصف . (٢) له أجنحة .

(٣) عدد أفراده أقل من عدد أفراد الإناث .

(٤) الأثى لونها قرنفلى فأع يضاوية الشكل تعلو جسمها طبقة شمعية .

(٥) طولها من مليمترين إلى ٣٥ مليمتر .

(٦) تضع الأثى بيضا من ١٥٠ بيضة إلى ٣٠٠ بيضة ، والبيضة لاترى إلا بالمنظار المعظم .

(٧) يكون البيض فى كيس يسمى يسدى كيس البيض وبعد (٦ إلى ٩) أيام يفقس حسب حالة الجوى ونخرج صفاره نشطة جدًا شكلها كشكل الحشرة الكاملة . وتتكون هذه الصفار فى أول أمرها ذات أرجل ثم تغير جلدها أكثر من مرة فتترك الأرجل معها . وهكذا الزوائد التى تحس بها وتتكتفى بأن تضع خرطومها فى النقط المهمة فى الأغصان وتتعلق بها وتمتنص العصارات ولا تزال تلك الصفار تغذى أربعة أسابيع ثم تستعد للحمل كأمهاتها ، وهذه لاحتياج إلى الذكور فبعضها يلقحها ذكورها وبعضها يتكون البيض فيها ولا يحتاج إلى ذكر ، وهذا من العجب فقد أطلعتنى ذلك الفتنش على الكتاب المطبوع فوجدته كما قال ، وقال إن الذكور أكثرها يموت .

(٨) إن هذه الحشرة تفرز مادة كالدقيق على جسمها وقد رأيتها أنا بعينى رأسى ، وهذه المادة تقيها المؤثرات الجوية ، وهذه الحشرة تنام فى أوائل أكتوبر إلى حوالى نصف مارس وبعد ذلك تستيقظ . فسألته فى أى تاريخ جاءت هذه الحشرة إلى مصر ؟ فقال من سنة ١٩١٢ ميلادية أحضرها رجل إنجليزى اسمه للستر (براون) من الخارج ، قلت وكيف ذلك ؟ قال أحضر نباتا من بلاد أوروبا يسمى (المهبسكس) فسميت باسمه ، وقد كان مصابا بهذه الحشرة فأخذت تنتشر من هذا النبات الذى زرعه ببلادنا لازينة فقط إلى أشجارنا من التوت والنبق واللبخ والخروب والقطن والبايبا والتيل ، وانتشر فى القاهرة وضواحيها والجزيرة وبنى سويف والفيوم وسوهاج ومركز جرجا والإسماعيلية والسويس . كل هذا حصل بسبب ذلك النبات الذى أتى به للستر (براون) الإنجليزى . فقلت وكيف تكون العدوى ؟ فقال تكون بالماء وبالهواء وبالحيوانات . وذلك أن الهواء يمر بالشجر فيحمل معه تلك الحشرات إلى شجر آخر سليم وهكذا للماء والإنسان والحيوان . فالماء تعلق به تلك الحشرة وكذلك يد الإنسان وثوبه وهكذا الحيوانات يعلق بها إذا لامست هذا الشجر . ثم إن هذه الحشرات لا تمتص إلا فى النقطة التى فيها نوى الشجر ، ومتى امتصت

الصلاة رأيت الورق يجانبها يتقلص ويتجمد ، وهكذا التصن كله ثم الشجرة وهكذا الشجرات حولها ، ثم أخذني للفتش وأراني العمال يرشون الشجر والورق والأغصان بالماء الذي فيه (بتروول ثقيل) أي لم يصف ، وهذا البتروول مستخرج من البلاد المصرية بقرب السويس ومع هذا أيضا طين من طين (قنا) والأجزاء هي واحد من البتروول و٢ من الطين و١٢ من الماء ، ومتى رشوا الماء على الورق غمر الحشرة فسدت اللسامة بالطين والبتروول فأت الحيوان .

هذا ملخص العمل الذي يقوم به للفتش وعمله ، وقد كان معي صديق لي من أهل العلم فقال ما فائدة هذا الكلام ؟ قلت فيه تفسير آيات كثيرة والآية التي نحن بصدها . قال هذا شيء بعيد للرعى فأوضحه . قلت ألت ترى أن هذه الحشرة في أكثر أحوالها أتناها لا تحتاج للذكر بل يكون بيضا الذي قد يصل إلى (٣٠٠) بيضة بلا ذكر . قال بلى . قلت أفلم ترى أن الله قد أعطى هذه الحشرة وقاية من الحر والبرد وعوارض الجو بما تفرزه على ظاهرها عما هو كالدقيق . قال بلى . قلت أفلم ترى أن الأرجل إذا جاء وقت الاستغناء عنها خلعتها الحيوان وعاش بلا أرجل كما ذكرناه قال بلى . قلت أفلم ترى أن العدوى تنتشر من هذا الحيوان كما تنتشر عوامل الإلحاق في النبات ، فكما كان الإلحاق في النبات بالرياح وبالحيوان وبغيرها كما ستراه في سورة الحجر مفصلا . هكذا هنا ترى الإلحاق في الهلاك والتدمير يشبه الإلحاق في الإصلاح هناك . قال بلى . قلت ألت ترى أن الإنسان يحارب هذه الحشرة ومع ذلك تنتشر بسرعة هائلة ؟ قال بلى . قلت إن نظر الإنسان للعلوم على قسمين : نظر يؤدي إلى النافع للآدية ، ونظر يؤدي إلى مافوق للآدية . أما النظر إلى النافع المادية فإن الطبيب والمهندس وعالم الزراعة كل يبحث عن المنفعة المادية التي هو بصدها . وليس يرتفع نظره إلى ما هو أعلى كهؤلاء الذين يقتلون هذه الحشرة في الحدائق المصرية فليس لهم مطلب وراءها . فأما النظر لما هو أعلى من ذلك فهو نظر يرتقي إلى عالم أعلى من عالمنا . فهنا يرى الإنسان أن الله تعالى هدى هذه الحشرة وحفظها ونحن نحاربها وهذا قوله تعالى « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » وقوله « سبح اسم ربك الأعلى » الذي خلق فسوى « والذي قدر فهدى » فأله أعلى ، وإذا كان أعلى فيستوى لديه جميع خلقه في النظام .

رأى للصاحبة توجب أن تكثر الحشرات للفقحة للأشجار والحشرات القاتلة لها فأكثر منها وجعل الإنسان سعيدا بالأولى شقيا بالثانية وهذا قوله تعالى « ونبؤكم بالشر والخير فتنة » .

علم الله أن هذه الحشرة سيحاربها الإنسان بكل الوسائل فأمدتها بالقدرة الكبيرة وجعل الأنثى لا تحتاج إلى ذكر « فبارك الله أحسن البراقين » وهذا قوله « وكل شيء عنده بمقدار » وقوله « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

قل هذا حسن ولكن لم نصل للمقصود هنا . قلت فلننظر إلى الذكور والإناث من هذا النوع . أليس هذا الحيوان قامت فيه الأنثى مقام الذكر والأنثى ؟ وهذه أشبه بنوع من النبات يشتمل على الذكر والأنثى معا ويسمونه خنثى كالدانورة والبنج كما تقدم في سورة الأنعام . قال ثم ماذا ؟ قلت فأعاهد الله كورة بالأنوثة ظاهر في هذه الحشرات من الحيوان وفي بعض النبات وقد ظهر الخنثى في نوع الإنسان ، فهذا معناه أن الطبيعة تنطق قائلة [ إن الذكران والإناث في كل شيء متحدة بحسب أصلها ] ولذلك نجد النوعين يتجاذبان على تباعد الديار وجميع أحوال هذا الإنسان كأحوال الذكور والإناث : أي إنهم متحدون متضامنون مشتبكة مصالحهم فكما ترى الذكور والإناث ظهر أعمادهما في الطبيعة ونوادرها ؛ هكذا تراهم متحدين غاية ونتيجة ومقصدا . فذلك يتعارفون ، هكذا سائر شؤون الحياة . فأهل الشرق وأهل الغرب جميعا يحتاج بعضهم

إلى بعض . قال ثم ماذا ؟ زدني إيضاحا . قلت إن اتحاد الذكر والأنثى في أدنى النبات وأدنى الحيوان وشواذ الإنسان رمز إلى اتفاهما مقاصد وغايات تجمعهما ، واتحاد كورة والأنوثة للذكور تان لافرق بينهما وبين سائر أعمال الحياة . فأهل الشرق والغرب يحتاج بعضهم إلى بعض .

ألا ترى أن الحشرة المذكورة وهي ( بق الهبسكس ) قد انتقل مع الشجرة من الأفطار البعيدة ونقل العدوى إلى الفطر للصرى في أشجاره ؟ قال وما فائدة هذا ؟ قلت : فائدته أن كل مصيبة نحل بأتمة تضر بغيرها على هذه الأرض . فالطاعون والجدري والحمل وأنواع كثيرة من الأمراض تأخذها الأم بعضها عن بعض ، ولذلك ترى لكل أمة على حدودها مكانا تنتجن فيه القاديين لينظروا أفهم مرض معد أم لا ؟ وهكذا . وإذا حصل قحط في أمة أثر في غيرها من الأمم .

ولقد كان للمروب الأهلية في بلاد الصين في هذه الأيام ، ولاعتصاب عمال مناجم الفحم في بلاد الإنجليز أثر سيء في رخص أسعار القطن الصرى وساعده على ذلك كثرة القطن الأمريكى ، فانظر كيف صار الناس على الأرض متضامين وهم يجهلون أنهم متضامنون ، متصلين وهم يجهلون أنهم متصلون ، بينهم علاقة كبيرة في السراء والضراء ، وهم يجهلون ، معهم السلك الكهربائى وأحاط بهم من كل جانب نظام برىدى وآخر جوى ، واتصل الشرق بالغرب وحلقت الطيارات التى صنعها الإنسان فى الجوق . وفى هذه الأيام ( فبراير ١٩٢٧ ) صنع الألمان طيارة تحمل جميع ما يلزمها مدة بحيث تطير حول الكرة كلها وترجع إلى مكائها من غير احتياج إلى ذخيرة أخرى .

أليس هذا بعض قوله تعالى ؟ « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » هذا هو بعض التعارف قد ابتدأ ، فقال يا سبحان الله ! قد كان أول الكلام لا يشعر الإنسان فيه بأن له مناسبة لهذه الآية حين ذكرتها . لم ندر أى مناسبة بين نبات ( الهبسكس ) وبين هذه الآية ! فظهر أن الكورة والأنوثة فى العالم الإنسانى والنباتى والحيوانى قد اتحدتا فى بعض أفرادها ، وكان ذلك فى الإنسان رمزا إلى توثيق الروابط فى سائر مصالحه .

فلأول الرمز بقوله « خلقناكم من ذكر وأنثى » وللتانى الرمز بقوله « لتعارفوا » فقلت إذن هذه الآية وردت لحطاب العقل الإنسانى العام ، ومعنى هذا أن السليين يحسن لهم أن يقوم فيهم حكما وفلاسفة ويدرسوا نظام الوجود ويعرفوه كالذى ذكرته فى كتابى [ ابن الإنسان ] الذى عرفه أهل أوروبا أنه خطاب للأمم كلها وبييتوا للأمم أن العقل يبين أن الناس متحدون أصلا وغاية وأنه يجب أن يكون هناك نظام عام يمنع الضرر والضرار من أى نوع . ويسمون هذا النظام [ التعارف ] قال لى ولكن السليين الآن ليسوا قادرين على ذلك ، قلت نعم ، والسبيل إلى ذلك أنت يقوم فيهم مفكرون ويعمموا التعليم فى الأمم الإسلامية ويعملوا لهم نظاما يسمى : [ إصلاح ذات البين ] وهو المذكور فى هذه الآية « وأصلحوا ذات بينكم » .

فههنا درجتان فى الإصلاح : درجة إصلاح ذات البين بين السليين ، والدرجة الأخرى درجة التعارف العام بين أمم الأرض كافة ، قال وما السبيل إلى ذلك ؟ قلت السبيل إليه هو ما ذكرته فى هذا التفسير وما يذكره غربى من علماء الأمم الإسلامية فى أقطار الأرض .

أقول : فليقم كل مفكر فى الإسلام بفهم اللهم من هذه الآراء فى الإسلام وليعمم التعليم لأنه لاجياة ولا سعادة للأمم إلا بالعلم ، وقيل فى المعنى :

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

وهناك يظهر المصلحون الذين يصلحون ذات البين بين أمم الإسلام حتى يكونوا على الأقل أشبه بالممالك المتحدة بأمريكا التي ليست عندها هاتان الآيتان أو كأمم الألمان الذين لا يقرّون هذه الآيات ، اللهم إنك أنت الذي زرعت النبات وخلقت الحيوان ونظمت الإنسان وأعطيت كل شيء خلقه وهديته وجعلت الذكورة والأنوثة في الإنسان رمزا إلى اتحاده أصلا وغاية وألهمت أنما أن تعمل لهذه الغاية بالبريد الجوي والأرضى والطرق البرية والبحرية وأمت المسلمين قرونا وقرونا وقرونا ثم أنت الذي جعلت أمثال هذا التفسير في الأمم الإسلامية ، والآراء التي تصدر من كبار الأمة في عصرنا موقظات لشعوب الإسلام أن يدرسوا نظام الوجود وبعموموا التعليم كما قدّمنا وبيّنتوا يصلح ذات البين بين المسلمين .

ومتى تمارفت هذه الأمم كانت سببا في التعارف العام أو على الأقل قبلت هذا من المصلحين في جميع الأمم فأصلاح ذات البين للذكور في هذه الآية يتقدّمه دروس العالم .

فإذا كنا نرى أننا قد طلبنا من التعارف العام بآية الحجرات ونداء الله للناس جميعهم ، فبالأولى علينا صلح ذات البين بيننا الذي هو في هذه الآية ، فانظر كيف كان التعارف العام لسائر الناس والصلح الخاص بين الأمم الإسلامية .

ولا جرم أن الصلح والمودة أخص من التعارف العام ، وهذا عجيب إذ وضع في كل آية ما يناسبها ؛ فالتعارف للعموم وللصالحة للخصوص : أي لخصوص الأمم الإسلامية ، اللهم إن المسلمين لم يعملوا اليوم لأخص الأميين فضلا عن أعمهما ولن يوقفهم إلا أن يتذكر عقلاؤهم في أمثال ما نسكتبه في هذا التفسير ، اللهم إنك أنت الذي حكمت على الإنسان أن يحتاج إلى الطيور في أوكارها لتنتج له الحشرات الآكلات لزرعه كأبي فردان والفراب وغيرها مما مر ذكره في سورة المائدة في مقدمتها ، وهكذا العنكبوت الآتي في سورته إذ يأكل الحشرات أيضا ليقي زرعنا سلبا ، فسكانك جعلت هذه المخلوقات الحية كأمرة واحدة وقلت في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ » فجعلتها أمما أمثالنا ثم أبنت في العلوم في الشرق والغرب أننا نلزمون بالمحافظة عليها لتساعدنا في بقاء نباتنا ؛ فالطيور مساعدا وذوات الأربع من البهائم والأنعام مساعدا ، فهذه أمم أمثالنا فلنحافظ عليها لأجل حياتنا ومعاشنا .

وإذا كان هذا شأننا مع الحيوان الأعمى فما نحن أولاء مع الإنسان العام علينا أن نسعى للتعارف معه كما نتعرف بالحيوان ونُدْرسه ، ثم ههنا في هذه السورة أتيت لنا بأخص من ذلك وهو صلح ذات البين بيننا .

اللهم إن الأمم الإسلامية اليوم في قصور معيب وتقصير عجيب ، فلا بينهم اتفقوا ولا مع الأمم تمارفوا ولا للأمم الحيوانية درسوا ، ثلاث درجات جهلها : درجة الحيوانية والإسلامية والإنسانية المذكورات في الأنعام والأفان والحجرات على هذا الترتيب .

وأخص هذه الدرجات ما نحن بسدده الآن في هذه السورة ، وهذا هو تفسير آياتنا التي نحن بسددها وهي « وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله » وهذه أول الدرجات اعتقادا وعملا ويلبها التعارف العام للذكور في الحجرات ويلبها دراسة الأمم الحيوانية على اختلاف أنواعها ، هذا هو الذي يجب على المسلمين فليدرس ولينظر .

[ مافوق المائدة ]

تذييل لهذا المقام

قال صاحبي : لقد قلت إن هناك نظرا يؤدي إلى مافوق الأمور المادية ، فما معنى هذا وهل الإنسان يرفع عن المادة في هذه الأرض ؟ قلت اعلم أننا نحس في نفوسنا في هذه الحياة بنزعة شريفة إلى حال عالية

وذلك كما في هذا المقام يتعالى الإنسان عن ملابسات الأجسام إلى أقصى مرام ؛ فغيرنى رعاك الله ألم أين لك أن كل عالم يعلم قد حصر عقله فيه ؛ فعالم الهندسة يبحث عن الأشكال ونتائجها ، وهكذا علماء الزراعة لا يدرسون إلا ما يخص مامهم فيه كهؤلاء الذين يقتلون الحشرات ، إن هؤلاء لا يستلذون اللذة التي يجدها صاحب العلم العام .

إن الإنسان على الأرض مغلوب على أمره خاضع لهذا الجسم يسمى لنموه وحفظه فشفه ذلك عن انظر العام والتفكير في بديع صنع الله ، وهذا التفكير هو لب الدين الإسلامي ، قال تعالى « الذين يذكرون الله فيما وقعدوا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » .

وقد اصطفى الله أناسا وهم الأنبياء والحكماء فلم يزع إلى النظام العام ، فاذا نظروا في أمثال هذه الحشرات وفي سعادة الأمم وشقاوتها وفي نظام السموات والأرض وفي الحياة والموت وفي القحط والجذب والحصب كانوا عند ذلك النظر كالمجردين عن هذه اللذات . اللهم إن عقولنا التي غمست في أجسامنا قد حبست عن عالمها الجميل .

إن هنا نظاما أدركناه وهذا النظام استوى فيه ما يؤاننا وما يسرنا ، فإن حشرات المهلاك وحشرات الحياة قد ساعدهما الله وحفظهما ورزقهما .

إذن نظام هذا الوجود الذي نعيش فيه تكافؤ الخير والشر والصر والدمع ، ولذلك نجد عندنا موتا وحياة ، امرأة تلد وملك يقبض الأرواح ، فههنا تعاون بين الحياة والموت والخير والشر ونحن بذلك نمتحنون . لو كانت العاطفة الإنسانية كاملة لاستوى عندها الموت والحياة والخير والشر ، إن نظام الوجود ساوى بين الأمرين ونظام الوجود محكم .

إن العقل الإنساني متى قرأ الحكمة عرف أن هذا النظام جميل وأن الموت والحياة والخير والشر ضروريان لنظام هذا الوجود ، ومع هذه الحكمة التي يعرفها تراه يحزن ويفرح وهذا نقص مشين مزربنا دال على نقصنا في هذا الوجود واملنا في عالم بعد هذا يتساوى عندنا الخير والشر فتسكون عواطفنا سائرة على نظام عقولنا .

اللهم إن العواطف لا تكون كاملة إلا إذا كانت جارية على نسق نظامك العالى ونحن اليوم على الأرض أطفال في أحوالنا ونحن سائررون إلى هذه الغاية حتى نوازي عواطفنا نظامك ونسكون « على سرر متقابلين » لآهم ولا حزن ونسكون راضين رضاه تاما بنظام هذا الوجود الذي هو على أتم نظام .

إن الإنسانية الجاهلة اليوم سترتقي إما في الأجيال الآتية وإما في عالم الأرواح ، ولا سبيل لسعادة الإنسان إلا بالأعداد العام والوثام التام بين الأرواح بحيث يكونون في العالم الروحي متحدبين متحابين وتزول الفوارق بينهم ؛ فليكن للمسلمون اليوم مبتدئين صلح ذات البين بينهم ثم يتبعون ذلك بالتمارف العام بقدر الإمكان حتى يعم الإصلاح ويوم القيامة يوضع الناس في مراتبهم وأحوالهم : إما في نعيم ، وإما في جحيم .

إن صلح ذات البين والتعارف العام للأمم من الأنوار التي يقذفها الله في قلوب الخواص من عباده لتهدى الأمم ويستتبر الوجود .

قال صاحبى اضرب لى مثلا لهذه الصفة العالية . قلت : إن مثلها كمثل الطبيب فإنه أفضل وأرحم للمريض يقطع عضوه وهو رحيم ، فليس يكون المريض منتفعا بالطبيب حق الانتفاع إلا إذا أدرك المرض من عمله ؛ فالطبيب برحمته لا يبالي بالآلام التي تعترى المريض من جراء تعاطى الدواء ، هكذا الله تعالى والعوالم التي تتولى نظام هذه الدنيا يريدون الإصلاح العام ولا يبالون بحمرة تأكل الزرع وطاعون عام وأمراض فائسكة لأهم يدبرون التدبير العام ؛ فالأرض كلها أشبه بإنسان واحد ، فموت أمة وحياة أخرى وسعادة أمة وشقاوة

أخرى أشبه بما يبتلى الإنسان من حلق شعره وتقليم أظفاره تارة وتطويلها أخرى ومرض عضو وصحة آخر ، فنظر العالم الأعلى الذي يتلقى الأمر عن الله هو هذا النظر ، فقال من أين أتى لك هذا القول ؟ فقلت أنا لم أفكر أحدا وإنما هذه خواطر هجمت على النفس وغوسنا لها اتصال بموالم أخرى ، فأنا أحسن الآن بأن هذا المعنى حق وأن هناك عوالم أرق منا نظرها للأرض ، هذا هو النظر لأنى أنا وأنا فى هذه الأرض أجد فى نفسى سرورا ولذة وانسراحا عند إدراك نظام هذه الحشرات الفاتكة بأشجارنا المهلكة لزرعنا ، فلماذا هذه اللذة وكيف أدركتها نفسى كما أدركت وسرت بنظام الحشرات اللاتى تكون سببا فى إلقاح النبات ، فإذا كانت نفسى على هذا النمط : أى تسرى بحسن النظام سواء أكان لشهوتها أو لضدها فهذا دليل أن هناك عوالم هذا دأبها . تشرف على عمانا ونجمه أماما كأنه مدرسة أو حيوان لاتفعل فيه إلا للصحة العامة .

إن سرورنا بالنظام العام وابتهاجا به سمادة وهبهجة وجمال ، فقال : وهل السرور بذلك واللذة تكون لكثير من أهل العلم ، وهل هذه دائمة ؟ قلت كلا إن نفوس الحكماء تشعر بها فى أوقات قليلة ثم تغلب عليهم العوالم الأرضية فيحزنون ويفرحون كبقية الناس وإنما يتسلون بالحكمة تارة وبالرضا أخرى ، فأما عدم الإحساس بالألم فهذا غير معقول ، اللهم إذا ذهل الإنسان ذهولا عاليا أو دينا أشبه بذهول النجوم ( بالفتح ) للمناطيسى .

وقد شرح هذا الإمام الغزالي فى الإحياء فقرأه هناك فى [ باب الحب ] ويشير إلى هذه المرتبة قوله تعالى « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فمن أيقن أن الله هو الذى أعطاه ومنعه فإن ذلك يخفف الألم ، ومع اللداومة والصبر يصير الألم كالمعوم . قال صاحبى : مالمخص هذا الموضوع كله ؟ فقلت نحن فى تفسير « وأصلحوا ذات بينكم » فدرستنا حشرة ( المبيكس ) وهى تؤذى الأشجار وتمدى أشجار الأمم الشرقية بعد الغربية وقد حفظها الله لهذه القابة ، وذلك بوجوب تعاون الأمم جميعا لاشرائهم فى الضراء ، وأتى هذه الحشرة لاحتجاج لذكر وكذلك بعض النبات فيه المذكورة والأنونة معا وهكذا الخنائى من بنى آدم ، فالذكران والإناث فى الأمم متحدون أصلا وغاية ، والله يقول « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فما فرقهم إلا ليجمعهم ، فترقى الشعوب والقبائل . وهاهو ذا الآن يجمعهم كما فرق الذكر والأنثى وجمعهم ، وهذا الآن واجب على حكماء أمة الإسلام ، وأخص من ذلك صلح ذات بينهم .

ثم إن هذا النظر شريف وعال وحكيم ، إذ يجعل الإنسان منزلة ملكية عالية لأنه ينظر للعوالم ينظر الحكيم والملك ويحبه الله ويحب الله تعالى ، لأن الحب على قدر العلم والتفكير والبصر ، قال إن الحشرة المذكورة تفرز مادة على نفسها لتحفظها من الجو . فقلت فأدتها عظيمة جدا ، إنها تعطينا درسا أن جسم هذه الحشرة قد اكتفى بنفسه ففرز منه نفس اللادة التى تحفظه من الجو بجلود الأنعام وأشعارها وأوبارها فهى كلها تفيج أجسامها .

هكذا الإنسان له نفس معذبة بالأطوار والأحوال والجهل ، فبماذا يكسوها فيحفظها من الهوان ؟ لاسبيل إلى ذلك إلا بأن تفرز النفس مادة تحفظها ولا إفراز لها إلا العلم والعمل ، فكل عمل وكل علم يرجع إلى النفس فيعطىها قوّة .

ولا جرم أن النظر العام الحكيم الذى نحن فيه الآن هو السند الأقوى والمقام الأعلى ، وكما زاد الإنسان اتساعا فى النظر والحكمة اشتدت قوّة الروحية ونزعاته الفكرية وأمباله الملكية وإذن يصلح ذلك البين ويكون سببا فى تعارف الأمم فى الأقطار .



## تذكرة

سترى أيها الدكي إن شاء الله في سورة الحجرات عند قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » كيف كان خلق الذكر والأنثى في العالم الإنساني متساويين تقريبا وكيف كانت عقول الناس واستعدادهم موزعات على الأفراد بحسب الحاجة العامة للنظام للطلوب وكيف كان ذلك موجبا تعاون الأمم عموما ، وكيف كان اختلاف استعداد الأرض واختلاف استعداد العقول يوجبان ذلك ، وهكذا من المباحث التي وضعها في كتابي [ ابن الإنسان ] ولخصه العلامة سنقيلانة الفيلسوف الطلياني في مجلة العلوم الشرقية ، وهكذا ذكره الأستاذ البارون ( كراديفو ) في كتابه [ مفكري الإسلام ] وسترى ذلك التلخيص هناك وما بعده وما كنت لأعلم أن ذلك الكتاب كله داخل في معنى تلك الآية .

( تبصرة في كتاب [ ابن الإنسان ] الآتي في سورة الحجرات ومناسبتة لما هنا

وبيان أنه ملخص الآية هناك ، وكيف كانت سورة الحجرات فيها الأمران ما :

الصلح بين المسلمين ، والتعارف بين جميع الأمم )

اعلم أيها الدكي أني أول ما خطر لي تأليف كتاب [ ابن الإنسان ] كنت أفكر في تعداد الذكور والإناث على سطح الكرة الأرضية فوجدت أن هذا العدد متقارب في كل بلدة وقرية ومدينة وأمة وشرق وغرب فأخذني العجب كل مأخذ وقلت في نفسي كيف يتساويان ولم كانا على قدر الحاجة ، أليس ذلك بناية خاصة ؟ وعسى أن تكون جميع الصناعات والعلوم قد جعلت لها استعدادات في الفطرة كما ظهر ذلك في الذكورة والأنوثة ، بحث هذا الموضوع بحثا كثيرا ، ورأيت أن الأذكيا يقلون وأصحاب الأجسام العملية يكثرون على مقضى للطلوب . ثم نظرت إلى نفس الأرض فوجدتها مختلفة البقاع استعدادا للنافع المختلفة ثبتت في نفس أن هذه الدنيا وضعها مخيب من حيث الأرض ومنافعها والناس واستعدادهم فألفت الكتاب وانتشر في أوروبا بلا قوة مني لأنني ليس لي معينون في هذا ، لأن الشرق ليس له عهد بعمل مثل هذا ، وذكرت في الكتاب أن الناس لا يهنأ لهم عيش إلا إذا استخرجوا جميع القوى في الإنسان وفي الأرض ، ولا يتم هذا إلا بأن يكون الناس كأسرة واحدة .

ولما عرف هذا أهل أوروبا قرطوه ولخصوه كله وسترى في سورة الحجرات ملخص الكتاب بقلم

الكتاب الأورويين .

انظر إلى سورة الحجرات تر هناك آيتين ، الأولى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » والثانية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الخ » فالآية الأولى تتفق مع ما هنا ، فالمسلمون يكون بينهم الصلح والوادة ثم بعد ذلك يتعارفون مع غيرهم ، إن في الحجرات الأمرين معا : فأولهما هو في السورة من الصلح بين المسلمين ، وثانيهما هو التعارف العام ، وأهم ما في هذا المقال أن آية التعارف هي ملخص كتاب [ ابن الإنسان ] .

ألا ترى رعاك الله أنت مسألة الذكور والإناث التي في أول الآية هي عينها التي كانت أول ما فكرت لظهور الكتاب ، وأن مسألة التعارف التي في آخرها هي بعينها التي قررتها في آخر الكتاب .

أفلا تتعجب معي أن يكون هذا الكتاب تفسيرا لآية واحدة من القرآن وتلك الآية متممة للآية هنا ، فإن السلام العام محتاج لأمرين : صلح خاص بين المسلمين ، واتحاد مع الأمم في الأعمال العاتمة ، وانظر كيف كانت آية الصلح بين المسلمين جاءت في هذه السورة التي هي مقدمة في الترتيب على تلك السورة ، وأيضا هي في الحجرات أيضا مقدمة ذلك هو العجب الذي ستره واضعا هناك . وهذا يدعو المسلمين إلى أمرين : صلح

بينهم ، وتعارف مع الأمم ، وقد ابتدأ ثانيهما وشرع عقلاء المسلمين في أولهما فليشر للمسلمون ببدنا ، وهذه من عجائب ومعجزات القرآن في هذا الزمان .

كيف قصر المسلمون في قوله تعالى « وأسلحوا ذات بينكم »

إن المسلمين ينقصهم الرقي في كل شيء ، إن المودة لاتكون إلا بلم وما دام العلم قليلا كانت المودة ضعيفة بل هي معدومة ، لازى بين المسلمين اليوم مودة كالتى تراها بين الأمم الأخرى ، نعم للمسلمون مودتهم محبوة وليس يظهرها إلا الحركة العلمية والعملية .

وإني ليحزنى ألا أقرأ للمسلمين مثل ماقرأته اليوم ١٢ يناير سنة ١٩٢٧ أن أول محادثة جرت ( بالتلفون ) لدى لاسلك له جرت يوم ٧ يناير المذكور بين صاحب جريدة ( النيويورك ورلد ) وبين رئيس تحرير ( الديلى اكسبريس ) بلندن وبينهما ثلاثة آلاف ميل ، أى نحو ثمن الدائرة المحيطة بالأرض ، وقد تبادلوا التحيات والأخبار عن جوف البلدين ( نيويورك ولندن ) وأخذت صورة كل منهما وهو فى بلده وأرسلت صورة الأول حالا بطريق اللاسلكى وهكذا صور الأمواج عند تكلمه ، ونشر هذا كله فى جريدة ( الديلى اكسبريس ) .

هذه هى مودات الفرنجة والأمريكان ، أيها القارىء لهذا التفسير فكر فيما أقول ، وقل لى هل سمعت مثل هذا بين مصر وبناداد أو بينهما والإستانة والأفغان أو بينهما وبين شمال أفريقيا ؟ كلا ! فهذه أمم أقدمها صفار العلماء عن العلوم وعن الصناعات جهلوا العالم التنى تعيش فيه وجهلوا أنفسهم ، وسيكون هذا التفسير من مبادئ النهضة العلمية والعمل بعد العلم ، انتهى .

فريدة مشرفة فى سورة الأنفال والتوبة ثم القتال والفتح والحجرات

ومن عجائب القرآن أن ذكر الصلح جاء قبيل السلام على القتال والنصر فى هذه السورة . ذلك لأن قتال العدو لايم إلا بعد اتفاق المجاهدين كما قدمنا فإذا تباعضوا فلا قتال ولا نصر . وانظر إلى سورة الحجرات التى بعد سورة القتال ثم سورة الفتح كيف ذكر فيها الصلح بين المسلمين والتعارف بين الأمم ، كأنه يقول هنا لاجهاد إلا بعد اتفاق الأمة واتحادها ، ويقول هناك إذا جاهدتم وفتحتم البلاد فمليكم أمران : صلح فيما بينكم شامل كما كنتم قبل القتال ثم تعارف مع الأمم وتكون النتيجة هكذا صلح دائم قبل الحرب وبعدها فى الأمة ، ثم إنكم إذا ملكتم الأمم فتعارفوا مع دوام الصلح ، هذا ما يؤخذ من ترتيب السور والآيات ، واقد على ماقول وكيل . انتهى السلام على القسم الأول .

( القسم الثانى )

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ \* يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ \* وَإِذْ يَمُدُّكَ اللَّهُ إِخْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنهَآ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ \* لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ \* إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَنْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

مُرْدِفِينَ \* وَمَا جَمَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ  
 اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* إِذْ يُنَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً  
 لِيُطَهَّرَ كُفْرَكُمْ بِهِ وَيُدْهَبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ \*  
 إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلُّ بَنَانٍ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
 وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ  
 عَذَابَ النَّارِ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ \*  
 وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ  
 وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ \* فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ  
 اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ  
 كِيدِ الْكَافِرِينَ \* إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ، وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ  
 تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

#### مقدمة في سبب غزوة بدر

روى: أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في غير قريش في أربعين راكبا من كفار قريش منهم  
 عمرو بن العاص ومعهم جمال تحمل عطرا وميرة وبرا<sup>(١)</sup> حتى إذا كانوا قريبا من بدر وهو ماء كانت العرب  
 تجتمع عليه لسوقهم يوما في السنة فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم فقال لأصحابه « هذه غير قريش فيها  
 أموالهم » وحرصهم على الخروج إليهم غفرت بعضهم ونفل بعضهم ، فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم إليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا يستفزهم ويخبرهم  
 أن محمدا في أصحابه قد عرض لعيرهم ، فخرج ضمضم سريعا إلى مكة وكانت عائكة بنت عبد المطلب قد رأت  
 رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعها ، فأخبرت بها أخاها العباس بن عبد المطلب قالت : رأيت  
 راكبا أقبل على بعيره حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته قائلا : ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم  
 في ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر  
 السكبة فصرخ مثلها بأعلى صوته : ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس  
 أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي  
 بيت من بيوت مكة ولادار من دورها إلا ودخلها منها فلقته ، فقال العباس : والله إن هذه الرؤيا فظيعة

(١) وهذا هو معنى الطيعة .

فأكتنمها ولا تذكرها لأحد ، ثم ذكر العباس الرؤيا للوليد بن عتبة واستكنمه إياها ، والوليد ذكرها لأبيه عتبة وفشا الحديث . قال العباس فسمعت أطوف بالبيت وأبوجهل بن هشام في نفر من قريش يتحدنون برؤيا عائكة ، فلما رأني أبوجهل قال : يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا . قال العباس : فلما فرغت من طوافي أقبلت إليهم فقال لي أبوجهل يابني عبد المطلب متى حدثت هذه النبوة فيكم . فأت وما ذاك ؟ قال الرؤيا التي رأيت عائكة . قلت وما رأيت ؟ قال يابني عبد المطلب أما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ؟ لقد زعمت عائكة في رؤياها أنه قال : انمروا في ثلاث . فستربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك ما قالت حقا فسيكون ، وإن نقض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا بأنكم أكذب أهل بيت في العرب . قال العباس فأنكرت أن تكون عائكة رأيت شيئا ثم نفرنا فشايع قول أبي جهل في الناس ، فلم يبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقلن : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع فأبى النيرة ؟ فاحتمد العبط في صدر العباس وأقسم أن يتعرض له ويقتص منه ، قال فعدوت في اليوم الثالث من رؤيا عائكة وأما حديد منضب أرى أي قد فاني شيء أحب أن أدركه منه . قال فرخات المسجد فرأيته فواته إني لأمر نحوه أتمرضه ليعود ليعض ما قل فأوقع به إذ خرج نحو باب المسجد يشتد . قال العباس : فقلت في نفسي ماله لعنه الله أكلي هذا فرقا مني أن أشاعه ، قال فإذا هومع ما لم أسمع مع صوت ضمضم بن عمرو وهو بصرخ بطن الوادي واقفا على بعيره وقد جدد بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول يامشرف قريش اللطيمة اللطيمة (تقدم معناها) هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها ، العوث العوث . قال فشغله عنى وشغلق عنه ماجا . من الأمر فخرت قريش سراطا ولم يتخلف إلا أبو لوب وقدمت مكانه العاص بن هشام بن العيرة .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه ليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ واديا يقال له (ذاقرد) فأناه الخبر عن مسير قريش ليجنوا عن عيرهم فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء أخذ عيننا للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيننا له يدعى (أريقط) فأناه بخبر القوم وسببت العير رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الوحي « إن الله وعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم » إما العير وإما قريش فكانت العير أحب إليهم ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فدل بعضهم : هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إما أخرجنا للعير فرد عليهم ، وقال إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل فقالوا يا رسول الله عليك بالخير ودع العدو فنضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فقال وأحسن وكذلك عمر والقناد بن عمرو إذ قال يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون الخ ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ثم قال سعد بن معاذ من الأنصار فأحسن في المقال فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك فقال سيروا على ركة الله وأبشروا فإن الله عز وجل وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم .

روى مسلم عن أنس بن مالك « أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يربنا مصارع أهل بدر بالأسس يقول : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله تعالى ، قال عمر فواللهي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حدثها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا ؟ فإني وجدت ما وعدني الله حقا ، فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم

أجسادا لا أرواح فيها ؟ فقال ما أتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئا فذلك قوله سبحانه وتعالى : وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وبيئ طائفة أبي سفيان مع العبر ، وطائفة أبي جهل مع النضير . إذا عرفت أيها الذي هذه القصة الوجيزة فما أسهل تفسير الآيات .

يقول الله الأنفال ثابته ورسول مع كراهتهم لذلك ثابنا مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك يعني بالمدينة لأنها مهاجرة ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم ، وهذا قوله ( كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لسكرهون ) أي أخرجك في حال كراهتهم ( بجادلونك في الحق ) في إثارة الجهاد بإظهار الحق لإثارة تلي العير عليه ( بعد ما تبين ) أنهم ينصرون أيما توجهوا بإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم ( كأنما يساقون إلى اللوت وهم ينظرون ) أي بكرهون القتال كراهة من يساق إلى اللوت وهو يشاهد أسبابه وكان ذلك لفة عديم وعدم تأهيم . إذ روى أنهم كانوا رحالة وما كان فيهم إلا فارسان ، وفيه إيمان إلى أنهم كانوا فزعين رعبا ( و ) اذكر ( إذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ) وقوله « أنها لكم » بدل من « إحدى » ( وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ) يعني العير إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارسا فتمنوها وكرهوا النفير ، والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك ( ويريد الله أن يحق الحق ) أن يشته ويحبه ( بكلماته ) الوحي بها في هذه الحال ( ويقطع دابر الكافرين ) ويستسلمهم : يعني إنكم تريدون أن تصيوا مالا ولا تلقوا مكروها بملاقة العير ، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق بملاقة النفير ، فعل ما فعل ( ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ) ذلك .

واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى الشركيين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثمانمائة فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لانهد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فقال أبو بكر : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . وأيضاً كان الصحابة يقولون : « ربنا انصرتنا على عدونا أعتنا ياغيث للسنين » وذلك لما علموا أنه لا يهيب من القتال وهذا قوله تعالى مبديا من قوله « إذ يمدكم الله إحدى الطائفتين » ( إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم ) أي يأتي ( بألف من اللانسة مردفين ) بكسر الهمزة والفتحة أي متبعين فهم على الأول كانوا ساقا الحيش ، وعلى الثاني كانوا مقدمته . ويقال ردفه إذا تبعه وأردفته إياه إذا اتبعته ( وما جعله الله ) أي الإمداد ( إلا بشري لكم ) أي إلا بشاره لكم بالنصر ( ولتطمئن به قلوبكم ) فيزول ما بها من الوجع لقتلكم وذلكم وظاهر الآية يفيد أنهم لم يقاتلوا . ولذلك قال بعض العلماء إنما كانوا يكتفون السواد ويشنون المؤمنين وإلا فلنك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا .

ويقول بعضهم إنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا في سواه من الأيام ، وهناك روايات وردت في نزولهم يوم بدر وقتالهم لانطيل بذكرها هنا ( وما النصر إلا من عند الله ) أيها المؤمنون فتقوا بنصره ولا تتكلموا على قوتكم وشدة بأسكم ، وما كثرة الجيوش ولا إمداد اللانسة ولا قوتكم وكثرتكم إلا وساطة لأن تأثير لها ، فلا تحموا النصر منها ولا تياسوا . به يفقدها ( إن الله عزيز ) قوى منيع لا يقهره شيء ( حكيم ) في تديره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء .

ولما كان المسلمون قليلا العدد وكان أهل مكة كثيرا عددهم احترام الخوف على أنفسهم أن يظفوا ويقهروا ، وبما زاد الطين بلة أن المسلمين نزولوا ذلك اليوم « يوم بدر » على كتيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان للشركون قد سبقهم إلى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب ، وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان وقال زعمون أنكم على الحق وفيكم

نبي الله وأتم أولياء الله وقد غلبكم للشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنيين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم ؟

فهذه أمور خمسة : الأول : الخوف من غلبة العدو . الثاني : ما أصابهم من الحدث والجنابة والعطش . الثالث : وسوسة الشيطان لهم وكيف يكونون على الجوع وهم بهذه الحال ؟ الرابع : عدم الوثوق وزلزلة القلوب . الخامس : أن الأقدام لا تثبت في ذلك الكتيب الأعفر الذي لاماء فيه ، فلذلك أكرمهم الله بإزالة الخوف في قوله بدلا ثانيا من « بعدكم » ( إذ يشيكم الناس أمانة منه ) الناس : النوم الحفيف « أمانة منه » أي أمانة من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم وهو مفعول لأجله ، وذلك أن الحائف على نفسه لا يأخذ النوم ، فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلا على الأمن وإزالة الخوف ، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم لأنه كان خفيا بحيث لو تصدم العدو لرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم . وهذا كالمعجزة لاسيما إذا كان ذلك الناس وقع دفعة واحدة فناموا كلهم مع أكثرهم كما قيل .

وحصول الناس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة ، فهذا هو الأمر الأول من الأمور الحسنة ، وهو الأمن للزبل للخوف .

وأشار إلى الثاني وهو ما أصابهم من الحدث الخ بقوله ( وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ) فأزل عليهم للطير فشربوا واعتسلوا من الجنابة والحدث .

وأشار إلى الثالث وهو الوسوسة بقوله ( وبذهب عنكم رجز الشيطان ) أي وسوسته ، وذلك أنهم أمطروا ليلًا حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب واعتدلوا وتوضأوا وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة والاضطراب .

وأشار إلى الرابع بقوله ( وليربط على قلوبكم ) بالوثوق بلطف الله .

وأشار إلى الخامس بقوله ( وثبت به الأقدام ) أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة .

فهذه هي الأمور الحسنة التي أتم الله عليهم بها لإزالة ما ابتلوا به من نقائصها .

واعلم أن هذه القصة اشتملت على ثلاثة أقسام : للملائكة وللمؤمنين والكافرين ، فهنا أخذ سبحانه يشرح لكل طائفة ما يناسبها ، فقال في الطائفة الأولى وهم الملائكة ( إذ يوحى ربك ) بدل ثالث من « إذ بعدكم » ( إلى الملائكة أني معكم ) في إعاتهم وتثبيتهم وهو مفعول يوحى ( فثبتوا الذين آمنوا ) بالشارة وقروا قلوبهم .

ولقد تقدم في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن السنة والعلم الحديث في أمريكا وأوروبا على اتفاق أن الأرواح الشريرة وهي الشياطين لها قوة تلتقي بها الوسواس في قلوب بني آدم وتثير فيها الشر ، وهكذا للملائكة قوة الإلهام بالحير في قلوب الناس ، فالأول وسوسة . والثاني إلهام ، فهذا هو التثبيت ومنهم التبشير بالنصر والظفر وربما تدمى ذلك القلب إلى الظهور عيانا نادرا كما في هذه النزوة .

قبل كان لللك يمضى في صورة رجل أمام الصف ويقول : أشيروا فإن الله ناصركم عليهم ، ومن صور التثبيت قوله تعالى للملائكة : قولوا للمؤمنين ( سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ) أي الفزع ، ثم خاطب الله للمؤمنين قائلا ( فاضربوا فوق الأعناق ) أي أعلى الأعناق التي هي للذابح أو الرعوس ( واضربوا منهم كل بنان ) جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين : أي حزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم ، فضرب الرأس به هلاك الإنسان ، والبنان به يتمكن الإنسان من مسك السلاح وحمله والضرب به ، فإذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله ( ذلك ) الضرب ( بأنهم شاقوا الله ورسوله ) أي بسبب مشاققتهم لهما : واشتغافته من الشق لأن كلا

من المتعديين في شق خلاف شق الآخر (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) وعيد لهم بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا (ذلكم) القتل والأسر الذي نزل بكم أيها الكفرة واقع (فذوقوه) عاجلا في الدنيا، وإنه ليسير بالإضافة إلى ما أعد لكم في الآخرة من العذاب (وأن للكافرين عذاب النار) منسوب على أنه مفعول معه كقولك سرت والنيل: أي ذوقوا ما يحل لكم من العذاب مع ما يحل لكم في الآخرة، وقد وضع فيه الظاهر موضع الضمر دلالة على أن الكفر هو السبب في جمع العذاب العاجل مع الآجل.

ولما انتهى الكلام على خطاب للملائكة وما يتبعه شرع سبحانه يخاطب المؤمنين وهم الطائفة الثانية فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) وهذا حال من الذين كفروا، والزحف الجيش الذي يرى لكثرة كأنه يزحف: أي يدب ديبا، من زحف الصبي إذا دب على استه قليلا قليلا سمي بالمصدر؛ فالمنى إذا لقيتم الذين كفروا كثيرا عددهم (فلا تولوهم الأدبار) بالانهزام فضلا عن أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم: أي إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تقفروا فضلا عن أن تدانوهم في العدد أو تساوهم، وهذه هزبة أولى المهمم العالية الذين يتكلمون على ربهم ولا يبالون بما يعترضهم من كوارث وعجن (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال) يريد السكر بعد الفرح وتفرير العدو فإنه من مكاييد الحرب (أو متحيزا) منضأ (إلى فئة) إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها وهما حالان من فاعل يولهم الضمر (قد باه بنسب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) واعلم أن التحيز يشمل من تحيز إلى فئة بعيدة، لما روى ابن عمر رضي الله عنهما «أنه كان في سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة قال فقلت يا رسول الله نحن الفرارون، قال بل أنتم الكرارون وأنا فتسكم».

واعلم أن أكثر أهل العلم يقولون إن المسلمين يحرم عليهم الفرار يوم الزحف إذا كان العدو مثلهم فأقل، أما إذا كان أكثر من مثلهم فإنه يجوز الفرار وذلك لأن هذه الآية مخصوصة بما يأتي في قوله تعالى «الآن خفف الله عنكم» فأفادت الآية أن الواحد ينقلب اثنين. قال ابن عباس: من فر من ثلاثة لم يفر، ومن فر من اثنين فقد فر. وقال آخرون إن الفرار كان كبيرة يوم بدر؛ فأما يوم أحد ويوم حنين فقد خفف الأمر في الآيات كقوله في الأولى «إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم» وفي الثانية «ثم وليتم مدبرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء».

والقول بأن التولي ليس كبيرة بعد غزوة بدر وأن المسلمين بعضهم فئة بعض، فيكون الفار متحيزا إلى فئة، فأما في يوم بدر فلم تكن لهم فئة ينحازون إليها، فلو انحازوا انحازوا إلى المشركين، مروى عن الحسن وقادة والضحاك.

وأكثر أهل العلم على الأول كما تقدم، فإذا كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفرّوا منهم ويولوهم ظهورهم، وإن كان العدو أكثر من مثل المسلمين جاز لهم أن يفرّوا منهم.

روى مجاهد أنهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول أنا قتلت فلانا ويقول الآخر أنا قتلت فلانا، فنزل قوله تعالى إن افتخرتم بقتلهم (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) يعني بنصره إياكم وتحويلكم عليهم وإمدادكم بالملائكة يبشرونكم ويلهمونكم ويربطون على قلوبكم بل يكترون سوادكم ومحاربون معكم على قول، ثم إن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فما التقى الجمعان تناول صلى الله عليه وسلم كفا من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال «شاهت الوجوه» يعني قبحت الوجوه. فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفيه ومنخره من ذلك التراب شيء. فانهزموا وتبهم المؤمنون ية لولهم وبأسروهم.

ومعلوم أنه ليس في وسع أحد من البشر أن يرى كما من الحصى في وجوه جيش فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها من ذلك شيء ، فسورة الرمي صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عز وجل .

فهذا المعنى صح النبي والإتيان في قوله تعالى ( وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ) يعني أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمي البشر ولكنها كانت رمية الله حيث أنزلت ذلك الأثر العظيم وعليه يكون فعل العبد مضافا إليه كسييا وإلى الله تعالى خالقا ، فقد أثبت الفعل للبرئ ثم نفاه عنه وأثبتته لله فقال « ولكن الله رمى » وإنما فعل ذلك ليهلك عدوكم ( وليلى ) وليعطى ( للمؤمنين منه بلاء حسنا ) عطاء جميلا : أي وللإحسان إلى المؤمنين ( إن الله سميع ) لدعائهم ( عليم ) بأحوالهم ( ذالك ) البلاء الحسن ( وأن الله موهن ) مضعف ( كيد الكافرين ) بمن مكرهم وكيدهم معطوف على « ذالك » أي الفسود إبلاء المؤمنين ونوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم ومكرهم .

### لطيفة

قال أهل التفسير والغازي : « لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدرًا ووردت عليهم روايا قريش وفهيم أسلم وهو غلام أسود لبني الحجاج ، وأبو يسار وهو غلام لبني العاص بن سعد فأخذوها وأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم أين قريش ؟ قالوا وراء الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، والكتيب : المقنقل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟ قالوا كثير : قال ما عددم ؟ قال لا ندري : قال كم ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوما عشرة ، ويوما تسعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف ، ثم قال لهما من فيهم من أشرف قريش ؟ قالوا عتبة بن ربيعة وشدة بن ربيعة وأبو الجعدي بن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعمة بن عدى والنضر بن الحرث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وبنو وبنو ابن الحجاج وسهيل بن عمرو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد أقت إليكم أفلاك كبدها ، فما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من المقنقل وهو الكتيب الرمل جاء إلى الوادي فقال « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلاتها وغررها محاذك وتكذب رسولك . اللهم فصرك الذي وعدتني فكان ما كان من النصر والقور » وإلى هنا انتهى الكلام على خطاب المؤمنين .

ثم إنه سبحانه خاطب الكافرين وهم الطائفة الثالثة فقال ( إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ) أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم وهو خطاب لأهل مكة ، لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : « اللهم إن كان محمد على حق فانصره ، وإن كنا على حق فانصرنا » ولما التقى الجمعان قال أبو جهل : اللهم أينما كان أجزر ( يعني نفسه ومحمدا صلى الله عليه وسلم ) قاطعا للرحم فأحنه اليوم . اللهم انصر أهدي العتقين وخير الفريقين وأفضل الجمعين . اللهم من كان أجزر وأقطع لرحمه وأحنه اليوم . ويطلق الفتح على الحكم ، أي إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم العتقين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح ، يعني حكم الله نصرته للمظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطع على القاطع .

روى البخاري ومسلم « أن عبد الرحمن بن عوف قال إنى لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا ببنين من الأنصار حديثا أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما ففتمزني أحدهما فقال ، أي عم هل تعرف أبا جهل ؟ قلت نعم ، فما حاجتك إليه يا ابن أخي ؟ قال أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالذي نفسي بيده لئن رأيتك لا يفارق سراي سواده حتى يموت الأهل منا ، فتصعبت لذلك وغمزني الآخر ، فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يحول في الناس ، فقلت ألا تريان ؟



هذا صاحبك الذي تسألان عنه ؟ قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، وقال : أيكما قتله ؟ فقال كل منهما أنا قتله . فقال هل مسحتما سيفيكما ؟ فقالا : لا ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين فقال : كلاهما قتله ففضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما ، والرجلان : معاذ بن عمرو بن الجوح ، ومعاذ بن عفراء رضي الله عنهما .

فهاهو ذا أبو جهل قد استفتح ، وهاهو ذا قد جاءه الفتح وحكم الله بقتله قال تعالى لكفار مكة ( وإن تنهوا ) عن الكفر ومعاداة الرسول ( فهو خير لكم ) لتضمنه سلامة الدارين وخير للزلايين ( وإن تنودوا ) لخاربه ( مد ) لصرته عليكم ( وإن تنهى عنكم ) ولن تدفع عنكم ( فتتكم ) جماعتكم ( شيئا ) من الإغناء ( ولو كثرت ) فتتكم ( وأن الله مع المؤمنين ) أي ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك .

انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من سورة الأنفال .

وهنا خمس لطائف :

[ الأولى ] اقتحام الأخطار في قوله تعالى « وإذ يدركم الله إحدى الطائفتين الخ » .

[ الثانية ] أن هذا العالم للذي خاضع لتاموس العقول ، وأن عمل القلوب مهيمن على الأجساد ، وعلو الهمة به تذلل الصعاب في قوله تعالى « وما جعله الله إلا بشري لكم » .

[ الثالثة ] دقة الملاحظة والبحث الصادق في أمور هذه الحياة في قوله « إذ ينشيك العباس أمانة منه » .

[ الرابعة ] الثبات وقوة العزيمة أساس الأعمال في هذه الحياة .

[ الخامسة ] عدم الإعجاب بالنفس وترك الكبرياء في قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » ولينبدأ بإيضاح هذه اللطائف الخمس فقول :

#### اللطيفة الأولى

فيها استبان خلق اقتحام الأخطار ومقابلة الحوادث الجسام والأهوال الصعاب والأمور العظام بالجلد والصبر واختيار أعظمها قدرا وأشدّها بأسا وأعلاها شأنا وأرفعها مقاما وأسمها نظاما وأجدها سيلا وأقومها قيلا ، ألا وهي التناهي عن العير والسارعة إلى النفير واصطفاء أشرف الأمور .

ولعمري كيف يساوي ذلك الزاد والميرة وبض البر والمطر الذي كان مع أبي سفيان ذاهبا إلى مكة قتل صناديد قريش . لعمري ما أبعد الفرق ما بين رأس الأمر وأعلاه ، وبين ذنبه وأدناه . فعلو الهمة في النظر إلى معالي الأمور وأشرفها لا إلى أخسها وأحقرها . فلتكن هممنا في حياتنا الدنيا متوجهة إلى أعالي الأمور والتتكب عما يكتفى به الجمهور من العرض القليل والنفع المادّي إذا كان هناك ما هو أشرف وأجدر وأعلى وأكبر .

#### اللطيفة الثانية

لقد اطلمت على حديث اللاتسكة ، وكيف أرسلهم الله في غزوة بدر ، وكيف اختلف العلماء هل هم حاربوا مع المسلمين وظهروا بصورة بشرية وأسلحة حديدية وملابس عربية وقطعوا الرؤوس وأزالوا النفوس أم هم اكتنفوا بتكثير السواد وإهداء البشارة للمعاريين . أم كان زولهم على القلوب بالإلهام والتبشير ونفوة الهمم كما أنهم يتبطون هم الأعداء ويلتمون في قلوبهم الرعب .

هذا كله قد تقدم ولكن الآية قد ذكرت قصارى الأمر وحماداه ومبدأه ومنتهاه وشرحت للقام وأزاحت اللثام وأذهبت الغمام ، فماذا قالت ؟ جاء فيها قوله تعالى « وما جعله الله إلا بشري لكم » فذكر ذلك

على سبيل الحصر والنصر كأنه يقول إنما خلفتم في الأرض مختبرين وظهرتم عليها ممتحنين فليكم مقارعة الأبطال والظلم والزلزال .

وما كان إزال اللائكة لتقدموا وهم يعملون ، وتنكسوا وهم يتقدمون ، وتناموا وهم مستيقظون ، نأفهم لم تخلفوا سدئ فلا تفتحوا الردى ، بل خلفتم ممتحنين وفي الأعمال مختبرين . وما إزال اللائكة عليكم إلا لتبشركم بالإلهام وتبسط هم الأفوام ، ولو ثبت أنهم قتلوا معكم أناس لم يكن ذلك إلا ليشجعوكم لاليعدوكم وإلا لتهب فضيلة الاختبار ولخرجتم من الحياة بلا اعتبار فلا منازل في الآخرة إلا حيث الجهاد في الحياة ، ولا جهاد واللائكة قائمون مقامكم ، مقاتلون عدوكم ، مبددون الأعداء وأتم نيام ، وكلما كان العمل أشق كانت النتيجة أرقى والعاقبة أبقى والسعادة أعلى .

ألا وإن النية تسبق العمل والأعمال لا قيمة لها إلا بمزمار القلوب ، فكلمنا امتلاء القلب بالبشارة والآمال انتهت الأعضاء بالأعمال ، إن القلوب لعظيم سلطانها قوية عزماتها ، فمضى صلحت الأعمال ومضى جهلت أوخذت أو تشاءمت أو شكت أو يشئت بطلت أعمال الجوارح ، وكيف يعمل المأمور والأمر خادم الأتقاس كثير اليأس ، وكيف تهيج الأعضاء للعمل إذا كان القلب قليل الأمل ضعيف الحيل خائر المزيمة حائدا عن السنن ، هنالك لا عمل له يلقاه ، ولا ثمر له يرضاه .

#### اللطيفة الثالثة

انظر إلى الأمور الخمسة المذكورة في الآيات وكيف فصلها الله تفصيلا ، فذكرها واجس القلوب وخواطر الضائر ولم يدع قطرات السحاب للماطرات ، ولا عطش القوم في القلوات ، ولا ثبات الأقدام في الطرقات ، ولا ناس القوم في الهجمات ، فجعل لكل من هذه الحوادث حكمة إلهية ومنه ربانية إنارة للعقول وتبصرة للأفهام ، كأنه قيل انظروا في أعمالكم اليومية وأحوالكم الإنسانية وما ينتابكم من أمور طبيعية تفقدوا صفاتها وتأملوا كبارها . واعلموا أن لكل منها نهجا صادقا وطريقا واضحا فاعتبروا بكل منها وتدبروه وتأملوا فيه واذكروه واعلموا أنه ما من صغير من الأمور ولا كبير إلا وله نأ ومستقر علمه من علمه وجهله من جهله ، فإياكم أن تمر عليكم الحوادث مر السحاب ، فلا تقيمون لها وزنا ولا تعرفون لها معنى وإذا كنت قد ذكرت النعاس في غزوة بدر وجعلت لزول المطر حكمة عملية وثبتت الأقدام على التراب مكرمة ربانية ولزوال وساوس المواجه الشيطانية مزية حكية . هكذا فلتكونوا في سائر أموركم مفكرين وفي جميع أعمالكم ناظرين « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » .

#### اللطيفة الرابعة

هذه داعية الثبات مرقية الهمة ، كيف لا وإن تحريم التولى يوم الزحف من أجل الأمور قدرا وأعظمها أثرا وأشرفها مقاما ، وفيها احتقار الحياة في عظامم الهمة ، وعدم التولى يوم الزحف يكون من آثاره قوة المزيمة التي هي سر الحياة ومناط السكالك ونهاية الفضائل . ولقد ذكر القرآن الصبر نحو (٧٠ مرة) وجعله مناط الأعمال ، وعليه مدار السعادة في الحال والمآل ، وأعظم الصبر ما كان في بذل النفس في سبيل المجد الأخروي والديني وشرف التمام .

#### اللطيفة الخامسة

فيها التواضع وأن يعرف الإنسان مقامه في الوجود فلا يتر بما أتيح له من ظفر ، وما أعطاه إياه القدر

ولا يلبس لباس الحيلاء ، ويتبختر تبختر الحناء ، فإذا نال أمرا دينيا أودنوبا فليرجع إلى الله تعالى ولا يكثر من الفرح بما آتاه « إن الله لا يحب الفرحين » وليعلم أن الله هو الذي أعطاه ولا حول ولا قوة إلا بالله « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » وهذا آخر الكلام على القسم الثاني من سورة الأنفال .

### (القسم الثالث)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ \* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّهُ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ \* وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ \* وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَضْعِهِ وَزَقَّكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ \*

تفسير بعض الألفاظ

قوله ( ولا تولوا عنه ) أى عن الرسول ( وأنتم تسمعون ) القرآن وللواعظ سماع فهم وتصديق ( كالذين قالوا سمعنا ) أى كالكفرة أو المنافقين الذين ادعوا السماع ( وهم لا يسمعون ) سماعا ينتفعون به فكأنهم لا يسمعون رأسا ( إن شر الدواب عند الله ) شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم ( الصم ) عن الحق ( البكم الذين لا يعقلون ) إياه ، عدمهم من البهائم ثم جعلهم شرها لأنهم أبطلوا ما ميزوا به وبه فضلوا ( خيرا ) أى سعادة كتبت لهم أو انتفاعا بالآيات ( لأسمعهم ) سماع تفهم ( ولو أسمعهم ) وقد علم أن لاخير فيهم ( لتولوا ) ولم ينتفعوا به وارتدوا بعد التصديق والقبول ( وهم معرضون ) لعدمهم ( استجيبوا لله وللرسول ) بالطاعة ( إذا دعاكم ) أمرت الضمير هنا كما سبق في قوله تعالى « ولا تولوا عنه » لأن ذكر طاعة الله والاستجابة له للتوطئة والتنبية على أن طاعة الله واستجابته من طاعة الرسول ، وأيضا إن دعوة الله تسمع من الرسول ( لما يحييكم ) من :

(١) العلوم الدينية لأنها يحيى القلوب ، والجهل موت . قال الأول :

لانتجين الجهول حلتة فذلك ميت ونوبه كفن

(٢) ومما يورثكم الحياة الأبدية في النعم الفناء من العقائد والأعمال :  
 (٣) ومما يورث بقاءكم أحياء في هذه الحياة الدنيا وهو الجهاد ؛ إذ لو تركناه لفتنا العدو .  
 (٤) ومما يورث حياتكم الأخرى وهي الشهادة لله بالوحدانية .  
 فطاعة الرسول واجبة للعلوم الدينية والعقائد الإسلامية والجهاد والشهادة . فبالأول حياة القلوب .  
 وبالثاني حياة الآخرة . وبالثالث حياتنا في الدنيا . وبالرابع حياتنا حياة أرقى في الآخرة بالشهادة .  
 ثم قال تعالى ( واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ) وهذه الآية لها أربعة أمور أيضا :  
 (١) فهو أقرب إليه من جبل الوريد ، وهو صرق في الرقبة شبه بالحبل ، فهذا تمثيل لقاية قلبه  
 من العدو .

(٢) وهو مطلع على خفيات القلوب فيعلم ما قد يخفى عنه من حاجته كما سيأتي إيضاحه في التوريم للمناطيسي .  
 (٣) فلينبه الإنسان إلى قلبه فليخلصه من الشوائب قبل أن يحال بينه وبينه فلا يقضى له تصفيته حين  
 يحال بينه وبين قلبه يموتون أو يموت .

(٤) وليعلم الإنسان أن عزائمته تحملها أوساس ، وتضعفها المزججات ، وتذهبها النهوات ، وقد يحكم  
 عليه بالكفر فلا يقدر على الإيمان وينعم عليه بالإيمان فلا يكفر لشقاوته في الأزل عند الأول وسعادته فيه  
 عند الثاني .

( وانقوا فتنة ) الفتنة : الذنب ( لانصين الخ ) أي إن أصابكم لانتصب الطالبين منكم خاصة والسكنها  
 تعصم : أي انقوا ذنبا بعمم أثره كأن يقر الناس الشكر ، وكان يدهنوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،  
 وكان تفرق الكلمة ، وتظهر البدع ، ويكسل الناس عن الجهاد .

وهذا دلالة على أن المسلمين جميعا متضامنون ، والفرد منهم مثل جميعهم ، فليتهم كل امرئ بمجموعهم  
 ( وادكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ) أي وادكروا أيها العرب إذ كنتم أذلاء بين فارس والروم  
 لتفرقكم ، وبأبها للهاجرون أيضا إذ كنتم مستضعفين في أرض مكة تستضعفكم قريش ( تخافون أن  
 يتخطفكم الناس ) أي فارس والروم للعرب عامة وكعباءة قريش وغيرهم من العرب للمهاجرين ( فأواكم )  
 جعل لكم ماوى تحصنون به من أعدائكم في الأول وفي الثاني ( وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات )  
 الفناء ( لعلكم تشكرون ) هذه النعم ( لانقونوا الله والرسول ) بأن تركوا الفرائض والسنن ، أو بأن يكون  
 ما تبطنون خلاف ما تظهرون ، أو يكون منكم غلول في الفناء ( وتحنونوا أماناتكم ) فيما بينكم بأن  
 لا تحفظوها ( وأنتم تعلمون ) تبعه ذلك ووباله والحياة عن عمد ولستم بساهين ، أو أنتم تعلمون حسن الحسن  
 وقبح القبيح ( واعلموا أن أموالكم وأولادكم فتنة ) أي سبب الوقوع في الفتنة أي الإثم والعذاب ، أو حنة  
 من الله ليلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ( وأن الله عنده أجر عظيم ) لمن آثر رضا الله عليهم وراعى  
 حدوده فيهم .

فليوجه الناس مهمهم إلى مراعاة حدود الله ، فإن الناس جميعا متضامنون ، وليس أولاد الإنسان وأمواله  
 بمنية شيئا إذا ما حاق الهلاك بقومه وأموالهم ، وكيف يعيش المرء منفردا ؟ هذا لا يكون ( يجعل لكم فرقا )  
 هذه تشمل خمسة معان :

- (١) هداية في القلوب بها تفرقون بين الحق والباطل .
- (٢) ونصرا تفرقون به بين الحق والباطل .
- (٣) ومخرجا من الشبهات تفرقون به بين الحق والباطل .
- (٤) ونجاة مما تخافونه في الدارين .

(٥) وظهوروا واشتهروا بالصيت والذكر الحسن لأن من نجما بما يخافه قد فرق بينه وبين الخوف منه .  
ومن اشهر صيته فقد ظهر ظهور الصبح . تنول العرب « بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان » أي الصبح .  
وهذه المعاني الخمسة حقة ، فإن من اتقى الله هدى قلبه ونصر ونجما من الخوف وخرج من الشبهات ،  
لأن قلبه مرتن على الحقائق فتتضح له الطرق . وهذه المعاني الأربعة ترجع لمعنى واحد وهو التفرقة بين  
شيء وآخر . أما الخامس فهو معنى آخر وربما رجوع إلى الأول لأن الصبح يفرق بين الليل والنهار ( وينفر  
لكم ) بانتجازه والصفو ( والله ذو الفضل العظيم ) تذكير للمؤمنين أن ما أعدّه الله لهم بسبب التقوى إنما  
هو بفضل وإحسان . انتهى التفسير اللغوي . وهنا لطائف :

[ اللطيفة الأولى ] « إن شرّ لدواب عند الله الصمّ البكم الخ » .

[ اللطيفة الثانية ] « ولو علم الله فيهم خيرا لأصمهم » .

[ اللطيفة الثالثة ] « واعلموا أن الله يحول بين الرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

[ اللطيفة الرابعة ] « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » الآية .

[ اللطيفة الخامسة ] « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض » .

[ اللطيفة السادسة ] « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول » .

[ اللطيفة السابعة ] « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » .

#### اللطيفة الأولى

اعلم أن الإنسان أرقى من عالم الحيوان وأقل من عالم الملك على سبيل الإجمال باعتبار المبدوع ولم تكن  
له هذه النزلة الرفيعة واللقام الكريم وتكريم الله له لما انصف به من قوة الجسم أو شهوة الأكل أو القدرة  
على التناسل أو القوة العضلية أو التزبن بالزينة كالطاووس ، فإن ذلك كله شاركة فيه الحيوان وإنما امتاز  
بالعقل والعلم والحسنة ، ولا جرم أنه إذا نزل عن مرتبته الحق بمراتب الحيوان ، فمن غلب عليه طبع القتال  
لذاته والعلبة عد من الآساد ، أو السفاد عد من المصافير ، أو الزينة عد من نوع الطاووس ، وهكذا تعد  
الحيوانات نوعا نوعا ، فحق غلب على الإنسان طبع من هذه الطباع عد كأنه منها ، وقد ذكرنا في سورة البقرة  
نحو أربعين طبعاً من طبع الحيوان عند قوله تعالى « وإذ قال ربك لللائكة الخ » .

ولا جرم أن الحيوان الذي انصف بصفة خاصة لا عار عليه ولا عيب ، بل هو قائم بأمره عامل على شاكلته  
فأما ذلك الإنسان الذي نزل عن مرتبته والتحق بالأفق الأدنى فإنه مذموم مدحور كما قال تعالى « أولئك  
كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون » وهذا هو سرّ قوله تعالى « إن شرّ الدواب عند الله الصمّ  
البكم الخ » انتهت اللطيفة الأولى .

#### اللطيفة الثانية

اعلم أن هذا العالم كله ما ظهر إلا على علم سبق ونظام أسس على مقتضاه ، ومن هذا النظام هذه التواميس  
التي تراها وتقرؤها في هذا الوجود ، وعلم الله يشمل الواجب والجائز والمستحيل ولا يكون العلم إلا على  
مقتضى العلوم . فإذا اقتضى النظام العام والأحوال الخاصة بمقتضى النظام أن يكون زيد كافرا لا يقبل لأن  
مزاجه لم يتأهل لذلك ، كما أن الحيوان ليس أهلا لمراتب الإنسان فإنه لا محالة يكون في علم الله لا يقبل الإيمان  
وهو لا محالة إذا جاء في الأرض لا يقبل الإيمان . فالعلم يكون على مقتضى العلوم ، كأنه يقول لو سبق العلم بأن  
فهم خيرا لاستعدادهم له لأصمهم سمع تفهم ولم يرتدوا بعد ، وكيف يرتدون وهم أهل للإيمان بخطرهم  
ولو أصمهم سمع تفهم في أول الأمر لتولوا عنه وهم مرضون ، لأن فطرتهم غير مستعدة للبقاء على ما فهموا

فرضا . وعلى هذا يكون هناك فرق بين قوله « لأسمهم » وبين قوله « ولو أسمهم » فالأول سماع تفهم مع الدوام عليه . والثاني سماع تفهم في أول الأمر فليس بينهما التقاء فتأمل . انتهت اللطيفة الثانية .

#### اللطيفة الثالثة

اعلم أن الله قد خلق الإنسان ولم يمكنه من الاستيلاء على جميع قواه فجعله أشبه بالقيم الذي يملك مالا . ألا ترى أن الإنسان يحال بينه وبين ما يملكه في أحوال :

(١) كالنوم فالنوم ربما لا يتذكر شيئا من أحوال يقظته ويرى أنه في أحوال أخرى .

(٢) المجنون . (٣) للغمى عليه . (٤) الذي شرب الخمر .

(٥) الذي تماطى الأفيون والمخدرات الأخرى .

(٦) أحوال المرض ، فقد ينسى في المرض ما كان يتذكره في الصحة .

(٧) ويتذكر عند الاحتضار أموراً لم يكن يتذكرها في صحته . (٨) وفي العقائد كالإيمان والكفر .

(٩) والذنوب والأعمال الصالحة ، فكثيراً ما يقصد الإنسان الامتناع عن الذنب فيقع فيه ، وكثيراً

ما يقصد الخير فيقع في الشر ، أو يقصد أن يفعل سوءاً فيصرف عنه .

(١٠) تأثير الخطباء والشعراء فإنها تصرف الإنسان بما تهيج به فؤاده بالأقوال الخلابة والآيات اللوزونة

فتصرفه عن غرض إلى غرض مهما حاول التمسك وأراد الامتناع .

(١١) الوسط والبيئة ، والتعليم والديانات ، والعادات الموروثة والمكتسبة . كل هذه تجرى الإنسان إلى

طوائفها مهما حاول الإنسان التخلص منها والتخلص من أذاها ، ناهيك ما قرره العلامة [جوستاف لبيون]

في مؤلفاته من أن الوسط والبيئة وآراء الشعب تؤثر في العلماء والجهلاء على حد سواء ، فتجد للشعب كله

هزة واحدة ورجة واضطراباً واحداً مسوقين إلى ذلك ، لاسلطان لمنطق على عقولهم ، وإنما السلطان لذلك

التأثير العام الذي استحوذ على العقول فجعلها كما حصل في فرنسا وتركيا ومصر والمهند من القوة الوطنية والقيام

كأنهم رجل واحد للاستقلال ، وترى الشاب وهو أحرم الناس على لذاته قد حيل بينه وبينها فيقدم نفسه

للهلاك والموت الزؤام في سبيل إيقاد بلاده ، وهذه الحيولة نعمة عليه وعلى الناس . \* وبضدّها تميز الأشياء \*

(١٢) ومن هذا اللقاع ما أظهره العلم الحديث وأرانا الجمال ، والعجب العجيب ، والسحر الخلال ،

والجواهر القيمة ، والعقود المنظمة ، والبدايع الشائقة ، والمحسن الرائقة ، والذرة والمرجان ، وغرائب

الإنسان (ذلك) في التنويم المغناطيسي ، وما مثل الإنسان في أطواره الأربعة الآتي ذكرها في ذلك العلم إلا كتل

العامة والعلماء . فأما العامة فلا يعرفون من هذه الدنيا إلا ظواهر ، وهم عن باطنها معرضون . وأما الخاصة فهم

على ثلاث درجات : الأولى : المتعلمون في المدارس الابتدائية . الثانية : المتعلمون في المدارس الثانوية . الثالثة :

للتعلمون في المدارس العالية . فهذه أربع درجات : العامة والابتدائيون والثانويون والعاليون .

أفلا ترى أن من لم يتعلم في المدارس العالية يجملها ويعرف الدرجات الثلاث قبلها ، وأيضا للتعليم الابتدائي

يجمل الدرجتين فوقه ويعرف ما قبله ، والعالي يجمل الطبقات الثلاث فوقه ويعرف درجته هو ، إذا عرفت

هذا المثال فاسمع ما أقول لتعرف سرّ الله في القرآن وحكمته في الفرقان .

يقول علماء [التنويم المغناطيسي] إن له ثلاث درجات كما تقدم في هذا التفسير :

الأولى : أن يفقد الإحساس ويكون قابلاً لكل ما يلقى إليه النور بكسر الواو .

الثانية : أن يفقد الإحساس قدماً تماماً ولكنه يتكلم ويسمع ويبصر ولكن لاسلطان لحواسه عليه .

الثالثة : أنه يعرف نفسه معرفة تامة ويصف عاله وعلاجه ويعرف أحوال الناس من بعد سحق وبنبي عن حوادث مستقبلية ويتكلم بلغات شتى ، ويرى أرواح الأموات ويصف هيئتها وينقل إلى الجالسين أقوالها .

ولقد قل علماء هذا الفن : إن الناس في الحال الأولى يتذكر كل ما عمله في اليقظة ، وفي الحال الثانية يتذكر كل ما فعله في اليقظة وفي الحال الأولى ، وفي الحال الثالثة يتذكر كل ما فعله في اليقظة وفي الحال الأولى والثانية . وهكذا إذا رجح القهقري بحجب عنه علم ما فوقه ويكون عالما بما هو تحته .

أفليس هذا عجيبا جدا وأصبح نخبنا بالتلاميذ في المدارس وبالامة تمثيلا صحيحا ؟  
أفلمت ترى أن هذا من العجب العجيب وأن الإنسان منا في هذه الدنيا يجهل نفسه كل الجهل وأن الله حال بينه وبين قلبه وأنه قادر في حال من الأحوال أن يرى الأرواح ويخاطبها ويعرف مستقبل الأمور ويعرف البعيد عنه ، وهذا أصبح أمرا معروفا قد شاهدناه بأنفسنا .

ولقد حضر في مصر قوم من أوروبا وتوّموا هذا التوّم في هذه السنة وساعدتهم رجال الحكومة والشرطة وهناك دبرت سرقة ، فلما أناموا رجلين منهم بحث عن السارقين وسرقاتهم وأحضرهم من أماكن مختلفة وهو مغمض العينين .

فهذه العلوم أصبحت معروفة للعامة والخاصة : أي لمن اطّلع منهم عليها .  
أفلمت ترى أننا قد حال الله بيننا في الدنيا وبين ما لدينا من علوم ومعارف وجمال وكال ليزيدنا كالا بهذا الجهاد وبهذا الجهل الذي لولاه لكنا عن أعمال شريفة ، ولكم غطى علينا وستر عنا عيوبنا وكالات في أنفسنا نعم وتشقى بها وهي ستكشف عند الموت قال تعالى « فكشفنا عنك غطارك فبصرتك اليوم حديدا » .  
وهنا أممك الحديث :

فقد روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصفه حيث شاء » ثم قال صلى الله عليه وسلم « اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » اه .

أوليس من المعجزة القرآنية والمعجائب الحكيمية أن يقول الله في هذه الآية « واعدوا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » فهو يقول ها أنا ذا حبستكم في الدنيا وحلت بينكم وبين عالم الأرواح وما انطوت عليه نفوسكم ، فإذا سلّتم من عالم الأجسام وخلصت أرواحكم من هذه الأحلام حشرتكم إلى وأنتم مظلومون على جميع ما انصفتكم به من خير وشرّ وكال وقصص ، وإذن يقال « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » ويقال « يوم تجرد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه » .

فكانه قبل في هذه الآية قد حلت بينكم وبين مكنون أعمالكم وأخلاقكم وعلومكم لكي تتأبروا على الأعمال التي تزيدكم رقيا كما حلت بين نهر النيل مثلا وبين انتشاره بلاضابط ولا نظام كيلا يتفرق الماء بلا منعة ، وإنما حفظته ليسقى الزرع ويدرك الضرع .

فهكذا أنتم لم أمكنكم من عوالم القيب والأرواح الجميلة إشفافا عليكم وجبا في كالكم كي تزيدوا استبصارا وإشارة بالأعمال والجهاد والسكّال . وهذه هي الجيولة ، فإذا انكشف الغطاء وقد حشرتكم في الدرجة الثالثة وذلك بالموت حشرتكم إلى .

إذن الحياة حجاب ، والحشر كشف ، ولا يكون ذلك إلا بعد الموت ، فتعجب من بدائع القرآن وغرائبها ، وكيف ذكر التفاضل بين الجيولة بالحياة والكشف بالموت والحشر ، إن في القرآن لمعجائب وبدائع وما يدركها إلا العالمون بكسر اللام .

## لهات الأوار وبواهر الأسرار

في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه الخ »

هذه الآية هي السر الذي ظهر في هذا الزمان بما حصل للمسلمين من الضعف والانكسار ، إن الله عز وجل يحول بين الناس وبين قلوبهم ، وهذه الحيولة تنحصر في ثلاثة أقسام :  
أولها : الأصول الصناعية الدنيوية . ثانيا : الأصول الخلقية . ثالثا : الأصول العلمية .  
أما الأصول الصناعية التي بها يقوى الناس في سيرهم في حياتهم الدنيا وبها يؤدّون ما فرض عليهم منها لأنفع الدمة ذلك نوعان : نوع عام في المسلمين وغيرهم ، ونوع خاص بالمسلمين .  
أما النوع العام في المسلمين وغيرهم فذلك هو البخار والكهرباء والطائرات في الجوّ ، هذه صناعات كانت مجهولة للأمم كلها شرقيا وغربيا ، مسلما وغير مسلما .

(١) كان الناس يرون بأعينهم البخار في قدورهم وهم يطبخون طعامهم صباحا ومساء في الشرق والغرب وأعينهم تنظره وهو يملأ إلى الجوّ وإذا وضوا الغطاء على القدور أخذ البخار يضغط عليه ضغطا شديدا ولو سدّوه سدّا محكما لتحرك القدر بما فيه .

كل ذلك كان الناس يشاهدونه ، ولا ريب أن الذي يضغط على القدر هو نفسه الذي يحرك القطار في البرّ والسفن في البحر بطريق العقل ، ولكن الله حال بين الناس شرقا وغربا وبين هذه النتيجة حتى آن وقتها فأبرز هذا السرّ على يد قوم من ضمايف خلفه في أوروبا وأدركوا اليوم أن هذا البخار أخفّ من الماء (١٧٢٨ مرة) كما أن الهواء أخفّ من الماء (٨٠٠ مرة فقط) .

(٢) وما من امرئ غالبا في الشرق والغرب إلا وقد علم أن الكهرباء يجذب ما يقرب إليه من موادّ خفيفة ، ولكن الله عزّ وجل حال بين الناس وبين قلوبهم فلم يتبعوا هذه الظاهرة حتى يستخرجوا منها تلك القوّة التي بها نضع كل شيء : من سقى لأرضنا وطعن لجنا الخ ، وأبقاها حتى أظهرها في هذا الزمان لما كثر نوع الإنسان .

(٣) (١) وما من امرئ إلا وقد شاهد أن الدخان الخارج من أفراننا ومطابخنا يملأ إلى الجوّ وأن للوادّ الخفيفة كالريش تطير فيه وهكذا يرى الناس الأطفال أيام العيد يلعبون بكرات تطير في الجوّ .

(ب) وهكذا يرى الناس الطيور تطير في جوق السماء وأجسامها أثقل من الهواء .

فهذان النوعان من الأجسام أي الخفيفة التي لا قوّة ترفعها وتحركها واثقيلة التي لها قوّة ترفعها وتحركها أظهرها الله للناس في الشرق والغرب ، ومضت آلاف السنين وقد ستر الله هذا العلم عن قلوب الناس وإن كانت أبصارهم مفتحة حتى إذا جاء الأوان وأراد إظهار السرّ أوعز إلى أناس بالإلهام فاخترعوا النوعين من الطائرات النوع الخفيف الذي يسمى مهاكب الهواء باللسان الأفرنجي (إرشيب) ويسمى بالمرية (منطاد) والنوع الثقيل الذي وضعت فيه القوى المحركة وله لوحان يكناحي الطائر السمي (عريه) بالطائرات .  
وسترى إيضاح هذا في سورة النحل إن شاء الله مع صور تلك الطائرات ، وفي سورة تبارك لتعجب من صنع الله عز وجل الذي حال بين قلوب الناس وبينه في الشرق والغرب فلم يفتنوا للبخار والكهرباء ولاطير وغيرها إلى أجل مسمى .

هذا هو القسم الأول من الأصول الصناعية التي حجباها الله عن الناس قاطبة وحال بين قلوبهم وبينها وإن كانت أعينهم مبصرة وقلوبهم مفكرة فهو بقدرته وحكمته لمصلحة حال بينهم وبين ذلك السرّ العظيم الذي يرونه بيوتهم .



وهذا معنى قوله تعالى « فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » فهمنا أجمع الناس جميعا ولكن الله أعمى القلوب عنها لحكمة حتى جاء الأوان .

وهذا ونحوه هو السد الذي قال الله فيه « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشىهم فهم لا يبصرون » وهو الحجاب في قوله « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » فالحجاب والسد لابريان ولكنهما موجودان عند أكثر النوع الإنساني .

النوع الثاني من الأصول الصناعية التي حال الله بين المسلمين خاصة وبينها إن المسلمين في أقطار الأرض مهما كانوا لازما إلا على وتيرة واحدة ، جهل تام بأكثر الصناعات ، ونوم عميق ، وذلك مترا لم إلا قليلا منهم ، لماذا هذا ؟ لأن الله حال بين أكثرنا وبين المعارف ، لماذا والقرآن طافع بالنظر والفكر .

ذلك لأن أكثر رجال الدين ورتوا علوما خاصة عن أسيانهم فعلوها للناس ولم يشوق قوم لغيرها وصار هذا خلقا يتوارثه الخلف عن السلف .

والإنسان ابن عاده وابن بيته ؛ فظنت الأجيال المتتابعة أن ديننا ليس له دخل إلا في أمور العبادات ونحوها ، وهجر الناس كل علم وكل فن غطى بها أم غيرنا وأصبحنا في أخريات الأمم .

فهذا لما حال الله بيننا وبين تلك الصناعات بسبب الأمراء والجهلاء وبعض العلماء المقلدين الناعمين على فراش الراحة الوثير بما اكتسبوا من العادات وما ورتوا بالتقليد عن أسيانهم فهم لا يعملون .

كل هذا، والمسلم يرى ويسمع أن الأجانب لهم الكلمة العليا في الصناعة والتجارة والقول الفصل في السلم والحرب بما نالوا من قوة الصناعات ولكن حال الله بين المرء وقلبه .

فترى المسلم يرى بينه الخطر المهدق ولكن التقليد وسوء الملكة والمادة ملك عليه مشاعره فأصبح كالأعمى ، كما اتفق للمصريين القدماء إذ عبدوا الهرة فلما حاربهم قنيز ملك القرس وضع الهرر بين الصفيين فامتنع المصري عن الضرب فدخلها القرس وملكوها ، هكذا حال المسلمين اليوم ، وبهذا تم الكلام على الأصول الصناعية وهي القسم الأول من الثلاثة .

#### القسم الثاني الأصول الخلقية

يجيش الإنسان في بيته ووسط فيه مخالقات خلقية وآداب منحطة ، فتراه بسبب الممارسة المتتابعة وبما يرى من أسانده وإخوانه يتنزل إلى أخلاقهم وإن لمس الضرر بنفسه .

ألا ترى - رعاك الله - أن الناس شرقا وغربا يشربون الخمر ويدخنون (الطباقي) ويتعاطون ما لا يبيحه الطب وهم يطمون أنه ضاركة هوة البن والشاي ، بل إن بعض الأطباء الذين يعلمون ضرر المسكرات هم يشربونها ، لماذا هذا ! لأن العادة غلبتهم وحال الله بين الناس وبين قلوبهم .

فهنا الحيولة بسبب الشهوات والعبادة وفي الطيارات والكهرباء والبخار التي تقدمت بخلق الكسل والتقليد واعتقاد المتأخر أن المتقدم قد أكل كل شيء في الوجود .

#### القسم الثالث الأصول العملية وهي فصلان :

الأول في العلوم العاتمة ، والثاني في معرفة الله تعالى

#### الفصل الأول

درج المسلمون في العصور المتأخرة على كتب اعتادوها وعلوم مارسوها كالفقه وعلم التوحيد وظنوا أنهم بهذا أرضوا ربهم فقال الله بين كثير منهم وبين قلوبهم بسبب الخاطلة والمباشرة والتقليد الأعمى واعتقاد التليذ أنه ليس وراء علم أستاذه علم ، وقد فرحوا بما عندهم من العلم « وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

يرى المسلم الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال وقد أكل دراسة علم الفقه وعلم التوحيد على الطريقة التي ورثها عن أسلافه من سنيين وشيعيين ، يرى جمالا في هذا الوجود ، يرى حكمة عالية ، يرى نور الله ظاهرا يكاد يذهب بالأبصار ، يرى قلب الليل والنهار ، يرى جمال الأنهار وبهجة الأشجار ونور الأفتار وجمال الوجود فيروعه ولكنه يحب عن التفكير فيه لأنه اكتفى بما قرأ في الكتب الموروثة فكأنما هذه الكتب لجام له ، أو كأنها سجن سجن فيه .

وقد أشير لها في الحديث الصحيح المفيد أن العالم الذي لا يعمل بجملة يدور في النار كما يدور الحمار في رحاه .

فأكثر المتعلمين يدورون في كتب مخصوصة في الدنيا كأنهم يشاكلون بذلك ما يحصل والعباد بالله يوم القيامة لنير العاملين بملهم في جهنم .

فالمتعلم الذي غشى بصره عن الحقائق يدور في الكتب التي قرأها ويرجع إليها ككرة بعد أخرى ويحبس فيها حبسا مستمرا ويموت جاهلا بهذا الحبس نفسه ، حبس للسلمون عن العلوم ، وهذا الحديث الذي ذكرت لك ملخصه كأنه يشير لهذا الزمان .

ولم لك تقول إن هذا جراءة منك وكيف تصرح بهذا القول ؟ أقول لك لست أنا اللبدي به فاسمع ماجاء في الإحياء ، فقد أورد للزلف في الجزء الأول اعتراضا على نفسه ملخصه :

[ كيف جعلت حد التكلم أنه يحرس عقيدة المومنان عن تشويش البدعة فهو أشبه بالحراس في طريق الحاج يحفظون الأمانة أن تتخطفها الأعراب ، وجعلت حد الفقيه أنه يحفظ القانون الذي به يستعين السلطان على كآف الأشرار ، مع أن الشهور بالفضل هم الفقهاء والتكلمون وقد جردتهما من الصفة الدينية ، كيف هذا ؟ ]

هذا ملخص الاعتراض الذي أورده صاحب الإحياء على نفسه ، ثم أجاب عن هذا الاعتراض بما يطول شرحه وملخصه :

[ إن ما هو مشهور يخالف الحقيقة ، فلي الإنسان أن يعرف الرجال بالحق لا العكس ] وأشير إلى أنه صلى الله عليه وسلم مات عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كأبي بكر وعمر ولم يكن فيهم أحد يحسن صفة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم إلا بضعة عشر رجلا .

ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أئمة العلم ، فقيل له أتقول ذلك وفيما جلة الصحابة ؟ فقال لم أورد علم الفتيا والأحكام وإنما أريد العلم بالله تعالى ، قلت أفترى أنه أراد صفة الكلام والجدل ثم ذكر أن الشهرة عند الناس بالفقه وبالكلام غير الشهرة عند الله .

وأفاد أن شهرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة وفضله بالسرا الذي وقر في نفسه ، وشهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة وفضله بالعلم الذي مات تسعة أعشاره بموته وبقصده التقرب إلى الله في ولايته وعدله وشفقته . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول من القسم الثالث في الأصول العلمية .

الفصل الثاني من الأصول العلمية : معرفة الله تعالى

وذلك أن الإنسان يحول بنفسه خواطر وتتوارد على عقله وساوس فيقول كيف يكون الله واحدا وهو مع كل إنسان وحيوان صغير وجليل ، وكيف يسبح هذا العالم كله ؟ وكيف يطلع على ماني قلبي وقلوب كل مخلوق ؟ ثم كيف يكون قريبا مني مع أنه عظيم كبير . تعال فكيف يكون قريبا بعيدا ؟ يقول المؤمن أنا آمنت بالله ولكن الذي يريد أن يتضح ذلك له ولو بضرب مثل . أذكر لك أيها الذي ماجال بنفسه يوم

الاثنين ١٧ يناير سنة ١٩٢٧ أثناء تقديم هذه السورة للطبع إذ جاست ضحى في ضوء الشمس وهو سبب هذا الموضوع كله .

### الله والشمس

اعلم أن الله عز وجل ضرب للناس مثلا محسوسا لنفسه ، ذلك أن الشمس :

- (١) كبيرة جدا .
  - (٢) كثيرة الضوء .
  - (٣) بعيدة عن الأرض بعدا شاسعا وبراها الإنسان .
  - (٤) قريبة منه .
  - (٥) وإذا جلس للاستدفاها بها يراها في مقابلته كأنها لاتقابل غيره وهي قدر إطار النخل .
  - (٦) والضوء الذى ترسله له خاصة لاحصر لعدد ذراته .
- هكذا لله الذى ليس كمثل شئ . :

- (١) كبير عظيم .
  - (٢) كثير الإنعام .
  - (٣) بعيد للرتبة والعظمة من الإنسان .
  - (٤) وهو قريب علما وقدرة منه .
  - (٥) وكان النعم التى فى الأرض وفى السماء لم تخلق إلا لتكون لك أنت وحدك لأنك لاتعيش إلا بهذا النظام العلم .
  - (٦) والعم التى يرسلها لك لاتحصى .
- هذا هو اللثل المحسوس الذى يراه الناس والحيوان وهم لايفطنون .

### إيضاح بعض صفات هذا اللثل وهو الخامس

وذلك أن الإنسان إذا استدفا بنور الشمس شتاء مثلا يرى أنها تقابله كأنها دائرة الطبل وينظر يمينا ويسارا فلا يرى شئما إلا هذه ، وإذا كانت هى اللقابلة لك فكأنها لاتقابل غيرك .  
ثم إن كل إنسان على سطح أرضنا يرى هذا الرأى وهكذا كل حيوان أرضى أو طائر ، فكل هؤلاء إنما ينظرون مايكاد يحيل لهم أنه خاص بهم .

هذه هى حال كل حى على الأرض يجلس والشمس بخذائه لاسواء وهى فى الحقيقة بخذاء كل واحد من سكانها حيوانا أو إنسانا ، ثم مايقال فى أرضنا يقال فى سواها من السيارات ونوابها وما أكثرها دوائر حولها ، وما أصغر أرضنا وأحقرها بالنسبة لغيرها من السيارات وهى صغرى وكبرى ومجموعها يعد بالمئات لأن هناك سيارات صغيرات دوائر حول الشمس كما هو مدون فى هذا التفسير كثيرا ، وهكذا حولها ذوات الأذئاب التى يقولون عنها إنها كسمك البحر عدا .

فالشمس حولها ما لا يمد من نوابها ، والسكان فى تلك الكواكب والتوابع والأقمار إذا وجدوا تسكون هذه حالهم بحيث يحيل لكل أنها خاصة به عند مقابلتها .  
وهذا اللثل يوضح لنا قوله تعالى :

- (١) « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ، وقوله تعالى أيضا :
- (٢) « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب » ، وقوله :
- (٣) « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو راجعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم » ، وقوله :
- (٤) « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » ، وقوله :
- (٥) « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » ، وقوله :
- (٦) « وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » ، وقوله :

(٧) « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض الخ » ، وقوله :

(٨) « إن الله سريع الحساب » ، وهكذا قوله هنا :

(٩) « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » .

لهذا لصح بشير قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » وستقرؤه في سورة النور ، وتعجب من أن هذا المعنى قد ظهر جليا في أحاديث رؤية الله تعالى ؛ ففي حديث الشيخين عن جرير بن عبد الله قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ( أي لا زدحمون ) إذا شدت لليم أولابنا لكم ضيم ) إذا خفت فإن استطعتم أن لا تنظروا عن صلاة قبل طلوع الشمس وتبيل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » .

وذكر في حديث أبي داود أيضا الشمس ليس دونها سحاب ، ولم يذكر هذه الزيادة الترمذي .

وإن تعجب فمجب ما تسمعه من حديث أبي رزين العقيلي قال : « قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه عاليا به يوم القيامة ؟ قال نعم ! قلت وما آية ذلك في خلقه ؟ قال يا أبا رزين : أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر ؟ عاليا به ؟ قلت بلى ! قال فآية أعظم : إنما هو خلق من خلق الله : يعنى القمر ، فآية أجل وأعظم » أخرجه أبو داود ، وفي حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب : فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » اهـ .

فتأمل حديث أبي رزين ، واعجب كيف ضرب مثلا يشبه ما نحن بسدد الكلام عليه من أن الله يتجلى لكل أحد كأنه له خاصة بحيث يناجيه الإنسان والحيوان وكل حشرة ودابة ، فكل هذه تسأله الرزق وشئون الحياة كأنه خاص بها .

وتأمل كيف كانت هذه الحال مشبهة مثل الشمس والقمر معنا ، فأما الرؤية خاصة بأقوام من نوع الإنسان ، بخلاف السؤال فهو عام .

إن هذا التشبيه لا يحظر بيال شاعر ولا كاتب وإنما هو من مقام أعلى وهو مقام النبوة .

واعلم أن الوصول للحقائق العلمية بعد التخلي من الأخلاق الشائنة هو الوسيلة لرؤية الله تعالى ، والرؤية بالبصر أمر حيواني ، أما الرؤية بالإحاطة بالمعلوم فهو للوصول لذلك المقام ، ومن لم يجد في نفسه شعورا بالنظام الجميل في هذه الدنيا ، فكيف يتصور أن يرى موجد هذا النظام .

إن الله خلق الجمال في صور الإنسان والمخلوقات ليعلم الناس الهيام والفرام بالطواهر إذا كانوا جهالا ، ويرتقى الملاء بالهيام بما هو أجمل وأكل وهو النظام العام والإشراق التام والحكمة الباهرة والأنبياء فوقهم جميعا .

اقرأ مقام الحب في سورة البقرة عند قوله تعالى « يحبونهم كحب الله » . إن من لم يدرك جمال هذا الوجود في هذه الحياة فليس له حظ من رؤية ربه التي تنال بالعلم ، وإن ما نكتبه في هذا التفسير يعين على ذلك .

فإذا كنت أبها الذي به مغرما فاعلم أنك قد فتحت لك باب الوصول ولا تكوص لك بعد الآن وخرجت من الجماهير الذين دخلوا في قوله تعالى هنا « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » فهؤلاء تكون العلوم حاضرة أمامهم وهم لا يعقلونها .

تبين لك من هذا كله أن مثال الشمس واضح جليّ ولكن الله يحول بين الإنسان وبين قلبه فلا يكاد أكثر الناس يقولون سبب هذه الحيولة .

إن الله قريب منا مع بعد مرتبته عنا ، وإنه أقرب إلينا من الوريد الذي هو عرق في الرقبة .  
هذه الحيولة يمتنع الإنسان عن تحمل ما هو محسوس ومحيط به من كل جانب ، لولا هذه الحيولة ماتعاطى الناس ما يضر من مطعم ومشرب .

إن الناس فوق الأرض يكادون يكونون مخلوقين من النور والجمال ، بل هم في الحقيقة جمال ونور .  
إن الذادة التي منها خلقنا ما هي إلا كهرباء مدججة كما هو آخر رأى للعلماء أو روح مجمدة كما هو رأى العلامة ( استوارت ميل ) وكلاهما نور .

هذا بالنسبة لأجسامنا ، أما أرواحنا فأمرها ظاهر ، والإنسان مع هذا كله حيل بينه وبين إدراك حقيقته الجميلة البهية الساطعة ، وهذا من سرّ هذه الآية ، فإن الله حال بيننا وبين نفوسنا ، ولولا هذه الحيولة لسكننا في نور مشرق وجمال باهر يجعلنا في جوّ من النور والجمال والبهاء إلى الأبد .

فهذه الحيولة جاءت لسكننا هذه الأرض الظلمة لتتربى فيها عقولنا مدّة ثم تنتقل إلى عوالم أخرى .

شفاء الصدور ومشرق النور من شموس بازغات ومعان باهرات في هذه الآيات

( يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم واعدوا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون الخ ) .

إن قوله تعالى « دعاكم لما يحبيكم » وقوله « يحول بين المرء وقلبه » فتح باب على مصراعيه للمقول أن تلج الحكمة لتجيا وإلا حيل بيننا وبين السعادة بموت القلب ، والقلب هنا هي اللطيفة القدسية للنبعة من العالم الإلهي .

فلذا ذكر هنا وصف العوالم الشاهدة من كوكب وقر وشمس وسحاب مطرّز بقوس قزح ، ثم نفق بجباب الجسم ثم النفس التي هي المقصودة بالحياة ، وكيف كشف الناس أنها تتربى حال تصبح فيها عالمة بالمستقبل وتتكلم بلغات شتى حال الاضطراب الروحي بالتوهم ، والله حال بيننا وبين ذلك كله ، وهو اليوم يدعونا لطاعته ليكشف عنا الغطاء يوما ما ولو بعد الموت ، فنقول الدنيا قصر منيف على الأكتاف ، واسع الأطراف ، نظرت إلى سقفه إذا هو مجمع العجائب ومثار العرائب قد وشى بطرائف التطريز وغش بكل جميل عزيز ، ازدان بالبرق والرجان ، وتلألأ بمختلف الألوان ، نور وهاج ، ومسراج يتلوه مسراج ؛ فبينما تراه حالك السبابس ، مسود الجوانب ، مرصعا بالدراري الهجات ، للشرقات في الظلمات ، إذا بملاءة يضاء قرية منسوجة من الفضة قد نشرت على وجوه تلك الشرقات ، ونارة يحيل لي أن ذائب اللجين سال في جنبات القصر وصار الجوّ به كالنهر ، ذلك هو نور القمر .

أقول : فبينما أنا على تلك الحال إذا حدث غير تلك العالم ونسخ لك العوالم وهي عرائس الصباح ونواعس الطرف الصباح راقصات في مشارق النور تلالأ بهجات ، وتزدهى ساحرات ، بألوان مخافت ، وتبجلى سافرات ، وقد يحيل للرأى أن أمواج النور جعافل ، وجبوش بواصل ، بأسنة لواع ، ومهندات قواطع ، برزت في للشارق وتراءت في اللطالع ، احتفالا بمقدم ملكة الكواكب ، وسيدة للشارق والعارب ، ذلك هو وصف الصبح .

فبينما نحن نرقب مجتلاها ، لنشاهد مجيهاها ، إذا بالنزلة برزت كالذهب الإبريز ، زينة للناظرين وبهجة المائلين ، فنشرت على السماء جلبابا لازورديا ، فبرقت وجه القمر والنجوم ، وفرشت على الأرض بداطا

ذهباً منمقا بمجمل الأشجار وبديع الأزهار ، مزخرفاً بما في الحشائش والزرورع من بدائع الألوان المختلفة الأشكال للزدهرات البيجات .

#### وصف السحاب وقوس قزح

ونارة تنسج أيدى الرياح في الجنوب أو الشمال مطارف مدهامات وحللا داكنات مندليات من الأملح إلى الآفاق ، في سمت الرأس أعاليها ، وعلى الأرض حواشيها ، وقد طرّزها قوس السحاب بأصفر فوق أخضر يتلوه أحمر وأصفر .

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا على الجوّ دكنا والحواشي على الأرض  
يطرّزها قوس السحاب بأصفر على أخضر في أحمر تحت مبيض  
كهيفة غود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

تلك حال هذا الوجود الذي نميش فيه ، فدنيانا جميلة الهيا ، باهرة الناظر ، ساحرة الطرف ، رشيقة القدّ ، غيداء ، هيفاء ، كلاء ، عبناء ؛ ازينت للناظرين ، زينها ربّ العالمين ، فهي غادة لموب ، وفاتنة طروب ، من عاداتها الدلال والتبغتر في الللائل لا الأغلال ، فهي كما قال كعب بن زهير :

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أوابها العول

الكلام على الكتب السماوية والعارف النفسية والكتب الحكيمية

هذه صفات العوالم للشاهدة التي لأجلها نزلت الكتب السماوية كالنوراة والزرورع والإنجيل والقرآن ، وألفت الكتب وخلقت الحكماء وتتابعت العلماء .

فهنا وحى يوحى لقوى النفوس الشريفة وكتب تؤلف على أيدى حكام ذوي جدّ وتشمير وقوس منقوشة بتلك العوالم مزدانة بأجمل تلك الجواهر .

إن الله أبرز لنا هذا الوجود كتاباً تقرؤه ، هذا الوجود كتاب مسطور في رقّ منشور ، كتاب كتبه يده ، وما أحسن كتابه ، وما أجمل عمله ، وما أبدع صنعه ، كتبه وزينه وأحسنه ، كتب الله هذا الوجود بحروف كبيرة ثم أوحى إلى الأنبياء فكانت الديانات بألفاظ نسمعها وحروف نكتبها ومعان نقلها تدل على نظام هذا الوجود ثم ألهم الحكماء من كل أمة والأولياء من كل دولة فدوّنوا وألقوا لإظهار أسرار الديانات بمختلف اللغات لاجتلاء تلك للشاهدات وفهم الغائبات عن الحسّ والإبصار .

#### الجسم الإنساني

ثم إنه أسكن نفوسنا في أجسامنا ونقش الأجساد بنقوش تضاهي نقوش هذا العالم الكبير ، فنظم الهيكل الإنساني وأبدع فيه من كل سرّ خفي ومظهر جليّ ، فنظم الأعضاء ووزنها وزوّق الوجوه وحسنا ونقش الألوان وزوّقها وسوّى الفواصل وأحكم الأعضاء ، وأبدع الحواس وفصل الحواس ، ورتب الأحشاء ، ونظم مجرى الغذاء وطريق النفس وموارد الدم ومصادره ، كل ذلك شرحت في سورة آل عمران شرحاً جيلاً ونسقت هالك تنسيقاً قويمًا .

فهنا كتب الدين بنسجها الناس كلمات في الهواء بأذانهم أو يبصرونها في الكتب بيونهم ، ونظام هذه الدنيا حروف كبيرة يقرؤها المفكرون ويعرفها العالمون (جمع عالم) بكسر اللام ومختصر هذه الدنيا هو الجسم الإنساني فيه معنى العالم كله كما مرّ في آل عمران .

إذن النفس لها لوحان : لوح كبير هو هذا العالم ، ولوح صغير هو هذا الجسم ، ولها دلاتان : دلالة الكتب السماوية ، ودلالة العلوم الحكيمية .

هذه هي علوم الأولين والآخرين . فافقرأ كتب الدين وتأمل نظام هذه الدنيا وادرس عجائب جسمك .  
بهذا تكون حكما وصديقا نابعا لتبينا صلى الله عليه وسلم بل وارنا من كبار الوارثين .  
النظر في النفس

« وإياك أن تنفل عن أفضل الأمور وأجلها قدرا وأعظمها خطرا ، ألا وهو القلب ، وقد ورد في الآثار  
« قلب المؤمن عرش الرحمن » .

إن ماقلته لك في هذا المقال إملأ من القلب فلا كتاب لذي ولا منظر أمامي ، فأنا الساعة لست أنظر  
إلى السماء ولا الصباح ولا الليل والنهار ولا أمام الأشجار ولا الأنهار ، ولكنني أكتب من لوح القلب ،  
إن الكتب السماوية والدروس الحكيمة وعجائب هذه الدنيا وغرائب الأعضاء الجسمية ، كل ذلك يقصد به  
تكوين النفس بتلك النفوس وإسعادها بما في العروس .

كل ما في هذه الدنيا عيان ولسان وبنان وجنان ، فالبيان كل ما تباينه من السموات والأرضين وغيرها  
والكلام باللسان والكتابة بالبنان معبران عن ذلك العيان ، والقلب هو الذي ترسم فيه تلك النفوس .

غفلة الناس عن القلب

يعيش الناس ويموتون وأكثرهم لا يعلمون أن هناك عالما كبيرا كامنا في نفوسهم . الإنسان يؤمن بأنه يرى  
ولكنه لا يصدق أن نفسه عالم كبير لبراء الناس وإنما يراه هو .

أنا أكتب هذا وكأني أشاهد في لوح نفسي النجوم والسماء والشمس والقمر والصباح والمساء ، وأشاهد  
رسوم الأعداد من الواحد إلى العشرة إلى الألف وهكذا . وألاحظ كل ما بقى من المحفوظ من علم أو نظم  
أو تر . وكل محفوظ يحيل للنفس أن له مكانا رسم فيه . وكأن هذه النفس عالم واسع قد ابتلع عوالمنا التي  
يعيش فيها وزاد عليها ، أنا أكتب هذا وكأن نفسي هي التي على علي .

يقول العلماء : إذا عرف الإنسان هذا الوجود كله وجهل نفسه فقد جهل كل شيء . إن النفس  
هي الباقية لنا في سفرنا وحضرنا وموتنا وحياتنا وهي التي فيها رسمت كل هذه المناظر فصارت لوحنا  
الذي نقرؤه .

انظر إلى رسوم نفسك زرها عجيبة ، وأضرب لك مثلا بالأعداد والكلام المحفوظ والكواكب .  
أنت أيها الذكي تحس في نفسك بالأعداد مرتبة منظمة بترتيبها ولولا هذا الترتيب ما عرفت العدد ولا كوتت  
الحساب وتسمع الجمل العلية وترسم صورتها في نفسك حتى إذا احتجت إليها عرفت ما عندها ، وتفكر  
في الشمس والقمر فتراهما حاضرين في قلبك .

هذه ثلاثة أمثلة :

فالأول : وهو العدد لا وجود له في الخارج ، وإنما وجوده في نفسك فقط وليس في الخارج  
إلا العدود .

والثاني : وهي الجمل ما هي إلا ألفاظ ، والألفاظ صوت والأصوات حركات في الهواء ، والحركات  
تضمحل حين بروزها وتختفي وقت ظهورها .

والثالث : وهو الشمس والقمر باقيان في السماء .

فهيما حفظت النفس لنا ما لا وجود له وهي الأعداد ، وما وجد واضمحل بسرعة وهي الجمل ، وما هو باق  
وهو الشمس والقمر .

إذن النفس أرقى من هذا العالم فإن فيها موجودات لا توجد فيه وفيها تبقى للوجودات التي اضمحلت فيه .  
ألا ترى أنك ترى إنسانا جميل الظلمة يوما ما ثم يدور الدهر دورته فيصبح قبيحا ضعيفا وهو لا يزال في نفسك

على ما كان عليه ، فكانت نفوسنا ساذقة حافظة ، ولادة لاتصدق ولا تحفظ بل فيها تنبؤ الموجودات وتبدل  
والنفس تحفظ .

إن نفوسنا هي للقصور من هذا العالم ، ويقول بعض العلماء [إن الغذاء فينا يلدان حتى تكون خلاصته  
سما وبصرا وفكرا ، وهذا السكر أشبه بسنابل القمع التي دلت بظهورها على أصل بذرها ، فلولا أن  
البذر حب فتح ما كان النأج لثما ] .

إذن أصل العالم فكر أو نفس ، ونفوسنا تسيطر على هذه المواد وتحكم وتخلل وتركب ، إذن هي من عالم  
أسمى من عالم الحس ، وكأنها خلقت هنا للتمرّن والنعم ، وكأن هذا الوجود وهذه الأجسام لوح تفرّوه حتى  
إذا آمنت عملها فارقت الأرض حاملة معها زادها في هيبتها .

إن هذه العلوم الفلسفية والدينية والنظام والطبيعة والمبطل الإنسانى بالتشريح رسوم وقوش تندى  
النفس كغذاء الطعام للأجسام ، وكلما زادت النفس غذاء فكريا ازدادت كمالا حتى تحرب من  
العوالم القدسية .

إن هذا العالم صنع بحساب ونظام ، وعلى مقدار تعقله تحرب النفس من صانه ، وكلما استكملت بالعلم  
ازدادت إلى الصانع شوقا .

وإذا تخفنا عن تلك القوة القدسية المبر عنها (بالقلب) ابتعدنا عن السعادة ، وأمثال هذا هو القصور  
من آية « واعلموا أن الله يحول بين الرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » .

ولما كان الحشر إليه ، وهو لطيف خبير منزّه عن اللادة وجب أن تكون النفوس القريبة منه بعد الحشر  
منفرة بالعلم والحكمة حتى تستمد لغائه ، وهل يجالس الصالحين للوكة .

وفي بعض الأخبار « من عرف نفسه عرف ربه » وفي القرآن « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله  
تعالى ( والشمس وضحاها \* والقمر إذا تلاها \* والنهار إذا جلاها \* والليل إذا يشاها \* والنجم والمايناها \*  
والأرض وماطحاها \* ونفس وماسواها \* فألمها لجورها وبقواها \* قد أفلح من زكاها \* وقد خاب  
من دساها » إن هذه الآيات هي نفس للوضوع الذي ذكره الآن ، وإن هذه الصورة للرسمية لك  
تبيانا لهذا العالم ، ما كنت وقت كتابتها ملاحظا هذه الآيات إذا هي كالتفسير لها ، فإن هذه العوالم  
كلوح للنفس .

إن نفسك هي جنتك وهي نارك ، هي جنة العلوم والمعارف ، وهي نار الجوانح بالشهوات والمداوات  
والذنوب ، إن النعم الأوفى إنما يكون بحمال النفوس ، متى جملت بالعلم والحكمة استغنت عن جميع العوالم  
بلقاء ربها ، ولا يلقى الله وبشاهده إلا نفوس مشرقات ، أما النفوس التي حال الله بينها وبين قلوبها واستعدادها  
فقد حرمت النظر إليه .

إن النفس تصوّرت الجائر والواجب والمستحيل ؛ الجائر بجميع هذا العالم الشاهد كأن تحمل (٤٠) من  
ضرب (٤ في ١٠) أو من ضرب (٥ في ٨) والواجب كالإله والملك وكأن تصوّر أن (٢٥) من ضرب  
(٥ في ٥) والمستحيل كشريك البارى ، وكأن تصوّر أن (٤٠) من ضرب (٥ في ٥) أى أنك تحمك أن  
أربعين مستحيل أن تكون حاصل ضرب هذين العددين ، فهي تصوّرت الواجب وحكمت بشيئته ،  
والمستحيل وحكمت بدمه ، وهي تصوّر للجردات عن اللادة صورا فيها ، ولذلك تنوعت طرق الوصول  
إلى الله وأعان النفس على استحضار معبودها ظهور الشعائر والنار والساجد وللنار ومناسك الحج وأمكنة  
الطواف والوقوف والشاهد المألومة ، كل هذه وأمثالها لتعين النفس على استحضار من هو مجرد



عن المادة ولو كان مشاهدا كما تشاهد الشمس ، وهو حاضر دائما عند حواسنا لم نحتاج إلى جميع هذه الشماثر .

النفس أدركت العلوم الطبيعية التي تحتاج في نقلها إلى المادة في الخارج وفي الدهن ، وأدركت العلوم الرياضية المحتاجة في نقلها إلى المادة في الخارج وفي الدهن ، وأدركت العلوم الإلهية التي لا تحتاج إلى المادة في الخارج ولا في الدهن ، والعلوم الإلهية هي العلوم العالمة كتنظيم العلوم والقرولات الخ .

النفس في حال النوم تعطيك سورة من الدنيا والآخرة

ألا ترى أنك في اليقظة تفكر ونحس ؟ وفي حال النوم كذلك نحلم ونفزع ونفرح ونحزن ثم يمر عليك وقت في النوم لا يكون لك إحساس بهذا الوجود البتة .

ولا معنى لحياة إلا أتي أحسن وأفكر ، فأنا إذئذ عند فقد الشعور والإدراك صرت كالبيت فتشابهت الحلالان : حال البيت وحال التائم الذي لا يشعر ، فما هو أشبه بالموت أصبح من لوازم الحياة ، لانتم الحياة إلا بنوم ، وقد يكون في النوم زوال الحس والشعور .

وللغنى المخوف منه في الموت عند الناس كافة هو فقد ذلك الشعور وقد حصل في نفس الحياة ، وحينئذ يقال إذا حصل فقد الشعور في حياتنا الدنيا ولم يكن سببا في الفناء فربما يكون فقد الشعور بالموت ليس سببا في الفناء ، بل الحياة ربما كانت كاملة وتظهر بحال أخرى .

استيقاظ النفس ونومها يمثلان الحياة والموت

إن الناس في كل يوم ليلة يموتون ويحيون تمرينا على الموت الأكبر والحياة الكبرى ؟ ولقد استدل (سقراط) بتعاقب هاتين الحادثتين على أن الحياة ستكون بعد الموت كما قدمناه في سورة الأنعام ، النفس ترسم فيها صور الآثار الواصلة إليها بالمرض فتتخيل في الأحلام الجنى نارا متأججة تحيط بها ، وتصور الذي اعتراه البرد أو الأمراض الباردة أنه في بحر لجي كما يبرفه أكثر الناس في أنفسهم . وهكذا السوداوى يزاول أعمال الموتى وسواد الأجسام ، وهكذا النفس تجعل لكل ماتدركه صورة تتخيلها له .

إن النفس بحر لجي لا ساحل له ، النفس يحكم ومهما على من يمتس على الحائط بالسقوط ، إن الإنسان إذا مشى على الأرض لا يشغل مقدار عرض الحائط ، ولكن الوم يحس للثاني عليه أنه ساقط لاحتالة فيسقط ذلك لأن وهم النفس صور له السقوط فسقط ، الوم أبرز لصاحب الشهوة البهيمية صورة ما يشتهي من صور النساء والأغذية فتمتع بها في المنام ، وصور لدى القوة النضبية صور الأعداء فجند لهم في ميدان الأخلام والأوهام .

النفس هي التي إذا أدبت وهذبت وربيت لم تؤثر فيها الأوهام ، فترى أولئك اللاعبين الذين درّبوها على المشي على الجبال أو الجلوس على كرسى موضوع فوق عمود مرتفع لا يسقطون كما يشاهد في هذا الزمان ، ذلك لأن الوم اتجه إلى النجاة وضبط الأفكار ، النفس أترت في جسم المحتلم فأفرز مادة من جسمه ، والنفس بالتهذيب والرياضة تؤثر في غيرها إما بالعلم وإما بالآثار الظاهرة .

كل ذلك إشارة إلى أنها في هذا العالم قوة إلهية أنزلها الله إلى الأرض لتكون مظهر جلاله وجماله « وما يعقلها إلا العالمون » ولا يحجب عنها إلا اللغفلون .

هذه فطرة من بحر قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » انتهى .

ياقونة في عقد هذا المقال

بعد أن كتبت هذه المقالة تبين لي أن هذا الموضوع لا آخر له ومنه يفرع علوم الأمم القديمة والحديثة

في النفس ولو أرى أطلت البنان والقلم لطلال بن الأمد ، ولكني أقصر على هذه الياقوتة ضمه أمامك فإنها تضيء لك هذا الوجود وتشرق إشراق الكواكب والشمس والقمر .

ليس للدار على كثرة العلوم ، وإنما للدار على حسن التصرف والتأمل ، وقليل يكفيك خير من كثير يلهيك ، فهذه الياقوتة أهديها إليك فأقول :

انظر في سورة البقرة عند تفسير آية « وما أنزل على اللسكين يابل هاروت وماروت » فإنك تقرأ هناك أنهم في التنويم الغناطيسي في الأكاديمية الطيبة الفرنسية أمروا السيوف (فرواساك) فنوم السيوف كازو للصاب بناء الصرع وقد كان فرواساك في حجرة والسيوف كازو في أخرى ولم يعلم الأخير بحضور الأول ، وحصل ما حصل من إخبار للسيوف كازو المريض عن مرضه ومستقبله ، وكيف تمكن مدلاواته ، وعين اليوم والساعة والدقيقة التي سيأتي فيها المرض ، ثم رى هناك قبل ذلك الدرجات الثلاث المتقدمة في هذا اللقام قريبا .

هذا هو الذي تقدم في سورة البقرة ، وإذا كانت هذه الأمور أصبحت الآن معروفة في أوروبا ، وأن من نتوومه تنوعا تاما تكون هذه حاله .

فإذن أمر النفوس البشرية عظيم جدا مذهش ، ونفسى وضك فيهما هذه القدرة وقد حال الله بيننا وبينها وهو يدعونا لبحيينا بالطاعة حتى يرد إلينا ملكنا العظيم في هذه النفس ، وإذن نفهم هذه الآية فنحن في هذه الحياة قد حال الله بيننا وبين قلوبنا .

فأعجب للقرآن وأعجب للتعبير بالحيلولة ، وكن ما عشت مفكرا ذا كرا نمتس حكما تقياً وترقب هذه الحال التي انطوى قلبك عليها .

إن الآية تشير إلى أننا في هذه الحياة أموات لأنه حال بيننا وبين قلوبنا ، ولقد وجدنا أن قلوبنا تمل عجائب لانهاية لها وتقدر على ما لا تقدر عليه في حال التنويم .

فهذه الحياة كأنها موت وهو يدعونا للحياة فأنكست القضية ، غيبتنا موت وموتنا حياة وهذا ما يفسر ما ورد في الآثار « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

باسبحان الله وبأسعدانه ، إن هذه المقالة فتحت باب لفهم قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ومن قرأ كتب علماء الأزواج في العصر الحاضر واطلع على علوم المنود وما تضمنه كتاب [ راجابوقا ] المؤلف باللغة الإنجليزية مترجما من اللغة الأوردية أدرك بعض سر « قل الروح من أمر ربي » إن ما جاء في تلك الكتب هو الذي أشار له قوله تعالى « وقال الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقوله « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فهاهو ذا الله قد أطلع الأمم اليوم على بعض سر الروح الذي هو بعض آيات الله في الأنفس وعجائبها ، فإذا كان أهل البيانات قديما والسلمون يؤمنون بأمر الروح إيمانا ، فإن الدين اطلعوا على كتب الأمم يؤمنون يقينا .

وكيف لا يوقن للره بسر الروح ؟ والروح قد تبدت عجائبها في المجالس الروحية وبدا جمالها ونطق الأسك وأبصر الأعمى وبرع في العلم النقي الجاهل وبرز في الفلسفة من لا يحسن خطا ولا يقرأ كتابا ولا يجير جوابا إعلانا لاسرا ، ومنى فارق تلك الحال رجع إلى سيرته .

إن رجال الصوفية في الإسلام قد ظهر لهم بالرياضات نفس ما ظهر بالتنويم الغناطيسي اليوم ، وذكر زهاد الهند وعبادهم من تلك الأسرار ما لا يكاد يتخيله العقل وآبوا جميعا بالسبب العجيب من إخبار بالمغيبات

وأعمال عجيبات ، وقد بدفن التليذ في قبره ستة أشهر ثم يخرجونه ويكشفون الغطاء عنه ويخرج من الصندوق في جمع حافل ثم يتحرك ويتكلم .

ولقد صنع بعضهم هذه العجائب على ملامن الناس في هذه السنة والتي قبلها في إنجلترا وقد شهدها القوم في السارح العامة وقد أغمى على السيدات عند مشاهدتهم تلك الظاهرة ، فأمرت الحكومة بعدم تكرار هذا رقما بالنساء والضعاف منهم .

هذا كله من سرّ قوله تعالى « قل الروح من أمر ربي » إن النوع الإنساني مقبل على سعادة لا يعلم بها الآن ، وهذه السعادة وهذا الملك العظيم هو الآن كامن في أنفسهم ، ويظهر تارة بالعبادة وأخرى بالرياضة وأخرى بالتنويم للغناطيسي لحظة . فإذا استيقظ ذلك النائم لم يدر شيئا مما كان يعرفه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعم المذكور في قوله تعالى « وإذا رأيت ثم رأيت نبيها وملكا كبيرا » عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقام ربهم شرابا طهورا » في تلك الحياة التي جاءت في قوله تعالى « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » فقوله « لو كانوا يعلمون » إشارة إلى أن الناس حجبوا عنه .

حصر الله الحياة في تلك الحال مؤكداً بأن وباللام ، فلا حياة إلا تلك الحياة التي ظهرت طلائعها فيها ذكرناه وحال الله بيننا وبينها .

وهذا هو المعنى اللطوي في قوله تعالى هنا « لما يحييكم » فهذه هي الحياة المذكورة في آيتنا وما نحن عليه في الدنيا موت . فأهل الأرض اليوم ميتون في حياتهم الحيوانية التي بسببها حال الله بينهم وبين تلك الحياة .

ويقول علماء الهند في الكتاب المتقدم ، إن سرّ هذا العالم كله في الإنسان مخبوء في عجب ذنبه ، وإن هذا العجب في نظرم مرآة للوجود كله وإن الرياضة والعبادة والذكر والعلم والفلسفة كل هذه تمنع الحجاب الحاجز للنفس بين عجب الذنب وعلومه وبين الدماغ الإنساني .

وإن علوم أهل الأرض التي وقفوا عليها من طريق الحواس والعقل تصل للخ من طريق أعصاب الحس والحركة والفكر .

أما أسرار الملك والملكوت المحجوبة في عجب الذنب فإنها تترامى للعقل بطريق الانطباع من عجب الذنب في اللغ .

وإنما ذكرت هذه التي لا برهان عليها ولا أيّ دليل ، لأن عجب الذنب المذكور في الأحاديث أنه هو الباقي الذي لا يفنى كالروح .

فهذا هو العجب العجيب أن يكون كلام الهنود منذ آلاف السنين بطريق العلم للكتسب بالرياضة هو الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهذا معجزة له صلى الله عليه وسلم ذكرتها استطرادا لمسألة الحياة في قوله تعالى هنا « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » انتهى .

ضوء اليقظة وازدياد في عجائبها

إن تعجب فتعجب ماجاء في كتابي للسمى : [ كتاب الأرواح ] صفحة ١٩٢ من ذكر حادثة مذهشة في سنة ١٨٧٣ ذكرت جرائد أوروبا وأمريكا ، وهي أن المؤلف الإنجليزي ديكنس فاجأته اللبنة في مدينة لندن سنة ١٨٧٠ قبل أن يتم روايته للدعوة [ أسرار ادوين برود ] فأعماها بدم موته على يد الوسيط الأمريكي ( جيمس ) في مدينة ( بوستون ) وجيمس هذا لم يكن إلا غلاما سائما قليل العلم يقضى أيامه في إتقان حرفه

وافق أنه حضر سنة ١٨٧٢ في إحدى ليالي (تشرين الأول) جلسة روحانية تجلّى فيها روح ديكنس وطلب أن يكون جيمس المذكور وسيطاً يتمّ به روايته فقبل جيمس وصار يجلس كل ليلة وتتحرّك يده وهي تكتب القرائيس أقوالاً لا يعلمها، ودام على ذلك سبعة أشهر أكل فيها الرواية بألف ومائتي قرطاس ، ولقد شهد رجال الصحافة عموماً أنه يستحيل على القارىء أن يميز بين ما كتبه ديكنس قبل موته وبين ما كتبه الوسيط جيمس مد موته أقلّ اختلاف لا في الإنشاء ولا في الخط ولا في نسق الرواية ، حتى إن الأغلاط الإملائية التي كان للؤلّف في حياته يتأداها بقيت كما هي اه .

وفي صفحة ١٩٣ من هذا الكتاب نقلا عن علماء الأرواح في عصرنا مانصه :  
وتمد جاءت مقالات في الفلسفة والعلوم والفنون والتاريخ واللغات الأجنبية كتبها الأرواح على أيدى تيان حديش السن أو فتيات ساذجات لا يحسن القراءة اه .

وجاء في صفحة ١٩٨ من الكتاب المذكور نقلا عن المشرع الفقيه (سارجان كوكس) ماتعريه :  
كثيراً ما رأيت غلاماً صيرفياً وهو وسيط عار عن كل علم وتهذيب يجادل عند استيلاء الروح عليه قوماً من الفلاسفة في مسائل للنطق ومعرفة الغيب والإرادة والقدرة وغالباً كان يفهمهم بأجوبته السديدة وأنا نفسي أقيت عليه يوماً بعضاً من معضلات علم النفس غلظها لي يراهمين قاطبة وألفاظ في منهن الرقة والفصاحة مع أنه في حاله الطبيعية لا يدري ما الفلسفة ولا يجد ألفاظاً يعبر بها عن أفكاره الصغيرة .

وجاء في صفحة ٢٨٠ من الكتاب المذكور (الطبعة الثانية) إنه ليس كل ما جاء في الكتاب المذكور مسلماً به ، بل حال البرزخ ، مشكلة فلا تتخذ الأقوال الروحانية كلها دليلاً إلا ماورد عن أرواح تية وساعده الدليل .

آراء علماء الإسلام في النفس الإنسانية وصفاتها واطلاعها على العجائب

وقد جاء في صفحة ٢٨١ من الكتاب المذكور (الطبعة الثانية) :

اعلم أن مناجاة الأرواح هي الصفة الخاصة لأمة الإسلام لاسيما رجال الصوفية ، وهذا شائع ذائع ولكن الناس يكذبون ما لا يعلمون ، وهناك ما قاله الإمام الغزالي في كتابه [ كيمياء السعادة ] :  
اعلم أنه ، آمن أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر السقيم ويبان الحق على سبيل الإلهام ، وذلك لا يدخل من طارق الحواس بل يدخل في القلب لا يعرف من أين جاء ، لأن القلب من عالم الملكوت والحواس مخلوقة لهذا العالم .

ثم قال : ولا تظن أن هذه الطاقة تفتح بالنوم والموت فقط ، بل تفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة وتخلص من بد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة .

فإذا جاس في مكان خال وعطل طريق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت وقال دائماً : الله الله بقلبه دون لسانه إلى أن يصير لآخر معه من نفسه ولا من العالم ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله انفتحت له تلك الطاقة وأبصر في اليقظة الذي يصره في النوم فنظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة وانكشف له ملكوت السموات والأرض رأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « زويت لي الأرض فرأيت مشارقتها ومعاربها » وقال عز وجل « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » إلى آخر ما هنالك فافرأه إن شئت .

فانظر في هذا القول الجامع إذ جعل الانكشاف في النوم وفي الموت وفي صفاء النفس .

ولا جرم أن النوم قهان : نوم طبيعي ، ونوم صناعي ، والصناعي هو الذي استعمله اليوم علماء أوروبا المسمى (التنويم المغناطيسي) الذي تقدّم في هذا المقام كالغلام الصيرفي الذي يجادل في الفلسفة والنطق في تلك

الحال ، وكانتم الصانع جيمس الذي أمته رواية ديكنس بعد موته ، فهذان وغيرها ممن يعدون بالآلاف كشف لهم العلم في نومهم الصامى .

وهكذا نجد العلامة (أوليفر لودج) أكبر علماء الإنجليز في الطبيعة وهو معاصر لنا يقول : إنى حادثت الأموات وعرفت أن هناك أرواحا أعلى منا نهم بنا وتحيط بنا من كل جانب ، فعرفت أن ما كان يقوله الأنبياء والقديسون من مساعدة اللائكة ومساعدة الله نفسه لنا هو كلام حق وليس مجازا ولا موارد ، ولكن هؤلاء عرفوا ذلك بصفاء نفوسهم .

أما أنا فلم أوفق لطريقهم ، وإنما طريق على لا غير ولكنه مؤد إلى ما أدت إليه طريقهم من حيث النتيجة واليقين اه .

وهنا تبدي من جليسى هذا السؤال فقال : هذا بيان جميل جامع علوم الشرق والغرب في هذه المسألة وأنت إذا لم تذكر كلام علماء الإسلام لم يهتم بما تنقله عن الفرنجة أم الإسلام ، فمن أجل الحكمة وأعجبها أن وفقك الله لجمع الرأي الشرق والغرب في مقام واحد مع الإيضاح ، ولكنى أريد أن تفصل القول بعض التفصيل في طرق الصوفية في الإسلام ، ثم بيان الكشف هل نهم به ونجمل حياتنا وفقا عليه أم ماذا تكون السيل ؟ قلت له : أما طرق الصوفية فإنها واسعة النطاق لاحد لها :

الطرق فه بدد أغناس المخلوقات وكما اختلف النبات وتمددت اختلفت الطرق فه وتمددت ، ويقولون إن الجوع والسهر والسمت والمزلة هي الأركان الأربعة لها .

وترى في الإحياء للإمام الغزالي شرح طريقة الجوع ، وذلك أنهم يأمرسون التلاميذ بإفلال الطعام تدريجا حتى يصل إلى أقصى حد في القلة .

ومن أسهل تلك الطرق أن يتناول الإنسان الطعام في مواعيد خاصة ثم يؤخر للعباد كل يوم دقائق معلومة بحيث لا يضر صحته ولا يشعر بتعب وجوع ولا يزال يؤخر كل يوم ذلك للوعد حتى يأكل كل يوم مرة ثم يزيد إلى يومين ثم ثلاثة وهكذا إلى عشر ثم إلى ٢٠ ثم إلى ٤٠ وهناك يفتح له هذا الباب وذلك بشروط خاصة .

ثم إن هذه الطريقة وأمثالها مما لا يحصى اعترضها قوم قالوا آمنا أن العلوم تفتح أبوابها بهذا ولكن أكثر الناس لا يقدرون عليها وإذا قدروا كان ذلك خطرا عليهم إذ لا علم عند اللريد بصون به فكره من الوسواس بل ربما جن ، ثم قالوا : وخير الآراء أن يتعلم اللريد أولا ثم يهذب نفسه آخرا . هذه هي ملخص آراء علماء الاسلام .

وأما قول صاحبى هل نهم بالكشف ونجمل حياتنا وفقا عليه ؟ لجوابه أن للدار على تهذيب النفس تهديبا على قدر الإمكان حتى نكون أئمة وسطا فالتطرف يضيع الأم ، فلما سمع ذلك قال لم أفهم ما تريد ، قلت يقول علماء الصوفية إن الكشف للريد يحدثه الله له في فترات ليثبت به عقيدته ، فأما إذا اطمان للريد وعرف أن هذه المجاهدات لها ثمرات فإن دوام الكشف له يعوقه عن ارتقاء نفسه ، فما دام ناقصا تكشف له أحوال بعض إخوانه أو بعض الأمور المستقبلية ، فإذا كل علم هو نفسه أن ذلك نقص ، فإذا يستعيد باقه منه وينفر .

وخير الفتح والكشف إنما هو الكشف العلمى ومعرفة الحقائق التي يزيد بها جلاء صفاء النفس ، فهذا هو الكشف المأمود .

فإذا سمعت أن رجلا صوفيا يجرب بما في قلوب الناس أو أحوالهم أو مستقبلهم فاعلم أنه إن اعتر بهذه الحال وفرح بها فإنها تصده عن العلوم والعارف ويصبح شيطانا رجيا والناس يظنون من الأولياء ، وما هو

بولى إن هو إلا رجل أتجعت نفسه لأمر شهوانى لجمع الناس حوله ليفرح بهم وبأخذ مالهم ويشاركهم فى المرض الزائل ولا فرق بينه وبين أرباب الأموال وأرباب الجمال وأرباب الصيت والشهرة فى علم أو فن ، فكل هؤلاء لهم حظ دنيوى ناقص ويكون هؤلاء أشبه بالمتوهم ( بالفتح ) اللغاطيسى الذى يخبر بما لا يعرف . ولقد قرأت فى بعض كتب الإمام الشيرازى ماعناه أن الرجل السوقى أفضل من المجدوب الذى لا عمل له فإنه ينفخ الناس .

وفيه أيضا أن الإنسان قد يكون من أولياء الله لاجتهاده ولكن الله يؤخر له كشف الحقائق إلى ما بعد الموت اه .

هذا هو الذى فتح الله به فى هذا اللقام ، وأنا قد أضفت الكلام فيه لدقته وعظم شأنه ولأنه هو الذى فتح الله به على « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم - وفوق كل ذى علم عليم » .

واعلم أن الأمم إذا اتجهت أكبرها لفتح الحس الباطنى اتجها كلها انحدرت إلى الانحطاط كما فى أهل الهند وبعض أم الإسلام للتأخرين ، وإنما السبيل التوسط فى الأمر فيكون الناس وسطا يهذبون نفوسهم ويقروون العلوم ويأخذون من كل فن طرفا .

وهذه طريقة الإسلام كما تقدم عن الإمام الغزالى ، ولذلك سموا أمة وسطا فلا هم فى الشهوة وحدها مغمورون ، ولا على الباطن وحده عاكفون ، وفى القرآن « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » .

هذا ذكرته لتعلم تفسير قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون » اه صباح الأحد ٢ رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية .

#### اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة

هذه اللطائف الأربع ذات علاقة ومناسبة لللطيفة الثالثة ، ذلك أن هذه اللطيفة الثالثة قد شرح فيها كيف كان الإنسان محجوبا عن عالمه مغمورا فى حماته تائها فى يدها المادة الجرمانية وشهواته الجثمانية كما اوضح فى قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فانظر كيف أتبعها بالنهى عن الأعمال التى توجب أذى الجمهور وضياع الأمة وتمزقها وضرر المجموع .

ألا وإن النوع الإنسانى اليوم على هذه الأرض مغمور فى جهاته تأه فى يدها ظالم جهول ، فكما جهل نفسه فى اللطيفة قبلها جهل اتصاله بالمجموع فأصبح يتلمس فى الظلام السعادة ، وما هو واقع بسعيد ، وأنت لو فقتت فى أهل الشرق والغرب لرأيت مسألة النوع الإنسانى واتصال بعضه ببعض واحتياج أهل الشرق إلى الغرب والعكس قد أصبحت واضحة ظاهرة .

فترى أهل روسيا إذا قلّ القمح من بلادهم يحتاج لذلك أعصاب الإنجليز ، وقل نظير ذلك فى القطن والحرير والصلح والحرب والمرض وما أشبه ذلك .

فالأمم الأرضية اليوم متصلة اتصالا حقيقيا لا شك فيه ، كل ذلك معلوم ولكن القوى العاقلة فى النوع الإنسانى لم تبلغ منزلتها السامية ومقامها الرفيع فهم كالأطفال ، فترى كل أمة فى حاجة إلى أختها ثم هى تحاربها وتتواطئ لتصل على ما فى يدها .

هذا فى الأمم ومثلها الأفراد ، فكل أمة أفرادها محتاج بعضهم لبعض وبارتقاء المجموع يرتقى الفرد وبتدها تميز الأشياء ، ومع ذلك ترى الرجل يبحث على حنف أخيه ويودّ لو يصبح فقيرا سائلا أو مريضا .

كل ذلك للجهالة العمياء والضلالة الكتعاء ، وقد يقدر الرجل أن يصلح المجموع فيكسل أو ييخل ، وإنما كسله ويخفه على نفسه لأن المجموع إذا سعد فقد سعد مثله ، وإذا شق فقد شق مثله ، وهكذا ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

كل ذلك مضمف للجموع ، والفرد عضو من هذا الهيكل الكبير وهو الأمم كما في معنى الحديث الشريف « مثل للؤمنين في تعاونهم وتعاظمهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .  
 فإذا جهل الإنسان نفسه في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فهو يجهل المجموع وواجبه تراكم الشهوات حتى أصبح الأفراد والأمم يجهلون أنهم لاجياة لهم إلا بالمجموع فيلتمن بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا ، فالجهل في المجموع كالجهل في الأفراد .  
 وأما اللطيفة الخامسة : فإنها نابعة للتين قبلها وهي ثمرتهما وتبجتهما إذ استبان فيها تقدم في الرابطة أن ترك معاونة المجموع ضرر كبير وجهل عظيم .

فالتعاون إذن يورث السيادة والسعادة في الدنيا والآخرة ؛ ولذلك قال هنا « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يخطفكم الناس » ثم تفرقكم وعدم اهتمامكم بمجموعكم « فأوكم وأيدكم بنصره » لما اجتمعتم .

وأما اللطيفة السادسة ، وهي « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول الخ » فهي كسواجتها النظر فيها للمجموع لا للأفراد يقصد بها التحاب والتعاون وعدم الحيانة فيكون الناس كأعضاء أسرة واحدة .  
 وقد نزلت هذه الآية كما قال السدي في جماعة كانوا يسمعون السر من النبي صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ الشركيين .

وقال جابر بن عبد الله : إن أبا سفيان خرج من مكة فأخبر به جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبر النبي أصحابه وقال اخرجوا إليه واكنتموا ، قال فكتب رجل من المنافقين إليه أن محمدا يريدكم فخذوا حذركم ، فأرسل الله عز وجل هذه الآية .

وأيا نزلت في أبي لباة ، وذلك « أنه صلى الله عليه وسلم حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوه الصلح كما صلح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرع وأرجاء بأرض الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل لنا أبا لباة وكان مناصحا لهم لأن عياله وماله في أيديهم فبعث إليهم فقالوا ما ترى هل نزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار إلى حلقه أنه الدبع ، قال أبو لباة : فما زالت قدامي حتى علت أني خنت الله ورسوله فنزلت فتدّ نفسه على سارية في السجد وقال والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليّ لمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشيا عليه ثم ناب الله عليه فقيل له قد تيب عليك خلّ نفسك فقال لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه خلّه بيده ، فقال إن من تمام نوبتي أن أهبجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أخلع من مالي ، فقال عليه الصلاة والسلام بمجزيك الثلث أن تصدق به » .

وأما اللطيفة السابعة : فهي من نتائج السابقات إذ جعل الأموال والبنين فتنة بهما يشغل الإنسان عن مجموع الأئمة وعلى قدر التهاون بالمجموع يعتمد الإنسان عن الله عز وجل ويقلّ نصره في الدنيا والآخرة ؛ فالمال والبنون فتنة وامتحان للمرء في هذه الدنيا فيختبر المرء فإن جمع بين المال والولد ولم يشغلاه عن المجموع كان عبد الله حقا ، ومن طمست بصيرته فاكتفى بما لديه فإنه جهل المجموع ولم يعرف نظام الانسانية العاتية ولا الانسانية الدينية وكفى بالجهل بابا للعداب في جهنم وبئس القرار .

### (القِصْمُ الرَّابِعُ)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ

الله ، والله خير الماكرين \* وإذا ثلثي عليهم آياتنا قالوا قد ميمنا لو نشاء لقلنا مثل  
 هذا إن هذا إلا أساطير الأولين \* وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك  
 فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم \* وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم  
 وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون \* وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد  
 الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون \* وما كان  
 صلاحهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون \* إن الذين  
 كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم  
 يُملأون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله الحبيث من الطيب ويمجّل الحبيث  
 بمضه على بعض فيزكمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون \* قل للذين كفروا  
 إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف وإن يؤدوا فقد مضت سنت الأولين \* وقَاتِلُوهُمْ حَتَّى  
 لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَمْشَوْنَ بِصِيرٌ \* وَإِن تَوَلَّوْا  
 فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النصيرُ .

## التفسير اللفظي

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر نعمه على المؤمنين بقوتهم بعد ضعفهم وبصرهم بعد ذلمهم وبلمتهم بعد  
 خوفهم أعقبه بذكر ما أنعم به على النبي صلى الله عليه وسلم فيما اتفق له في مكة ، وكان وقت نزول هذه  
 الآيات بالمدينة .

وحصل ما ذكره للفسرون في سبب نزول هذه الآيات أن قريشا خافوا لما أسلم الأنصار أن يعظم أمر رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع ضم من كفار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمره فاعترضهم إبليس في سورة  
 شيخ نجدى فدخل معهم فقال أبو البحتري رأيت أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه  
 طعامه وشرا به منها حتى يموت ، فقال الشيخ النجدى : بشى الرأي بأبيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من  
 أيديكم ، فقال هشام بن عمرو : رأيت أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع ، فقال  
 بشى الرأي : يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم ، فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما  
 وتطووه سيفا صارما فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على ضرب قريش  
 كلهم ، فإذا طلبوا القتل عقتناه ، فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه ، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه  
 وسلم وأخبره الخبر وأمره بالمهجرة فبيت عليا رضي الله عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله عنه إلى  
 النحر ، وذكر بعضهم أنه أخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على  
 رءوسهم وهو يقرأ « إنا جعلنا في أعتابهم أغلالا - إلى قوله - فأغشيناهم فهم لا يبصرون » وبات الشركون



بحرسون عليا وهو على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ناروا إليه ليقنطوه فأروه عليا ، فقالوا له : أين صاحبك ؟ قال لا أدري : فاقنطوا أثره وأرسلوا في طلبه ، فلما بلغوا النار رأوا على باب نسيج العنكبوت ، فقالوا لو دخله لم يكن لنسيج العنكبوت على بابه أثر ، فكشك في النار ثلاثاً ثم خرج إلى المدينة .

قال القاضي رحمه الله : إن هذه القصة موافقة للقرآن ولكن حديث إبليس وظهوره بصورة إنسان باطل ولقد ردّ عليه العلامة الرازي ، أما أنا فأقول : إن العلم الحديث جعل مثل هذه الأمور جائزة ، فإن الأرواح الشريرة تظهر بأشكال شتى ولا مانع من ذلك ، وليس للقام مقام تحقيق فإنه ليس بهم في تفسير الآية .

وهذا هو قوله تعالى ( وإذ يمكر بك الذين كفروا ) أصل الكفر الاحتيال في خفية ( ليثبتوك ) ليحبسوك وهو رأي أبي البختري ( أو يقتلوك ) وهو رأي أبي جهل ( أو يخرجوك ) طردا وهو رأي هشام بن عمرو كما تقدم ( ويمكرون ويمكر الله ) يماثلهم معاملة الماكرين بأن أخرجهم إلى بدر وقتل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا ( والله خير للماكرين ) أي مكره . أتخذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً . ثم اعلم أن النضر بن الحارث من بني عبد الدار كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رسم وأسفنديار وأحاديث العجم وكان يمرّ بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرءون التوراة والإنجيل وركعون ويسجدون ويكون ، فلما جاء مكة وجد النبي صلى الله عليه وسلم قد أوحى إليه وهو يقرأ ووصى فقال النضر بن الحارث ( قد سمعنا ) يعني مثل هذا الذي جاء به محمد ( لو نشاء لقلنا مثل هذا ) الخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك إنه كلام الله فقال ( اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ) أي فضأنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب القيل ( أو اثنتا بئذاب أليم ) نوع آخر من جنس العذاب الأليم وقد أجاب الله دعاءه فقتل صبياً يوم بدر .

وللقصود من هذا القول التهم وإظهار اليقين على كونه باطلاً .

وروى أيضا البخاري ومسلم عن أنس أن أبا جهل قال قال النضر فنزلت ( وما كان الله يعذبهم وأنت فيهم ) الآية ، فلما أخرجوه نزلت ( وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ) .

#### إيضاح القام

قالوا نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة ، ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون فأزل الله ( وما كان الله يعذبهم وهم يستغفرون ) .

ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين ، أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدم .

وقال ابن عباس لم يذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ، قال الله « وما كان الله يعذبهم وأنت فيهم وما كان الله يعذبهم وهم يستغفرون » يعني للمسلمين ، فلما خرجوا قال الله « وما لهم ألا يعذبهم الله » وهذا هو قوله تعالى « وإذا تلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا » إلى قوله « وهم يستغفرون » ثم قال تعالى « وما لهم ألا يعذبهم الله » أي أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله بالقتل والأسر بعد خروجك من بين أظهرهم « وهم يصدون عن المسجد الحرام » أي وحالم ذلك ، ومن ذلك الصدّ إلجام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية ( وما كانوا أولياءه ) مستحقين ولاية أمره مع شركهم ، وذلك ردّ لما كانوا يقولون : نحن ولادة البيت والحرم فصعد من نشاء وندخل من نشاء ( إن أوليائه

(إلا للتقوى) من الشرك (ولكن أكثرهم لا يلهون) أنه لا ولاية لهم عليه ، وأما أفلمهم فإنه يعلم أن دين الإسلام حق ولكنه يعاند ويكابر كبرياء وخيلاء .

وكيف يكونون ولاية البيت (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ؟) أي صغيرا وتصفيقا . وكيف يكون الصغير بالغم والتصفيق بالدين صلاة ، وذلك لأنهم كانوا على دين الخليل عليه السلام وقد مضت الأحقاب نلو الأحقاب والقوم قد خلوا من الحكمة فأقبلت صلاتهم مدعاة للضحك والسخرية من صغير وتصفيق كما يضل بعض جهلاء الصوفية من ضرب على الدفوف ورفع الأصوات في الطرقات وفي المساجد .

ولقد تفتن القوم في هذه الجهالة العمياء ونسوا الصلاة الإسلامية والتوجه لدى الجلال والإكرام فيها والتوجه بالقلب لله في العبادة شأن كل دين نام عنه حكاؤه وغاب عنه علمائه وذهبت دوله وضاع مجده وتبدل شأنه وغابت شمسه وأقبل ظلامه وذهب ضياؤه ومضاؤه واستبدل بسعوده نحسا ورففته خفضا وبأوجه حضيضا وبصرفه ضمة ، ساء مثلا القوم الجاهلون .

قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عمارة يصفرون ويصفقون ، ويقال مكا الطائر يمكو : إذا صفر .

وقال حسان بن ثابت صلاتهم التصدي والكاء ، ولذلك عندهم الله فقال ( فذوقوا العذاب ) أي القتل والأسر يوم بدر وعذاب الآخرة يوم القيامة ( بما كنتم تكفرون ) اعتقادا وعملا . هذه هي عبادتهم البدنية وهي : للكاء والتصدية .

وأما عبادتهم الليلية التي لا جدوى لها أيضا ، فذلك أنه لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان عبره إلى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وسفوان بن أمية في رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وأبناءؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا يا مشر قريش إن محمدا قد تركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربيه لعلنا ندرك منه نأرا بمن أصيب منا فحصل ذلك يوم أحد فقال الله فيهم ( إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ) أي كان غرضهم في الإنفاق الصد عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبيل الله ( فيستنفقونها ثم تكون عليهم حسرة ) ثم تكون عاقبة إنفاقها ندما وحسرة ( ثم يظنون ) آخر الأمر وقد تمّ ذلك كله وهنا من دلائل النبوة لأنه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر ( والذين كفروا ) أي الذين ثبتوا على الكفر منهم لأن بعضهم قد أسلم ( إلى جهنم يحشرون ) يساقون ، وإنما يحشرون ( ليميز الله الحبيث من الطيب ) الفريق الحبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين ( ويجعل الحبيث ) الفريق الحبيث ( بضه على بعض فريقه جيما ) فيجعله ( فيجعله في جهنم ) أي الفريق الحبيث ( أولئك ) الإشارة للفريق الحبيث ( هم الخاسرون ) أنفسهم وأموالهم ( قل للذين كفروا ) أي أبي سفيان وأصحابه ( إن ينتهوا ) عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتله بالخول في الإسلام ( ينفر لهم ما قد سلف ) لهم من العداوة ( وإن يعودوا ) لقاتله ( قد مضت سنة الأولين ) بإهلاك أعداء الأنبياء في الدنيا ونصر الأنبياء والأولياء .

وقد أجمع العلماء أن الإسلام يجب ما قبله ، وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية واللالية ، وهو ساعة إسلامه كيوم ولده أمه فليس عليه ذنب (وقاتلوم حتى لا تكون قننة) لا يوجد فيهم شرك ( ويكون الدين كله لله ) أي تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره ( فإن انتهوا ) عن الشرك وإبداء المؤمنين والصد عن سبيل الله ( فإن الله بما يعملون بصير ) فلا يخفى عليه شيء ( وإن تولوا ) يبنى

أعرضوا عن الإيمان وأصرروا على الكفر وعادوا إلى القتال (فاعلموا أن الله مولاكم) وليكم وناصركم وحافظكم فتقوا به ولا تبالوا بمعادنهم (نعم المولى) لا يضيع من تولاها (ونعم النصير) لا يظلب من نصره ، فمن كان في حفظه ونصره وكفايته وكلامه فهو له نعم المولى ونعم النصير .

لطيفة في قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » وفي بقية الآيات

اعلم أن هذا اللقاه مقام إظهار الحقائق وإبطال الأباطيل وأن الله ناصر الصادقين وخاذل الباطلين ولم يقصه علينا مجرد التلاوة ولا مجرد القصص ولكن أنزله الله وقرئ على طول الأزمان ليكون ذلك عبرة لنا .

واعلم أيها الذكي أني ما كتبت في هذا التفسير حرفاً ولا خطت بقلبي كلمة إلا وفي قلبي استشعار النصر ورجاء الرحمة واعتقاد النعمة ، ألا وإن هذا زمان المعلوم والعرفان وإن الله قد قلب الكرة الأرضية فجعلها إنما ردولاً تجدد في العلم وتبحث في هذه العوالم المحيطة بنا وإني قد انبثت همي من إبان سفري لتدوين الحقائق العملية مع الآيات القرآنية وقد وجدتها في نفسي كالقطرة والكرزية فلم أقدر على مكابحتها ولم يمكن دفعها .

وقد قال علماء النفس الإسلاميون والصوفية منهم: إن فكر الطاعة إذا كان ثابتاً في النفس هادئاً دائماً فإنه من الله ، وصدء ما كان من الشيطان وفكرة الثرائي تحدث باستفزاز من الشيطان وفكرة الخير المستفزة للره الوقتية أيضاً تكون من اللاتسكة .

ولقد وجدت نفسي تائفة لهذه الباحث عاكفة عليها ، وكم شد على التكبير قوم وكم أوذيت في هذه السبيل ولكن النصر وجدته حليقي وإعانة الله كانت تكوّنني والشجعات القلبية والأخبار الواسعة من الآفاق وآلاء الله المترادفة وإعاناته المتتابعة وعرفانه للتوالي وإلهامه الصادق وولائه الدائم .

كل ذلك قد حل في نفسي محلاً جعلها تثق بعون الله ، وبأن هذه الأمة الإسلامية ستنبؤ مكانها اللائق بها ونحل محلها الرفيع ، ومقامها البديع ، ومجدها الباذخ ، وعزها الشامخ ، وسعادتها المستقبلية ، وأن الله سينير أطوار هذه الأمة من الجهل إلى العلم ، ومن السكون إلى الحركة ، ومن الدل إلى العز ، ومن الضعة إلى الشرف .

وسيطهر في هذه الأمة حكاماً صادقون وعلماء محققون ويكونون شرف الإنسانية وذخر الأمة الحميدة ويكون لهم القدح اللؤلؤ في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وسيكون فيهم من يتبع صنعة ربه وبدائمه ويستقرءون هذا التفسير وما مثله من كتب علماء الإسلام في بلاد الشرق .

وهذه الصفة يدرون الوجود وما حواء ونظام الكواكب وما والاه وعجائب النبات وما سقاء وبدائع الحيوان وما غذاء ، وغرائب الهواء في مجراه ، وأنواع الماء في مسراه ، وفي باطن الأرض ومنها .

وهذا سرّ قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » . اللهم إني وتعت بوعذك وقد وعدتنا في القرآن . اللهم آتم النعمة على هذه الأمة التي استنلسا الظالمون وحقرها الأورويون . اللهم أعزها وانصرها وعلها وانشلها من الجهالة العمياء إلى نور العلم اللبين . انتهى الكلام في القسم الرابع .

( الْقِسْمُ الْخَامِسُ )

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ

وَإِنَّ السَّبِيلَ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ لِلْإِنْسَانِ  
 وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَّةِ الْآخِرَةِ وَالرَّكِبُ أَسْفَلَ  
 مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ فِي الْمِيَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ  
 مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيُنجِي مَنْ حَىٰ عَن بَيْتِنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ \* إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي  
 مَنَازِلِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَسِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ  
 بِذَاتِ الصُّدُورِ \* وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّكُمُ فِي أَعْيُنِهِمْ  
 لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً  
 فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ \* وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا  
 فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا  
 مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَاطٌ \* وَإِذْ  
 زَيْنٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَصْحَابُهُمْ وَقَالَ لَأَغْلِبَنَّ لَكُمْ يَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا  
 تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَزَىٰ مَالًا تَرَوْنَ إِنِّي  
 أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ  
 دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ اتَّوَفَى الَّذِينَ كَفَرُوا  
 الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ \* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ  
 وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ \* كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ  
 فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُنْتَبِئًا بِنِعْمَةٍ  
 أَنْصَحًا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ  
 وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ  
 وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ \* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ عَاهَدتْ  
 مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ \* فَإِنَّمَا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدتْ  
 بِهِمْ مَنْ خَلَفْتُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ \* وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ \* وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اسْتَبَقُوا إِلَهُمْ لَا يُعْجِزُونَ \* وَأَعِدُوا لَهُمْ  
 مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْمِيُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ  
 لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظلمُونَ \*  
 وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ  
 يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ \* وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ  
 أَفْتَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ  
 حَكِيمٌ \* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ  
 عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ  
 يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ \* الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ  
 فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ  
 يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى  
 يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا  
 كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* فَكُلُوا مِمَّا غَنِيْتُمْ حَلَالًا  
 طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسْرَى إِنْ  
 يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
 رَحِيمٌ \* وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \*  
 إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا  
 وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ  
 شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ  
 وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ \* وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِ أَوْلِيَاءِ بَعْضٍ إِلَّا تَقْلُوبُهُ  
 تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

مقدمة لتفسير هذه الآيات

اعلم أن العنيفة ما أخذ من مال الكفار على سبيل الفهر والغلبة بإعفاف خيل عليه وركاب ، والني ما أخذ من مال الكفار بغير إعفاف خيل ولا ركاب .

وقد ذكر حكم الغنائم هنا ، وملخصه : أنها تقسم خمسة أقسام : أربعة منها للفاتحين ، وواحد يقسم على خمسة أقسام : قسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خمس الخمس ، وقسم لأقاربه وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بن عبد شمس وبنو نوفل ، وقد استحقوه لما روى « أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان بكلمان النبي صلى الله عليه وسلم فبما يقسم من الخمس في بنو هاشم وبنو المطلب ، قال قلت : يا رسول الله أعطيت بنو المطلب وتركنا ونحن وهم بمنزلة واحدة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد . وفي رواية : إنما بنو المطلب لا تترق في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه » وقسم لليتامى ، وقسم للساكنين ، وقسم لابن السبيل وهو للسافر البعيد عن ماله . وأما الخمس الأربعة الباقية : فيعطى للفارس منها ثلاثة أسهم : سهم له وسهمان لفارسه ، ويعطى الرجال سهما واحدا .

وقال أبو حنيفة للفارس سهمان وللرجل سهم ، وترضع للعبيد والنسوان والسيبان إذا حضروا القتال وحكم العفار حكم القبول .

وعند أبي حنيفة بخير الإمام بين أن يجعل العفار مقسما بينهم وبين أن يجعله للمصالح العامة ، ومن قتل مشركا استحق سلبه . والسلب كل ما كان على القتل من ملبوس وسلاح وهكذا الفرس الذي كان يركبه .

ثم إن خمس الخمس التي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر الذي لدوى القرين قد سقط بوفاته صلى الله عليه وسلم وصار الكل مصروفا إلى الثلاثة الباقية عند أبي حنيفة .

وقال مالك : الأمر في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض إلى الإمام يصرفه إلى ما يراه أمرا . وأما النبي فذهب الشافعي في أحد قوله أنه لمصالح المسلمين ويعطى أولا للقتلة ما يكفيهم ثم الأمم فالأهم من المصالح والأكثر على هذا .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان له خمس الخمس فإنه كان يعطيه أحيانا لمن يراه أهلا . روى عبادة بن الصامت قال : « أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبرة من جنب بئر ، فقال : أيها الناس إنه لا يحل لي مما آتاه الله عليكم قدر هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم » أخرجه النسائي .

إذا عرفت هذا فما أسهل أن تعرف قوله تعالى ( واعلموا أنما غنمتم ) أي الذي أخذتموه من مال الكفار قهرا ( من شيء ) مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخبيط ( فإن لله خمسة ) أي ثنابت لله خمسة وإنما ذكر الله لتعظيمه ، لأن الله له ملك السموات والأرض لا خمس الخمس المذكور في الآية ( وللرسول

والذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) ولقد تقدمت تفصيل القول في هذا آخفا ، وأزيد عليه هنا أن سمى النبي صلى الله عليه وسلم كان الشيخان أبو بكر وعمر بصرفانه إلى مصالح المسلمين عامة كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم ، وهناك أقوال غير هذه ضربنا عنها صفحا ، ثم قال ( إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ) محمد من الآيات والملائكة والنصر (يوم الفرقان) أى يوم بدر الذى به فرقنا بين الحق والباطل (يوم التقي الجمعان) للمسلمون والكفار ، يقول الله « إن كنتم آمنتم الخ » فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واتبعوا بالأخماس الأربعة الباقية .

فالتصود بالذات هنا العمل بالأمر لا مجرد العلم ( والله على كل شيء قدير ) فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة .

ثم إن الله قد أظهر في هذه الفزوة من الحكم الباهرة ما يؤيد النبوة ويثبت قلوب المؤمنين : [ الحكمة الأولى ] إن المؤمنين لما نزلوا بدرا كانوا بشفير الوادى الذى هو أقرب إلى المدينة . والشفير هو الشط وهو المدوة مثلث العين ، وكانت هذه المدوة رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا يمشى فيها إلا يتعب ولم يكن فيها ماء .

[ الثانية ] أن كفار مكة كانوا بالمدوة التى هي أبعد من المدينة وأقصى منها وفيها الماء ولا تسوخ فيها الأرجل .

[ الثالثة ] أن ركب أبي سفيان للمبر عنه بالمبر كان في مكان أسفل : أى عند شاطئ البحر ، فكان قريبا من كفار مكة يستظفرون بهم عند الحاجة ، والسافة بين الركب وبدر ثلاثة أميال .

[ الرابعة ] أن المؤمنين لما خرجوا ليأخذوا المبر خرج الكفار ليمسوها من المسلمين فالتقوا على غير ميداد ، فكيف تمكن الحاربة إذن بين عدوين قوى مستمد وضعيف غير مستمد ؟ ولو أن الضيف واعد القوى للقتال ثم علم حقيقة الأمر لتخلف طيبا ، فكيف به وهو لم يواعد ؟

فهذه الحكم الأربعة هي الآتى ذكرها في الآيات على الترتيب ، والحكمتان الأوليان في حكم الواحدة فكانتاهما ثلاث حكم ، وهذا قوله تعالى ( إذ أنتم بالمدوة الدنيا ) بدل من يوم الفرقان ( وم بالمدوة القصوى والركب أسفل منكم ) أى في مكان أسفل منكم ، والجملة حال من الظرف قبله ( ولو تواعدتم ) أتم وم القتال ( لاختلفتم في الميداد ) هية منهم وبأسا من الظفر .

كل ذلك دلالة على أن هذا النصر إنما هو من الله وأنه من دلائل النبوة وهو مما زاد المؤمنين إيمانا ( ولكن ) جمع بينكم على هذه الحال ( ليقضى الله أمرا كان مفعولا ) حقيقا بأن يفعل وهو نصر للمؤمنين وخذلان الكافرين ، ثم علق بقوله « مفعولا » قوله ( ليهلك ) ليكفر ( من هلك عن بينة ) من كفر بعد حجة قامت عليه ( ورجبا من حى عن بينة ) ويؤمن من آمن على مثل ذلك ، فالهلاك هو الكفر والحياة هي الإيمان ، أو ليضل من ضل على بينة ويهتدى من اهتدى على بينة ، أو يموت من يموت على بينة عاينها ، ويبقى من يبقى عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعدرة ، فإن وقعة بدر من الآيات الصبية الواضحة ( وإن الله لسميع ) لأقوالهم ( عليم ) بكفر من كفر وعقابه ، وإيمان من آمن ونوابه .

وهنا أخذ بذكر حكمة أخرى ، فقال تعالى ( إذ يريكم الله في منامك ) إلى قوله ( وإلى الله ترجع الأمور ) وحاصله أن الله سبحانه وتعالى أرى النبي صلى الله عليه وسلم المشركين قليلا فأخبر أصحابه بذلك فكان ذلك تشجيعا لهم على عدوهم ، ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى كثيرا في المنام لفشل أصحابه : أى جبنوا عن القتال وتنازعوا في أمر القتال وترددوا ( ولكن الله سلم ) أى عصم المسلمين من التنازع والمخالفة فيما بينهم وسلمهم من الهزيمة ، ثم إنه لما التقي الجمعان أرى الله للمسلمين أعداء قليلا في أعينهم حتى قال ابن مسعود

رضى الله عنه لمن إلى جنبه أترام سبعين ، فقال أترام مائة ، وذلك ليثبت الله قلوبهم وليصدقوا رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم .

وكما قلل الكافرين في أعين المسلمين قلل للمسلمين في أعين المشركين حتى قال أبو جهل إن عمدا وأصحابه أكلة جزور فلا تقتلوهم واربطوهم في الجبال استقلالا لهم واستصنارا لشأنهم لقتلهم في عينه ، ثم قال سبحانه (ليقض الله أمرا كان مفعولا) أي أمرا كائنا ، وهو إعلاء كلمة الله ونصر أوليائه وإذلال المشركين ، وتكرير هذه الجملة لسببين مختلفين : فهناك القضاء للبرم باستيلاء المسلمين وغلبتهم على الكافرين مع اختلاف القوى وتباعد الأحوال ، وهنا القضاء بتقليل الكثير في الأعين ليكون ذلك باعثا على القتال ، فهما قضاآن بأمرين مختلفين : أحدهما سبب والآخر مسبب .

#### لطفة

إن قصة بدر قد فصلت تفصيلا في مواضع مختلفة بحيث حالت تحليلا مفصلا ولكل جزء منها حكمة .  
ألا ترى أن الله ذكر في أول السورة :

- (١) الناس الذي اعترام . (٢) ونزول الماء عليهم .  
(٣) وتطهيرهم به . (٤) وزوال رجز الشيطان عنهم .  
(٥) وثبيت قلوبهم .

وهناك سادس وهو إلهام الملائكة لهم بالتبشير ، وبضهم شاهدم .

وههنا زاد كونهم بالعدوة الدنيا وهو السابع .

وكون العدو بالعدوة القصوى وهو الثامن .

وكون الركب جهة ساحل البحر وهو التاسع .

وكونهم حاربوا على غير استعداد وهو العاشر .

وكون النبي صلى الله عليه وسلم رآهم في منامه قليلا وهو الحادي عشر .

وكون للمسلمين رؤوم لما التقوا قليلا وهو الثاني عشر .

وكون الكفار رأوا للمسلمين في أعينهم قليلا وهو الثالث عشر .

وجاء في سورة آل عمران أن الله كثر للؤمنين في أعين المشركين : أي بعد احتدام وطيس الحرب ،

كما قال « يرونهم مثليهم رأي العين » فصار للؤمنون الدين هم ثلث للمشركين تقريبا في أعين المشركين مثل عدد المشركين ، وهذا هو الرابع عشر .

فانظر أيها القدي كيف ذكر القرآن (١٤) مسألة في غزوة بدر بحيث لم يذكر تماسا يشام ولا مطرا يستقيم ولا خاطرا في نفوسهم ولا رؤيا في منام نبينا صلى الله عليه وسلم ولا رؤية أعينهم ولا منزلهم الذي ينزلون فيه ولا ترابا يمشون عليه إلا ذكره وأظهر حكته .

أليس هذا من العجب !! أليس هذا التحليل يدلنا أن تفكر فيما يحصل لنا من العجائب في حياتنا الدنيا وأن تفكر فيما ينزل بنا من خير أو شر ثم نعرف حكمة الله فيه .

إن أحوالنا كلها سلسلة متصلة شر وخير ، ومرض وصحة وآراء تعرض لنا ، فطيك أيها العاقل أن تفكر في كل ما يصيبك وما تناله وأن تحللها كما حلل الله غزوة بدر وتلتبس لكل حال حكمة وتساءل الله أن يملك حكمة ما حصل لك . فإن هذا يفتح بصائرنا ، وينور قرائننا ، ويشرح صدورنا ، ويدلنا على عيوبنا ويصيرنا بذنوبنا وبرشدنا إلى طرق الصواب ؛ ولرب حادثة واحدة في حياتنا مزججة تنير بصائرنا إذا تأملناها .



وتفكر أيها العاقل فيما مرّ عليك فستجد من حكم الله فيها ومن العجائب ما لا يشاركك فيها سواك ،  
فلعل امرئ 'تاريخ حياته مستقل عن سواه ، وإياك أن تستهزئ بتاريخ حياتك ؛ فلتعلم أنه مملوء من  
العجائب متى فكرت فيه ، كما أن الزهرة الواحدة تحمل كنزا من العلم للتفكرين ولا يعرف لها معنى  
من لا يفكرون .

وانظر إلى أحوالك وكيف نجد نفسك يوما قد أحببت إنسانا حتى عشقته ووثقت بامرئ حتى جئت  
قائما بشئونك كلها ثم يرى بعد حين أن هذا المحبوب للعشوق ليس أهلا للعبه ولا للعشق ، وأن هذا اللوثوق به  
ليس أهلا للثقة فتقلب الحال وتبدل العواطف والأخلاق ويصبح المحبوب مكروها والأمين خائنا حقا  
أو باطلا ، وهكذا كل ما حولنا وما نسمعه من القول والسير وما نشاهده من الأمور والصناعات .

فترى زيدا تزين له صناعة الحدادة ، فأما عمرو فإنه يزدريها ، وهكذا ترى جميع أحوالنا ، كذلك  
الأغذية والملابس والمساكن ، ولذلك ترى الناس لا يزالون يتقبلون ويتقلون من حال إلى حال ويخترعون .  
وبهذه الآيات أظهر الله أنه غالب على أمره لا فرق بين الصالحين والطالحين والأنبياء والمرسلين .

فهاهو ذا سيحانه أرى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام أن القوم قليل ثم أراهم للمؤمنين كذلك نهرا  
فظنوا أن الألف مائة أو أقل ، ورأى أهل مكة أن المؤمنين لا يصح أن يقاثلوا بل يربطون بالحبال ، وبعد  
أن دارت للمركة رأوا أن عدد نحو ثلثائة يبلغ ألفين فانهزموا .

كل ذلك ليمّ أمره وينفذ حكمه في خلقه ونحن نشاهد ذلك في أحوالنا ، فترى زيدا يؤثر بقوله فينا  
وهو كاذب فأصبح القليل كثيرا في أعيننا ثم نعمل به وبسمه آخر منا ، فيقول هذا كاذب في دعواه فبرى  
كثير ادعائه كاذبا فيجهم عن آرائه ، وكل هذا كالنظير على قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين  
المرء وقلبه » .

ألا ترى أنه حال بين الشركين وبين قلوبهم لما أراهم للمؤمنين قليلا جدا ، وبين المسلمين وقلوبهم حين  
أراهم للشركين مائة ، وبين الشركين وقلوبهم لما رأوا المسلمين ضميمهم فنقد أمره بهذه الآراء التي أحدثها  
في النفوس .

هكذا حال بين زيد وقلبه حين صدق عمرا لما أكثر القليل وخذعه وغشه في معاملته ، وإنما فعل الله  
ذلك بزيد ليهذبه ويصيره بالمواقب ، فإن لم يتبصر بذلك توالى خطيئته في أعماله .

بل الحياة الدنيا كلها وشهواتها ولذاتها وأموالها وجنودها وجيوشها وممالكها وحب الإقامة فيها من  
باب تكثير القليل إذ تراها أضعاف ما هي عليه من المنفعة وبعد حين تعرف حقيقتها ، وبرى الزهاد  
أن عظيمها حقير وكبيرها صغير .

كل هذا لتكثير القليل وتقليل الكثير « وما الحياة الدنيا إلا متاع الزور » ويظهر أن هذه الحياة  
كسرح التمثيل وحواسن وشهواتها تكبر لنا صورها والحقيقة مخفية وراء هذه الصور للزوقة ، والنتيجة  
من هذه الصور والأشكال والخداع الأعين والأبصار وتوالى الغفلات علينا وتزيين الشهوات لنا  
والحيولة بيننا وبين قلوبنا .

كل ذلك لتبصر وتدرك أمر هذه الحياة وتتوّر جأرتنا وترتقي عقولنا ونعرف أن الحياة الدنيا لب  
ولهو ونستنبط الحكمة والعلم من هذه الأشكال كما تستنبط أجسامنا من اللواتى التذائبة حاجتها وترى باقيا  
خارج الجسم ؛ فلئن تماطينا الماء والهواء والحجر وحرارة الشمس فإن أجسامنا تعمل فيها أعمالا كيميائية هجينة  
وتصطنع من ذلك مادة الغذاء الصافية وتوزعها على جميع أعضاء الجسم وترى بالباقي من الماء والهواء خارجه  
وإن زادت الحرارة فينا تداوينا منها .

هكذا هذه الصور والأشكال المحيطة بنا يجب أن تدرك العقول حقائق التصود منها ولا تصبأ بها ؛ فاللوت والحياة والقي والقر والصحة والمرض والمهبة والكراهة والمز والضمه ، كل هذه صور تمثل فينا ونحن للمثلون لها لتعرف حقائقها وتهذبنا بوقائدها وتدونها في نفوسنا وترفع بها إلى اللأ الأمل حتى إذا فارقتنا هذه الممار كانت لنا سلاحا وجناحا نظير به في العلا ولا نبقى مع الجاهلين الذين يتسكعون في الطريق إلى الله بعد اللوت .

وللتأمل في أحوالنا نجد أننا أشبه بالمتوهمين تنوعا مناظيسيا ، قد رأينا أن للنوم ( بالكسر ) جطى للنوم حنظلا ويقول هو سكر فيستلذه ، وبسطيه سكر فيقول هو حنظل فيتأذى منه ، وهكذا يجعله يتكيف بما يقوله ويظن نفسه كما يوحى إليه للنوم .

هكذا نجد أحوال الناس في الدنيا ، ترى غوسنا تتقلب تهلبا كثيرا كما تقدم في الحديث « إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن » وهو متردد أبدا بين للتضادات والتناقضات وكأننا في هذه الحياة نيام ، فإذا انحلت أربطتنا من هذا الجسد سعدنا إلى عالم أهل ويقظنا من غفلتنا ويقال لنا إن بصرنا حديد .

ومما يسترى أنفسنا ما يكثر القليل ويقل الكثير كما في غزوة بدر ، فتقليل الكثير هناك نظيره عند الناس قاطبة للنظار القرب قد قل السافة بيننا وبين للنظور ، وهكذا نظير تكثير القليل المنظار المعظم فإنه يرينا الصغير كبيرا ، وهذا قوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا متاع الفرور » انتهى .

ثم أخذ سبحانه وتعالى يحظ للؤمنين فأمرهم أولا أن يشبثوا في الحرب ولا ينهزموا ويلاقوا الأعداء بقلوب واثقة بالنصر ووعد الله والدار الآخرة .

وثانيا أن يذكروا الله في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستصرين به داعين على عدوهم « اللهم اخنم » وذلك يكون سبب الصلاح والظفر والنصر والثواب فينبغي للمبد ألا يشغلته شيء عن ذكر الله وأن يتجسب إليه عند الشدائد ويقبل عليه فارغ البال واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه في سائر الأحوال .

وثالثا أن يطيعوا الله والرسول فيما أمروا به ونهوا عنه على كل حال .

ورابعا أن لا يتنازعوا باختلاف الآراء كما اختلفوا بيدر ، فإن ذلك يورث القشل والجبن والضعف وينهب ربحهم ، أي قوتهم ونصرتهم .

وخامسا أن يصبروا عند لقاء العدو في كل حال ، فإن الله ينصر الصابرين ويهينهم .

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وروى الشيخان أيضا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا » .

وسادسا : ناهم أن يكونوا كأهل مكة الذين خرجوا من ديارهم أي من مكة (بطرا) غرا وأشرا (ورثاء الناس) ليقتلوا عليهم بالشجاعة والساحة .

وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة واقام رسول أبي سفيان أن ارجعو فقد سلت ميركم ، فقال أبو جهل : لا والله حتى تقدم بدرا وتشرب بها الخمر وتعزف علينا القينات ونظم بها من حضرنا من العرب ويسمع بنا الناس فلا يزالون يهاوتنا أبدا فامضوا فوافقوها ، ولكن ماذا شربوا ؟ شربوا كأس النون وذاقوا العذاب المون وبكت عليهم الباكيات ورتلت نساؤهم وبتعت أطفالمهم (ويصدون عن سبيل الله) أي ويمنون الناس عن الدخول في دين الله ، فنهى الله عباده أن لا يكون عملهم للربا ولا للتماس ما عند الناس ، وأمرهم الله أن يخلصوا لله النية وأن يكون قتالهم حسبة في نصر دينهم ومؤازرة نبيهم صلى الله عليه وسلم وأن لا يعملوا إلا لذلك ولا يطلبوا غيره (واقه بما يعملون محيط) .

وهذا وعيد وتهديد ، يعنى أنه تعالى عالم بجميع أعمال العباد ، فيجازى المحسن بإحسانه ويصافى للمسيء بإساءته ، وهذا هو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم فثابثوا واذكروا الله كثيرا) إلى قوله (والله بما يعملون محيط) .

ثم أخذ سبحانه في إتمام الكلام على الشركين وكيف قلبت الحقائق عندهم وحيل بينهم وبين قلوبهم فقال (وإذ زين لهم الشيطان) أي واذكر (أعمالهم) في معاداة النبي صلى الله عليه وسلم بالسوسة (وقال لأغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) وذلك بما يوسوس في نفوسهم فيرون الفخر والعز والشرف وبعد الصيت والسعة فيما تخيلوه من أنهم يظنون المؤمنين وأنهم لا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأن ذلك كله قريب إلى الله والله ينجيهم من ينصره (فلما ترامت العشتان) أي تلاقى الفريقان (نكص على عقبيه) رجع القهقري أي بطل كيد وأصبح ما تخيلوه نفرا وشرفا سبب الهلاك والضمة والذلة (وقال إنى برى منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله) أي تبرأ منهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله للمؤمنين بالملائكة ، وهذا المعنى قاله الحسن واختاره ابن بحر ، وقيل إن الآية على ظاهرها .

وذلك أن قريشا لما أجمعت على السير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة ، وكان ذلك يشبههم فتمثل لهم إبليس بصورة سراقه بن مالك الكنانى وقال : لأغالب لكم اليوم وإنى مجيركم من بنى كنانة ، فلما رأى للملائكة تنزل نكص ، وكانت يده في يد الحارث بن هشام ، فقال له إلى أين آخذنا في هذه الحالة ؟ فقال «إنى أرى ما لا ترون» ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهمزوا ، فلما بلغوا مكة قال هزم الناس سراقه فبلغه ذلك فقال : والله ما شرعت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان فيكون على هذا قوله «إنى أخاف الله» إنى أخافه إذ يصيبني بمكروه من للملائكة أو نحو ذلك (والله شديد العقاب) لمن كفر وطغى ؛ واذكر (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض) أي الذين هم مؤمنون ولكن بقيت عندهم شبهة (غرة هؤلاء) المؤمنين (دينهم) فتعرضوا للهلاك وهم ثلثائة وبضعة عشر رجلا يقاتلون نحو ألف ، فأجلب الله قاتلا (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز) لا يذل من استجار به ، غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى كما سلط البعوض على القمل فلا يقدر على التخلص منه ، وكما يسلط القدرات السهاة مكروبا على الإنسان والحيوان (حكيم) يفعل بحكته البالغة في هذا العالم ما تستبده العقول ، ويجز عن إدراكه أولو الألباب ، ويجعل من الفحم الحجرى الذى كان من أمد قديم في باطن الأرض نارا ونورا وأنواعا من الأصباغ والألوان والمجانب مع أن منظره ليس فيه إلا أنه لحم أسود اللون لاشية فيه .

وهكذا يفعل بحكته الصجب العجيب ، قال تعالى (ولو ترى) ولو طابنت وشاهدت فإن لو تجعل الضارح ماضيا ، وإن جكسها (إذ) ظرف ترى (يتوفى الذين كفروا للملائكة) بيد : أي ولو رأيت الكفرة حين يتوفاهن للملائكة : أي يقبضون أرواحهم بيد حال كونهم (يضربون وجوههم) إذا أقبلوا (وأبهرهم) أي

ظهورهم إذا أدبروا (و) يقولون (ذوقوا عذاب الحريق) أي ذوقوا مقدمة عذاب النار، وجواب لو محذوف أي رأيت أمرا فظيحا .

ذلك الضرب والعتاب (بما قدمت أيديكم) بسبب ما كسبت من السكر والمعاصي وهو خبر ذلك ، ثم عطف على لفظ ما قوله (وأن الله ليس بظلام للصيد) أي بذى ظلم .

يقول : ذلك العتاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم ، وبأن الله ليس بظلام للصيد لأن تعذيب الكفار من العدل ، والمراد باليد هنا القدرة ، ثم قال (كذاب آل فرعون) أي دأب هؤلاء وعادتهم كذاب آل فرعون وعادتهم وطريقهم (والذين من قبلهم) من قبل آل فرعون ثم بين دأبهم فقال (كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم) كما أخذ هؤلاء (إن الله قوي شديد العقاب) لا يفلته في دفعه شيء (ذلك) أي ما حل بهم (بأن الله) بسبب أن الله (لم يك مغفرا نعمة أتمها على قوم حتى يفرروا ما بأنفسهم) يبدؤوا ما بهم من حال إلى حال أسوأ .

وذلك أن الله أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث لهم رسولا من أنفسهم فقابلوا هذه النعم بالكفران فلم يشكروها وكذبوا رسوله وقطعوا الرحم وغيروا ما بأنفسهم فسلهم الله النعمة وأخذهم بالعقاب .

قال السدي : نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله إلى الأنصار (وأن الله سميع) لما يقول مكذبو الرسل (عليم) بما يفعلون فيجازيهم بما فعلوا (كذاب آل فرعون) تكرير للتأكيد يعني أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون (والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم) فبعضهم أهلكتناه بالرجفة ، وبعضهم بالحسف وبعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالريح ، وبعضهم بالسخ ، فكذاك أهلكتنا كفار قريش بالسيف (وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين) يعني الأولين والآخرين .

واعلم أن هذه الآية كما كررت للتأكيد كانت لبيان أن آل فرعون أهلكتوا بالإعراق وأنهم جحدوا نعم التربة ، وأمم من ذلك كله حكمة عالية وآية هجية .

ذلك أن هذه السورة مدنية ولقد نزلت سور كثيرة من القرآن في مكة ، وجميع السور اللكية فيها إهلاك الأمم بالكفر .

ولقد ذكرت قصص الأمم وأخبارها كثيرا في سور مختلفة بحيث أصبح ذلك مألوفا معروفا لقراء القرآن وفي تلك السور كلها إشارات وتصريحات أن للكافرين للذي صلى الله عليه وسلم سيكونون مثل الأمم الساجدة يصيبهم ما أصابهم .

ألا ترى إلى قوله تعالى « أم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكتناهم » وإلى قوله « وكان من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلاناصر لهم » وقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بباد » إلى قوله « وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فسب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » .

وهكذا كانت السور اللكية مشحونة بهذا الإنذار والتخويف ، وهو صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لا جيش له ولا حماية ولا قوة ولا سلاح ، ولا يظن أنه يكون كذلك بمن كانوا حوله ، فلما هاجر إلى المدينة ونصر في غزوة بدر وهزم أهل مكة ذكرهم الله فقال « كذاب آل فرعون » وكررها منها على حصول ما كانوا ينفرون به ، وهذا هو السبب في تكرارها تنبيها على العبرة .

ولعمري إن هذه هي المعجزة حقا ، وكيف لا تكون من أهمّ المعجزات وقد حصل النذر به وأهلكتوا كما كانوا يندرون اه .

ثم قال تعالى « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا » أصروا على الكفر ( فهم لا يؤمنون ) فلا يتوقع منهم إيمان ( الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ) بدل من الذين كفروا بدل البعض تبينا ونحصا .

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد يهود بني قريظة ألا يجاروا ولا يماونوا عليه أحدا فنقضوا العهد وأماوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم قالوا نسينا وأخطأنا فآهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضا ومآلوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فواقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والراد بالمرّة مرة للماهدة والمخاربة ( وهم لا يتقون ) أي لا يخافون الله في نقض العهد ولا سبة النذر وميثته ، ومن جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب ( فلما تنفخهم ) تصادفهم وتظفر بهم ( في الحرب فترد بهم من خلفهم ) .

قال ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم . وقال سعيد بن جبير : أنذر بهم من خلفهم . والتشريد تفريق على اضطراب ( لهمم يذكرون ) أي لعل ذلك النكال يمنهم من نقض العهد ( وإما تخافن من قوم ) معاهدن ( خيانة ) نقض عهد بأمارات تلوح لك ( فأنذ إليهم ) فاطرح إليهم عهدهم ( على سواء ) يعني على طريق ظاهر مستو : يعني أعلمهم قبل حريك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم بنقض العهد سواء فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولا بنصب الحرب معهم ، وهذا إذا ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح من غير استفاضة كما يفهمه لفظ تخافن ، حينئذ يجب على الإمام أن ينذ إليهم العهد ويعلمهم الحرب ، وذلك كما اتفق لبني قريظة إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه فظاهرهم على النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم النذر به وبأصحابه ؛ وأما إذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فلا حاجة للإمام إلى نذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم إلا وحيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بجر الظهران ، وذلك على أربع فراسخ من مكة ، وقد علل سبحانه الأمر بنذ العهد وإعلام الأمر وإظهاره قبل الحرب لما أنه لم يكن مستفيضا بقوله ( إن الله لا يحب الخائنين ) الذين يجارون قبل أن يبنوا العهد حينما تظهر أمارات نقض العهد ( ولا تحسن ) يا محمد ( الذين كفروا سبقوا ) الذين كفروا مفعول أول وجملة سبقوا مفعول ثان أي ولا تحسن يا محمد الذين كفروا فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم .

وفي قراءة « ولا تحسن » من خلفهم - الذين كفروا سبقوا » والمفعولان كما هما ( إنهم لا يمجزون ) أي إنهم لا يمجزون الله فلا ينتقم منهم ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من الشركيين ولم ينتقم منهم ، فأعلمه الله أنهم لا يمجزونه ، قال تعالى ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ) الإعداد : اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه .

والقوة قال العلماء إنها جميع أنواع الأسلحة والآلات التي تكون قوة في الحرب على قوة الأعداء والحصون والمائل والرمي ، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على النبي يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة : ألا إن القوة الرمي » أخرجه مسلم .

وللقد أنه من جملة الأمور به وسأني تفسير هذا المقام قريبا .

قال تعالى (ومن رباط الخيل) اسم للخيل التي تربط في سبيل الله ، فهي فعال بمعنى مفعول وهو معطوف على قوة كما عطف جبريل وميكال على الثلاثكة ( ترهبون به ) أي تخوفون بما استطعتم ( عدو الله وعدوكم ) يعني كفار مكة ( وآخرين من دونهم ) من غيرهم كاليهود والنصارى والفرس والروم والأمم الأوربية الحالية الذين لا يخافون إلا إذا تآهب الناس لحربهم وقاموا لمقاطعتهم وهبوا لمناجرتهم ( لاتعلمونهم ) لاتعرفونهم بأعيانهم ، وإنما هم أمم من الكفار تقابل وتعادى أما من المسلمين على توالي الأزمان فكل يعلم من يماديه ولا يعرف سوا. والله يعلم الجميع لأنه محيط علما بمخلوقاته وهو قوله ( الله يعلمهم ) ثم حرص على الإنفاق في الحرب ليعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل الذي لا يتم إلا ببذل المال فقال ( وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف الله إليكم ) ثوابه ( وأنتم لاتظلمون ) لاتنقصون من ثواب أعمالكم شيئا .

لما ذكر الله للعاهدة ونبذها وأنه يجب إعلان الحرب إذا كانت هناك أمارات لنقض العهد ، وكذلك إعداد العدة والسكراع والسلاح إذ يقول : إن هذه العدة لا يقصد منها أن يكون المسلمون دائما مهاجمين محاربين ، وإنما الاستعداد لتصد الإرهاب فيها بونكم ، وهذا الإرهاب هو الذي يجعل الناس يحترم دولتكم وتخشى جانبكم فيرجعون في صلحكم والسلم معكم ، ولا سعادة في الدنيا بغير السلم مع الاحتراس وإعداد العدة ، ولذلك أعقبه بقوله ( وإن جنحوا للسلم ) مالوا للصلح والاستسلام ( فاجتنب لها ) وعاهدكم ( وتوكل على الله ) فوض أمرك إلى الله فبا عقده معكم ليكون عوناً لك في جميع أحوالك ، ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه فإن الله يصعبك من مكرهم ويحفيهم بهم ( إنه هو السميع ) لأقوالهم ( العليم ) بنياتهم ( وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ) كافيك . قال جرير :

إني وجدت من للكفرم حسبك أن تلبسوا خز الثياب وتشبوا

( هو الذي أيدك بنصره ) قواك بأسباب النصر الباطنة ( وبالؤمنين ) وهم الأسباب الظاهرة ثم بين كيف أيد المؤمنون فقال ( وألف بين قلوبهم ) ومنهم الأوس والخزرج فقد ألف الله بين قلوبهم بعد تعاديبهم مائة وعشرين سنة .

ومعلوم أن العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والأنتة والعصية القوية والضغينة والعداوة الموروثة عن الآباء والأجداد ، ولا تزال هذه الأمور مشاهدة في أبناء العرب قومنا بمصر والشام وبلاد المغرب والمراق لم تغارقهم ، فهم يتفادون لجمة الجاهلية ، وكلما كانوا أقرب إلى البداوة كعرب مصر كانوا أغرق في هذه الحال .

فانظر كيف ألف الله بينهم لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبحوا إخوانا وهذه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإن اجتماع قلوبهم أمر لا يمهده له نظير مع هذه العداوة والحمية ولذلك قال تعالى ( لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألفت بينهم ) جمع بين قلوبهم وكتهم بالإسلام ( إنه عزيز ) يقهر من يخدعونك ( حكيم ) ينصر من يتبعونك .

وباليت شعري أليس هذا هو النبي العربي ؟ أليس هو جدنا وعم أقاربنا ودينه بين ظهرائنا ؟ وكيف ألفت الله بين قلوب العرب في الجاهلية ولم يؤلف بين أبنائهم في الإسلام ؟

باليت شعري مالي أرى أبناء العرب في بلاد مراکش وفي الجزائر وتونس وطرابلس والشام والمراق والحجاز لا يكادون يعرفون أنهم أبناء أولئك الأجداد الكرام .

يا هجبا كيف يتفوقى رجال أسبانيا بالمرب على العرب في سراكش ؟ وكيف تهوى أهل فرنسا على العرب بالمرب في سراكش والجزائر ؟ كيف وكيف ؟ كيف أصبح أبناء العرب أشتاتا حتى أذلتهم أوروبا ؟ أليس ديننا هو ديننا ؟ أليس القرآن هو القرآن ؟ أليس هؤلاء أبناء أوكك ؟

أقول نعم ، إنهم أبناؤهم ولكن لم يظهر في الأمة من يجمع الكلمة ، فكل قائد رغبة في الرياسة على قومه وأكثرهم يأخذ النقاد من الفرنجة وعمارون إخوانهم وذلك لشدة جهالتهم وقلة تربيتهم ، وأنه لم يظهر في الإسلام مصلح عام الإصلاح يقوم خليفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل هم جميعا يتحاربون ويتعادون على حطام الدنيا القليل دلالة على أن العقول ضعيفة والنفوس ذليلة .

أو ما علموا أن إمامهم يكسبهم عزة وقوة ومنعة ؟ أو ما علموا أن أمم أوروبا مع اختلاف لغاتهم وأجناسهم يتحالفون ويتحدون ويألفون على ابتلاع المسلمين ، وأبناء العرب نائمون ؟

يا هجبا كل العجب تتحد القناب على اقتناص الشيا ، ولا تتحد الشيا على الفرار على الأقل فضلا عن أنها تستأسد وتصد العدو الغير والأساد للقرصة .

ولئن رأينا آباءنا في الصدر الأول قد محادوا واقتتلوا ليكون الاجتهاد هو الذى أدهمهم إلى ذلك وكان لهم ملك عظيم يخافون أن يضيع ، فلما تعادوا لم يضع ملكهم ولو رأوه آيلا للزوال بالقتال لم يتعادوا كما قال معاوية رضى الله عنه في خطابه لملك الروم لما طلب منه الجزية [ لئن لم تكف عن طلبك الجزية لأصالحن صاحبي (يعنى عليا) وأكون أول جندي يحاربك بأمره ] فكف ملك الروم عنه .

أما أبناء العرب الآن فإنهم ساهون لاهون جاهلون يتقاتلون ليستبدهم الفرنجة وهم في غيهم يعمهون . فهذا دليل على أن الله لم يؤلف بين قلوبهم . وهذا دلالة على أن دين الإسلام عندهم ليس في النزلة التي كانت له عند أسلافهم .

هذا تحقيق اللقمان فينبظر أبناء العرب إخواني في أنفسهم ولينفكروا ولينظروا لهم مخرجا ، فلما حياة سعيدة واتحاد إيمانى ؟ وإما أن يصبحوا عبيدا للفرجة خاضعين .

ثم قال الله تعالى (يا أيها النبي حسبك الله) كافيك (ومن ابتغى من المؤمنين) في محل نصب مفعول معه . قال الشاعر إذا كانت الهيجا واشتجر القنا حسبك والضحاك سيف مهيد

والمراد بالمؤمنين للهاجرون والأصهار فيدخل فيها عمر وغيره فلا لزوم لتخصيصها به وهي مدينة . وقوله (يا أيها النبي حرض للمؤمنين على القتال) بالغ في حثهم عليه . وقرئ « حرض » من الحرص (إن يكن منكم عشرون صابرون يظلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يظلبوا ألفا من الذين كفروا) .

وفي قراءة « وإن تكن منكم مائة صابرة » (بأنهم قوم لا يفقهون) بسبب أن الكفار قوم جهلة يقانلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهايم فيقتل ثباتهم ويهدمون لجهلهم بالله نصرته .

روى البخارى عن ابن عباس قال : لما نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يظلبوا مائتين » كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت « الآن خفف الله عنكم الآية . فكذب

أن لا يفر مائة من مائتين ، وفي رواية أخرى عنه قال : لما نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يظلبوا مائتين » شق ذلك على المسلمين فنزلت « الآن خفف الله عنكم » الآية . فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم من

الصر بقدر ما خفف عنهم ، وعلى هذا تكون هذه الآية ناسخة لما قبلها وهي قوله تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يظلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يظلبوا ألفين

بإذن الله واه مع الصابرين) بالنصر والمؤنة . ويقال إن قتال الواحد للشرة كان في يوم بدر فتقل ذلك وعلم الله أن فيهم ضعفا في قتال الواحد للشرة ، قال العلامة الرازى ما ملخصه :

واعلم أن جمهور العلماء ادّعوا أن قوله « الآن خفف الله عنكم » ناسخ للآية للتقدمة .  
 وأنكر أبو مسلم الأصفهاني هذا النسخ وبينه بأن وجوب مقاومة المشركين للثنتين مشروط بأن يكونوا  
 قادرين على الصبر في مقابلة للثنتين وقوله « الآن خفف الله عنكم الخ » يدل على أن ذلك الشرط غير حاصل  
 في حق هؤلاء . فصار الحكم دائرا مع وجود الشرط وجودا وعدما ، وصير للمنى إن حصل منكم عشرون  
 موصوفون بالصبر على مقاومة للثنتين فليشتغلوا بمقاومتهم وإذن فلا نسخ ، وليس ذكر التخفيف يدل على  
 حصول التسهيل قبله لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا وفي القرآن « يريد الله أن يخفف عنكم » وذلك عند  
 الرخصة للحرف في نكاح الأمة وليس هناك نسخ . انتهى ملخصا مختصرا .  
 وعلق عليه العلامة الرازي فقال : إن ثبت إجماع الأمة على الإطلاق قبل أبي مسلم على حصول هذا  
 النسخ فلا كلام عليه ، فإن لم يحصل هذا الإجماع القاطع فنقول قول أبي مسلم صحيح حسن اه  
 من الرازي .

#### مخالف القرآن في هذا الصبر

إني وإيم الله لني عجب من هذه الحكم العجيبة ، وآيات الله الحكيمة ، فيينا أنا أفسر في أول هذه  
 السورة إذ وردت الأخبار في الجرائد يوم الثلاثاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ ما يفيد أن العشرين يملبون مائتين  
 وأن المائة يملبون ألفا في حرب المسلمين بمراكش مع الأسبانيين ، فصبت كل العجب وأيقنت بهذا وبشكرار  
 أمثاله في الآيات السابقة أن هذا التفسير ملحوظ بالناية الإلهية والساعدة الربانية ، فقد وردت الأخبار أن  
 القبائل الجبلية بمراكش انضموا إلى جماعة المحاربين بالريف القاطنين بمحاربة الأسبان ليتخلصوا من استعبادهم  
 وأن رجال القبائل تنهوا الآن وكثير منهم قتلوا رؤساءهم الذين أضرام الأسبانيون بالمال : أي أنهم يريدون  
 الرجوع إلى العصر الأول عصر الاتحاد بالدين ، وأن هناك معركة في ( وادي توه ) هجم فيها الأسبانيون  
 بثلاثين ألف جندي على رجال عبد الكريم فنشبت معركة هائلة دامت ثلاثة أيام متوالية وفقد الأسبانيون  
 فيها ثلاثة آلاف جندي بين قتيل وجريح ثم ارتدوا على أعقابهم خاسرين ، وكانت قوات الأمير الريفى ثلاثة  
 آلاف مقاتل وهؤلاء هم الذين قتلوا قائدهم المسمى سعد بن مرزوق الذى أسبغ عليه الأسبان نعمهم  
 ليحارب المسلمين ( انظر الأهرام المؤرخ ١٢ أغسطس المذكور ) .

ثم أقول : ها أناذا الآن في ليلة الأربعاء ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ أحضر التفسير للطبع وأقرر أن الأخبار  
 وردت أن عبد الكريم سلم نفسه للفرنسيين ولا تزال الحرب كما هي بعد أن ظن الناس أنها قد انتهت وهؤلاء  
 لا يزالون يحاربون الفرنسيين والأسبان معا .

أفليس من العجب أن تكون هذه الواقعة المذكورة بنصها أن ثلاثين ألفا قاتلهم ثلاثة آلاف مسلم ؟  
 أليس هذا هو ما ذكرته الآية ؟ وإذن تقول الأمة الإسلامية اليوم تجتهد مجدها وعهدها ، وكيف قاوم ثلاثة  
 آلاف ثلاثين ألفا ؟ وكيف تصادف أن يكون وقت تفسير هذه الآيات ؟ .

إن ما نصت عليه الآية الأولى أصبح موجودا في الإسلام ، فهل تقول لا يجب عليهم للقاومة ؟ كلا .  
 بل تقول يجب لأن هؤلاء ثلاثة آلاف صابرين قادرين على القتال .

ولو أن ذئابا دخلت فريقنا وهي ٣٠٠ ذئب وعندنا ثلاثة رجال أقوياء وهم قادرون على طردهم لوجب  
 على هؤلاء الرجال طردهم وبعض أهل أوروبا ذئاب ، فهل إذا وجدنا عندنا رجلا ذوى قوة قادرين على  
 طردهم ، تقول لا يجب عليكم . كلا . بل هو واجب فالوجوب تابع للقدرة .

ولو أن ثلاثين مريضا دخلوا قرية ليقاتلوا ووجدنا ثلاثة أقوياء أفلا يؤمرون بقتالهم على فرض أن  
 لا قدر سواهم .



إن كلام أبي مسلم لا غبار عليه كما قاله العلامة الرازي ، وقد أيدته الواقع الذي شاعده الناس في هذا الأبيوع ، ولقد تكرر ذلك كثيرا في حرب الأندلس وحرب الترك وغيرها فتعجب من الحكمة والعلم والقرآن .

### لطيفتان

الأولى قوله تعالى « إن الله لا يخبر ما يقوم حتى يشيروا ما بأنفسهم »

إن علم النفس وتأثير قواها في أحوالنا اليومية وأخلاقنا الشخصية أصبح منتشرا في أوروبا وأمريكا ولهم الفصول الطوال فيه .

يقولون إن النفس مخزن كقوة مودعة سموها القوة اللغاطيسية وقد ذكرت هذا للقال في سورة البقرة فارجع إليه هناك ؛ فعلى العاقل إذا أراد السعادة أن يحفظ اللسان والشهوات والرغبات ومدح النفس وكثرة الضحك ، وأن يكون رزينا ساكنا قليل الإحباب ، قليل الحركات ، قليل التلهف على مطالبه وانها بما يريد موقنا به حافظا لكل كلمة وحركة وفكرة ، ويقولون إن هذه القوى تحفظ للإنسان ذخيرة وتجعله وقورا ، ويقولون أيضا إن قوة المزيمعة وتوجه النفس للطلوب والثقة بحصوله لها أثر في الخارج ولهم أداة خطائية سفسطية في ذلك ولكنهم يعتمدون على التجارب ، فالتجارب عندهم هي محور الأعمال .

وبالجملة إن النفس الإنسانية لها آثار في الناس حقا ، ومن أراد الخير فليجعل النفس متوجهة إليه ولا حاجة إلى الإطالة في هذا بعد ما بينا في سورة البقرة .

والأدلة على ذلك في القرآن من قوله في هذه الآية « ذلك بأن الله لم يك مغبرا نعمة أنعمها على قوم الخ » وقوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يظلبوا مائتين » إلى قوله « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » فجعل الفقه النفس والفكر الوجداني والشعور الإنساني منشأ الانهزام في الحرب ، وكذلك قوله تعالى « إني معكم فكتبوا آقدين آمنوا » وقوله « وما جعله الله إلا بشري لكم » ، ولذلك يقول هؤلاء العلماء الأورويون إن للرء إذا استشعر في نفسه حصول مطلوبه وهو ثابت المزم قوي الإرادة حصل له مطلوبه .

وفي الحديث « أنا عند ظن عبدي بي » وفي الآية « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فليظنر » الآية .

فهذا على أحد وجهيه يرجع لسوء الظن بالله وهو اليأس ، فكل هذه ترجع إلى أن شعور الناس بالخير والشر مؤثر في أخلاقها وأحوالها ، ويبرهن على ذلك الفلاسفة قائلين : [ إن الإنسان يمتشي على الحائط فيسقط لتكرار الوهم وإلحاحه عليه إنك ساقط فيسقط ، ولكنه في العادة وهو على الأرض لا يمتشي على ماهو أوسع من ذلك الحائط ] وقد جعلوا هذا الدليل المعلوم عند العموم مقدمة للاعتراف بما يحدث في النفوس البشرية من آثار أفكارها من حبة وبض وسعادة وشقاء وما تجلبه تلك الآراء من أحوال الإنسان للذنية فإن استحضاره في نفسه أنه من التجار أو العلماء أو العامة يلزمه أن يتزيا بزيمهم ، فهنا الفكر ألبس الجسم ملبس من فكر أنه منهم .

هكذا يتفانون عن بعض علماء اليونان أنه يقول « إن الدجاجة إذا اعتادت أن تتناول الديكة بنت لها ( صبيبة ) كالتى لديك » .

ويقول علماء العصر الحاضر [ إن كل تهيج دماغى ناتج عن أحد الآراء كثوران التعصب أو الهيام أو التعصب أو الرعب بمهد السيل إلى قعد الحسى ] وترى الجندى في الحرب يصاب بجراح بليغة

ولا يشعر بها ، ومن المحكوم عليهم بالموت من لا يضرب الجلاد فيهم وقت الإعدام إلا جثة باردة تركها الروح لشدة الرعب .

وبعض المحكوم عليهم بالإعدام عصبوا عينيه وصبوا ماء دافئا على رقبته أو هموه أنهم فصدوه فمات معتقدا أن دمه قد استنزف كله .

وروى أن ( مونتوس شيقولا ) في توران حبه للوطن وضع يده على حمرة متقدة ولم يشعر بألمها ، وقد روى مثل ذلك عن بعض الماشقين .

وهذا بعض ما يبدل عليه قوله تعالى « ذلك بأن الله لم يك مغبرا نصمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » جاء في مجلة ( الرشيد ) ما يأتي :

امرأة تلد ضفدا

في مجلة الجالية ( برازيل ) ما خلاسته :

في ضاحية ( اربول غراندي ) من بلاد الكسيك مناجم زيت الجاز يعمل فيها عدد كبير من العملة بينهم رجل اسمه ( الينو زونيغا ) وزوجته ( حنه كوتراراس ) وكان لا يتقصهما لتمام سعادتهما سوى ولد يكون محط آمالهما ، ومنذ أشهر أخذ ( زونيغا ) يجد المدمات لولادة زوجته ، حتى إذا حانت الساعة المتظيرة خرج الطبيب وحمل يده ( ضفدع ) كبيرة خضراء اللون ضخمة البطن بارزة العينين طويلة اليدين والرجلين وقال له هذا هو ابنك يا زونيغا ، فذهل الرجل لدى رؤية هذا الحيوان القبيح الشكل وقال لا يمكن أن يكون هذا هو ابني وتراجع خائفا من منظر اللولود الضفدعي الذي لا يقل طوله عن ( ٦٥ ) سنتيمترا .

وكانت الأم تواقفة ترى انها البكر لكنهم بنموها من ذلك ، ولما رأوا أن لامناس من أن تراه قدموه إليها ، فلما شاهدته صرخت وأغمى عليها وتوافد الناس ليروا اللولود العجيب .

وقد فحص الأطباء الوالدين ليملوا هل فيها عيب خلقي أو مرضي سبب هذه الولادة فلم يجدوا سببا إلا ما علموه من أن الأم كانت تكره منظر الضفادع وتخافها ، وأنها في الليلة السابقة إذ كانت نائمة شمعت بشئ أملس بارد يمر على وجهها فاستيقظت مذعورة وأضأت للصباح فإذا هو ضفدع فأصيبت بنوبة عصبية وفي مساء التالي وضعت الضفدع اه .

أثر الوهم

جاء في مجلاتنا المصرية في ٢١ يونيو سنة ١٩٢٦ ما يأتي :

يفسرنا الاستهواء عدة مظاهر طالما حيرت عقولنا في حياتنا اليومية ويكشف لنا الستار عن سر أو هامنا وآلامنا الخيالية التي كثيرا ما عكرت صفو حياتنا ، وهكذا نكون مدينين بمعادتنا وهائنا لم النفس الحديث .

والاستهواء إلقاء فكرة أو اعتقاد ما في نفس الموحى إليه فيقبلها دون معارضة ، ولا تلبث أن تتحول إلى عمل أو عقيدة ثابتة دون أن يدري الموحى إليه .

والقابلية للاستهواء تكاد تكون غريزة في الإنسان إلا أنها تزداد كثيرا عند الأطفال والضعفاء قوة وإرادة والصبين والدين في حالة غير عادية بوجه عام .

كما أن بعض الناس يمتازون بقوة الاستهواء مثل الرؤساء والزعماء في العلم أو الدين أو السياسة وأقوياء الإرادة والجسم .

والاستهواء إما ذاتي أو خارجي : فالذاتي هو الذي يستهوى فيه الإنسان نفسه ، والخارجي هو الذي يستهوى فيه غيره من الأفراد أو الجماعات .

وبممارسة البراهمة من المنود نوعا من الاستهواء الدائى إذ يستهوى الواحد منهم نفسه إلى الزهد والتشف في الحياة فيخرج إلى مقارة بيده ويجلس القرفصاء عاريا ويردد جملا خاصة طول يومه مثل : [ يجب أن أزهّد الحياة لأنها دنيئة ] فلا يلبث بعد بضعة أيام حتى يجد فكرة الزهد قد تملكّت جميع مشاعره وتحوّلت إلى عقيدة شديدة ، وبذا يصبح رجلا متقشفا زاهدا في الحياة قلبا وقالباً .

ويمكن لمن مارس أىّ عادة ضارّة أن يستهوى نفسه إلى إبطالها ، فالمدخن مثلا يمكنه ترك التدخين ونسيانه إذا ودد في نفسه كل صباح ومساء بلهجة العزم والحزم جملة خاصة مثل : [ يجب أن أترك التدخين لأنه مضرّ بصحتي ] ولا شك أنه إذا واطب على ذلك تتحوّل هذه الفكرة التي تتردد في النفس إلى عقيدة ثابتة ثم إلى عمل وينتهى الأمر بإبطال التدخين .

وكثيرا ما كان الاستهواء وعلى الأخص الدائى منه منبعا لأوهامنا وآلامنا الخيالية ؛ فالإنسان قد يكثر من التفكير في مستقبله وينظر إليه خلال منظار أسود فيساوره الخوف ويسود عليه روح التشاؤم فلا يلبث أن يتحوّل هذا التفكير إلى عقيدة ثابتة بل إلى عمل وتصبح حياته سلسلة من الأحزان والمهموم التي لا سبب لها ويواوده الفشل في جميع أعماله وتمحط قواه الجسمية فيظنّ أن تنبؤاته قد صدقت ، والواقع أنه إنما هو الذي جعلها تصدق لأنه استهوى نفسه إلى تحقيقها .

وقد تأيدت هذه النظرية النفسية بالتجارب والبراهين المحسوسة في الإنسان والحيوان ؛ فثلاثا خص الجهاز الهضمي لمرة أثناء فرحها وأثناء حزنها فوجد أنه في الحالة الأولى يسير سيرا حسنا عاديا بينما يقف تقريبا عن العمل في الثانية .

وقد جرّب أحد مشاهير الأطباء قوة الاستهواء في الجسم فاستأذن من حكومته في قتل مجرم محكوم عليه بالإعدام بقوة الاستهواء وأخذ مصوب العينين إلى غرفة سوداء مظلمة وكان هو أيضا يلبس للملابس السوداء القائمة وأخذ يبيد عليه كثيرا جملة [ سأعدمك بقطع شريان من جسمك ] بلهجة التأكيد والعزم ثم طرحه على سرير وكرر على مسامحه طريقة القتل وأوضح له ماسيشمر به ثانية وأخرى عند قطع الشريان من سيلان الدم إلى التيبوبة إلى الموت ، ثم أمسك موسى عاديا وقطع به ذراع المجرم قطعاً سطحيا ثم فتح صنبورا كان قد أعدّه فأخذ الماء يسيل منه على ذراع المجرم كأنه الدم في حرارته العادية فلم يلبث المجرم أن مات تحت تأثير الاستهواء الشديد وتحققت الوفاة بواسطة مجمع من الأطباء لحسه فصدا دقيقا .

ومن التجارب التي عملت أيضا لإظهار قوة الاستهواء وتأثير الوهم على الجسم أن أحد علماء النفس في إنجلترا اتفق مع سكان بضعة منازل كان يمرّ عليها بائع لبن في الصباح لتوزيع لبنه أن يبدى كل واحد منهم عجيبة من الضعف الجنائى غير العادى الذي يبدو على وجه هذا البائع بجملة خاصة بالترتيب كأن يقول الأول : [ مالى أرى وجهك اليوم شاحبا بخلاف عادتك ] والثانى [ لماذا ترمش وأنت تعطينى اللبن ] والثالث [ أراك لا تقدر على المشي اليوم ] وهكذا فما وصل البائع إلى نهاية دورته حتى سقط على الأرض مضيا عليه ، وقد كان بصحة جيدة عادية عند خروجه من منزله ، وما ذلك إلا لأن فكرة الضعف التي رددتها زبائنه في نفسه تحوّلت إلى عقيدة بالتكرار ثم إلى عمل فوقع على الأرض فاقد الرعد .

ويبالغ ( أميل كوبه ) الفرنسي في قوة الاستهواء ويقول إنه يجب أن يتخذ كوسيلة لشفاء كثير من الأمراض ، ولا شك أن لقوله هذا نصيبا كبيرا من الصحة إذ أنا كثيرا ما نشعر بالصداع أو الضعف أو الانحلال الجنائى وكثيرا ما نصاب بالأمراض الضعيفة نتيجة الأوهام والخاوف التي لا وجود لها والتي نلقبها في روع أنفسنا أو يوحى إلينا بها ماحولنا من بيئة محزنة أو من قوم ننقصنا وإن عرفوا

ولذا يمكن أن تؤكد أن الطالب مثلا الذي يفكر كثيرا في الرسوب إنما يستهوى نفسه للرسوب دون أن يدري فيرسب .

وكذلك العامل الذي يفكر دائما في الفشل غالبا مايفشل بقوة الاستهواء القاتل .

فانقسم أيها القارىء في وجه الدهر بيندم لك وافرح بأنك الفرح واعتمد في الشفاء من أمراضك وآلامك لأنك تساعد بذلك نفسك على النجاة وتلهيها عن كل ما يحزنك بالرياضة البدنية والترهة والأعمال اليدوية وانظر إلى المستقبل دائما نظرة للتفائل للسرور للؤمن بالنجاح تذهب عنك أوهامك الكثيرة القنالة وتسمو بنفسك إلى النجاح المهنم ، انتهى .

المعالجة بالاستهواء وفيها أيضا في تاريخه

[ طريقة الدكتور أميل كويه ]

في أواسط هذا الشهر ( يوليو سنة ١٩٢٦ ) توفي في باريس العالم الفرنسي الشهير الدكتور ( أميل كويه ) الذي يعتبر أعظم دعاة الاستهواء وأكبر القائلين بمذهب الشفاء بطريقة الإيهام .  
توفي هذا العالم في منزله بمدينة ( نانسى ) بعد عمر طويل قضى معظمه في الباحث النفسية وفي مدى تأثير اللوم في النفس .

وقد طار سينته في جميع أنحاء العالم ، وكان الإنكليز والأمريكيون يعتبرونه زعيم الأطباء الروحانيين أو الاستهوائيين بلا منازع .

لم يكن هذا العالم مبتكرا ولكنه جمع آراء علماء الاستهواء الفرنسيين بما أذاعه من النظريات الجديدة وهي نظريات تفضى بنيد كثير من المذاهب العلمية البحتة وعدم التقيد بها حتى لا يظلل الاستهواء مجرد نظرية علمية بل يصبح من الحقائق التي هي في متناول الجميع .

وقد كانت شهرة ( كويه ) مبنية على ما أبانه من سلطة النفس على الجسد وما أثبتته بتجارب عدة أمام جماهير من الأطباء .

وكان دائما يقول : إن الأطباء يخلطون غلطا فظيما لأنهم يحنون بالجسد دون النفس ولأنهم يهملون درس السلطة غير المنظورة التي للوم على الجسد .

فالتطبيب الذي يستشار في معالجة العليل لا يفتحص عادة سوى أعضاء الجسم وحالتها ولا يعنى بحالة العليل النفسية وما يمكن أن يعطاه لإنعاش تلك الحالة [ وبعبارة أخرى ] إنه يتجاهل قيمة ( اللقوى العنوى ) الذي يفعل في شفاء النفس ما لا يفعله اللقوى اللادى .

وقد أثبت الأستاذ ( كويه ) بتجارب عدة أن للفكر قوة مجيية في كلا العالمين اللادى والحياى وأن تسلبه على الجسد يحدث تأثيرا مجييا .

وفي الواقع أن الفكر قد يكون سماً زاعافاً أو مصلاً شافياً ، وطريقة الاستماعة به على مداواة الأمراض ليست حديثة بل قد كانت معروفة منذ أقدم الأزمنة وقد أهمهاها العلماء مدة ثم عادوا اليوم إلى إدراك أهميتها في معالجة الأمراض .

والحق يقال إن الدكتور ( كويه ) أبلغ طريقة للعلاج بالاستهواء أقصى الحدود وأثبت أنها من الطرق التي يجب على الأطباء أن يضموها في مقدمة وسائل المعالجة ، فإذا كان اللصل للنادى يفيد في بعض الحالات فإن اللصل للعنوى : أى التطبيق بالاستهواء يفيد في جميع الحالات ، وإذا عدنا كيف نستعمله نكون قد أسدينا إلى الجنس البشرى أعظم معروف يتصوره الفكر

وليس ذلك فقط بل إن هذا (الصل العنوي) يفيد أيضا في شفاء الكثير من الأمراض الأدبية .  
فالشخص الذي هو رقيق لبعض المواد الرديئة يمكن شفاؤه من داء تلك العادات وإصلاح مافسد من أخلاقه  
وشفاؤه بالاستهواء أسهل في هذه الحالة من شفاؤه بالمقاير .

وفي هذه الحالة تصبح الهيئة الاجتماعية كلها مؤلفة من أفراد أصحاء البنية : أصحاء الأخلاق ، وصحيح  
العالم فردوسا زاهرا تطيب الإقامة فيه .

إن لكل امرئ كيانين : أحدهما الوجدان الذي بواسطته يدرك كل مايقع حوله ويشعر بكل ما يحدث ،  
والآخر الوجدان الكامن الذي يدفع للرء إلى إتيان أعمال كثيرة بطريقة أو تومايكية مجردة من عنصر  
الإرادة ، وهذا الأخير : أي الوجدان الكامن معروف بآثاره أو بنتائج الأعمال التي تدفع للرء إلى إتيانها  
وهو المهيم على كل حركة من حركات الجسم . فإذا استغرق الرء في سبات أو ذهول توقف ذلك الوجدان  
عن العمل وهو الوسيلة التي بها يعمل الفكر عمل الصل العنوي الشافي الذي في إمكانه أن ينقذ الجسم من  
أمراض كثيرة وآلام عدة .

هذا ، وإن ما يحدث في النفس في أثناء عملية الاستهواء يشبه عملية الإنبات تماما ، ولذلك يصح تسميته  
بالإنبات النفسي أو العقلي .

ففكرة الشفاء هي البذرة التي يمكن بذرها في النفس لتنمو وتكبر حتى تتناول كل شيء . وتأتي  
بالثمر المطلوب .

وطريقة الاستهواء للنسوبة إلى الدكتور ( كويه ) بسيطة جدا يستطيع كل امرئ أن يستعملها .  
وخلصتها أن يردد كل يوم على مسمع من نفسه هذه العبارة وهي قوله : [ أشعر كل يوم بأنني أتغل  
من حسن إلى أحسن من كل الوجوه ] .

ويجب ترديد هذه العبارة صباح مساء حتى تصبح في النفس عميقة راسخة . وكان ( كويه ) يلقبها لكل  
من يقصده مستشفيا ويشهد الكثيرون أنهم نالوا بواسطتها الشفاء [ وعبارة أخرى ] إن التفاؤل الحسن هو  
أساس طريقة ( كويه ) .

فإذا تشامم للرء من كل ما حوله فلا يمكن أن يرى في العالم إلا ظلاما دامسا ، وبمكس ذلك إذا كان كثير  
التفاؤل شديد الثقة بحسن حالته فإن النتيجة تكون خيرا لا محالة .

وفي أوروبا اليوم جمهور كبير من أتباع ( كويه ) الذين خبروا طريقته بأنفسهم وهم يعملون على إدائها  
بين الناس ، فكان ( كويه ) عليهم أن يطيبوا أنفسهم وينيروا عقول الغير .

وبين الأطباء فريق غير قليل ممن يحاولون الجمع بين الطب الاستهوائي والطب اللادوي ، والجمع بينهما  
يمكن لا يحتاج إلا إلى شيء من الخبرة ، انتهى .

كل هذا الذي قلناه من سرّ قوله تعالى « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا  
ما بأنفسهم » وهذا من عجائب القرآن التي أبرزها العلم الحديث .

#### اللطيفة الثانية

[ إيضاح الكلام على قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الخ » ]

(١) اعلم أن الله عز وجل قد نظم هذا العالم على القوى للتضادة والأحوال المختلفة والوجوه للتمارضة  
والأصول للتناقض ، ولم يشأ أن يكون ساذجا قليل التركيب فسواء هندهم وجهه مصقول الجوانب منظم  
الأطراف مكل الأكناف .

(٢) ثم إنه كلما كان أكثر عناصر وأعظم تركيبا كان في النافع أبعد غورا وأعظم وقعا وأوجب صنعا .  
 ألم تر إلى تفاعل الماء والطين والهواء . والحرارة وكيف تنبع منها النبات المختلف الثمرات العظيم البركات  
 وإلى الذكران والإناث من أنواع الحيوان وبنى الإنسان كيف كان اتحادها منتجا بقاء الأنواع وتكاثر  
 الأشخاص ، ثم إنه كلما كان للتحدان غير مقترين كان التفاعل بينهما أعظم أثرا وأبلغ فعا وأحسن صنعا .

ناهيك ما ترى من تفاعل الفحم للسمى بفحم (الموجات) مع بعض المعادن كيف تنبع منها الكهرباء  
 البديعة الصنع الدهشة اللب للوقدة النار السريعة الأخيار المنتجة للحرارة العجيبة الإنارة ، وإلى الأكوجين  
 والكربون كيف أوجب اتحادها ظهور النار وعجائب الآثار ، وهكذا اتحاد الأكوجين والأدروجين كيف  
 تنبع منه فعمل الصانع الحكيم وجود الماء العجيب الإرواء الذي هو حياة كل حي من عائل وجاهل وخامل  
 ونام وحيوان .

(٣) على هذه القاعدة بنى تفاعل الدول وتصادم الأمم ومصارعة الأقران واحتدام الوغى في الليدان ،  
 وكلما كان الاختلاف أشدّ إبنالا وأبعد في المداوة كان الاصطدام أشدّ أثرا وأعظم وقعا وأظهر أمرا وأفتك  
 بالأبطال وأغول في النكال .

ولقد تقرر في الحكمة أن الأمم إذا لم توقد للحرب نارا ولم تشمر عن ساعد جدها أدركها الحور  
 واعتورها الضرر واستحلت طعم الكسل وتامت على وساد الراحة الوثير وذاتت من الوهن والضعف عذاب  
 السبر كما ذكره الحكيم (أرسطاطاليس) في رسالته إلى الإسكندر ، وقد ضرب لذلك الأمثال وقرره تقريرا  
 فكان مثل الأمم في ذلك كمثل العناصر للرماة في القلاة والهواء المهاب في مجراه والماء الجاري إلى منتهاه  
 فلا عشب يسقيه ولا حيوان يرويه ، وكمثل الذكران الذين اجتنبوا النسوان والنساء اللاتي أمنن الرجال فذهبت  
 من بين هؤلاء ثمرات الاتحاد وباءوا بالخسران والحسرات .

إن عالمنا الأرضي حكم عليه ألا يرتقى إلا بالتناقضات ولا ينشأ إلا بالمتناقضات ؛ فالقاعدة واحدة تباعد  
 في الصفات وتناف في الأحوال ثم النقاء ينشأ منه أحوال جديدة وحوادث مفيدة وأعمال سديدة  
 وأمور مفيدة .

ولعلّ هذا العالم أقرب إلى النفس وأبعد من الكمال . ولعل هناك في العوالم ما هو أشرف مقاماً وأعلى  
 في النظام كما ، ولعل طبعه الغريب الذي ذكرناه قد قضت به الحكمة لنقص في أصوله ووهن في تركيبه  
 بالنسبة لما هو أعلى منه وأبدع وأجمل ، ولعل نسبتة إلى ما هو أرقى منه كنسبة تركيب الحشرات السامة من  
 القاذورات المهدئة في الجوف فسادا إلى تركيب الإنسان من العناصر الطيبة فكانت النتائج كالمقدمات والهبات  
 تابعة البدايات .

لذلك كان الإنسان في أعماله وأخلاقه وأحواله ناجما لعالمه الذي تركيب منه حدو القذة بالقذة تابعا لخطواته  
 سائرا في طرقاته دائرا على محوره ناهجا منهجه .

فترى الجيوش في البيادين تلتقي النقاء أو تصطدم اصطداما كالتقاء الأكوجين والأدروجين ولحم  
 للموجات وحض للمعادن فيما تقدم فتراموا بالحجارة والرصاص والحديد والنيرون واستعملوا أنواع الفرقعات  
 وأهجم للركبات النارية من الديناميت والكرات المحرقة للثنية ، للنزلة الصواعق ، المهلكة للأمم ، للزيلة  
 للمالك الحرة للبيان ، المبيدة للقلاع .

ولو أنها أمسكت عن القتال وتركزت النزال لأعيانها الكسل ولهدمت الجبل ولأماتها الجبل والجبل  
 فنامت العيون ، وهدأت الجفون ، وأمنت الطوارق ، وأصبح أهلها أقرب إلى الحيوان الأحمم ، فبطؤت  
 الحركات ، وهدأت الجماعات ، وبارت الصناعات ، وسادت الحلال ، وضاع المال ، وخابت للأمم الآمال .

لذلك ترى أن الله قد هباً للأسم عناصر للقتل وأمولا للحروب منها ظاهر يعله الحامس والماس كالمطارة والحديد والرصاص ، ومنها ما خلق تركيبه وعظمت آثاره كالمفرقات المركبة من القطن والمواد اللينة .

المفرقات في الحروب من القطن والمواد اللينة

إن القطن مركب من شعور دقيقة قد بحثت بانتظار العظم فظهرت بصورة أنابيب مفرطحة ملتوية شفافة ، وهذه الأنابيب الشفافة حلها شجر القطن من المواد الأرضية والهوائية تسمى (سيلولوز) وهذه المادة تكون في جميع النباتات .

فهذه المادة إذا خلطت بحامض النتريك وبحامض الكبريتيك تحولت إلى مادة تسمى (نيرو سيلولوز) أو (قطن البارود) وإذا نظرت إلى هذه وحدتها كالقطن العادي في شكله ولكنه في طرق أو سخن احترق من غير أن يترك بقية صلبة بل يتحول جميعه إلى مادة هوائية لا لون لها ، وهذه المادة إذا أذيت في الأثير وفي الكحول أو صنعت منها كتلة مرنة تصب في قوالب أو تقطع قطعاً صغيرة ذات أحجام متساوية فإن هذه القوالب والقطع تكون مواد مفرقة ، وأول من كشفها العلامة (بول فيللو) فاستخدمته الحكومة الفرنسية سنة ١٨٨٧ م . وهذا هو البارود الذي لا دخان له لأن ماله دخان يحجب رؤية العدو .

#### الديناميت

إذا خلطنا الجلسرين بحامض النتريك المضاف إليه حامض الكبريتيك نتج سائل زبق القوام أثقل من الماء ولا يختلط به طعمه حلو ولكنه سام يستعمل في الطب بمقادير قليلة ، وإذا سخن أو طرقت فرقع بشدة متحولاً إلى غازات النتروجين وثنائي أكسيد الكربون والأكسوجين وهو سائل خطر لا يؤمن له جانب ويصعب استعماله مفرقاً في حالته السائلة وهو يسمى (نيتروجلرين) فإذا مزج بالنشارة وبعض الأتربة صنعت منه قوالب الديناميت .

#### الجلاتين المفرق وغيره

في سنة ١٨٧٥ خلط العلامة (الفرد نوبل) الكيماوي السويدي هذا السائل الشديد الفرقة بقطن البارود المتقدم فخرج من هذا وذلك مفرق مزدوج يسمى (الجلاتين المفرق) .  
وهناك جسم صلب آخر تصنعه جميع الحكومات من مادة تسمى (الفضول) وجسم آخر يصنع من مادة اسمها (تولول) وهما مادتان نستخرجان من الفحم الحجري .

واعلم أن صنع المواد المفرقة المذكورة للذخيرة خطر للغاية ولذلك يبنون أبنية صغيرة بعضها منفصل عن بعض بحيث يكون بين كل بناء وآخر فضاء طلق واسع ، فإذا حصل انفجار في إحداها أعصر الخطر فيه فلا يتعداه إلى بقية العمل ، ويصنع هناك مقادير معينة من المفرقات في زمن معين ويلبس العمال والعمالات ملابس خاصة خالية من الجيوب والأشياء المعدنية ويضعون في أرجلهم أحذية خاصة خالية من السامير الحديدية ، ولا يجوز للأجانب دخول هذه الأماكن إلا بإذن خاص وقبل الدخول يفتشون تفتيشاً دقيقاً ويؤخذ منهم كل ما يحتمل أن يحدث ضرراً مثل علب الكبريت والديبايس والأزرار المعدنية وغيرها ثم يلبسون أحذية خاصة ، وتضاء هذه الأماكن بالكهرباء وجميع الآلات البخارية والكهربائية للمدة لتوليد القوة اللازمة لوضع خارج البناء ويمر من آن لآخر مفتشون لملاحظة النظام ومنع تجمع أتربة المواد المفرقة .

واعلم أن أقل خطأ سواء أ كان في تقدير المواد أم في تضير أحوالها الخارجية كالضغط ودرجة الحرارة قد يؤدي إلى انفجارها أثناء صنعها ويتبع ذلك ضرر جسم أقل موت الصانع ، وعليه فإن صناعة المفرقات تستلزم من الحيطة والحذر والعناية بالاحتياج له صناعة أخرى ، ولذلك قد يؤمن الصانع على حياته قبل

الاشتغال بها حتى يموت على ورثته ما قدوه من حياته .

فانظر كيف كان القطن والكبريت والتريك الحامضات قد تحولت إلى مادة محرقة ، وكيف كان وضع هذه المادة مع الكحول والأثير يكوّن مادة مفرقة ، ثم انظر كيف كان الجلدلين إذا خلط بالحمضين للتقدمين مع نشارة الخشب وبعض الأثره يصبح ديناميتا يهدد الأبنية والقلاع الحصينة ، ثم كيف كان الفحم أيضا مصدر مادتين مفرقتين بأوزان معلومة ونظم خاصة .

الله أمرنا بهذه الصناعات استعدادا للحرب

يقول الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فههنا القوة العقلية السليمة التي تقدم القوة العملية الحربية .

لقد كانت الحرب قديما بالحجر والحديد والرصاص ثم ارتقت اليوم فصارت بالعقول والأفكار ؛ فأهل أوروبا ضاعفوا الأبدان بالنسبة لأهل أفريقيا وآسيا ولكنهم استخدموا العقول فأكسبهم صناعات قامت مقام القوى الجسدية فصار هؤلاء في باقي الناس أشبه بالإنسان في باقي الحيوان ؛ فالحيوان قويته أجساده ولكن الإنسان الذي هو أضعف منه قوة خلق أقوى حيلة فضله فسخره .

فأهل أوروبا اليوم ومن هنا نحوم وكل من قرأ العلوم والصناعات الحديثة أصبحوا في نوع الإنسان سادته ، والبقية كأنهم عبيد .

فإذا قال الله للمسلمين « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فعناء لا تذروا قوة جسمية ولا قوة عقلية إلا استمدتكم بها ، وإذن أصبح علم الصناعات جميعها فرضا واجبا على المسلمين وعليهم حتما أن يدرسوا ما ذرأ الله في الأرض من عجائب العوالم وما في ذراتها من كائنات النافع ومدفونات العجائب ومكنونات البدائع وجواهر الحكم للصوتة المحجوبة عن أنظار الجاهلين ، التجلية للناظرين ، الكشوفة للجدلين الماشقين .

بأنه ما أجمل بهاء الطبيعة ! وما أجمل نورها وأبهر سناها وأحسن وجهتها ، لقد سترته عن الجاهلين ، وكشفته للماشقين فازينت وابتهجت للناظرين ، وقالت لمن ليس لها كفؤا ولم يحطها مهرا :

● ومن خطب الحناء لم يظنها مهر ●

فلتتنافس في تلك العلوم للتناقصون ، ولتقبل عليها السلدون ، وليطيروا في الشرق والترب سராا لعلمهم لها يدركون .

فياحبا للمسلمين ! كيف يعيشون بين أم سلاحها (الديناميت) وللواذ المحرقة والعمية والهلكة وسلاحهم البارود والرماح ؟ وكيف يفلح قوم أحاط بهم الإصلاح والممران وهم جامدون ؟ .

نظرات الفلاح إلى شجرة القطن ، ونظرات علماء الحرب

هل يعلم الفلاح للمصرى والبغدادي وأمثالهما حين يزرعون القطن ويضمون البذرة في الأرض ويسقونها الماء وتنمو في الحقول ، ويعزقونها بالقفوس ، ويزيدونها ربا ؟ وحين يظهر الشرف فيها ، وحين يأتون بالنساء والأطفال لجمع تلك المادة الشعرية القطنية ، وحين يعلجونها ويبيعونها للتجار بالإسكندرية وغيرها ، فيأخذون للبرام والدنانير لقضاء حوائجهم ، هل يعلمون إذ ذاك أن لهذا القطن نأ عظيما ؟ وهل يعلم حكماة الإسلام وعلمائوه والتفقهون فيهم أن لسلك ظاهر باطنا ، وظاهر القطن لباس وأكسية ورياش وفرش ومعدّات وغيرها مما يتجمل به الناس ، وباطنه ما يستخرجه علماء الكيمياء من البارود الذي لا دخان له يخلطه بالأحماض ، وكيف كان القطن من أسباب الظفر في الحروب ، وكيف كان من الفحم الذي يوقده الناس في بيوتهم مواد تؤخذ بطرق مخصوصة تكون مفرقة قاتلة .



جَلَّ الذي خلق المادّة على هذا النظام وصوّرها على هذه الصورة البديعة العجيبة ، ألا بعدا للقوم الجاهلين ، وأفء وتفتّ تقوم لا يقولون .

وهل يعلم هؤلاء أن أمثال هذه المسألة مما يوجب فتح المدارس على مصراعها واتخاذها أساسا للرفق واستعدادا للطوارئ ، وفيها تحلل عناصر كل يابسة وخضراء ورطب ويابس وجامد ونام وحى وميت وحيوان ونبات وإنسان ، فتحلل عناصر المخلوقات فلا حكم على مركب إلا إذا عرفت أجزاؤه كما لم تعرف الثنات إلا بمعرفة حروفها .

إن هذا الاستعداد والأمر به يرجع إلى رقى العقول والآراء ، وإنا إنما أرسلنا إلى هذا العالم وخلقنا فيه للوقوف على الحقائق ومعرفة أسوله ، وكان الله عز وجل يريد أن يطلعنا على عناصر ملكه وأصول خلقه وتركيب أجزائه وعجائب صنعه ووزنه ونظامه ومحاسنه حتى نرتقى إلى ما هو أعلى مراما وأحسن نظاما وأبهى كالا ؛ وجعل من طرق ذلك نظام الحروب وإلقاء المداوات بين الناس ليتساقوا إلى السالى ولا سبيل إلى ذلك التسابق في عالمنا الأرضى إلا بهذه .

وما مثل الجيوش في ميادين القتال ، والقنا تخرج القنا ، وموج لنايا متلاطم إلا كتل اللاعبين ( الشطرنج ) أو غيره إذ يصبحون في وجل وأمل ، وخوف ورجاء .

وكأنما هذا الإنسان وهو في الأرض طائر على جناحين : أحدهما الرجاء ، والثانى الخوف ، كما قال تعالى « هو الذى يربك البرق خوفا وطمعا » فإذا لم يكن الخوف والطمع بالحروب القاهرة سى الناس لهما باللعب ليطيروا مجتمعين في عالم الخوف والرجاء وهم يلعبون وكأنهم إذ لعبوا ( الشطرنج ) أو الألعاب ( الألومبية ) للشهرة اليوم بين الدول يقولون إنا محبوبون على السابفة مفلطورون على المنافسة ، فإن لم تكن بالحرب سعينا إليها باللعب . كل ذلك لتقوية الأبدان وتنشيط الشبان وتجديد البلدان وتقوية الأركان وإسعاد المدن وتشديد العمران

تتاسق آى القرآن وتلاحقها في مسألة عدّة الحرب والقتال

فإذا قال الله في سورة البقرة « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » وقال فيها « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس الخ » وإذا قال فى آل عمران « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » وقال « شهد الله أنه لا إله إلا هو ولللائكة وأولوا العلم قائما بالنسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » وقال « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » وقال فى سورة النساء « وهه ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكبلا . إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قدبرا » وإذا قال فى سورة اللأدة « يا ويلتى أجهزت أن أكون مثل هذا العراب فأوارى سواة أخى فأصبح من التادمين » وإذا قال فى سورة الأنعام « إن الله فائق الحب والنوى » إلى قوله « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء » وقال « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » وإذا قال فى سورة الأعراف « والوزن يومئذ الحق » وقال « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواتكم الخ » إذا قال ذلك كله فى السور للتقدمة على هذه السورة ، فهاهو ذا يقول فى سورة الأنفال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فهذه القوة من القوى التى خلقت لنا فى الأرض كما جاء فى البقرة .

فصائب القطن وحمض الكبريتيك وحمض النيتريك والجلسرين والكحول والأمير واللواد للتخنة من

الشمع الحجري ، كل هذه مما خلقها الله لنا في الأرض وخاطبنا قائلا « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا »  
فهذه خلقت لنا كما خلقت للفرنجية فخللوا الشمع الحجري والقطان والكبريت وأخذوا منها تلك الآلات للهلكة  
ونحن تركنا واكتفينا بالشراء منهم ، وهكذا هذه الأشياء مما جاء في قوله تعالى « إن في خلق السموات  
والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار » فإنها من العجائب المدهشة والفرائب البديعة الدالة  
على حكمة الصانع للبدع .

ولعمري من ذا الذي يقف على هذه الأسرار ولا يدهش لهذه الحكم العجيبة ؟ وإلا فبأية كيف يكون  
هذا القطن الذي تلبسه بعد أن استخرجناه بالزراعة إذا أضفنا عليه بعض العناصر قلب لنا القلاع والحصون  
وخرت السقوف من فوقنا .

أليس هذا من العجب ؟ أليس هذا من دلائل التوحيد المذكورة في آية البقرة المذكورة ؟  
ولعمري كيف تصير المواد الفحمية مفرقات ؟ وكيف يكون القطن الذي يقينا الحر مهدما للساكن  
مزلزالا للدن ، وكيف اجتمعت هذه الأسرار في هذه مخلوقات التي تحيط بنا ولا ندري ما فيها ؟

أليس الإنسان وهو نائم في سريره منقطع باحافه قد أصبح نائما في وسط جهنمى ؟ فالقطن الذي يحيط  
به من كل جانب إن هو إلا مواد مفرقة يتصنها الكبريت والتريك فتصير هادمة البنيان .

ثم هذه الأشياء وهي متفرقة غير مجتمعة قد خفيت عن الإنسان في قديم الزمان فلم يعلم أنها تخرب للدن  
وتهدم القلاع ولكن الله يقول في آل عمران « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » وعلى ذلك  
يلمح لمن يشاء من عباده .

وهذه العناصر المذكورة تصنع بحساب دقيق حتى تصير مواد مفرقة ، فإذا اختلت للوازين أو الأعمال  
الصناعية اختلت تلك الصنوعات ، وهذا قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما  
بالتسط » فهنا لا بد من القيام بالمد في وزن للتقدير وهذا من دلائل الوجدانية ، إذ كيف كانت هذه  
الأشياء بموازين محدودة ومقادير معدودة ونظم قائمة وصناعات صادقة ، ولو اختل الوزن لانفجر للصنوع  
فأهلك الحرث والنسل .

وكذلك قوله « ويضكرون في خلق السموات والأرض » وهذا من نوع الفكر في الصنوعات  
ونظامها ودقتها ، وهكذا قوله في -ورة الأصراف « والوزن يومئذ الحق » فالقيام بالسط في آل عمران  
والوزن الحق في الأصراف ظهرا في مقادير الديناميت وللوات للفرقة كما ظهرا في غيرها ، وهكذا قوله  
في سورة التائمة « يا ويلتى أجهزت أن أكون مثل هذا التراب ؟ » .

فهنا يقال إذا كان ابن آدم يقول متحصرا على نفسه كيف أجهز أن أكون مثل التراب وتأسف وتندم  
على الجهالة فلتسكن الحسرة والجهالة هنا أنسى وأشد تنكيلا ، كيف لا والندامة في قصة ابن آدم على الجهل  
بدفن القليل مع علم التراب به قتله .

وههنا تكون الحسرة والندامة على أم تهلك وقصور تخرب ، وجيوش تهزم ، وأم تموت ، وبلاد  
تضيع ، ونساء تسي ، وصبيان يصبحون أيتاما ، وذلك كله بسلاح الأعداء وهم من الآدميين .  
وإذا ندّم ابن آدم على جهله بصنعة التراب وهو من غير جنسه فهو بالندم على جهله بصناعة بني جنسه  
أجدر ، فإننا نرى الإنسان يجهز عن صناعة النحل في خليته ، ولكنه قط لا يجهز عن صناعة  
أخيه الإنسان .

فإذا أسف الإنسان على جهله بصناعة غير بني جنسه فهو على جهله بصناعة أبناء جنسه أشد ملامة وأدق  
إلى الندامة وأجدد عن الكرامة وأقرب إلى الإهانة ، وهذا يناسب قوله تعالى في سورة النساء « إن بشأ

يذعبيكم أيها الناس» لجهاالتكم بمجائب خلقى وتباعدكم عن التبجر فى علمى والشرب من مناهل فضلى « ويأت  
بآخرين « أعلم بخلقى قبلوا النعمة فشكروها وسقوها لهم قلوبها ، وذلك أيضا قوله تعالى « وكذلك رأى  
إبراهيم ملكوت السموات والأرض » .

أوليس هذا من عجائب لللكوت ؟ فإن الدقة التناهية فى صناعة القطن حتى يصير مواد مفترقة من  
أعجب المجائب وأبداع العرائب ، وإذا جاء فى الأعراف « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواتكم »  
وقد جعل للفسرون من هذا اللباس القطن .

فهاهو يقول هنا « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فكان من تلك القوة القطن المذكور فى السورة  
قبلها ، وكأنه لما قال « ذلك من آيات الله » مشبرا إلى قوله « أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواتكم » رمز إلى  
ما نحن بسنده : أى يقول إن اللباس الذى أنزله عليكم من آيات الله : أى الدالات على عجائب الصنعة ، ومن ذلك  
اللباس القطن ، ومنه تكون اللواد للفرقة .

فلذلك جاء فى سورة الأتقال هنا يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ومن تلك الاستطاعة :  
استنباط الفرقات من القطن الذى عد من آيات الله ، وقيل بعدها « لعلهم يذكرون » .

لعمري ما أجمل العلم وأبهج الحكمة وأبداع القرآن ، وما أطف هذا القام فقه الحمد إذ أنعم بفضله على  
عبده وألهمه أن ينظم هذه الآيات فى نعت ومجملها متأقة متتالية ، قد التأمت فيها المصلحة الدنيوية  
بالمجائب الإلهية ، فهذا وأمثاله فليفسر القرآن فى هذا الزمان . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .  
واعلم أن هذا النهج من التفسير يبين أمجاد اللطالب الدينية والدنيوية والآخرة والأولى .

ولا تعجب من هذا ولا يكن فى صدرك حرج ، ففس القرآن قد صرح بهذا فى سورة البقرة فقال  
« وزاده بسطة فى العلم والجسم » فهنا زيادة البسطة فى العلم تظهر فى المركبات الكهائية ووزنها ونظامها .  
وكيف يكون القطن مع حمض الكبريتيك ومع حمض التيريك بمقادير محدودة ، وكذلك الكحول والأثير  
والنشارة والتراب والجلسرين من صنع الديناميت .

فعرفة هذه المقادير وتركيبها أثر من آثار العلوم التى تدرس فى المدارس فى العالم الإنسانى ، وحق صنعت  
هذه المقادير واستخدامها أفوايا الأجسام غلبت الأمة غيرها .

ولا جرم أن رجال الشرق اليوم أقوى أبدانا وأصح أجساما من رجال أوروبا ضطاق الأبدان ،  
فإذا صنعوا هذه للصنوعات غلبوم لاهماله كما غلب جمع صغير من أهل مراكن دولة أسبانيا على جلاله قدرها  
وعظم خطرها ، فما بالك إذا عرفوا هذه الصناعات ودرسوها حتى دراستها ، فهنا يتم [الأمران] البسطة  
فى العلم والبسطة فى الجسم ، ولذلك أعقبه بقوله « والله يؤتى ملكه من يشاء » ثم ختم الآية بقوله « والله  
واسع علم » .

فالتفسير بأنه يؤتى ملكه من يشاء بعد ذكر البسطة فى العلم والجسم دال على أن الأولى بالملك العالمون  
الأقوياء ، ففوة العقل وقوة الجسم هما مفتاح المالك والسلطان عليها .

والتعبير بأن الله واسع وأنه علم إشارة إلى أنه تعالى لانهائية لمعلوماته ومعلوماته متفنة واسعة المدى ،  
ولذلك رأى الأمم تتسابق إلى الاستفادة من سمعها ، وكل من كان أسبق إلى علمها كان أولى بالملك « وفوق كل  
ذى علم عليم »

زهرة ناضرة بهجة فى قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة الخ »

اعلم أن القوة نوعان : نوع مادى ، ونوع معنوى .

أما للادى فظاهر مما تقدم ، وأما للعنوى فنذلك هو ما يحدث الثبات في النفوس ويقوى القلوب .  
ومن أم ذلك كتابان الأمور وإظهار الجهد وعدم الإباحة بما في البواطن والأسرار .  
قال أبو مسلم الخراساني الذي أباد الدولة الأموية وكان السبب في ظهور الدولة العباسية في الثلث الأول  
من القرن الثاني الهجري .

أدركت بالحزم والكتبان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا  
ضربتهم ضربة بالسيف فانتهبوا من رقدة لم يمتها قبلهم أحد  
ومن رمى غنا في أرض مسبة ونام عنها تولى رعيها الأسد

وفي الحديث « الحرب خدعة » وفي آيات هذه السورة سنرّ الحرب بل أم أسرار هذا الوجود .  
ألا ترى إلى قوله تعالى « وإذ يريكوم إذ التقيم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان  
مفعولا الخ » قلل الله الكثير قبل الابتداء في الحرب ، وهكذا كثر القليل في أعين الكفار لينهزموا ، وبشر  
السلبيين بالنصر والفوز ولللائكة ، كل ذلك من القوة الضوية .

ومن عجب أن أكبر رجال الحرب الكبرى التي حدثت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨ قد أعلنوا  
في الجرائد في هذا الأسبوع من شهر ( مارس سنة ١٩٢٧ ) سرا من أسرار الحرب ونبا من أنباء التدبير  
وحسن النظام والتنقل ، وذلك أنهم كتبوا أن فرنسا ( يوم أن أعلن الألمان أنهم راضون بشروط الحلفاء )  
كان جيشها في غاية الانحلال .

وقد اختمرت الثورة في الرؤوس وأخذ الضباط والجنود يتسلطون لوإذا طالبين الخروج من مأزق  
الحرب ، فكان رؤساء الفرق يحضرون هؤلاء أمام للدافع ويقتلونهم أفرادا وعشرات ومئات ، وكان ذلك  
كله سرا بحيث لا يطلع رئيس فرقة على ما عند غيره من الفرق حتى باتت رياسة أركان الحرب في حيرة وألم  
وخوف شديد من ذهاب الدولة وضياح البلاد فكان جهل الألمان بما هو داخل الجيش الفرنسي هو السلاح  
الأقوى الذي به كسب الحلفاء الحرب ، ولو علموا حقيقة الموقف عند الجيش الفرنسي لضربهم ضربة قاصمة  
في بضع ساعات ولاتى الأمر وجاء الفوز وانكسرت الآية فأصبح الغالب مغلوبا والقاهر مغهورا وبدلت  
الحال ، والله عليم حكيم .

#### مسامرة

ههنا أسامرك أيها الذكي ، ههنا أحدثك عن الجمال والنور والعرفان والبهجة والعلم ، أحدثك عن هذا  
السر البديع والتنظيم الجميل ، هذا هو الجمال ، هذا هو النور .  
انظر في آيات هذه السورة وغيرها إذ يقلل الله الكثير ويكثر القليل ، وتمج من أن يقلل الكثير  
وتكثير القليل هو سر هذه الدنيا ، رجال الحرب لا يقاتلون إلا ما أمامهم ولا يفقهون إلا أن النصر حليفهم  
بكتانهم وحزمهم وعزيمتهم ، نعم هذا حسن ولكن هنالك ما هو أحسن وأجمل من العلم والحكمة .  
انظر هذا الوجود تره مبني على هذه النظرية ، نظرية تقليل الكثير وتكثير القليل ، هذه هي السياسة  
التي تراها بأعيننا ، ونسمها بأذاتنا « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ألا ترى رعاك الله مناظر النجوم والشمس والقمر ؟ فانظر كيف قلها الله في أعيننا ، الشمس جرم صغير  
والقمر في أعيننا والكواكب الثابتة والسيارة صغيرات جتنا تراها مقدار الليمونة تلالا في جوف السماء ،  
وحقيقة الشمس والقمر والنجوم غير ذلك ، حقيقتها أنها أجسام هائلة عظيمة حتى إن أرضنا بالنسبة للشمس  
جزء من أكثر من ألف ألف جزء من الشمس ، والثواب التي تراها صغيرة هي أجسام أكبر من شمسينا معا

لاستله ، حتى إن كوكب ( السهاك الزامح ) يبلغ نوره ( ٨٠٠٠ ) ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وهناك ماهو أعظم وأعظم ، فلو أن الله جعل أعيننا تنظر إلى الشمس وإلى تلك الكواكب نظرا يحل حقائقها ويظهر صورها وآوارها على ما هي عليه لعميت الأبصار في لمح البصر أو أقرب ، وكيف لا تسمى الأبصار وتلك أضواء تفوق الوصف .

وإذا كانت شمسا الصغيرة لانطبق أن نحدق فيها على الأرض وبيننا وبينها نحو ٣٦٥ سنة بسير القطر البخارية في أرضنا ( ١٢٢ ) سنة بسير قلة الدفع ، فكيف بنا إذا رأيناها كأنها أمامنا ؟ فهل يبقى لنا بصرا ، وبقى لنا وجود ؟ وإذا كان هذا في شمسا الضعيفة ، فما بالك بالشموس الأخرى التي نسميها كواكب نوابت .

أست ترى معي أن سياسة الأمم في حربها أشبه بما ترى في هذا الوجود كما سمعت عن أبي مسلم الحراساني وعن الأمم الأوروبية : كالألمان الذين يكتمون ما يخترعون من للدمرات ، وكاليابان الذين لما حاربوا الروس اختبأت سفنهم في البحريان لونها بلون يشبه لون الماء وزرقة الجوق فلم يفرق الروس إذن بين الأمواج والجوق وبين سفن اليابان ، فانقض الآخرون على الأولين فأهلكوهم وكسبوا قضية الحرب ، فهذه من تقليل الكثير لأهم أو مهموم ألا سفن أمامهم ثم انقضوا عليهم .

إن الله عز وجل جعل نظامه واحدا ، فإذا أرانا النجوم ضعيفة الضوء على حسب القانون المعلوم من أنه كلما طال البعد صغر الجسم ، فذلك ليسعدنا بالنظر إليها فندرسها ونظم سيرها ، وبهذا نساغر في البر والبحر بأنواع التجارة .

فإخفاء الحقائق هنا وكتبتها لمنفعة الناس ، قلل الله في أعيننا تلك الأنوار العظيمة لإسعادنا بالتجارة والسفر للعلم ولحسب الرزق ، وأخفى الألمان والفرنسيون والسلمون وغيرهم في حروبهم أحوال جيوشهم فنصروا ، أخفى الله عظيمة النور عن أعيننا بقواعد الأجرام الضئيلة ، وأخفى اليابانيون سفنهم بإعطائها لونا يشبه لون الماء ، ونتيجة الأمرين واحدة هي جهل الحقائق فيكون النفع العظيم .

العلم إنك محمود على جهلنا كما أنك محمود على علمنا ، جهل الإنسان أجله فصر وزرع ونظم وهندس ودبر وأحكم وبنى ، كل ذلك لتكثير القليل ، ربما لا يبقى من عمر الإنسان إلا أيام أو ساعات ، ولكن الله وضع في قلبه آمالا جساما ، يطوف طائف الموت وينب يوم الفناء وضراب الفراق والانطلاق من هذه الحياة ، ويدنو ملك الموت من المرء ولكن الله يكثر القليل في عينه ليداوم على العمل ويقتطف الثمرات غيره .

فهذا هو تدبير الله في خلقه وقد قلبه عباده لاسيما رجال الحرب ونحن في هذا التفسير إذا رأينا هذا الجمال في العالم الذي نعيش فيه وأن ما نسمعه في حروب الأمم نشاهده أمامنا قليلا ما نقله أشد فرحا وأعظم نصرا وأعز تقرا وأكثر جندا من قواد الحروب لأن ولوج أبواب العرفان والنصر على جيوش النفقة والجهالة أرفع مقامها وأوسع فناء وأرقى درجة وأقدس منزلة وأجد مدى وأبقى أثرا .

إن اللذات النفسية تكون على حسب المعلوم ، فكما كان المعلوم أشرف كانت اللذة به أقوى ، وأي لذة أقوى مما تلاحظه نفوسنا من جمال هذا العالم الذي ينظره أكثر الناس وهم لا يفتولون ما ينظرون « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

ومن ذا الذي كان يظن أن تقليل الكثير في الآية يحوى هذه اللذات ويحوس بلاد الألمان والروس واليابان وكواكب السماء ودنو الآجال ؟ أم من ذا الذي كان يظن أن آية واحدة من القرآن تسطع أنوارها

وتشرق في بلادين الحرب والنضال ومشارك الأنوار في عوالم السماء وتكوين الأجنة في البطون إذ يكثر صاح هذا العالم القليل من التربية في أعين الأمهات والآباء ، فلا ترى أبا ولا أمًا يستطيعان فراق طفل أمره حين ضعيف جسمه قليل أثره فيكبر في أعينهما حتى يكون أعظم قدرا من اللوك والأمراء والعلماء والحكماء ويشجع عندهما .

فلذا قلل الله أمر الشمس والكواكب لتعيش بهذا التقليل وتقوى أبادنا على رؤية النور الضئيل الذي يناسب عيوننا ، فهو هكذا عكس القضية في أمر التربية ، فعظم الولد في أعين أبويه حتى خيل لهما أنه سيكون أشجع من عنتره وأفضى من أبي حسن ، وأخطب من قيس بن ساعدة وسجبان ، وأحلم من الأحنف ابن قيس ، وأوفى من السموم بن عدياء ، وأسوس من (إسمارك) وأدهى من سيدنا عمرو بن العاص ، وأجمل من سيدنا يوسف عليه السلام ، وأعلم من عالم قريش الذي يملأ طباق الأرض علما ، وأرق في الفلسفة من سقراط ، وفي الهندسة من إقليدس ، وفي الفلك من (فلامريوس) وفي الإنشاء من ابن القفيع والصابي ، وفي الشعر من أبي العلاء المرعي وشوقي بك المصري .

هذا ماجعله الله في الأرض قانونا عاما أن كبر صغير الأبناء في عيون الآباء رحمة بالأولاد وتسخيرا للآخرين كبر بالآلات للكبرة الأحجام فبرنا سرها .

ذلك كله من سر قوله تعالى في هذه السورة « وإذ يريكوم إذ التفتيم في أعينكم قليلا وقلكم في أعينهم » جلّ العلم وجلّ الله الذي أتقن كل شيء وأحسنه وقدره تقديرا ووزنه بميزان عدل ، فسخرنا بالتقليل والتكبير وعن غافلون مما يراد بنا وكان التقليل والتكثير المذكوران من أهم الأعمال الحربية والنظم العسكرية وتربية التربية ، ونظام هذا الوجود كالمجموعة الشمسية ، انتهى يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية .

هذا نهاية الكلام في قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » والحمد لله على ما أنعم .

ولنتشرع في الكلام على تفسير بقية السورة قال تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى الخ »

اعلم أن الضائم لم تحل للأمة قبلنا ، فلذلك نجد التوراة التي بين ظهرانيها مصرحة بهذا في مواضع كثيرة وكانت نار تنزل من السماء فتحرق ما غنموه من الأعداء ويحرم عليهم أن يتعاطوه . فلما كان يوم بدر وجىء بالأسرى وهم سبعون أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم أبا بكر رضى الله عنه ، فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فذغهم نضرب أعناقهم مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، ومكني من فلان ( نسيب لعمر ) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وقال عبد الله بن رواحة أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم نارا ، فقال له العباس قطعت رحمتك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه ثم دخل ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال « فمن تبعني فإنه منى ومن عصاني فإنك غفور رحيم » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تفرحهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك يا عمر مثل نوح قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ومثلك يا عبد الله بن رواحة كمثل موسى إذ قال « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق ، قال عبد الله بن مسعود إلا سهول بن بيضاء فلما سمعته يذكر الإسلام ثم

بعد هزيمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء ، ثم قال صلى الله عليه وسلم إن شئتم قتلتموم وإن شئتم فادبتموم ، فقالوا بل نأخذ الفداء ، قال عمر : فلما كان من الغد جثت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبيكان ، فقلت يا رسول الله أخبرني من أرى شئاً تبكي أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباً كبت لبكائكما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى ( ما كان لني ) ، وقرئ « ما كان لني » ( أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض ) يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويزع الإسلام ويستولى أهله . يقال أنحنه المرض : إذا أنقله ، وهو من الثخانة ، إذ مقام النبوة لنشر الدعوة وتثبيت الإيمان وهداية الناس ، وهذه أول غزوة غزوتموها فما كان لكم أن تستبقوا الأعداء لأخذ الفداء بل كان الإحنان فيهم أخرى بكم ( تريدون عرض ) الحياة ( الدنيا ) وانتظاف الثمرة قبل أوانها بأخذكم الفداء ( والله يريد الآخرة ) يريد لكم سبب نيل ثوابها من إغزاز الدين وفتح الأعداء ( والله عزير ) يغلب أولياؤه أعداءه ( حكيم ) في تدبير مصالح عباده ( لولا كتاب من الله سبق ) لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو ألا يعاقب المخطئ ، في اجتهاده ، أو لا يذب أهل بدر أو قوما بما لم يصرح لهم بالهوى عنه ، أو أن القدية التي أخذوها ستحل لهم ( لمسكم ) لأصابعكم ( فيما أخذتم عذاب عظيم ) وقوله من الله صفة وسبق صفة ثانية لكتاب وخبره محذوف أي موجود ، قال محمد بن إسحق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدرًا إلا وأحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء لما نجما منه غير عمر وسعد بن معاذ ، وذلك لأن كلا منهما أشار بالإحنان .

ثم اعلم أن قوله تعالى « تريدون عرس الدنيا والله يريد الآخرة » تنبيه على ما تقرّر في الدين والحكمة أن تراكم الأموال وإقبال الدنيا مدعاة للتوغل في اللذات والشهوات كما ورد في حديث البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها فقال قائل يا رسول الله أو يأتي الشر من الخير » فشه له رسول الله صلى الله عليه وسلم حال الدنيا وإقبالها بحال البهائم الرائعة في الكلا فهى تسنان : قسم يأكل ويشرب وينام في الشمس وهو صحيح سليم ، وقسم منها يأكل ما بضره من الحشائش أو يميته ، وأن الكلا والحشيش إنما ثبت بسقى الماء النازل من السماء . فالمطر خير والنبات منه ماضر ومنه مانع .

فهذا هو مثل الدنيا ، وعلى ذلك كانت الغنائم وكثرتها من أسباب تأخر الأمم إذا نامت على وساد الراحة وبطرت وفرحت فيخرج جيل قليل القوة لم يتعود العمل فتضيع الأمة وتهلك شأن الكاسلين النائمين ، ولقد علم أن هذه الأمة ستقوى عليها الغنائم فذكرها بالمذاب وبكى الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أحل لهم ذلك واكتفى بوعد الرسول لنا وتحذيرنا من الدنيا وغرورها وأن القرآن مملوء من الزهيد في الدنيا وأن نبينا رحمة للعالمين ونحن تابعوه وهكذا فافهم .

ولما نزلت الآية التي نحن بصددها كفت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء والغنائم فنزل ( فكلوا مما غنمتم ) من القدية وبقية الغنائم ( حللاً ) حل من الغنوم ( طيباً واتقوا الله ) في مخالفتها ( إن الله غفور رحيم ) أباح لكم ما أخذتم ( يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ) وفي قراءة « الأسارى » ( إن يعلم الله في قلوبكم خيراً ) إيماناً وإخلاصاً وصحة نية ( يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ) من الفداء بأن يعطيكم في الدنيا أضعافه أو في الآخرة ثواباً ( ويغفر لكم ) والله غفور رحيم ( نزلت في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا النابسين الذين خرجوا من مكة

إلى بدر ، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم اوقعة بدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم فافتلوا فلم يطعم شيئا وبقيت العشرون أوقية معه ، فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما شئ خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك ، وكلف فداء ابن أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث فقال العباس : يا محمد تركنى أنكف فريشا ما بقيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين الذهب الذي دفنته أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها إني لا أدري ما يسينني في وجهي هذا ؟ فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقم (يعنى بنيه) فقال العباس : وما يدريك يا ابن أخي ؟ قال أخبرني به ربي ، قال العباس : أشهد إنك لصادق وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله لم يطعم عليه أحد إلا الله ، ولقد دفنته إليها في سواد الليل وأمر ابن أخيه عقيل ونوفل بن الحرث فأسلما ، قال العباس فأبدلني الله خيرا من ذلك إلى الآن عشرين عبدا إن أدناهم ليتجر في عشرين ألفا وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر للنفرة من ربي . وروى أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم مال البحرين وهو ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله وكان يقول هذا خير مما أخذ مني ، قال تعالى ( وإن يريدوا ) أي الأسرى ( خيانتك ) نقض ما عهدوك عليه ( فقد خانوا الله من قبل ) بأن كفروا ونقضوا ميثاقه للأخوذ عليهم من الدلائل العقلية ( فأمكن ) أي أمكن الله للؤمنين ( منهم ) بيدر قتلوا وأسروا ، فإن عاد نقضهم العهد عاد الإمكان منهم ( والله عليهم ) بما في بواطنهم من خيانة أو نقض عهد ( حكيم ) بحمل العقوبة على الذنب والثواب على الحسنات ( إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ) وهم المهاجرون ( والذين آووا ونصروا ) أي آووم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار ( أولئك بعضهم أولياء بعض ) أي يتولى بعضهم بعضا في الليراث وكان للمهاجرون والأنصار يتوارثون بالمهجرة أو بالنصرة دون القرابات ، وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه للمهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حينما كانوا ضار ذلك منسوخا بقوله تعالى « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » ( والذين آمنوا ولم يهاجروا ) حتى آمنوا وأقاموا بمكة ( مالكم من ولايتهم من شيء ) يعني من الليراث ( حتى يهاجروا ) إلى المدينة ( وإن استصركم في الدين ) أي إن استصركم الدين آمنوا ولم يهاجروا ( فمليكم النصر ) أي فمليكم نصرهم وإعانتهم ( إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ) أي عهد فلا تصروهم عليهم لأن ميثاقهم بمنهم من أن يبتدئوا القتال فكيف تعينون الدين لم يهاجروا على قوم لا يبتدئون أذاهم ( والله بما تعملون ) من صلح وغيره ( بصير ) والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ) في الليراث ، ظاهره إثبات اللوالة بينهم ، ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم وإيجاب مباحةهم ومصادمتهم وإن كانوا أقرب وأن يتركوا يتوارث بعضهم بعضا ( إلا تفعلوه ) أي إلا تفعلوا ما أمر ربيكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا في التوارث تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابة الكفار كقرابة ( تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ) أي تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة لأن المسلمين مالم يصيروا يدا واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا كما هو حاصل اليوم فترى أمراء الإسلام وعظماة يتقربون من الفرنجة ويقاتلون معهم المسلمين في العراق والشام وبلاد الجزائر ومراكش ، ولولا إغاثة المسلمين في الحرب العاتمة لأوروبا على المسلمين ما أخذوا بلاد الإسلام ، ولولا إغاثة المسلمين للحلفاء لاقتصرت ألمانيا على الحلفاء ، ولكن المسلمين ضيموا مجدهم وقاتلوا في صفوف الأعداء ضد إخوانهم ، فاقبلت الفرنجة عليهم وقسموا بلاد الإسلام بينهم ، فأخذ الإنجليز العراق وفلسطين ، وأخذ الفرنسيون الشام كما أخذت فرنسا قبل أربعين سنة تونس وقبلها الجزائر ، وأخذت إنجلترا مصر واقسم



الفرنسيون والأسبان مراكن ، كل هذا لتقاطع المسلمين وجهاتهم ، ومصداق لقوله تعالى « إلا تعملوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » فهذه هي الفتنة وهذا هو الفساد الكبير ، وأي فساد أعظم من هذا أن يسبح للمسلمون وممالكهم كقطع الشطرنج تنقل في الرقعة بلاعلها ويساقون للعذاب المون ، ذلك لقلة العلم فيهم وغلبة الجهل وأن الطمع قد غشى على العقول والنفوس ، فلا ينظرون إلا بشهواتهم ولا يسمعون إلا بأطماعهم القصيرة النظر المدبجة الجدوى ( والدين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والدين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ) .

ولما بين الله أحكامهم من حيث العائلات أخذ بين حقائق إيمانهم وما أعد لهم تبييناً لأحكام الآخرة بعد أحكام الدنيا ، وأيضاً لما جعل الله في أول السورة للمؤمنين حقا هم الذين يوجلون عند ذكر الله ويزيدون إيماناً بتلاوة آياته ويتوكلون على ربهم وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة أبان في آخرها هنا أن المهاجرين والأنصار قد استوفوا شروطاً للمؤمنين حقا ولذلك أعقبه بقوله ( لهم مغفرة ) لنوبهم ( وورزق كريم ) في الجنة ( والدين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ) يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ( فأولئك منكم ) وذلك للترغيب .

واعلم أن المهاجرين الأولين هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة قبل صلح الحديبية وللمهاجرون الهجرة الثانية هم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية إلى فتح مكة ، فقوله « والدين آمنوا وهاجروا الخ » يقصد به الهجرة الأولى ، وقوله « والدين آمنوا من بعد الخ » يراد به والله أعلم الهجرة الثانية ، فأما بعد فتح مكة فقد صارت دار إسلام لقوله صلى الله عليه وسلم « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » أخرجاه في الصحيحين . وقال الحسن الهجرة غير مقطوعة أي من بلد يخاف المؤمن على إظهار دينه فيه من كثرة الكفار ، فهذا يجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف فيه على إظهار دينه ، وفي هذا إقحام أن المهاجرين الأولين أفضل من الذين بعدهم فألحقوا بهم ، قال تعالى ( وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ) .

قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالمهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية ، فهذا تبيين أن سبب القرابة أولى وأقوى من سبب الهجرة والإخاء فهذا نسخ لما تقدم ، وكتاب الله أي حكمه أو اللوح المحفوظ ، وتمسك أبو حنيفة بهذه الآية في توريث ذوى الأرحام .

أما الشافعي رضي الله عنه فقال : كتاب الله حكم الله الذي بينه في سورة النساء ، فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة للورث وإعطاء أهل الفروض وفروضهم ( إن الله بكل شيء عليم ) يعني أنه سبحانه عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية .

لطيفة

بيننا أنا أكتب في تفسير هذه الآية وأقول آراء الإمامين الجليلين أبي حنيفة وإمامنا الشافعي رضي الله عنهما واختلافهما واجتهادهما لمصلحة الأمة ، وكيف يقول أحدهما : لا توريث لذوى الأرحام ، وبورثهم الآخر ومحتج كل منهما بحجة على ما فتح الله عليه ، فهذا يقول أولو الأرحام يشمل من في آية لليراث وغيرهم ، والآخر يقول حكم الله الذي ورد في سورة النساء ، يقيد « ولكل وجهة هو موليها » رأيت أنه مما يجب على أن أقول في هذا اللقائ : لقد اجتهدنا فأحسننا الاجتهاد وحافظنا على حقوق الأقارب بقدر طاقتنا البشرية ، ولو أنهما كانا حين رأيا أوروبا واتهازا الفرص لاضطهاد الأمم الإسلامية وارتقاءها بالعلوم والمعارف والننى والثروة والعلوم الطبيعية وما سخر الله لهم من العوالم المادية فأصبحوا ولهم مشارق الأرض ومغاربها ، لو أنهما كانا حين لقائنا معا بصراحة : إن قوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض ؟ » وقوله « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » وقوله « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » وقوله « وسخر لكم الأنهار وسخر لكم

الشمس والقمر دائبين . وسخر لكم الليل والنهار » وقوله « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وفقره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » من الآيات التي تبلغ سبعمائة وخمسين آية من القرآن .  
أقول : لو كانا حينين ونظرا ما نظرناه لقالا إن هذه العلوم يجب دراستها في جميع أقطار الإسلام دراسة كما تدرس الأحكام الشرعية بنهاية أتم واهتمام أكل ، ولقد أوجبت المذاهب كلها العلوم والصناعات على سبيل فرض الكفاية ، ولكن علماء الإسلام لم يعطوها العناية الكافية ، ولو أن في المسلمين مجتهدين الآن متيقظين لأحبوا المهذ الأول ولحرضوا المسلمين على علوم الكائنات وسبق للمسلمون الفرنجة ، ولقال لهم علماءهم من عرف فن الطبيعة والفلك والكيمياء فله ثواب من قرأ للبراث والوضوء والصلاة لأنها كلها علوم دينية .

لو أن هذين الإمامين كانا حينين لرأينا خلافتها فيما يجب على المسلمين من تلك العلوم ، ولرأينا حرصهما الشديد على أمتنا للسكينة .

حرام على علماء الإسلام أن يناموا ، حرام عليهم أن يذروا الأمة تتخبط وهم ناعمون ، حرام على الحكماء في مصر وفارس والعراق والشام والترك وشمال أفريقيا وبلاد نجد أن لا ينتهروا وجوب العلوم على المسلمين ليسابقوا الفرنجة وليقاوموهم ، فانظر كيف بلغ من اجتهاد إمامينا أن بالغا في مبحث أولى الأرحام هل هم خاصون بمن ذكروا في الآية ؟ أم هم أعمّ منهم مع أن اللال للوروث لا يزيد بهذا التخصيم سواء أكان للعموم أم للخصوص . إن اللال للوروث لم يزد بعد هذا كله ، ولكن السألة في أن يعطى كل ذي حق حقه من أقارب الميت ، هذا هو الخلاف في الآية .

فانظر لجهالة التأخرين من المسلمين وقد رأوا بأعينهم أن العرييين قد سخروا الطبيعة ، فاستخرجوا منها أموالا وأموالا حتى أحاطوا بنا من كل جانب وفتحوا الممالك شرقا وغربا ودخل كل بيت من بيوتهم مكاسب ومكاسب ، ونالوا حظا عظيما مما رزقهم الله بهداية عقولهم وإرشاد حكائهم وتبيان رؤسائهم ، كل ذلك رأوه فلم يحركوا ساكنا ولم يقولوا يا أبناءنا المسلمين ويا إخواننا الحمديين هذه أرض الله لكم وعواله فاملكوها واستخرجوا كنوزها حتى تقوى أمة الإسلام ، وانظروا كيف كان أمتنا يحافظون على القليل للوروث فلا يأخذ زيد مال عمرو ، فكيف لنا نحافظ على مال الأمة كلها التي والفقير والعظيم والحقير ، ذلك اللال المستخرج من الأرض والجبال والهواء والماء ، دونكم خواص الطبيعة ومخائب الكيمياء ، وكيف وصل الألمان إلى استخراج التترات من الهواء وأصبح الهواء المحيط بالأرض كنزا للآلات الحربية وللسهاد في الزراعة ومكبيا محبيا ، والمسلمون يتنفسون في الهواء ويشربون الماء وهم غافلون عن استنباط الحيل في استخراج كنوزها ، وكيف أصبحت حركات الماء النازل من أعلى إلى أسفل كما في شلالات مصر أو الخزانات التي أنشئت على النيل مبدأ الكهرباء التي تبث النور وتوقد النار وتجري القطرات وتعطى الأمة من القوائد ما لا حصر له ، فإذا جد أمتنا وعشوا ودققوا حفظا لمال الأفراد .

فبالت شعري كيف نصرت أنظار التأخرين فناموا نومة أهل الكهف فلم يرفعوا أبصارهم إلى البراث العام الذي يملأ البيوت جميعها مالا ويورثها جلالا ويحمل للأمة جمالا وكالا ، فالأرض كلها لله « وفيه ميراث السموات والأرض » وهذا هو البراث الذي سخره لنا فقال « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه » فهو الوارث وهو للسخر ، ومن أعرض عن النعم فهو حقيق بالحرمان ، ومن كسل عن مواهبه باء بالخسران .

للبراث ميراثان : ميراث الحى وميراث الميت

إن ميراث الميت ميت وميراث الحى حى ، فالله هو الحى وهو الذى له خزائن السموات والأرض ،

إن ميراث الميت في علم الفقه إنما ينفع أسرة واحدة بخلاف ميراث الحى فإنه ينفع الأم كلها ، وميراث الميت يحمل الوارث بطيء الحركات قليل المهمة ، وميراث الحى وهو الله يعطيه للناس على قدر أعمالهم لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم فهو عدل ، ولقد نجد الدين رقواً أهمهم في الزمان الحاضر من العصاميين الذين لا مال لهم ورثوه فجذوا في العمل فرقموا شأن الأم ، فأما الملوك الذين ورثوا ملكهم عن آباءهم ، فكثير منهم أصابوا الأمم بالنكبات وأحلوا بها الأزمات .

ولقد ترى الأمم الإنجليزية ضربت على كل تركة مقداراً من المال يكثر كلما كثرت التركة ويقل كلما قل المال قليلاً ، ونرى البلشفية منعت الملك وأمرت جميع الأمة بالعمل لترقى البلاد بأعمال أبنائها . النوع الإنسانى اليوم ولى وجهته شطر ميراث الله الذى له خزائن السموات والأرض ، فعلى المسلمين أن يوجهوا عنايتهم لتلك الميراث الذى يسع الممالك كلها ولم يضيع الله على أمة فيه ولم يمنعه عن أحد وإنما يعطيه بالعلم ، فكلما كان الناس أكثر علماً بمصنوعاته كانوا أكثر ثروة وغنى .

إن الأنبياء لم يورثوا مالا « نحن معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه صدقة » فالنبوة فتحت باب العلم على مصراعيه ولكنها أفلتت باب المال من ناحيتها تنبئنا على تلك الخزائن الإلهية والموارث الربانية ، ومن هذا المقام « برئى وبرث من آل يعقوب » ذلك ميراث العلم ، فالأنبياء يورثون الناس علماً وذلك مفتاح خزائن السموات والأرض .

وعسى الله أن يجتهد لهذه الأمة أمرها ويرجع مجدها ويرفع عنها نيرها ويجملها رحمة للعالمين .

الاهم إنى لا أريد بكتابتى إلا رقى النوع الإنسانى . وأن يكون المسلمون أرشد العالمين وأصلح بنى الإنسان وأن يكونوا قادة وسادة ورحمة لهم لا يظلمون ولا يظلمون . انتهى تفسير سورة الأفال .

## سورة التوبة

هي مدينة بالإجماع إلا آيتين في آخرها « لقد جاءكم رسول من أنفسكم الخ » فإنهما نزلتا في مكة وهي مائة وتسع وعشرون أو ثلاثون آية ، وتركت التسمية في أولها لأنها نزلت لرفع الأمان ، والبسطة أمان ، لأن الرحمة فيها ، وأى أمان فوق الرحمة والتسمية افتتاح للخبر ، وأول هذه السورة وعيد وقض عهد ، وقيل إن الصحابة اختلفوا في سورة الأنفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان ؟ فقال بعضهم هما سورة واحدة لأنهما نزلتا في القتال ومجموعهما مائتان وخمس آيات ، فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال ، وقال بعضهم هما سورتان : فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبها على قول من يقول إنهما سورتان ، ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبها على قول من يقول هما سورة واحدة .

وسأل ابن عباس رضى الله عنهما في ذلك سيدنا عثمان رضى الله عنه فقال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السور التي يذكر فيها كذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها وطننت أنها منها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعنا في السبع الطوال » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن اه .

## تقسيم سورة براءة

هي أربعة أقسام : [ أولها ] الآيات التي قرأها سيدنا علي بن أبي طالب يوم الحج الأكبر ، وهي أربعون إلى قوله « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » .  
 [ ثانيا ] التحريض على الجهاد والإنفاق في سبيل الله ووصف اليهود والنصارى والأجبار والرهبان والجزية والأشهر الحرم من قوله « إلا تنفروا يندبكم - إلى قوله - ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .  
 [ ثالثا ] في المناقضين وتوبيخهم وأحوالهم من قوله تعالى « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا - إلى قوله - أن تضطع قلوبهم والله عليم حكيم » .  
 [ رابعا ] الكلام على المؤمنين وأحوالهم من قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » إلى آخر السورة .

## (الْقِسْمُ الْأَوَّلُ)

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ \* وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَذَابِ

أَلِيمٌ \* إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا  
 فَأَتُوا إِلَيْهِمْ وَعَهَدُوا إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ \* فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا  
 الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا مِنْهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا  
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ تَغْلُوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
 اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ \*  
 كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ  
 الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ \* كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا  
 عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ  
 فَاسِقُونَ \* اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَوَصَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \*  
 لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ \* فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ  
 وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُعْلَمُونَ \* وَإِنْ نَكَثُوا  
 أَيْمَانَهُمْ مِنْ يَمَدٍ عَاهَدِيهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ  
 يَنْتَهُونَ \* أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ  
 أَوْلَٰ مَرَّةٍ أَخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* فَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمْ  
 اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِمُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ \*  
 وَيَذِيبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* أَمْ حَسِبْتُمْ  
 أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ  
 وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَبِجَهَةِ اللَّهِ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ \* مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَنْعَرُوا مَسَاجِدَ  
 اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ \*  
 إِنَّمَا يَنْعَرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَىٰ الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ  
 إِلَّا اللَّهَ فَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ \* أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ  
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ \* الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ  
 وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ \* يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ  
 وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ \*  
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ  
 وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ \* قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ  
 وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ  
 تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ  
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ \* أَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ  
 أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ أَنْتُمْ فَلَئِمَّا تَنْفَرْتُمْ مِنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ  
 وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ \* ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ  
 تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ \* ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ  
 يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ  
 الْحَرَامَ بِمَدْعَاهِمُ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ  
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ  
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ  
 عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ \* وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ  
 ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ \*  
 اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُرْوُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا  
 إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ  
 وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ \* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى  
 وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثُرَ

مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ  
وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \*  
يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ  
لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ \* إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا  
فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا  
تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسِكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ  
الْمُتَّقِينَ \* إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ  
عَامًا لِيُؤْطَوْا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي  
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ  
إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ  
إِلَّا قَلِيلٌ \*

اعلم أن هذه الآيات أربعون وهي التي قرأها سيدنا علي يوم الحج الأكبر (العيد) على الناس .  
وملخص هذا المقام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مأمورا ألا يقاتل للشركيين أولا ، والآيات في ذلك  
كثيرة مشهورة ، ثم بعد ذلك أمر أن يقاتل من قاتله . قال الحسن : أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم  
بقتال من قاتله من الشركيين ، فقال « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » فكان لا يقاتل إلا من  
قاتله ، ثم أمره بقتال للشركيين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من  
أربعة أشهر .

وقوله رضى الله عنه فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر : أى إلا بنى حمزة وهم حى من  
كنانة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتمام عهدهم إلى مدتهم ، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وكان  
السبب فيه أنهم لم ينقضوا عهدهم ، وكان ابتداء الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر : أى يوم العيد ، وكان  
ذلك في العام العاشر من شهر ذى القعدة فآخِر الأشهر الأربعة العاشر من شهر ربيع الأول ، وإنما كان  
الحج في شهر ذى القعدة لأجل النسب الذى كان يحسبه العرب ، فلما كان العام الذى بعده صار الحج في العاشر  
من ذى الحجة وفيها حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الحديث .

وهذا لمن كان له عهد أقل من أربعة أشهر ، فأما من لم يكن له عهد فقد جعل عهده أربعة أشهر ، ومن  
كان عهده فوق الأربعة حط أجله إلى أربعة إن كان نقص شيئا من شروط العهد ، فأما إن كان أتم شروط  
العهد كبنى ضمرة من كنانة فهو لأجله بوفى لهم بعهدهم .

## سبب هذا النداء يوم الحج الأكبر

اعلم أن مكة لما فتحت سنة ثمان من الهجرة وجاءت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج ، فقيل له : الشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة ، فقال لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ؛ فبث أبا بكر في تلك السنة أميرا على الموسم ليقم للناس الحج ، ثم بعث بعده عليا على ناقته العضاء ليقرا على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بحكة ومنى وعرفة : أن قد برئت دمة الله ودمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ولما كلم أبو بكر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك قال : أما رضى يا أبا بكر أنك كنت منى في القار وأنك منى على الحوض ؛ قال بلى يا رسول الله ؛ فسار أبو بكر أميرا على الحجاج وعلى بن أبي طالب يؤذن براءة ، فلما كان قبل التروية بيوم خطب أبو بكر في الناس وحدثهم عن مناسكهم حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فأذن في الناس بأدى أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة .

وقال يزيد بن تبيع سألنا عليا : بأى شيء بعثت في الحجة ؟ قال بعثت بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نكح مؤمنة ، ولا يجتمع للشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج ، ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع فلم يحج في العام القابل الذى حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك ، وأنزل الله في العام الذى فيه نذر أبو بكر إلى الشركين عهدهم « يا أيها الذين آمنوا إنما للشركون نجس فلا يقربوا للمسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتن عيلة فسوف يضيق الله من فضله » الآية ، وإنما أمر سيدنا على بالنداء في الناس ، لأن عادة العرب جرت أن لا يتولى تفرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربها ، وكان على بن أبي طالب أقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي بكر لأنه ابن عمه .

ومما ذكره المفسرون في سبب هذا النداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل للشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم ، وذلك قوله تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » في سورة الأنفال ، فهذا هو ذا التنبذ على سواء .

ولما وقف سيدنا على ونادى في الناس بالآيات من أول براءة عند جرة العقبة وقال : يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم ، فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ، ثم قال أمرت بأربع وعشرا للتقدمة : فقالوا : عند ذلك يا على أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه إلا طعن بالرمح وضرب بالسيوف .

هذا خلاصة ما ذكره المفسرون مع تشعبه ، فلنشرع في تفسير الآيات .

قال تعالى ( براءة ) أى هذه براءة ( من الله ورسوله ) البراءة التباعد مما تكلمه مجاورته ، قال الزجاج أى قد برى الله ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء بها إذا نسكتوا ( إلى الذين عاهدتم من الشركين ) أى هذه براءة واصله من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم ( فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ) أى فسروا أيها للشركون في الأرض كيف شئتم مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين ، والسيحوا : الضرب في الأرض والانساع فيها والمد عن مواضع العبارة ، والمعنى قل لهم سيحوا ، والقصد من الأمر الإباحة والإطلاق والإعلام بحصول الأمان وزوال الخوف والقتل والقتال ، وبعد الأشهر الأربعة التي شرعناها فيما تقدم وبيننا ما اخترناه من كلام المفسرين يقتل الشرك حيث أدرك ، ويؤمر إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان . ولا تظنوا



أيها الشركون أنكم تفنونون الله فلا يمكن للسليين منكم ، كلا ! فلتعلموا أنكم لا تفلتون من أيدي المؤمنين (واعلموا أنكم غير معجزى الله ) بمعنى أن هذا الإمهال ليس لمعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب نائب ويؤمن ، وما مثلكم في أنكم في قبضة الله وقد أهلكم ثم إذا أخذكم وسلط للمؤمنين عليكم لن تفتنوا بل تغادون إلا كذبل ماقال طرفة بن العبد :

لمعرك إن اللوت ما أخطأ الفقى كالعطول للرخى وثنياء باليد  
مى ما يشأ يوما بقده لحنقه ومن يك فى قيد اللية ينقد

فهكذا هؤلاء يسبحون أربعة أشهر كأنهم كالحبوانات للربوطة فى الطول وقد وضع الرجل ثنياء فى يديه فيرتع الحيوان كما يشاء ومضى أراد الرجل جذبه ارتد إليه حالا ، هكذا اللوت مع الناس ، وهكذا المؤمنون مع الشركين بعد الأشهر الأربعة ، فهم لا يفلتون بل هم فى قبضتهم ، هذا معنى الآية لأن الله خاذل الكافرين ( وأن الله محزى الكافرين ) بالقتل والأسر فى الدنيا والمذاب فى الآخرة (و) هذا (أذان من الله ورسوله ) أى إعلام صادر من الله ورسوله ( إلى الناس يوم الحج الأكبر ) يوم النحر لأن فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمى ، وإنما وصف بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ، وحجته وأذان معطوف على جملة براءة ، كأن الله يقول وإعلام من الله ورسوله ( أن الله ) أى بأن الله وحذفت صلة الأذان تخفيفا ( يرى من الشركين ورسوله ) يرى على قراءة الرفع . وقرئ « ورسوله » بالنصب عطفا على اسم أن ، وقرئ بالجر .

حكى أن أصرياً سمع رجلاً يقرأ « ورسوله » بالجر ، فقال إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا بريء منه ، فليبه الرجل إلى عمر خشى الأعرابي قراءته ، فعندها أمر عمر بتعلم العربية وهذه قراءة واردة أيضاً ، والجر إما على الجوار أو على القسم فرسوله مثناة اللام ( فإن تبتم فهو ) أى فالتوب ( خير لكم وإن توليتهم ) عن التوبة : أى تبتم عن التولى عن الإسلام والوفاء ( فاعلموا أنكم غير معجزى الله ) غير فالتين من عذابه ( وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ) فى الآخرة ، ثم استثنى من قوله « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من الشركين » فقولوا لهم سبحوا إلى آخره . قوله ( إلا الذين عاهدتم من الشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ) من شروط العهد ولم ينكثوه ولم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط كفى ضمرة ( ولم يظاهروا ) أى ولم يماؤنوا ( عليكم أحداً ) يعنى من عدوكم ( فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم ) أى إلى تمام مدتهم ولا تجروهم مجرى الناكثين ( إن الله يحب المتقين ) الذين يضمنون الأمور مواضعها ويوفون بالعهود مع اللوفين ولا يجعلونهم كالناكثين ( فإذا انسليح الأشهر الحرم ) أى انقضت شهور العهد ، وإنما سميت حرماً لحرمته نقض العهد فيها وهى التى أيسح لناكثين أن يسبحوا فيها ، وهذا اختيار مجاهد ومحمد بن إسحق وهو الذى يناسب نظم الكلام وأثران المعنى ( فاقبلوا للشركين ) الناكثين ( حيث وجدتموهم ) من حل وحرم ( وخذوهم ) وأسروهم ، والأخذ : الأسير ( واحصوهم ) واحبسوهم ، أو حولوا بينهم وبين المسجد الحرام ( واقصدوا لهم كل مرصد ) كل ممر ومجتاز ترصدونهم به وهو منصوب على الظرف ( فإن تابوا ) عن الكفر وآمنوا ( وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ) حتى تصدق توبتهم وإيمانهم ( غلوا - بيلهم ) فأطلقوهم بعد الأسر والحصر إن وقعوا فى قبضتكم ، أو دعوهم ولا تترسوا لهم إن لم تكونوا استحوذتم عليهم ، ومن ترك الصلاة ومنع الزكاة لا يغنى سبيله ( إن الله غفور رحيم ) تعليل لتخليه سبيلهم ، فإن الله يغفر بالإسلام ماقد سلف للكافر ( وإن أحد من الشركين ) المأمور بالترسؤ لهم ( استجارك ) استأمنك وطلب منك جوارك ( فأجره ) فأمنه ( حتى يسمع كلام الله ) ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ( ثم أبلغه مأمنه ) داره التى يأمن فيها إن لم يسلم ثم قائله إن شئت ، ضلى

السلين أن لا يؤذوا مستأمنًا وليس له أن يقيم في دارنا وعلينا أن نمسكه من العودة (ذلك) الأمر بالإجارة (بأنهم) بسبب أنهم (قوم) جهلة (لا يملون) ما الإسلام وما حقيقة ما يدعوا إليه فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسموا ويضموا الحق (كيف يكون للشركيين عهد عند الله وعند رسوله؟) كيف استفهام في معنى الاستنكار والتعجب، ومعناه الجحد أيضا: أي لا يكون لهم عهد عندنا ولا عند رسوله وهم يقدرون ويتقضون العهد (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) وهم بنو ضمرة للتقدم ذكرهم ولم يتقضوا شرطاً من شروط العهد ولم يمينوا عليكم عدواً كما تقدم تفصيله فترصبوا أمرهم (لما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أي فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء، وهذا كقوله فيما تقدم «فآمروا إليهم عهدهم إلى مدتهم» ولكنه مفيد هنا بأن يستقيموا على العهد وما شرطية (إن الله يحب للمتقين) الذين يتربصون ويستيقظون في هذه الأحوال وأمثالها ويميزون بين الخبيث والطيب (كيف) تكرار تعجب واستبعاد: أي كيف يكون بينكم وبينهم عهد (وإن يظهروا عليكم) يظلمونكم: أي كيف وحالهم أنهم إن يظفروا بكم (لا يرقبوا فيكم) لا يراعوا فيكم (إلا) قرابة (ولا ذمة) عهدا (برضونكم بأفواههم) بالوعد بالإيمان والوفاء بالعهد، وهذا كلام مستأنف في وصف حالهم وأن ظاهرهم بخلاف باطنهم وهو يقرر استبعاد الثبات منهم على العهد، وكأنه قيل لماذا يوصفون بذلك؟ فكان الجواب «برضونكم الخ» (وتأبى قلوبهم) الإيمان والوفاء بالعهد (وأكثرهم فاسقون) ناقضون العهد متمردون في الكفر لأمرودة تمنعهم عن الكذب ولا فضائل تردعهم عن التثبوت وهذه حال أكثرهم، أما أقلهم فهم وإن كانوا كفارا فهم ثابتون عن العدالة في دينهم، ولذلك لم يتقضوا العهد (اشتروا) استبدلوا (بآيات الله) بالقرآن (ثمناً قليلاً) عرضاً يسيراً وهو اتباع الشهوات وتقض اليهود واللبائنة في العداوات (فصدوا عن سبيله) أي عدلوا عن دينه وصرفوا غيرهم، أو صدوا عن سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار (إنهم ساء ما كانوا يعملون) وللقسود بالتدبير عملهم هذا، ثم وصفهم هنا كما وصفهم قلاً بقوله «لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة» وهذا غير مانقدهم لأنه قال هناك «فيكم» وهنا قال «في مؤمن» فهنا أعم. ويقال إن هؤلاء قضوا العهد بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان بن حرب فذمهم الله بذلك، وعلى هذا يكون هذا خاصاً بهؤلاء، والأول أعم (وأولئك هم المعتدون) المهاجرون الغاية في الظلم والشر (فإن تابوا) عن الكفر (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم) أي فهم إخوانكم (في الدين) لا في النسب (وتفصل الآيات) بينها (لقوم يملكون) يفهمون فيتفكرون فيها، وهذه جملة معترضة، بمعنى وتبين حجاج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه، كأنه قيل إن من تأمل تفصيلها فقد استحق منقبة العلم وذلك لتحريره على أن يتأمل الناس ما نصل من أحكام الشركيين للمجاهدين والمحافظة عليها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة. وقال ابن مسعود أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يرك فلا صلاة له. وقال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يفرق بينهما وأبي أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال برحم الله أبا بكر ما كان أقمه: يعني بذلك ما ذكره أبو بكر في حق من منع الزكاة وهو قوله: والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما، يعني الصلاة والزكاة.

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما نوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقائل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم من ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق للمال، والله لو منوني عقلاً كانوا يؤذوننا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقتلتهم على منعتها

فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال ، ثم قال تعالى ( وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ) أى وإن نقضوا اليهود المؤكدة بالإيمان ( وطمعوا فى دينكم ) وعابوه ( فقاتلوا أئمة الكفر ) فقاتلهم ، ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنهم ساروا بذلك رؤساء مقدمين فى الكفر ، فهم أحق بالقتل ( إنهم لا إيمان لهم ) على الحقيقة وإنما أثبت لهم الإيمان فى قوله « وإن نكثوا أيمانهم » لأنه أراد أيمانهم التى أظهرها ، ثم قال هنا لا إيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا ، وفي دليل على أن القدى إذا طعن فى الإسلام فقد نكث عهده ، وهنا قال الحنفية إن بين الكافر ليست يمينا ، ويقول الإمام الشافعى إن أيمانهم لا يوثق بها ويجعل بينهم يمينا حيث وصفت بالنكث

أقول : متى كانت الأيمان معناها المهد لم يتأت هذا الخلاف ! ولا يكون إلا حيث يجعل اليمين بمعنى الحلف فى الموثقين ، وقوله تعالى ( لعلهم ينتهون ) أى تقاتلوا أئمة الكفر لكي ينتهوا عن الطعن فى دينكم ورجعوا عن الكفر إلى الإيمان . ثم أخذ يحض المؤمنين على جهاد الكفار ، فقال ( ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ) نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا سلاح الحديدية وأعانوا بنى بكر على خزاعة ( وهموا بإخراج الرسول ) أى من مكة حين اجتمعوا فى دار الندوة ( وهم بدءوكم ) أى بالقتال ( أول مرة ) أى يوم بدر إذ قالوا لا نصرف حتى نتأصل محمدا وأصحابه وبدؤوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أنخشونهم ) أن تكون قائلهم خشية أن ينالكم مكروه منهم ( فأنه أحق أن نخشوه ) بالمشتر للمؤمنين فأخشوا ترك أمره ( إن كنتم مؤمنين ) أى إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعد عبده فأخشوه ، وهل يكمل الإيمان إلا بحصر الخشية فى الله وعدم الببالاة بمن سواه .

ولما انتهى من توبيخهم على ترك القتال أمرهم به فقال ( قاتلهم يذبهم الله - إلى قوله - ويذهب غيظ قلوبهم ) فجعل للرتب على القتال خمسة أمور :

(١) التعذيب بالقتل . (٢) والقتل بالقهر وزول الهوان .

(٣) والنصر عليهم والظفر بهم .

(٤) وشفاء صدور المؤمنين وشفاء داء قلوبهم بما كانوا ينالونه من الأذى منهم ، ولا ريب أن من آذاه خصمه أمدا طويلا ثم مكته الله منه فإنه لا محالة يعظم سروره .

(٥) وذهاب غليظ القلوب لما لقوا من المكروه .

وكل هذا قد حصل وهذه من دلائل النبوة ثم استأنف قائلا ( ويتوب الله على من يشاء ) كبعض أهل مكة كأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ( والله عليم ) بما كان وما سيكون ومنه علم القلوب الصالحة للإيمان ( حكيم ) فى قبول توبتهم وإيمانهم .

ولما كان ما تقدم يرجع إلى القتال وإقامة الحروب وإخضاع الأعداء وكان ذلك شاقا على النفوس صعبا على الناس أردفه بأن الناس فى الدنيا مخلوقون للأعمال مبتلون بأفعالها والجهاد فيها ، فمن جد وصبر فاز ، ومن سقط فى الامتحان نزل به الهوان ، وهذا هو قوله ( أم حسبتم ) إلى قوله - والله خير بما تعملون ( أى أظنتم أيها المؤمنون أن تركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تختبروا ليطهر الصادق من الكاذب ، والنس من السمين ، والجيد من الردى ، وهل تركون ولم يتبين المهادون منكم ولم يتخذوا « وليجة » أى بطانة من دون الله ورسوله .

وملخص الآية أحسبتم أن تركوا بلا مجاهدة ولا براءة من الشركين « والله خير بما تعملون » يعلم غرضكم منه ، ثم إنه هاهنا شرع الله عز وجل يبين فضل الإيمان والجهاد ويعطى السليين صورة صلادة

إسلام الصادق ، فهو أولاً بفضل الإيمان والجهاد على عمارة الساجد ، لأن عمارة الساجد لا فائدة منها إذا لم يكن الصبر مؤمناً ، وكيف يعمر الساجد وعبادته مملئة ؟ أم كيف يعمر الساجد والمدوّ محيط به من كل ناحية ؟ هل العلم لصحيح العقائد أولاً ، فإن الجسم لا ينشط إلا على مقتضى الإرادة ، وأن يجمع الجيوش ويطرد الأعداء ويخيف الأمم حوله حتى لا يطمعوا في دياره .

ولصبرى كيف يصل الناس وهم خائفون ؟ أم كيف يتعبدون في الساجد وهم محاصرون ؟ أم كيف يقومون بأعمالهم الدينية وهم لا يعتقدون ؟ وثانياً وضع الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والسكن في كفة والإيمان والجهاد في كفة ، وفضل الكفة الثانية على الأولى ، ذلك لأن من اكتنفته المدوّ وأحاط به الظالمون من كل صوب فأبناءؤه وأهله وأقاربه وماله ومسكنه وجميع ما يتمتع به في حكم الفقود لأن المدوّ سبأخذه منه وبجرمه ، فاقضت السياسة الحكيمة أن الجهاد والإيمان يقدمان على سائر ما ذكر ، إن الجهاد به صيانة الأمة وحفظها ، وقد هتد من أحبّ هذه الأمور وفضلها على الجهاد والإيمان بقاب شديد وقد عرفت العقاب ، فهو الذى وقع فيه السلدون اليوم فقد ضعف الإيمان وقلّ الجهاد ، فأخذ القرنيحة السلدن من كل جانب وهذا مصداق الآية ، وهذا هو قوله تعالى « ما كان للشركين » إلى قوله « والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

وسبب نزول الآية أن أسرى بدر من قريش الذين تقدم ذكرهم في سورة الأنفال ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعبرونهم بالشرك وجعل على بن أبي طالب يوحى العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعة الرحم فقال العباس : ما لكم تذكرون مساواتنا وتكتمون محاسننا ؟ قيل له وهل لكم محاسن ؟ قال نعم . نحن أفضل منكم ، نحن نعمر للسجد الحرام ونهجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العاني : يعنى الأسير ، فنزل قوله تعالى ( ما كان للشركين أن يعمروا مساجد الله ) سواء أكان للسجد الحرام أو غيره ( شاهدن على أنفسهم بالكفر ) بإظهار الشرك وتكذيب الرسول وعبادة غير الله ، وقد كان أهل مكة يطوفون بالبيت عراة ، وكانوا كما طافوا طوفة سجدوا للأصنام ( أولئك حبطت أعمالهم ) التى عملوها في الكفر من أعمال البرّ مثل قرى الضيف وسقى الحاج وفك العاني وكل عمل ليس لله فقد حبط وبطل ( وفي النار هم خالدون ) أى من مات منهم على الكفر ، فإذا كان أهل مكة قد عمروا المسجد الحرام فليس ينفع لهم لأمرين :

الأول : أن أعمالهم حبطت بكفرهم .  
الثانى : أنهم مقتصبون لحقوق المسلمين .

فالأول في الآية السابقة . والثانى في قوله تعالى ( إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ) أى إنما تستقيم عمارة المساجد لمن جمعوا بين قوى العلم المعبر عنه بالإيمان الخ والعمل بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم خشية أحد في أبواب الدين إلا الله ، فهؤلاء وحدهم الذين يقومون بتزيين المساجد بالقرش وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ودرس العلم فيها وصيانتها ، فلو أوصى كافر ببناء مسجد لم تقبل وصيته وهكذا يمنع الكفار من دخول المساجد بخير إذن مسلم وإذا دخل بخير إذن عزر ثم إن الله لما خصص المؤمنين الموصوفين بما ذكر بعمارة المساجد لم يشأ أن يؤمنهم من حوادث القدر ، بل أتى لهم خوفاً في نفوسهم لئلا يظنوا أن الانصاف بما ذكر كاف للسعادة فإن هناك من الأمور النفسية والأخلاق السبية والموارض الشيطانية في النفوس الإنسانية ما يمت على الخشية للذكورة في الآية لذلك أعقبه بقوله ( نفسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ) بسبغة التوقع فهؤلاء مع كالمهم في الإيمان يتوقع لهم الهداية ثم أخذ سبحانه يزيد إضاحاً ويؤكد فقال على سبيل الاستفهام الإنكارى ( أجهلتم الخ ) السقاية والعمارة

مصدران ، أى أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن ، ثم فرّز الحكم فقال ( لا يستوون عند الله ) وبين عدم المساواة فقال ( والله لا يهدي القوم الظالمين ) ولا جرم أن الكفر ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم ظلم فكيف يساوى هؤلاء الذين هدام الله وقبلوا الحق ، ثم بين طائفة أطي من غيرها وأعظم قدرا من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ومن لم يستجمع الصفات المذكورة الآتية ، وتلك الصفات الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والجهاد بالمال ، فهؤلاء أعظم درجة من غيرهم ( وأولئك هم الفاترون ) بالثواب ونيل الحسنى عند الله ، لأن المجاهد بنفسه وماله فوق المصل للزكى الذى لا يجاهد ، ولذلك قال فيها تقدم « فسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » وهنا خصهم بالفوز وأتبعه بالبشارة من ربهم بأنه برحمهم ورضى عنهم وبدخلهم جنات نعيمهم فيها دائم وهم خالدون فيها خالدون مؤكدا بالتأييد وحيد الله الأجر العظيم الذى يحقر دونه نعيم الدنيا ، ولانسبة بين أعمال العاملين والأجر الذى استوجبه

ثم أخذ سبحانه يبين أن الأمة مالم تجتمع أفرادها على رأى واحد تفرقت وحدانها وزالت جامعها وأمم ذلك الاجتماع على الإيمان ، وقد يستبدله قوم بالوطنية وآخرون باللغة إلى غير ما فى كتاب أهل المدينة الفاضلة للفارابى فعنى سبحانه أن يتخذ المؤمنون آباءهم وإخوانهم أولياء يوالونهم إن آزروا الكفر على الإيمان وأوعدهم قائلا ( ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ) ثم بين أهم ما يجب الناس فى الدنيا وهى ثمانية وفضل الجهاد والإيمان عليه قائلا ( قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم أفرأئوكم ( وأموالهم اقتربتموها ) اكتبتموها ( وتجارة تخشون كسادها ) فوات وقت نفاذها وقوله ( فتربصوا حتى يأتى الله بأمره الخ ) وعيد وتهديد بضياح الأمة وتشتيت شملها .

لطائف فيما تقدم من الآيات من هذا القسم من السورة

- [ اللطيفة الأولى ] فى قوله تعالى « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » .
- [ اللطيفة الثانية ] فى قوله تعالى « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم الخ » .
- [ اللطيفة الثالثة ] فى قوله تعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول » .
- [ اللطيفة الرابعة ] « أجعلتم سقاية الحاج الخ » .
- [ اللطيفة الخامسة ] « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « ونفصل الآيات الخ » والكلام على الأمم الإسلامية ونومتها انظر إلى اجتهاد أبى بكر الصديق وكيف يقول بعض الأجلة الأعلام من صدر الأمة الإسلامية : ما كان أفتة أبى بكر ، يريد بذلك أنه لم يفرق بين شيئين جمع الله بينهما يعنى الصلاة والزكاة لما جاءه عمر رضى الله عنه قائلا : يا أمير المؤمنين اكتب منهم بالصلاة ، وردّ عليه قائلا وقد أخذ بلحيتيه يارجل أجبارة فى الجاهلية خوار فى الإسلام والله لو منعونى الخ .

فتسبب كيف كانت قوة الإسلام ومنته وهماؤه وبهجه وروافقه وملسكه لفارس والروم وحفظه الثمور راجعات كلها إلى أمر واحد وهو قرن الصلاة بالزكاة وقد فهمها أبى بكر وعمل لحفظ بها الوحدة وبين الله أهمية ذلك بقوله « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وقد قال بعض المفسرين إنه بذلك يستتير المهم ويحرض الأذكياء على الفهم فى أمر المعاهدات ، وكأنه قيل من تأمل تفصيلها فقد استحق منقبة العلم ، وقد ظهر أن أول من استحق منقبة العلم فى هذا الباب أبو بكر الصديق ، فهو الذى فهم وهو الذى عمل .

هذه هى المقدمة التى أكتبها للنتيجة التى أطلبها ، وهى :

### العلوم المسماة بالعصرية من السموات والأرض وعجائب الحكمة الإلهية

انظر أيها الذي كيف استقامت أمة الإسلام ونجح الصديق في أمره ؟ بماذا ؟ بماذا جمع الإسلام ؟ جمعه بقرن الصلاة بالزكاة وهو الذي تظن لهذا وحده ثم اتبعه للسكون وأذعنوا ، وبماذا مدحه الله ؟ مدحه هو وأمثاله بالعلم ، بماذا ؟ بأنه عرف تفصيل هذه المسألة السياسية العمرانية الدينية فهل فطن للسكون بعد ذلك في هذه العصور ؟ عصور العلم والعرفان ، عصور الحكمة والنور ، عصور الكشف الحديث ، عصور الكهرومغناطيسية والبخار ، عصور الكيمياء والحديد ، عصور المواد اللطيفة الهوائية التي بها تطير الطائرات وتحلق في جحر القضاة ، عصور انقلاب العمورة وتغيير العالم الإنساني وإزالة الصواعق من الطائرات ، هل فطنوا على من تقع تلك الصواعق ؟ على الجاهلين ، من هم الجاهلون ؟ الجاهلون بنظام الله ، الجاهلون بما خلق الله ، الجاهلون بهذا العالم المملوء جمالا وحكمة وبهاء وحسابا ووزنا ، كل العالم موزون منظم بهج بديع ، فواحرته على أمة الإسلام ، وواأسفاه على هذه الأمة النبيلة التي خلقها الله في الشرق مهد العلم والحكمة والفلسفة .

فيا ليت شعري كيف يكون الشرق مهد المدينة والعرفان وينزل فيه نبي صادق منهم ثم يكون ذلك الشرق نفسه مهد النباوة والجهالة ، وكيف أصبح في ظلام دامس وجهل طامس ، لملك تقول إنك بهذا القول خرجت من المقام ودخلت فيما ليس منه ، وأي مناسبة بين المعاهدات الإسلامية والنظامات الكونية ، وإنما أنت تريد أن تذكر العجائب الكونية بمناسبة وغير مناسبة ، لأن هذا تحيل في الكلام وخروج عن سنن التأليف وهذا مما تفر منه الطباع وبأباه العلماء الأعلام .

أقول على رسلك إن هذا المقام به أليق وهو به حقيق ، ألا ترى أن مناعة أمة الإسلام التي جاءت من اقتران الصلاة بالزكاة وقد مدح من يعرفها بالعلم ، قد جاء في القرآن في سورة الأنعام نظير هذا المدح ، بل هو أبلغ منه فيمن يعرف علم النجوم وسيرها وعلم التشريح وعلم النبات وما أشبه ذلك ، فإذا قال الله هنا « ونفصل الآيات لقوم يملكون » فقد قال في سورة الأنعام « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يملكون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقرن ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » ثم شرع يذكر الجنات والأعنان والنخيل وقال « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

فانظر كيف يقول هناك قد فصلنا فيها قد للتحقيق وفيها فصلنا بصيغة الماضي وهي تفيد التحقيق وعبر في جانب الأمور الطبيعية وهو التشريح بالفقه وهو أبلغ من العلم لدلالته على شدة القنطة ، وختم بأن هذه دلالات لقوم يؤمنون .

فانظر كيف ابتدأ الله الآيات بأنه عزيز عليم وبأن من يعرفها علم فقه مؤمن ، فهذه الصفات الثلاثة التي ترتبت على معرفة هذا العالم المحيط بنا من النبات والحيوان والإنسان والتشريح والفلك وجميع العلوم الطبيعية لم تذكر في هذا المقام مقام المعاهدات والمعاملات الدنية ، بل قال « تفصل الآيات لقوم يملكون » وهناك أكدها بقدره وكون الفعل ماضيا .

أفلا تصعب من المسلمين كيف يتفطن الصديق لمسألة إسلامية جمع بها الأمة كلها وهي قرن الصلاة بالزكاة ، ولما جاء هذا العصر الحاضر وجدنا أنفسنا اليوم لافي العير ولا في النفر ، فلانحن حافظنا على ما ورثناه من أولئك الأشراف الأكابر من العلوم العملية ، ولانحن رفضنا أبحارنا إلى ما حولنا وحوصلنا وجهة الأمراء الإسلاميين ورؤساء المشائر من التخاذل إلى الأمم التي حولهم وكيف سبقوهم في العلوم

واستخدموا الطبيعة فأعطاهم الله بما في خزائنها ، وكيف ناموا عن القرآن ولم يتفطنوا لما تضمنه  
أسلافنا الكرام .

ولو أنهم نظروا نظرات صادقات لوجدوا من الحث على العلم في الآيات السابقة ما يبيح الصدور ويمت  
المهم إلى حوز العلوم وفهمها ، وكيف كان القرآن قد أعطى العلوم الطبيعية والفلكية من الأهمية فوق  
ما أعطى العلوم الفقهية التي منها أمر المعاهدات في الآيات التي نحن بصددنا .

يا عجبا كل العجب ! هل غاب عنكم يا معاشرة علماء الإسلام أن هذه العلوم الكونية هي التسبيح وهي  
المعبادة وهي التوحيد وهي الذكر وبها الفكر وبها حب الله ، وبها فضلا عن هذا كله الجهاد العلمي والرقى  
الفكري والفنى والثروة وغلبة الأعداء .

لقد ظهر الآن سرّ القرآن ، هذا هو السرّ للكنون ، هذا هو العلم المخزون ، هذا هو الذى خبأه  
الله في القرآن ليظهره الآن على قلوب قوم يخلقهم لهذا في هذه الأمة فيسوقون الأمة الإسلامية إلى دراسة  
العلوم والمرفان ويقروون مافى الأرض والسماء من العوالم المحيطة بنا حتى يكونوا عباد الله حقا وحتى يكونوا  
خلفاء الله في أرضه ، وحتى يكونوا رحمة للعالمين ، وحتى يظهر الله الإسلام على الدين كله .

وإلا فلماذا نرى الله يصف نفسه في تلك الآيات بالعزة والعلم ؟ ووصف العالمين بها بالفقه وبالعلم وبالإيمان ؟  
تبارك الله رب العالمين .

إن فرق ما بين العلوم الفقهية والعلوم الكونية كالفرق ما بين ذلك الملح السجيب بالعلم والفقه والإيمان  
في آيات الأنعام مع الصيغة القيدة للتحقيق ، وبين مجرد الوصف بالعلم مرة واحدة بصيغة المضارع .

ولقد وصف العالمون بهذه العلوم أيضا بأولى الأبواب والتفنين واللوقنين وأنهم يملكون ؛ لجميع صفات  
الكمال من علم وإيقان وفقه وأنهم أولو الأبواب .

كل ذلك وصفهم الله به ، وكيف لا يوصفون به وقد علمت أن قرن الصلاة بالزكاة وتوزيعها على الناس  
يفيد العدل فيما ملكه الناس ، فأما العلوم الطبيعية ونظام الله فإنهما يفيدان الناس فوق معرفة الله مالا وغنى  
ثروة وقوة حرية .

جلّ الله الذى ألبس للعانى الألفاظ التي تناسبها ، فمدح عالم الزكاة بمدح أوجز من مدح العلوم الكونية  
لما يفدقه على الناس من نعمه بتماطيا ، وجلّ الله الذى غشى على عقول للتأخرين من السليين غرهم ذلك ،  
وهاهو ذا يريد أن يظلمهم على خزائن نعمته وأهمهم من الآن دلائل رحمته وبدائع حكته « تبارك الله  
أحسن الخالقين » .

اللطيفة الثانية « أم حسبتم أن تركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الآية

لقد كثرت الحسنى في القرآن على الجهاد وهي قاعدة مقررة ألا سعادة في دين ولا دنيا إلا بنفس الجهاد ،  
فأما اللذات والشهوات والأمانى فإنما هي وقتية ، والسعادة إنما قرنت بالصبر والجهاد في جميع الحياة ؛ فليجاهد  
الإنسان في العلم والعمل والصدق والأمانة ، فهذا الجهاد وحده تكون السعادة ، وهذا اللقاه مستوفى  
في سورة البقرة عند قوله تعالى « ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع الخ » .

اللطيفة الثالثة قوله تعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم الخ »

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشا عام الحديبية على أن يضموا الحرب عشرينين يأمن  
فيها الناس ، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عدت  
بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعاتهم قريش بالسلاح ، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة وتحصوا

عهدهم خرج عمرو بن سالم الحزامي وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الخبر في آيات من الشمر كما يروى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نصرت إن لم أنصركم ونجهز إلى مكة ففتحتها سنة ثمان من الهجرة فهؤلاء هم الذين نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم البادئون بالأذى وقد حصل جميع ما في الآية وهو معجزة .

#### اللطيفة الرابعة « أجلتكم سقاية الحاج الحج »

في البخاري عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقى ، فقال العباس : يا فضل اذهب إلى أمك فائت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها ، فقال استسقى ، فقال يا رسول الله إنهم يحملون أيديهم فيه ، قال استسقى ، فشرب منه ، ثم أتى زمزم وهم يستقون ويمسكون فيها ، قال : اعملوا فإنكم على عمل صالح » .

وروى مسلم عن بكر بن عبد الله الزني قال : « كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أمرابي فقال : مالي أرى بني عمك يستقون العسل واللبن وأنت تستقون النبيذ ؟ أمن حاجة بكم ، أم من بخل ؟ فقال ابن عباس : الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل ! إنما قدم النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى فأثيناها بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة ، فقال أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا » فلا يزيد تسيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم له .

والنبيذ : هو التمر يتقع في الماء غدوة ويشرب عشاء ، أو يتقع عشاء ويشرب غدوة ، لكن إن غلى وحمض حرم .

#### اللطيفة الخامسة « قل إن كان آباءكم وأبناؤكم الحج »

لقد تكرر في القرآن الحضي على الاتحاد فلا أمة تقوم إلا به ، والاتحاد إنما يكون بالقلوب ومتى تفرقت وجهة النظر تفرقت الأمة ، وهذا اللقاه قد شرعناه مرات كثيرة في هذا التفسير والله أعلم .

ولما كان تفضيل الإيمان على حب العمانية للتقدمة في الآية وهي : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والمشيئة والأموال والتجارة والسكن المحبوبة يؤدي إلى اتحاد الأمة ، وضد ذلك يؤدي إلى تقاطعها وتدابرها وتمزيقها لعدم الاتحاد والائتلاف ، وكان ذلك قد توافر عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجيوشه السكينة أعقب ما تقدم بقوله ( ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ) يعني مواطن الحرب كوقعة بدر وقرينة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة ، وتبلغ غزوات النبي صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة ، وقد قاتل في ثمان منهن .

ثم إن جميع غزواته وسراياه وجيوشه ثمانون ، وخمس موصفا منها بالذكر وهو يوم حنين فقال ( ويوم ) أي واذكروا يوم ( حنين ) واد بين مكة والطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا . وقال عروة : هو إلى جنب ذي الحجاز .

أعلمنا الله بهذا أنه هو الذي يتولى نصر المؤمنين في كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له ؛ فلأذكر مختصر الفزوة وما بهم منها ثم نأتي بالآيات بعدها .

روى أن التزاة في حنين كانوا اثني عشر ألفا ، منهم عشر حضروا فتح مكة وأنفان انضموا إليهم من الطلقاء وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا ، وكان للشركون أربعة آلاف من هوازن وتقيف ، وكان على هوازن مالك ابن عوف النضري ، وعلى كنانة ابن عبد ياليل ؛ فلما اتقى الجمعان قال رجل من الأنصار لن تلب اليوم من قلة فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه ، فلما اتقى الجمعان انتلوا قتالا شديدا فانهزم للشركون وحلوا عن



الدرارى ، ثم نادوا بإحماة السواد اذكروا الفضائح فتراجسوا وانكشف للسلون حتى بلغ فلهم مكة وثقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مركزه ليس معه إلا عمه العباس رضى الله عنه آخذنا بلجام بخلته وابن عمه أبو سفيان بن الحارث ، فقال للعباس وكان صيتنا صحح بالناس ، فنادى يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة فكروا عنقا واحدا يقولون ليك ليك وزلت اللاتكة فاتفقوا مع المشركين فقال عليه الصلاة والسلام هذا حين حمى الوطيس : أى اشتدت الحرب ، والوطيس : التنور ، ثم أخذ صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، وقال شامت الوجوه ، لما خلق الله منهم إنسانا إلا ملا عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين ، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم وأعطى للؤلؤة قلوبهم ، إلا كثيرا كأبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن ، كل واحد مائة من الإبل ، وأعطى عباس بن مرداس أقل من ذلك فأشدد شعرا فى ذلك فشكل له اللأنة ، ولم يسط الأنصار شيئا وأهمهم أنه يتألف حديثي العهد وأنه هو نفسه معهم فرضوا بذلك .

فانفسر الآيات ، يقول الله ( ويوم حنين إذ أعجبتكم كثيركم فلم تثن عنكم شيئا ) من الإغناء ( وضافت عليكم الأرض بما رحبت ) أى مع رحبها وهى فى موضع الحال : أى ملتبسة برحبها كقولك دخلت عليه بثياب العز : أى ملتبسا بها ، وللقصود أنهم لم يجدوا موضعا لفرارهم عن الأعداء ، فكأن الأرض ضاقت مع ما هى عليه من السعة ( ثم ولينم مدبرين ) منهزمين ( ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ) الذين انهزموا ، والسكينة : الطمأنينة ، فإن الخائف يرتجف غير مستقر ، والأمن فى سكون ، فالسكينة كناية عن الأمن ذلك أن جمع هوازن وبني النضر رشقوا الفزاة من السلين بالبال وكانوا لا يخطئون للرعى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بخلته البيضاء فنزل ودعا واستنصر وقال : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ؛ وذلك حين حمل السلون على الضائم فشتلتهم وكان ما كان ( وأنزل جنودا لم تروها ) بأعينكم ، حتى لللائكة . وقد اختلفوا فى عددهم ، ولقد سبق القول فيهم فى آل عمران والأفعال .

وروى أن رجلا من نضر يقال له شجرة ، قال للمؤمنين جد القتال : أين الحيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ؟ ما كنا نراهم فيكم إلا كهية الشامة وما كان قتلنا إلا بأيديهم ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك اللاتكة . وروى أن رجلا من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم ، فبينما نحن نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البضة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فتلقانا عنده رجال بيض الثياب حسان الوجوه ، فقالوا لنا شامت الوجوه ارجسوا فانهزمتنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها ، انتهى .

واعلم أن هذه الروايات لم ترد فى الصحيح وقد تقدم تحقيق اللقاع فى الأشغال فتنظن ( وعذب الذين كفروا ) بالقتل والأسر والسبي ( وذلك جزاء الكافرين ) أى ما فعل بهم جزاء كفرهم فى الدنيا ( ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ) وقد تاب على بعض هؤلاء بأن وفقهم للإسلام ، فإن ناسا منهم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا وقالوا يا رسول الله أنت خير الناس وأبرهم وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا ، وكان السبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى ، فقال صلى الله عليه وسلم اختاروا إما سبائكم وإما أموالكم ، فقالوا ما كنا نمدل بالأحساب شيئا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن هؤلاء جاءوا مسلمين وإنا خيرناهم ما بين الدرارى والأموال فلم يبدلوا بالأحساب شيئا فمن كان يده سبي وطابت نفسه أن يردّه فشأه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه ، فقالوا رضينا وسلتنا ، فقال إنى لا أدري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفموا

إلنا فرضوا أنهم قد رضوا ، ثم خاطب الله المؤمنين في شأن للشركين قائلا ( يا أيها الذين آمنوا إنما للشركون نجس ) لما في نفوسهم من الحث والرجس وما في عقائدكم من الزيف وما في أبدانهم من القدر فلا يتطهرون وما عذم من الحدث الأصفر والأكبر كالجنابة فلا يفتسلون وما في أعمالهم من الأذى فيجتنبون كما يجتنب كل ذي مرض مد وكل حيوان مفترس ، ويقول ابن عباس إن أبدانهم نجسة كالسلاّب ، ويقول الحسن ابن صالح من مسّ مشركا فليتوضأ ومثله الزيدية ( فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ) فلا يحجون ولا يمترون عند أبي حنيفة ، ويجوز لمامهد دخول الحرم عنده ، أو لا يدخلون الحرم مطلقا فنملا عن المسجد الحرام عند الشافعي وأحمد ومالك ، ولا يدخلون غير المسجد الحرام من للساجد قياسا عند مالك .

والراد بهذا العام السنة التاسعة التي حج فيها أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على براءة وألا يحج بعد العام مشرك كما تقدم .

أما بلاد الحباز فيجوز للكفار دخولها والإقامة فيها ثلاثة أيام ، ففي مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلما » . وفي رواية لغير مسلم قال « أخرجوا الشركين من جزيرة العرب » فلم يتفرخ لذلك أبو بكر وأجلام عمر في خلافته وأجل لمن يقدم تاجرا ثلاثا ، عن ابن شهاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » أخرجه مالك في اللوطأ .

ولما كان الشركون قد منعوا أن يقربوا للمسجد الحرام وذلك يدعو إلى عدم دخول الحرم ، فدخول الحرم اقتراب من المسجد كان ذلك داعيا أن يبقى أهل مكة جياعا فقراء لمنع التجارات والطعام التي كان يجلبها للشركون إليهم كل عام ، لذلك أعقبه تعالى بقوله ( وإن خفتم عيلة ) فقرا ( فسوف ينعم الله من فضله ) من عطائه ، وقد صدق الله وعده وأرسل السماء عليهم مدرارا وكثر خيرهم وأسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الليرة الكبيرة إلى مكة ، ومما أعطاهم الله الجزية أيضا ، وإنما قال ( إن شاء ) ليوجه الآمال إلى الله وأنه متفضل ( إن الله عليم ) بأحوالكم ( حكيم ) فيما يعطى ويمنع ( فأتوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ) الثابت الناسخ للأديان كلها ( من الذين أتوا الكتاب ) وهذا بيان للذين لا يؤمنون ( حق يعطوا الجزية ) أي ما تقرّر عليهم ، وهذا مشتق من جزى دينه إذا قضاه حال كونها ( عن يد ) أي قدما مسلة عن يد إلى يد أو موانية غير ممتنة : أي منقادين أو مسلمين بأيديهم فلا يمشونها بأيدي غيرهم أو عن غنى لأنها لا تؤخذ من الفقراء عند بعضهم أو عن يد فاهرة فوقهم أو عن إنعام ، لأن بقاءهم وأخذ الجزية منهم نعمة عظيمة .

فهذه خمسة معان وكلها لاتفاق بينها لأنهم أذلاء ، واقهارون لهم أقوياء ويسلمون الجزية وينعم عليهم وهكذا ( وهم صاغرون ) أذلاء وإنما كان هؤلاء لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الخ ، لأنه سيأتي أن اليهود يصلون عزيرا ابن الله والنصارى يصلون المسيح ابن الله وهم يتخذون الأعبار والرهبان أربابا من دون الله في التشريع فيحطلون ويحرّمون كما يشاءون ، فهذا قوله « لا يؤمنون بالله الخ » وأما قوله « ولا يحرّمون الخ » فإنهم لا يحرّمون ما حرّم الكتاب والسنة فلا يحرّمون الحجر والحزير .

(١) ثم إن الجزية تؤخذ من اليهود والنصارى من غير العرب بالإجماع .

(٢) وتؤخذ من العربي كتابيا كان أو مشركا عند أبي يوسف .

(٣) وتؤخذ من أهل الكتاب عربا أو مجما عند الشافعي .

(٤) وتؤخذ من أهل الكتاب عربا كانوا أو مجما ومن مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب

عند أبي حنيفة .

- (٥) وتؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد عند مالك والأوزاعي .  
 (٦) وتؤخذ من الجوس باتفاق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .  
 مقدار الجزية

- (١) لاشئ على الفقير الذي ليس كسوبا .  
 (٢) وعلى الفقير الكسوب ١٢ درهما .  
 (٣) وعلى للتوسط ٢٤ درهما .  
 (٤) وعلى النقي ٤٨ درهما ، وهذا مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه .  
 ولا تؤخذ الجزية من الصبيان ولا النسوة ولا العبيد ، وقد قدرت أيضا بدینار ودينارين وأربعة دنانير  
 للفقير والتوسط والنقي ، وقال أصحاب الشافعي : لا تجوز الزيادة على دينار إلا بالتراضي فالديناران والأربعة  
 للتوسط والنقي عند التراضي وإلا فلا .

#### مناكرة الجوس والصابئين وذبايحهم

اتفقوا على تحريم ذبايح الجوس ومناكرتهم بخلاف أهل الكتاب ومن دخل في دين اليهود والنصارى  
 قبل النسخ حكمه حكم اليهود والنصارى تحمل مناكرتهم وذبايحهم ، والصابئون والسامرة مثلهم مثل أهل  
 الكتاب فهم كأهل البدع في المسلمين .

ثم أخذ الله سبحانه يبين سبب أخذ الجزية منهم مع أن لهم دينا وكيف يصفهم بأنهم لا يؤمنون بالله  
 ولا باليوم الآخر فقال ( وقالت اليهود عزير ابن الله ) وذلك لأن يختصر قتل كل من يحفظ التوراة ، وكان  
 العزير قد أماته الله مائة عام ، فإنا أحياء الله قال لقومه : أنا أملي عليكم التوراة حفظا فتمجبوا من ذلك وقالوا  
 ما هذا إلا أنه ابن الله ، ألا ترى أن اليهود لما سمعوا هذا القول لم يكذبوه وكانوا مغررين بالكذب  
 ( وقالت النصارى المسيح ابن الله ) لأن الولد الذي لأب له مستحيل عادة ، ولأن إراء الأكمة والأبرص  
 وإحياء الموتى لا يقوم بهما إلا من كان إلها .

ويقال إن النصارى كانوا على الدين الحق بعد رفع للربيع إحدى وثمانين سنة يصلون ويصومون حتى  
 وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له ( بولس ) قتل جماعة من أصحاب عيسى  
 عليه السلام ، ثم قال بولس لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلنا  
 النار ودخلوا الجنة فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ، ثم إنه عمداً إلى فرس كان يقا تل عليه فرقبه  
 وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم إنه أتى إلى النصارى فقالوا له من أنت ؟ قال أنا عدوكم  
 بولس فقد نوديت من السماء أنه ليس لك نوبة حتى تنتصر وقد ثبت وأثبتكم ، فأدخلوه الكنيسة ونصروه  
 وأدخلوه بيتا منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال قد نوديت من السماء أن الله قبل نوبتك  
 صدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ، ثم إنه عمداً إلى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر  
 ملكان ، فلم نسطور أن عيسى ومريم والإله ثلاثة ، وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله .  
 وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال ، فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له  
 أنت خالصي وادع الناس لما علمت وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد ثم قال لهم إن رأيت عيسى في المنام  
 وقد رضى عنى وقال لكل واحد منهم سأذبح نفسي تقرباً إلى عيسى ثم ذهب إلى اللذبح فذبح نفسه ، وتفرق  
 هؤلاء الثلاثة فذهب واحد منهم إلى الروم ، وواحد إلى بيت المقدس ، والآخر إلى ناحية أخرى ففرق  
 الناس فرقا بهذه اللذاهب .

واعلم أن هذه الحكاية وإن كان لا دليل يقطع بصحتها فترتب الحقيقة لمن يريد أن يعرف اختلاف  
السيحيين ، ألا ترى أن اختلاف المسيحيين بعد تلك الأيام كان على هذا النوال تأمل .

#### حقيقة هذه المسألة في التاريخ

يقول المحققون من علماء العصر الحاضر : إن بولس رجل فريسي ويعرف اللغة العبرية فاحترق في بادي  
الأمر الرسل ولم ير المسيح ولا سمع كلامه ومع ذلك ادعى أنه قد خصت به المعرفة وحده وأخذ يخاصم بطرس  
ويوحنا فتألف إذ ذاك أي بعد موت المسيح بشر سنين صنفان من النصارى : صنف يتبع من بقي من الرسل  
في أورشليم ، والثاني تابع لبشارة بولس الذي ادعى أنه أوحى إليه من المسيح ذاته ، وبعد حين تمرد اليهود  
على نيرون ففشبت الحرب في اليهودية بقيادة فسباسيانوس الروماني ثم ابنه طيطس وانتهت بافتتاح أورشليم  
عام (٧٠م) وخرّب الهيكل وتفرق اليهود أشتاتا ولم يبق من الرسل إلا يوحنا وفيلبس ، ولم يبق إذ ذاك من  
الدين إلا أحاديث متفرقة على السنة الأساقفة واختلطت تعاليم الكنائس بتعاليم الفلسفة اليونانية وما جاء آخر  
الجيل الأول حتى نشأت عدة قصص وروايات سميت أناجيل وقد أحصى منها في الجيل الأول والثاني (٣٥)  
إنجيلاً وصاحب الإحصاء هو فابريسيوس ، واختيار الأناجيل الأربعة كان في الجيل الثاني ونسبها إلى متى  
ومرقس ولوقا ويوحنا من الشاكل التي تمرد على العلماء حلها .

#### تنازع الخلاف في النصرانية

في سنة ٣٨٤ م أصدر البابا داماسيوس إلى مارابرونيجوس أن يحرر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين  
القديم والجديد وكان ( تيودوسيوس ) الملك في ذلك العهد قد ضجر من الخصامات فأصدر أمراً أن يكون  
حق التولية لأسقف رومة وحده وعلى النصارى عموماً اتباعه .

#### تنازع النصارى في أمر المسيح

كانت كنائس النصرانية في أول الجيل الرابع منقسمة إلى حزبين الواحد يعرف بألوهية المسيح والآخر  
ينكرها ، وفي سنة ٣١٢ ظهر أريوس فجعل أن للأب والابن جوهرين متميزين ، والثاني خليفة الأول  
وإذن فهو ليس بآله ، وكان أريوس هذا واسع العلم ذا خلق حميد فاتبعه خلق كثير . ولما رأى إسكندر  
أسقف الاسكندرية ذلك استدعى جنس الأساقفة وألقوا بجما لعنوا فيه أريوس وتعليه ، فكثرت النزاع والشقاق  
على هذه المسألة حتى قلقت النفوس وضجرت الأمة كلها واهتز عرش الملك قسطنطين فأرسل رسالة على يد  
أوزيوس إلى كل من أريوس وإسكندر وبخهما فيها على هذا الخلاف التافه الذي لاعلم لأحدهما بحقيقته .  
ودام الخصام والجدال واشتدت ولم تنفع رسالة الملك فأمر الملك بجمع في نيقية سنة ٣٢٥ .

ومن عجب تطابق أقوال المؤرخين أن هؤلاء الآباء كانوا يتشائمون ويتقاتلون وبذم كل منهم الآخر  
بفضائح لا حد لها ، ونصر قسطنطين الملك ألوهية المسيح ونفى الأريوسيين ثم رجعوا من النبي منتصرين  
ودخلوا الإسكندرية فاضطر قسطنطين أن يقيم مجتمعا في أنطاكية فأبطل مذهب إسكندر السمي (أورثوذكس)  
أي مستقيم الرأي ومات أريوس فجاء وهو محمول على أعناق أصحابه بالمزوات ألهية ، ومات قسطنطين سنة ٣٣٧  
بعد أن قسم الملك بين أولاده الثلاثة قسطنطين وقسطنس وقسطنطية وتوالت الجوامع بعد ذلك على هذا النوال .

فلنتظر أيها الذي كيف كانت الحكاية الأولى للنقولة عن المفسرين - وإن كانت محطلة في التاريخ  
وفي الرواية - قد أعادت أن هذا الخلاف له حقيقة ، وكيف تبين أن بولس الرسول كان له نزعة خاصة ،  
وكيف كانت ألوهية المسيح وعدمها شغلا شاغلا للدولة الرومانية ، وكيف أدى الأمر إلى أن الملك تيودوسيوس  
انضم أمر أن يتبع النصارى كلهم البابا (داماسيوس) ومن مخالفه يعاقب ، ولكن الأريوسيين كانوا كثيرا جدا

فلم يحاقبهم ، فاحتال القديس ( أمفيلوك ) بحيلة أوجبت أن الملك يماذب من لا يقول بألوهية المسيح . فانظر كيف اهتزت العروش وعظمت اللصائب وتقاتلت الأحزاب ، كل ذلك على ألوهية المسيح وعدم ألوهيته .

ولما كان قول اليهود والنصارى لادليل عليه بل هو مصيبة عمياء كما عرفت من حقائق التاريخ ، قال تعالى ( ذلك قولهم بأفواههم ) مجرد عن البرهان والتحقيق مهممل لا محل له سوى الأفواه كما قال القيصر للإسكندر ولاريوس ، وقوله تعالى ( يضاهنون قول الذين كفروا من قبل ) أى يضاها قول الذين كفروا من قبل .

ومعنى هذا أن هناك ديانات في الأمم السالفة قبل التاريخ في مصر والعراق وبلاد الكسكس قبل افتتاح أمريكا كانت فيها هذه الحرافات . انظر هذا اللقاع في سورة البقرة في أوائلها فقد تبين هناك أن دين التثليث وكون الله له ابن ملأئت للسكونة ووجدت في الهند فارجع إليها إن شئت تر العجب العجيب وكذلك في آخر سورة المائدة ، وهذا أيضا من معجزات القرآن .

ولعمري لم يعرف الناس أن هناك دينا قبل الدين المسيحي يقول بآبنا لله وبألوهية ذلك الابن إلا في هذا الزمان فتعجب من عجائب القرآن ، وهذا واضح كل الإيضاح في آخر المائدة فيما تقدم ، قال تعالى ( قاتلهم الله ) دعاء عليهم بالهلاك وتعجب من شناعتهم ( أى يؤفككون ) كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل . ثم أخذ الله سبحانه يبين أنهم لم يقتصروا على عبادة المسيح وعزير ، بل جعلوا الأبحار والرهبان أربابا من دون الله ، والأبحار علماء اليهود ، والرهبان أصحاب الصوامع في النصارى ، ومعنى كونهم أربابا أنهم يعرّمون لهم ويحللون وهم لهم مقلدون .

وعن عدى بن حاتم قال « أنبت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنق صليب من ذهب فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن وصمته يقرأ في سورة براءة « اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلووه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه » . قال عبد الله ابن المبارك :

وهل بدل الدين إلا الملو ك وأبحار سوء ورهبانها  
لقد وقع القوم في جيفة يبين لدى العلم اتانها

وهذا هو قوله تعالى ( اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ) وهذا الأخير اعتقدوا فيه الألوهية كما تقدم قال تعالى ( وما أمرنا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ) أى تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة ( يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ) أى يريد رؤساء اليهود والنصارى أن يفعلوا في الإسلام فعل من يعمد إلى نور عظيم كالشمس ليطفته بنفخة بضمه وما هو بمستطيع ذلك .

فكأن هذا دين الإسلام ودلائله الباهرة ومعجزاته الظاهرة ، وقد تصدى هؤلاء لدحضه ومام بضاربه شيئا لقوته البرهانية وحجته القوية ( وبأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ) أى وبأبى الله إلا أن يتم دينه ويظهر كلمته ويتم الذى أرسل به نبينا صلى الله عليه وسلم وأن الذى يأبى إلا أن يتم نوره ( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ) القرآن ( ودين الحق ) الإسلام ( ليظهره ) ليعليه ( على الدين كله ) على سائر الأديان فيكون متبعوه لهم السلطان الأكبر في الكرة الأرضية ويقهرون فارس والروم وهذا كله في الزمان الأول أما فيما بعد في مستقبل الزمان فيسيطر في أمة الإسلام أناس يحملون الأمة على بند الجمود والتحلل على العلوم والعرفان وإذ ذلك يرقى المسلمون ويكون بأيديهم مقاليد الرياسة والسياسة والحكمة والعلم ، وفي ظنى أن

زماننا هو مبدأ ارتقاء للسليين إذ يقومون بمهمتهم في العالم ويحكمون الناس بالحق بعد أن يرتقوا ويتسعوا في المعارف ، ويدل على هذا ما روى عن أبي هريرة في حديث زول عيسى قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « وبذلك في زمانه للكل كلها إلا الإسلام » .

عن القناد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله مكة الإسلام إما جز عزيز أو بذل ذليل » أي إما أن يهزم فيجعلهم من أهله فيعزوا به وإما أن يذلهم فيدينون له ، وهذه الجملة كالبيان لقوله « وبأبي الله إلا أن يتم نوره » ولذلك كرر « ولو كره المشركون » غير أن الكفر هناك يدل بالشرك هنا إعلاما بأنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله .

ولما كانت الآيات المقدمة قد أبانت أن الأحبار والرهبان في حكم الآلهة عند أهل الكتاب أخذ يبين هنا سبحانه وتعالى أنهم غير مؤتمنين في أحكامهم التي يحكمون بها وأن أهل الكتاب قد استأنموا من ليسوا بأمناء قتال ( يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون ) أي ليأخذون لأن الأكل أهم مقاصد الأخذ فغير عنه به ( أموال الناس بالباطل ) لأنهم يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الترائع والمساعة في الأحكام ويحرفون صفات النبي صلى الله عليه وسلم للذكورة في كتبهم استبقاء للرياسة وحفظا لما ينالونه من المال ببقاء الرياسة التي يذهبها اعتناق الإسلام ( ويصدون عن سبيل الله ) ويعنون الناس عن الإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم ( والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ) سواء أكانوا من الأحبار والرهبان أم من السليين .

والمراد بالمال المكتوز ما لم يؤد زكاته ولو لم يكن مكتوزا ، قال عليه الصلاة والسلام « ما أدى زكاته فليس يكثر » أي ليس يكثر أو يعد عليه . وقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما علوا بنزول هذه الآية : « لو علمنا أي المال خير لا نأخذناه » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة سالحة تعين المؤمن على إيمانه » .

وقد ورد في حديث مسلم الوعيد الشديد على من لم يؤد زكاة الذهب والفضة « وأنها تصفع له صفائح من نار فيحمر عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وظهره كماردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وهكذا قال في الإبل : وجعل من حقها حلبها يوم ورودها وإن لم يؤد حقها فإنه يطع لها نفاع فرقر فهي تطؤه جميعا بأخفافها وتعض بأفواهاها كلما مر عليه أولها ردت عليه آخرها الخ » وهكذا قال في البقر والغنم ، والقاع الفرقر : هو المستوى من الأرض .

وهكذا جاء في حديث البخاري « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه (شذقيه) ثم يقول أنا مالك ، أنا كنزك ثم تلا - ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم » الآية ، والشجاع : الحية ، والأقرع : صفة له بطول العمر ، فإنه إذا طال عمره تمزق شعره وهذه صفة أحبب الحيات ، والزبيبتان : هما الزبدتان في الشدقين .

وهذا كله وعيد لمن لم يؤد الزكاة ، ولذلك قال تعالى ( فبشرهم بنذاب أليم ) وهو السكى ( يوم يحمرى عليها ) أي يوم توقد النار ، فلما حذفت النار فلم تكن فاعلا وأسند الفعل إلى الجار والمجرور وهو عليها قيل يحمرى بالتحية كما تقول : رفضت القصة إلى الأمير ومتى حذفت القصة قلت رفع إلى الأمير ( فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ) لأنهم إذا أبصروا القبر عبسوا ، وإذا ضمهم مجلس وإياه ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم وهذا النذاب يشمل الجهات الأربع القدم واللؤخر والجنبين ، ويقال لهم ( هذا ما كنتمم لأشرككم ) لمتعتها قد صار مضرتها وعذابها ( فتذوقوا ما كنتم تكفرون ) أي وبال كنزكم .

ولما كان المقام في قتال الكفار إذ قال تعالى آخفا « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الخ » وذكر الجزية واستطرد بذكر ما كفر به اليهود والنصارى وما تبع ذلك من حرص أجيالهم وورهبانهم على المال والرشوة أخذ يتم المقام بذكر مسائل أخرى من مسائل الحرب وهي الأشهر الحرم التي كان العرب يحرمون فيها القتال اتباعا لدين إبراهيم عليه السلام ، وأخذ سبحانه يحقق الأمر فيها فأفاد أن الشهور العربية اثنا عشر شهرا .

وأما الشهور الشمسية فليس المسلمون مكلفين بحسابها ولا باتباع نظامها فقال ( إن عدة الشهور عند الله ) أي مبلغ عددها ( اثنا عشر شهرا في كتاب الله ) وهو ما أثبتته وأوجبه في حكمه أو في اللوح المحفوظ ( يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ) والأشهر العربية المذكورة أولها المحرم وآخرها ذو الحجة ، والأربعة الحرم هي ذو القعدة للقعود عن القتال فيه ، وذو الحجة للحج ، والمحرم لتحريم القتال ، فهذه ثلاثة سرد وواحد فرد وهو رجب لترجيح العرب إياه وتعظيمهم .

فالأشهر العربية مبنية على سير القمر يستد بها للمسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وأحكامهم ، وهذه السنة ٣٥٤ يوما ، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في القللك دورة تامة وهي ٣٦٥ يوما وربيع يوم فيبينها نحو ١١ يوما .

ولما كان هذا المقام علاقته بالحرب عظيمة ناسب أن يذكر من أجل النسيء الذي كانت تفضله العرب في الجاهلية فكان يقع حجهم تارة في وقته وتارة في المحرم وتارة في صفر وتارة في غيره من الشهور كما سيأتي ، وإنما سميت الأربعة حرم لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى إن أحدم لولقي قاتل أبيه وابنه وأخيه في هذه الأربعة الأشهر لم يهجه ، ولما جاء الإسلام لم يزد لها إلا حرمة وتعظيما ، فالحنثات فيها مضاعفات والسيئات كذلك ( ذلك الدين القيم ) أي ذلك الحساب للستقيم والمدد الصحيح المستوي ، فالدين هنا الحساب كما قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه - أي حسب نفسه - وعمل لما جد اللوت » ( فلا تظلموا فيهن أنفسكم ) أي لا تظلموا أنفسكم في الأشهر الحرم ، فالعدل الصالح فيها أعظم أجرا والظالم فيهن أكثر إيما ، أولا تظلموا فيهن أنفسكم باستحلال الحرام والنارة فيهن كما قال ابن عباس من جهة ومن جهة أخرى لا يعملوا حلالا حراما وحراما حلالا بالنسيء الآتي ذكره كما قال محمد بن إسحق ، وعن عطاء أنه لا يعمل للناس أن يفرزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا .

وهذا خلاف ما عليه الأكثرون لأن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين في شوال وذى القعدة ( وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ) أي حال كونكم جميعا ( واعلموا أن الله مع للتقين ) بشارة وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم ، فإذا قاتلوا المشركين مجتمعين لا متفرقين نصرنا على عدوهم ، فإن تحاذلوا فليس الله معهم بالنصر .

والتقوى من لوازمها الاتحاد والتعارف ، فلذلك كان الله مع للتقين ( إنما الذي : زيادة في الكفر ) النسيء لغة التأخير كالنسيئة في البيع ، والنسيء هنا تأخير شهر حرام إلى شهر آخر بالمهوى والغرض ، وقد كانت العرب تعظم الأشهر الحرم على دين إبراهيم ، وعامة قريش كانت تمتنع فيها من الصيد والنارة ، وقد تقع الحروب في بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخيرها إلى الأشهر الحلال فنسوا : أي أخروا تحريم شهر إلى شهر .

وكان يقوم بهذا بنو مالك بن كنانة وكان يقوم للوكل به منهم في اللوسم ، فإذا هم الناس بالانصراف قام خطيبا وقال : لا مرد لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ، فيقول له للمشركون : لييك ، ثم يسأونه أن

ينسبهم شهرا يبرون فيه فيفضل ، فيقول مثلا : صفر في هذا العام حرام ، فإذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسننة والأزجة من الرماح ، وإن قال حلال عقدوا القسي وركبوا الأسننة في الرماح وأغاروا ، وفي أيام النبوة كانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم كذلك ، وهكذا فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع للمرة الثانية من ذي القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجة شهر ذي الحجة وهو شهر الحج للشروع فوقف صلى الله عليه وسلم بمرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر بمعى وأعلمهم أن أشهر النسي قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق الله السموات والأرض ، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما في البخارى « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الضر الهى بين جمادى وشعبان » ثم حرم الدماء والأموال والأعراض وحذر الناس من لقاء ربهم وهم مذنبون وهو يسألهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « ليلغ الشاهد منكم الغائب فربّ مبالغ أوعى من سامع » وحذرهم من أن يضرب بعضهم رقاب بعض في كل حال ، فليس التحريم خاصا بالأشهر الحرم بل عمّ سائر السنة ، فالتحريم أصبح في الإسلام محرما عاما لافرق بين الأشهر الحرم وغيرها .

ويظهر مما تقدم وهو أنهم كل سنتين يحجون في شهر من أشهر السنة أنهم ضلوا السبيل لأن الفرق بين السنة الشمسية والقمرية يقتضى أن يكون الحج في كل شهر ثلاثة أشهر إذا كان لغرض أن يبقى الحج في وقت معين من السنة كالشتاء أو كالربيع ولن يستقيم هذا إلا بما ذكرنا وتدور السنة في ٣٣ سنة ، وأما على ما نقله العرب فإنها تدور في ٢٤ سنة وهذا خطأ منهم وضلال ، فلام أقاموا على الأشهر القمرية ولا هم عرفوا كيف يوفقون إلى الأشهر الشمسية التي تهدي الناس إلى حقيقة الفصول .

ولما كان أمر السنة الشمسية يحتاج إلى حساب وكان الإسلام عاما للأمم الجاهلة والعالمة وأن الأمم الجاهلة إذا أرادت التوفيق بين الحسابين ضلت سواء السبيل .

أمر الله جميع المسلمين أن يسيروا على السنن القويم وهي السنة القمرية التي هي أسهل لجميع الناس وإن كانت أشق ، لأن الحج يدور في الفصول الأربعة كل ثلاث وثلاثين سنة مرة ويحج الناس في كل فصل تسع حجات تقريبا ويدورون الحرّ والبرد لزيادة الثواب .

فإذن محاولة التوفيق بالنسي من الأمم الجاهلة ضلال في الحساب وخطأ ، فلذلك قال تعالى ( يضلّ به الذين كفروا يحلونّه عاما ومحرّمونه عاما ليواطئوا ) أى يوافقوا ( عدّة ) الأربعة المحرّمة وحدها من غير مراعاة الوقت ( زين لهم سوء أعمالهم ) حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا ( والله لا يهدي القوم الكافرين ) هداية موصلة إلى الحق .

ولما انتهى سبحانه من تحقيق زمن التحريم وتبيان الأشهر الحرم وغيرها أخذ يحث المؤمنين على القتال ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم ، وكان ذلك في زمان عشرة من الناس وشدة من الحرّ حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورى فيها حتى كانت غزوة تبوك فنزاهها في حرّ شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز وعددا كثيرا وحلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوّهم فشقّ عليهم الخروج إلى الجهاد فشقّلوا ، فأنزّل الله ( يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا ) اخرجوا ( في سبيل الله انافلتم إلى الأرض ) تافلتهم أدغمت التاء في التاء فصارت تاء ساكنة فدخلت ألف الوصل ، وضمن انافل معنى مال ، فعدى بالى : أى ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاقّ



السفر ومتاعبه فلتتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ( أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ) بدل الآخرة ( فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة ) في جنب الآخرة ( إلا قليل ) يعني أن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد ، وهذا يدل على وجوب الجهاد على كل حال وفي كل وقت لافرق بين الأشهر الحرم وغيرها ، وهنا لطائف ثلاث :

#### اللطيفة الأولى تحقيق الكلام في الأشهر الحرم

اعلم أن علماءنا وإن اختلفوا في الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها هل هو منسوخ ؟ فإنك عند التحقيق تجد الأمر أكبر من أن يختلف فيه فهم متفقون وإن كان كثير من الناس لا يعلمون .

وبيانه أن دين إبراهيم الذي كانت العرب تزعم أنها متمسكة به جعل القتال في الحرم محرماً وكذلك في الأشهر الحرم للتقدمة ، فأما بقية السنة وبقية الأرض فالقتال فيها لحرمة فيه ، فلما جاء الإسلام حرّم الله فيه على الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم كما جاء في خطبة الوداع فصار التحريم راجعاً إلى نفس الأعراس والأموال والدماء في كل زمان وكل مكان ، فلا دخل إذن للزمان ولا دخل للمكان ، وإنما للدار على نفس الأعراس والأموال والدماء ، وهذا واضح جلي .

هذا من جهة ومن جهة أخرى أن هذه السورة قد استبان فيها أن العرب الذين هم متمسكون بالأشهر الحرم قد أزموا باتباع الإسلام وأن بلاد العرب لا يجتمع فيها دينان فأصبح هؤلاء محرماً عليهم بطريق الدين كل حرب وكل غارة في الأشهر الحرم وغيرها .

بقي أن نقول ماذا يفعلون مع الأمم الأخرى كفارس والروم ؟ فنقول : إن هؤلاء لا يعرفون ماهي الأشهر الحرم ولا ماهو دين إبراهيم بل لهم دين آخر ، لأن الأشهر الحرم عند العرب لدينهم والعرب أسلموا ، فبعد أن كان التحريم عندهم في أشهر معينة أصبح في جميع الدهر فإذن لا معنى لتحريم القتال في الأشهر الحرم البتة ، فإن كان في بلاد العرب فهو تحصيل حاصل وإن كان في غيرها مع الأمم الأخرى فهو لا قيمة له ، لأن هذه الأمم لا تحترم إلا القوة ولا تنفد بزمان ولا مكان .

إذا فهمت هذا عرفت السرّ في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انظروا الخ » ولم يقيد بزمان ، لأن هذه أول غزوة غزاها المسلمون للروم بعد ما فرغوا من قتال العرب فوجب أن يضرب المسلمون الذكر صفحاً مع الروم عند الأشهر الحرم ويفزوه .

وهذا هو السرّ في الإطلاق وقطع النظر عن الأشهر الحرم فتعجب من أسرار القرآن وحكمه العجيبة .

وبهذا تبين لك من يقول إن تحريم القتال فيها غير منسوخ ومن يقول إنه منسوخ فكلاهما حق من وجه ، فمن قال إنه غير منسوخ فهو صادق من وجه ، لأن الأشهر الحرم وغيرها يحرم فيها قتال المسلمين للمسلمين من العرب وغيرهم ، ومن قال إنه منسوخ فهو حق من وجه ، وذلك أن قتال الفرس والروم مباح في الأشهر الحرم وغيرها إذ لا معنى لتحريم القتال فيها معهم وهم لا يحرمون ذلك ، وبهذا اتضح للقاصد والالإيهام ؛ فالحمد لله الذي ألهمنا وعلّمنا ما لم نكن نعلم .

#### اللطيفة الثانية

الشهور العربية والأفرنكية والقبطية وعلّة تسميتها بأسمائها المعروفة الآن

الشهور عند العرب

اختلف المؤرخون في أسماء الأشهر في الجاهلية الأولى ، فقيل إن الأشهر العربية للتعامل اليوم وضمت في عهد كلاب بن مرة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك قبل الإسلام بقرنين وعدتها اثنا عشر شهراً ، وقد وضعت أسماءها أصلاً لبيان الأحوال وأطلقت على الأزمنة ، وهي :

( محرم ) سمي كذلك لتحريم القتال فيه حتى لمن له تأمر .  
 ( صفر ) سمي كذلك لما كان يفتري العرب من مرض في ذلك الشهر تصفر منه ألوانهم ، وقيل لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا فيه إلى الحرب أثر قعودهم عنها في محرم .  
 ( ربيع الأول و ربيع الثاني ) سميا بالربيع لأنهما كانا بآبئان في الحريف ، وكانت العرب تسمى الحريف ريبا .  
 ( جمادى الأولى و جمادى الثانية ) سميا بذلك لإيمانتهما في الشتاء عند جمود الماء ووقع الجليد حيث تجف الأرض ويقلّ الزرع والنبت .  
 ( رجب ) سمي بذلك لأنه كان يقال فيه ارجبوا : أي كفوا عن القتال ، فكانت العرب تعظمه ونهاهم وسمي بالقرء لأنه منفرد عن باقي الأشهر الحرم المتوالية .  
 ( شعبان ) سمي بذلك لانشاب القبائل فيه إلى طلب للياه والغارات .  
 ( رمضان ) سمي بذلك لأنه كان يأتي حيث يبدأ الحرّ وترمض الأرض ، وقيل لاشتداد حرّ جوف الصائم وهو ضيف .  
 ( شوال ) سمي بذلك لقولهم : شولوا أي ارتحلوا ، وقيل لقلّة الياه فيه لأن شول الماء بمعنى قلّ ، وقيل لأن الإبل كانت تشول فيه بأذنانها لشهوة الضراب ولقبح لم تكن العرب تجيز فيه الزواج .  
 ( ذو القعدة ) سمي بذلك لقعود العرب فيه عن القتال .  
 ( ذو الحجة ) سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه .

#### الشهور عند الافرنج

وضعت أسماء هذه الشهور في أيام الملكة الرومانية الأولى وهي :  
 ( يناير ) مأخوذ من ( يانوس ) وهو معبود خرافي كانوا يمثلونه بوجهين ينظر بأحدهما السنة المنصرمة وبالأخر إلى السنة المقبلة .  
 ( فبراير ) مأخوذ من ( فبروا ) وهي معبودة الطهارة عند الرومان .  
 ( مارس ) مأخوذ من مارس معبود الحرب عندهم .  
 ( إبريل ) مأخوذ من كلمة أيريري : أي فتح بالرومانية لأن الزهور تفتح فيه .  
 ( مايو ) مأخوذ من ميا وهي إحدى بنات اللارد أطلس ( خرافة ) .  
 ( يونيو ) مأخوذ من يونون زوجة ( جوتتر ) رئيس المعبودات .  
 ( يوليو ) سمي بذلك تذكرا ( ليولبوس قيصر ) واضع التقويم اليولياني .  
 ( أغسطس ) سمي به تذكرا لحلفه أغسطس أول أميرة الرومان .  
 ( سبتمبر ) معناها هذا الشهر السابع باعتبار أول السنة ( مارس ) كما كان قديما .  
 ( أكتوبر ) معناه الشهر الثامن باعتبار أول السنة ( مارس ) كما كان قديما .  
 ( نوفمبر ) معناه الشهر التاسع باعتبار أول السنة ( مارس ) كما كان قديما .  
 ( ديسمبر ) معناه الشهر العاشر باعتبار أول السنة كما كان قديما .

#### الشهور القبطية

انتقلت أسماء تلك الشهور من قديما المصريين واضعها إلى نسلهم من أمة القبط ، وقد سمي المصريون الشهور بأسماء آلهتهم التي كانوا يعبدونها في سالف الصور وكانوا يقيمون الاحتفالات كل شهر باسم المعبود للسمي به الشهر في هيكله للكروسي له .

(توت) هو رأس السنة القبطية وأصل اسمه بالهيروغليفية (تهوت) أى إله الحكمة ، وكان يسميه المصريون للتأخرون إله العلم والقلم ويحتفلون به عن بكرة أبيهم بإقامة الاحتفالات الشائفة فى أنحاء القطر تعظيماً لهذا الإله الذى كان يقع فى أوّل يوم منه ، وتستمر الاحتفالات هذه مدة أسبوع ، ولا يزال الأقباط يحتفلون به إلى الآن ويسمونه باسم (النيروز) .

(باه) اسمه باللغة الهيروغليفية (بى تبت) أى إله الزرع حيث ينحصر فيه وجه الأرض .

(هانور) اسمه باللغة الهيروغليفية (هانور) أى إله الجمال حيث يزين فيه وجه الأرض بجمال المزروعات

(كيك) اسمه باللغة الهيروغليفية (كاهاكا) أى إله الخير أو النور المقدس .

(طوية) اسمه باللغة الهيروغليفية (طويا) أى الأطى أو الأسمى : أى إله الطير ومن اسمه مدينة

طية بالصعيد .

(أمشير) لم يستدل له على أصل .

(برمها) اسمه باللغة الهيروغليفية (باموت) أى إله الحرارة حيث تنضج فيه المزروعات لاشتداد الحر

(برموده) اسمه باللغة الهيروغليفية (بأماوت) أى إله اللوت والفناء حيث ينتهى فيه أجل المزروعات

ويفعل وجه الأرض .

(بشنس) اسمه باللغة الهيروغليفية (باخنسو) أى إله الظلام لاعتقادهم أن هذا الإله يساعد الشمس على

إزاحة ظلام الليل ، فلذا يكون النهار فى شهره أطول من ليله حتى يبلغ ١٤ ساعة فى بدايته .

(بؤنه) اسمه باللغة الهيروغليفية (باونى) أى إله المعادن لأن فيه تستوى للمعادن والأحجار ، ولذا يسميه

العامة بؤنة الحجر .

(أيب) اسمه باللغة الهيروغليفية (هوبا) أى فرح السماء لأنه مبدأ أفراس المصريين حيث كانوا يزعمون

أن (هوريس) أى الشمس اتقم فيه لابته (أوزريس) أى النيل من عدوه (تيفون) أى التحاريق .

(مسرى) اسمه باللغة الهيروغليفية (ميشرا) أى ابن الشمس .

(أيام النسي) النسي لغة للتأخر وكان قدماء المصريين يسمونه (كوجى أنافوت) أى الشهر الصغير

انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم »

من معجزات القرآن التى تظهر فى هذا الزمان أن أكثر ما جاء فيه من علم اليوم الآخر يظهر فى مناجاة

الأرواح . ومن اطلع على كتاب الأرواح التى ألقته فى هذا المقام أدرك هذا العجب العجيب ، فإن قوله

« فتكوى بها جباههم الخ » وقوله فى الحديث ما معناه أن البقر تطأ صاحبها بأرجلها وهكذا القم وكذلك

الإبل تطؤه بأخفافها وتدور على ذلك خمسين ألف سنة حتى يتم حسابه ويدخل إما جنة وإما ناراً فيما تقدم ،

وكذلك حديث البخارى للتقدم وأن أخبت الحيات للمبر عنها بالشجاع الأقرع تطوقه وتقول له أنا كنتك

أنا مالك . وتبين الحديث أن ماله سيمثل له .

كل ذلك دلالة أن ذلك عالم اللثال وأن صور الأشياء تظهر هناك وتعذب صاحبها ، فهذا بينه حوالذكور

فى الكتاب المذكور تقيلاً عن الجمعيات الأوروبية ، ولقد حدثوا الأرواح فى أمريكا وإنجلترا وفرنسا وغيرها

فى سائر الدول فأعربت الأرواح عن ذلك وأصحت وقالت إن البخيل يندب بماله .

وهناك حكاية اليتيمين الذين لما مات الحاكم الألمانى أخذوا يندبانه عذاباً شديداً حتى استغاث بزوجه

لما أحضرت روحه وهكذا ، وهذا كثير فى كلامهم ، فهذا بينه هو الذى ورد فى ديننا ، وتوجب كيف

يظهر سرّ القرآن في هذا الزمان ويؤيد الكشف ما سمعته الأذنان ولم تره العينان « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

فإذن عالم البرزخ وهو ما بعد الموت مملوء من الصور الحسنة والقيحة ، وأقرب شيء إلى ذلك الصور التي تمثل لنا في المنام وظهور صور أعمالنا بعد موتنا أظهر وأبهر وأجلى وأوضح « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - يوم نجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا - بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

فلى للمسلمين أن يقرءوا علم الأرواح أولا وأن يقوموا بمعرفة هذا العلم فعلا تانيا ليبين بمحادثة الأرواح حقائق دين الإسلام فتحدثهم الأرواح أنها تعذب بصور أعمالها ويستعين للناس إذ ذاك حقائق العلوم الإسلامية ، وهذا هو اليقين وفرق بين التقليد واليقين [ جوهرة باهرة ] .

هذه الآيات من قوله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم - إلى قوله - سبحانه عما يشركون » مظهران :

[ للظهر الأوّل ] آثارها في الأمم الإسلامية في أوّل ظهورها وإهمال للتأخرين لأشأنها وآثارها في الانقلاب الأوروبي الحديث .

[ للظهر الثاني ] ما جاء عن علماء الأرواح حديثا ببلاد أوروبا .

الظهر الأوّل وفيه مقامان :

[ للقام الأوّل : آثارها في أم الإسلام ]

ذمّ الله عز وجل الأخبار والرهبان وخطب المسلمين بذلك ، خاطبهم ليكونوا سببا في تمزيق شمل رجال الدين في الأمم .

إنّ رجال الدين في كل أمة من الأمم القديمة كانوا يستبدون بالناس كالبراهمة الذين جعلوا الناس أربعة أنواع : فهم أنفسهم كالرأس ، ومن دونهم من الجند كالقلب ، ومن دون هؤلاء كالمعدة والأحشاء ، وأدنى منهم كالرجلين ، وهكذا دين الصريين القدماء كان للكهنة السلطان الأعظم على الشعب ، فهم والقراعة لهم السلطان الأعظم في الدنيا والآخرة ، وكل مجد وكل شرف في الدنيا والآخرة راجعان إلى اللك وإلى رجال الدين .

جاء الإسلام بهذه الآية وقال الله فيها للمسلمين ، أيها المسلمون أتم خلقاني في أرضي فلا تجعلوا لأحد سلطانا على أحد وأهل الأرض كلهم عيالي وأنا ربهم وأنا كافلهم ، والأخبار والرهبان استبدوا بعبادي وأوهومهم أنهم ينفرون لهم وسنوا لهم القوانين فأنجدوا عبادي وأخرجوهم من هذا القل .

آثار هذه الآيات في صدر الإسلام

ألا تعجب معي أيها القكي ؟ انظر إلى أبي بكر رضي الله عنه أنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقرب الناس إليه في الدين قد عرف مقصود القرآن بمعاشرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فانظر ما قال لعائشة رضي الله عنها وهو في سكرات الموت « أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ولسكنا قدأكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من في المسلمين إلا هذا العير وهذا العير وهذه القطيفة ، فإذا متّ فابغى بالجميع إلى عمر ؛ فلما مات بعثته إلى عمر فلما رآه بكى حتى سالت دموعه على الأرض وجعل يقول : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جدبه ويكرّر ذلك وأمر برضه » .

وأمر أبو بكر أيضا أن يردّ جميع ما أخذ من بيت المال لتفقته بعد وفاته . وروى أن زوجته اعنته  
 حلوا فقال : ليس لنا ما نشتري به ، قالت : أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به ، قال افضلي .  
 ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير ، فلما عرفته ذلك لبشترى به حلوا أخذه فردّه إلى  
 بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما قصت كل يوم وغرمه لبيت المال من  
 ملك كان له ، قال ابن الأثير بعد ما نقل هذا : والله هذا هو التقوى التي لا يزيد عليها وبحقّ قدّمه  
 الناس الخ .

زهد سيدنا عمر رضي الله عنه

قال الحسن : خطب عمر الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة منها آدم ، وقال أبو عثمان النهدي :  
 رأيت عمر برى الجرة وعليه إزار مرقع بقطعة جراب ، وقال عليّ : رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار  
 فيه إحدى وعشرون رقعة فيها آدم ، ومن قوله رضي الله عنه « يا أيها الناس إني ما أرسل إليكم عملا  
 ليضربوا أبتاركم ولا ليأخذوا أموالكم وإنما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وستنكم فمن فعل به شيء سوى ذلك  
 فليرضه إلى فوالذي نفس عمر بيده إذن لأقصه منه » إلى أن قال « وكيف لأقصه منه وقد رأيت النبي  
 صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ألا لاتضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تمنعواهم حقوقهم  
 فتكفروهم » اه . ومثل هذا روى عن سيدنا عليّ وسيدنا عثمان رضي الله عنهم أجمعين .

مضى الصدر الأول وأكثر القوم على هذا ، فانظر للأمم الإسلامية بعد ذلك ما كادت القرون الأولى تنتهي  
 حتى أظلمت آفاق الأمم الإسلامية وتبعوا من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، واستبدّ صنار العلماء بالمقول  
 وأنهموا الناس أن كثيرا من العلوم لاتنفع في الدنيا والآخرة لأجل أن يتولوا هم القضاء والوصايا ويتصدروا  
 في المجالس واستناموا يوما عميقا محزنا وشرة اللوك على حطام الدنيا .

وأنا أذكرك بما تكلته في المجلد الثالث في سورة السائدة من هذا التفسير ، فقد ذكرت هناك نص ماجاء  
 في الإحياء عند قوله تعالى « فبعت الله غرابا يبعث في الأرض » وهذا نص بضمه :

[ واحترز من الاعتزاز بتليسات علماء السوء فإن شرهم على الدين أعظم من الشيطان ] وهناك نجد  
 بيان سبب ذلك ، إذ هم زينوا للناس بأفعالهم وأقوالهم الاتصاف في زمامهم على علم الفقه ، وذلك ليتصدروا  
 في المجالس ويتولوا القضاء والوصايا ؛ فالعلم إذن مصيدة لهم يصيدون به للال ، فرجح القوم إذ ذاك إلى  
 أخلاق الأخبار والرهبان الذين قال الله فيهم « إنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » ،  
 فإذاً يكون هذا يشبه أكل أموال الناس بالباطل وإن لم يكن باطلا من كل وجه ، وأيضا إذا صدوا عن  
 العلوم كما يقول النزالي : فقد أشبهوا من يصدون عن سبيل الله بعض الشبه ، فإذاً تكون هذه الأمة  
 قد تبعت من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع وأصبحت كما قال الله تعالى « ولا يكونوا كالذين أتوا الكتاب  
 من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » وهكذا سار لبعض علماء الإسلام في كثير  
 من الأزمان من الأعمال ما اتفق للأخبار والرهبان المذكورين في هذه الآية ، والله هو الوليّ الحميد ومنه  
 التوفيق ، والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللقمة الأولى لهذه الآيات في الأمم الإسلامية  
 قديما وحديثا .

[ للقام الثاني : آثار هذه الآيات في الانقلاب الأوروبي ]

اعلم أن أكبر مظهر لهذه الآيات قد ظهر ظهورا واضحا في أوروبا ، ألا تصعب معي كيف كان مظاهر  
 هذه الآيات واضحا ظاهرا في أوروبا ظهور الشمس ؟ .

الا تتأمل في حال المسيحيين كيف كان ( الكاثوليكية ) الذين هم يسمون ( ملكانية ) أيضا لهم رئيس ديني وهو الأسقف العظيم والحبر الكبير والقسيس الأعظم ، من هو هذا ؟ هو اللمسى ( البابا ) ومقره وسكنه ( روما ) بدولة ( إيطاليا ) فهو رئيس أهل هذا للذهب وهو كالمقطب عند المسلمين ، ومن جهة أخرى هو ملك سياسي وأهل إيطاليا كلهم على مذهبه ، وقد جعلوا للبابا السلطان الأعظم عليهم سنة ٧٢٦ م الموافق سنة ١٠٨ هجرية .

وصار البابا يترقى حتى صارت له مقاليد الدين والدنيا ، فكانت للبابوات ممالك واسعة في الأرض وكان لهم حق كبير في تولية ملوك أوروبا وعزلهم كما يشاءون ، وكان لتبريم من الملوك تاج واحد وأمامه فكان لهم ثلاثة تيجان واحد فوق الآخر دلالة على كمال السلطة ويديم الحرب والسلام ، وكانوا يحرقون من خالفهم بالنار وهو حق .

وقد أزم البابا مرة أمبراطور ألمانيا أن يقف حافيا ثلاثة أيام في فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران ، ورفض البابا مرة برجله تاج ملك ( جرمانيا ) حيث كان جاثيا أمامه يطلب الغفران . ولما استنحل أمرهم انحطوا شيئا فشيئا إلى سنة ١٨٧١ م الموافق سنة ١٢٨٨ هجرية ، إذ ذاك سقط أمرهم بالكلية ودخل الإيطاليون إلى عاصمة ملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيسا على الكاثولية فقط ومقره في الكنيسة الرومانية وليس له من الرياسة غير ذلك .

هذا هو ملك رجال الدين الذين أشار لهم القرآن هنا ، يقول الله للمسلمين : أيها المسلمون انشروا العلم في الأمم وهذا بوا نفوسكم وكونوا للناس آباء رحماء ولا تكونوا كرجال الدين في الأمم المسيحية واليهودية الذين جعلوا الدين مصيدة لجمع المال ، يا أهل الأرض إياكم أن تأكلوا أموال الناس باسئ ولا تجعلوا ديني سبيلا لظلم عبادي ، فمن كان خليفتي في الأرض فليكن نورا مينا للناس كالشمس لا يريد جزاء ولا شكورا كما اتفق لنبو أبي بكر وعمر وعلي وأمثالهم .

أما للتأخرون من علماء الإسلام فأكثرهم يجهلون مقصود القرآن وهكذا أهل أوروبا اتصل ملك البابا فيهم فوق ألف عام وهم خاضعون لسطوة رجال الدين فأخروا تلك الأمم ولم يستيقظوا إلا بعد أن خذلوا رجال الدين ، انظروا أيها المسلمون آثار الأمم وآثار الإسلام فيها .

(١) قال المؤرخ ( كرنيسوس اضربيا ) عند وصفه ابتياع حل الحطايا في عصره بالمال مانصه : [ ليس من ذنب فطيع إلا أمكن حله بالدينار حتى القتل وسفاكو النساء كانوا يشترون الحل والغفو بالأموال الطائلة ] انتهى .

أليس هذا هو نص الآية إذ يقول هنا « إن كثيرا من الأجرار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » وأي باطل أشد من هذا ؟ ويقول تعالى هنا أيضا « اتخذوا أجيالهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وأي ربوبية أعظم من غفران الحطايا ؟ فهذه ربوبية جشعة بالأموال .

(٢) ومن اطلع في مدينة ( أنفوس ) يجد في قبر ( كرنيسوس فات لاند شوت ) ما تعريه : [ تنسكب السماء بالاجتهاد أو تشتري بالمال ] .

(٣) ليس من شيء مقدس إلا جعله رجال المسيحية متجرا فيتاجرون بالضاير والإيمان وضمف النفوس ، وقد جعلوا دفن الموتى بابا لثروة فقراءهم لثقى الأجراس ويشعلون له الشموع ويحملون له البيارق والصلبان ويكسون الكنيسة برايات الحداد ويسرون أمام جثته بالترتيل وهكذا .

ومن أعمال البابا ( أوربانس ) الثاني لمن ( أريكس الرابع أمبراطور ألمانيا ) مع أعوانه ، وهذا بعض

هذه اللعنة : [ إنا فصلهم عن حضن الكنيسة ولنهم أبدا ليكونوا ملعونين في المدن والساكن وفي كل أرياقهم الخ ] وهي طويلة جدا مملّة كلها لعنات .

(٤) ومن أعمال نصارى الإسكندرية سنة ٤١٥ بإيماز أسقفهم وكهنتهم أنهم اختطفوا العائلة ( هياتيا ) ابنة ( تيون الإسكندري ) الرياضي الشهير في عصره ومزقوا جسدها إربا لأنها كانت تعلم الفلسفة وتحب العلم والفضيلة وتحب عليهما .

(٥) وفي سنة ٧٨٢ قبض ( شلمان الكبير ) بإيماز الحبر الروماني على أربعة آلاف ساكنوني ونيف من مدينة ( وarden ) وضرب أعناقهم في يوم واحد لأنهم أبوا قبول العماد .

(٦) وفي سنة ١٠٠٧ أحرق أقواما في مدينة ( أورليان ) وهم أحياء ، وفي سنة ١١٣٤ أحرق حيا ( بطرس برويس ) في مدينة ( لاجدوك ) لأنه أنكر صحة معمودية الأطفال ونحو ذلك .

وفي سنة ١١٥٥ قتل خنقا ( ارنالودي برشا ) لأنه نشر تعلقا أراتيكيا ماله وجوب عبثة الاكليروس من عطايا المؤمنين الاختيارية قسط .

وفي سنة ١١٦٠ قام الكاثوليك على جماعة من ( القويين ) عصوا أمر البابا فأحرقوا منهم عددا كبيرا وقتلوا منهم في فرنسا ثلاثة آلاف من جلنهم كثير من الصبيان .

وفي سنة ١٢٠٩ اضطهد الكاثوليك أيضا ( الألبيجيين ) في مدينة ( بيزه ) فذبحوا منهم ثلاثين ألفا وأحرقوا منهم في مدينة ( لاقور ) أربعمائة إنسان دفعة واحدة وخنقوا أمير ( أراتيكيا ) بعد أن أحرقوا امرأته وبنته وأخته معا ، ثم شنقوا أميرا آخر مع ثمانين شخصا من آل بيته ثم غزوا مدينة ( لاجدوك ) ومنح البابا ( اينوشنسيوس الثالث ) غفرانا كاملا لكل الذين اشتركوا في هذه اللذائح والتزوات .

وفي سنة ١١٨٤ تأسس ديوان التفتيش في مجمع ( فيرونا ) وصادق عليه البابا ( اينوشنسيوس الثالث ) سنة ١٢٠٤ وثبتته نهائيا البابا ( غريغوريوس التاسع ) براءة خصوصية .

ويقدر المؤرخون بالملايين عدد الذين قتلوا بحكم هذا الديوان ، قال المؤرخ ( ميشله ) إن عذاب النار كان متوقعا فيضون تارة المحكوم عليه داخل ( آتون مضطرم ) فيموت حالا ، وأحيانا يلقونه على نار ضعيفة ويقلبونه عليها بكلايب من حديد مرارا عديدة إلى أن يحلّ به اللوت ببطء فيتقذه من عذابه المهول .

وتارة ينزلون بالمحكوم عليه في دهليز تحت الأرض ويضعونه في خرة بقدر قامتة ثم يسدون ذلك عليه إلى عنقه ، وهذا هو معنى دفنه حيا ولا يبقى إلا متسع صغير أمام رأسه يأتيه منها السجان بالطعام إلى أن يوافيه اللوت بعد عذاب شديد .

وتارة يأتون بالأسياخ الحديدية فيدخلونها تحت أظافر اليدين والرجلين وهكذا النعال من الحديد للطبقة على باطن القدم المحماة في النار ، وهكذا الرصاص الدائب يسكبونه على الجراح الثمامية ، وهكذا خفاف جهنمية تشدّ على الأرجل إلى أن يقطر منها الدم وتنفث اللحم وتتطاير العظام ، وهكذا مسامير محروقة تصب في الأحشاء زيتا مغليا ، وهكذا كلاب حامية بها يقطع الثديان ، وهكذا من أنواع العذاب الشديدة الجهنمية ، وذبح النصارى كثيرا من اليهود في انكلترا أيام ( ريكاردس الأول ) ومن بعده وعذبوهم ونهبوا أموالهم إلى أن طردوا تماما من البلاد سنة ١٢٩٠ م .

وأحرق لويس الحادى عشر ملك فرنسا منهم في مكديس ١٨٣ شخصا مع راعيهم ، وفي عام ١٢٤٩ أحرق منهم ثمانون إنسانا في بلدة ( آجين ) .

وفي سنة ١٢٦٧ حكموا على الراهب ( روجرباكون ) بالسجن (١٤) سنة لأنه أبرم عهدا مع الشيطان في أبحاثه العلية .

وفي سنة ١٣٩٠ ذبح النصارى في مدينة ( سيفيلا ) أربعة آلاف شخص من اليهود بإجازة كاهن اسمه ( هيرماندومارتيش ) ولا زال باقي اليهود يعانون العذاب حتى طردوا منها بتاتا أيام الملكة ( إزابيلا ) .  
وحكم في انكلترا بنيش قبر ( وويكلف ) لأنه ترجم الكتاب المقدس وذلك الحكم بأمر مجمع فسطانس سنة ١٤١٥ وطرحت رفاته في النهر .

ويقدر المؤرخون المحكوم عليهم في محكمة التفتيش بأسبانيا ٥١٠٠ شخص أيام (توركويمادا) التي دامت ١٨ سنة ، وعدد الذين أحرقوا مابين ثمانية وعشرة آلاف ، وقتل في الأندلس في سنة واحدة ألفا يهودي وعذب منهم ١٧ ألفا وأحرق منهم عدد عظيم في مدينة ( بامبلونا ) في فرصة زواج أمير البلد ، والإحراق غالبا كانوا يتخبرون له فرصة زواج اللوك فيجلس الملك والملكة على دكة عالية ويؤتى بالمحكوم عليهم بين تصفيق الجمهور وعلى رءوسهم أكاليل من ورق نقشت عليها رسوم الشياطين وتصيح للوسيقى بالأنتقام ورئيس التفتيش حامل في يده كتاب الإنجيل .

وفي سنة ١٥٦٨ أصدر ديوان التفتيش الروماني حكما بإهلاك كل سكان ( هولاندا ) لانباعهم المردة وعدد الذين قتلوا في ( أسبانيا ) أيام ( كارلس الخامس ) وابنه ( فيلبس الثاني ) خمسون ألفا .

وفي سنة ١٦١١ طرد للملون من ( أسبانيا ) وعددهم ألف ألف ، وقتل منهم مائة ألف بإجازة رئيس أساقفة ( فالنسا ) الذي أمر بقتلهم كما قتل داود الفلسطينيين وشاول العاصفة .

وفي سنة ١٥٧٢ حدثت مذبة (سان بانلي) الشهيرة ، فذبح تلك الليلة في باريس وحدها عشرة آلاف ونيف من البروتستانت من شبان وشيوخ وأطفال ونساء وحوامل وفي الأقاليم نحو أربعين ألفا ، ثم إن البروتستانت قتلوا أكثر مما قتل ( الكاثوليك ) فارتكبوا فظائع مريعة في ألمانيا وهولاندا وانكلترا خصوصا أيام ( أريكس الثامن ) والملكة ( اليبات ) .

وقد قتل في انكلترا وإيكوسيا لدواع دينية في مدة مائتي سنة مليوني نفس ، وفي سنة ١٦٠٠ حكم ديوان التفتيش الروماني على (جوردانو برنو) العلامة الشهير بالإحراق حيا لأنه رأى مارآه ( كورنيك ) و(غالوس) في دورة الأرض وقوله إن النفوس ترتقي في العوالم التي لا تنتهي منتشرة في الفضاء .

وفي سنة ١٦٩٩ حكم على ( فانيين ) بالإحراق حيا في مدينة طولون لأنه ألف كتابا ونشره يسمى : [ محاورات في مسائل الطبيعة ] .

وفي سنة ١٦٨٥ قضى لويس الرابع عشر بإجازة ( الاكليروس ) معاهدة ( نانت ) مع البروتستانت فتسبب عن ذلك مذابح شتى وامتلات سجون فرنسا من أهل الإصلاح ، ويقدر عدد القتلى بأكثر من ثمانمائة ألف ، أي من الذين قتلوا وسجنوا ونفوا .

وقتل في مدينة ( لانجدوك ) وحدها مائة ألف إنسان حرقا وشنقا وتعذبا في القرن الثامن عشر ، وحكموا بإجازة أسقف ( اميانس ) سنة ١٧٦٦ على اتفق للسمي ( دى لبار ) بقطع يده وقطع لسانه وإحراقه حيا لكونه لم يؤد الإكرام الواجب ( لايقونة المدراء ) وقت طوائفها الاحتفالي وله من العمر ١٩ سنة ، انتهى .

هذه بعض أعمال رجال الدين في أوروبا ، وأمالي الآن مئات الحوادث في كتب مختلفة ضربنا عنها صفحا اكتفاء بالقليل للفيد عن الكثير ، وإنما الذي يهمنا الآن أن هذا الضلال لم يزل عن أوروبا



إلا الإسلام ، فإن القوم نازعوا للمسلمين في الحروب الصليبية وعرفوا الحقائق فأذلوا رجال الدين وصاروا أحرارا .

ولأكتف لك أيها القارئ بإيراد ماجاء أيام طبع هذا الكتاب من رسالة بقلم سيده أوروية أسلمت وكتبت مذكرات ونشرتها في بلادنا المصرية فهناك نصها لتعلم كيف كان قوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله الخ » ونداء الله للمسلمين بقوله « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان الخ » قد ظهرت آثارهما في أوروبا بأجمعها في العصور المتأخرة كما ظهرت آثاره في الإسلام في العصور الأولى .  
فهناك نص ما قالته تلك السيدة الأوروية بالحرف تحت عنوان : [ الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروية ، رجال الدين ] وها هي ذه :

### مذكرات سيده أوروية أسلمت

الحضارة الإسلامية ، الحضارة الأوروية

رجال الدين

لا أستطيع في هذه الأسطر القليلة أن أتعمق في بحث الدور الهائل الذي لعبه رجال الدين في سياسة أوروبا جماء فيما بين القرنين السادس والسابع عشر وماجرته -إسرافهم في الأمر من حروب وتقم فإنه يحتاج إلى مجلدات ، وأن كل من قرأ شيئا من تاريخ أوروبا يعلم كيف استفحل أمر رجال الكنيسة في ذلك العهد وكيف سلبوا أموال الأئمة واستحوذوا على أملاكها واستبدوا بالوظائف الحكومية وللكنائس العالية ، وكانوا كيف يعيشون في مثل بنخ الملوك ، لهم ماليس للناس ، ولا يجرى عليهم ما يسرى على باقي أفراد الشعب حتى ضاقت الملوك ذرعا بما كانوا عليه من إسراف وظلم وتسلط على العقول والقلوب باسم الدين والكنيسة .

وظلوا على تلك الحال إلى أن أوردوا أوروبا بأسرها في هوة الحراب بتلك المجزرة الهائلة التي أطلق عليها التاريخ اسم ( حرب الثلاثين ) وما أعقبها من مطاردة ( لويس الرابع عشر ) ملك فرنسا لطائفة ( المهجنوت ) مطاردة قضت على مائتي ألف منهم بالتربة والتشتيت في أنحاء العالم .

والحقيقة أن رجال الدين في ذلك العهد أساءوا استعمال سلطتهم الروحية واتخذوا من الدين ذريعة لنيل مآربهم السافلة من سلب الأموال والعبث بالملكات والوظائف وسائر مرافق الحياة .

واقدم عاشت أوروبا تحت تأثير هذه الطائفة وتضليلاتها في ظلم وجهالة إلى أن نبت فيها أمثال ( فولتير ) ( روسو ) فخرّروا العقول من الأوهام التي كانت لا تزال عالقة بها وحطموا تلك القيود البالية التي غفلت بها رجال الكنيسة رقاب الشعب المسكين وأخذت أوروبا في دور النهوض والتقدم ، وكانت كفا أعرضت عن رجال الدين وأهملت تعاليمهم السمعة ازدادت رقا وتقدما إلى أن بلغت بفضل إهمالها التام لهذه الطائفة مبلغها الحالي من الرقي والعمران .

ولقد حدا بي كل ذلك إلى الظن في بادئ نفاقي أن كل الأديان في هذا سواء إلا أني تحققت بعد أن اعتنقت الدين الإسلامي أنه خير الأديان وأمتها أسلا وبنينا ، وأنه دين الاجتماع ، دين الحكمة والفلسفة ، دين العلم ، دين الحرية والإخاء والمساواة .

وإنى لم يبق الآن أن أمثال ( فولتير ) ( روسو ) وغيرها من قادة الفكر في أوروبا لم يأتوا بنظرياتهم الفلسفية وآرائهم في الحرية والديموقراطية إلا بعد أن تشبهوا بفسلفة الإسلام واستنقوا تلك للبادئ

من روحه السامية مما عثروا عليه في بطون الكتب النهوية من الأندلس ومصر وغيرها . وإني لأنبأ بأنه سيأتي يوم قريب تنبليج فيه أنوار هذا الدين وأساراره العالية فتكون أوروبا وأمريكا أول من يبادر إلى اعتناقه هاشين باشين ، وهم يزعمون أنه دين الجود ، ويساعدكم على ذلك نفر من بنيه ، ولكن أسائلهم : هل دين الجود يأمر بالحرية والمساواة ويقرّر مبدأ المسئولية الحكومية والشورى وينشر الديمقراطية ؟

أوليس عمر أول حاكم ديموقراطي أسس ملكه على العدالة ونادى بالحرية والمساواة ؟

أوليس هو القائل : [ إن الناس ولدتهم أمهم أحرارا فبم استبدتكم ] ؟

أوليس هو أول من قرّر مبدأ مسئولية الحاكم أمام الأمة حين وقف قائلا : [ من رأى في أعوجاجا فليقومه ( فيجبه العربي ) لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بحدّ السيف ] .

أوليس القرآن أول نظام قرّر للشورى ، قال تعالى ( وشاورهم في الأمر ) وعدم استئثار الزعيم أو الحاكم بالرأي .

أوليس الإسلام أول من قرّر حق انتخاب الأمير أو الحاكم للأمة . ذلك بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مات ولم يوص بالخلافة من بعده لأحد من أصحابه .

أوليس القانون المدني صورة محوّرة من نظم الشريعة الإسلامية وفلسفة ابن رشد ؟ والأدلة على ذلك كثيرة ليس هذا للموضوع محللا تكرها .

والآن وقد أثبت في هذه النبذة التاريخية على ما كان لرجال الدين من أثر في سياسة أوروبا وأخلاقها ، فإني أعود بالقارىء إلى الشرق في أيام عزه وسلطانه مستعرضة ما كان عليه رجال الدين في عهد شروق أنوار الإسلام ، وكيف كانت أخلاقهم وصفاتهم وما تركوه من الأثر في نفوس الأمم التي نفذت بلبان تعاليمهم وارتشفت من كؤوس علمهم وحكمهم .

نعم لقد كان للشرق عزّ وسلطان أيام كان للدين رجال يحمونه ويحلمونه ويحافظون على تعاليمه ويمشون على سنته ، ترخص أرواحهم ، وتفلو في سوق الفضيلة ذمهم وضائرهم ، استلنوا ما استخشن الترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، لم يفتنوا بحبّ المال والجاه ولم يركنوا لدوى العزّ والسلطان .

نعم بمثل هؤلاء عزّ الإسلام وحقق على العالم لواء العدل وعمت الحرية وتآخى الناس على اختلاف طبقاتهم في ظلال الأمن والسلام ، من ذلك ترى أن الشرق وإن أخذت منه الخلافات للذهبية التي لا تزال حية حتى اليوم كالشعبة والسنية والروافض وغيرهم قد اقترن تاريخ مجده ورفيقه بأيام تمسكه بالدين على يد رجاله العاملين ، فالشرق والترب عندى في هذا الموضوع ككفتى الليزان ، تركت أوروبا الدين وتخلست من رجاله الظلمة للستبين فرقت وعزت وتحررت العقول ونضجت الأفكار وأهمل الشرق أمر دينه واحتقر تعاليمه واستهان بشريته ورماء خطأ بأنه دين الجود فتقلص ظله وزال سلطانه وانعدت دولته ، وهنا أقف وقفة المهزون أناجى الشرق وأسأله ، هل أنت حقا ذلك الشرق صاحب المدينة القديمة والتاريخ الهيد صهبط الوحي ومبعت العدالة ومخرج تلك العقول التي حيرت يديع سمعها ورائع نمرتها أفكار أهل أوروبا وأمريكا الذين كانوا يرتعون في ذلك المهدي في مجاهل الظلم والجهالة .

إن كنت أنت ذلك الشرق فلم أظلمت بعد ساطعة الأنوار ولم اكفهر جوك وأظلم أفتك وزالت سطوتك وأضحيت مقهورا بعد أن كنت قاهرا ومستعبدا بعد أن كنت سلطانا عادلا ، هل تغيرت الأرض والسماء أم جفت الأنهار وتعطل الليل والنهار ؟ لا إن شيئا من كل ذلك لم يكن ؛ إنما هو خراب القلوب من الإيمان بعد هملها وبيع الدم والضمائر رخيصة في سوق الدنيا ونبد الدين وتعاليمه وإتقار أهل العلم من صفات العلماء

واستكانة الملوك والأمراء ، وإن شرّ ما أنبهه على التفرق اليوم وأكبر ما أخذته عليه من أسباب التدهور والاعطاط هو تغير أخلاق العلماء ومحل قلوبهم من العلم والعمل .

أنظر إلى ما فعله علماء بني غازي ، ألم ينادوا باسم عثمانويل ملك إيطاليا على النار بعد خلع الخليفة ، واقه يقول « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين » الآية .

ألم يبايع علماء الحجاز والسودان الحسين بن علي للوحد من قبل الإنجليز بالخلافة ؟  
ألم يتم سعيد الكردي باسم الدين في وجه الكالين أصحاب السلطة الشرعية على البلاد إرضاء لشهوته من الإنجليز ؟

ألم تر إلى أعمال سادتنا العلماء في مصر ؟ وقد ظنوا أن الدين إنما هو إرخاء اللحى وتوسيع الأكمال ولبس القرجيات وإن أفقرت بيوت الله وأظلمت وعمرت اللواخير وبيوت الدعارة وازدهت ، وهل ترام مشتغلين بغير عمارة الجيوب وإن خربت الدم والقلوب ؟ وهل ترام إلا صامحين ليل نهار بتضخم المرتبات وزيادة الجرايات وإن فتكت بأهل البلاد حمى الحجر والليسر والمخدرات .

أين سطوة العلم وعز الإيمان ؟ وقد حفيت أقدام هؤلاء السادة من السعى إلى القصور والعمارات والجري وراء كل ذي لقب من أصحاب المراتب والمرتبات ، أين تأليفهم النافعة ؟ أين دعاتهم ضد هجمات للبشرين واحتجاجاتهم ضد كيد المستعمرين ؟ أين صيحتهم التي كانت تزلزل العروش ونهز القلوب .

أين العلماء الذين كان يقصدهم الملوك والعظماء ولا يقصدون ، ويسألهم الكبير والصغير ولا يسألون ؟ أين من قيل فيهم إنهم ورثة الأنبياء ؟ وإن قطرات أقلامهم ترجح بدم الشهداء ، قضت دولة أولئك العلماء وأصبحت لازي إلا كل حفيظ لبعض قشور من الشريعة وأصول الفقه يستثمرها ابتغاء قنص القلوس لافي سبيل إصلاح النفوس ، متهافت على الأمراء والعظماء ، لا يرى منفعة دينية ، أو حظا عاجلا عند كبير إلا طار إليه كالقهاب لا يقوى على رؤية السمل دون أن يهوى عليه .

أما الدين ، أما الضمائر والدم ، وعلو النفس والهضم ، فذلك ما ليس بينهم مادام لا يسد العلوم ولا يهيئ أسباب العيش الرضى المعنى ، وليفة القدر التي هي خير من ألف شهر يحياها السادة العلماء في دار الندوب السامى ولتظلم الجوامع ولتتفر بعد ذلك بيوت الله .

أراح الله الشرق من شرّ النفاقين ، وقبض له علماء عاملين يأخذون بيده وينهضون به فيعود إلى ماضيه القديم ويستردّ مجده التليد ، فإني لا أظنّ الأرض تخلو من هذا اللئل الأعلى للعلماء ، بل إن هذا الظنّ قد تحوّل منى إلى تحقيق بعد أن تبين لى في نفسى صدق على بن أبى طالب حيث قال « اللهم لا تخلى الأرض من قائم لك بحجة ، إما ظاهرا مشهورا أو خائفا مقهورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته » وليس بضائر الشمس أن تحجبها عن الأبصار السحب السوداء ، أو أن لا ترى نورها أعين الخفاش فإنها بالرغم من كل هذا موجودة وهي تضيء وهي تنفع .

أما أنا فأعتبر نفسى سعيدة السعادة كلها حيث قد منّ الله على باختراق هذه السحب السوداء بنور البصيرة فمرفت من أنكره الناس وعثرت بمصباح (دياجونيس) على مالم يعثر عليه (دياجونيس) نفسه ذلك هو الرجل ، وإنى لست بالساذجة ولا بالجاهلة ، فإن قلت إنى عثرت وعرفت فعلى علم ونور وبصيرة . انتهى .

مدام رثيفة كامل

وبهذا تمّ الكلام على القام الثاني من للظهر الأوّل لهذه الآيات .

للظهر الثاني ما جاء عن علماء الأرواح حديثا ييلاد أوروبا

معجزات القرآن في هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقا لهذه الآيات من قوله تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله - إلى قوله تعالى - فذوقوا ما كنتم تكذبون » ولنفضل الكلام في هذا على ثلاث جواهر :

الجوهرة الأولى : ملخص هذه الآيات إجمالاً نبين عليه ما بعده .

الجوهرة الثانية : في مبحث عام في النفس الإنسانية وقواها وملكانها وأخلاقها لأنها هي أسرار جميع الأعمال .

الجوهرة الثالثة : فيما أعلنه بعض الذين خاطبوا الأرواح من علماء السجيين الكبار وحكامهم وأنهم شاهدوا في الجنة قصورا وفي النار ظلمات وسعيرا ، وأن بعض رؤساء الدين السجى من آباء الكنيسة الرومانيين في أسفل جهنم الخ ، وأن الدين الإسلامي قد ظهر له أحسن أثر في الأموات الذين اعتنقوه الخ ، وهذا للقال من أوجب ما في هذا التفسير .

الجوهرة الأولى مجمل هذه الآيات هو :

- (١) أن من قدم النفس والمال لله فهو في الجنة .
  - (٢) أن الذي يقدم حب المال والأهل وغيرها على حب الله فهو في جهنم .
  - (٣) أن النصر يداؤه لأن العالم في قبضته .
  - (٤) معاداة الكفار .
  - (٥) ذم النصارى واليهود الذين جعلوا لله شريكا وانبعوا الأخبار والرهبان الذين يحلون ويحرمون .
  - (٦) الأخبار والرهبان لشركهم على المال وحبهم للرياسة يعذبون في جهنم .
- هذه الأصناف الستة ترجع لأصل واحد وهو أن الثروة على المال أو الرياسة أو حب أمر من الأمور يصد النفس عن حب الله تعالى وهذا يوجب عذاب جهنم ، فهذه الآيات جمعت ما بين مؤمن متناقل عن الجهاد لأجل مسكته أو ماله أو أهله ، وبين رئيس ديني مفرم بالمال والرياسة الخ ، وبهذا تمت الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية : في تحليل النفس الإنسانية ومعرفة قواها وملكانها حتى تعرف على سرها المكنون المخزون الذي به تدرك بعض سر هذه الآيات .

ثم تبقى في الجوهرة الثالثة بمصداقها من العلم الحديث ، اللهم إنك أنت الذي تحيي القلوب وتخرج الحي من الميت ، أنت الذي شرحت صدرى لهذا التفسير وأنعمت على بالتوفيق وأربيتني بدائع الترائب ومشاهد الحوادث حتى يظهر سر كتابك في هذا الزمان الذي التبس فيه الحق بالباطل ، اللهم إنك أنت الذي خلقت نفوسنا وأضأتها بنورك وأودعت فيها جواهر وأبدعت وزوّقت وصوّرت وأحكمت ، فكانت نفوسنا :

- (١) قابلة لمعرفة جميع الوجودات .
- (٢) مشاركة لكل حي في صفات طائفة فهذا تودّ لو شملت جميع الأحياء بالرحمة والإحسان .
- (٣) وحياتها متوقفة على العوامل العلوية والسفلية بوجه عمومي .
- (٤) وهي من جهة أخرى تودّ لو تتلغ كل موجود إطاعة لشهوتها أو تهلك كل حي إطاعة لنفسها وسطوتها ، ويان هذه الأربعة أن تقول :

هلم أيها الذي أحدثك دقائق واعتزل عالم الأجساد ، وادخل مني عالم روحيك ونمسكر فيها أناذا أصف نفسي وهذا الوصف ينطبق على نفسك وقد أمرني الله وأمرك أن تنظر في نفوسنا فقال « وفي أنفسكم

أفلا تبصرون ؟ وهذا فيه توبيخ لنا وإنكار علينا لعدم نظرنا لفوسنا ، مثالا لأمره تعالى أنظر في نفي وأنت تنظر في نفسك فأقول :

قد لي ألس تبحر أنك تحب أن تعرف جسمك ومنزلك وقريتك وأمتك والكرة الأرضية والمجموعة الشمسية وعالم الهجرة الذي يحتوي على نحو (٢٤٠) ألف ألف من النجوم التي هي أكبر من شمسنا وأضوأ جدا ، فمنها ما هو أضوأ منها (١٠٠) مرة ، ومنها ما هو أضوأ ألف مرة ، ومنها ما هو أضوأ ثمانية آلاف مرة وأكثر كما تقدم كثيرا في هذا التفسير .

ثم وراء هذه الهجرة مجرات أخرى قد وصلت إلى ما يزيد على ألف ألف مجرة ، وكل واحدة من هذه فيها شمس كشمس مجرتنا .

اللهم أنت القدوس ، أنت العليم ، أنت الحكيم ، أنت الكريم . فمن كرمك أن أبدعت نفي وأبدعت نفي قاري هذا الكتاب وجعلتها تواترين إلى هذه العجائب التي ذكرتها سابقا في سورة الأنعام ، وسأذكر بعضها في سورة يونس وغيرها ، بل إن هذه النفس تراها تدرك أن هناك مالا نهاية له في الزمان والمكان والموالم ، ولكنها حين تريد أن تتصور ذلك تبهز وتنكش وتتقهقر وتقول لا قدرة لبعيرتي على تصور هذا ، وإذن ترجع القهقري وتقول إن مالا نهاية له يملأ من وجوده لانهية له ، وهو الذي دبر هذا الوجود فمن أنا حق أفق على سر الوجود ؟

لئن هذا يتبين أن نفي ونفسك معا عاشقتان مفرمتان بالاطلاع على كل موجود ، ومعنى هذا أنهما قابلتان لذلك كما قبلتا الطعام والشراب ويظهر لي أن كل ما تميل إليه النفس هو من جبلتها وطبيعتها وإلا فلماذا كان ميلها للطعام سببا لحياتها وميلها لاقتراب الرجل والمرأة سببا لبقاء الولد ، فهكذا فليكن ميلها لمعرفة العوالم وحبا سببا لسعادة كبرى مناسبة لهذا الليل كما سعدت سعادات صغرى بالليل للطعام وللقزوح ، هذا هو ما قصدت من شرح الأمر الأول : وهو قبول النفس لمعرفة جميع الموجودات .

الأمر الثاني : أن الإنسان لمشاركته لأبناء نوعه في عواطفه بحب حياة كل إنسان متى خلى وطبعه . والبرهان على ذلك أنك ترى الإنسان إذا شاهد قطارا دم رجلا وقتله في مصر أو بغداد أو الاستانة أو كل مكان أو باريس أو برلين فإنه في الحال يفرح ويحزح ، وهذا دليل على أنه يفرق بين حالي هذا للقتول ويخضع حال الحياة على حال اللوت .

الأمر الثالث : أن نفي التي تحب معرفة كل شيء وحياة كل إنسان إذا وصلت لليقين تعلم أنها متوقفة على جميع العوالم العلوية والسفلية ، وهذا واضح في ثنايا هذا التفسير أفلا تعجب من هذا ؟ ألا تعجب من أن حبا لمعرفة العوالم وعطفها العام يناسبان احتياجا العام .

اللهم إن نفي لا تعيش في هذه الدنيا إلا بحجم تحفظه قرية تحميها دولة يحيط بها هواة وأضواء مشرقا من العوالم العلوية والأمم جميعها والدول مشتركات في الأمور العامة كالأسلاك البرقية (التلغراف) وكالدمرة (التليفون) وكالقطرات في البر والسم في البحر وهكذا .

فالأم على هذه الأرض كلها متعاونات وإن كثر متعديات وهذا هو العجب : حب عام واحتياج عام واشتراك عام ، وإن كان هذا الاشتراك سوريا والقلوب مغلقة على الطمع والشره والمداوة والبغضاء لنقص أهل الأرض أجمعين إلا قليلا منهم « قليل من عبادي الشكور » .

الأمر الرابع : أنها مع هذا الحب وهذا الترام بالعلم والاشتراك العام كنت فيها قوتان : إحداهما جاذبة والأخرى دافعة .

أما القوّة الجاذبة فهي الشهوات التي أعدت لبقاء الحياة في الدنيا ، فهذه الشهوات تراها قوّة هائلة ، فكما رأينا حقولنا تودّ معرفة كل كوكب وكل شمس وكل أرض كما هو معروف من أخبار علماء أهل أوروبا الذين يودّون أن يسافروا للقمر أو يخاطبوا أهل المريخ ونحن نتشوّق لذلك شوقاً كبيراً ، هكذا تراها إذا ملكنا لاتف عند حدّ ، فنحن تكفينا الأطعمة الحاضرة ولللبس الساترة ، لكن هذه النفس تدفع في شهواتها كأنها تدفعها في علوصها ، يودّ الإنسان لو يملك قرية أو أمة أو أهل الأرض جميعاً ، والدليل على ذلك ما نعرفه عن نابليون ومختصر وغلبيوم وأمباطور الألمان وغيرهم .

وهكذا كل أحد منا يعرف في نفسه أنها لاتقف عند حد في أمر الملك وحوز النعم الأرضية ، وإذا عارض أحد من الناس هذه القوّة فينا غضبنا عليه وكرهنا حياته ونسينا أن كل حيّ على الأرض رحمة لنا ؛ فالأمم وأفراد الأمم يساعد بعضهم بعضاً ، فكل عنده من العلم والسلع ما ليس عند الآخر فكل لكل مكل ومركّ ولكن الناس لنفس أكثر نفوس أهل هذه الأرض بعضهم لبعض عدوّ ، وهذه هي القوّة الدافعة ، فنحن أهل الأرض بين قوتين : قوّة جالبة لما به الحياة ، وقوّة دافعة لما يضرّها . وهاتان القوتان هما اللتان تظهران في الجاذبية العاتية ؛ فالشمس مثلاً تجذب الأرض ولكنها تدفعها عنها إلى بعد مخصوص بالقوّة الطاردة ، فالأرض كما شفقت للشمس لأنها مجذوبة إليها ولكنها مطرودة عنها إلى بعد مخصوص ، هذه هي القوى الأرضية التي في نفوسنا فهي محبة لكل علم متوقفة على كل العوالم ( وهذا لا يعرفه إلا من درس جميع علوم الكائنات أو قرأ أكثر هذا التفسير ) .

تريد أن تعرف كل شيء ، وتملك كل شيء ، ونحسّن لكل حيّ ، ولكن يعارض هذا شهواتها وأضغاثها - وإن كانت في حاجة لأبناء نوعها - إن رغبة العلم العام والمهبة العاتية طبيعتان أصليتان في النفس ، أما كونها تودّ البطش بأبناء نوعها وتودّ هلاكهم فهذا عارض من حيث حاجتها إلى سد شهواتها ، ونتيجة هذه الجوهرية الثانية أن الإنسان لاتصلح حياته إلا على مقتضى أصول فطرته ، وأصول فطرته أهمها العلم والحبّ والتعاون . إذن حياة الفرد في أمة يتوقف كالمال على حياة الأمة وكل ما توقفت عليه حياتنا أحياناً وهكذا في الأمم على هذه الأرض .

اللهم إن كمال الأفراد في حب بعضهم من أمتهم ، وكال الأمم في حب بعضهم بعضاً ، ولقد حصل هذا فضلاً في أرضنا ولكن حصوله ناقص ، فإننا نرى أهل للنزّل يتشاركون وهم كثيراً ما يتعادون ، ورى أهل القرية يتشاركون في أمورهم العاتية وهم يتشاجرون ، ورى الأمم تتعاون في التجارة والبريد والقطرات وهم جميعاً متعادون . الله أكبر ظهر الحق واستبان السيل وظهر جمالك في العالم الذي عشنا فيه .

اللهم إنك قد أبدعت هذا الوجود وأرجسته لظننا ، أنت عشقتنا في المعرفة وجعلت حياتنا موقوفة على أبناء نوعنا فتشاركوا وتعاونوا ولكن هذا التشارك وهذه المعاونة ظاهريان لاباطنيان . اللهم إن فطرنا صادقة لصدقها تحزن أو تألم في هذه الحياة وهي لاتدرى ما سبب هذا الألم ولا تعلم أن سببه أن هذا العالم ناقص لا يطابق فطرتها تمام للطائفة بل للطائفة لفطرتها لفظية ظاهرية ، ولذلك حكمت بموتنا لندخل في عالم آخر تتوافر فيه معدات الحياة الحقّة فيكون التعاون بالقلب والقالب وتصبح النفوس متجاذبة تجاذباً صادقاً لا عوج فيه ولا خداع .

إن حياة الأرواح في أجسامها يجب أن يكون بالحب العام الخالص كما أحببت الشمس الأرض ، والأرض القمر والفاض الأعلى على الأدنى بلا منّ ولا أذى كما يفيض الأبوان على الولد ، وهذه الصفة مفقودة في أرضنا التي حياة الأمم وحياة الأفراد فيها مصحوبة بالخداع .

اللهم إنك سترت في الدنيا بواطننا رحمة منك ، أنت أردت أن تكون ظواهرنا متشاكله متوادة متجاذبة ، وقد أقفلت على قلوبنا أفتالك حتى لا تظهر ، ولو ظهرت لكان التنافر ولم تتم الحياة .

وهذا النقص يتبعه عالم أكل من عالمنا هذا تكون البواطن فيه ظاهرة واضحة وهو عالم الأرواح لأن الليل يقبه النهار ، حياتنا ليل مظلم لا تظهر فيه البواطن ، أما حياة الأرواح فهي نهار مضي تظهر فيه الأشكال . وههنا يظهر معنى هذه الآيات التي نحن صدد الكلام عليها ، فإذا رأينا الإنسان يقدم نفسه وماه في للنفقة العامة بإخلاس فهذا مطابق لفطرتنا الأصلية ، وإذا رأينا الأجار والرهبان يزجون في جهنم لأنهم يجمعون أموال الناس لأنفسهم ، فعنى هذا أنهم سخرؤا المجموع لأنفسهم ؛ فحببتهم إذن لأنفسهم للمجموع وهننا مناقض لفطرتنا ، هذا هو الذى أردت تبيانه بطريق عقلى نفسى .

#### الجوهرة الثالثة

[ معجزات القرآن التي ظهرت مطابقة لما تقدم عند بعض علماء النصارى الذين حدثوا الأرواح ]

بين يدي الآن كتاب مؤلفه عالم مسيحي ( عمانوئيل سودنبرج ) عاش في القرن الثامن عشر وقد ولد في مدينة ( استوكهلم ) وأبوه كان ( أسقفا ) على وستروغوثيا له شهرة طويلة في حياته وكان عضوا في الجمعية الإنجليزية لنشر تعاليم الإنجيل وأقامه الملك كارلس الثالث عشر أسقفا على الكنائس الاسوجيه في ( بنسلفانيا ولندن ) أما عمانوئيل سودنبرج الذى نحن صدد الكلام عليه فإنه زار انكلترا سنة ١٧١٠ وهولندا وفرنسا وألمانيا وعاد إلى وطنه سنة ١٧١٤ وجعله الملك كارلس الثالث عشر في رتبة مقدر في مدرسة للمعادن وبقي في هذه الوظيفة إلى سنة ١٧٤٧ وقال إنه استقال منها لأنه دعاه داع الهى لنشر الحقيقة العلمية في العالم ، فرض عليه الملك رتبة أعلى فرضها خرفا من أنه يقيه غرورا وتكبيرا وتعاطفا ، ثم أصمت للملكة عليه بترقيته إلى منزلة الأشراف ولقب بلقب ( سودنبرج ) جلس في مجلس الأشراف وحضر الجلسات الثلاث التي تعقد كل سنة وصار عضوا في الجمعية العلمية في ( استوكهلم ) ولكنه يقول هذه الجمعية مبحثها لايناسبه لأنها تتعلق بهذا العالم المادى ولذلك لم يبحث معهم وإن كان عضوا منهم بالاسم ، وقد تناول الطعام على سفرة للملك ولللكة ( وهو شرف لايناله غير أشراف للملكة ) وقد قال إن هذه النعم ليست شيئا مذكورا بالنسبة لما دعانى إليه الله وألمنى أن أحدث الناس بالحقائق التي شاهدها في عالم الأرواح لإظهار الحق للمسيحيين ليعرفوا الحقيقة ، وقال إنى تنقلت في البلاد لهذه الناية وإبراز هذا العلم للناس لخلاصهم وخلصهم .

هذا ملخص ما ذكره المؤلف في خطابه لأحد أصحابه سنة ١٧٧٩ وقال إن نشيخ الناس على وتسيهم بى واستهزاءهم لايمنى مادمت قائما بالحق ، ولما قال له أحد أصحابه إنى أصحك أن تنزل تلك الكتابات التي كتبتها عما ترى وتسمع في عالم الأرواح فإنها تعرضك لسهام ذوى الجهالة وقد أصبحت هزؤا وسخرية ، قال قد بلغت من العمر إلى درجة لايجسر فيها على الهزؤ بالأمور الروحية وإن منتهى جهدى السى وراء خلاصى غير ملتفت إلى مايرى الناس في ، ثم قال أقسم بخلاص نفسى أن ما كتبت لم يكن مصدره التخليج بل حقيقة ما سمعت وما رأيت ، وقد مات سنة ١٧٧٢ ودفن في لندن جد ما أصيب بالقالج وقد قابله قيل موته كاهن يسمى ( أرفيدفرليوس ) وقال له لقد نلت مرادك من الشهرة والناس يزعمون أنك بهذه التعاليم أردت الشهرة ، فإذا كان زعمهم صادقا فمن الواجب عليك في هذه الحال حيا في المدل والصدق أن تكذب كل ما كتبت أو بعضه مادام لم يبق لك مأرب في عالم عما قريب تخافه ، فلما سمع ذلك منه انتصب في فراشه

جهد طاقته ورفع يده الصحيحة إلى صدره وقال بلهفة ( إن صدق ما كتبت حقيقى كحقيقة رؤيتك إياى أمام عينك ، ولو سمع لى لسكتت كل ما رأيت وقلت أكثر مما فعلت حتى الآن ، وسترى كل شىء بينك يوم تدخل العالم الأبدى حيث أجمع بك للكلام فى أمور كثيرة ) انتهى ملخصا .  
ماذا يحدثنا عما نؤمل الذى ذكرنا ملخص تاريخه

يحدثنا (١) يقول فى صفحة (١٧٩) ماضى فى الترجمة: إن الأفريقيين من بين جميع الأمم هم المحبوبون أكثر من الجميع فى السماء ( أى الجنة ) لأنهم يقبلون خبرات وحقائق السماء بأوفر سهولة من الآخرين وهم يرغبون خصوصا أن يدعوا مطيعين .

ويقول فى صفحة (١٨٠) إنه رأى عباد الأصنام من الأمم بعد الطوفان وشاهد أرواحهم فرآها فى مكان مظلم وفى حال تمسة وقد حرموا من الفكر وقالوا له إنهم أقاموا فى ذلك المكان قرونا كثيرة وإنهم يخرجون منها بعض الأحيان ليقوموا بحاجات دنيئة للآخرين . قال فى هذا حملت على التفكير فى كثير من للسبيين الذين ليسوا فى الخارج عبدة أوثان ولكنهم فى الداخل كذلك إذ يبدون ذواتهم والعالم وبرضون الله . قال وأخذت أتفكر فى نوع النصب الذى ينتظرهم فى الحياة الأخرى ، وقال فى موضع آخر إن للسبيين يبشون عيشة شريرة ولهم ولوع بالزنا والبغض والحصام والسكر وذنوب متشابهة تأبأها الأم الوثنية .

(٢) وهو يقول أيضا : إنه حدث الأرواح فقالت له ( إننا فى السماء لا نقول إن الله ثلاثة وإنما نحن نعلم ونبصر أن الله واحد ) ويقول إنهم قالوا له إن الذين يعتقدون بألهة ثلاثة لا يمكن إدخالهم إلى الجنة لأن أفكارهم يحصل لها تغير فلا تدرى أين الثانى والثالث ، وللدار فى عالم الأرواح على الفكر ، فالفكر إذا تصور ثلاثة آلهة ، قول اللسان إنه واحد نفاق لا يفيد بل يظهر الباطن ويكون وبالاً على صاحبه وذلك فى صفحة (٣) من الكتاب للذكور .

(٣) ويقول فى صفحة (٨١) يعتقد البعض أن الأطفال الذين ولدوا تبع الكنيسة بسبب أنهم متعدون بماه للممودية يدخلون فى الإيمان ، وأما الذين ليسوا تبع الكنيسة ولم يتلمهم ماء للممودية لا يدخلون فى الإيمان قال وهذا باطل لأن للممودية تذكور ، ثم قال فليعلموا أن كل طفل فى أى مكان ولد من والدين تقيين أو من والدين غير تقيين متى مات يقبله الله ويعلم فى السماء ( أى الجنة ) وهنا أخذ يشرح الداية بالأطفال شرحا مستفيضا على ما يقول إنه رأى كذلك .

(٤) ويقول فى صفحة (٩٢) رأيت فسورا سماوية ذات إتيقان لا يمكن وصفه أشرفت من فوق كالذهب النقى ومن تحت كالحجارة الكريمة يزيد بعضها عن البعض رونقا ، والغرف مزدانة بزينة يستحيل أن يصفها الكلام وفى بعض الأماكن ترى الأوراق كالفضة والثمار كالذهب والأزهار فى ألوانها أظهرت قوس قزح . ويقول: إن الأرواح قالت له إن هناك أشياء كهذه لا تحصى وهى أعظم كالأى يمرضها الله أمامهم ، ومع ذلك هم يبهجون عقولهم أكثر مما يبهجون أعينهم ، وذلك لأنهم يرون مطابقة فى كل شىء إلى ، ويقول إن هذه الظاهر تطابق بواطنهم فإنها لظهارتها ظهرت لهم المحسوسات وتعموا بها كما تنعم بواطنهم بالسمالك .

(٥) ويقول فى صفحة (٦٦) إن داخلات الإنسان تعرف بالنظر لوجهه بحيث لا يخفى منها شىء ، فأهل الجنة يحبون أن يظهروا لأن بواطنهم جميلة ، أما القجار من أهل النار فإن أحدهم يظهر للآخر كما يرى الناس بعضهم بعضا ، أما أهل الجنة ولللاصكة فإنهم يرونهم كالوحوش فى وجوه وأشكال مخفية فى نفس شكل شرهم الدانى ، فكل إنسان يظهر شكله على هيئة باطنه ، فإتيا جميل على قدر خيره وإتيا قبيح على قدر شره .  
ويصف فى صفحة ٣٧٥ و٣٧٦ جهنم يقول :



إن مداخل جهنم تكون تحت الجبال والتلال والصخور وجميعها تظهر مظلمة ومغبرة ، ولها نوع من النور كالفحم المشتعل ، وإن الذين عاشوا في الدنيا في البغض والانتقام من الدين لم يتبرؤوا ولم يقسوموا ولم يبدوهم ، فهؤلاء يوضعون في أقصى جهنم ومن هؤلاء طائفة ( الكاثوليكية الرومانية ) وكذلك الذين جعلوا أنفسهم آلهة تعبد فهؤلاء اضطرموا بنار البغض والحقد ضد كل من لم يحترف بقدرتهم على قوس العالم ولا يزالون في جهنم يملون الأمانى التي عاشوا بها على الأرض ، قلوبهم مملأى غيظا وحقا وصفنا على من لا يوافقونهم في زعمهم فأصبحوا في جهنم ، وقلوب كل منهم متجهة نحو ذوى صيته .

وقال في صفحة (٣٧٧) في بعض جهات جهنم ترى خرابات ومنازل ومدن بمد شبوب نيران ، وفيها تسكن الأرواح الجهنمية في خفية ، وفي النواحي المعتدلة من جهنم ترى أكواخ سيئة البناء بيئة مدينة بالأزقة والشوارع وفي داخل هذه البيوت الأرواح الجهنمية دائما في مشاجرة وعداوة ومضاربة وقتال ، وفي الشوارع والأزقة لا ترى إلا التيب والسلب .

وقال إن أبواب جهنم حين تفتح لمخول أرواح شريرة جديدة يخرج منها بخار يكون إما مثل بخار النار مع الدخان كما يظهر في الهواء من أبنية محترقة أو مثل لمب بدون دخان أو نظير سخام كالذى يخرج من اللدخن للشعلة أو نظير ضباب أو سحب كثيف ، قال وهذه الأشياء مناسبة لأخلاقهم ولكنها تظهر بهذا الشكل لتبرم ، أما هم فلا يمكنهم أن يعيشوا خارجها .

وصرح في صفحة (٣٥٩) أن بعض الناس إذا سمع في جهنم ذكر الله ازداد غيظه جدا حتى التهب راغبا تنه وهو لو أطلق العنان لنفسه لأحب أن يكون إبليس حتى يزعم أنه يلحق الأذى بالله تعالى كما يجناه بعض أصحاب الديانة الباطنية عندما يدركون في الحياة الأخرى أن الرب كل القوة وليس لهم شئ منها على الإطلاق .

(٦) ويقول في صفحة (٥٨) إن الله يرى في السماء ( الجنة ) كالشمس ويرى لكل أحد بمقدار ما يقبه تعالى ومن رأوه لإفاضتهم الخير على الناس ظهر لهم كالشمس لما عندهم من الحبة والخير للناس ، أما الذين يرونه لأجل الإيمان فإنهم يرونه كالقمر .

(٧) ويقول أيضا إن نصيب الأغنياء والفقراء في الآخرة تابع لسراهم ، فكمن غنى كان محسنا طاهر القلب فرأته سكن القصور الجميلة ، وكمن فقير كان ساخطا على الزمان غير راض بالقدر فهذا يجذب عذابا شديدا انتهى ، فأعجب من معجزات القرآن .

أليست هذه للسائل التي لحصتها لك من كتابه هي عين تفسير هذه الآيات ، بل هي من آيات الله وهي بعض آيات ربك التي أظهرها للناس ؟

فيا ليت شعري أليست الجنة والنار اللتين ذكرهما هما المذكورتان في القرآن بالنسبة لأفليس الرجل أنكر التلث ؟

أوليس كلامه في أهل أفريقيا وأنهم يسبقون الناس إلى الجنة وأن الأمم الوثنية من نفس تلك البلاد قديما معذبون في جهنم ؟

أقول : أليس هذا معجزة للقرآن في هذا العصر لأن أهل أفريقيا مسلمون وأسلافهم جاد أسنام . وانظر كيف صرح بما نصت عليه الآية وهو أن رؤساء دينهم لحبهم لإجلال الناس إياهم في أسفل جهنم كنس هذه الآية .

أوليس قوله : إن أطفال جميع الأمم يدخلون الجنة موافقا للأحاديث والآراء أجل علماء الإسلام ؟

أوليس تفضيله للنبي الشاكر هو عين ما أوضحه الإمام الغزالي في الإحياء أن النبي الشاكر أفضل من الفقير الصابر .

#### نتيجة هذا اللقاء

ألمت ترى بعد هذا أن ما نقلناه من هذا الكتاب إنما هو بيان لسرّ هذه الآيات ، إذ ذكر أن التثليث يعذب عليه للسيحيون ، وأن عظمة رجال الكنيسة تطرحهم في أسفل سافلين الخ . هذا هو سرّ هذه الآيات ولا سيما قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » انتهى ليلة الاثنين ١٦ مايو سنة ١٩٢٧ .

هذا ، ومن أعجب العجب أن يقع هذا الكتاب في بدى وهذه السورة مقدمة للطبعة وأخرطبها لأسباب عارضة حتى تمكنت من تلخيص ما تقدم ، والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات اه .

#### إيضاح

بعد أن كتبت ما تقدم بأسبوع اطلع عليه أحد أهل الفضل من الإخوان فقال : أهبنا القول تثق ؟ وهل مثل هذه الأقوال التي لاحظ لها من التحقيق بغير القرآن ؟ القرآن وحى وهذا الرجل يدعى أنه خاطب الأرواح .

فهل النائمة كالشكلي ؟ فأين التريا وأين الترى ؟ وأين معاوية من على أو كلما نطق ناعق أثبت قوله في تفسير كلام الله ؟ فقلت أنا لم أقل إنني موقن أنه حادث الأرواح ، كلا . قال ولم إذن قلت كلامه ؟ فقلت نقلته لثلاثة أمور :

الأمر الأول : أنني وجدت هذه الآراء في لغواها وفي مقصودها تشبه كلام الأرواح كما في كتابي للسمي [ كتاب الأرواح ] فإن تلك العوالم لما خاطبها القوم في أوروبا كان ذلك أشبه بما جاء في هذا الكتاب ، فإذا كان هذا العالم من رجال القرن الثامن عشر موافق لمن جاءوا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين فهو جدير بالبحث والتحري .

الأمر الثاني : أن هذه الآراء كما تقدم أيضا قد ذكرها خواص علماء الإسلام في أسرار الدين الإسلامي وينحو نحوها الإمام الغزالي وحجي الدين بن عربي وكتاب [ إخوان الصفاء ] ونحوهم .

الأمر الثالث : أنني أنا نظرت في هذه الدنيا بعقل فوجدتها كما تقدم قد لازمتها الوحدة جملة وتفصيلا ولازمها الاتحاد .

فالشمس والسيارات والتوابع كالأرض والقمر وهكذا بقية الشمس كلهن متعاضبات متعاضبات وكل هذه وما معها في الهجرة وهكذا المبررات الأخرى ، هذه تراها في نفوسنا طالما واحدا ، فهي في نفوسنا واحدة والأهل منها بمدّ الأسفل ، فالشمس تمدّ الأرض وباقي السيارات بالضوء وهن مجذوبات لها كما تقدم .

ثم إنني وجدت هذا النوع الإنساني جعلت هيئته كهيئة هذه العوالم : أي إن وضعه في الوجود هو والحيوانات كلها كوضع اشتقاق هذه العوالم ، فإذا رأينا الأرض ( كما هو الرأي العام في العالم الآن ) مشتقة من الشمس دائرة حولها ملازمة لها والقمر مشتق من الأرض ملازم لها دأب حولها .

هكذا نرى الناس جميعا قسمين : أبوين وابنا وبننا والأولان يعطفان على الأخيرين ، والأخيران مشتقان من الأولين تابغان لهما ، ثم نراهم من جهة أخرى قسمين : قسم هم ذكور وقسم هم إناث وهما متماشقان متعاضبان ، ونرى طالما وحكيما ونبيا يملون تلاميذ وأمتا ، وهذه أيضا ولادة أخرى معنوية ، يسجني هذا النظام ، يراد به التعارف والمحبة بحسب أصله وهو قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وهذا هو الأصل الذي بنيت عليه كتابي [ ابن الإنسان ] الذي سأذكر ملخصه الذي استخلصه منه الأستاذ (ستلانة) التلياني في (مجلة العلوم الشرقية) في سورة الحجرات عند تفسير الآية للتقدمة فيها هناك .

فإذن العالم الإنساني خلق أولا وبالذات للتعارف واللحبة كما خلقت هذه العوالم للتجاذب والاتحاد ، فإذا لم يوفق الإنسان لذلك في هذه الحياة لما أحرأ أن يتسكأ في سيرة ، ويوضع (الدين لم يصلوا إلى هذه النتيجة) في عوالم منحطة ليدركوا بعد حين أنهم في ضلال مبين ويملأوا أنهم في السجن الجهنمي بنبأوتهم كما قال تعالى «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنهم فسحقا لأصحاب السعير» وهذا الأصل هو الذي يبني عليه جميع هذه الآيات ، فمن فضل ماله أو أهله على المجموع ، ومن أخذ المال وكان رئيسا دينيا وهو عليه حريم قد أخطأ للرعى وغش المجموع فصار نجسا يحبس في مكان محزن هو جهنم .

فهذا هو رأيي في هذه الدنيا فذلك نقلت كلام الرجل لملايمته لذلك أشد اللامة ، فإذا لم يكن ما فهمته حقا فلماذا لم يخلق الإنسان بصفة أخرى ؟ ولماذا لم يخلق كالنبت يعيش ويموت ولا نصب ولا تمب ولا ألم ، وكان في الإمكان أن يخلق الناس كما يخلق الشجر إلى حين ثم يموتون ، الشجر لا يحتاج بهه إلى جض كثيرا ولكن هم في أشد الحاجة بعضهم لبعض ، لئلا يكون ذلك إلا لأجل ما ذكرناه وبيناه وفتح الله به . اللهم إن الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لا يحقون ولا يدرسون هذا الوجود ، لذلك أنزلت عليهم الديانات وخلق الحكومات ليتفظنوا .

هذا هو سرّ ذمّ الله للأخبار والرهبان الذين يحرسون على المال ويستبدون الناس مع أن هؤلاء العلماء إنما نصبوا لخدمة المجموع ، هكذا علماء الإسلام إن لم يكونوا رحمة للسلين فهم ملحقون بالأخبار والرهبان لحرسهم على الدرهم والدينار .

هذا هو الذي أفهمه في هذه الدنيا التي هي أكبر مدرسة لنا معاشر بني آدم ، فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذا بيان يصلح أن يكون أسأ تبني عليه الحكمة والفلسفة والحياة ، فقلت : ونحن إذا فسرنا كتاب الله فهو أولى بالأسول الثابتة والعلوم الحقّة ، وإن لهذه الآراء شأن في الأمم بعد مفادرتا هذه الدنيا ، ويشير لما قلته الآن قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقوله « وقد يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدق والآصال » استوى الله إلى السماء ودعا السموات والأرض فأتتا طائعتين .

ولما سجد له من في السموات والأرض اتسموا فريقين : فريق سجد طائعا وآخر مكرها ، وهذا يشهد لما ذكرته لك الآن ، تجاذبت العوالم كلها ، نظمت بحساب ، جرت الشمس حول كوكب مجهول لنا وجرت الأرض حول الشمس وجرى القمر حول الأرض وجرت السيارات كذلك ، وهكذا تواجها جميع الكواكب كلها جرت جريا منظما لم يجد فيه العطاء خطأ ، وهذا فيه معنى الحب ويسمى الجاذبية :

● إن الحب لمن يحب مطيع ● أما بنو آدم فليسوا جميعا راضين محبين بل سيأون إلى ربهم قوم طائعون محبون ، وقوم عاصون مجرمون ، والطاعة هنا ترجع إلى الحب والشوق والفرام ، فمن أدرك جمال هذا العالم أحبّ صانته فرضى بما يجربه عليه لعله أنه لحكمة ، ومن عاش غافلا ساهيا لاهيا لا يجب الله ولا يرضى عن فعله ويمترض في قلبه عليه ويأتيه كارها لاهيا ، ولن يكمل هذا النوع الإنساني إلا إذا كانت الأرواح متجاذبة كتجاذب وتحاب الكواكب والشموس والأقمار .

فإذا ذم الله الأخبار والرهبان لأكلهم أموال الناس بالباطل فذلك لأنهم لم يوفقوا للنظام الأنتم ، نظام  
الجمال والكمال بأن يدعوا للناس آباء لأن يكونوا غافلين يحملون الدين وسيلة للخير ولللبس فكسوا الآية  
وطمسوا الحقيقة فرجعت محبتهم لأنفسهم لا للناس وطاش سهمهم فلم ينظروا إلى الشمس والقمر والكواكب  
إذ يفيض النور بلا أجر ولا إلى الآباء والأهتات إذ يفيضون النعم وأنواع البر على الأبناء بلا أجر ، هكذا الله  
يفيض الخير على الناس بلا أجر .

ضرب الله الأمثال للناس بالكواكب والآباء وبالأنبياء فظل الناس تائبين غافلين حيارى سكارى  
في شهواتهم ، وزهد الأخبار والرهبان في الجمال العام وعكفوا على الشهوات البهيمية وتبعهم في ذلك بعض رجال  
الصوفية في الأمم الإسلامية فقد رأيتهم يجوبون بلادنا المصرية ويطوفون على القرى والكفور ويتظاهرون  
بالصلاح والتقوى ويأخذون أموال الناس بالباطل وما هم بجاه ولا بوعاظ ولكن ساروا شوطا وراء الدرهم  
والدينار كما سار الدين من قبلهم من الأخبار والرهبان الذين أطلق الله أوروبا من قبضتهم بسبب اطلاع القوم  
على دين الإسلام كما قدمناه عن السيدة الأروية التي أسلمت ، فهم أطلقوا من وثاق رجال الدين بسبب ديننا؟  
والسلمون في بلاد الغرب من طرابلس ونونس والجزائر ومرآكش وفي مصر والشام والمراق وبلاد الهند  
وجاوه قد وقفوا في شبكة هؤلاء الصيادين ممن اتسوا بسبب الصوفية ظاهرا وهم عنها غافلون ، لا لا يمشر  
السلين كلاً كلاً والله إنما رجال الدين هم الذين يسرون على سنن أبي بكر وخلفائه من بعده ، هم الذين  
يقفون آثار الأنبياء ويكون مقصدم للثل الأعلى كما أوضحه أفلاطون في جمهوريته إذ نقل عن أستاذه سقراط  
أن الدين يقومون بحكم الجمهور يجب أن يكونوا أعلم الناس وأذكاهم وأتقاهم وأزهدهم في حطام هذه الدنيا  
وأقربهم من الله زاني ، وقال إن علمهم هو الذي يجعلهم أعماء عما في أيدي الناس فهم وإن كان لهم السلطان  
على الناس ممنوعون بورعهم وأدبهم عن مجاوزة الكفاف من للأكل واللباس ، وهذه بيننا سيرة أبي بكر  
وعمر وهان وعلي .

إن الناس بعد الموت تجتمع أرواح الأخيار منهم في عالم واحد ، وأرواح الأشرار في عالم آخر ، وكما أن  
الشمس تزداد إشراقا بزيادة حجمها هكذا الأرواح الفاضلة تلتهم النمام ذرات الشمس وتتعده وتزداد سعادة  
بزيادة الواصلين إليها من عالمنا ، وهكذا يزداد المهيمون عذابا بوصول الفجار إليهم إذ يشعرون بالآلام تزداد  
بزيادة من يصلون إليهم من الأتقياء كما يزداد الفجار عذابا في الدنيا بشكائهم وازياد فتنهم وشروعهم .  
لإسعاد لهذا الإنسان ولا راحة إلا بالمعطف العام فلا مدينة براقية مادام أهل الأرض لا يتحدون على  
منافعها العامة كما أوضحناه في كتاب [ أين الإنسان ] ولا سعادة في الآخرة إلا لنفوس صار باطنها جمالا وكلا  
وجبا للعلم وللإنسانية وخيرها ، والله هو الولي الحميد .

فما سمع ذلك صاحبي قال لي : يتبين من كل ما ذكرته هنا أن أهل كل دين في الأرض طفوا وبنوا ،  
فهذه أم النصرانية قد طفت في المال وقد قال لها المسيح مانصه : [ لا تكثروا لكم كنوزا على الأرض ]  
وذلك في إنجيل متى (٦) ولما أرسل رسله أمرهم ألا يحملوا عصا ولا حذاء ولا يأخذوا مالا لأنهم مجاناً  
أخذوا فليعطوا مجاناً ، وهكذا جاء في القرآن وقل ما أسألكم عليه من أجره ومع ذلك ترى الأمم الإسلامية  
تسارع في خطاها إلى اقتفاء آثار المسيحيين لاسيما بعض الشيوخ من رجال الصوفية الذين أشبهوا القسيسين  
في أخذ أموال الناس بالباطل ، فأجبت قائلاً : نعم لقد صدقت إن أهل كل دين في الأرض طفوا وبنوا  
وسأحدثتكم عن سبب ذلك .

اعلم أن كل دين في الأرض ينزل على أهله سابقا تها لانشوبه شائبة ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر أظهر السر واستنارت  
السبل في هذا التفسير وسيكون في الشرق رجال يمتازون بقولهم وبحكمهم وبنالهم ، أنظر أنظر تجد أن

كل دين ينزل إلى الأرض يضيء ، كما تضيء الشمس والكواكب ويضيء كما يضيء الماء ، انظر في دين الصينيين القدماء تجده في صدقه وحسنه وجماله وجلاله يشبه الإنجيل ويشبه القرآن في حسن جماله وصدقته .

لقد كان أقدم نبي عند الصينيين يسمى ( يوالكبير ) ظهر قبل المسيح بألفي سنة ، ثم جاء بعده بقرون الفيلسوف ( ليونسو ) وهذا قبل الميلاد بمدة ٥٩٠ سنة وهو القائل : [ أسعف الناس في حاجاتهم أفتد من كان موجودا في خطر ] هذا الفيلسوف عدوه لها متجسدا كما اعتقد النصارى في المسيح .

وكان ( ليونسو ) معاصرا ( لقبثاغورس ) وسنة ٥٥٠ قبل التاريخ المسيحي ظهر ( كوفيسوس ) وم أعظم فلاسفة الصين ، وعاش ٧٣ سنة وتخلى من الرذيلة وتخلى بالفضيلة مثل ( بوذا ) وكان يقول لتلاميذه : [ إن الهبة النقية التي أوصيكم بها هي انتطاف ثابت في النفس وميل يوافق عليه الصواب يجرّ دنا من الأغراض الدانية ويضمنا إلى الناس بأسرهم فنخالهم جسما واحدا معنا فنفرح لفرحهم ونحزن لحزنهم ولا مانع يمنع من ملكته هذه الهبة أن يسي في ترقية الداني وطلب للعالي ، إنما تكون غايته في ذلك بذل النصح والمساعدة لإيهاض من دارت عليه رهي الزمان وكان ضعفه وحمله حائلا دون نهضته ، وإن من اطلع على حقائق الأشياء لا يتحمل أن يبقى غيره متسكنا في ظلام الجهل والحيرة منكسرين لمصاعب الحياة وهموما بل ينجدم ويهدم ويهدم سبيل الخروج من ظلمات الجهل ويدخلهم مقدس العلوم ، ومق ملكت هذه الهبة القلوب جميعا يصبح العالم بأسره أسرة واحدة والناس أجمعون كإنسان واحد ، وبهذا الرابط العظيم السائد بين العظماء والصفاء تصبح الإنسانية كلها جسما واحدا ] .

هذا هو كلام نبي الصينيين قبل المسيح وقبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك نجد الأئمة الصينية لها جمعيات من كل طبقة وبينهم جميعا تلك الروابط التي أشار لها دينهم ، فهذا القول وما يشابهه من الإنجيل والقرآن يدلنا أن الديانات تنزل من السماء متشابهة .

ولكن هناك سرا محبوا براه الناس جيونهم ولكنهم لا يفهمونه ، ذلك السر هو السبب في طغيان النصارى وجهل للسنيين .

ويانه أن الله أنزل النور وأنزل للناس في الأرض قبل الأنبياء وقبل خلق الإنسان ، فهذا النور يختلط بالبيات فيكون مساعدا للتفاح والتمر واللعب على حلاوتها ويكون مساعدا للحنظل على مرارته ، ومساعدا للسنا للسكى على شفاؤه لبعض الأمراض ، ومساعدا للواد السامة النابتة في الأرض على حصد الأرواح ، الضوء ينزل من السماء بهجة وجمالا ولكن المخلوقات الأرضية حينما تلتقطه وتشتعل عليه وتضمه لأنفسها تحوله إلى طباعها وأحوالها ، هكذا الماء ينزل من السماء فإذا يكون ؟ نراه يسلك ينابيع في الأرض فيكون على حسب الأسفح التي يمر بها هناك ، فيكون ماء كبريتيا وماء جبريا وماء ملحيا ، وهكذا من أنواع المياه التي لا تصلح للشرب وإنما تصلح للأدرية ونحوها .

[ بناء عليه ] نقول : إن الأمور الطييفة إذا اجتمعت بالكثيفة حوّلت إلى طباعها .

هكذا الديانات لما نزلت من السماء نزلت صافية ، ولكن عقول أهل الأرض حوّلت تلك الديانات إلى طباعها وقلبتا إلى أهوائها ، فهناك الديانة المسيحية التي أحسن خواصها الهبة العاتية كيف صار رجال دينها كما تقدمم أسرع الناس إلى قتل آلاف الآلاف لأيّ ذنب صغير أو كبير .

وهذا دين الإسلام ، انظر كيف نبغ أوائل رجاله في الزهد والورع كما قرأته هاهنا قريبا عن أبي بكر وعمر ، ثم جاء بعد الصدر الأول قوم لا يريدون إلا الدرهم والدينار والفخر والرياسة وأخذ أموال الناس بالباطل .

اللهم إن أكثر أهل الأرض يقعون أهواءهم كما قال تعالى « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

اللهم إنك أنزلت آية الأحبار والرهبان وأكلهم أموال الناس بالباطل في سورة التوبة النازلة أيام ظهور الإسلام وغلته وارتقائه لتمهد السبيل للقائمين بالأمر ، ألا يجعلوا الرياسة سبيلا للمال ؟ بل يكونون للأمم آباء ؟ ولكن أمم الإسلام للتأخرة نامت نوما عميقا .

اللهم إنى ألفت هذا التفسير وإنى أأمل أن يكون سببا في ظهور جيل جديد يصلح لتلقي تعاليم القرآن التي قام بها أقطاب الصدر الأول من الصحابة رضوان الله عليهم ولا يكونون كرجال النصارى للذكورين في هذا المقام وأن يقطعوا دابر الرجال الذين يأخذون المال من المسلمين مثل ما يأخذه رجال الدين للسيحى ، وإنى أأمل أن يكون هذا التفسير ممهدا لمزرعة إسلامية صالحة تصلح لتعاليم هذا الدين ، والله هو الولى الحميد .

انتهى يوم الجمعة ضحى ٢٧ مايو سنة ١٩٢٧ ، وإلى هنا انتهى القسم الأول من سورة التوبة .

### (القسم الثاني)

إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي النَّارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* أَتَقْرَبُوا خِيفًا وَقِتَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \*

### التفسير اللفظي

(إلا تنفروا) أى إلى الحرب (يعذبكم عذابا أليما) وجعا (ويستبدل قوما غيركم) خيرا منكم وأطوع (ولا تضروه شيئا) ولا يضر الله جلوسكم (إلا تنصروه) أى إن لم تنصروا عمدا صلى الله عليه وسلم بالخروج معه إلى غزوة تبوك (فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا) كفار مكة (ثاني اثنين) يعنى رسول الله وأبا بكر (إذ هما في النار) ثقب عظيم يكون في الجبل ، هذا النار في جبل ثور يقرب من مكة مسير ساعة (إذ يقول) رسول الله صلى الله عليه وسلم (لصاحبه) أبى بكر (لا تحزن) يا أبا بكر (إن الله معنا) مميئا (فأنزل الله سكينته) طمأنينته (عليه) على النبي صلى الله عليه وسلم (وأيده بجنود لم تروها) هم للملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه ، وهكذا يوم بدر والأحزاب وحين أيده بالملائكة (وجعل كلمة الذين كفروا) أى دعوتهم إلى الكفر (السفلى وكلمة الله) دعوته إلى الإسلام (هى العليا والله عزيز) يعنى نصره أهل كلمته (حكيم) يذل أهل الشرك بحكته (اتقروا) اخرجوا مع نبيكم إلى غزوة تبوك (خفافا وقيالا) ركباناً ومشاة ، مهاجرا ومراسا ، شبانا وشيوخا ، لاسلاح معكم أو معكم سلاح ، فأت عيالكم أو معكم عيال ،

مهازيل وسمانا (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) مما إن أمكن أو بأحدهما على مقتضى الإمكان (في سبيل الله ذلكم الجهاد خير لكم) من تركه (إن كنتم تعلمون) كون ذلك خيرا فبادروا إليه، انتهى التفسير اللفظي لقسم الثاني من سورة التوبة.

( الْقِسْمُ الثَّالِثُ )

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدْتَ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةَ وَسَيَحْلِفُونَ  
بِاللَّهِ لَوْ اسْتَنْظَمْنَا لَعَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُ كُنُوفًا أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* عَفَا اللَّهُ  
عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ \* لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ \* إِنَّمَا  
يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَازْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ \*  
لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ  
الْقَاعِدِينَ \* لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْمُوا إِلَيْكُمْ يَكْفُرُونَ فِيكُمْ فَالْفِتْنَةُ  
وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ \* لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ  
حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَسْأَلُ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا  
فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ \* إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ  
تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ \* قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا  
الْأَمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ \* قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا  
إِخْدَى الْحَسَنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِمَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِينَا  
فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ \* قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ \* وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقُولَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ \* فَلَا تُنْجِيكَ أَمْوَالُهُمْ  
وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ \*  
وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ \* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا  
أَوْ مَفَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَعُونَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ

أَعْلَمُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ \* وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ  
 وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ \* إِنَّمَا  
 الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَأْمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَارِ مِينَ  
 وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ  
 النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٍّ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ  
 آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ  
 لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ \* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدُ  
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ \* يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ  
 تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ \*  
 وَإِنَّ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ  
 تَسْتَهْزِئُونَ \* لَا تَعْتَذَرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ  
 طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ \* الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ  
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ \*  
 وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ  
 وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ \* كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا  
 فَاسْتَمْتَمُوا بِخُلُقِهِمْ فَأَسْتَمْتَمْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَمَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَخُضْتُمْ  
 كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ \* أَلَمْ  
 يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ  
 وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
 يَظْلِمُونَ \* وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ  
 الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ  
 إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ



فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ . وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \*  
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْظُ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ \*  
 يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَآقِلًا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا  
 وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ تَوْبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا  
 يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ \* وَمِنْهُمْ  
 مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ  
 فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ \* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا  
 أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ \* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ  
 وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ \* الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ  
 لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* اسْتَغْفِرُ  
 لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا  
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ \* فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ  
 اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ  
 نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ \* فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيَبْئَسَ كُفْرًا كَثِيرًا جَزَاءُ بِمَا  
 كَانُوا يَكْسِبُونَ \* فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجُوا  
 مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ  
 وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى نَبْوِهِمْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا  
 وَهُمْ فَاسِقُونَ \* وَلَا تُنْعِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا  
 وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ \* وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ  
 اسْتَأْذَنَكَ أَوْلُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ \* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا  
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ \* لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
 جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ \* أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ

جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ  
 الْأَعْرَابِ يُؤَادِنُ لَهُمْ وَقَعَدَ اللَّهُ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ  
 عَذَابٌ أَلِيمٌ \* لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ  
 إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا  
 مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَآوَا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا  
 أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ \* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا  
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ  
 إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ  
 وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* سَيَخْلِفُونَ  
 بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا اتَّقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
 جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ  
 لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ \* الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ  
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا  
 وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَارَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ  
 يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ  
 قُرْبَةً لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ  
 وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* وَيَمُنُّ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ  
 وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ  
 إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ \* وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا مَعَلَا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ  
 أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا  
 وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ \* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ

التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ \* وَقُلْ انْمَلُوا فَسَيَرَى  
 اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا  
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* وَآخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا تَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
 حَكِيمٌ \* وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ  
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِشَهَادَاتِهِمْ لَكَذِبُونَ \* لَأَنَّهُمْ  
 فِيهِ أَبَدًا لَمْ يَسْجُدْ أَسْسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ  
 أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ \* أَفَنْ أَسْسَ بِنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ  
 أَمْ مَنْ أَسْسَ بِنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جَرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الظَّالِمِينَ \* لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ  
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ \*

## التفسير اللفظي

نزل في للتخلفين عن غزوة تبوك ( لو كان عرضا ) وهو ما عرض لك من منافع الدنيا : أى لو كان  
 مادعوا إليه مغانا ( قريبا ) سهل المأخذ ( وسفرا قاصدا ) وسطا مقاربا ، والقاصد والقصد : العتدل ( لانبعوك )  
 لواقفوك في الخروج ( ولكن بعدت عليهم الثقة ) للسافة الناطة الشاقة ( وسيلطفون بالله لو استطننا لخرجنا  
 معكم ) وهذا من دلائل النبوة لأنه أخبر بما سيكون بعد القبول ، فقالوا كما أخبر : أى سيلطف التخلفون  
 بالله عند رجوعك معتذرين يقولون « لو استطننا لخرجنا معكم » ( يهلكون أنفسهم ) أى حال كونهم  
 يهلكون أنفسهم ( والله يعلم أنهم لكاذبون ) فيما يقولون .

واعلم أن هؤلاء التخلفين قد استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف فعاتبه الله وقال ( عفا  
 الله عنك ) كناية عن الزلة فإن العفو من نوابها ، يقول : عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء  
 المنافقين الذين استأذنون في ترك الخروج معك إلى تبوك ، فهذا أحد الأمرين اللذين عوتب عليهما . والثاني  
 أخذه الغديّة من الأسارى وهو مجتهد في ذلك ، وهذا العتاب لأنه ترك الأفضل ، والأنبياء يعاتبون على ترك  
 الأفضل ( لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا ) ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك  
 في أن يجاهدوا ( بأموالهم وأنفسهم والله عليهم بالمتقين ) وعدم مجزئ التواب ( إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون  
 بالله واليوم الآخر ) يعنى المنافقين وهم تسعة وثلاثون رجلا ( وارتابت قلوبهم ) واضطربوا في عقيدتهم ( فهم  
 في ريبهم يترددون ) يتحيرون ، فالتحير من شأنه أن يتردد وللسنصر ديدنه الثبات ( ولو أرادوا الخروج )  
 معك إلى غزوة تبوك ( لأعدوا له عدة ) أهبة لأنهم كانوا أغنياء ( ولكن كره الله انبعاثهم ) نهوضهم  
 للخروج فلأنهم ما خرجوا ( فتبطلهم ) فكسلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث ، ويقال تبط : وقف عن الأمر  
 بالترهيد فيه ( وقيل اقموا ) أى قال بعضهم لبعض ، أو قال الرسول صلى الله عليه وسلم غضبا عليهم :

أى تخلفوا (مع القاعدین) مع التخلفین بنیر عذر . ثم بین حکمة عدم خروجهم فقال (لوخرجوا فیکم مازادوکم  
 إلا خبالا) إلا فسادا ونشرا : أى مازادوکم شیئا إلا خبالا (ولأوضعا خلالکم) أى ولأسرعوا فیکم وساروا  
 بینکم بالقاء الحیمة والأحادیث الکاذبة فیکم (بیغونکم الفتنة) یطلبون لکم ماتفتنون به کأن یقولوا للؤمنین  
 لا طافة لکم بدوکم وسهزومون منهم ویظهرون علیکم (وفیکم سمعون لهم) أى مطیعون لهم قابلون  
 لکلامهم (واقه علیهم بالظالمین) وعید لهم وزجر (لقد ابتغوا الفتنة) تشتیت أمرک وتفریق أصحابک (من  
 قبل) یوم أحد فإن ابن أبی وأصحابه کما تخلفوا عن تبوک بعد ماخرجوا مع الرسول صلی الله علیه وسلم بالقرب  
 من نغية الوداع انصرفوا یوم أحد (وقلبوا لک الأمور) ودبروا لک للکاید والحیل ودوروا الآراء  
 فی إبطال أمرک (حق جاء الحق) النصر والتأید (وظهر أمر الله) وعلا دینه (وم کارهون) علی رغم  
 منهم . وهذا القول نسلیة لرسول الله صلی الله علیه وسلم وللؤمنین علی تخلفهم ویمان ماتبیطهم الله لأجله وکره  
 انبائهم له (ومنهم) ومن للناقضین (من یقول أئذنی لی ولا تفتنی) کالجید بن قیس النافق قال له رسول الله  
 صلی الله علیه وسلم لما تجهز إلى غزوة تبوک یا أبا وهب هل لک فی جلد ابن الأصر ، یعنی الروم تتخذ منهم  
 سراری ووصفاء ؟ فقال الجید : یارسول الله لقد عرف قومی أنى رجس مغرم بحب النساء وإنى أخشى إن  
 رأیت نبات الأصر إلا أصر عنهن ، أئذنی لی فی القعود ولا تفتنی بهن وأعینک بما لی ، فأعرض عنه رسول الله  
 صلی الله علیه وسلم وقال قد أذنت لک (ألا فی الفتنة سقطوا) یعنی وقموا فی الفتنة العظیمة وهی النفاق (وإن  
 جهنم لهیطة بالكافرين) یوم القيامة یحیط بهم وتجمعهم (إن تصبک حسنة تؤثم) من نصر وغنیمة تحزن  
 للناقضین (وإن تصبک مصیبة) القتل والمزیمة مثل یوم أحد (یقولوا) أى النفاقون (قد أخذنا أمرنا من  
 قبل) تبجحوا بانصرافهم عنک واستحمدوا آراءهم فی التخلف عنک (ویتولوا) عن مقام التحدث بذلك  
 إلى أهلهم (وم فرحون) سرورون (قل لن یبینا) من خیر أو شر (إلا ما کتب الله لنا) قضی الله  
 لنا (هو مولانا) الذى یتولانا ویتولاه (وعلى الله فیتوکل المؤمنون) وحق علی المؤمنین ألا یتوکلوا علی  
 غیر الله (قل هل تربصون) تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسینی) وهما الفتح والفتیحة أو القتل والشهادة  
 (وإن ترصس بکم) إحدى السومیین : إما (أن یتوبکم الله بعباد من عنده) لملاکم (أو بأیدینا) بسیفنا  
 لقتلکم (تربصوا) بنا ما ذکرنا (إنا معکم مترصون) ما هو ماقتکم (قل أفقوا) فی وجوه البر (طوعا  
 أو کرها) طائیین أو مکرهین : أى غیر ملزمین وملزمین (لن یتقبل منکم) ما أنفقتم طوعا أو کرها ،  
 ونحو هذا قوله تعالى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعین مرة فلن یغفر الله لهم » ،  
 وقول الشاعر :

أسئق بنا أو أحسن لاملومة لدينا ولا مقلوة إن تقلت

ثم علیه فقال (إنکم کتمت قولنا فاسقین) متمردین عاقین (وما منهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم  
 کفروا) أنهم فاعل منع وم وأن تقبل مفعولاه : أى وما منهم قبول نفقاتهم إلا کفرهم (بأنه برسوله  
 ولا یأتون الصلاة إلا وهم کسالی) جمع کسلان (ولا ینفقون إلا وهم کارهون) لأنهم اعتقدوا أن الإنفاق  
 فی سبیل الله مغرم (فلا تصبک أموالهم ولا أولادهم إنما یرید الله لیعذبهم بها فی الحیة الدنیا) الإعجاب بالنسب  
 أن تسر به سرور راض به متعجب من حسنه : أى لانتحسن ما أوتوا من زینة الدنیا ، فإنما أعطهم ذلك  
 لیعذبهم بالمصاب فیها (وزهق أنفسهم) والزهوق الخروج جمویة : أى وتخرج أرواحهم (وم کافرون .  
 ومخلفون بالله إنهم لمنکم) لمن جملة السلیین (وما هم منکم ولکنهم قوم یفرقون) یخافون القتل وما یغفل  
 بالشرکین فیظهرون بالإسلام نغیة (لو یجدون ملجأ) مکانا یلجئون إليه متحسین من رأس جبل أو قلعة

أو جزيرة (أومارات) أي غيرانا في الجبال جمع مغارة : وهو للوضع الذي يخور فيه الإنسان أي يستر (أو مدخلا) أو تقفا يتدسون فيه وهو مفتعل من التدخول (لولوا إليه) لأقبلوا نحوه (وم يجمعون) أي يسرعون إلى ذلك المكان .

يقول إن للنافقين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم إلى أحد هذه الأماكن لصاروا إليه لشدة بغضهم إياكم (ومهم) ومن للنافقين (من يلزك في الصدقات) يبيك في قسمها ويظمن عليث (إن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) إذا لفاجأة أي وإن لم يعطوا منها فاجثوا السخط مثل ذي الخويصرة التميمي السمي حرقوص بن زهير أصل الخوارج إذ قال « يا رسول الله أعدل فقال صلى الله عليه وسلم ويالك من يعدل إذا لم أعدل فقال عمر أئذن لي فأضرب عنقه فقال صلى الله عليه وسلم دعه » الحديث في البخاري (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) ما أعطاهم من التنيمة، وذكر للدلالة على أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم كان بأمره (وقالوا حسبنا الله) كايانا الله (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) صدقة أو غنيمة أخرى فنال أكثر ما نلنا (إنا إلى الله راغبون) أن بخيننا من فضله وهذه الآية كلها شرط لو والجواب محذوف : أي لكان خيرا لهم .

ثم أخذ سبحانه يبين مصارف الصدقات فقال (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الفقير : هو من لا مال له ولا كسب يقع موقفا من حاجته، من الفقار كأه أصيب فقاره . والمساكين : من له مال أو كسب لا يكفي من السكون كأن السجز أسكنه، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل للسكنة ويتعوذ من الفقر، والسفينة كانت لمساكين (والعالمين عليها) هم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها في جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم (ولؤلؤة قلوبهم) قوم أسلموا وبنيتهم ضعيفة فيه فنتألف قلوبهم، وأشرفا يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم، وأشرفا يستأنفون على أن يسلموا كمينة بن حصن وعدى بن حاتم وصفوان بن أمية ، فالأول لتقوية إيمانه ، والثاني نيته قوية في الإسلام ولكن يرجى أن يرغب في الإسلام نظرائه ، والثالث كان يميل للإسلام فأعطى ليسلم ، وهناك قسم رابع وهو أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم من الكفار لا يبلغهم جيش الإسلام لمدتهم فيعطون من سهم اللؤلؤة قلوبهم : أي يعطى المسلمون ذلك إذا ضفت نيتهم في القتال أو ضفت حالهم (وفي الرقاب) للمساكين (والغارمين) الذين ركبهم الدين بأن استدأوا لأنفسهم في غير معصية ولا إسراف وليس لديهم وفاء أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله عليه الصلاة والسلام « لا تحل الصدقة لغني إلا لحنه لغاز في سبيل الله أو لتأرم الخ » وذكر من هؤلاء الحنفة العامل عليها (وفي سبيل الله) وللصرف في الجهاد بالإتفاق على المتطوعة أو اتباع الكراع والسلاح وبناء القناطر والمصانع وجميع وجوه البر كهمارة الساجد (وابن السبيل) يعنى للسافر من بلد إلى بلد والسبيل الطريق ، سعى السافر ابن السبيل لملازمته الطريق ، فرض (فريضة من الله) أي قسمة من الله لهؤلاء (والله عليم) بالمصلحة (حكيم) فيما حكم لهؤلاء .

ولما فرغ من الكلام على من يلزون في الصدقات شرع يتكلم على فريق آخر من النافقين فقال (ومهم) الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) يسمع كل ما يقال ويصدق . جعل هو نفس الأذن كما يقال للجاسوس هو عين .

روى أنهم كانوا يقولون محمد أذن سامعة تقول ما عشنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول (قل هو أذن خير لكم) لأنه يسمع الخير ويقبله وفسر ذلك فقال (يؤمن بالله) يصدق به لما قام عنده من الأدلة (ويؤمن للمؤمنين) ويصدقهم لما علم من خلوصهم (ورحمة للذين آمنوا منكم) أي وهو رحمة لمن أظهر الإيمان حيث يقبله

ولا يكشف سره ، فإذا لم يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقاً بكم ورحماً عليكم (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) بإذنه .

وجاء رهط من المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك بعد أن رجع النبي صلى الله عليه وسلم يعتدرون إلى المؤمنين ويخلفون فزل (يخلفون بالله لكم لبرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه) أي الله وكذلك رسوله وذلك بالتوبة والإخلاص (إن كانوا مؤمنين) أي إن كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة (ألم يعلموا أنه) أي أن الأمر والشأن (من يعاد الله ورسوله) يجاوز الحد بالخلاف ، وهي مفاعلة من الحد كالمشافة من الشق (ف) حق (أن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الحزى العظيم) الهلاك الدائم (يخذر المنافقون أن تنزل عليهم) على المؤمنين (سورة تنبئهم بما في قلوبهم) أي بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين ، ولقد سميت السورة الفاضحة والمبصرة .

يقول ابن عباس أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم . ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعبر بعضهم بعضاً ، لأن أولادهم كانوا مؤمنين (قل استهزئوا) أمر تهديد (إن الله مخرج ما عندكم) مظهر ما كنتم تخفون إظهاره من نفاقكم ، وكانوا يخفون أن يفضحهم الله بالوحى فيهم وفي استهزائهم بالإسلام وأهله حتى قال بعضهم لا وددت أني قدمت جلذبت مائة وأنه لا ينزل شيء علينا يفضحنا . ثم إنه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه فقالوا انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها ههنا ههنا فأطلع الله نبيه على ذلك فقال احبسوا على الركب فإنهم فقال لهم قلم كذا وكذا ، فقالوا يابى الله والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه اركب ليقرر بعضنا على بعض السفر فنزل (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) لم يعبأ باعتذارهم لسكذبهم واعتبروا أنهم معترفون بالاستهزاء فوجهوا بسبب أنهم أخطئوا مواضع الاستهزاء (لا تعتذروا) أي لا تشتغلوا باعتذاركم وكيف تنفكم بعد أن اقتضخ سركم (قد كفرتم) قد أظهرتم كفركم باستهزائكم (جد إيمانكم) بعد إظهاركم الإيمان (إن ننف عن طائفة منكم) جهين بن حمر لأم لم يستهزى معهم ، ولكن ضحك معهم ، أو كل من يتوب ويخلص الإيمان بعد النفاق (نعدب طائفة) وديمة بن جذام وجد بن قيس ، أو كل من يصرون على النفاق غير نائبين منه (بأنهم كانوا مجرمين) مصرين على النفاق أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء . الرجال (للمنافقون و) النساء (للمنافقات بعضهم من بعض) أي كأنهم نفس واحدة فهم متشابهون في النفاق والبدع عن الإيمان . وكان عدد الرجال منهم ثلثمائة والنساء مائة وسبعين (بأمرهم بالسكر) بالكفر والعصيان (ويهبون عن المعروف) عن الطاعة والإيمان (ويقبضون أيديهم) شحا بالمال أن ينفق في البر وأنواع الخير (نساء الله) تركوا أمره أو أغفلوا ذكره (فسبهم) فتركهم من رحمة وفضله (إن للمنافقين هم الفاسقون) هم الكاذبون في الفسق وهو هنا التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير (وعدا الله للمنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هي) أي النار (حسبهم) كافيتهم في التعذيب فلا حاجة لغيرها في تعذيبهم (ولعنهم الله) وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين يلعنون كما تلعن الشياطين (ولهم عذاب عذاب مقيم) دائم يخوف الفضيحة بكشف سرهم إذا نزل الوحى به وما يتأسونه من تب النفاق ، ثم خاطبهم الله بعد التوبة فقال فقلتم (ك) أفعال (الذين من قبلكم) من الكفار في الأمر بالسكر والتعنى عن المعروف الخ ثم وصف هؤلاء الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر مالا وولداً فقال تعالى (كانوا أشد منكم قوة) بطشا ومنعة (وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم) أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع

السموات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة ، فالخلق : الصيب ، وهو ما خلقه الله للإنسان وفقر له من خير  
 ( فاستمتع بخلافكم ) أيها المنافقون ( كما استمتع الذين من قبلكم بخلافهم ) وهذا كما تقول أنت مثل فرعون  
 كان يقتل خير حق ويضرب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل ، فالتكبر هنا للتأكيد وتبسيط فعلهم  
 ( وخضتم كالذي خاضوا ) أي وخضتم خوضاً كالخوض الذي خاضوا ، والخوض الدخول في الباطل واللاهوت  
 ( وأولئك حبطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة ) أي بطلت في الدارين ( وأولئك هم الخاسرون ) أي كما بطلت  
 أعمال الكفار للناظرين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون . ثم رجع إلى التوبة بعد الخطأ  
 لينشط السامع ولينوع الأسلوب فقال ( ألم بأنهم ) أي ألم بأن هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى  
 التقرير : أي قد أتاهم ( نبأ ) خبر ( الذين من قبلهم ) يعني الأمم للناحية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكتهم  
 حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ( قوم نوح ) بدل من الذين قد أهلكتهم بالطوفان ( وعاد ) أهلكوا  
 بالريح العقيم ( ونود ) أهلكوا بالرجفة ( وقوم إبراهيم ) أهلكوا بالمدم ، وكان هلاك نمرود يعوضة  
 ( وأصحاب مدين ) أي وأهل مدين وهم قوم شعيب هلكوا بحداب يوم الظلة : أي بنار كانت فيها  
 ( والمؤتفكات ) مدائن قوم لوط اتفكت بهم : أي اقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من  
 -جبل ، أو قريات السكدين . واثنا كهن : انقلاب أحوالهم من الخير إلى الشر وإنما ذكر الله هذه  
 الأمم لأن آثارهم ظاهرة بالشام والمراق واليمن ، وكل ذلك قريب من أرض العرب ( أنهم رسلهم بالبينات )  
 بالأمر والنهي والعلامات فلم يؤمنوا فأهلكهم الله ( فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ) بالكفر  
 وتكذيب الأنبياء وذلك لاستعدادهم النفس الذي سبق به القضاء على مقتضى الفطر ( والمؤمنون ) الصدقون  
 من الرجال ( والمؤمنات ) للصدقات من النساء ( بضم أولياء ، جنس ) على دين جنس في السر والملاينة  
 يوالى بعضهم بعضاً في الدين واتفق السكينة والعون والنصرة ( يأمرون بالمعروف ) بالإيمان بالله ورسوله  
 واتباع أمره واجتناب نهيهِ ( وينهون عن المنكر ) يعني عن الشرك والمعاصي . وللتكبر : كل ما ينكره الشرع  
 وينفر منه الطبع وهذا في مقابلة وصف المنافقين ( ويقبحون الصلاة ) للفروضة ويتمون أركانها وحدودها  
 وحشوعها ( ويؤتون الزكاة ) الواجبة عليهم وهو في مقابلة « ويقبضون أيديهم » ( ويبطون الله ورسوله )  
 في السر والملاينة ( أولئك سيرحهم الله ) لاحالة لأن السين مؤكدة للوقوع ( إن الله عزيز ) غالب على كل  
 شيء ( حكيم ) واضح كلاً في موضعه ( وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها  
 ومساكن طيبة ) يطيب فيها العيش . وعن الحسن رحمه الله هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزرجد  
 ( في جنات عدن ) أي في بساطين خلد وإقامة ، يقال عدن بالسكان : أقام به ( ورضوان من الله ) أي وشيء  
 من رضوان الله ( أكبر ) من ذلك كله لأن الجنة وهي النعيم القيم تصغر في جانب خالقها كما يصغر قصر الملك  
 وهداياه ونحفه في جانب تعريه لزاره وإقباله عليه وتلطفه معه وإكرامه له وهذا أمر يرفه العقلاء في الدنيا  
 مع المخلوق فكيف ذلك مع الخالق ؟ ( ذلك ) الرضوان ( هو الفوز العظيم ) وحده دون ما عداه ، ولذلك جاء  
 في آية أخرى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وفي آية أخرى أيضاً « يا أيها النفس الطمئة ارجعي إلى ربك  
 راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » ( يا أيها النبي جاهد الكفار ) بالسيف ( والمنافقين ) باللسان  
 ( واغلظ عليهم ) في الجهادين جميعاً ولا تحابهم ، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت  
 فيه يجاهد بالهبة وتستعمل معه اللفظة ما أمكن ( ومأواهم جهنم وبئس المصير ) جهنم ، ولقد أقام رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويجب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم  
 الجلاس بن سويد فقال الجلاس والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا فمن

شر من الحبر ، فقال عامر بن تيس الأنصاري للجللاس أجل واقه إن محمدا صادق وأنت شر من الحبر ،  
 وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر خلف الله ما قال فرجع عامر يده وقال : اللهم أزل على  
 عبدك ونبيك تصديق الصادق وتمكيد الكاذب فنزل ( يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ) وهي  
 إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحبر ، فقال الجللاس يا رسول الله والله لقد قلتك وصدق عامر فتأب  
 الجللاس وحسنت توبته ( وكفروا بهد إلامهم ) وأظهروا كفرهم بمد إظهارهم الإيمان ( وهموا بما لم ينالوا )  
 وذلك أن الجللاس هم بقتل الذي سمع مقاله خشية أن يشبهها عليه ( وما أنكروا ) وما أنكروا وما عابوا  
 ( إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ) وذلك أنهم كانوا حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في سنك  
 من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون النساء فأثروا بالنساء وقتل للجللاس مولى فأمر رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم بدينه اثني عشر ألفا فاستنق ( فإن يتوبوا ) عن النفاق ( بك ) التوب ( خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم  
 الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة ) باقتل والتار ( وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ) ينجيهم من العذاب ،  
 وقد تقدم أن الجللاس تاب ( ومنهم ) أي ومن النفاقين ( من عاهد الله ) حلف بالله كعصبة بن حاطب بن أبي بلتعة  
 ( لئن آتانا ) أي أعطانا ( من فضله ) اللال الذي له بالشام ( انصدقن ) في سبيل الله ولتؤدين منه حق الله  
 ولتصلن به الرحم ( ولتكونن من الصالحين ) بإخراج الصدقة ( فلما آتاهم من فضله ) أعطاهم الله اللال ونالوا  
 منهاهم ( فخلوا به ) منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد ( وتولوا ) عن طاعة الله ( وهم معرضون ) معرضون على  
 الإعراض ( فأعقبهم نفاقا في قلوبهم ) فأورنهم البخل نفاقا متمكنا في قلوبهم لأنه كان سببا فيه ( إلى يوم يلقونه )  
 أي الله سبحانه وتعالى وهو يوم القيامة ( بما أخلفوا الله ما وعدهم وبما كانوا يكذبون ) أي بسبب إخلافهم  
 ما وعدهوا الله من الصدقة والإنفاق في سبيله وبسبب كذبهم في قولهم « انصدقن ولتكونن من  
 الصالحين » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « آية النفاق ثلاث : إذا حدث  
 كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتخمن خان » وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « أربع من كنن فيه كان منافقا  
 خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ،  
 وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » ولا جرم أن هذه الحصال ما عمت في أمة إلا حل بها البوار وأصبح  
 رحالها غير مصدقين فلا تكون لهم شركات ولا تجارات رابحة ولا مودة صادقة ، وهذا هو الحراب الساحل  
 للأمم ، فأبن الدين إذن ؟ فليجتهد المسلم ألا يخلف الوعد وألا يكذب وألا يفجر في خصامه وألا يخلف  
 العهد ( ألم يملوا ) أي للتناقون ( أن الله يعلم سرهم ) أي ما أسرّوه من النفاق بالمزم على إخلاف ما وعدهم  
 ( ونجواهم ) وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ( وأن الله علام الغيوب ) فلا يخفى عليه شيء  
 ( الدين ) عمله النصب أو الرفع ( يلزون للطوعين ) يسيرون للطوعين للتبرعين ( من المؤمنين في الصدقات )  
 متعلق يلزون .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث على الصدقة فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم  
 وقال : كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمست أربعة لبيالي ، فقال عليه الصلاة والسلام : بارك الله  
 لك فيها أعطيت وفيها أمست ، فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا ،  
 وتصديق عاصم بن عدي بمائة وسق ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر ، فقال : بنت ليلقي أجره بالجرير  
 ( الخيل ) على صاعين فتركت صاعا لبيالي وجئت بصاع فلزمم النفاقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم  
 إلا ربا ، وأما صاع أبي عقيل فآله غنى عنه ، فنزلت ( والذين لا يجدون إلا جهدا ) إلا طاقهم على الفهم ،



وهو على الفتح مصدر جهد في الأمر بالغ فيه ( فيسخررون منهم ) فيهبزون ( سخر الله منهم ) جازاهم على سخرتهم  
كقوله تعالى « الله يستهزى بهم » ( ولهم عذاب أليم ) مؤلم .

روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سائول وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم  
في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى ( استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن  
تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ) فقال صلى الله عليه وسلم لأزيد بن علي السبعين ، فقل « سواء عليهم  
أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » فكأنه صلى الله عليه وسلم فهم أولا : أن المراد بالسبعين  
المدد المخصوص ، فجاء البيان أن المراد التكثير ، والعرب تستعمل السبعة والسبعين والسبعائة في التكثير ،  
ذلك لأن السبعة فيها ثلاثة أوتار وثلاثة أشعاع ، ومعلوم أن الواحد ليس من المدد لأنه أصله ؛ فالسبعة أول  
الكثرة من الشفع والوتر ، والسبعون أبلغ من السبعة فقد ضربت في العشرة ( ذلك بأنهم كفروا بالله  
ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ) للتمردين في كفرهم كعبد الله للذسكور لأنه يخفى الكفر  
ويظهر الإيمان .

وبهذا تبين أنه ممن لا يرجى إيمانهم ، والاستغفار إنما يكون لمن يرجى إيمانهم فهو كالنتبه على  
عذر النبي صلى الله عليه وسلم في الاستغفار ، والمنوع الاستغفار بعد العلم أنهم مطبوعون على الضلالة كما قل  
تعالى « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم  
أصحاب الجحيم » ( فرح المخلفون ) للناقصون الذين استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وخلفهم بالمدينة  
في غزوة تبوك كما تقدم في آيات كثيرة ( وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ) فلم يفعلوا  
مما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم ( وقالوا لا تنفروا في الحرب ) أي قال بعضهم لبعض ذلك ( قل نار  
جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ) فكيف اختاروها بإيثار الكسل والترف والتنعم ( فلبضحكوا قليلا  
وليكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ) من النفاق وهذا كناية عن السرور والتمتع ، ويراد بالتمتع العدم ( فإن  
رجعك الله إلى طائفة منهم ) أي ردك الله إلى المدينة وفيها طائفة من التخلفين ، يعني منافقهم ( فاستأذنوك  
للخروج ) إلى غزوة أخرى بعد تبوك ( قل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا ) خبر معناه التي  
( إنكم رضيت بالعود أول مرة ) فصار إسقاطهم من ديوان التزاة عقوبة لهم ( فاقصدوا مع الخالفين ) أي  
التخلفين الذين لا يليقون للحرب كالنساء والصبيان ( ولا تصل على أحد منهم ) أي من الناقلين صلاة الجنائزة  
( مات ) صفة لأحد ( أبدا ) ظرف ( ولا تقم على قبره ) أي كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ( تحليل  
للنهي : أي إنهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم ، وسبها أن عبد الله بن عبد الله بن أبي التقدّم ذكره طلب أن  
يكفن النبي صلى الله عليه وسلم أباه في قبصه وصلى عليه فقبل فاعترض عمر رضي الله عنه في ذلك ، فقال صلى  
الله عليه وسلم ذلك لا ينفعه وكنت أرجو أن يؤمن به ألف من قومه ، وروى أنه أسلم ألف من الخرج  
لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله « ولا تقم على قبره » أي ولا تقف عند قبره  
للدفن أو الزيارة ( ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا ويذهب أنفسهم وهم  
كافرون ) هذه الآية كررت للبالغة ولتذكير الناس بأن ما على الأرض زينة الدنيا لاغير وبه العذاب فيها ،  
وأيا الآياتان زلتا في فرقتين ( وإذا أنزلت سورة ) بتأملها أو بعضها ( أن آمنوا ) أي بأن آمنوا ، وضح  
أن تكون أن مفردة ( بالله ) متعلق بآمنوا ( وجاهدوا مع رسوله استأذنتك أولوا الطول منهم ) ذوو الفضل  
والسعة ( وقالوا ذرنا نككن مع القاعدن ) الذين صدوا لعدو ( رضوا بأن يكونوا مع الخوالم ) مع النساء  
جمع خالفة ، والخالفة أيضا التي لاخير فيه ( وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ) ما في الجهاد وامتنال أمر الرسول  
صلى الله عليه وسلم من السعادة ( لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ) كأنه يقول

إن تخلف هؤلاء فقد جاهد من هو خير منهم ( وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ) الفأزرون  
 بالمطالب ( أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ) وهذا بيان لما لهم  
 من الخيرات في الآخرة ، واستأذن رهط عامر بن الطفيل وأسد وعطفان في التخلف عن الجهاد بغزوة تبوك  
 التي نحن بسدد الكلام عليها وقالوا : إن لنا عيالا وإن بنا جهدا فأذن لنا في التخلف ، فقال لهم صلى الله  
 عليه وسلم « قد نبأنا الله من أخباركم » وسخط الله عنكم ، وهناك قوم آخرون قدموا ولم يستأذنوا ، فهذا  
 قوله تعالى ( وجاء للمذرون ) من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى فهو يوم أن له عذرا ولا عذر له  
 ( من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ) وهم مناققو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يستذروا  
 فهم بذلك كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان ( سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ) وإنما لم يقل  
 سيصيبهم لأن منهم من سيخلص في إيمانه في علم الله وهؤلاء جميعا لا يقبل اعتذارهم . ثم أخذ بين الذين أعتذرهم  
 سادقة فقال ( ليس على الضفاء ) أي الأسماء في أبدانهم المأجزين عن الغزو مثل الشيوخ والصبيان والنساء  
 ( ولا على المرضى ) ويدخل فيهم أهل العمى والرج والزمانة ، وبالجملة كل من كان موصوفا بمرض يمنع من  
 الجهاد ( ولا على الذين لا يجدون ما يفتقون حرج ) أي وضيق في التخلف فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح  
 ومؤنة السفر لأن المأجزين عن نفقة التزور مذكورون كفقراء من مزينة وجهينة وبنى عذرة ( إذا نصحوا  
 الله ورسوله ) بأن آمنوا في السر والعلن وأطاعوا ولم يغشوا الأراجيف ولم يثيروا الفتن وقاموا بمصالح  
 المجاهدين في غيبتهم لأهلهم في بيوتهم ( ما على الحسنين ) للمذورين الناصحين القامعين بشئون المجاهدين في بيوتهم  
 ( من سبيل ) لا جناح عليهم ولا طريق لعناهم ( والله غفور ) يفر لهم تخلفهم ( رحيم ) بهم ( ولا على الذين )  
 يرضى ولا حرج ولا إثم في التخلف عنك على الدين ( إذا ما أتوك لتحملهم ) لتعطيمهم المحولة ليلفوا إلى غزو  
 الصدوق وهم سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف ( قلت لا أجد ما أحملك عليه ) أضمرت قد قبله : أي قد قلت ،  
 أي إذا ما أتوك حال كونك قائلا « لا أجد ما أحملك عليه » ( تولوا ) وهذا جواب الشرط ( وأعينهم تفيض  
 من الدمع ) تسيل كقولك تفيض دما وهو أبلغ من يفيض دمعها ، فالعين هنا جعلت كأنها كلها دمع فائض  
 ( حزنا ) مفعول لأجله ( ألا يجدوا ) أي بأن لا يجدوا ( ما يفتقون ) في الجهاد ( إنما السبيل ) الحرج والإثم  
 ( على الذين يستأذنونك ) في التخلف ( وهم أغنيا ) ثم استأنف لبيان حالهم فقال ( رضوا بأن يكونوا مع  
 الحوالم ) أي بالانتظام في جملة الحوالم وذلك إشارة المدعة والترف والنتعم ( وطبع الله على قلوبهم فهم  
 لا يعلمون ) أمر الله ولا يصدقون ( يستذرون إليكم ) يقيمون لأنفسهم عذرا باطلا ( إذا رجعت إليهم ) من  
 هذه الغزوة ( قل لا تستذروا ) بالباطل ( لن تؤمن لكم ) لن صدقكم ، وهو علة للنهي عن الاعتذار  
 ( قد نبأنا الله من أخباركم ) علة لاتقاء تصديقهم ( وسيرى الله عملكم ورسوله ) أتوبون من نفاقكم  
 أم تقيمون عليه ( ثم تردون إلى عالم الغيب ) ما غاب عن العباد ( والشهادة ) ماعده العباد ( فينبشكم ) بجرمكم  
 ( بما كنتم تعملون ) وتقولون من الخبر ( ونحن حولكم من الأعراب ) وهم أعراب مزينة وجهينة وأشجع  
 وغفار وأسلم كانت منازلهم حول المدينة : أي ومن هؤلاء الأعراب مناققون ( ومن أهل المدينة ) وهم جماعة  
 من الأوس والخزرج عطف على خبر للبتداء الذي هو « نحن حولكم » والبتداء ( مناققون ) وقوله ( مردوا  
 على النفاق ) تمهروا فيه ، فيه تقديم وتأخير وتقديره : ونحن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة مناققون  
 مردوا على النفاق ( لا تعلمهم ) فإنهم بالنوا في النفاق بحيث إنك لا تعلمهم ( نحن تعلمهم ) يعني لكن نحن  
 تعلمهم إذ لا تخفى علينا خافية ( سنذهب مرتين ) مرة في الدنيا بأن يذبوا بأموالهم وأولادهم وتخيبتهم  
 للسائب ويخرج بعضهم مرض الديقة وهي جروح نارية تظهر في أكتافهم حتى تخرج من صدورهم بأن  
 يخالطوا بدخولهم الإسلام كرها قلبية والقوة وبأن يهانوا بالفضيحة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا

في يوم جمعة فقال : اخرج يا بلان اخرج يا فلان فإنك منافق ، فأخرج من المسجد أناسا وفضجهم ، فهذا هو العذاب الأول ، وهذه الفضيحة لهم بعد أن أعله الله بهم ومسامحهم له . وأما العذاب الثاني فهو عذاب القبر . وأما الثالث فهو عذاب النار وهو قوله ( ثم يردون إلى عذاب عظيم . و ) قوم ( آخرون ) سوى المذكورين ( اعترفوا بذنوبهم ) لم يعتذروا من تخلفهم بالأعداء الكاذبة كثيرهم وكانوا عشرة فسبعة أوتقوا أنفسهم على سوارى للسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين فرآهم موثقين فسأل عنهم فقيل له إنهم أنتموا ألا يعلموا أنفسهم حق يكون رسول الله هو الذي يعلمهم فقال : وأنا أقسم ألا أحلهم حتى أمر فيهم فزلت فأطلقهم فسأوه صلى الله عليه وسلم أن يتصدق بأموالهم فيطهرهم ، فقال ما أمرت ، فزلت « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الخ » ( خلطوا عملا صالحا ) وهو إظهار الندم ( وآخرين ) وهو التخلف وموافقة أهل النفاق ، والواو بمعنى الباء ( عسى الله أن يتوب عليهم ) يقول المفسرون عسى من الله واجب ويتوب عليهم : أي يقبل توبتهم ، وقوله ( إن الله غفور رحيم ) أي يتجاوز عن التائب ويفضل عليه ، وقوله « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم » من الذنوب أو حب المال للؤدَى بهم إلى المصائب كالتخلف المتقدم ( وتركهم بها ) وتسمى حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين ( وصل عليهم ) واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ( إن صلاتك سكن لهم ) تسكن إليها نفوسهم وتنطمئن بها قلوبهم ( والله سميع ) باعترافهم ( عليهم ) بندابهم ( أم يعلموا ) أي للتوب عليهم وغيرهم ليتمكن في قلوب الأولين قبول توبهم وليحرص الآخرون عليها ( أن لله هو يقبل التوبة عن عباده ) إذا صحت ، والقبول هنا مضمن معنى التجاوز ( وبأخذ الصدقات ) يقبلها قبول من يثيب عليها ويخلف بدلها ( وأن الله هو التواب الرحيم ) كثير قبول التوبة والتفضل عليهم ( وقل أعمالوا ) ماشتم ( فسبى الله عملكم ) فإنه لا يخفى عليه خيرا كان أو شرا ( ورسوله للؤمنون ) لأنهم يطعمهم الله على أعمالكم إما بالوحى في زمن النبوة كما رأيتم ، وإما بإلهام الناس ما خفى في نفوسكم كما قيل : [ السنة الخلق أقلام الحق ] ثم قال ( وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ) يوم القيامة ( فينبشكم ) أي فيخبركم ( بما كنتم تعملون ) يعني في الدنيا .

واعلم أن للتخلفين في هذه الآيات على ثلاثة أقسام :

[ أولهم ] المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق .

[ وثانيهم ] التائبون السارعون إلى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم ، وهم : أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعه بن حزام وغيرهم ، وهم مختلفون في عددهم من ٣ إلى ٧ إلى ٨ إلى ١٠ ولا بهم معرفة ذلك .

[ والثالث ] موقوفون ومؤخرون إلى أن يحكم الله فيهم وهم المراد بقوله ( وآخرون مرجئون ) مؤخرون من أركانهم : أي موقوفون ، وقرئ « مرجون » بفتح الجيم وسكون الواو وهما لثتان ( لأمر الله ) في شأنهم ( إما يندبهم ) إن أصروا على النفاق ( وإما يتوب عليهم ) إن تابوا ( والله عليم ) بأحوالهم ( حكيم ) فيما يفعل بهم ، وإما للشك وهو راجع إلى العباد ، وهؤلاء ثلاثة : كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن الربيع وقسمهم ستأتي في قوله تعالى « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » فهؤلاء تخلفوا عن غزوة تبوك الخ ما سأتى .

وروى أن بن عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بنوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأقام فصلى فيه فحدثهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا : بنى مسجدا وترسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أبو عامر الراهب الذي ترهب في الجاهلية ولبس للسوح وتصر ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم

للدنية قال أبو عامر : ما هذا الدين الذي حثت به ؟ فأجاب النبي صلى الله عليه وسلم : حثت بالحنيفية دين إبراهيم فقال أبو عامر فأنا عليها فكذب النبي صلى الله عليه وسلم ، وجد جدال قال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا ، فقال صلى الله عليه وسلم آمين : وصي أبا عامر الفاسق ، فقال أبو عامر الفاسق : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك حتى كان يوم حنين فلما انهزمت هوازن فرّ هو إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجدا فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآني بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه ، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء ، فذلك قوله تعالى ( و ) فيمن وصفنا ( الذين اتخذوا مسجدا ضاررا ) مضارة للؤمنين ( وكذمرا ) وتقوية للكفر الذي يضررونه ( وتفرقا بين المؤمنين ) أي الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء فأرادوا أن ينفرقوا عنه ويختلف كلهم ( وإرسادا ) ترقبا ( لمن حارب الله ورسوله من قبل ) وهو أبو عامر الفاسق وقد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لدى العلة والحاجة واليلة للطيرة واليلة الشانية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة ، قال : إني على جناح سفر وإذا قدسنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه ، فما قل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد : فنزلت عليه ، فقال لوحش قاتل حمزة ومعن بن عدى وغيرها انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه ، فانطلقوا ففعلوا وأمروا أن يتخذوا مكانه كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام غريبا وحيدا ، وقوله « من قبل » أي من قبل بناء هذا المسجد . ألا ترى أنه آلى على نفسه أن يحارب النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يوم هوازن ( وليحلفن ) يعنى الذين بنوا للمسجد ( إن أردنا ) يعنى ما أردنا بيننا ( إلا الحسنى ) أي إلا الفعلة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين الخ ما هدمتم ( والله يشهد إهم لكاذبون ) يعنى في قولهم ( لانتم فيه أبدا ) أي لاتصل فيه أبدا ( لمسجد أسس على التقوى ) وهو مسجد قباء وقد أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقاء من يوم الاثنين إلى يوم الخميس وخرج يوم الجمعة أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ( أحق أن تقوم فيه ) مصليا ( فيه رجال يحبون أن يتطهروا ) من العاصي والكفر والنفاق وإضرار المسلمين والتفريق بينهم ومن الحدث والحث والنجاسة والطهارة الباطنة وما يتقدمها من الظاهرة هي التي تقرب العبد من الله وتحييه في الناس ولا يقرب العبد من الله إلا بصفاء الباطن ، وكما صفا قرب وبقدر القرب يكون حب الله ( والله يحب المطهرين . أفن أسس بنيانه ) ببيان دينه ( على تقوى من الله ورضوان خير ) على قاعدة محكمة هي التقوى من الله ( أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ) أي أم من أسسه على قاعدة ضيعة وهو الباطل والنفاق الذي يشبه « شفا جرف هار » أي حرف مكان أكل الماء ما هتمت فهو إلى السقوط أقرب ؛ فالشفا الحرف والشفير ، وقوله « هار » من هار يهوى : إذا تداعى بفضه في إثر بعض كما يهوى الرمل ( فانهار به في نار جهنم ) فطاح به الباطل في نار جهنم ( والله لا يهدي القوم الظالمين ) لا يوقضهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم ( لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ) أي لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا حرارة وغیظا في قلوبهم ، والحرارة والغيظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم يورثهم ريبة في قلوبهم ، وهذه الريبة باقية في قلوبهم ( إلا أن تقطع قلوبهم ) أي تجعل قلوبهم قطعا وتفرق أجزائها إما بالسيف وإما بالموت : أي فعلى باقية إلى أن يموتوا ( والله عليم ) بنيانهم ( حكيم ) فيما حكم به عليهم ، انتهى التفسير اللفظي . وفي هذا المقام لطائف :

[ اللطيفة الأولى ] في قوله تعالى « إلا تنفروا يذبكم عذابا ألما ويستبدل قوما غيركم »

[ اللطيفة الثانية ] في قوله تعالى « إلا تنصروه فقد نصره الله » الآية .

[ اللطيفة الثالثة ] في قوله تعالى « انفروا خفا وثقالا » .

- [ اللطيفة اربعة ] في قوله تعالى « فلا تمجك أموالهم ولا أولادهم » الآية .  
 [ اللطيفة الخامسة ] في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » .  
 [ اللطيفة السادسة ] في قوله تعالى « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب الخ » .  
 [ اللطيفة السابعة ] في قوله تعالى « ألم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم - إلى قوله - ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .  
 [ اللطيفة الثامنة ] في قوله تعالى « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .  
 [ اللطيفة التاسعة ] في قوله تعالى « وهموا بما لم ينالوا الخ » .  
 [ اللطيفة العاشرة ] في قوله تعالى « قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » .  
 [ اللطيفة الحادية عشر ] في قوله تعالى « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » .  
 [ اللطيفة الثانية عشر ] في قوله تعالى « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » .  
 [ اللطيفة الثالثة عشر ] في قوله تعالى « سنعتبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » .  
 [ اللطيفة الرابعة عشر ] في قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله » .  
 اللطيفة الأولى « إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم »

حكم الله في هذه الآية على الأمم الإسلامية أن تصبح في عداد الأموات إذا هي نامت وادعة ساكنة ولم تسع سعى الأحياء ، وأن تكون في خبر كان ، وأن يستبدل بها أمما أخرى تحل في أماكنها ، تهديد شديد ووعيد عظيم أنزله الله بمن يتركون الجهاد في خفض من العيش ودعة .

ولقد أطال في ذلك أرسطاطاليس فيما كتبه إلى إسكندر يحذره من ترك للمالك الفارسية وادعة ، وعلل ذلك بزوال الدولة وحلول الأزمة وأن الناس يتحملون النعم والشدائد ولا يصبرون على النعم والدعة ، فإن الناس أيام الحروب يكون عندهم من النشاط والحركة وظهور الفرائز والقوى السكائمة ما يحرمون منه أيام سلمهم وفي وقت أمنهم ودعتهم ، وضرب الأمثال على ذلك بأمم خلت ودول مضت وأنهم بدعتهم وسكونهم وخفض عيشهم ذهبت ربحهم .

ولقد تبين ذلك في كل الأمم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، هكذا هنا يقول الله « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم » لأن الوجود في ارتقاء وتنازع . وكل أمة أحاطت بها السآمة وحلت بها صفات الأمن والدعة والسكل والبطر سلت القيادة لغيرها ممن هم أقدر على الحياة وأصبر على الجهاد وأولى بالقيادة ووكلوا إليهم أمرهم ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، والعالم في صعود ، فمن وقف أو رجع القهقري حل محل من هو أحق منه بالحياة ، ذلك هو النظام للستقيم والصراط السوي كما غلبت أمة الترك والفرس الأمم العربية في القرون الأولى من الإسلام ، ثم غلب التتر عليهم أجمعين ، ثم جاء الفرنجة خلفوا في ساحة الإسلام .

ثم جاء دور الأمم الشرقية وها هي ذه تريد أن تلعب دورها وتأخذ من الحياة حظها « ذلك تقدير العزيز العليم » وهذه هي الرحمة الإلهية والنعمة الربانية أن يكون العالم في ارتقاء وأن يولى زمانه الأ كفاء وأن ينل بجيولهم ورجلهم الأستناء ليقوموا بأمر ربهم ويحفظوا نظام ملكهم فليس لله في الأرض من واد ولا والد ولا صاحبة ولا صاحب ، وإنما هو عدل في أحكامه لا يبالى بأهل دين أو لنة أو جنس بل حكمه قاهر على الجميع ، خنس اليهود فأجلام وكسلت طوائف من المسلمين فأصنام ، وخنعت أمم ضالة غيرهما فأردام « ذلك تقدير العزيز العليم » وهذه هي الرحمة في الوجود ، بيت من لاضع له في حياته ، ويعي من يسي في الوجود لدرس آياته « إن ربك عليم حكيم » .

## اللطيفة الثانية قوله تعالى :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، الآيات »  
 روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين يوماً لما اشتد بهم الكرب من ظلم المشركين بمكة  
 « إني رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين ( وهما الحرتان ) فهاجر من هاجر إلى المدينة ورجع  
 من كان بالحبيشة إلى أرض المدينة » ولقد حبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصعبه  
 وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر أربعة أشهر ثم جاء الأمر بالهجرة فأخبر أبا بكر فأخذ رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم إحدى الراحلتين باليمن وقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم  
 الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، ثم توجه صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه إلى جبل نور فسكنا فيه  
 ثلاث ليال ، وكان يأتيهما بخبر القوم عبد الله بن أبي بكر ، واستأجر رجلاً من بني الدليل هادياً خريزاً ،  
 والحريز للناهر بالهداية وواعداء غار نور بعد ثلاث ليال ، وروى أن المشركين طلعموا فوق الغار فأشفق  
 أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ظنك باثنين الله  
 نالهما ؟ فأعمام الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله ، وقيل لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله  
 والعنكبوت نسجت عليه ، ثم إن الدليل النبلي عاد إليهما بعد ثلاث ليال فارحلا ومعهما عامر بن فهيرة  
 والدليل المذكور فأخذ بهم طريق الساحل ، ثم إن سراقه بن مالك بن جشم طمع فيها أعلنه كفار مكة من  
 الجمل العظيم لمن قتل النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وهو ديتهما فتبعهما يركض فرسه حتى سمع قراءة  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ملتفت وأبو بكر يكثر الالتفات فساخت بدا فرسه في الأرض حتى بلغنا  
 الركبتين وارتفع من ذلك الأثر دخان ساطع في السماء فنادى الأمان وأخبرهما بما يريد قومهما من قتلهما  
 وعرض الزاد والتاع عليهما فلم يقبل ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب له كتاب أمن فأمر عامر  
 ابن فهيرة فكتبه في رقعة ، وكان أهل المدينة ينتظرونه حتى نزل يوم الاثنين من شهر ربيع الأول في بني  
 عمرو بن عوف وبقي عندهم بضع عشرة ليلة وأسس للسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه ثم ركب راحلته  
 حتى بركت عند مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت  
 به راحلته هذا إن شاء الله للترز ، ثم ابتاع للكان من صاحبيه الغلامين وبناه مسجداً اه .

## اللطيفة الثالثة قوله تعالى « انضروا خفافاً وثقالاً »

قد تقدم معنى الخفاف والثقال [ وملخص المعاني التعميم ] ، فعلى هذا يجب الجهاد على كل امرئ وهذا  
 الأمر منسوخ بقوله « ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآيات » كما سيأتي ، وبقوله « وما كان للؤمنون  
 لينفروا كافة » ومن العلماء من حمل الآية على أن الأمر للندب .  
 وروى أن أبا أيوب الأنصاري لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون مع أنه شهد بدرًا فقبل له في ذلك ،  
 فقال يقول الله تعالى « انضروا خفافاً وثقالاً » ولا أجدني خفيفاً أو ثقيلاً ، وكذلك سعيد بن المسيب ذهب  
 إحدى عينيه ولم يترك الجهاد وقال إن لم يمكن الحرب كثرت السواد ، وقال صفوان بن عمرو كنت والياً على  
 حمص فلقبت شيخاً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد القزو ، فقلت يا عم أنت معذور  
 عند الله ، فرفع حاجبه وقال : يا ابن أخي استغفرنا الله خفافاً وثقالاً إلا أنه من عبه بينليه ، هذا ملخص  
 ما يقوله العلماء .

واعلم أن التحقيق في هذا للقيام أن الأمم كلها يجب عليها العمل العام ، فأصحاب القوة للدفاع ، وأصحاب  
 المصاعف لإحضار العدة وكل امرئ في الآية مكلف بعمل لأنه لا دفاع بلا رجال أقوياء ولا دفاع للأقوياء

بإسلاح ، ولا وقوف لهم في وجه العدو إلا بالتزاد واللباس والطرق المنتظمة ، ولا طرق ولا غداء ، ولا لباس إلا بأعمال هامة ومدارس منظمة وحكومة قادرة وأمة مستقيمة وإدارة تامة .

وهذا ملخص دين الإسلام إذ يقول علماؤنا إن الصناعات كلها فرض كفاية ، فنقول الآن أيها المسلمون أين الكفاية ولا كفاية لديكم ولا صناعة ولا علم ولا حكمة ؟ فالجهاد واجب على الأمة كلها ، وعلى قادة الأمة أن يعملوا كل امرئ فيما استعد له من عمل نافع ، لافرق بين كنس الشوارع وتنظيف للساكن وتسييد الأرض وبين صنع المدافع والطائرات والكهرباء وما أشبه ذلك .

كل هذا واجب على الأمة كلها يجب أن تكون عاملة فإن لم يفعلوا ذلك أمموا أجمعين وعذبوا في الدارين وذاقوا العذاب المهون اه .

#### الطيفة الراجعة « فلا تصيبك أموالهم ولا أولادهم »

اعلم أن هذه الآية ذكرت في هذه السورة مرتين فيقول هنا « فلا تصيبك أموالهم ولا أولادهم » ويقول بعد آيات « ولا تصيبك أموالهم وأولادهم الخ ، وقد جاء في أوائل هذه السورة « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ » فذكر هناك ثمانية أشياء : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والساكن ، وحكم على من يقدم حبه هذه على الجهاد بالملك والدمار والمذاب . ويقول أيضا في هذه السورة « قل هل ترجون بنا إلا إحدى الحسينين » فجعل القتل حسي معادلا للصر ، وجعل هلاك الأعداء بالقتل ثم موتهم وهلاكهم الأخرى عذابا .

فلخص ما ترمى إليه هذه السورة بل كل دين صادق ، بل كل حكمة وفلسفة احتقار للذات والحياة وجعل ذلك كله مقدمة لولوج باب السكال والسعادة ، وعلى ذلك اعلم الأمر فأصبح ما يفرح به الناس في هذه الدنيا عذابا .

#### إيضاح هذا اللقاع

اعلم أن الإنسان في الدنيا يظن أن سعادته فيها بما يناله من لذاته الحسية كالطعم واللبس والسكن والأبناء والآباء والأزواج والعشيرة ، وبما ينفي عنه من الآلام والصلاب فيبقى حيا سليما مدى الحياة طويل العمر ، ثم هو أبدا معذب بهذه الأتقال والأحمال فهو أبدا في نصب بما يصيب الأهل وللال والولد وجميع ما حوله وبما يصيبه في جسده وهذا عذاب دائم ، فبينما يظن نفسه في سعادة إذا هو أبدا في شقاء بما ظن أنه سعادة .

وقد تمزب عنه هذه الأتقال والأوصاب ساعة النوم والإغماء والسكر القوي والتنويم المضاطيس ، فالتأم لا يحس بما يناله من التم بارتكاب الديون ، وكذا التمس عليه والسكران ومكنا للنوم تنويما مضاطيسيا يحيل إليه وقت النوم ما يبرده منه للنوم فيقال له أنت ملك كريم أو ملك عظيم أو بهيمة أو حتى أو قنبر فيتشكل كما يوحى إليه للنوم بالسكر .

وقد شاهدت ذلك بنفسى في مصر على مرأى ومسمع من العلماء والأطباء الذين شهدوا هذه الحقائق وأفرروا ، فما أنت ذا ترى أن ما تحمله من الأتقال قد زال عنا في بعض الأوقات لمرض كما يزول عا الألم إذا شاهدنا رجلا يقتل قصاصا أو مريضا يشرب شرابا مرا فإننا لا نتألم لعلنا باستحقاق الأول ومنفعة الثاني ، ونرى الطبيب يقطع عضو المريض لمرض الشفاء فنساعده ونشكره ، ونحارب أمة سطت علينا وقتل رجالها ونحن فرحون .

فهذه أحوال عرضت لنا غيرت أفكارنا جعلت للكروه محبوبا وصيرت المؤلم لذيذا ، واطالما غيرت  
البيئات أحكامنا ، جعلنا الضعة شرفا والشرف ضعة فيقول الفرنسي لا بد من أن يرقص رجل مع امرأتى وإلا  
كان ذلك عارا على ، ويقول الشرقي إن حصل ذلك فهو عار على .

كل ذلك فصل البيئة ، فتعجب كيف انقلبت اللذات الآلام والآلام لذات بأحوال عارضة ؟ فانظر كيف  
جاء القرآن بما هو أهم وأعم وجعل كل ما نملكه وما يلدنا بقمة علينا إن أمسكناه لذاته ونعمة إذا جعلناه  
للنعمة العائمة وأفادنا « أن ذلك في كتاب ، وأن ذلك على الله يسير » وقال « لا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا  
بما آتاكم » أنا وقت النوم أرحتكم من نعمة اللصائب ، ووقت الإغماء والضعف العظيم انفير للقوى العقلية  
كحالة الهرم التام .

وهكذا أجمل العاشق لايبالى إلا بأن يصل إلى ما تمنى من محبوه ولا يبالي بغيره في الدنيا ، وربما عشق  
الإنسان وطنه أو علما من العلوم فذهل عما سواه ، فيالنوم أرحتكم وبالإغماء وبالعشق العادى والوطنى  
والطوى غيرت أحوالكم القلبية .

فها أنا ذا أوجهكم بالدين إلى الاجتهاد ، وإذا كان بعض عبادى يشقون إنسانا عشقا مفرطا فينبون عن  
كل ما سواه ، سواء أكان المحبوب ذاتا أو وطنا أو علما ، فها أنا ذا فتحت لكم باب العشق العام فلبجوه  
وطريق الحب الحقيقى فاقصدوه فلتكونوا آباء كراما لأمتكم ، ولتكن أموالكم وأبناؤكم وإخوانكم  
وعشيرتكم ، وهكذا علومكم وقوتكم وجبتكم وقفا على الجهاد فى أسبيلى ، فإذا نصرتم فالصبر منى ، وإذا قلتم  
فإلى ترجعون .

#### ظاهر هذه السورة العذاب وباطنها الرحمة

إن هذه السورة نزلت للسيف وقد تركت البسمة فى أولها لأن التسمية للرحمة ولارحمة هنا ،  
هنا ما قاله الطاء كما تقدم ، ولكنك إذا تأملت سورة الفاتحة وأن الإنسان يقرأ صباحا ومساء « الرحمن  
الرحيم » ويحمد الله رب العالمين ، إذا تأملت ذلك أيقنت أن الرحمة غالبة ، وهأنذا تراها ظاهرة فى هذه  
السورة فإنه وإن طلب فيها ضرب السيف فقد أزال أغلال الحياة عن الأعناق ووجه القلوب إلى  
وجهة واحدة .

ويقول علماء هذا العصر إن الأمة وقت الحرب نفس بنشاط وفرح لأنعلم بهما وقت السلم ، فانظر كيف  
انقلب الأمر وأصبح الحرب الذى يكرمه الناس نعمة والسلم والدعة والنعمة التى لاحركة فيها قدمة ؟  
وهذا هو سر هذه السورة .

فالمساكن ولللابس والأولاد ولللال كل ذلك مصائب عاجلة بالتوانى والسكل والنوم وهى نعمة با-تعمالها  
فيا خلقت له ، وإن أردت تحقيق اللقام فاقرأه فى سورة البقرة فى النصف الأول منها فانهم .

#### السعادة لاتشرى بمال

رجل ينتحر وفى جيبه ٦٠٠٠ جنيه

جاء فى بعض مجلاتنا المصرية فى ١٠ إبريل سنة ١٩٢٦ ما يأتى :

برى زائر شواطئ بحيرة كومو الجبلية فى إيطاليا قصرا أنيقا يقع وسط حديقة زاهية مترامية الأطراف  
وإنه ليعبر البصر فيه طويلا ثم يتساءل لمن هذا القصر الباذخ والروض الناضر فى هذا الجوار الخلقى والبقعة  
للسروقة من الجنان ويتمنى لو قدر له أن يمضى بقية حياته فى ذلك النسيم الشامل ، ثم يسأل أحد اللارة من



الوطنيين عن اسم صاحبه السيد ، ولكن ما أعظم دهشته عند ما يرفع هذا أكتافه ويخبره بأن صاحبه كان (جوزب بوجيني) الذي كان يعيش فيه وحده مع خدمه المديدين وكلابه التي كان يحبها ، وكان أهل البقعة لا يملكون من أمره كثيرا ولكن كانت تسرى الإشاعة بأنه كان شيخا نسا لا يعرف السعادة رغم ثروته الطائلة .

كان (بوجيني) وحيدا وحدة قاسية ، وكان يمكنه أن يشتري الأصحاب بماله الكثير وبذخه الوافر ، ولكنه ما كان يأبه لذلك فلم يكن له أصحاب حقيقيون ، وكان يندر أن يزوره زائر ولم يكن له أقارب ولم يتزوج وكانت حياته حياة عزلة ونسك .

كان (بوجيني) في وقت من الأوقات عاملا بسيطا في نيويورك حيث تجنس بالجنسية الأمريكية ، وبمرور الزمن جمع ثروة تقدر بالملايين ثم رجع إلى موطنه الأصل ليتمتع بشمرة ما جمعت حياة الكد والاجتهاد ، وظهرت له بحيرة كوميون بعد غيبته الطويلة جنة خالدة لا ينقص كمالها أي طرف أو رغد يشتره للمال فآمن بالسعادة هناك ، ولكن جاءت بعد حين ساعة الحية التي تنهار فيها صروح الآمال والأحلام ، فقد اشترى بماله القصر والروض وكل أسباب الراحة والكمال ولكنها لم تشتت له راحة الفكر والرضا بكل ذلك فكل ذلك وسئمه وحنق نفسه إلى تلك الأيام التي كان يكذب فيها ويكذب طول نهاره من أجل بضعة الترام القليلة التي كان يكسبها في يومه ، والآن قد أنهى (بوجيني) حياته القلقة الثائرة حيث وجدته خدمه في صبيحة يوم مشنوقا في شجرة من أشجار روضه الزاهر ، وبجانبه هذه الرسالة الوجيزة [ لقد كشفت أثناء حياتي الطويلة أن أكوام المال لا تشتري السعادة الحقيقية ، وإني أذهب من هذه الحياة لأني لا أقوى على احتمال وحدتها وما أشعر فيها من سأم عند ما كنت عاملا بسيطا في نيويورك كنت سعيدا جدلا ، ولكن الآن مع هذه الملايين أشعر بحزن دائم وأفضل للوت ] .

ووجد في جيوبه ستة آلاف جنيه كتب عليها (إلى الجحيم) ثم أخذ البوليس يبحث عن ورثته اه .

جمال هذه الآيات

كثرت ذرية أدنى الحيوان وأغذيته ولم يحشم نسا ولا ألما . والإنسان ناله الألم بذريته مع قتلها وبما ملك من الأموال ليحلم أنه في دار ليست بدار قرار وأنه سائر إلى ربه يعيش بجواره كما قال تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففرّوا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » جمال هذه الآية « فلا تسبيك أموالهم ولا أولادهم الخ » هو الظاهر في هذا الوجود الخبوء عن القلوب لأن أكثر الناس لا يملكون .

اللهم إنك أنت الظاهر بجمالك ، العظيم بحكمتك ، الجليل بالصنع البديع الإتيان ، اللهم إنك أنت الذي ملأت السهل والجبل والنهر والحقل بذرية الذبابة والجرادة وحشرة أبي دقيق ولم تحشمها نسا ولا ألما في تلك الذرية وملكت بعض تلك الحشرات عيوننا وأجسامنا وأمتعتنا والذبيذ من أغذيتنا وسلطتها علينا بالمعذاب فتلقى في أغذيتنا وفي أجسامنا بذور الأمراض والحيات وللهلكات « إن ربي لطيف لما يشاء » أنت الذي جعلت الحيوان على ثلاثة أقسام : قسم يترك بيضه في المراء كالجراد والذباب الخ ولكن هذا القسم أنت أعطيتة إلهاما محييا ليضع بيضه في أماكن تناسبه كأغذية الإنسان وروثه وعيون صناره والقاذورات وذلك في الذباب وفي حصول مناسبة على بعد مخصوص في الأرض وذلك في الجراد وهكذا ، ثم إن الذبابة والجرادة ونحوهما تموت ، وأنت الذي تتولى شؤون ذريتها فتملأ السهل والجبل والناس بحاربونها ولكن تلك الحشرات وأمثالها غالبات قاهرات على طول الزمان ، وقسم أمرته بأن يحضن بيضه إلى أمد مملوم ، وذلك لأنه أرقى ، فألهمت الدجاجة والحمامة والإناث من أنواع الدجاج والبط أن تحضن بيضها ، فلذا قس

أمرتها أن تلاحظها إلى أمد قليل ثم تستقلّ الدرية وتضع ما فعل الآباء ، ومع هذه العناية كانت الدرية أقل من ذرية تلك الحشرات كحشرة القز وحشرة أبي دقيق والذباب الخ . والقسم الثالث ما حكمت عليه بالحمل والإرضاع وهي ذوات الأربع ، وكما ازداد هذا الفهم كالا زدته عذابا في ذريته كالحيل والفيلة والقردة والإنسان وهو أكثر تلك الحيوانات عذابا بذريته وماله ، وكما ارتقى في سلم اللدنية ازداد عذابا بالدرية فبعين الإنسان مجدا كادحا تربية بنيه وبناته الذين قلّ عددهم ولا يقتصر على الإرضاع والكسوة والتغذية بل يدخلهم للدارس ويضيق حياته فيهم ، وهو كلما كثرت آماله وأمواله وذريته ازدادت همومه ، فاعجب لهذا الوجود ، ذبابة تكون الأجيال الناشئة من ذريتها في السنة تزيد عن مليون ذبابة وهي كلها تملك أجسامنا وأغذيتنا ولا نصب ينشاها ولا تعب ، وإنسان يلد عند أصابع اليد الواحدة أو أقلّ فيعيش في نصب وتعب وهو مكدود وهو قليل المال كثير النصب والتعب لا يقنى له أن يدخل منزل جاره إلا يألن ، ولا يأكل إلا ينصب وتعب ، وهذه أيعت لها الله نيا وغلبتنا وقتلتنا وأكلت زرعنا .

هذه صورة الحيوان والإنسان ، فاعجب أيها الذكي متى وتأمل كيف تله الذبابة مئات الألوف بالتناسل في الأجيال كل سنة ويولد الإنسان قليلا وهي لا تمذب وهو في العذاب مضمور ، وكيف يشاهد الناس ذلك صباحا ومساء وهم لا يقولون .

اللهم إن العلم مشاهد محسوس وأكثر الناس لا يقولون ، أنت يا أفعى بسطت العلم أمام أعيننا وأمرت التباب في أفئتنا وأمرته أن يلقي علينا دروسا من الأمراض في أغذيتنا وقتلت له به هذا الإنسان ياذباب وقل له ها أنا ذا منكم بمالك كثير الدرية وأنت تشقى بمالك وولدك قليل الدرية ، سلطنى الله عليك لتبنيص عالم المادّة ونحن إلى عالم الأرواح وتبعث بعقلك عن حياة أسعد وهي التي بعد موتك بقاء ربك والعالم الروحي .

فها أنا ذا أريك أيها الإنسان أنني أسعد منك حالا ومالا وذرية لأرظك لخروج من حياة المادّة ، ولما جهل الناس منطق الطير ولم يقولوا ما حوّلهم من الضر والنشر ألقاه على ألسنتهم في محافلهم ومحاوراتهم بطريق الإلهام .

#### ألجنة الخلق أقلام الحق

لما حكم الله على الناس بنذابهم في أموالهم وأولادهم ولم يفهموا منطق الطير كما قدّمنا ولم يدركوا سر هذا الوجود ولم يفقهوا أنه بذلك يريد إحراجهم حتى يحنوا إلى عالم أرقى خاطبهم بما يلقيه على ألسنة الرجال والنساء في كل زمان ومكان فتراهم يتبرمون ويتأفنون من هموم المال وهموم الدرية ، وتقول للمرأة ماذا أصنع لابني وقد قلّ لبي وقلّ مالي ؟ ويقول الرجل ماذا أصنع إنى لا أجد مالا لتطيم ابني ، وإذا أصابه ألم ونصب بكى وبكت امرأته .

وهكذا ترأهم متضمين إذا اجتاحت للال جائحة أو أصابته ملة ، كل هذا وهم يشاهدون الحشرات طافحات فرحات سعيدات كثيرة الدرية ، فكل ما تسمعه من تألم الرجال والنساء لأموالهم وأولادهم هو نفس ما يشاهدونه في الطبيعة . فالألجنة الخلق في ذلك ناطقات بما خطه الله في هذا الوجود وكتبه بمحروف كبيرة مجسمة منظورة يشاهدونها ولكنهم لا يقولون وقرّ بها إليهم بالألسنة صباحا ومساء ، فإذا قال الرجال والنساء ما أتمس هذه الحياة الخ فهو نفس الذي ألقته الذبابة والحشرة عليهم وهم لا يقولون .

#### ظهور هذا السر على ألسنة الشعراء

ولما كان الشعراء هم أصح هذا النوع الإنساني وهم الناطقون بما له من وجدان ، أبرز الله هذا السر على ألسنتهم وتراء كثيرا في الشعر العربي فترى للتنبى يقول :

كل من في الكون يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن؟

وترى الشاعر الإنجليزي (ترنش) يقول ما ملخصه :

إن الناس تسبان : قسم صفت الدنيا لهم فأقل ألم يرعجهم فهم دائماً في نصب وألم . وقوم عاشوا في شظف العيش فأحسوا بأقل نعيم وانشرحوا صدوراً ، وهذا نص ما ترجمته من شعره إلى لغتنا العربية إجابة لطلب التلاميذ بالمدارس الثانوية في كتابي للسمى [جوهرة الشعر والتعريب] .

أيدوق الفقراء السعادة أكثر من الأغنياء؟

[من شعر ترنش الشاعر الإنجليزي]

قوم صفت الدنيا لهم وسأؤم صحو عجب	فيا شمس وبها قر لم تحجبهم عنها حجب
فإذا ما اغبر بأفقم مقدار الظفر له غضبوا	وفربق عاش ودهرم ليل فيه السود النوب
فإذا لمحووا من بارقة فرحوا جدلاً وبهم طرب	هذا مثل فيه عظة لدوى التوفيق إذا ضربوا
فانظر زمرا سكنوا مصرا وبنوا قصرها ولم ذهب	ولم نم فيها نم فإذا راحت فلها لب
يشكون الدهر وما نسبوا إن شاكمهم وبر صخبوا	فكان الفضل بما طلبوا بما من عليهم حرب <sup>(١)</sup>
وكان اللال جهنمهم وثرأ للال لم عطب	وترى رهطاً سكنوا الأكوخ فذا شعر هذا نصب
وحياتهم في محصة حمدوا الرحمن على نعم	ومعيشتهم أبداً وصب وبه فرحوا وله انتسبوا
فكانهم لما سلبوا ما أعطاهم منه كسبوا	فالحب كسام من حلل وبكأس سعادته شربوا

وهاك موازنة بين أبي العلاء وبين شارل ، وكذا شكسبير منقولاً مما نظمته ترجمة في ذلك الكتاب

قال أبو العلاء :

للحال بالقدر اللطيف تخير	فليأ عنك تفاؤل وتطير
من أحسن الأحداث وصفك ظابرا	في الترب يأكله تراب أغبر
ما قيل في عظم اللوك وعزم	فأله أعظم في القياس وأكبر
وكمأما دنياك رؤيا نأم	بالعكس في عقب الزمان تضر
فإذا بكيت بها فتلك مسرة	وإذا ضحكت فذاك عين تضر
فالمين تبكى في اللنام وتجتلى	فرحا وتضحك في الرقاد وتضر
والنفس ليس لها على ما نالها	صبر ولكن بالكراهة تضر
يبدو للذجاج بازيا أو أجلا	فيروح محتكاً عليه القبر

(١) سلب للال .

وقال أيضا :

آليت لا ينفك جسمي في أذى  
وإذا رجعت إليه صارت أعظمي  
هون عليك أنلت نصرافي الوغى  
كسرى أصاب الكسرجابر ملكه

وقال شارل :

لا تخزن بما أوتيت من نعم  
لا يدفع القدر القدور سابعة<sup>(١)</sup>  
بل يتنقى للوت أسياف الفناء على  
والقأس والنجل للموج صفحته  
كم فارس بطل بالسيف مشتمل  
وحاصد هام قوم من منابها  
ضار إكليله في يوم زينته  
إما على عجل للوت أو مهل  
حق قضوا نعيمهم صفرا وجوههم  
وزهر إكليلهم ذار ومستر  
لا يجينك ما أوتيت من شرف  
وانظر إلى القاهر القهور كيف قضى  
وأودعوا حفرا يا بشما زلوا  
لكن على جدث الصديق قد عبق ال

وقال شكبير « كل من عليها فان » .

إن الحياة وإن غررت مظاهرها  
قد مثلت في خيال الوهم بارزة  
كما ترى في خيال الظل من صور  
وكل قصر رفيع شاده ملك  
كذا البروج مشيدات على صعد<sup>(٥)</sup>  
وكل ما أورثته الأرض من عرض  
وإنما عنصر الأجسام من سدم

ضاع من المؤلف كتاب له فيه تعليق فقال قبل أن يشر عليه :

يقولون إن العلم لهمم دافع  
أم تراني ضاع من مؤلف  
فكيف رأيت العلم يدني من المهمم  
فليس فم أصبر على ذلك الترم

(١) البرج السابعة : الضافية . (٢) العلم : الجبل . (٣) جمع رظام : التراب .

(٤) جلوسا على الركب . (٥) الصمد جمع صمود : ضد هبوط .

(٦) أطر ، جمع إطار : ما أحاط بالشيء . (٧) الدعر : القساد .

لأنى قد نظمت بين عقوده فرأى حق لا يشذ عن الفهم

قضاء قضاء الله في عالم الدنيا فرارا من الآساد تفرق في اليم

هذه أقوال المشهورين من شعراء الغرب والشرق ، أحمد للتنبى وأبو العلاء من الشرق مع ( ترمى وشكسبير وشارل ) من الغرب ، بماذا نطقوا ؟ نطقوا بما نطقت به هذه المخلوقات حولنا ، نطقوا بما نطقت به الطير والحشرات القائلات بلسان حالها أتم أيها الناس مسجونون في أموالكم وأولادكم ، أما نحن فإننا في بحبوحة النعيم . نلذ الأثوف ولا نحزن ولا نجزع ولا نصب في الترية والله يولاهنا عنا ، هذا كلام حشرة أبي دقيق والجراد والله ياب وحشرة دود القطن .

إن العالم الذى حولنا كله ناطق ونطقه أفصح من نطق اللسان . إن العوالم التى خلقنا فيها جميلة وناطقة ولكن أكثر الناس لا يعقلون ولا يفهمون ، وبهذا نهم قوله تعالى « ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فنحن خلقنا العوالم حولكم أزواجا فتوالدت وكثرت ولم تمان ما تمانون مع قلتكم .

زيد بذلك أن تتذكروا وتعقلوا وتفهموا أن حياتكم الحقة لا تكون هنا على الأرض ولا في عالم المادة التى ترونها بل في عالم أرحم ، ولتلك رتب عليه قوله تعالى « فمروا إلى الله » والآية هنا موضحة لذلك الفرار إذ أبانت أن الناس في عذاب بأموالهم وأولادهم ، فهذا هو سبب الفرار وطلبه .

ويقول الله في آية أخرى « وما أموالكم ولا أولادكم بالئى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا » فالمال والولد يمنان وهما لا يقربان إلى الله لأنهما وسيلة والوسيلة لا تكون مقصدا ، فإذا جعلت مقصدا ساءت الحال وكانت سببا وكفرا كما قال تعالى هنا « وزهق أنفسهم وهم كافرون » .

#### إيضاح

لما وصلت إلى هذا اللقاه حضر أحد الفضلاء من أهل العلم ، ولما اطلع عليه سألنى قائلا : أين النطق الذى فى المخلوقات حولنا والناس لا يفهمونه كما تقول ؟ قلت : نطق الطير ونطق المخلوقات كلها ، فقال : مامعنى هذا القول الذى يشبه قول الصوفية والرموز التى لا تفيد ؟ قلت : نحن الآن فى مقام الحكمة والعلم والبرهان ، إن الطير ناطقات بما ذكرناه الآن . ولكن العاقمة والجهلاء يظنون أن النطق هو ما تتخى به أو تتغاضى به أمثالها ، كلا ! بل نفس الطير والحشرات وجميع الدواب عبارة عن كتاب كتبه الله بيده ، كتبه لنا وأكثر الناس لا يعلمون .

ألم تر إلى ما ذكرته من حكم الحشرات وتبيان حياتها وموازنتها بحياة الإنسان ، ألم يكن هذا أفصح من نطق اللسان ؟ أليس نظام ذريتها وتدير الله فى حفظها وحبه لنا فى أموالنا وأبنائنا كافيات فى فهمنا أن حياتنا عذاب ؟ فلما أن جهل الناس هذا الكتاب الذى كتبه بيده أنطق الله بهذا المعنى الرجال والنساء وختم بالشعراء من العرب والعجم كما تقدم ، وأزل فى القرآن ما تقدم من الآيات يقول « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » ، ويقول « ومن كل شئ خلقنا زوجين لئى » كما تقدم ، ويقول هنا « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم » .

أليس هنا هو الذى يقوله الطير فى جوق السماء ؟ فقال : مامعنى هذا ؟ قلت : الطير مخلوق ترفع فى الهواء وتعالى عن الهواء فى التراب ، والسماك فى البحر ، والبهائم فى الأرض ، نظر إليها الطير نظر احتقار وفارقها وساح فى الهواء والحربة ، الناس يرون هذا وكأن الطير يقول : أيها الناس اعبروا البحر وسيروا فى الأرض وطيروا فى الجوق . فهذا كله لا يفنيكم شيئا ، فأنتم محبوسون فى الكرة الأرضية وفطركم نحن إلى عالم أرقى فأخرجوا إلى عالم أعلى بالعمل كما خرجت أنا من عالم الماء والتراب وظاهر الأرض إلى الهواء .

هذا هو بعض النطق الذي نطقه الطير لسلطان عليه السلام في قوله تعالى على لسانه «يا أيها الناس علمنا منطلق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين» فهل ترى أن إيتاء كل شيء وإيتاء الفضل المبين لمعان صمليات نخطر بفرأز الطيور في جوف السماء، أم هي هذه اللعاني وأمثالها التي نطق بها كل شيء قبل نزول القرآن كما قال تعالى «قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء» فنطق الناس بالتبرم من الحياة، ونطق الشعراء كذلك، ونطق الطير في الهواء، ونطق كل شيء هو الذي نزل به القرآن، فقال لنا ما قالته الطيور والحشرات والحوام والشعراء، ودم لنا المال والولد اللذين هما وسيلتان لامقصدان، لماذا؟ لأن الإسلام دين الفطرة، فما أنت ذا رأيت الفطرة في هذا القول واطلمت عليها؟ وهذه الفطرة التي أبرزها الله بتوحيه خلقه في طير وحشرات وغيرها وفي كلام الناس والشعراء أبرزها في القرآن، هذا معنى كون القرآن «ذكرى للعالمين» أي يذكرهم بما حولهم وما تحس به نفوسهم وهم عنه غافلون.

غفلة الناس عن الجمال وعن الفهم وعن النعم عاتمة

قاعدة: قد يكون الناس أشد غفلة عن أعظم النعم وأوضح النطق وأبهرا الجمال، ألا ترى أنهم لا يعتبرون الهواء نعمة مع أنه أهم من الخبز والماء، ذلك لأنه مبدول لهم وهم لا يقدرّون النعمة حق قدرها إلا إذا منعت، وعلى قدر النعم يكون حفظ الجليل ولذلك يفرحون بالحلى من الذهب والفضة أكثر من الخبز وبالخبز أكثر من الماء، فأما الهواء فلا يذكرونه.

إذن معرفة النعمة معكوسة مقلوبة، ثم إنهم يخاطبون بلسان أفصح من اللقال في أنفسهم وفيما يتعلق بهم، واللسان الذي يخاطبون به أفصح من اللسان المعتاد جدا، فالجوع والبرد والمرض والعطش وآلام الأم لبكاء ارضيع: كل هذه ألسنة ناطقة تحثهم على الأكل والشرب واللبس والتداوى وإرضاع الولد فقد يمتثلون ولكنهم لا يعقلون أن هذا إلهام وتفهيم بل يساقون لها كما تساق الأنعام، وإذا ساقتهم تلك الآلام التي جعلناها أفصح من الألسنة فإنهم كثيرا ما يألمون ولا يعقلون مثل ما يألمون من محوم الحياة فلا يعقلون ما المخرج.

ومثل ما يحصل للمسلمين الآن من التلذذ بسبب جهلهم وقلة اعتمادهم وتعاضلهم فأذلتهم الأمم، كل ذلك حاصل وهم لا يعلمون أن ذلك كله أفصح من اللسان وأوضح بل هو أفصح من منطق الجوع والمرض، لذلك أنزل الله في كتابه «فزرناهم بالسنن» وأنزل «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو» وأنزل ما هنا وهو أن الأموال والأولاد عذاب، وكما عقلوا عما ينزل بهم من العذاب عقلوا عما حولهم من الجمال الذي يطالبهم بارتقاء نفوسهم؛ فبينما أموالهم وأولادهم تمنعهم يرون النجوم الجميلة الراضعة تنظر إليهم باسمة وتشرق حولهم ضاحكة وتشير إليهم مسلة وهي باهرة الجمال، حسنات الأشكال تناديهم أن انتهزوا الفرصة اليوم واجعلوا أموالكم وأولادكم معينين على إسعاد المجموع الإنساني حتى لا نسجنوا فيها، فجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل النافع العاتمة حتى تحفظوا بالجمال الذي تجهلونونه اليوم.

إن من الناس من يدرك جمال النجوم وهو في الدنيا فيعشق العلوم عشقا فيكون عنده للمال والولد ولكنه منرم القلب بالعلوم، فلا يصدّه مال ولا ولد عن ذلك الجمال ويجاهد بنفسه وبماله في سبيل الصالح العاتمة التي سبقت لها هذه الآية حثا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على الجهاد والخروج من سجن المال واولد إلى إسعاد المجموع.

ظهور بعض سر هذه الآية في هذا الزمان

لا تظن أن النوع الإنساني غافل عما ذكرناه، فاعلم أن الحرب الكبرى إنما جاءت من أجل المال والاستعمار والاستئثار بالسلطان.

ظهرت الاشتراكية فانظر الكلام عليها في سورة البقرة عند آية الربا ، هناك تعلم أن القوم يريدون أن يكون كل امرئ ميسرا للجموع ، أي أن يكون الناس كأعضاء جسد واحد وتكون النافع أكمل ، وهناك ذكرت لك أن الإسلام لم يقتصر على الزكاة بل جعل مال المسلم للجموع طوعا لا كرها .

ومن عجب أن هذه الفكرة منتشرة بين مئات آلاف الآلاف من الناس ، فقد جاء في الأخبار أيام كتابة هذا الموضوع في أواخر شهر إبريل سنة ١٩٢٧ أن شابا فقيرا اشتراكيًا لا يجد قوت يومه قد وفقه الله إلى كشف حديث في التصوير الشمسي أكثر إسراعًا في إبراز الصور بأعمال قليلة فباعه بنحو مائتي ألف جنيه فنزل عنه جميعه ، فبعضه إلى للعوزين من الصوّرين وبعضه من غيرهم .

إذن هذه التعاليم في أصلها موافقة للفطرة ، لأنها تجعل الناس ينفع بعضهم بعضا ويخرجون من ذل الدال بالمساعدة العامة ، إذن القرآن نطق بما في الفطرة ، والفطرة أبرزت هذا للذهب .

وإياك أن تظنّ أنّي أيسح الاشتراكية ، كلا ! وإنما أقول معنى هذا أن الناس لما رأوا الشح الطامع والهوى للتبجح خرجوا بمقولهم من ذلك بما يقولون ولنا ندرى ماذا يصنعون ، وإنما اللهم أن القرآن طلب أن يكون الإنسان مساعدا للجميع فصرّفناه ، فإذا كان عملهم موافقا له كل للواقعة أقرنناه وإن اعرف عنه نبذناه أو هذبناه ، فليس اللقاع في الاتباع وإنما اللقاع في الحكمة والعلم ومواقفة القرآن لفطرة الإنسان ، وهذا هو معنى كونه دين الفطرة « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » اه .

#### اللطيفة الخامسة « إنما الصدقات للفقراء ، الآيات »

(١) لا يجوز صرفها إلى بعض الأصناف مع وجود الباقيين وهو قول عكرمة والشافعي ، وقد سقط سهم العامل وسهم للؤلؤة قلوبهم إذا قسم الدرر زكاته بنفسه ويعطى ثلاثة من كل صنف .

(٢) لو صرف الكل إلى صنف واحد أو إلى شخص واحد جاز من هذه الأصناف كلها ، وهو قول عمر وابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وسفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل .

(٣) إن كان المال كثيرا يحتمل الأجزاء فرقه على الأصناف كلها وإن كان قليلا وضعه في صنف واحد .

(٤) يقدم الأولى فالأولى من أهل الحاجة ، فإذا رأى الفقراء حاجتهم أولى قدمهم وهكذا ، وهو قول مالك ، ومتى أعطى أحدا صدقة وجب أن لا يزيد المعطى عن أقل مقدار يسمى به غنيا فأقل التقى لا يجوز الزيادة عليه .

والأئمة هنا مجال في القدر الذي يعطى وكل يرى بحسب اجتهاده؛ فالشافعي يقول بوجوب دفع الحاجة من غير حد ، وأبو حنيفة يكره أن يعطى رجل واحد مائتي درهم ، وأحمد بن حنبل كره أن يعطى أكثر من خمسين درهما اه .

واعلم أن الحق يؤخذ من مجموع هذه الأقوال ، فلي رجال الحل والعقد في الأمم الإسلامية أن يؤلفوا لجنا تنظر في أحوال الأمة ، وهناك توزع الصدقات توزيعا شريفا ، وأهمها أن تصرف لأرباب الحرف الشريفة النافعة للأمة فيكسبون من كد أيديهم ، ويجب أن يمنوها عن الكسالى ويأمرهم بالشغل ويعطوهم من الزكاة على مقدار مايساعدون في اجتهادهم ولا يعطوهم جزافا .

فالحق في هذه المسألة قد تضمنه أقوال الأئمة رضوان الله عليهم وعلى الأمة الإسلامية الجدة والاجتهاد . وهما م أولاء قد رأوا بأعينهم كيف أدت النفلة إلى ضياع بلادهم وجهالتها العمياء ، وإلى الله عاقبة الأمور .

اللطيفة السادسة قوله تعالى « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب الخ »  
اعلم أن هذه السورة قد خالفت أكثر القرآن ، ألا ترى أن الله مازك صغيرة ولا كبيرة في غزوة تبوك  
إلا أصابها .

فيا عجبا ! ضحكة يضحكها الأصدقاء فينزل الوحي بالمؤاخذة عليها ، إن هذا لأمر عظيم وقد عهدنا النبوة  
لاتبالي بمثل هذه ، والنبي صلى الله عليه وسلم عفو ، فكيف رأينا الله في هذه السورة يحصى على الناس ضحكهم  
في أوقات خلواتهم ، فإذا سئلوا قالوا « إنما كنا نخوض ونلعب » ثم إنهم يهددون بالهلاك العاجل والمقوبات  
العظيمة ، وانظر كيف يقال لهم « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة » وذكر قوم نوح وعاد ومحمد  
وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات .

كل ذلك تهديد للناقضين الذين يعد عليهم تلك الهنات والضحكات ، فيألت شعري كيف انقلب الأمر  
في هذه السورة حتى أصبح السلم يؤاخذ على ضحكة يضحكها ويهدد بأنه أصبح كالأمم السابقة .

### الجواب

اعلم المهلك الله الرشد أن هذا هو النظام الذي يجب اتباعه ، فإن الأمة إذا تركت بعض أفراد منها خارجين  
عن نظامها يحقرون دينها وعقائدها ويخرجون عليها كان هؤلاء جرثومة فساد يسرى في غيرهم ، ومثل هذا  
الهاء إذا انتشر في الأمة ضاعت قوتها وذهبت ريحها .

فالاعتماد لا يكون إلا بفكرة جامعة ، ولا جامعة في هذا القام إلا الإسلام ، فإذا سخروا منه فلا دولة  
ولا نظام ولا حرب ، إنما يملحون باسم الدين ، فإذا سخروا منه فقد دل على كرههم له ، فإذا لاحرب  
ولا نظام ولا غلبة على الأعداء .

واعلم أن الأمة الإسلامية اليوم لم يضعفها إلا جهلها ، فلا هي بالدين اتحدت ولا بخيره انفقت ، وسيكون  
لها بعد اليوم شأن ورفعة ومجد « والله هو الولي الحميد » .

جوهرة في الكلام على قوله تعالى « قل أبأبته وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ »

الكلام عليها ينحصر :

- (١) في الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم .
  - (٢) وفي الاستهزاء ببعض النسويين للدين .
  - (٣) وسبب ذلك الاستهزاء .
  - (٤) ونتيجته من ازدياد الجهل في الاستهزى وازدياد العلم والسعادة في الدنيا والدين للاستهزأ به .
- (١) أما الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد علمته ، وذلك أن بعض الناقضين أخذوا يخوضون في الحديث  
في غزوة تبوك ويقولون : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام إلى آخر ما تقدم .  
ولا جرم أن ذلك الاستهزاء راجع لقصر النظر وضعف البصيرة .
- (٢) أما الاستهزاء بالمتدينين فذلك مستفيض في الأم الإسلامية للتأخرة .

ويانه أن للسلفين بعد العصور الأولى خارت عزائمهم وضل كثير منهم طريق التعليم بسبب الأحاديث  
التي وضعها الواضعون كما في كتاب [الإتقان في علوم القرآن] للسيوطي وغيره رحمهم الله تعالى ، فقد تطوع  
قوم ووضعوا أحاديث في فضائل السور وقراءتها ترغيبا في القرآن ونجيبا في تلاوته لزعيمهم أن الأمة رضوان  
الله عليهم مثل أبي حنيفة والشافعي قد صرفوا الناس عن القرآن إلى مذاهبهم وقد أقرؤوا بذلك وأنهم يرغبون  
الثواب من الله بهذه الأحاديث فانقسمت الأمة إلى طائفتين : طائفة تحفظ القرآن عن ظهر غيب تعبدوا



أو طلبا للكسب أو للهرب من الجندية ، وطائفة تحفظ كالأولين ولكنها تعرف العلوم العربية والفقه وأصوله  
وقنّ التوحيد والباطن وما أشبه ذلك .

وهذه الطائفة بسمها ينظر لها بعض الأمة نظرة الاستهزاء ، يقولون : إن حفاظ القرآن ليسوا بمتعلمين  
فيعدّونهم في مصاف الجهلاء ، وعلماء الدين غالبا يجهلون نظام هذه الدنيا ويظنون الفقه والأصول والتوحيد  
هي كل ما يطلبه الدين ، فهنا يكون استهزاء ان : استهزاء من هؤلاء العلماء بجميع العلوم وتكبر عليها غالبا ،  
واستهزاء من بعض الناس بهم لما يرون فيهم من قصور الباع في نظام هذه الدنيا وعلوم الفلك والطبيعة  
وما أشبه ذلك .

ومن أسباب الاستهزاء بحفاظ القرآن وبعض علماء الدين كما قرّره ابن خلدون أن التعلّم على الطريقة  
القدمية كان يلقى إليه العلم ويضرب ويهان فيمرّن من صفه على الدقة والاستكانة والضعف فتصوّت فيه غريزة  
الشرف والنخوة والشتم والمزينة وتخوّر قواه فلا يصلح للدفاع عن البلاد ، ولذلك ينظر له الناس  
نظرة للضعف للسكنين الجبان ، ذلك لما اعتاد من صفه على الدقة وانكسار القلب والضرب  
والخضوع الأعمى .

هذا ملخص ما يقوله العلامة ابن خلدون في البقّة ، أما سبب استهزاء العالم الديني نفسه بالعلوم الأخرى  
فذلك لقص التعليم فيشبه ويشبه معتقدا أن ما عدا فقه الشافعي والحنفي مثلا وما وراء الكتب للموضوعة  
في التوحيد والأصول إنما هو هراء لا يحصل له .

وأضرب لذلك ثلاثة أمثال :

[ للثل الأول ] أنه جاء إلى مصر منذ نحو ٢٠ سنة أمير هندي يسمى جمال وهو من مدارس بالهند  
ومعه مترجموه وقد مرّ على الإستانة وأخذ فتوى من شيخ الإسلام هناك ، ولما جاء إلى مصر أخذ فتوى من  
شيخ الإسلام ، ثم جاء إلى يأخذ مني كتابا عما يأتي :

قال : قد فتحت مدرسة في مدارس على تفقّي الحاشية فخرّم علماء الدين التاريخ والجغرافيا ، فبكتبت  
أقول : [ إن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية والسهلون جميعا آمنون بتركها ] .

[ للثل الثاني ] جاء إلى مصر سرّي من سراة الهند ، وقد أدخل ابنه في المدرسة التحضيرية بدرب  
الجماميز وافق أي كنت هناك فمرّفوه بي ، فقال لي ما يأتي : إن أسرتنا كبيرة جدا فمنها في كل مدينة طائفة  
وهم جميعا يرون أن إدخال أبنائهم في المدارس عار وعيب ومغار للشرف فأنا لم أقدر أن أدخل ابني في مدارس  
الهند فأتيت به إلى هنا بعيدا عنهم حتى لا يسلفوني بالسنة حداد .

[ للثل الثالث ] جاء إلى بلادنا منذ ثلاث سنين عالم صيني يسمى ( وان وين كين ) وقد قال لي ما يأتي :  
إني أرسلت من قبل أربعة قواد من قواد المسلمين في الصين لهم أمر مطاع ، ولما فتحوا أعينهم إلى  
بلادهم وجدوا أن المسلمين أجهل الخلق في الصين على الإطلاق وكل علمهم راجع إلى الطلاق والبيوع والحيض  
والنفاس وما أشبه ذلك ، أما الوثنيون فقد ضربوا في كل علم بسهم ، قال : فما أنا ذا مررت على بلاد  
جاوه والهند لأعرف كما طلبوا مني هل ديننا محرّم من العلوم وقاصر على الفقه ، والعلم محرّم على السلم ولا ينهم  
به إلا كل كافر بديننا ؟ قال : فما مررت في تلك البلاد لم أجد أثر العلم فوق ما هو معلوم بديارنا ولكن  
في مصر وجدت حركة أجري ، وها أنا ذا ترجمت كتابك [ القرآن والعلوم العصرية ] وترجمت أيضا [ تفسير  
الفاحة ] وسأرجع إلى بلادى بذلك وبغيره من كتب العلماء بمصر .

هذه أمثال ثلاثة تعرف بها كيف كان استهزاء علماء الدين في أمة الإسلام بالعلوم في زماننا وذلك بلوران  
والنفة والساج من الشيوخ الجاهلين ، والجاهل يكون تليذه مثله .

نتيجة الاستهزاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زماننا

أما نتيجة الاستهزاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فهي واضحة فقد سماهم الله منافقين ، ومعلوم أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار .

أما عواقب الاستهزاء في زماننا الحاضر ، فاعلم أن عاقبة الاستهزاء بالنبي الانصراف عنه احتقارا واستكبارا ، وإذا كان الله يقول في الكفار « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سيل النسي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

وإذا كان سبحانه يقول « وإذ لم يهتدوا به فسبقولون هذا إفك قديم » فهذا وإن كان في الكفار فليس معناه أن يكون السلم للنصر عن العلم تكبرا واستهزاء واحتقارا قد انصرف عنه الدم والتقرير بل هو ملوم مذموم داخل في العذاب المون الذي ليس بمخلد ويلحقه شؤم عمله وذلك بطريق الاعتبار .

وإذا كان الله يقول في الكافر « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء الخ » فهكذا السلم القادر على العلم المحتر له يلحقه الدم والتقرير بطريق الاعتبار وإن كان موقفا مسلما ، ولكن هذا رجل ناقص أو فاسق لأنه ترك فرض الكفاية أو فرض الدين ، فهؤلاء من أي دين ومن أي نحلة لا تفتح له طرق العلم التي لا تفتح أبواب السماء لهم إلا بمغابحه ؟

#### قاعدة

كلما زاد الاستهزاء به كلما يزيد للستهزى وبالا ، فإذا استهزأ عالم الدين الذي جهل علم الفلك وعلم النبات وغيرها بمن يتعلم ذلك ، فإنه لا محالة يقف في موقفه ولا يتخطاه فبرى غيره سبقه إلى تلك العلوم وأدركها .

فكلما زاد غيره علما من العلوم زاد هو له احتقارا فيكون هو أكثر جهلا والذي كان موضع احتقاره أكثر علما ، ولهذا الإشارة بقوله تعالى « الله يستهزى بهم ويمدّم في طغيانهم يعمهون » فكلما كان الصحابة يزدادون هدى بالآيات القرآنية كان الكفار يزدادون طغيانا بالكفر بها وجحودا .

هكذا هؤلاء الناقصون في العلم في الإسلام كلما زاد غيرهم علما بجمال الله وآياته ومجائب سمواته وأرضه ازدادوا هم إنما وجهلا .

وبرى بعض المسلمين بل السواد الأعظم منهم أن أهل أمريكا والصين واليابان وأوروبا والأمم الوثنية قد اعترفت من موارد رحمة ربهم وإن كانوا منحرفين عن التعاليم الإسلامية وهم لا يزالون مستهزئين بتلك العلوم محترقين لما ظنوا منهم أن الإيمان يكفيهم والنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحدها تشفيهم بلا علم وفاتهم أن يقرءوا قوله تعالى « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا الخ » فالكفار ظنوا أنهم يحسنون صنعا فهم أخسرون أعمالا بكفرهم .

هكذا السلم إذا ترك أكثر الدين وظن أنه كامل فهو من الأخسرين أعمالا وإن كان لا يخلد في النار لأنه يحسب أنه يحسن صنعا وهو غافل عن آيات ربه .

الاستهزاء بالآيات المذكورة في هذه السورة وضحت في (سورة يس) والقرآن يفسر بضمه بضا وعبر هناك بما هو أشد للاستهزاء وهو الحسرة إذ قال تعالى « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون » ثم عدد ما يعتبرون به فذكر هلاك القرون الماضية ، وذكر أن الأرض من آيات الله ، وهكذا الحب والجنات من النخيل والأعناب والليل والنهار والشمس والقمر ، وكذلك الحمل في بطون الأمهات

أو حملهم في سفن البحار وهكذا ، فهذه مجامع الآيات للاستهزاء بها وهي تشمل أكثر العلوم فهي عبارة عن العلوم الأرضية والعلوم السماوية .

هذا هو الذي أخرجه الله في معرض النحر على عباده وهو آيات الله المذكورة هنا ؛ فالمسلم وإن كان لم يستهزئ بالرسول فقد أتى بأهمه وهو الجهل بهذه العلوم ، فالمسرة عليه كالمسرة على الكافر ، وإن كانت المسرة على المؤمن لفسقه بالجهل إذا كان قادرا على العمل بجمال الله وآياته وترك ذلك احتقارا له ، والمسرة على الكافر لأنه ترك الإيمان ، والإيمان رأس العلوم كلها .

#### قاعدة

أكثر الناس تعرضا للاستهزاء أكبرهم ، فما من رسول ولا نبي ولا عالم نافع إلا كان في أول أمره موضع السخرية من عارفيه احتقارا لطله واستصغارا لشأنه ثم يظهر أمره ويعلو شأنه والمستهزئون في غمرة ساهون ثم يموتون فلا تسمع لهم ركزا ، وأكثر الناس استهزاء أقلهم علما وأحظهم شأنا .

ولعل لتلك الإشارة بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن » وبقوله تعالى في نوح « ووصنع الفلك وكلا مرة عليه ملا من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون الخ » .

ومن أكبر العار والشنار على الأمم الإسلامية أنها تركت الصناعات التي ملأت الشرق والغرب استهزاء واحتقارا لشأنها ؛ فأصحاب هذه الصناعات قد أحاطوا بنا من كل جانب .

ولقد نشأت بلاد الشرقية في بلاد زراعية فلم أجد لأحد شرقا في نظرهم في قريتنا إلا أصحاب المزارع الواسعة ، أما التجار والحداد وغيرهما فليس لهم احترام ، مع أن أمريكا بلغ عدد الصناعات فيها (٧٠٠٠) صنعة .

كل ذلك للعادة والإلف والجهل والاستهزاء « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » .

وملخص ما تقدم أن الاستهزاء لا يصدر إلا من نفوس ناقصة ، وأن كثيرا من المسلمين يستهزئون بالعلم وبالصناعات وذلك كان من أهم أسباب الضعف والانحلال الذي عم الأمة ، وليس يخرجها من مأزقها إلا تعميم التعليم وجعل التعليم الديني بهيئة مشوقة فيها جمال العالم كله بحيث يحبها الأطفال فيرغبون في العلم شوقا ولا يرهبون ويضربون ، وليأخذ للتعلم من كل فن طرفا وتوزع العلوم على مجموع الأمة وليكن رجال الدين جميعهم قادرين على حمل السلاح ليكون عندهم الشم والإباء ويتعلموا علم الجندي ، بل ليكن المسلمون جميعهم شجعانا مدربين وهم في قراهم على السكفاح والجلاد ، فهذا مجامع ما يمنع الاستهزاء ويصرف المسرة عليهم إلى إغداق النعم لهم والمجد لله رب العالمين .

#### آثار الاستهزاء في بلاد الإسلام

مرّ في بلاد الإسلام وسل عن الصناعات وقل لهم إن العالم قد ارتقى بالصناعات فلا تسمع إلا احتقارا .

إيضاح أنهم للاستهزاء بآيات الله

ضرب مثل للاستهزاء بآيات الله ، مواكب الله ومواكب اللوك والدول في عصرنا

(١) مواكب اللوك والدول هي الجيش والسلاح تعرض على الجمهور .

(٢) مواكب الله ثلاثة صفوف :

(أ) الشمس والقمر والنجوم .

(ب) الجبال والشجر والسواب .

(ج) النطاد والطيارة والبريد البرقي (التلغراف الذي له سلك والذي لاسلك له) .

شرح هذه اللواكب وكيف يكون الاستهزاء بها والإعراض عنها وما نتجة ذلك

الكلام على مواكب اللوك والدول والاستهزاء بها وكيف يكون ذلك

إن الله عز وجل أنزل القرآن وضرب الأمثال على أننا في الأرض لانقل للعاني الإلهية لإبضرب الأمثال من أنفسنا كما قال تعالى « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء الـح » أي أن الإنسان إذا كان له عبيد فإنه يأبى أن يشاركوه في ملكه ، هكذا ضرب مثلا لتوره بالمشكاة التي فيها الصباح الذي في زجاجة الـح ، فما نحن أولاء نريد أن نعرف معنى الاستهزاء بـضرب مثل مما نشاهد في الدول الحاضرة لنعقل معنى الاستهزاء ونعمل بما نفهمه كما ضرب هو الأمثال ، فنشرح أولا كيف يكون الاستهزاء بالمواكب الدولية لقيس عليه الاستهزاء بالمواكب الإلهية ليظهر لعلاء الإسلام في الأرض أننا وقعا في هذا الاستهزاء وإن كنا به غير عالمين .

لقد جرت عادة الأمم الحاضرة أن تظهر عظمها أمام الأمم المحكومة فتبث الجيوش مدججة بالأسلحة وتأسر بمرورها في الشوارع وفي البيادين العاتمة في عواصم البلاد التي حكمتها أو احتلتها أو ملكتها فتوقع الرعب والهيبية والإجلال والإعظام في قلوب الرعايا فتحصل النتيجة وهي الخضوع للأمة الحاكمة ، ولكن في عصرنا الحاضر لما تنوّرت العقول وأضاءت البصائر فكثرت بعض الأمم في ذلك فتأملت تلك اللواكب بالإعراض والاستهزاء .

فانظر لما حصل في الهند في عصرنا الحاضر إذ أرسل الإنجليز وليّ العهد إلى بلادهم فأعرضوا في بعض العواصم ونولوا مدبرين وأقتلوا الحوائث والبيوت كأنهم يقولون نحن لانا به بوليّ عهدكم ولا يهبوشكم . وهكذا في إرلانده كانوا إذا أرسلوا فرقة وعرضوها بـسلحها أقبل القوم منازلهم وحوائثهم وتركوا المرور في ذلك الشارع الذي تمر فيه الجيوش .

هكذا أمتنا للصربية سنة ١٩١٩ م لما نارت تأثرتها على الأمة الإنجليزية فإنهم أرسلوا لجنة برأسها عظيم منهم يسمى ( ملتر ) وهو من لورداتهم الفخام فقاطمه جميع أهل البلاد ، وإنما فصل أبناء بلادى ذلك اتباعا لما يسمعون عن الأمم الأخرى العاقلة إذ يفعلون ذلك ، وهذه الأفعال تنتج نتائج : إما تخفيف العبء عن الحكوميين ، وإما إرسال المدافع لهم وإذلالهم ، وإذا عرفنا للثل الأول الذي يختص بأهل الأرض فلنتشرع فيما هو القصود وهو اللوكب الإلهى والإعراض عنه فنقول :

عرفت في للثال الأول الذي ضربناه مثلا للإعراض عن مواكب الله تعالى وأن الإعراض والاستهزاء ليسا باللفظ وإنما هو بالعمل ، هذا هو الاستهزاء العملى وهو أقوى وأشد وأسرع وأمضى من الاستهزاء اللفظى .

فانظر ما يقول الله في الاستهزاء بمواكبه ، يقول الله في سورة الجاثية « أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم » إلى أن قال « وقيل اليوم نساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا » إلى قوله « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرّتم الحياة الدنيا » إلى قوله « فقه الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وقال في سورة أخرى « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا صغتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » وقال في آية أخرى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » .

علم الله أن المسلمين سيفعلون عن آياته ويظنون أن النطق بالشهادتين والاعتقاد بالله وأنبيائه كافيان لحفظ

أمة الإسلام في الدنيا والدين ، فماذا فعل الله ؟ هاهو ذا أبرز لنا الصنفين المذكورين في مواكبه : صف الشمس والقمر والنجوم ، وصف الجبال والشجر والدواب ، هذان الصنفان معروضان لأنظار السليين في مشارق الأرض ومغارها ، عرضها الله علينا جميعا وخلق لنا الأسماع والأبصار ورأيناها بأعيننا فنعلمنا مع هذه اللواكب ما فعله أهل إرلاندة مع الجيوش الإنجليزية وما فعله الصربون أهل بلادى معهم ، وهكذا بعض أهل الهند ، أروانا الله هذه اللواكب وهي ستة أنواع : أربعة منها نهارا وهي الشمس والجبال والشجر والدواب ، واثنان منها ليلا وهي القمر والنجوم وقال لنا « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » وقال « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » وهكذا فأفادنا أن هذه آياته كلها ، فالشمس آية والقمر آية والنجوم آية وهكذا .

فهاهو ذا عرضها علينا فرأيناها بأبصارنا وأسماها بالآيات القرآنية أن هذه آياته ، لماذا قال ذلك ؟ ليـجعل علينا أن الاستهزاء بها والإعراض عنها استهزاء . بآياته فانطبق على أكثرنا قوله تعالى « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها الخ » وقوله « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا الخ » فهذه آيات الله بنص القرآن وهي مواكبه التي عرضها علينا .

علم الله أن بعض الأمم ستقابل حكامها بالإعراض فيكون ذلك علامة على المصيان فأرسل قوله تعالى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » فجعل مجرد الإعراض كافيا لعقاب الكفار . وهاهو ذا الإعراض عرفناه بأنفسنا في الأرض من الأمم المحكومة وترتب عليه ما عرفه الناس .

أعرض المحكوم عن الحاكم وموكبه فأوجب الإعراض أثره ، هكذا أعرض السلم عن مواكب ربه فحصل أثر إعراضه في أحوال الحياة ، قد عرفت آية الجاثية إذ يقول « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا » ثم أتبعها بذكر أنه له الحمد وأنه رب العالمين وأن كبريائه في السموات والأرض ، فإذا استهزأ الناس بآياته فهو متصف بوصفين . وصف الكبرياء والتعالى ، ووصف الترية ، هو الرقي وهو للتكبر ، فإذا فعل للربي التكبر للتعالى بمن يستهزئ به بمن رباهم على موافق كرمه وإحسانه وعرفت أنه حفظ السماء التي أعرضا عنها وإنما حفظها من أمرين : إدراك أسرارها ، والمروج من أهل الأرض إليها .

فأما إدراك أسرارها فلم يعرف الناس منه إلا التزير اليسير ، وأما المروج إليها فإن الطيارات في وقتنا الحاضر ترتفع إلى حد معين وأعظمها وأقواها لا تتجاوز حدا محدودا ثم لا تقدر أن تتجاوزوه . إذن السماء حفظت من صعودنا إليها ومن إدراكنا لأسرارها ، ولم يكن لنا منها إلا أنها مواكب قد عرضت علينا فكنا عنها معرضين .

حفظت السماء وحرسها بالشهب وحرم على الناس أن يعرفوا إلا ما وصل إليهم ، تكبر الله وتعالى وتعاضل وعلم أننا أعرضا عن آياته فأرسل لنا الصف الثالث من مواكبه وهو الطيارة والنظاد والتلغراف ، هذه مواكب غير طبيعية بل هي صناعة ألقاها إلى العقل الإنساني من وراء الحجب والأستار التي أسدلها على علوم السموات والأرض وأنزلها إلينا مع كبريائه ، فالكبرياء هي الصفة التي اقتضت حجب العلوم عنا ولا ينزل علما منها إلا بالجد والتعب والتشمير إذ لم يعلم الناس الطيارة والنظاد والبريد البرق بقسميه إلا بعد الجهد والنصب والتعب ، إنه متكبر وإنه مربى ، فلـكبريائه أحرس السموات وعلومها فمنعها ، ولتريته أعطانا منها ما اجتهدنا في البحث عنه ، وسترى الكلام على الطيارة والنظاد الخ في سورة النحل عند قوله « ويخلق ما لا تعلمون » والكلام على الشمس والنجوم والشجر قد مر في سورة الأنعام وغيرها ، وسيأتي الكلام على الجبال في سور كثيرة كسورة الفاشية وكسورة الرعد وغيرها .

ها أنذا قد أوضحت لك بفضل الله كبرياء الله بأن حرس السماء رجعها سقفا محفوظا وتربته فإنه يعطينا بعد الثب وكيفية الاستهزاء الفعلي الذي ظهر نظيره في الأرض ، إذا علمت هذا فاعلم أن الله لما عرض الصفيين الأولين من اللواكب وهي الشمس وما بعدها والجبال وما بعدها ونحن لانستيقظ بهما أردفهما بصف ثالث وهو الطيارة وللنظاد والبريد البرقي فأصبحنا نرى ثلاثة صفوف لاصفين .

فإنه عامل المسلم الآن معاملة الدولة القوية المتكبرة القاهرة إذ ترسل الدافع للمرضين عن مواكبها ، إننا نجهلنا بما في السموات والأرض من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب قد عصينا ربنا بالإعراض عن معرفة كماله وجماله وحكمه ، وهذا نوع من الاستهزاء العملي بالإعراض وكفى به ذنبا ولا ينفع المسلم ما يتعلل به من أن الإيمان كاف فإن هذه حيلة العاجزين .

ألم تسمع قول الله تعالى « أحب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » فالإيمان وحده ليس يكفي الأمة الإسلامية ، إن الله فتننا وامتنحنا برض السموات والأرض والجبال فأعرضنا فمرض علينا الطيارات فقربت منا بخلاف النجوم والشمس والقمر التي هي بعيدة عنا .

يقول الله لنا أيها المسلمون إن آياتي العظيمة الكونية أعرضتم عنها فهلا تفهمون آياتي الصناعية التي قربت منكم تتلقون رصاصها وقنابل مدافعها وآثار ضربها! وأنا أقول: أيها المسلمون كفى استهزاء بآيات الله . يقرأ المسلم القرآن وهو عن العلم معرض ، وينظر في مواكب الله وهو لا يعقل ، ويرى أم الأرض اغترفت من أنهار أنعمه فلا يبالي كأننا لم نخلق في هذه الأرض أو كأننا ميتون .

ها أنذا أقول لكم [أخطب قراء هذا التفسير لأنهم هم أصحاب الدين عليهم أعول في إيقاظ المسلمين ، بهم تشرق شمسا ويضيء نهارها ويفلح جمهورها] .

إن الفقيه والأديب والعالم المسلم الذي يعيش ويموت وهو لا يفرح ولا يعقل ولا يتفكر فيما ذكرناه كالستهزي وهو معرض عن آيات ربه بل هو ليس بعالم البتة هو جاهل وإنما هو صاحب صناعة يعيش منها كالقضاء والتدريس ، هل يرضى للمؤمن أو العالم أن يتصف بأنه مستهزي بآيات ربه !

أيها المسلمون اقرءوا هذه العلوم ولنكن عامة في الأمة كل بقدره ، وإلا فقد صدق علينا قوله تعالى « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إننا من المجرمين متقون » وصدق علينا قوله تعالى « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم » ولا معنى للإعراض من أهل سبأ إلا أنهم تركوا سد العرم ولم يصلحوه ولم يحافظوا على نظام البلاد ، وقوله « فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » هذا هو الذي فهمته في معنى قوله تعالى هنا فبما نحن بصدده من هذه السورة « قل أباؤه وآبائهم ورسولهم كذبتم تستهزئون » اه .

اللطيفة السابعة « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة » إلى قوله « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » تقدم الكلام عليها في اللطيفة قبلها ، وأزيد عليه : أن الله في هذه السورة يقول للمسلمين ما ملخصه :

إني أهلكم الأم السابقة بظلمها وأزات عليها المصائب والحزى بينها فلا تظنوا أنكم باسم الإسلام ناجون ولا يتابع نبي بحسب الظاهر من العذاب خارجون ، وكيف ينفعكم اسم الإسلام إذا غاب معناه ، ألم أقل لكم في أول سورة الأعراف « كتاب أزل إليك - إلى قوله - لتذره وذكرى للمؤمنين » فذكرت في السورة هناك هلاك الأمم وخراب الدول من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط وقوم شعيب ، فدعنا ذكرت تلك الأم هناك مخاطبا الكفار ذكرتها هنا مع زيادة ونقص فليكن الخطاب مع المسلمين الذين ناققوا إذا ما بأن اسم الإسلام لا يمنع العذاب ، وها هو ذا قد حقت كلمة العذاب اليوم على كثير من المسلمين لإعراضهم عن فضائل دينهم وهم ينامون لحقت عليهم كلمة العذاب .

فتعجب كيف قدم في سورة الأعراف أنه أنذر الكفار بمذاب كعذاب هذه الأمم ثم جاء في سورة التوبة وأوعد المسلمين أنفسهم : أي المنافقين منهم بنفس ما أوعده الكفار وقال هناك « وذكرى للمؤمنين » ولم يقل للمسلمين .

إن المسلمين قسبان : منافقون أنذروا في سورة التوبة ، ومؤمنون ذكروا في سورة الأعراف بما أصاب الكفار قبلهم ؛ فالكفار منذرون ، والمنافقون منذرون ، والمؤمنون يذكرون ، وكل بنى آدم في الدنيا لحوادث الأيام متعرضون

اللطيفة الثامنة « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم »

قوله « ذلك » راجع لرضوان من الله . اعلم أن أحوال الإنسان كلها ترجع إلى ما في نفسه فلاجنة ولا نار ولا لذات ولا نعيم ولا حور ولا ولدان ولا غيرها في الدنيا ، ولا في الآخرة لا ألم لها ولا لذة إلا إذا استعدت نفسه لقبول ذلك ؛ فالنفس مركز الآلام ومهبط اللذات ومنبع النعيم ومقام الجحيم ، فمن وضع في الجحيم أو الجنة وفقد الإحساس بما حوله بل هو في غفلة عنه فلا نعيم له ولا جحيم ، وكل نعيم وكل جحيم وكل لذة وكل ألم صادرة بإرادة خالق العالم ، فإذا أيقنت النفس أن لها ربها صلة وأنه راض عنها كان ذلك غاية الأمان ونهاية السعادة ، لأن القلب محل السعادة والشقاوة ، وما هو ذا قد أيقن بالرضا وأنه مقبول وأن العناية الإلهية رفقته فهو ذو صلة قلبية ؛ وهناك يحس بلذة لا تصورها نحن في الدنيا إلا بضرب مثل كأن تنظر إلى من يتقربون من الملوك ورضون عنهم كيف يحسون بسعادة ؟ وكأن تنظر إلى العاشق إذا علم أن معشوقه راض عنه لا صدود ولا هجر ، كيف يحس بلذة وسعادة لا يشعر بها بقية الناس .

فأما مقام الرضا من الله فهذه درجة يعرفها من صرفوا أعمارهم في الإخلاص والذكر والفكر والعبادة مع الفضائل النفسية « ولكل درجات مما عملوا » وهؤلاء لا يبالون بجنة ولا بخافون من نار ، لأن رب البيت أشرف من البيت ، والنظر إلى خالق الجنة أشرف وأهدى من النظر إلى الجنة ؛ كما أن محادثة الملوك ومجالستهم أهدى وأشرف من التمتع بطعامهم وشرايبهم عند ذوى النفوس الشريفة والعقول اللينة ، هذا ما يشير إليه قوله تعالى « ذلك هو الفوز العظيم » .

اللطيفة التاسعة قوله تعالى « وهووا بما لم ينالوا »

قد تقدم تفسيره ، ويقال أيضا إن اثنين عشر رجلا من المنافقين هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك ، ويقال إن حذيفة لما سمع وقع أخفاف الإبل وقمعة السلاح قال : إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا ، ويقال أيضا إن المنافقين قالوا إذا رجعنا إلى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي سؤل ناجا فلم ينالوا ، أقول وكل ذلك محتمل والآية لا تمنع .

اللطيفة العاشرة « قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون »

بأيت شعري أين الفقه وأين كون نار جهنم أشد حرا من حر الشمس على السافر إلى تبوك ؟ فما لفقه وما لذلك ؟ الإنسان يتأذى من حر الشمس وهو مسافر ولا سيما إذا كانت الشقة بييدة ، فأين نار جهنم حتى ننظرها ونقول إنها أشد حرا من هذه الحرارة الشمسية ؟ هذا هو السؤال الذى يختلج في العقول وإن لم تنطق به الألسن .

الجواب

اعلم أن الفقه لا يذكر إلا في الأمور الدقيقة ، وهذا اللقار دقيق لا يحمله إلا للفكرون ، فإن التواني

والتكاسل والباطل عن الحرب داع إلى اجتماع الأمم التي حول الكسالى عليها فيطشون أرضها ويذيقونها العذاب المهون .

وأيضاً قدّمنا في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن الأمم التي لم تحركها عواصف الدهر ولم تهجمها صائب الزمان ولم تهذبها الحروب يحيق بها الهلاك ، فإذا شئت أن توفى أمة محرّك فيها حركة الحرب والجهاد فإنها تنشط من عقابها وتقوم من سباتها وتستيقظ من غفلتها ، وإذا رأيت أمة هادئة ساكنة عاكفة على تفاليد عتيقة نائمة فاعلم أنها صائرة إلى الزوال ولا تترنك ظواهر الأحوال ، وقد قدّمنا خلاصة رسالة أرسطاطاليس إلى الإسكندر في هذا المعنى فلا نبيدها .

فإذا كان ترك الحرب في الدنيا هكذا شأنه فما بالك بالآخرة وقد قال تعالى « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً » ومن أصابهم الجهل والكسل في الدنيا فإنه يكون طبعهم للآخرة في الآخرة فيرسلون إلى دار تليق بهم ، وهذا هو عذاب النار ، فهل هذه المعاني التي لا تعرف إلا بمزاولة العلوم يعرفها إلا كل فطن لبق فهم ، هذا هو المراد بقوله « لو كانوا يفقهون » .

اللطيفة الحادية عشر ، والثانية عشر ، والثالثة عشر

في قوله « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » وفي قوله « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » وفي قوله « سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم »

يقول في الخلفين تارة « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » وتارة « وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » نرى عنهم الفقه مرة والعلم أخرى وحكم عليهم بأن قلوبهم منعت الحكمة بما طبع عليها فهي لا تضيء ما يرد لها من معقول ولا منقول ، وهذا يكون السلام فيه كالسلام في الذي قبله سواء بسواء فإن الكسالى عن الحرب تأخذهم صاعقة العذاب المهون ، ولعذاب الآخرة أشدّ (راجع اللطيفة للتقدمة) وأما قوله تعالى « سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم » ولقد تقدم أن العذاب (عذابان) عذاب الدنيا بالمصائب الكثيرة وعذاب القبر ، والعذاب العظيم عذاب جهنم .

واعلم أن الظلمة والقتلة والفتاك وجميع أرباب النفوس الشريرة لهم أنفس تطالبهم بالكمال وتهدهم وتذيقهم ألوان العذاب كما نص عليه سقراط في جمهوريته إذ قال : [ إن أولئك الملوك الظالمين والناس من حولهم يتنون بحسون بألم في نفوسهم على مقدار ما أجزوا وفاقاً وحياتهم شقاء ، وبال ] هذا معنى ما قاله سقراط ، وأقول : زد على ذلك في هذا المقام أن هؤلاء ظلموا بترك الجهاد فيحسون بوخس في ضارهم وأنهم عالة على غيرهم ولا أحد في الدنيا إلا وهو معذب بما فيها من المصائب في الأموال والأولاد والصالحون والظالمون سواء ، ولكن إذا كان للنفس مشرب ديني ومنهج أخلاقي احتسبت ثواب بما فاتها من أهل أو مال عند ربها واقلب الحزن بالرضوان وسعادة وأصبحت موم الدنيا لا تيممها ولا يهيبها الإنسان كأنه ملك عند ربه وكأنه رضى عنه ، فإنه إذا رأى المال والولد والرزق والذكر الحسن والصيت وكل ما يناله من خير وكل ما يصيبه من شر من عند ربه وما فاته من الخير يعتقد أن له عوضاً في الآخرة وما أصابه من الشر يعتقد أنه تسكيل لنفسه في الدنيا وثواب له في الآخرة ، فهذه الاعتقادات هي سبيل للرضا .

وقد تقدّم أن الرضوان هو الفوز العظيم ، وهذه الدرجة قد حرم منها اللبائق فهو أبداً مضطرب لفقد مال أو ولد أو صديق ولا يؤمن بالآخرة ، فانظر كيف كان الفرق بين النعيم والعذاب فكرة للفكرين ، فالجاهل معذب بالنعيم والعالم الحكيم سعيد على كل حال .



## الطيفة الرابعة عشر

وقد أخرج لطول الكلام عليها ، اعلم أن الله ذكر أصنافا من المنافقين فمنهم :

(١) للتأذنون في التخلف ليكونوا مع القواعد وهم أغنياء .

(٢) ومنهم من يقول أئذنى لى .

(٣) ومنهم من يلزمك في الصدقات .

(٤) ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن .

(٥) ومنهم من عاهد الله الخ .

(٦) ومنهم الذين يلزمون اللطوقين من المؤمنين الخ .

(٧) ومن الأعراب من يتخذ ما يفتق مفرما .

(٨) والذين اتخذوا مسجدا ضرابا .

(٩) وعن حولكم من الأعراب منافقون .

(١٠) ومن أهل المدينة الخ .

فهذه عشرة أصناف أهم من ذكر من أهل النفاق في هذه السورة ، ولهم في هذا المقام قوله تعالى

« ومنهم من عاهد الله » .

روى أكثر المفسرين قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري على غير الوجه الذي ذكرناه أنه سأل رسول الله

صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يرزقه مالا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ثعلبة قليل تؤدى

شكره خير من كثير لا نطقه ، ولما كرر ذلك قال له : أما لك في رسول الله أسوة حسنة ؟ والذي نفسى

بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت فلم ينتن عن الطلب وعاهد الله أن يعطى كل ذى حق

حقه ، فدعا الله رسوله فأخذ عنها فنمت كما ينمو اللود فبعد أن كان يصلى النهر والعصر مع النبي تباعد عن

المدينة لكثرة غنمه حتى صار لا يصلى إلا الجمعة ، ثم صار لا يشهد جمعة ولا جماعة ، ثم سأل عنه فأخبروه : فقال

يا ويح ثعلبة ! ولما نزلت آية الصدقة أرسل له النبي صلى الله عليه وسلم عاملين للصدقة ، فقال : ماهذه إلا جزية

ماهذه إلا أخت الجزية ، ثم قال اذهبا حتى أرى رأيي : فلما رأها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرها بالقي

صنع ثعلبة بطريق الوحي ، فنزلت الآية « ومنهم من عاهد الله - إلى قوله - وبما كانوا يكذبون » فأخبر ثعلبة

بذلك فجاء ومعه صدقته فلم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يحثو التراب على رأسه ، ولما تولى أبو بكر

لم يقبلها كذلك وكذلك عمر .

ثم اعلم أن المقصود من هذه الآية أن نقض العهد ونحوه من إخلاف الوعود إنما عند الله عظيم جدا

حتى أنه ورد في الحديث « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتهم خان »

وعدها في حديث آخر أربعة : « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر »

واعلم أن علماء المسلمين لم ينفهوا الأمة لمثل هذه الأمور وتركوا الأمة تكذب وتخون وتخلف العهد ولم يشعروا

بينها هذه الإنذارات والعظات كما أشاعوا نواقض الوضوء وشروط البيع وعدد الطلاق مع أن هذه

السائل أهم وأولى وأقرب إلى أصول الدين من غيرها ، ويجب على العلماء أولا أن يتخلقوا بها ثم ليشعروها

بين الشعب .

ومن كان في شك مما قلت فليتاأمل حال الأمة الإسلامية اليوم ، أو لا يرى أن تجارتهم بأثرة وجماعاتهم

متنافرة وأمواهم خاسرة .

أليس إخلاف الوعد وكذب القول والنقض في البيع كل ذلك نقر بعضهم من بعض فضاعت الأمانة

وصدق الفرجة فصاروا هم القائمين بالأعمال ولم يزلوا هكذا حالا بعد حال حتى احتلوا البلاد واستولوا على العباد واستعبدوا الناس في عقر دورهم ، ما هكذا يكون المؤمنون .

إن إخلاف الوعد والكذب والحيانة جعلت الناس أشبه بالناققين حتى أصبحنا في مصر نرى أن العامة لا يعتبرون الصادق ذكيا بل يقولون إنه غبي جهول ، اللهم أصلح أحوال العلماء والأمة الإسلامية بالصدق والأمانة « إنك أنت السميع العليم » .

ولتعلم أرشدك الله أن هذه الأخلاق التي فشت في المسلمين اليوم وأوقعتهم في براثن الفرجة جاءت مصداقا لهذه السورة .

ألا ترى أنه تعالى قد أوعد للناققين بتدبيرهم بقوم نوح وعاد وثمود الخ ، وهذه الأمم عذبت بألوان من العذاب وما ذلك الوعيد للمسلمين إلا على النفاق كما أوعد الكفار في السور الأخرى ، وهامو ذا يقول في الحديث إن الكذب والحيانة ونقض المهود وما أشبه ذلك نفاق وأنت تعلم من الآية أن النفاق يضيع سلطان الأم فيجعلها في قبضة أخرى ويهلكها .

وهذا هو عذاب اللؤنكات : أي الثقلبات ، وهذا انقلاب للأمم من حال إلى حال فتصبح في ملك أعدائها وتستخدم كالدواب ، فبعد أن كانوا سادة أصبحوا عبيدا .

فانظر كيف نص الحديث على أن الكاذبين الخائنين النادرين مناققون ، وانظر كيف أوعد الله للناققين في الآية بعذابهم وضياع دولهم وبمزيق شملهم ولم يعين نوع العذاب ، وانظر كيف حصل الأمران في أمة الإسلام : نفاق كما في الحديث ، ومزيق الشمل كما في الآية ؛ وهذا هو القول الحق .

ولهذا جاء القرآن ، وبهذا وأمثاله فليفهم المسلمون الدين فلتترعد المرائس ولتتمزق الأثمنة وليتعظ العلماء ، وليصدقوا هم أولا في كلامهم ، ولا يخلفوا وعدمهم ، ولا يخونوا أحدا ، ولا يفسجروا في المحاصمة ، ثم ليحملوا الأمة على ذلك وليبلغوها أمثال هذه المعاني التي هي حقائق ثابتة ومعجزات للقرآن واضحة حتى تعلم الأمة شغها وترجع مجدها وتزوج تجارتها ويكون تجارها من الصادقين كما قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » ولما ترك بعض المسلمين الصدق بارت تجارتهم وذهبت ربحهم ، وقد أذن الله اليوم باسترداد مجدهم ، وتمكين أمرهم ، وصدقهم ، وسيكون في هذه الأمة عاجلا من يرشدونها والله هو الولي الحميد ، انتهى الكلام على القسم الثالث .

### (القسم الرابع)

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَبْوَاعَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبَشِرُوا بِنُبَأِّكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ • الثَّابِتُونَ الْمَائِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ • مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَفْتَرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أُصْحَابُ الْجَحِيمِ • وَمَا كَانَ

اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدْمَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ  
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ \* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ  
 مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ  
 وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ \* لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ  
 الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ  
 لِأَنَّهُمْ رَهَوْا رَجِيمٌ \* وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا  
 رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا  
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ \* مَا كَانَ  
 لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا  
 بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِنًا يَبْتَغِ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ  
 صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ \* وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ  
 وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِإِجْزَائِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا  
 كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا  
 إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ \* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا  
 فِيكُمْ غُلظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ \* وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مِنْهُمْ مِنْ قَوْلِ أَيْكُمُ  
 زَادَتْهُ هِذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
 مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ \* أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ  
 عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ \* وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ  
 بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ  
 لَا يَفْقَهُونَ \* لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ زَهُوفٌ رَجِيمٌ \* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \*

### التفسير اللفظي

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) تمثيل لإنابة الله لهم الجنة على بذل نفوسهم وأموالهم، ومرّ أعرابي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها، فقال يبيع والله مريح لا تقبله ولا نستقبله نخرج إلى النزو واستشهد ثم استأنف لبيان ما لأجله الشراء، فقال (يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ثم أكد فقال (وعدا عليه) فهو مصدر مؤكد لما دلّ عليه الشراء (حقاً) واجبا (في التوراة والإنجيل والقرآن) أي إن وعد الله للجاهدين بالجنة مذكور في الكتب السابقة من التوراة والإنجيل كما هو مذكور في القرآن، وقد علمت فيما تقدم أن الجهاد هو للمرقى للإنسانية كلها فهو معها يوم أن وجدت على الأرض (ومن أوفى بعهده من الله) تقرير لكونه حقاً (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) أي افرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم النعيم القيم (وذلك هو الفوز العظيم) من أهل الجنة (الناثبون) عن الكفر وعن المعاصي فتحزن قلوبهم على المعاصي ويندمون ويعزمون على الترك ويكون لهم على ذلك رضوان الله لامدح الناس ودفهم، فهذه شروط أربعة لتوبة المعاصي (العابدون) الذين عبدوا مخلصين (الحامدون) لنعمانه ولما ناهم من الشراء والضراء (السائحون) :

(١) السائحون، لأن الصيام عائق عن الشهوات وأيضا من الصائمين من وصلوا في رياضتهم إلى الاطلاع على خفايا الحقائق .

(٢) والسائحون للجهاد . (٣) والسائحون لطلب العلم .

وأعلام الثالث وأوسطهم الثاني وأقلهم الأول، فهؤلاء كلهم سائحون (الراكون الساجدون) في الصلاة (الأمرون بالمعروف) بالإيمان والطاعة وحفظ الأئمة ونشر العلم (والناهون عن المنكر) عن الشرك والمعاصي (والحافظون لحدود الله) أوامره ونواهيه وهذا مجمل الفضائل والسبعة قبله مفصل، ثم إن عادة العرب أنهم بعد السبعة يأتون بواو ويقولون إنها واو الثمانية، ولذلك قال «الحافظون» ولم يقل الحافظون (وبشر المؤمنين) للتصنيف بهذه الصفات .

روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبي طالب لما حضره الوفاة قل كلمة أحاجّ لك بها عند الله فأبى، فقال عليه الصلاة والسلام لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه، فنزل «إنك لتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» وكان ذلك في مكة ولا زال يستغفر لأبي طالب حتى نزلت هذه الآية في المدينة مع السورة وهي (ما كان للنبي والذين آمنوا) معه (أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أي ماجاز لحمد والذين آمنوا به أن يدعوا للمشركين ولو كانوا ذوى رحمهم من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك، أما الأحياء فالاستغفار لهم جائز ليطلب به توفيقهم للإيمان .

وروى «أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له صلى الله عليه وسلم إن من آياتنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويغك العاني ويوفى بالدم أفلا تستغفر لهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه، فأنزل الله هذه الآية : ما كان للنبي والذين آمنوا الخ» ثم عذر الله إبراهيم، فقال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) وعدها إبراهيم أباه بقوله «لأستغفرن لك» أي لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان (فلما تبين له أنه عدو لله) بأن مات على الكفر

أو أوحى إليه بأنه لا يؤمن ( تبرأ منه ) قطع استغفاره ( إن إبراهيم لأواه ) لكثير التأوه ، وهذا كناية عن كثرة زحمة ورقة قلبه ( حلیم ) صبور على الأذى ، وهذه الجملة لبيان ما حمله على الاستغفار ، وقد خاف جماعة من المؤمنين أن يكون استغفارهم قبل النع معصية ، فأزل الله ( وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم ) للإسلام يسميهم ضلالاً ويؤاخذهم مؤاخضة الضالين ( حتى يبين لهم ما يتقون ) أي حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه سواء كان ذلك في الاستغفار للشركين قبل النع أم في شرب الخمر قبل العلم بتعريمها من قوم جدت ديارهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أم في التوجه لبيت المقدس وقد حوّل إلى الكعبة والقوم لا يعلمون بعد الديار ، فكل ذلك قد ذكر في سبب هذه الآية ؛ فالمراد كما قال الضحاك : وما كان الله ليعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون وما يذرون ( إن الله بكل شيء عليم ) من اللبس والناسخ وما خالط نفوسكم من الخوف عند ما نهاكم عن الاستغفار للشركين وما يبين لكم من الأوامر والنواهي ( إن الله له ملك السموات والأرض ) ملك السموات كالشمس والقمر والنجوم ، وملك الأرض كالشجر والوداب والجبال والبحار ( يحيي للميت ) ( ويميت ) في الدنيا ( وما لكم من دون الله ) من دون عذاب الله ( من ولي ) قريب ينفعكم ( ولا نصير ) مانع .

ولما كان ما تقدم يقتضى البراءة من ذوى القربى إذا كانوا مشركين بين الله بهذه الآية أن الله هو مالك الخزان كلها فلتتوجهوا إليه وهو الناصر وحده ( لقد تاب الله على النبي وللهاجرين والأنصار ) وهذا كقوله « وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون » يأمر الله جميع الناس أن يسعوا للارتقاء في الدرجات ، فكما ينظم حالم من صبا إلى شباب إلى كهولة إلى هرم إلى موت ، هكذا يجب أن يترقوا في أحوالهم للنعوية من كمال إلى أكل منه .

وكل من كان في درجة من درجات السكال يشرب إلى ما هو أعلى منها ، وما دام في الدرجة الدنيا فإنه مطالب بالترقي إلى ما هو أعلى ، فيكون الارتقاء عن اللبنة الدنيا إلى العليا توبة من التقيصة واعتناق السكال ، وهذه هي التوبة المذكورة في هذه الآية وهي المراد بقوله « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وهذا معنى توبة الله على النبي وللهاجرين والأنصار ( الذين اتبعوه في ساعة العسرة ) أي وقت الشدة ، فهم جميعاً ينتقلون من حال إلى حال أكل ، وهذه الشدة والعسرة كانت من الزاد ومن الحرّ ومن العدو ومن بعد الطريق ، فكان ذلك كله ضيقاً وشدة ، وغزوة تبوك كانت تسمى غزوة العسرة والجيش الذي سار فيها كان يسمى جيش العسرة فكان منهم عشرة يخرجون على بئر واحد يحتقون بينهم وكان زادهم التمر للمسوس والشعير للتغير وكان التمر منهم يخرجون وما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم لآك التمرة حتى يجد طعامها ثم يشرب عليها جرعة ماء وهكذا صاحبه حتى تأتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة ( من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم ) عن الثبات على الإيمان أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه ، وفي « كاد » ضمير الشأن والجملة بعده في موضع نصب ، وقرأ حمزة وحفص « يزيغ » ( ثم تاب عليهم ) كرهه لئلا يكيد ( إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة ) أي وتاب على الثلاثة : كعب بن مالك وهلال بن أمية ، ومرة بن الربيع ، وأوائل أسماؤم مضبوطة بلفظ [ مكة ] وآخرها بلفظ [ عكة ] ثم قال ( الذين خلفوا ) تخلفوا عن غزوة تبوك وهم المذكورون في قوله تعالى « وآخرون مرجون لأمر الله » فيها تقدم ( حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ) أي برحبتها : أي مع سعتها كأنهم لشدة حيرتهم وفرط قلقهم لا يجدون ملجأً يلجئون إليه ، فمثل ذلك بأن الأرض الواسعة الأرجاء البعيدة الأطراف لاتسعهم ، وللتأنيب فيما يقرب من هذا :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن للتأي عنك واسع

(وضافت عليهم أنفسهم) أي قلوبهم لا يسمعها أنس ولا سرور من فرط الوحشة والنهم (وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه) وعلوا أن لاملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم منع أصحابه أن يكلموا هؤلاء الثلاثة ولبثوا على ذلك خمسين ليلة .

وقد زادت الشدة عليهم أن أمروا أن يعتزلوا لساءم بعد أن مضى عليهم أرجون يوماً من الخميس ، وكان أحدم يطوف السوق وللساجد فلا يكلمه أحد . قال كعب بن مالك : أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا ، ومن حديث كعب بن مالك أيضاً أنه قال : « جاء المخلفون فظنقوا يمتدرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخلفون له وكانوا بضعة ونمايين رجلاً قبل منهم علانيتهم وياهم واستغفر لهم ووكل سرأرهم إلى الله تعالى حتى جئت فسلمت فتبسم تبسم للغضب وصدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله بك قمت » . وفي الحديث طول قد ذكرت ما بهم منه وهو قوله تعالى ( ثم تاب عليهم ) بالتوفيق للتوبة ( ليتوبوا ) ليكونوا من جملة التوابين ( إن الله هو التواب ) إن تاب وإن عاد في اليوم مائة مرة ( الرحيم ) للتفضل عليه بالنعم ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ) فيما لا يرضاه ( وكونوا مع الصادقين ) في إيمانهم وعهودهم وفي دين الله نية وقولا وعملا ، والمراد بالصادقين هؤلاء الثلاثة وأمثالهم ممن صدقوا في نياتهم واستقامت قلوبهم ولم يمتدروا بالأعداء الباطلة الكاذبة .

ومن أظف ما يكون أن أبا بكر يوم السقيفة إذ قال الأنصار : متا أمير ومنكم أمير ، قال يامعشر الأنصار يقول الله « للفقراء المهاجرين - إلى قوله - أولئك هم الصادقون » من أم ؟ قالت الأنصار : أتم ، فقال أبو بكر : إن الله تعالى يقول « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأتم الوزراء ( ما كان لأهل المدينة ) أي لساكني المدينة من المهاجرين والأنصار ( ومن حولهم من الأعراب ) أي سكان البوادي من مزيئة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وغيرهم ( أن يتخلفوا عن رسول الله ) يعني إذا غزا : أي ليس لهم ذلك ( ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ) أي ولا يرغبوا بأنفسهم أن تصيبهم الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله في مشقة السفر ومقاساة التعب ، وبعبارة أخصر ولا يكونوا على أنفسهم أشفق من نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال ولا يرغبوا بصحة أنفسهم عن محبة النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد .

روى أن أبا خيشمة بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ويسطت له الحصير وقربت إليه الرطب ولساء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح ، ما هذا بخير ؟ فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرت كالريح ، فدّر رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب ، فقال : كن أبا خيشمة فمكأن هو ، ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له ( ذلك ) الخروج ووجوب للتاجرة ( بأنهم ) بسبب أنهم ( لا يصيبهم ظمأ ) شيء من العطش ( ولا نصب ) تعب ( ولا محصنة ) جماعة ( في سبيل الله ولا يطؤون موطئا ) ولا يدوسون مكانا ( يغيظ الكفار ) يفضيهم وماؤه ( ولا ينالون من عدو نبلا ) كالقتل والأسر والتهب ( إلا كتب لهم به عمل صالح ) إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب للتاجرة ( إن الله لا يضيع أجر المحسنين ) على إحسانهم تنبيه على أن الجهاد إحسان لأنه تنكيل للكفار وصيانة للمسلمين عن استيلاء الكفار

وهذه الجملة تحليل لقوله « كتب » ( ولا ينفقون ) في سبيل الله ( نفقة صغيرة ولا كبيرة ) أي عمرة لما دونها أو أكثر منها ( ولا يقطعون واديا ) أي ولا يجاوزون في سيرهم واديا ( إلا كتب لهم به ) إلا أنبت لهم ذلك ( ليجزيهم الله ) بذلك ( أحسن ما كانوا يعملون ) أي يجزيهم على كل واحد جزء أحسن عمل كان لهم فيلحق مادونه به إكثارا لأجرهم وتوفيرا لتوابعهم وإسعادا لهم .

واعلم أن هذه الآية قد حتمت على جميع الناس أن ينفقوا للقتال ويتركوا الأعمال الأخرى ، فإذا جمعت الجموع ورفعت البنود واصطف المسكر للجهاد وجب على جميع المسلمين السفر معهم ، وهذا أمر يوجب ضياع للدين ، لأن الناس إذا غزوا جميعا فمن لمدارسهم وطرقهم وزرعهم وتجاراتهم ؛ لذلك أعقبه بما يفيد أن أعمال الأئمة يجب أن توزع على الأمة وعلى كل ما يناسبه ، فالعلماء يملكون ، والخطباء يعظون ، والحكام يؤتمنون ، والزراع يزرعون ، والسواس يفكرون ، وهكذا كما قدّمناه مرارا في التفسير وكما أوضحت في أواخر سورة البقرة .

وقد قلنا مرارا إن الجهاد أمر دائم ، فالناس إذا رجعوا من النزول فالحياة كلها جهاد ، بل إن الجهاد بالحجة يبلغ من الجهاد بالسيف ، والنفقة في الدين هو الجهاد الأكبر ، فإذا سمعت الله في هذه الآيات يقول ولا يضلون كذا وكذا إلا كتب لهم كذا وكذا ، فاعلم أنك الآن وأنت تقرأ هذا التفسير وفي غد وأنت تنظر في أمر الأمة وتنظم شئونها وترى أبناءها وتنصح جماعاتها ، في عمل من هذه الأعمال بل هو الجهاد الأكبر ، وكيف لا يكون أكبر وهو البتة ، ومن عجب أن الجمعيات للسيحية تتمتع في نشر دينها على التعليم وفتح المدارس فكأنهم عملوا بما قاله علماءنا من أن تعليم العلم هو الجهاد الأكبر وهو للقصد الأعظم .

انظر كيف يقول الله تعالى ( وما كان المؤمنون لينفروا كافة ) أي وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يعمدوا جميعا فإن ذلك يخل بأمر الماش وتوزيع الأعمال كما أوضحناه في قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ( فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ) فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل مصر أو قرية جماعة قليلة ( ليتفقوا في الدين ) ليتكلفوا ويتجشموا مشاق تحصيل الفقه ( وليندروا قومهم إذا رجعوا إليهم ) أي وليجملوا غاية سيلهم ومعظم قصدهم من تحصيل الفقه أن يرعدوا قومهم ينذروهم ، لأنهم يترفضون على الناس ويتسبطون في البلاد ( لعلهم يحذرون ) إرادة أن يحذروا عما ينذرون ، وإنما خصّ الفقه بالذكر لأنه أهم .

وهناك وجه آخر وهو أن الآية من بقية أحكام الجهاد ، وذلك أن هذه الآيات لما فُضح للناضون فيها وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرايا نفر الناس كلهم للنزول ولم يتخلف أحد فنزلت هذه الآية وهي تقتضي أن ينقسم المسلمون قسمين : قسم يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم يسمع ما يتجدد من الوحي ، وقسم يسافر للجهاد ، فإذا رجع النواة أخبرت الطائفة القاعدة من رجوعا بما سمعوا من الحديث والقرآن والأحكام الشرعية وصبر معنى الآية ، فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد : أي وقصدت طائفة ليتفقوا ، أي القاعدون في الدين وليندروا قومهم المجاهدين إذا رجعوا إليهم : أي إلى القاعدين ، لعلهم : أي لعل أولئك الراجعين يحذرون مخالفة أمر الله وهذا واضح وليس في مرجع هذه الضمائر مناقلة للفصاحة لأن اللقاع يفهم المقصود منها .

واعلم أن التفسيرين يرجعان لنرض واحد فالمقصود توزيع الأعمال بين الناس ، وقد كان أهم عمل جد النزول تلقى العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم فأما اليوم فالأمر جدير بالعناية ، لجميع العلوم واجبة وقراءتها وفهمها من فروض الكفايات سواء أكان ذلك العلم قفيا أم حديثا أم تفسيرا أم هندسة أم طبيا أم علم للطاقين

أم الطبيعة أم الملك أم صناعة الحرب أم بناء السفن أم علم الكهروياء أم علم للرأى ، كل ذلك لابد منه لقيام أمر الأمة ، وهذه الآية واضحة ذكرت بعد الجهاد ليعرف المسلمون أمر دينهم .

فكل للسليين يجب أن يكونوا في جهاد ليلا ونهارا ، بل النوم نفسه جهاد لأنه به تقوى أجسامنا على العمل والطعام والشراب والرياضة البدنية ، كل ذلك متى قصدنا أنه مقوم لمحتنا نافع في قيامنا بأعمالنا كان جهادا ، فعلى المسلمين جميعا أن تكون أوقاتهم كلها عملا وعلما .

وحرام عليهم أن يتركوا فنا أو علما أو صناعة ، وكل ذلك جهاد ، فقد اتضح أن توجيه المدفع والبندقية والديناميت لصفوف العدو ليس هو كل الجهاد بل أفضل من هذا إقامة الحجج وإبانة السبل وإيضاح الحقائق ولقد سمى ذلك علماءنا الجهاد الأكبر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » فتأمل وتعجب كيف نام العلماء في سائر الأقطار عن مثل هذه الآيات ولم يوضحوها للعامة والحاسة ولم يفهموا الأمة أن الأعمال العلية والعملية جهاد .

وإنما كان للمسلمون في القرون الأخيرة لا يصدقون إلا بكلام العلماء السابقين فأنا أقول لقد أقاموا الحجة وبيّنوا في كتبهم ذلك فليس للتأخرين عذر ، ولقد قال القدامى بفصبح العبارة : إن تعلم العلم والتفقه في الدين هو الجهاد الأكبر ، وقالوا أيضا إنه فرض كفاية وهكذا بقية العلوم والصناعات .

فكيف نام الوعاظ والعلماء عن إيقاظ الأمة وإشاعة هذه الأقوال وتبنيه النفوس وإثارة الحية في القلوب وإبلاغ الناس وعد الله وثوابه وتفهمهم أن الحياة كلها جهاد حتى إذا مات الإنسان أحسن براحة ونعمة بعد ما قاسى من الشاق . وإنى أطلب منك أيها الدكي القارىء لهذا الكتاب أن تدل الأمة على هذه النفاصد توصى الناس بها ، وأقسم لك بالفجر والشمس والضحى « والعصر » إن الإنسان لفي خسر « لأنه يظن أنه يعيش كالحيوان يطلب أثناءه ويولد ثم يموت » إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فارتقوا عن تلك الطبقات وعرفوا أن الإنسانية لها مطالب سامية وسماوى في الأعمال النظامية العامة « وتواصوا بالحق » ولم يبالوا بما يصيبهم في سبيله « وتواصوا بالصبر » على الأذى . فكن أنت من هؤلاء فالأمر عظيم . ثم قل ( يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ) اعلم أنه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يندف عشيرته الأقربين أمر أن ينزوا الأقرب فالأقرب من الأمم تقاقل صلى الله عليه وسلم أولا قومه فسائر العرب فأهل الكتاب من بنى قريظة والنضير وخيبر وفدك ، وغزا الروم في الشام ثم فتح الصحابة الشام فالعراق ثم سائر الأمصار ( وليجدوا فيكم غلظة ) شدة وقوة وشجاعة وصبرا على الجهاد ( واعلموا أن الله مع التقين ) بالمؤمن والنصر ثم ذكر للناققين فقال ( وإذا أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ ) أى تصديقا وبقينا وقربة من الله : أى إذا أنزلت سورة من سور القرآن يقول بعض للناققين لبعض ذلك القول استهزاء فأجابهم الله بأن الذين آمنوا يزيدهم هذه السورة للنزلة إيمانا لأن الآيات للتجددة تزيد للؤمن إيمانا ، وأما الكافر فإنه بها يزيد كفرا ؛ لأن عدد ما كفر به قد زاد كما زاد عدد ما آمن به للؤمن ، وهذا قوله تعالى ( فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ) تصديقا ( وهم يستبشرون ) يفرحون بنزول القرآن شيئا فشيئا ( وأما الذين في قلوبهم مرض ) أى شك ونفاق ( فزادتهم ) سورة من القرآن ( رجسا إلى رجسهم ) شكا وكفرا إلى شكهم وكفرهم لأن الحباث يتبع بعضها بعضا والشك يستتبع الشك .

والقلوب إذا خلت من الحكمة وابتليت بالجهالة وأحاط بها سوء الظن وأقلق مضاجعها جهل الحقائق والوساوس فأصبحت في شك من الليل مظلم زادها ما يرد عليها من للسائل جهالة وظلمة خلطت ليها وأظلمت سبلها . وما مثل الشك والحيرة والاضطراب إلا كمثل المرض يزداد سوءا بتناول الزمن ويتشعب ويقوى وضموا كما ينمو النبات والحيوان .



فهذا تفسير قوله تعالى « فزادهم رجسا إلى رجسهم » كما في قوله في سورة البقرة « في قلوبهم مرض »  
 أى شك ونفاق « فزادهم الله مرضا » على قاعدة النقي والتشعب واستفحال الماء ونفاق الأمر .  
 فالشك والحيرة يكونان في أول الأمر بذرا ثم ينبت في القلب ثم يشمر كفرا عظيما فاستحکم ( وما نوا وهم  
 كافرون ) ثم أبان ذلك وأوضحه بأنهم في كل عام ينزون مع النبي صلى الله عليه وسلم ويباينون ما يظهر عليه  
 من الآيات ، ومع ذلك لا يتوبون لأن النفاق استحکم في قلوبهم وللرض غشى على أفئدتهم فلا تصلح قلوبهم  
 للإيمان وهذا كالدليل على ما قبله ، وهذا قوله تعالى ( أولايرون أنهم ) أى المنافقين ( يفتنون ) يبتلون ويختبرون  
 بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيباينون ما يظهر عليه من الآيات ( في كل عام مرة أو مرتين ثم  
 لا يتوبون ولا هم يذكرون ) لا يتوبون من نفاقهم ولا يستبرون ( وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض )  
 تزامنا بالميون إنكارا لها وسخرية ( هل براكم من أحد ) إن فتم من حضرة الرسول ، فإن لم يرم أحد  
 قاموا ، وإن رآهم أحد أقاموا ( ثم انصرفوا ) عن الإيمان تلك السورة لما تقدمت من اللرض الذى نما فآتمر  
 هذا الإنكار فزادهم الإنزال كفرا ، وهذا كله إيضاح وتفصيل لزيادة اللرض في قلوبهم ثم دعا عليهم فقال  
 ( صرف الله قلوبهم ) أى أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم ( بأنهم ) أى بسبب أنهم ( قوم لا يفقهون ) أى لسوء  
 فهمهم وعدم تدبرهم .

ثم أخذ بين عدم تفقههم وبلادهم فقال كيف تعرضون عن رسول منكم أيها العرب جاء لهدايتكم  
 وسعادتكم وسى لجمع كلنكم وهو رجب بالمؤمنين ، وأن من أعرض عن هديه فقد أعرض عن سعادة نفسه  
 ومن أعرض عن سعادة نفسه فقد كره نفسه وجمع في نفسه ( خصلتين ) يحب نفسه طبعا وهو قد كرهها  
 بالبرهان فهو كاره محب في آن واحد وهذا أعظم البلاده فأين الفقه ؟ فهذا هو تقرير « أنهم قوم لا يفقهون »  
 ولو فقهوا لأدركوا أن اجتماع كلمة العرب تخيف الأمم حولهم فيحصل لهم عز الدنيا الذى هم به مغرمون  
 وهو كظلمة الإيمان والدين ، فهو وإن جاء للإيمان بالله والتقوى أصالة فقد جاء بمن الدنيا تبعا كما ظهر  
 حالا في تلك الأيام ، وهذا قوله تعالى ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم ) من جنسكم عربى مثلكم ( عزز عليه  
 ما عنتم ) أى شدد شاق عليه عنتم ولقاؤكم المكروه ، وذلك للمكروه إنما يكون بترك الجهاد والأعمال  
 النافعة والمعلوم والفقه ، فلذلك طلب منكم الجهاد ( حريص عليكم ) على إيمانكم وإيصال الخبر لكم وهدايتكم  
 وصلاح شأنكم ( بالمؤمنين ) منكم ومن غيركم ( رهوف رحيم ) والرأفة وإن كانت أشد من الرحمة قدمت  
 محافظة على الفاصلة ( فإن تولوا ) عن الإيمان بك ( قتل حسبى الله ) فإنه يكتفيك شرهم ويحييك عليهم ثم استدل  
 عليه بقوله ( لا إله إلا هو عليه توكلت ) فلا أرجو إلا هو ولا أخاف إلا منه ( وهو رب المرش العظيم )  
 الملك العظيم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه « أن آخر ما نزل هانان الآيات » .

#### لطفة

قد كنت كتبت عدة مقالات خطابا للمسلمين في الجرائد وفيها ما يناسب قوله تعالى « فلولا نفر من كل  
 فرقة منهم طائفة » فهامى ذه المقالة السابعة .

قد ثبت في المقالة السابقة أن فرض الكفاية ظاهر واضح من قوله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم  
 طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم الخ » ونحن بحمد الله ذا كرون في هذا اللقام كيف كانت درجات  
 العلماء السابقين في البحث وأحطاط العلماء للتأخرين في ديار الإسلام ، وكيف قصرت عقول كثير منهم  
 فهم لا يعلمون .

أقول: لما وصلت إلى هذا المقام؟ قال لي ذلك العالم صديق: إن علماء الإسلام لم ينكروا فرض الكفاية وعمومها في كل شيء، قلت لم ينكروها علما إجماليا ولكن عند العمل يسكتون عنه، وقد كان للتقدمون مدققين باحثين مفكرين، فأما الآخرون فإنهم ناموا وعكفوا على القليل من العلوم كأنهم لا يعلمون، قال فاذكر مسألة واحدة لتبين بها تفكير الآخرين، قلت ألم تقرأ من مذهب الإمام الشافعي؟ قال بلى، قلت ألم تقرأ في كلام الأئمة السابقين منهم وتبعهم اللاحقون فقد قالوا: إن الإنسان يجب عليه أن يغسل جزءا من العضد إذا غسل التراح مع الرفق، وعللوا ذلك بقولهم: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإذا كان للتقدمون صنوا أشد العناية بالدين.

ولما سمعوا قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين» أقول: لما سمعوا ذلك قالوا علينا أن نحتاط ونغسل جزءا من الساق وراء الكعبين وجزءا من العضد وراء الرقبتين فإنه لا يتحقق تمام غسل الرقبتين وغسل الكعبين إلا بغسل جزء مما فوقهما لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

هذه مسألة يعرفها سفار الطلبة في الأزهر والمعاهد الدينية.

فياليت شعري كيف يعرفون هذا ولا يفكرون في أمر الجهاد؟ يسبحان الله! أفليس الجهاد واجبا كما وجب الوضوء؟ فلماذا لم يتابع للتأخرون هذه الباحث بنياية أشد ويقولوا إن الجهاد لا يتم إلا بالطرق الحديدية وبالزراعة النائمة وبالصناعات والأمانات والأخلاق ونظام البلاد حتى تضارع وتفوق أهل أوروبا، فقال العالم الديني صديق: إن هذه الآراء المذكورة في ثنايا الكتب. قلت وهل هي أقل وجوبا من وجوب الوضوء إن الوضوء فرض عين، ووجوب هذه العلوم كلها فرض كفاية، وفرض الكفاية إذا لم تقم به جماعة عذبت الأمة كلها في الدنيا والآخرة، وفرض العين يجذب عليه تاركه وحده.

إن فرض الكفاية هو القلعة والسيج الذي لا يكون فرض العين إلا بعد وجوده وإلا فكيف يصل الناس أو يتوضئون أو يحجون أو يزكون أو يصومون وبلا دم عنتة عنتة وحكوماتهم معتلة، وفروض الكفائيات بتركها تخرب الأمم وتذل لغيرها ولا تستطيع القيام بالفرض العيني، فإذا عرف كل طالب في بلاد الإسلام أن غسل جزء من العضد وجزء من الساق وراء الرقبتين ووراء الكعبين واجب. فلماذا لا يعرف كل طالب أن العلوم التي في أوروبا وفي أمريكا وفي اليابان وفي الصين يجب على المسلمين جميعا أن يعرف كل طائفة منهم قسما منها حتى يكون المسلمون كأهل أوروبا في علومهم ودمارهم ونظمهم.

ولعمري إذا عرف كل طالب وجوب غسل جزء من العضد وجزء من الساق احتياطا لدينه فبالأولى يجب عليه قبل كل شيء أن يعرف أن البلاد لا حياة لها والدين لا بقاء له إلا بدراسة جميع العلوم وتمميم القراءة والكتابة في بلاد الإسلام.

أقول: ولقد أذرت أمة الإسلام بالقرآن وحذرتها وأوضحت لها طرق الواجبات، وإن أطالب كل مطلع على قولي هذا أن يفكر فيه وأن يقوم بنشره عند من يفقهون.

إن الأمة الإسلامية لما تركت هذه العلوم لم تبشر بالنصر ولم تكن مهدية إلى أقوم طريق ولم يكن كثير من هدايتها رجالا من أولى الألباب.

يقول الله تعالى «بشر عباد الدين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب» فاستمع القول واتبع أحسنه عام شامل لجميع العلوم والصناعات والأحوال. فقال إنك إذا عممت هذه الآية هدمت الدين وخالفت للتقدمين وللتأخرين وكأنك بهذا تقول للمسلمين إذا استحسنتم أمرا

فاتبعوا واتركوا دين الإسلام من الكتاب والسنة ، فأنت بفهمك هذا هدمت جميع الدين ولا يرضى بهذا للمسلمون ، فقلت إن أحسن القول المذكور لا يصدم الدين ولا يخالفه بل هو ما يجب فيه لأن أحسن الأحوال هي التي يطلبها الدين ، فقال لو استحسن رجل أن لا يصلى إذن يكون من أولى الألباب ، فقلت له ليس هذا قولاً حسناً وإنما هو هوى وشهوة وغرض ، فكل صناعة أو زراعة أو علم وجدنا فيه خيراً في حياتنا فلتتخذ أسهل الطرق لحوزة نستخلص أجمه ونهراء ولنعمل به ، فقال وكيف السبيل إلى معرفة هذا القول الأحسن ؟ فقلت [ لتشكل لجنة في مكة وليرأسها عظيم من عظماء الإسلام ] فكما أن لدول أوروبا جمعية أمم فلا يمكن لأمم الإسلام جمعية علم . وليكن في هذه الجماعة من كل طائفة من المسلمين : من الترك والهند والأفغان و مصر وسوريا الخ ، وليكن في هؤلاء متضلعون في علوم : فهذا في الطب ، وهذا في العلوم الرياضية ، وهذا في العلوم الطبيعية ، وهذا في التاريخ . وليكن فيهم عارفون بأهم اللغات . ثم ليدرسوا نظم الأمم الأوروبية والأمريكية ثم ليبحثوا عما عندهم من العلوم وليأخذوا منها أجمل ما فيها ومن الصناعات ثم لتنتشر في بلاد الإسلام .

فهؤلاء هم الدين قال الله فيهم « فبشر عباد الذين يستمعون القول » فإنهم استمعوا القول بلغات مختلفة « فينبغون أحسنه » فذلك وصفهم بأنه هدام ووصفهم بأنهم أولو الألباب وإنما كانوا أولى الألباب لأنهم استخلصوا لب الأشياء .

ولا جرم أن الب أحسن من القشر فإنه هو المقصود ، فاللب إذن أحسن من غيره فذلك وصفهم بأنهم أولو الألباب ، فهؤلاء بشرهم الله بالنصر وبالجنة وبالنعمة في الدنيا والآخرة . فقال ذلك العالم صدق لم يبق إلا شيء واحد وهو هل عندك من دليل يؤيد أن السلم يستخلص من كلام الكافرين ويتبع أحسن ما يقولون إن للفرنجية لم يقولوا ذلك ، فإن أوسع قول عندهم يرجع إلى أقوال علماء الإسلام ، فأما أخذ الأحسن من قول الفرنجية وعلماء اليابان فهذا لا يقبله المسلمون ، قلت له : قال الله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » فقال فهل أهل الذكر أهل أوروبا ؟ قلت له : الذكر في كل شيء بحسبه ؛ فعلم الفقه عن الفقهاء ، وعلم الحساب عن العلماء به ولو كانوا كافرين ، وعلم الزراعة عن العلماء بها وهكذا ، فقال لا يزال للقال يحتاج إلى دليل ، قلت أفكيف عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال وماذا يكفيني إذن ؟ قلت ألم تعلم أنه صلى الله عليه وسلم والمدينة قد حاصرها الأحزاب من كفار مكة وغيرهم جاء له سلمان الفارسي وأخبره بأن الفرس كانوا يحفرون الخنادق حول مدنهم إذا هاجمهم العدو ، ففسمع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أمر بحفر الخندق ولم تكن العرب يومئذ تعرف الخندق ولا حفره . فهذا القول قاله سلمان الفارسي وهو مسلم ولكنه نقله عن أم مجوسية يبيدون النار ، فلو كان الأخذ عن أوروبا وأمريكا غير حسن ، ولو كان اتباع الأحسن مما يوافق ديننا غير مرغوب فيه لكان صلى الله عليه وسلم نهي سلمان الفارسي عن هذا وقال له إن هؤلاء كافرون فلا تسمع قولهم ولا تتبع طريقهم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمع القول عن عباد النار وعن غيرهم فاتبع أحسنه ، فهناك طريقتان :

الأولى : أن يقف الرجال حول المدينة ويدافعوا عنها وهي طريقة العرب الجاهلة .

الثانية : أن يحفروا خنادق وهي طريقة عباد النار فاتبع الأخيرة وهي أحسن القول فبشره الله وبشر أصحابه ونصرهم وأعزهم وهداهم ، وهؤلاء هم أولو الألباب .

أفلا يسع للمسلمين ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أمنا آن الأوان أن يتذكروا ويبتدروا ؟ لقد شدت أرباب الأستاذ في قولك وسرني منك ذلك التشديد تريد بذلك أن لا يبقى لأحد من المسلمين مطمئن

في القول ولاشبهة ، وإنى أحمد الله عز وجل أن وفق لهذه الرسالة وأرشد إلى ما يجب على المسلمين في مستقبل الأيام لحفظ كياناتهم إذ لم يبق عذر لمعتذر ، وحرام وإثم عظيم على من قرأ هذه الآراء وأمثالها فلم يناقش فيها ولم يشكر ولم ينشر ما يعاينها إن كان قادرا بين جماعة المسلمين في الأمم الإسلامية لاسيما الأمم العربية والله هو الولي الحميد .

فهذه هي المقالة التي اخترتها من تلك المقالات في هذا اللقاع ، وهناك مقالات نشرتها في الجرائد أيضا بمناسبة ما جاء في الأخبار أن دولة (هولانده) قد حتمت على المسلمين من رعاياها أن لا يصلوا إلا برخصة في بعض الأوقات ، وأيضا راقبت التعليم مراقبة شديدة فكتبت هذه المقالات الست الآتية في جرائدنا المصرية قبل أن يفتوا هذا الأمر ، وبعد كتابتها جاءت الأخبار أنهم قد أرادوا محاسبة المسلمين ، وهذه المقالات توبيخ للمسلمين على ترك العلوم الذي أورث البطل المذكور ، وهذا اللقاع هو للناسب لهذه الآفة التي أوجبت فروض الكفايات .

## الإسلام والاستعمار وسبب تأخر المسلمين للقالة الأولى

في شهر يونيو سنة ١٩٢٥ أصدرت الحكومة الهولندية قانونا فيه اثنا عشر فصلا تتضمن الشروط التي بمقتضاها يجوز مباشرة التعليم الإسلامي أهمها ما يأتي :

- (١) من أراد أن يباشر التعليم في العلوم الإسلامية فعليه أن يرفع ذلك إلى أمير البلد أو الوزير ويشرح له مقاصد التعليم .
- (٢) وأن يتخذ دفترا مخصوصا للتلاميذ وشرح أحوالهم ولا يلقى عليهم شيئا إلا بعد مصادقة الحكومة عليه .
- (٣) ورجال الحكومة لهم أن يتفقدوا ذلك في كل وقت لينظروا هل قال لهم شيء غير ما صادقت عليه الحكومة المذكورة .
- (٤) ورجال الحكومة أن يحضروا مجلس التعليم ويسألوا عما يشاءون من الأمور المتعلقة بمهمة التعليم ، ولهم أن يدخلوا متى شاءوا للدارس أو الأقسام الداخلية ، وإذا رأيت الحكومة أن التعليم مخالف لما تقدم فلها أن توقف التعليم إلى مدة سنتين .
- (٥) تسجن الحكومة ثمانية أيام على الأكثر أو تغرم ٢٥ روية على الأكثر كل من ارتكب الأعمال الآتية :

- (أ) من علم العلوم الإسلامية بغير إذن من الحكومة .
- (ب) من يقدم للحكومة تعريفات كاذبة بشأن تعليمه .
- (ج) من يتهاون في إملاء الدفتر المذكور .
- (٦) تسجن الحكومة شهرا على الأكثر أو تغرم ١٠٠ روية كل من ارتكب الأعمال الآتية :
  - (أ) من يلقى التعاليم في مدة إيقاف الحكومة إيها .
  - (ب) من يرتكب الأعمال المتقدمة أعلاه .

هذا هو أهم ما في هذا القانون لحصته .

هذه هي أحكام (هولانده) التي لا تبلغ عدد الأصابع من الملايين في أربعين مليوناً من المسلمين ، بماذا

تعاليمهم ؟ لا يصلون في الصحراء إلا برخصة ، لا يعلمون فروض الوضوء ، إلا إذا سمعها الحاكم العام وأقرها ، لا ينطقون في منازلهم وفي مزارعهم إلا بما يقر عليه الحاكم العام لأنه إذا حرم عليهم نفس الدين إلا بإذن فبالأحرى لا يتمتعون به لم ألبته ما دام فيه حياة للجموع .

ألا قاتل الله الجهالة العمياء ، جهالة المسلمين . أيها المسلمون ، اسمعوا: أندرون لماذا حل بنا ما ذكرناه ذلك لمرور الأمراء والعلماء في الأعصر النابرة ورؤساء الدين جميعا ، إن رؤساء الدين سواء أ كانوا صوفية أم علماء فقه أم أمراء في الأعصر النابرة ، كانوا يفهمون المسلمين أن ليس عليهم سوى ما يقره وانه لهم من العلوم وما يدرسون لهم من مقدماتها خوفا من أن ينبغ الشبان ويظهر العلم فيمقتوا الجاهلين من رؤسائهم وظلت الحال على هذا المتوال آمادا وآمادا حتى أصبح ذلك خلقا راسخا وسجية ثابتة وعادة متبعة ، ومن خالف تلك العادة عدت فاسقا أو مبتدعا الخ .

ولسكن قام في المسلمين قبلنا من دعا للإصلاح أي تعميم العلوم كالعلامة ابن رشد بالترب فحكوا عليه بالإلحاد فأت شريدا وحيدا ونقل تلاميذه من اليهود عدله إلى أوروبا فأيقظها من رقدتها فارتقت وأخرجت من الأندلس المسلمين الذين كانوا لهم معلمين ، ولقد فعل قبل ذلك أهل الشرق بتعاليم النزالي فأصبحوا بها جاهلين ، لم يكن هذان العالمان وأمثالهما مارقين من الدين ، كلا بل كانا يأمران بتعليم جميع العلوم الطبيعية والفلسفية فأبى الرؤساء خيفة على رئاستهم فظفروا جاهلين .

ذلك تاريخ أسلقتنا في العصور المتأخرة ، جهل عميم ، وغرور كبير ، وذل مهين .  
أيها المسلمون ، لم يكن الله ليعطيكم أرضه وأتم بها جاهلون ، ولا ليهيكم الأعضاء والحواس وأتم عنها ظفرون ، إن الله لا يعطى إلا لمن يشكر النعمة ولا لشكر لمن غفل عن استعمالها .

أيها المسلمون : أنظنون أن الله يلهم الأمم التعليم العام في ( هولانده وسويسرا وأمريكا واليابان ) ثم يبقى المسلمون جامدين عاكفين على الغرور .

أيها المسلمون ليعم التعليم أبناءكم في الحجاز ، في العراق ، في الشام ، في مصر ، في بلاد شمال أفريقيا ، في بلاد جاوه .

ليعم التعلم . أقول هذا واجب شرعا وجوبا كوجوب أركان الصلاة ، وأقول فوق ذلك يجب تعلم الصناعات والعلوم التي أبرزها الله في الأرض وألهمها للأمم ، أقول يجب ذلك وجوبا شرعيا .

سيقول قائل إن هذا الوجوب لم يرد في كتاب ولا سنة ، فأقول : كلا لقد أجمع علماء المذاهب أن الصناعات واجبة وجوبا كفاثيا ، ومعنى هذا أن كل صناعة يجب على المسلمين أن يقوم بها جماعة دون الباقين وتكون أعمالهم كافية للمسلمين ، فهذه الكتابة والقراءة إحدى الصناعات .

ولقد ظهر في عصرنا الحاضر أن الأمم التي عمّ التعليم بها جميع الأفراد أرقى من غيرها ، وأما الأمم الجاهلة فهي ذليلة حقيرة غنية جامدة .

فإذن إن لم تعمّ القراءة والكتابة في أمم الإسلام فهي في خطر ، فإذن لا كفاية للأمم الإسلام إلا بتعميم القراءة والكتابة ، وهكذا يجب أن تخصص جماعة في كل أمة كصبر لكل علم ولكل صناعة بحيث يكون أطباء الأسنان يكفون البلاد ، وأطباء العيون وأطباء الأجسام ، وهكذا الزراعة والتجارة والحداثة والكهرباء وما أشبه ذلك .

وبعبارة أخرى : يجب أن يجد المسلمون في جميع الصناعات والعلوم وإلا فالإثم عام على كل فرد ، وإن أرفع صوتي لأمة الإسلام مينا لهم الحقيقة ، فلا فرق بين التبحر في علم الفقه وعلم الطب وعلم الهندسة

وجميع العلوم وجميع الصناعات ، فإن لم يقم في الأمة من يفتنيها عن الأجانب فيها فالأمة كلها مذنبية ، ففي ترك  
أمر صناعة يكون العقاب على المجموع ، أما من ترك الصلاة فالعقاب عليه وحده أو على من رضى بتركه ،  
هذا وسأوضح هذا المقام في المقال التالي .

### اللقاة الثانية

#### خطاب إلى أمراء الإسلام المستقلين

ومن تحت سيادة الأجانب وإلى جميع زعماء الإسلام وعظماؤه

إن الله أوجب علينا النصيحة لله ولرسوله ولكافة المسلمين ، إننا معاشر المسلمين مقصرون جداً في أمور  
ديننا ، إن العاكف على علم واحد أو عبادة واحدة أو ورد واحد أو ما أشبه ذلك وظن أن هذا وحده فيه  
رضا الله فهو مغرور جهول .

إن الله أنعم عليكم بأرضكم ، وخلقكم وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، فهل  
أعطاكم هذه اللواهب لتنميوها ؟ أو منعكم هذه الأرض لتظلوا ؟ كلا . ألم يقل الله « هو الذي خلق لكم  
ما في الأرض جميعاً » ألم يقل « وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل  
والنهار » فهل خسرت الله هذه النعم بأمم غيرنا ؟ ألم نحن داخلون في الخطأ ؟ فوالله عار على أمة الإسلام أن  
تكون أول الخاسرين بهذا الدين .

ربما كان يفتد بعض الجهل إذا كان المتقدمون ساكتين عن هذا الموضوع مغفلين له ولكنهم أوجوا  
جميع الصناعات ، وأقل التفاتة تترقها قيمة الصناعات والعلوم اليوم .

فيا ليت شعري من هذا الذي أفهم للمسلمين أن علوم الدين خاصة بالفقه ومقدماته ؟ من ذا الذي قال به ؟  
إن من يقول إن الفقه وحده هو الواجب وبقية العلوم غير واجبة غير موجود في أمة الإسلام إلا إذا كان  
لا قيمة لقوله ، أيحتمل في دين الإسلام أن يكون للمسلمون وحدهم حق للتقاعد عن العلم ؟ أيحتمل هذا ؟ أين  
دعاة الإصلاح ؟ فوالله ليسألن الله كل عالم يقول هذا ولا يرفع صوته ، وليسألن الله كل من عرفه ، نعم إن  
كثيراً من الناس عن هذا غافلون ، وغفلتهم ناشئة من العادة والتقليد وإلا فالعلوم كلها والصناعات واجبة  
وجوبا كفايياً .

اللهم لا كفاية إلا بتعميم القراءة والكتابة جميع أفراد الأمة بقدر الإمكان ، اللهم لا كفاية إلا بنشر  
جميع العلوم من رياضية وطبيعية وفلكية وسياسية وصناعية ، اللهم إن هذا صار معروفا عند  
الخاص والعام .

فيا عجبا لأمة الإسلام ! تلك الأمة التي نخطت البحر الأبيض إلى عدوة الأندلس وعلت أوروبا ورجعت  
بخطى حنين خائبة إذ قدر لها قادة جهلاء في تلك القرون وعلماء غافلون فأقعدوهم وأناموهم حتى ذهبوا طحين  
الرحى ممزق الأشلاء وهم خامدون ، أيحتمل هذا أيها المسلمون .

أيها العلماء . أيها القادة لا عطر بعد عرس ، ولا مخبأ بعد بوس ، قد حتم الأمر واقترب الوعد الحق  
والأبصار شاخصة ، وهل يحتمل ذلكم بكم أيها المتعلمون ؟ إنى أذكر علماء الإسلام بقول الله تعالى « إن الذين  
يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »  
فهل لكم أن تبنوا للناس أن العلوم كلها واجبة وأن أرض الله يجب أن يعمرها عباده ويستخرجوا منافعها  
وإلا سلبها منهم وهم صاغرون .

أيها الأمراء ، أيها العلماء . أما أن لكم أن تتذكروا ؟ أو ما رأيتم كيف أذل الله الأمم الجاملة  
وحفظ العالة .

يا أسراء العرب ، يا أبناء الأبطال . ألا أذكركم بمجدكم القديم ؟ انظروا في التاريخ تجدونه ناطقا بأن آباءكم هم الذين جلبوا الكرة الأرضية فامتلات علماء بعد أن كانوا بالجهل قانمين وقد خلعتنا عليهم ملابسنا العلية وأصبحنا منها مجردين .

لهمري ثمن اختلف الشيبى والسنى والوهابى في أمور فرعية فهل يختلفون في التوحيد ؟ وهل يختلفون في العلوم ؟ وهل يختلفون في وجوب ما ينزم الأمة من العلوم والصناعات ؟ .

لحى الله الجهالة الحرقاء ، لحى الله الجهالة التى أسدلت الحجاب على وجوه العلم ومعاهده الباسيات وحجبت ذلك الشماع الباهر والحسن الناضر والجمال الساحر عن عيون العاقبين ، لحى الله أبا ما قضت على بناء المجد أن يرزحوا تحت أفعال الرؤساء الجاهلين .

أما والله ثمن لم ينته الأمراء عن التقاعد وأهل الفطنة عن التناقل لنزلت الصواعق على النافلين وانقطع ردوس أينمت إذ حان قطوفها ولبحقيق الله وعبيده في السلمين إذ قال « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

من الآن فصاعدا يجب أن يكون قواد هذه الأمة وأفرادها من اللطمين على سائر العلوم ومن التفكيرين ؟ فالرئيس الصوفى أو النبى أو الأمير إذا لم يكن ملما بالعلوم فإن أتباعه غالبا على شاكلته « ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » اه .

#### الصلحون في الإسلام اليوم

##### للقالة الثالثة

أكثر للصلحين من الأمم الإسلامية اليوم إنما بوجهون وجوههم إلى مقصد واحد وهو خلوص العقائد من الزيغ وطهارتها من الضلال ، وراهم يقصرون على ذلك همهم وبصرفون إليه وكدهم قرونا وقرونا .

وما مثلهم في ذلك إلا كمثل من أخذ يقول لابنه [ إياك والسرقة والكذب والفسوق ثم عطله من جميع المكاسب ] .

واعلم أن أحوال العقول الإنسانية ثلاث : إما أن تكون ملوثة بالعقائد الزائفة كأرض الزراعة السبخة لاتبت إلا ما لاتنع فيه من النبات . وإما أن تكون طاهرة خالصة من الزيغ ولكنها معطلة كأرض سالحة للزراعة وأهلها لايزرعون . وإما أن تكون غنية بالعلوم مزدانة بالحكمة كأرض تثبت كل نبات وفاكية ونخل ورمان .

فإذا دأب الصلحون في الإسلام على قولهم : دعوا الزيغ والإلحاد وطهروا العقائد ثم تركوا القول بخالية من العلم ، بعيدة عن الحكمة ، غافلة عما أبدعه الله في الأرض والسموات ، غير عالة بما أحاط بها في الشرق والقرب من الأحوال ضرب بينها وبين العلم بسور عظيم ، فإنما مثلهم كمثل الفلاح الذى تقي أرضه وأصلحها وجعلها أهلا للزراعة ثم أخذ يفتخر بما صنع فهو لاهماله حاصد بعد ذلك زرع الندامة والحزى والتقهقر للبين ، هكذا دعاة الإسلام للصلحون إذا كان هذا دايمهم فليعلموا أن الأمر يخرج من أيديهم ، وليعلموا أن وقت حساب الأمم قد آن وأن الله سبحانه قد أنزل القصاص في الأرض ليطهرها من اللصين .

أيها الرؤساء والعلماء ورجال الصوفية اتقوا ربكم وحرضوا الأمة على التعليم واعلموا أن عز الإنسان جزأته وذله بذلها ، فكف من عقول دفتت ، وكف من مواهب ذهبت ضحية الجهالة ، وكف من قوى قيمة عظيمة أبدعها الله في أبناء الفلاحين في القرى والكفور ثم طاحت وضاعت وسال دمها على مذبح الجهالة والنفلة والتقصير .

الله قسم القوى والقدر على عدد الناس ولم يذر قوة صناعية أو قوة علمية إلا خلق لها في كل أمة من م  
أهل البراعة فيها ، وهل يستخرج تلك الكنوز إلا التعليم ؟

أيها المسلحون ، أيها الأسماء في الإسلام ، أيها القادة أقول لكم قولاً حقاً : مادام المسلحون يحتاجون إلى  
إبرة أو مفتاح أو مدفع أو محراث أو أية شيء من الخارج وهم مقصورون في صنعه فهم معذبون يوم القيامة  
جسماً ، والعذاب اليوم ظاهر في الدنيا فإن إذلال الأمم إذا نزل بها عم سائر أفرادها « ولعذاب الآخرة  
أشد وأبقى » .

أيها المسلحون في الإسلام : بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطيبين ، ولم يبق في القوس منزع ، وحتم الأمر ،  
لماذا أنتم فاعلون ؟ أيسركم أن يكون فريق من المسلمين كالأمة العربية متجاوزة البلاد متحدة اللغة والدين  
لافاصل بينها إلا الحدود الطبيعية تسرى متنافرة جاهلة لا يعرف المراكشي منها السوري ؟ ولا العراقي منها  
للمصري ؟ بل هم مشتتو للشارب ، مقطعو الأوصال ، فلماذا هذا ؟ أقول : إنهم لم يتعلموا ، وللمسلمون منهم  
تعليمهم غالباً أتر وناقص ، وإلا فبأنه خبروني كيف يكون ممالك تعدد بالعشرات تدخل في مملكة واحدة  
وهي للمالك المتحدة بأمريكا وبينهم من سائر الأجناس والأمم والأديان ؟ فيهم اليهودي والسبعي والسلم ،  
فيهم الألماني والسوري والهندي والياباني ، فيهم من كل أمة وهم متحدون ، أما أبناء الإسلام للتجاورون  
فلجهلهم ولقلة علمهم لم يعرف بعضهم بعضاً ، إلا ساء ما يضل الشرقيون ، اجتمعت للمالك للتحدة بالعلم ،  
وافترق المسلمون بالجهل سواء أ كانوا عرباً أم غير عرب .

أيها المسلمون ، عمموا التعليم واجعلوه على أساس متين ؟ فليكن التعليم الأولي طاماً ، ولتكن جماعات  
تختص بكل علم أو صناعة وبغير ذلك لأحياء ولا شرف ولا حربة ولا سعادة ، ألم تقرأوا قول الله تعالى ؟  
« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم » فانظروا  
كيف قرن الله العلم والقلم بخلق الإنسان في أول سورة نزلت ، انظروا كيف يقول « هل يستوي  
الذين يملكون والذين لا يملكون ؟ » فقد ذكر العلم ولم يذكر للعلوم ليكون التعليم على حسب  
ما يقتضيه الزمان .

إن الله يسأل العلماء والرؤساء والأغنياء في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي أفغانستان والترك عن  
مجموع الأمة ، والله للستمان .

#### الإسلام والاستعمار . المقالة الرابعة

تهافت الآراء في بلاد الشرق ولا سيما في بعض البلاد الإسلامية

إن العلم الناقص يؤدي إلى الاختلال والخبال ويضيع الأمم ويؤديها إلى دار البوار .

إن للتعليم الناقص أضراراً على الأمة من الجهلاء الأغنياء ؛ فالتعلم الذي والتعلم للدرسي كلاهما إذا كان ناقصاً  
العلم أمة أعدائها وأقوى محربها فإن أعينهم في غطاء فهم « الأخسرون أعمالاً ، الذين ضلّ سعيهم  
في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » يستوثقون حيث يحسنون ، ويهدمون حيث يبنون ،  
ويحرقون حيث يرقصون ، ويقطعون حيث يصلون ، ألا أحدثك حديثين : حديثنا اتفق لي مع  
فاض عظيم ، ومؤلف كبير قد مضى إلى ربه وذكره مشهور في أقطارنا المصرية وغيرها وهو للتعليم للدرسي  
بالعلم المصري ، ثم أتبعه بحديث الإمام الغزالي عن علماء الدين في زمانه أيام عصر الدولة العباسية في الأيام  
الحالية والقرون الماضية لتعلم إلى أي حد يصل الجهل والضلال ، وإلى أي مدى يصل التورط بالجهلاء .



حديثي مع ذلك القاضي الشهير

منذ بضع عشرة سنة عهد إلى من قبل وزير المعارف أن أطلع كتاب [الرسالة التشريعية] في علم التصوف مع عظيم من عظماء الترجمة ليرجمه إلى اللغة الفرنسية ، والذي أمره بترجمة ذلك الكتاب أستاذه الألماني للسمى (ماركس) فلما أخذنا في فهم تلك الرسالة التي ألغها الأستاذ القشيري الصوفي سنة ١٣٥٠ هـ تقريباً وجعلها رسالة منه إلى الصوفية في بلاد الإسلام ، قال لي ذلك الإفرنجي يوماً : إني أود أن أرى فلاناً القاضي لشهرة اسمه في بلادنا فأرسلت إليه حفرة له وكله بالفرنسية ، ثم إن ذلك الإفرنجي أخذ في بعض أعماله فسألني ذلك القاضي قائلاً : أنت من دار العلوم ؟ فقلت نعم ! فقال : هي مدرسة حسنة وقد خرج منها عظماء ، فقلت نعم ! ولقد أفادت البلاد بالمدرسين والفتشين ولكن بقي شيء ، قال : وما هو ؟ قلت إن أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا ، قال لنا : إنكم انتخبتم من الأزهر والأزهريون إذا قرءوا علوم أوروبا وطبقوها على الدين أزهرت بلاد الإسلام وأينعت وأخذت زخرفها وازينت ، وما دام العلم في ناحية والدين في ناحية فإن بلاد الإسلام تبقى وحوشاً ياباً ، وقاعاً صفصفاً ، وصعيداً جزراً تذرؤه الرياح ، ذلك لأن هذه الأمة تصعد بدينها وتمسك به ، وهذا التمسك يوجب الضيق ويحدث القيصين ، فإن عالم الدين إن كان جاهلاً فهم له تابعون ، وإن ارتقى في الدين كانوا عالمين ؟ فالأمة الإسلامية اليوم لقلة العلم بهذه الدنيا ونظامها وجهل القائمين بإرشادها واقعة في برائن الاستعمار والإذلال ، فإذا قام فريق من أهل العلم الديني وكانوا على نور من ربهم في العلوم العصرية اتبعتهم الأمة وأسرعوا إلى الرقي أكثر من جميع الأمم ، لأن العقيدة الدينية يكون لها أثر في العلوم وتحصيلها عظيم ، فقال القاضي : وماذا تقصد بذلك ؟ قلت : أقصد أننا معاشر للتخرجين من مدرسة دار العلوم قد وضعت في أعناقنا هذه الأمانة وهي تطبيق العلم على الدين كما قاله أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا ، وهذا فرض كفاية علينا لأننا قرأنا الدين وقرأنا قسطاً من العلوم المعروفة اليوم ، فقال : (وكنتم أنا أعلم أنه ينكر جميع الديانات) أما أنا فإني أقول : العلم شيء والدين شيء آخر ، فقلت له : ليكن ذلك ؟ فسر أنت بطلك وعقلك ! ولأسر أنا بديني ، فعلم أنت الناس الأمور العقولة ، وأنا لقلة علمي أعلمهم أشياء ليست من الدين وأدخلها عليهم وأنا الغالب ، لأن الناس يتبعوني وأقلهم هم الذين يتقلدون ، فأنا يتبعني وأنت يتبعك واحد ، ولا تزال الأمة في ارتباك إلى ماشاء الله ، فقال : إن الحرافات للصفقة بالمقول تزيلها العلوم الرياضية والطبيعية ، فقلت نعم ! ولكني أقول إني لا أمكنهم من قراءتها وأقول لهم هذا كفر فيتبعني الناس ويتكلمونك ، فسر بعقلك ولأسر بما عندي وأنا الغالب ، فقال : وما الذي في القرآن ؟ أليس الذي فيه (الجوق جميل) يريد بذلك أن الذي في القرآن إنما هو التشويق للعلوم ؟ فقلت نعم ! وإذا ظهرت أمة وأريد رقيها وقيل لها أينها الأمة إن ربك يقول لك (الجوق جميل) فهذه الجملة يكفي أن تعود الأمة متى كان هناك قواد ، قال : وكيف ذلك ؟ قلت : هذه الجملة تجعل كأنها عصا يساق بها الناس إلى العلم ويجب أن تصقل وتوضع بين السماء والأرض ويقال انظروا جمال الجوق بجمال النجوم وجمال الزهر ، ومن هنا يدور البحث وتقرأ كل العلوم ، لأن العلوم كلها ترجع إلى ما فوق الجوق وما تحت الجوق ، ثم قلت : من العجب العجيب أن أرباب الفكر في الإسلام غاب عنهم أن أوروبا لما أرادوا الارتقاء لم تقل تترك ديننا ، فأما نحن فإنا نريد تركه . قام لوتر الصلح العظيم فأنشئ العقول ، والإسلام لا يحتاج إلا إلى نظرة بسيطة وقراءة العلوم لاغير .

ياحجبا ! لقد قال علماء الاجتاع إن الإصلاح الديني أسرع لرقى الأمة من الإصلاح السياسي ، فكيف

طابت هذه عن عقول الشرقيين ؟

قام المسلمون في أوروبا منذ ثلاثة قرون وهم مصلحون دينيون ولم يقولوا ترك الدين ، فيجى الشرق ويقول : كلا ! أما لا أنظر في الدين بل أتركه ، فتقول له : هلا فكرت فيما يطلب من العلوم ؟ وهل أوروبا تركت دينها إلى الآن ؟

فلما سمع من ذلك قال : « الحق أحق أن يتبع » أنا جادلت الشيخ فلان ، وأشار إلى عظيم ديني متوفى بحترمه أكثر المسلمين فما أقنعني ، ولكني الآن مقتنع ، كل ذلك وذلك العالم الإنجلي مشغول بجمعه فلما رجع ودّعه القاضي المصري وانصرف ، فقال العالم الإنجلي هذا مفرور ، قلت له : لماذا ؟ قال : ألم ترنا رفعتنا أصواتنا ونحن نتكلم ؟ قلت بلى ! قال لقد سألتني : ما الذي تدرس لي أنت ؟ قلت : [ الرسالة القشيرية ] فاستهزأ بعلوم الإسلام فغفرته وقلت له : قد أخطأت وعرفت أن الفرور في بلادكم عظيم ، ويظهر أن العلم عند هؤلاء قليل ، ولقلة العلم يدعون أنهم تركوا الديانات احتقاراً لها ، ولكنهم هم أنفسهم لا هم فلاسفة ولا هم مفكرون ، انتهى حديث القاضي والإنجلي .

والآن أذكر آراء الإمام الغزالي منذ نحو ٩٠٠ سنة :

#### الإسلام والاستعمار ، المقالة الخامسة

ذكرت في المقالة السالفة حديثي مع قاض عظيم مصري مضى إلى ربه لتعرف مقدار آراء بعض من لهم الزمامة في بلادنا المصرية آنفا .

والآن أتقل لك رأي الإمام الغزالي في القرون الأولى ، والدولة الإسلامية لم يكن لها نظير في الشرق والغرب ، ولم تخلق إذ ذلك انكلترا ولا فرنسا ولا ألمانيا ولا غيرها ، أي لم تظهر تلك الدول العظيمة بل كانوا في غيابة الجهالة يرتعون ، وفي حندس الظلام يهيمون ، وفي فيافي الهمجية يرتعون ، ولم يكن للأمم الإسلامية إذ ذلك من يعلوها في العلم والحكمة .

فانظر إلى ما يقوله الإمام الغزالي عن أهل زمانه من رجال الدين الذين انكبوا على علم الفقه جهالة وغباوة وتركوا بقية العلوم التي لاتأتى بالمال ووجعهم وذمهم وحقر شأنهم وجعلهم طلاب مال لاطلاب دين .

فلذا كان ذلك في زمان عز الإسلام لما بالك بهذا الزمان الذي أصبحت أقل دولة في أوروبا أقوى من كثير من الأمم الإسلامية ، فلأتقل لك ما قاله ذلك الإمام مما كتبت في سورة البقرة وأبنته بما يناسبه فأقول :

قال الإمام الغزالي في الإحياء : ولو سألت الفقيه عن اللسان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التمرغيات الدقيقة التي تنقض الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها ، وإن احتيج لم تخل البلد ممن يقوم بها ويكفيه مؤنة التبع فيها فلا يزال يتبع فيها ليلاً ونهاراً في حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم في الدين ، وإذا رجع فيه قال أشفتت به لأنه علم الدين وفرض كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره في تملعه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها إلا طبيب واحد من أهل الدمة ، ثم لا ترى أحداً يشتغل به من علماء الدين ويبتاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجديليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع .

فليت شعري ! كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى الأوقاف والوصايا وحياسة مال الأيتام وتقلد القضاء

والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء ، هيات هيات ! قد اندرس علم الدين بتليبس العلماء سوء ، فآله الستعان وإليه لللاذ في أن يعيدنا من هذا التورور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان انتهى للقصود منه .

وأنا أقول : أيها الإمام ، قد مضى نحو ٩٠٠ سنة بعد تأليفك هذا الكتاب وللسلمون ناعمون جاهلون ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الإسلامية لا تزال كالمهد التي تركت الإسلام عليه .  
فيها معاهد دينية ولا تزال تلك المعاهد في التلبيس وتبعمهم رجال المدارس الذين لا يحلو لهم إلا مدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي .

كل هذا للظهور ونولى الحكم والمهامة ، أما الصناعات والعلوم الأخرى فهي منبوذة إلا قليلا ، فليس عندنا مبرزون فيها إلا قليلا ، أما أوروبا فقد فمرتنا بالآلها القانلة والحارثة والطاحنة وسبقونا في الاقتصاد والسياسة .

ثم إن المدارس عندنا تعليمها لفظي ظاهري لا يمشق الشبان في العلوم والبحث فهو تعليم خال من الروح ، ولذلك سقطت الأمة في هاوية الاحتلال الأجنبي .

الواجب على المجالس الشورية أو النابتة عن الأمة

الواجب عليها أن تغلب التعليم قلبا تاما في المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية وتدخل فيها التهذيب وكل ما يرغب في حب الأمة ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية وعلم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات واللمدن ، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط وإنما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

ولمك تقول : كيف ندم التعليم في مصر وفيها نبوغ ظاهر لدى عيين ؟ فأجيبك بمقال سيأتي فيها على تحت هذا العنوان .

هل في الإسلام نابغون ؟

للقالة السادسة

لقد سألتني قائلا في المقال السابق : كيف ندم التعليم في مصر وفي بلاد الإسلام وعندنا نابغون ؟

أقول : إن هؤلاء النابغين في الأزهر والمدارس (ولعل الإصلاح الحديث في المعارف وفي الأزهر ينمو) إنما جاء نبوغهم من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة وبيئاتهم ، أما مستوى التعليم فإنه ناقص جدا ، وأهم من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه إلى ما يحتاج إليه الأمة ، الإمام الغزالي يقول لنا في المقال السابق : إن البلاد مشحونة بأهل الفقه وهي خالية من الأطباء ويندد على علماء الدين ويقول : قد ذهب الدين وضاع ، لماذا ضاع ؟ لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع اللطالب للأمة ، وأنا أقول : يا ضياع للسلمين اليوم ، يا ضيعة الإسلام ، أيها الإمام : للسلمون لا يزالون كما تركتهم ؛ فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملثون بلاد الإسلام وكذلك المهامون والقضاة في مصر ، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء طبقات الأرض وعلماء الأجنة وعلماء الميكروب وعلماء الحشرات وعلماء السياسات وهكذا فأوروبا هي التي أعجبتهم في بلادها وليسوا عندنا إلا قليلا ، وأنت أيها الإمام تقول إن الدين ضاع ، وأنا أقول إن كثيرا من أهل بلادى يجهلون أن هذا من الدين ولا يترفون بأن ديننا محرّم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات للمادن ، ولا يتصور أ كثرهم أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذي به يكون القضاء ، وأقول فوق ذلك إنه قد أخبرني عالم صيني أن علماء الإسلام هناك ظنوا أن العلوم المصرية

مخالفة للقرآن فتأخروا عن أهل الصين التبعية للدين الوثني فأصبح الإسلام في زماننا مانعا من العلم في نظرم  
والسلمون هناك يلفون سبعين مليوناً .

ولقد جاء من الهند أمير يقال له جمال الدين من مدينة مدراس من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا  
والتاريخ ، وقد أفق عليها شيخ الإسلام في بلاد الترك قائلا : إن هذه العلوم لا بأس بها ، قلت له : هذا  
تساهل من شيخ الإسلام ، بل العلوم كلها فروض كفايات والسلمون جميعا مطالبون بتلك الواجبات ، فكل  
صنعة وكل علم تنزىم للسلمين جميعا ، فعليهم أن يكلفوا طوائف منهم بإتقان تلك العلوم والصناعات المختلفة ،  
ثم قال لي : إن جميع علماء بلدي حرّموا هذه العلوم . أقول وقد أخبرني صديق لي من علماء تونس قائلا :  
إن بعض العلماء في بلادهم يقولون إنه لا يجب شئ غير علم الفقه ، أما النظر للعالم العلوي والسفلي فيكفي أن  
ينظر الإنسان بينيه ، فالإسلام اليوم أضعف منه في كل زمان .

وقد جاء في الجرائد منذ أيام ( يولييه سنة ١٩٢٧ ) أن ملك الأفغان أفضل مدارس البنات لأن علماء  
الدين حرّموا تعليمهن حتى استفتى علماء الأزهر وعلماء الهند فأفتوه بتعليمهن ففتح للدارس كرة أخرى ،  
كل ذلك لتصور التعليم الديني في بلاد الإسلام وعكوفهم على علم خاص ومقدّماته .

وإنى أطالب كل من وقع هذا في يديه [ هذا في كتاب تفسير المؤلف : نداء للعقلاء في الإسلام ] أن  
يبعث في هذا للوضع ويفكر بقله ويستخرج العلوم الواجبة على السلمين ويرفها لولاة الأمور ، فإنه ظهر  
بهذا القول أن علم الدين ليس خاصا بالفقه بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعا لشجرة واحدة هي الحياة  
الإنسانية ، كل ما عندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة راسخة ، فليقلب التعليم في المعاهد الدينية على حسب  
ما قلناه وكذلك في للدارس المصرية ، ولتكن للأمة حال جديدة فهذه الحال لا يجوز إبقاؤها وليدرس هذا  
للوضوع دراسة نامة ، فالإسلام وأمة الإسلام اليوم في خطر ولا نجاة منه إلا بما ذكرنا واتباع قوله تعالى  
« لا يكلف الله شئاً إلا وسعها » .

#### الأوقاف الإسلامية والمعاهد الدينية في البلاد الإسلامية

إذا تفرّر أن فروض الكفايات تشمل العلوم والصناعات وأن المعاهد الدينية يدرس فيها علم النحو  
والصرف واللغوي وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه ، وكذا الحساب والهندسة والنظر  
في الكون .

أولا ينبغي أن ينظر في أمر الشهادة النهائية ويقال إن هذه العلوم كلها فروض كفايات لا فرق بين  
ما يسمى علوم الدين وما تسميه علوم الدنيا إذ ظهر أن هذه التسمية غلط وخطأ من السلمين .  
فإذا نظر رجال الحل والعقد في المجالس النيابية والوزراء والأعضاء في أمر ما يحتاج إليه الأمة من العلوم  
والصناعات ثم قرّروا أن يكون في تلك المعاهد شهادات عالية أيضا للهندسة وأخرى للطب والصناعات  
الشريفة باعتبار أنها فروض كفايات وأن كثرة للتعليم في البلاد من نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا  
إذا حصل ذلك فإنني أراه موافقا للدين بل أقول فوق ذلك إن مخالفة هذا تنافي الدين كما قرّر الإمام الترمذي  
من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء في زمانه .

الله عباد الله ! اتقوا الله في دينكم وأمتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه  
وأرقى منها بتنوع شهاداتهم مع أنهم مذبذبون للدين ، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقل ممن أخذها  
بالفقه لأتبعها درسا مما هذا الفن ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمر بحسب استعداده في الفقه ،  
وكذا الهندسة وأمثالها ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم في الامتحان التحريري بالأكثر .

ثم ينظر أهل الحل والعقد والأمرء في مختلف البلدان في الأوقاف الإسلامية وتنظيم نظامها تماماً فلا تبقى مبشرة كما هي الآن ، ويحرم الإنفاق على العاطلين القادرين على العمل بل توجه لما هو أصح لرفق الأمة واستخراج ما كمن من القوي والقدر في نفوس الناشئين .

#### تبيان معنى التفقه في الدين

ولما أتممت هنا كتابة هذه المقالات في جريدة ( كوكب الشرق ) على اللأ من علماء الإسلام واطلع عليها الأخ المتقدم ذكروه قال حسن ما كتبت : ولكن هل هذه الآية تحتاج إلى هذه المقالات كلها ؟ يقول الله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » ثم أمرهم أن يكونوا فريقين : فريق للجهاد ، وفريق للتفقه في الدين ، فهل التفقه في الدين هو هذا الذي ذكرته كله ؟ قلت : اعلم أن تقسيم الأعمال على الناس مأخوذ من هذه الآية بطريق الاستنتاج والقياس وإن أبيت إلا أن يكون بطريق النص ففسكر في معنى التفقه في الدين ، فقال : علم الفقه معروف ، قلت : إن القرآن نزل على نبينا العربي صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين ، فأما هذا المعنى الذي ذكرته أنت فهو اصطلاحى ، والاصطلاحى غير القومى ؛ فالقرآن لم ينزل على قلوب علماء الفقه الاصطلاحى بل أنزل قبل وجودهم فستحيل أن يكون الفقه المعروف هو القصد ، فقال : ما معنى الفقه في اللغة بالتحديد ؟ قلت : قال في القاموس المحيط : الفقه بالكسر العلم بالشيء والفهم له والفطنة ، ثم قال : وفقه كعلمه كتفقها وفقهه تفقيها : علمه كأفقهه وفقهه : باحثه في العلم ؟ اهـ .

فإذن الفقه هو نفس العلم وقد يلاحظ فيه الفطنة ، فيكون من فقه الشيء أدق وأوفى علماً من غيره ، فقوله تعالى « ليتفقهوا في الدين » إما المراد العلم به وإما المراد العلم الأنتم مع الفطنة ، وهذا المعنى ليس خاصاً بالأحكام الشرعية ، فالعلم الذي يورث خشية الله والخوف منه فقه ، والذي به الوعظ فقه ، وتدبر القرآن فقه وعدت نعم الله فقه ، والعلم الذي به الورع والعفة فقه ، والعلم بالله وآياته وأعماله في عبادته فقه ، لأن العلم والفقه بمعنى واحد كما عرفت ، قال : إذن كل ما عليه المسلمون خطأ وأنت بهذا تخطى أمة بنامها وهذا لا يفرقك عليه أحد ، قلت : لم أقل هذا بل لا يخطر لجاهل ، قال : ألم تعلم أن علم الفقه خاص بهذا الذي دونوه ولم يقل منهم أحد بما ذكرته أنت ؟ قلت : هذا كما قلته لك اصطلاح والاصطلاح غير اللغة ، ولا مشاحة في الاصطلاح وإلا فالآية تعطى هذه المعاني التي ذكرتها لك ، فقال : لئن تخلصت بهذا القول فلن تفر بما بعده . قلت : وما هو ؟ قال : وهل جميع العلماء السابقين كانوا في غفلة فلم يقولوا ما قلته أنت ؟ إن هذا لعجب عجاب ! قلت : أما لست محترفا لهذه المعاني بل هي نفس ما قاله الإمام الغزالي في الإحياء ، فقال : اذكر ما قاله بالنص ، قلت : قال في الربع الأول مانصه :

#### بيان ما يدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم للذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسماء المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض العاسدة إلى معان غير ما أراده السلف ، وهي حصة أفاض : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة .

فهذه أسماء محمودة والتصفون بها أرباب للناسب في الدين ولكنها بقات الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوخ إطلاق هذه الأسماء عليهم .

#### اللفظ الأول : الفقه

فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في العتارى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تممقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه .

وقد كان اسم الفقه في العصر الأول، طلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفاسد الأعمال وقوة الإحاطة بمخارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب وبذلك عليه قوله عز وجل « ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وهي الآية التي نحن بسدد الكلام عليها ، ثم قال : وما يحصل به الإنذار والتخويف ، هو هذا الفقه دون تعريفات الطلاق والعتاق والتمان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الحشية منه كما نشاهد الآن من التجردين له ، وقال تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها » وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى .

ولم يرد إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما تتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا ، قال تعالى « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله » الآية ، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة المخلوق على قلة الفقه .

فانظر أكان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتعريفات الفتاوى أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم ، وقال صلى الله عليه وسلم « علماء حكاهم فقهاء » للذين وفدوا عليه ، وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله : أرى أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أنفاهم لله تعالى ، فسكأنه أشار إلى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأفضية ، وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى ! قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه » . ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أفعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب ، قال فالتفت إلى زيد الرقاش وزيد النخعي وقال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا وإنما كنا نحمد فنذكر الإيمان وتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونمدنهم الله علينا تفقها » فسمى تدبر القرآن وعدنهم تفقها ، قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه المبدك كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة » وروى أيضا موقوفا على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله « ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد قننا » وقد سأل فرقد السبخي الحسن عن شيء فأجاب ، فقال : إن الفقهاء بحاله ونك ؟ فقال الحسن رحمه الله : شككتك أنتك فريقت ، وهل رأيت فقها بينك ؟ وإنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، اللدائم على عبادة ربه ، الورع ، الكفاف نفسه عن أعراض السليين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم ولم يقل في جميع ذلك : الحافظ لقروع الفتاوى ، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع فسكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فإن من هذا التخصيص تلبس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ووجدوا على ذلك معينا من الطبع ، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير والتوصل به إلى طلب الولاية والفضاء والجاه والمال متعذر فوجد الشيطان مجاللا لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع ، انتهى ما قاله الإمام النزالي .

فأنهم هذا المعنى أن الفقه يشمل أمرين : أحدهما تعداد نعم الله وهي العلوم كلها التي تدرس في مدارس أهل الأرض اليوم ، وعلوم تهذيب النفس الذي سماه علم الباطن وبعبارة أخرى . علم النفس وعلم الآفاق ، هذا هو ما يطلق عليه الفقه .

وفي هذا التفسير الاهتمام أكثر بعلم الآفاق الذي هو تعداد النعم وبه خشية الله تعالى كما قال تعالى « وإنما

يخشى الله من عباده العلماء ، بعد ذكر ألوان الجبال والثمار والناس والدواب والأنعام ، فقال صاحب : قد ذكرت كلام الإمام الفزالي في الفقه ، فماذا قال في العلم ؟ قلت : قال إنه يطلق على العلم بالله وآياته وأفعاله في عباده وخلقه ، وذكر أن هذا تسعة أعشار العلم التي كان يحملها عمر رضي الله عنه ، قال : ثم خصوه بالفقه ونحوه كسابقه ، وقال : إن ذلك صار سببا مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم ، وجعل التوحيد أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله تعالى فيترك الإنسان شكايه الخلق ويرضى ويترك النضب ولا يتبع الهوى لئلا يكون ناركا للتوحيد .

ويرجع التوحيد لظواهر القرآن التي تتسابق للأذهان فكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وقال في الذكر والتذكير إنهما يرجعان لمعرفة عيوب النفس وحقارة الدنيا والتذكير بنعم الله تعالى وتفسير المبدأ في الشكر ، وقال في الحكمة نحو ذلك ، ثم قلت له : فهل أدلك على ملخص ذلك كله ؟ قال نعم ! قلت : هو مجمل في سورة الفاتحة مفصل في القرآن .

إن العلم والفقه والتذكير والتوحيد والحكمة يرجع أغلبها إلى أمرين كما قدمناه :

أولهما : علم نعم الله وهي العلوم كلها من الطبيعيات والرياضيات وهي التي يعرف بها جمال الله تعالى .  
ثانيهما : معرفة جمال الباطن وسلوك النفس ، فهما اختلفت العبارات فالمرجع لجمال أنفسنا بالصفاء وتهذيبها حتى تقبل معرفة العلوم التي ملأت الكرة الأرضية اليوم ، وهذان الأمران المذكوران في الفاتحة .

الأمر الأول : أن الفاتحة فيها ذكر الحمد على نعمة تربية هذا العالم كله . والعلوم كلها هي معرفة هذه الدنيا ، ولا يتم الحمد إلا بمعرفة النعمة ولذلك صرح بها فقال « صراط الذين أنعمت عليهم » والإنعام هنا يرجع إلى نعمة العلم والعمل ، لأن النعم عليهم هم النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون ، وهؤلاء نعمهم عليه عملية ، وإلا فالهائم والجهال والعصاة منعم عليهم بلا علم ولا عمل ، فالحمد لما ذكر الحمد أتبعه بذكر النعمة . وبجارية أخرى أن يدرك المرء هذه النعم ويعرفها بذلك بالعلوم كلها .

الأمر الثاني : تهذيب الباطن وتطهير النفس وهو المقصود من هداية الصراط المستقيم . هذا هو إجمال معنى التفقه في الدين في آياتنا التي نحن بصدد الكلام عليها .

تفصيل هذين الأمرين في سور القرآن

ثم قلت : اعلم أن هذا المجمل في سورة الفاتحة فصله الله في القرآن فأنزل نحو ٧٥٠ آية في معرفة العوالم المحيطة بنا في السموات والأرض ، وذكر بنحو عددها أيضا آيات لأجل تهذيب النفس وعلم السلوك والتنظيف وآيات القسمين المذكورات بنصها في كتاب [ جواهر القرآن ] للإمام الفزالي .

ثم اعلم أن هذا التفسير قد قام ببيان أهم ما ذكرناه الآن بفضل الله تعالى ، ولقد ظهر فيه أن بقية آي القرآن تنحو هذا المنحى فإنك إذا نظرت إلى القصص التي لم تدخل في تهذيب نفس ولا ترغيب في علم قد رجعت إلى هذين الأمرين كما تطلع عليه في هذا التفسير بإيضاح ، فأيات القرآن كلها ترجع لتهذيب النفس ولتعليم العلوم الكونية وهما الأمران المذكوران في الفاتحة ، وهذا كله يسمى تفقهها في الدين ويسمى علما ويسمى بضه توحيدا ووعظا وتذكيرا وحكمة ، ثم قلت له : فتبين لك أيها الفاضل أن لفظ التفقه في الدين يشمل العلوم التي بها تعرف الله والعلوم التي تهذب بها نفوسنا ، فأما ما عدا ذلك من الصناعات المنتشرة في الأرض فإنها تسمى فروع كفايات وهي تعين على الأمرين المذكورين ، فلما سمع ذلك قال : لقد استوفيت للماني استيفاء ولكن شكك كلام الإمام الفزالي فيه اعتراض ، فقلت : قل ما بدا لك ، فقال : أ أكثر أحاديثه

ضعيفة ، فقلت : إنما طلبت مني ما يأتي : هل قال هذه المعاني أحد ؟ فقلت لك نعم وذكرت ذلك ، أما ضف الأحاديث فليس يضرنى لأنه يقول المعاني الشائعة عند الصدر الأول ، فضعف الحديث ليس ينقص موضوعنا ، قال حسن : ثم قال لماذا لم تنشر هذا بين الأنعام وتبين كيف يعلم السلحون هذا في مدارسهم حتى يتفقهوا في الدين ؟ فقلت : أما النشر فإن هذا التفسير قد قام به على مقدار طاقتي وهذا هو الممكن لي ، فقال : فلتكتب في الجرائد ؟ قلت : قد كتبت بضع عشرة مقالة في جريدة [ كوكب الشرق ] في نحو هذا المعنى بعنوان : [ خطاب إلى الأمم الإسلامية ] وقد أدرجت منها فيما تقدم المقالة السابعة ، وسأذكر هنا المقالة الرابعة للنشرة في يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٧ م الموافق ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٣٤٤ هجرية ، وهذا نصها :

### من هم الأولى أن يسموا علماء الإسلام ؟

قال الله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

يحاطب الله كل عاقل مقررًا له أنه أنزل من السماء ماء ، ومن هذا الماء خلق الله الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، وذكر أن الجبال بها طرائق مختلفة الألوان كاختلاف ألوان الأنهار : من طرائق بيض وأخرى حمر وثالثة سود شديدة السواد ، وهكذا الدواب من الخيل والبغال والحمير والأنعام من الإبل والبقرة والغنم ، كل هذه مختلفات الألوان كالأنهار والجبال ، ثم قال بعدها « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

فبالت شعري ! أي علماء يخشون الله ؟ أعلما الطهارة والنجاسة والبيع والبراث ؟ أم العلماء الناظرون في ملكوت السموات والأرض الذين آمنوا بالله الحكمة وتفكروا في خلق السموات والأرض تفكيرًا مبنيًا على براهين ثابتة في علم الحكمة .

ألا قبح الله الجهل والغرور ! ألا قاتل الله الكبرياء ! لقد صرف الله للتكبرين عن آياته فقال « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض غير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا وإن يروا سبيل النور يتخذوه سبيلًا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

يقول الله في القرآن « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . جد ذكره بحجاب الأرض والسموات ، فيقول بعض الزعماء في الإسلام : العلماء ، أي بالغة ويكفون من التوحيد بتلك الكتب التي وضعت لرد على قوم كانوا ضالين .

أيها السلحون إن أنصحكم أن علم التوحيد هو جميع العلوم من الفلك وعلم النبات والحيوان والإنسان وطبقات الأرض وجميع ما خلق الله .

يقول الله « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ؟ » . يوحى الناس على تعاسهم ووقوفهم عن النظر فيما خلق الله في السموات والأرض ، يسمي الله هذه الطائفة المفكرة في بديع صنعه علماء وأنهم يخشون الله ..

ولعمري لا يخشى هؤلاء الناظرون الله إلا إذا كانوا ينظرون من طريق الدين ، فالدين الإسلامي يحرض على النظر ، ومن فكر في هذه العجائب التي خلقها الله فإنه يحس في نفسه أنه بالعظمة التامة والحب العظيم



وهناك ينبغي في الإسلام « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » هؤلاء هم العلماء الذين إذا كثروا في أمة الإسلام أضاءت بهم الأرض وازينت وأشرقت بنور ربها .

أيها المسلمون : أليس هذا كلام ربنا ؟ أليس هذا قول الله تعالى ؟ يقول الله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » ( بكسر اللام ) جعل في خلق السموات والأرض واختلاف اللغات والألوان دلالات للعلماء لا للجهلاء ، وأي علماء هؤلاء ؟ أم علماء الفقه ؟ أم علماء الجدل المسمى بالتوحيد ؟ لا ، لا ، هو العلم بالفلك وعلم المواليد الثلاثة من معدن وتبات وحيوان وعلم طبقات الأرض وفروعها .

إن علم الفلك ليس يكون إلا بعد علم الحساب والهندسة والجبر ، فهذه العلوم لا يتم علم الفلك إلا بها وهكذا علوم عجائب الخلق في الحيوان والنبات والإنسان لانتم إلا بالعلوم الرياضية أيضا ، والعلوم كلها شجرة واحدة أصلها ثابت في القرآن وفروعها في جميع أعمال الحياة وعنان السماء وأطراف هذه الدنيا .

العلوم كلها متصلة متحدة متآلفة ، فمن عطل بعضها حرم الجميع ولم يتل إلا ظواهرها .  
فيا ليت شعري ! ألم يقرأ علماء الإسلام قوله تعالى « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريبا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ابتداء الآية بجملة اسمية تفيد التأكيد وجمال تسخير البحر لنا وجمال فوائده أربعا : أكل لحم السمك منه ، واستخراج الدر والرجان ليكونا حلية منه ، وأن الفلك تجرى فيه بين أوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا وأستراليا ، يقول العلماء إننا نستفيد بذلك التجارة وتبادل المنافع في الأقطار المختلفة .

هذه عناية الله بخلقه ورحمته بهم وتكريمه لبي آدم ، كرم الله بني آدم حملهم في البر بالدواب والقطر ، وفي البحر بالسفن ورزقهم الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه ، فأنه جعل من تكريم بني آدم حملهم في البر والبحر المذكور في هذه الآية آية تسخير البحر ، فقد سخره لتجري السفن فيه بأمره وهي تحملنا ونحمل ضائعنا .

هذه بعض عناية الله بالأمم ولكن السلم لما كرمه الله بهذه وأباح له استخراج الدر والرجان من البحر ولى مجانبه وأعرض عن نعمة ربه وقال : مالي والدر والرجان ومالي والسفن في البحار ، فلتصنع السفن ألمانيا وأمريكا وفرنسا ولتحملنا عليها إذا سافرنا ، أما الدر والرجان فهما لا فائدة فيهما . فنقول :

أيها السلم ، أيها العاقل أيها العقيب ، انظر بعقلك أولا وانظر في الآية ألم يفتح الله لك خزائنه البحرية ألم يقل لك ها هو مرجاني في البحر فلك أن تستخرجه ؟ فيقول قهقهة وهو متكبر محقر : أي فائدة من هذه ؟ أليس المرجان خزرات تنظمها النساء يجعلنهن زينة ؟ وأي فائدة في هذه ؟ تقول له : اقرأ علوم الأمم الحاضرة ، اطلع على كتب الأمم العظيمة وأنها دخلت في قوله تعالى « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » فإذا استهزأت بهذا وأمثاله اتبعك الشبان وهم الذين يصيرون قادة فتكون عقولهم كعقلك فيموت العرب وبقية أمم الإسلام وذلك من كبرك وعظمتك ، والله يقول « فيئس مشوى للتكبرين » ويقول « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » ويقول « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » فالاستهزاء والتكبر سبب خراب بلاد الإسلام الآن .

فربما يجيبك بعد هذا التكبرياء ويقول لك : حدثني عن منافع هذا المرجان ، إذا قال لك ذلك : فقل له إن المرجان عبارة عن هياكل حيوية ترسب في أبدان حيوانات دنيئة جدا شكلها كشكل الأزهار ذات ألوان

مختلفة باختلاف أزهار الأرض نظاما وبهجة وهي أجمل منها بما لا يقاس ، وهو يوجد حول جزائر بحر الروم في قاع البحر من ٣٠ قامة إلى ١٣٠ قامة ، وهو أشبهه بشجر قائم في البحر لا يزيد ارتفاعه عن قدم ، وأمه يكون أمام تونس والجزائر ومراكش وتقرب نابولي وجنوى وسردينيا وكورسكا .

أندري من يصوص على هذا للرجان ؟ يصوص عليه الفرنجة وهو ينمو في عشر سنين وكل سنة يصوصون على قسم منها ، ففي بعض السنين كانت الأزوارق الإيطالية ١٥٠٠ زورق وفيها ٤٢٠٠ نوى وكسبوا في تلك السنة أربعة ملايين ومائتي ألف فرنك ، والفرنسيون والأسبانيون في تلك السنة كسبوا مليوناً وخمسة وخمسين ألف فرنك .

أليست تونس والجزائر ومراكش بلاداً إسلامية يأخذ الأوروبيون للرجان من بحرهم وهم لا يعلمون شيئاً ؟

وباليت شعري ! أليس الله يقول في آخر الآية : « ولعلكم تشكرون » وكيف يشكر المسلم على نعمة لم يعرفها ؟ نعمة فتحت لأهل أوروبا بسبب علمائهم وأقلقت على المسلمين بسبب جهل بعض رجال دينهم ، ألا ساء مثل القوم للتكبرون النافلون !

إن الله سيأكل كل من يقرأ هذا اللقال من العقلاء في الإسلام ولا يفكر فيه ولا يجده في البحث والتفتيح ، لأن هذا فتح لباب الفسك في آيات القرآن كلها « والذين جاهدوا فينا لهديهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين » .

فلما سمع ذلك صاحي قال : هرقت نوع الكتابة للمعوم في هذا المعنى ، فأرجو أن تنق بما وعدت به من كيفية التعليم في مدارس الإسلام لبلوغ السعادة حتى يتفقه الناس في الدين ، فقلت : قد علمت فيما سبق أن النظر في عجائب السموات والأرض هو العلم الواجب شرعاً ، فأرى أن يبتدأ في القسم الابتدائي في المعاهد الدينية في بلاد الإسلام بمجموعة من المعادن والنبات والحيوان ويذكر فيها نذ من تلك العجائب والحكم الفعالية بحيث تكون سهلة التناول ، كأن يذكر البرّ والمرجان ويبين مثلاً أن أنفس الزينة وهو الجوهر من حيوان بحري وهو المحار ، وأن ألق للطمومات من حشرة في البرّ وهي النحلة الطائرة في الهواء ، وأن أجمل ما يلبسه الناس من صنع دودة في الأرض وهو الحرير ، فيقول المعلم مثلاً : انظر كيف جعل الله عز وجل أجمل زينتنا وألق مطموننا وأبهج ملبوسنا مصنوعات بدواب البحر والأرض والهواء ، وهذه الصناعات من أضف الحيوانات في الممالك الثلاث : الماء والتراب والهواء ، ويكثر من أمثال هذا وتكون جميع الدروس على هذا النمط ، ويسير على هذا للتوال ويذكر آية من القرآن ويترك الطالب يستنتج ويؤمن بالله ويخرج به ، بهذا وحده يتربى الشعب الإسلامي ، وبهذا وأمثاله يخرج نابون ، وهذا هو الذي جاء له القرآن ثم يسير الطالب في كل المعادن من الحديد والنحاس والقصدير والذهب وغيرها مبينا فوائده عظمتها خالقها مظهرها حكته وبدائع صنعه ؟ فيذكر قوله تعالى مثلاً في الحديد « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ولا يكثر من الإعراب ولا صنعة الكلام ، بل يقول انظر إلى هذه القطعة من الحديد وهو السمي بالزهر ، وهذه تسمى بالحديد المطاوع ، وهذه تسمى بالحديد الصلب ، وانظر الفرق بين الحديد الزهر والحديد الصلب .

ألا ترى أن الصلب يقبل الطرق والسحب ، والزهر ليس كذلك ؟ وترى الصلب يقبل القوة المغناطيسية أما الزهر فليس كذلك لأن الصلب نقي بما بداخله ، والأول مخلوط بأشياء غريبة عنه ثم يقول وهذا التوقع

في الحديد اقوايد و يشرحها و يذكر أنه من الجبال و كيف خزن فيها و كيف كان بمقدار الحاجة و كيف هدى الله الناس لاستخراجها ؟ و كيف كانوا قبل ذلك لا يعمل لهم إلا بالحجر أو نحوه .

ثم ينتقل إلى مجموعة من علم النبات و يشرح الزهر و جماله و كيف يكون الإلقاح في زهر الحدائق و للزراع ، و يبين كيف كان الريح و الحشرات مسخرات لذلك الإلقاح و أن ذلك من عجائب القرآن إذ قال الله تعالى « و أرسلنا الرياح لواقح الخ » و هكذا يريه عجائب الحيوان البري و البحري كالحوت المسمى (بالقيطس) الذي يكون طوله عظيماً و رأسه فيه الزيت المسمى (بزيت الحوت) وهو عشرات من البراميل فيتنجب الطالب من حكمة ربه و غير ذلك من العجائب .

وهذا العلم هو المسمى علم الأشياء كان يدرس في مدارس مصر قبل الاحتلال و في أوائله ثم رفع بعد ذلك و رجع إليها الآن .

هذا في القسم الأوّل في المعاهد الدينية ، أما في الثانوي فيقرءون نفس علم النبات و علم المعدن و علم الحيوان و النظام العام في علم الفلك حتى يشهد الطالب عجائب الإبداع و التكوين و يتأمل كيف تطلع الشمس و تغرب بمواعيد محدّدة لانقصر ثانية واحدة ليفهم قوله تعالى « و كلّ شيء عنده بمقدار » و يفهم أيضاً قوله تعالى « الشمس و القمر بحسبان » و لا يعرف الطالب ذلك إلا إذا أخذ نموذجاً سهلاً جداً من الحساب و قرأ نظام الكواكب السيارة و الثوابت و عددها و أنها مئات الملايين و فهم أقدارها و أبعادها التي تعد بمئات الآلاف من السنين بسير الضوء .

هناك يظهر في الإسلام « رجال لانظهم تجارة و لا يبيع عن ذكر الله » و كيف تلمهم تجارة أو يبيع عن ذكر الله و هم يشهدون صنعه و آثار جماله و حكمته و بدائع صنعه في النجم و القمر و الشمس و الزهر و البرّ و البحر .

فإذا انتقل الطالب للقسم العالي في المعاهد الدينية فيخصص بعلم من العلوم العالية التي هي فرض كفاية كالعلوم العربية أو الفقه أو أصوله أو التفسير و الحديث مثلاً كالمهندسة أو علم النبات و الحيوان أو علم الكيمياء و الطبيعة أو علم الطب أو البيطرة ، كل هذه يطلبها الدين بصفة أنها فرض كفاية .

وعلى أوياها الأمور أن يجملوا القسم العالي للاختصاص و يجملوا العلوم موزعة على قدر الحاجة ، فلا يطنى الفقه على الهندسة ، و لا علم الطب على العلوم الرياضية ، و كما يجب أن يعتدل المرء في أحواله فيربي القوى التي في نفسه تربية متساوية ، فلا الذاكرة تطنى على المفكرة و لا المفكرة على الخيلة . هكذا يجب أن يكون أفراد الأمة متطابقين بقدر الحاجة إليهم .

هذا هو الصراط المستقيم ، والله يؤتي الحكمة من يشاء « و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً و ما يذكر إلا أولوا الألباب » اهـ .

ولما أتممت هذا المقال قال صاحبي المتقدم من أهل العلم و الصلاح لما اطلع عليه : لقد أجدت كل الإجابة و فتحت باباً واسعاً لرقى الأمم الإسلامية في المستقبل ، ولكنني أريد أن أسألك ؛ هل كانت الأمم الحمديّة نائمة مما تذكره أنت الآن ؟ فقلت كيف تقول عما أذكره أنا الآن ؟ ألم تقرأ ما تقدم في سورة المائدة عند قوله تعالى « فبعث الله غرباً يبحث في الأرض » و إنني ذكرت هناك كلام الإمام الترمذى في أن فروع الكفائيات تشمل أعلى الأمور الدنيوية كالسياسة و أوسطها كالجياكة ، و أدناها كالتزبالة و الكناسة ، فالخرف كلها و العلوم كلها فروع كفايات ، إذن ليس هذا الرأي حديثاً ، و أذكر لك أيضاً الآن ما جاء في كتاب « جمع الجوامع » للإمام ابن السبكي و شرحه للجلال المحلى فقد قال : إن فرض الكفاية مهم يقصد حصوله

من غير نظر بالذات إلى فاعله ، وزعمه الأستاذ أبو إسحق الاسفراييني وإمام الحرمين والشيخ أبو محمد الجويني أفضل من فرض العين لأنه يسان بقيام البعض به الكافي في الخروج عن عهده جميع المكلفين عن الإنم المرتب على تركهم له ، وفرض العين إنما يسان بالقيام به عن الإنم القائم به فقط .

هذا نص كلام المتن والشارح . فإذا فرض السكناية عند هؤلاء الأعلام وإن خالفوا غيرهم أفضل من فرض العين ، فإذا كان يكون الملوك المنتظمون للأمم أفضل من العلماء الذين قاموا بأموال العبادات ، وعلى ذلك جاء في بعض كلام عدائنا [ أيها أفضل العالم أم الملك ؟ ] فكان الجواب هكذا [ من كان أثره للناس أكثر انتشارا فإنه أفضل ] فلما سمع ذلك قال هذا كلام العلماء ولكنني أريد العمل ، فهل قام المسلمون قديما بفروض الكفائيات ، فقلت إن المسلمين هم الذين بنهم الله نورا للناس كما بعث نبينا صلى الله عليه وسلم نورا لنا ، فقال هذه عبارات شائعة على الألسنة وقد عودتنا أن يكون كلامك مبرهنا عليه ، ومن ذا الذي يوافقك على أننا بشارت لرقى الناس مع أننا اليوم أقل الأمم علما وعملا ، فقلت نحن اليوم كما تقول ولكن أسلافنا كانوا كذلك ، فقال هذه دعوى لا دليل عليها ، فقلت قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فلم يجعله رحمة للمسلمين وحدهم ، بل جعله رحمة للعالمين وليس يمكن أن يرحم صلى الله عليه وسلم الفرنجة مثلا وأهل أمريكا واليابان والصين إلا بواسطة أمته ، قال هذا إغراق منك في القول ورجوع عن طريق التحقيق إلى الخيال ، فيما أن تقول هذا كلام سماحي بحسب ، وإنما أن تأتي بقول يقنع الناس قاطبة ، فقلت له سأسمعك الساعة مايقنع الناس قاطبة وأقدم قبله مقدمة فأقول :

إن الله عز وجل يقول في آخر هذه السورة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم الخ » فلحرمه صلى الله عليه وسلم أنذرهم بالقرآن وخوفهم العاقبة فقرءوا علوم الأمم وأفادوا أهل أوروبا وأهل أوربا أفادوا العالم بعد ذلك ، ثم قلت وهل يقنعك في ذلك شهادة علماء أوروبا؟ قال نعم . قلت هاك مقاله العلامة ( سيدبو ) أحد مشاهير علماء فرنسا المولود بباريس في ٢٣ يونيو سنة ١٨٠٨ م الموافق ١٢٢٣ هجرية فقد جمع في عشرين سنة تاريخا في سفر من مؤلفات من يوثق بهم من العرب والفرنج ونشره في أوروبا فتحوّل الناس هناك عما رسخ في أذهانهم وأخذوا يتقدرون العربية وعلماء العرب حق قدوم وظهور فضل العرب لدى الفرنج وأنشأوا في عمالكهم مدارس لتعلم اللغة العربية وأخذوا يسارعون إلى حيازة الكتب العربية ويذبلون فيها النفيس ، ولم يقتصروا على ذلك بل رغبوا في حوز صور مبانهم وجميع ما كان لهم من الزينة ونحوها وآلات اللاهي وغير ذلك .

ولما أخذ السياحون يجوبون البلاد الدانية والقاصية ليعثروا على ذلك غير مباليين بما يلقون من المشاق المهائلة فحصلوا على مافي بيوت الثخف والآثار من الأمثلة المتنوعة بقدر تنوع الحرف والبضائع وعلى مافي خزائهم من الكتب التي هي في جميع ما كتبه الإنسان من هزل وجد .

هذا هو نص مقاله أستاذنا منشى مدرسة دار العلوم قبل اليوم بخمسين سنة للرحوم على مبارك باشا في مقدمة ترجمته لهذا الكتاب من الفرنسية إلى العربية ، وهناك مقدمة الكتاب للؤلف المذكور الذي هو المقصود الذي به تعرف أيها القاضل بأن العلوم والصناعات التي هي فروض كفايات لولا آباؤنا من الأمة الحمديّة لكان العالم كله اليوم في ظلام .

قال العلامة سيدبو المذكور [ ما زلت منذ نيف وعشرين سنة أبين ما للعرب من توسيع نطاق العلوم والتقدم في القرون التي بين عصر يونان إسكندرية مصر وأعصر الدول الحديثة الأفرنجية ، ورأيت أن أذكر بمجل أخبار هذه الأمة المحترمة لدى الفرنج من أمد جيد وأن أضاهي ما جمعت بما أذاعه غيري لأكون أول

من دوت تاريخنا علما في أخبار العرب وهو ميدان عام واسع المجال ربما كان فوق طاقة الواحد من الرجال .

ثم أخذ يمدح الأمة العربية بحميل أخلاقها واستقلالها إلى أن قال : "ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فربط علائق المودة بين قبائل بحيث جزيرة العرب ووجه أفكارها إلى مقصد واحد فملا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج المار بأسبانيا وبرتغال إلى نهر (الكنج) أعظم أنهار الهندستان ، وانتشر نور العلوم والتمدن بالشرق والغرب ، وأهل أوروبا إذ ذاك في ظلمة جهل القرون المتوسطة وكأنهم نسوا نسيانا كليا ما وصل إليهم من أحاديث اليونان والرومان ، واجتهد العباسية ببلاد الأندلس وقرطبة والفاطمية بالقاهرة في تقدم الفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية فاقصروا على السلطة الدينية التي استمرت لهم في سائر أرجاء ممالكهم ، وكان لديهم من المعلومات والصناعات والاستكشافات ما استفاد منه نصارى أسبانيا حين طردوهم منها ؛ كما أن الأراك والقبول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم وأدوا إليهم مرتبات ، ولما انحسرت العرب في (بجيت) جزيرتهم وسحارى أفريقية عادوا إلى عيشتهم البدوية مستقلين عمعن عداهم حتى أزمته الدولة العثمانية الانتقاد وأجفقت بهم فانقادوا منتظرين فرصة أراد الوهاية انتهازها في غرة هذا القرن التاسع عشر من الميلاد لعنتق رقاب الأمة العربية من تسلط الأجانب عليهم فلم ينجحوا ولبثوا مستعدين للمصيان بإشارة من كبارهم ولا مانع من حصول ذلك في ممالك تونس ومراكش وكفا الجزائر التي حكمتها فرنسا فإن جميعهم على غاية من الاستعداد لإجابة رؤسائهم .

وهنا ذكر المؤرخين من الفرنجة قبله مثل (بوكوك) و (شولتنس) وغيرها إلى أن قال : والمستندات الأصلية المشتتة على سير العرب لم تزل إلى الآن كنوزا مغلقة فلما معشر الفرنج وإن وقفنا على حقيقة تواريخ أبي القداء وأبي الفرج وألسين النصراني المعروف بين أهل المشرق بابن العميد ، لكن ليس عندنا الآن إلا تراجم قطع من تواريخ ابن خلدون وللقريزي وابن الأثير وتواريخ كثير من اللؤرخين من العرب والفرس ولما نحوز جميعها مترجما باللغة الفرنسية ، ومع ذلك يكفينا ما لدينا من تواريخ السلف في ضبط الحكايات وتحقيق الحقي فيها ، بل تقدر بها على فهم ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم غير مغترين بما اعتاده اللؤلقون من ستر خلقه الباطني كالقائل إنه كان رجلا مجذوبا محتالا طماعا يتعذر حصر هواضه ، والقائل إنه كان ذا قرحة لا نظير لها وإنه من نوادر الوجود التي يحدثها الله لإصلاح الدنيا فإن هذين القولين لا يثبت إليهما ، بل يجب رفضهما ، والمقول عليه في وصفه صلى الله عليه وسلم ما قاله العلامة (أولسنير) فإنه فهم حقيقة الرسول وحكم دين الإسلام على جميع الممالك التي انتشر فيها على ما قاله في تذكرته التي وقعت موقع القبول سنة ١٨٠٩ ميلادية لاشتغالها على للأموال لدى أرباب مدرسة العلماء للشغليين بالمناوين والكتابات على الآثار القديمة ثم بالعلوم الأدبية .

وأما تواريخ الخلفاء الراشدين وكذا الأموية في دمشق وقرطبة والعباسية ببلاد الفاطمية بمصر ووصف تمزيق الممالك الإسلامية الشرقية التي أغار عليها الأتراك ثم القبول فدونها القرنين تدوينا حسنا وأضفنا إليها ما تركوه من أصولها وهو وصف التمدن العربي الذي تمكنت أصوله في آفاق الدنيا القديمة أقوى تمكن . ولا يزال إلى الآن نرى آثاره حين نبحث عن مستمد مبادئ ما نحن عليه من المعلومات الأوروبية فإن العرب في غاية القرن الثامن بعد الميلاد فقدوا الحمية الحربية وشغفوا بمحور المعارف حتى أخذت عما قليل مدائن قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقنة وأصفهان ومصر قد تهاخر بتداد في حيازة العلوم والمعارف ، وقرى ما ترجم إلى العربية من كتب اليونان في المدارس الإسلامية ، وبذل العرب همتهم في الاشتغال بجميع

ما ابتكره الأفهام البشرية من المعلومات والفنون وشهروا في غالب البلاد خصوصا البلاد النصرانية من أوروبا ابتكارات تدل على أنهم أمتنا في المعارف ، ولنا شاهد صدق على علو شأنهم الذي تجهله الفرنج من أزمان صيدة مديدة .

الأول ما أثر عنهم من تواريخ القرون للتوسطة وأخبار الرحل والأسفار وقواميس ما اشتهر من الألسنة والرجال والمجاميع الشاملة لكثير من الفنون الفاخرة .

الثاني ما كان لديهم من الصناعات الفائقة واللباني الفاخرة والاستكشافات المهمة في الفنون وما أوسعوا دائرته من علوم الطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء الصحيحة التي ارسوها بغاية النشاط من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر من ليلاد (من سنة ٢٨٨ إلى سنة ٩٠٧ هجرية) وزعم المؤلف (شليجل) سنة ١٨٣٢ ميلادية الموافقة سنة ١٢٤٨ هجرية أن الهنود والصينيين أعلم من العرب وأخبر أنه سيقف على كنه معارف هاتين الأمتين مع أنه لم يحصل بعد دعواه بشربن سنة أجل الفوائد الفلكية والرياضية والجغرافية إلا من الكتب العربية القديمة .

ثم ألف الفرنج الباحثون عن الأمور الهندية كتباً كثيرة ، لكن لم يحصل منها أدنى تقدم فيما هي بصدده ، كما أن الفرنج المستخرجين فوائد من تواريخ المملكة الصينية التي هي أقدم الدول لم ينجحوا إلا في إظهارهم الصينيين بأنهم أجهل أهل الأرض كالترك كما قاله المؤرخ أبو الفرج ، وأما المدرسة البغدادية المدونة للمعلومات الهندية في الفترة التي بين عصر يونان الإسكندرية والأعصر الأخيرة فكانت مساعدة على استيقاظ أهل أوروبا من رقدة الجهالة ونشر آوار المعارف في جميع ممالك آسيا ، فقد انتشر علم العرب ( الفلك ) في الهندستان بواسطة العلامة البيروني المعمور بكارم السلطان محمود الغزنوي حين انتقل إليها سنة ١٠١٦ ميلادية للواقعة لسنة ٤٠٧ هجرية كما نشره بين السلجوقيين العلامة عمر خيام سنة ١٠٧٦ ميلادية للواقعة لسنة ٤٦٩ هجرية وبين الملوك العلامة نصير الدين الطوسي مؤسس الرصدخانه بمدينة الراغة سنة ١٢٦٠ ميلادية للواقعة لسنة ٦٥٩ هجرية وانتشر بين العثمانيين سنة ١٣٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٧٣٨ هجرية ونشره بين الصينيين العلامة (كوشيوكنغ) تلميذ الأستاذ جمال الدين سنة ١٢٨٠ ميلادية الموافقة سنة ٦٧٩ هجرية في عهد السلطان كوبلاي خان كبير عائلة الملوك اليوانية ، وشيد (أولوغ بيغ) لعلم الفلك رصدخانه بسمرقند سنة ١٤٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٨٤١ هجرية وانتهى اشتغال المشرقين بالعلوم والفنون عقب زمان (أولوغ بيغ) ثم اطلع أهل الغرب من أوروبا على أسرار تلك العلوم فأخذوا يشتغلون بها حتى جدوا في البلاد الافرنجية التمددين واللغة العربية وفنونها الأدبية التي أخذت كل يوم في زيادة الانتشار بين الفرنج ومازلنا إلى الآن نستكشف أموراً مهمة من الكتب العربية القديمة وإن عزي ابتكارها زورا إلى بعض المتأخرين من الفرنج ، ولاشك أن فتح أمتنا الفرنسية بإبالة الجزائر المغربية وكثرة علاقتها بمسلمي إفريقيا (ممالك المغرب) يزيد فيما اهتم به الفرنج المولعون باللغات والآثار المشرقية من البحث عن كتب المعلومات العربية التي لم يحس سلف الفرنج ما فيها من جواهر المعارف الثمينة ، وما أعظم اشتغالنا بتلخيص جميع تاريخ الأمة العربية التي ظهرت أخبارها أعجب مظهر وبهرت أبنائها دون غيرها من التواريخ كل من قرأ وتبصر ، ولذلك نلت أبناء أوروبا على بحر الزمان إلى تلك الآثار الجليلة التي خلفتها هذه الأمة .

هذا ما قاله المؤلف في المقدمة . ثم قال في صفحة ٣٣٥ عند الكلام على العلوم الطبيعية ما يأتي :

باب في العلوم الطبيعية التي كانت عند العرب وفيه مقدمة وأربعة مباحث

المقدمة

قد اتسعت العلوم الطبيعية زمن اتساع العلوم الرياضية ولكن لانعرف عصر نشأتها لنسلسل التصورات

في جميع الأشياء التي يحول العقل فيها ، نعم الاشتغال بمعرفة حقائق الكائنات العلوية والسفلية وتفصيل ما يتعلق بها وضبط قياس الحركة والفضاء الذي تمّ فيه بواسطة التأمل في الطبيعة حدث زمن أرسطاطاليس على أن ذلك البحث كان في الغالب متعلقاً بالأجسام العضوية وهي الحيوان والنبات ثم ارتقى ذلك زمن العرب إلى درجة البحث عن القوى الطبيعية والجواهر الأولية التي تحلل لإدخالها في مركبات أخرى لأنهم كانوا يسكنون بجزيرة العرب ما بين مدينة مسكات ومكة الذي به كثير من البهارات والصمغ والبسمة والجواهر النافعة والضارة بالإنسان فالتفتوا إلى مزايا ما بأرضهم من النباتات النافعة في الطب والصنائع وزينة المعابد والقصور ومثلهم من في سواحل مالابار وسرنديب (سيلان) والسواحل الشرقية من قسم أفريقية فتحصل كل على مزبة لم يعلما الآخر إلا بواسطة تجارات أمت من مخزن (جرها) الذي بين الخليج الفارسي واليمن وجاءت بجزيرة العرب حتى بلغت كنعان والشام .

وأما البحث عن الجواهر الطيبة التي مدحه ديوسقوريدس لأهل مدرسة الإسكندرية ، فمن محترفات العرب أنهم المنشئون للأجزيخانات الكيماوية والموروث عنهم ما يسمى الآن بقواعد تحضير الأدوية التي انتشر بعد من مدرسة (سالرنه) في الممالك التي في جنوب أوروبا .

#### البحث الأول في علم الكيمياء

قد أدى إنشاء الأجزاخانات والمادة الطيبة التي لها أول ما يلزم لفن الطب إلى الاشتغال بعلم الكيمياء الذي كان ابتداء العرب في التمدن مبدأ للاشتغال به وهو عبارة عن مجرد التحليل والتركيب لا تركيب الذهب والفضة المسمى بالكيمياء السرية والإكسير والحجر المكرم وقد أوصلت العمليات الهرمسية وهي تركيب اللاغم والمحلولات المعدنية التي عملت في المعادن المطروقة إلى أبداع الاستكشافات المعدنية وعرف تركيب الكبريتيك والماء المعثر والماء المسكي وتحضير الزئبق وتحضير الجواهر الكؤولية وغير ذلك من مؤلفات أبي موسى جعفر الكوفي المشتهر في القرن الثامن من الميلاد والفخر الرازي المتوفى سنة ٩٢٣ من الميلاد .

#### البحث الثاني في علم النباتات والمادة الطيبة والاقتصاد الزراعي

لعدة اطلاق العرب على مزايا النباتات أدخلوا في الأدوية نباتات جهل اليونانيون خواصها كالراوند وشحم التمر الهندي وخيار شبر وورق السنن المسكي والإهليلجات والكافور وعرفوا أنواع الطيب الزكية كجوز الطيب والقرنفل وغرسوا عدة أشجار من ذوات الزهور المذكرة والمؤنثة وعرفوا ما يتعلق بحسب آلات الكورة والأنونة ورأوا استعمالهم السكر في الطب أفضل من استعمال القدماء العسل فأدخلوه في مركبات كثيرة كشراب الورد وأثرية جلالية (بضم فشد) وماجين كثيرة واشتغلوا بعلم الجيولوجية وهو معرفة تركيب طبقات الأرض .

وتكلم ابن سينا في المادة الطيبة على شجرة الأرز المسماة (ديودقارة) النابتة في جبال (هيايه) وجعلها نوعاً من الشجر المسمى (چونيبريس) الداخلة من تركيب زيت الترمينتا .

وقد أنشأ عبد الرحمن الأول خليفة قرطبة بستان نباتات بقربها وبعث إلى الشام وغيره من الممالك الشرقية سياحين لجمع البذور النادرة وكان قد غرس بقرب قصره في الرصافة أول نخلة في قرطبة .

وبالجملة بذل العرب صادق المهمة والعزيمة في تعلم وتعليم جميع فروع العلوم المتعلقة بالمولدات الطبيعية .

ولذا أنصفهم المؤلف (ليل) في كتابه الجديد بما حكاه من اشتغالهم بعلم الجيولوجيا ، ونقل (دساي) عدة فصول من كتاب القزويني المشهور باسم (يلين المشارقة) واشتهر حياة الحيوان للميرى الذي هو عند العرب بمنزلة (بوفون) عند الفرنج ، وبلغت العرب في علم الزراعة أقصى درج الكمال ، وأحدثوا في أسبانيا

السواقي ذات القواديس المعتادة الآن ، وكان عتدم في الاقتصاد الزراعي معلومات شيت بأوهام فاسدة  
إلا أنهم كانوا يعرفون طرقا عملية تستحق الثفات الفلاحين إليها .

المبحث الثالث في علم الطب والمدرسة اليونانية العربية والقصر الرازي وابن سينا

أحضر ملوك الفرس الأكاسرة من ابتداء القرن الثالث بعد الميلاد العيسوي أطباء اليونان فنتشروا  
في البلاد المشرقية آراء أبيقراط الطيبة حتى سابت المدرسة التي بجنديسابور مدينة الاسكندرية أيام البطالسة  
ثم فتحت العرب البلاد فكان مركز التعليم ( أنطاكية وحران ) وظهر منها أطباء جامعون في الغالب بين  
العلوم الرياضية والفلسفية عارفون باللغة اليونانية كالعربية التي ترجموا إليها كتب أرسطو واقليدس وبطليموس  
منهم يحيى بن ماسويه طبيب هارون الرشيد ألف في الطب كثيرا من المؤلفات العتبرة عند اللشريقين ،  
منها شرحه للشتمل على ثلاثين كتابا ، وكتاب في تحضير الأدوية ، ورسائل في أصناف الحمى والأغذية والزلات  
والحمات وأنواع الصداق والشقيقة وغير ذلك ترجم كثير من مؤلفاته إلى العبرانية ويوجد بكتبخانات أوروبا  
كثير منها بالعبرانية والعربية . مات سنة ٨٥٥ ميلادية وله ثمانون سنة خلفه تلميذه حسين وأخذ من اللأمون  
على كتاب ترجمه من اليونانية إلى العربية زته ذهابا ، ترجم كتابي جالينوس وأبيقراط وغيرها ، وألف كتابا  
كثيرة في الطب وللنطق الفللسقي ، واختبره للتوكل حيث سأله عن سم قاتل بمجرد تناوله فقال لا أعرف  
إلا الأدوية الحافظة للصحة فأخذها طبيبا وأغدى عليه . توفي سنة ٨٧٤ ميلادية ، ومنهم جبرائيل للشهر  
في علاج كثير من الأدوية . والقصر الرازي محمد بن زكريا قام بإدارة اللستشفيات في بغداد والري  
وجنديسابور وهو أول من أحدث اللسهلات اللطيفة في الأجزاء الخانات والترائب الكيماوية الطيبة واستعمال  
الحزام وأول من ميز القصب المنجري عن القصب الراجع الذي يكون أحيانا مضاعفا من جهة اللين ،  
وكان يرى أهمية اللشريح في الطب الذي ألف فيه أكثر من مائة مؤلف ، منها كتاب ضمنه سماه [ الحاوي  
في علم اللداوي ] ورسالة في اللجدرى والحصبة استمدت منها سائر الأطباء ، وأهدى إلى الأمير اللصور حاكم  
خراسان في القرن العاشر من الليلاد أحد أبناء العائلة السمانية عشرة كتب حسنة الترتيب والأسلوب طبعت  
في مدينة ( ونديق البنادقة ) سنة ١٥١٠ ميلادية وهي أول ما بحث فيه عن اللجرة عمى كثيرا ففتح أن يعالجه  
من الأطباء إلا من عرف عدد أعشية اللين وساح في الشام ومصر وأسبانيا ، توفي سنة ٩٣٢ ميلادية واشتهر  
بعده بثمانين سنة على بن عباس الفارسي اللجوسي ألف في الطب كتابا عشرين مجلدا ، عشرة في قواعد الطب  
وعشرة في عملياته سماه ( اللسكي ) وأهداه إلى السلطان عضد اللدوم اللويهي ترجمه إلى اللاتينية اسطفان  
الأنطاكي سنة ١١٢٧ ميلادية وطبعه ميخائيل كابلان سنة ١٥٢٣ في مدينة ليون بفرنسا ولم يكن في حكماء العرب  
مثل القصر الرازي وأبي على الحسين بن سينا اللولود في ( اشانته ) من ضواحي شيراز سنة ٩٨٠ ميلادية ،  
كان والله حاكما على شيراز وتعلم هو الطب في بخارى وبلخ وهو ابن ١٨ سنة الأمير نوح اللماني وشفي من  
مرض عظيم فتقدم عند اللولوك السمانية ووعدوه محمود اللعروني الإغداق عليه إن أقام عنده فأبى ودام على  
اللغرب في البلاد وأقام عند قابوس حاكم إقليم جرجان وجدد في ديوانه أعمال الطبيب اليوناني ( ابراز استراطس )  
وجدده ل موثلا في مدينة الري حين كان سلطانها ب محمد اللدولة ثم في مدينة همدان حين اختاره ملكها  
شمس اللدولة أن يكون وزيرا وطيبيا له ثم دعاه علاء اللدولة للقيام بوظيفة الوزارة والطب بأصفهان ، ألف كتابا  
من أجل المؤلفات منها ( اللقوانين ) وهي خمسة كتب ترجمت وطبعت مرارا ، وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازي  
تدرس بمدارس أوروبا نحو ستة قرون تقريبا ، مات سنة ١٠٣٧ ميلادية .

للبحث الرابع ، في مدرسة أسبانيا وابن القاسم وابن زهر وابن رشد وغيرهم

ظهر أيضا في مدرسة أسبانيا من الأطباء جمع منهم أبو القاسم خلف بن عباس اللعروف عند القرن



بالوقاريس وضع علم الجراحة ووصف آلائها وكيفية استعمالها وما يحصل في بعض الكيفيات من الأخطار وعين لإخراج الحسوة موضع البضع الذي عينه متأخرو الجراحين من الفرنج ولم تعرف مؤلفاته بين الفرنج إلا في القرن الخامس عشر من الميلاد ، مات سنة ١١٠٧ ميلادية . وأبو مروان بن عبد الملك بن زهر ولد في بلدة ( بنافلور ) أدخل في المادة الطبية عدة أدوية ، وأحدث في علم الجراحة فتح شعق التنفس ووصف أمراضا لم تكن موصوفة قبل ، مثل المرض المعروف بالهاب الحجاب للنصف للتامور المحيط بالقلب وتعين لرد العظام المنتقلة إلى مواضعها وجبر للتكسر منها ، ترجمت كتبه الكبيرة إلى اللاتينية غير مستوفاة الترجمة ، استخدم عند الأمير يوسف بن تشفين صاحب مراکش فأعقد عليه ، ومن تلامذته ابن زهر أبو الوليد محمد بن رشد اتبع أصول الفسفة الأرسطاليسية . وألف رسالة في الترياق وكتبا في السموم وأنواع الحمى وشرحها على كتاب أرسطاطاليس ، وشرحها على قوانين ابن سينا ، وكتبا ضخما مشهورا ( بالكلبيات ) طبع في مدينق ونديق وليون وغيرها .

وكان عبد الله بن أحمد بن علي البيطار أعلم الأطباء بعلم النباتات ساح في البلاد الشرقية زمنا طويلا وأكرمه السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي والكامل صاحب دمشق ، اشتمل مجموعته للسمى ( بالأدوية المفردة ) للقسم أربعة أقسام على وصف جميع النباتات والأحجار والمعادن والحيوانات ذات الخواص الطبية أصحح فيه غلطات ديوسقوريدس وجالينوس وأوربان .

وبالجملة كان ملوك الشرق يدعون العلماء إلى دواوينهم ويستقبلونهم بأنواع التشريف والأموال الجزيلة فكان منهم عدد لا يحصى حفظت أسماءهم في التواريخ ؛ اشتهر منهم في الطب ثابت بن قرّة الطبيب الفسكي سنة ٨٥٠ ميلادية وأبو جعفر أحمد بن محمد الطالب الذي ألف سنة ٩٧٠ ميلادية في داء البرسام والبرسام وغيرها ، وعلي بن رضوان سنة ١٠٦٠ ميلادية ، وجزلة بن جزلة سنة ١١٠٠ ، وعبد الرزاق سنة ١١٥٠ ، وهبة الله سنة ١١٥٥ والجلدي الذي ألف سنة ١٢٥٢ كتابا في الحجر للسكرم للسمى أيضا ( بالكيمياء السرية والصنعة الإلهية ) وأبو الفرج سنة ١٢٨٦ وإسحق بن إبراهيم سنة ١٣٠٠ .

باب فيما كان عند العرب من الفسفة والإلهيات والهة ، وللعارف الأدبية ومخترعاتهم وفيه مباحث

للبحث الأول في عدم اقتصار العرب على شرحهم فلسفة أرسطاطاليس

زعم الفرنج أنه لم يكن فلسفة عربية وما ذاك إلا الجهلهم بأشغال العرب ، فإن جميع الدروس بمدارس أوروبا في القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفسفية وكانت ترجمة حسين الطبيب وعبي النحوي كتب أرسطاطاليس مبدأ لاشتغال العرب بالمعلومات الفسفية التي كان من رجالها السكندى ومحمد بن مسعود وأبو تمام النيسابورى وأبو سهل البلخي والاسفراينى والعميرى ثم ظهر الفارابى وابن سينا فسكانا أشهر رجال الفسفة لتدوينهما لها على الصورة المذهبية التي نقلها عنهما ابن باجه وأثير الدين الأبهري وعلي الخونجى وابن رشد وأبو السلت ونصير الدين الطوسى ثم اجالوا في مدارس المغرب ، ولا تطلق أن العرب اقتصروا على تفسير كتب أرسطو ، بل كانوا يعرفون تآليف أفلاطون لاسما كتابه الأكبر المؤلف في الترائع وعدة كتب منسوبة إلى ( فيثاغورس ) وكانوا يذكرون من قدماء اليونان كثيرين أورفيه وأومبروس المحتوية أشعاره على الفسفة الدينية والفلسفة السبعة وانكزاغورس وإراقليط وديمقراط والاباطية وسقراط وتلامذته وإقليدس والفلسفة الاسطوانية وكان عندهم في الجزء الثانى من تاريخ علم الفسفة مسائل فيمن كل فلسفة أرسطو ومن شرحها وفيما يخص مدرسة الاسكندرية ، وكانوا يعتمدون أقوال ( بلوتين ) و ( برقلوس ) ويلهجون كثيرا بالفنضيا الملية ، وكانوا واسطة بين زمن الفسفة القديمة والفلسفة للدروس في أوروبا .

وكانت المجادلة بين أهل الظاهر منهم وابطان عدّة قرون فضل فيها بعض أهل المدارس الشرقية على بعض وكان منهم معتزلة بصرية ومعتزلة بغدادية وحكاؤم الفلاسفة الذين ظهرت فلسفتهم على علماء الفرنج في القرون المتوسطة بل وعلى أرباب الأسرار الروحانية ومثل ماري بونا انطور . انتهى .

فصاح صاحب ذلك قال يا عجبا كل العجب هذا القول لم أسمعه إلا الآن ! وكيف يكون أسلافنا من الأمة المحمدية هم آباء العالم كله ؟ وكيف يكون ذلك شأنهم ونحن اليوم على ما نحن عليه جهال غافلون ؟ فقلت : ذلك ثلاثة أسباب :

السبب الأول : أن ملوك الإسلام إن كانوا صالحين صلحت الأمة ، وإن كانوا طالحين ضلت الأمة لافرق بين الأمويين والعباسيين في الشرق والأمويين ومن بعدهم في بلاد الأندلس ، فهؤلاء الملوك جميعا إن استقاموا استقامت الأمة ، وإذا فسدوا فسدت لجهلهم وظلمهم فضيع العلوم والصناعات التي هي فروض كفايات . مثال ذلك من كلام المؤرخ المذكور أن مجدا الحمار في الأندلس بعدما ظن المسيحيون أنهم كادوا بطردون العرب من الأندلس أخذ يثير الهمة والنفاس بين أهل الصنائع ويشوقهم إلى الاختراع ويعطى مكافآت لمن أتى بشيء من ذلك فنجحوا وبرعوا في نسج أقمشة الحرير وغيره ، وكذا في النبات براعة أهل قرطبة وكفى بقصر السباع المعروف بالحمار شاهدا على ما كان لأهل غرناطة من الثنى والمهارة في فن البناء مع ما لهم من الاجتهاد التام علوم الفلك والطب والكيمياء والرياضة والنحو والنطق .

وأخذ هذا الملك يعمل غرناطة أعيادا لتمثيل الوقائع الحربية وأعيادا لمناضلة الفرسان ومواسم لمقاتلة الأنوار وأخرى للتسابق ولعب أخذ الحاتم ، وبدعو أعيان الرعية إلى الأعياد والولائم العظيمة ، ولم يكن ذلك نتيجة جور بل رفاهية للمعيشة في سائر الرعية .

ولذا كانت مدينة غرناطة كرسى مملكته مأوى المسلمين المتشتتين لكثرة خيراتها الجاذبة لجميع من لم يرد الإقامة تحت حكم نصارى أسبانيا ، وكثرت المهاجرة إليها حين أخذ الملك ( جاك ) يطرد المسلمين من مدينة ( والنسة ) سنة ١٢٤٩ .

ولم يزل ملوك غرناطة متولين الحكم بها من سنة ١٢٣٨ إلى سنة ١٤٥٢ ميلادية محسنين ترتيبهم السياسي ، فقد رتبوا في كل بلدة خفراء منها وأعطوا جميع سكانها سلاحا يستعملونه حالة هجوم العدو فرفموه مرات على ملوكهم للمتبعين من أداء واجباتهم للوكية أو الدين لا يباون بمشاورة الأمة ، وجملوا للمساكر المحافظين بالثغور إقطاعات من الأرض تكفيهم وعائلاتهم لتبنيهم على الوقاية من الأعداء ، وأزموا أغصم مثل ملوك الأقاليم المغربية بالقيام بما يلزم طوائف الفقراء من نحو الأكل والشرب ، وأكثروا في الأسواق للبيع الضرورى ورتبوا في غرناطة التي دائرتها أكثر من ثلاثة فراسخ ضبطية ، وفي كل من منها ضابطا ورتبوا عساكر تدور ليلا في الأماكن التي لم يكن يكثر طروقها ، وعملوا قوانين لزم إغلاق المحل العامة كالأسواق وخصصوا كل حرفة بطائفة ، وعاقب كثير منهم من أفرط في شرب الخمر ، وأمرؤا اليهود أن يميزوا بعلامة من غير إساءة معاملتهم ، ومنعوا الربا في النقود وابتكروا في كتابة الحجج والصكوك طرائق واضحة تمنع المنازعة ، وشغلوا العلماء بتأليف رسائل في الصنائع العلمية وانقاد الأمة والقهاء لقوانينهم النظامية بعد أن كانوا إلى زمن هذه السلطنة مطلقا التصرف يفعلون ماشاءوا ، وأحدثوا لتأدية العبادة قوانين تنهى عن كمال إيمانهم وعلو أفكارهم وشرف التأديب والتهذيب الديني منها انزال النساء عن الرجال في الساجد وخروجهن قبل الرجال وإكثار الطاعة في رمضان وتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء وأهلها أو إيقاظها لتتفق في عمارات طامة النفع ، ومتع اجتماع الناس ليلا وإبطال التدب على الأموات عند دفنهم بقراءة أدعية على قبورهم ودفن اللواتي عاربن عن الحاتم وباقات الأزهار للمتادة قبل هؤلاء الملوك .

وكان يستعمل في قوانين العقوبات على الجنح والجنائيات الضرب بالسوط والنقي عن الأوطان وإشهار اللذنب بوضه على خشبة فاستبدل هؤلاء الملوك ذلك بحبس المذنبين في مكان يشغلون فيه ، وأبطلوا رجم المذنبين ، وأمروا بدفن من يقتص منه بالقتل مثل دفن سائر المسلمين .

وبما سلف يعلم أن مملكة ( غرناطة ) نظرا لما كانت عليه من الأمور الجليلة تستحق أن تعتبر في التاريخ من الممالك الشريفة لكن ساء حفظها حيث لم يكن توارث سلطنتها مقفرا على قواعد متينة فنولها بعد الملوك الجديرين بتعجب الأجيال المستقبلية من عدلهم وحسن سياستهم ملوك جابرة ليسوا بكفء للسلطنة التي محجوا زوالها من بحيث جزيرة أسبانيا .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : قد صرفت السبب الأول : وهو أن المسلمين لما جعلوا الملك ميراثا تولاه ملوك جهلاء فأضاعوا ما أسسه الفضلاء . قلت :

السبب الثاني أن هذه العلوم التي بها حياة الإسلام حقيقة ما كان الناس يدرسونها باعتبار أنها دين ، بل كانوا يدرسونها بأمر الملوك وتقربا إليهم كما تقدم آغا ! إذ كان المأمون يعطي زنة الكتاب ذهباً لمن يترجمه ، ولذلك كنت نجد أكثر المترجمين من المسيحيين كأن المسلمين ظنوا أن هذا مخالف للدين مع أنه هو قوام الدين .

السبب الثالث أن علماء الدين كانوا لا يتكلمون على فرض الكفاية بتوسع ، بل ترى ذلك في كتاب [ جمع الجوامع ] المنتشر في بلاد الإسلام في علم الأصول لم يذكره إلا في الكلمات اليسيرة التي رأيتها حتى نسي المسلمون عماد ديننا ففقدوا عنه ، وذلك لأجل التام في العصر المتأخرة ، فقال صاحبي : زدني من هذا ، قلت : أما الآن فلا ! وإن أردت المزيد فسترى هذا للقيام جميل الهيا ، باهر الطلعة ، باسم الضمير ، شريف النقبة ، في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمناسبة قوله تعالى « وذكرهم بأيام الله » فهناك ترى أن موسى عليه الصلاة والسلام أرسل ليخرج قومه من الظلمات إلى النور ، ونبينا صلى الله عليه وسلم أرسل ليخرج قومه من الظلمات إلى النور في نفس الآيات ، وأن موسى ذكر قومه بأيام الله كما أمره الله فذكرهم بخروجهم من ذلك فرعون وللصريين وما بعد ذلك ، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم ذكر قومه كما تقدم في سورة الأنفال وفي كثير من الغزوات مثل قوله تعالى « إذ ينشئكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء » إلى آخر ما ذكرناه من النعم التي هي ( ١٤ ) نعمة ، وأنه يجب علينا في هذا الزمان أن نذكر أمة الإسلام بالحوادث السابقة من عصر النبوة إلى الآن وستره هناك مفصلا مع الإيجاز وترى عصر النبوة وما بعده من العباسيين والأمويين وخراب بغداد والأندلس وانتشار العلوم وتقلصها وإذلال العلماء كابن رشد وانتقال العلم إلى أوروبا وضياع بلاد الإسلام بعد عزها ، ثم ذكر علماء أوروبا في القرن السادس عشر وما بعده إلى نهاية التاسع عشر وأنهم حملوا العلم الذي أعطاه آباؤنا لهم وأتينا يجب علينا أن نسترجع المجد ونخدم الإنسانية لأتينا لهذا خلقنا فلنرجع إلى سيرتنا الأولى ، فلما سمع ذلك صاحبي قال : سأنتظر حتى أقرأ تفسير سورة إبراهيم ، ولكن بقي عندي سؤال وهو : لماذا ترى بعض المتعلمين من أبناء مصر وغيرها من المسلمين يعتقدون أن المسلمين الأولين ما عملوا شيئا ؟ ما السبب في ذلك ؟ قلت : السبب فيه أمران :

[ الأول ] أن بعضهم بذلك يظهر تفوقه وعظمته على أبناء بلاده ، وهذه العظمة لا تظهر إلا بطمس معالم الأجداد وجهد البيانات ليقول الناس إنه فيلسوف عظيم .

[ الثاني ] أنهم لم يطلعوا على مثل ما نقلناه لك عن الترجمة حتى يعرفوا ما صرفته الآن من هذا المقام ، بل إن أكثر هؤلاء يجهلون تلك العلوم فلا يعرفون إلا لغة من لغات الترجمة ويأخذون شهادات في تاريخ أو أدب أو نحو ذلك فيفرحون بما نالوا ويعتنون شهداء الجهالة والنور اه .

## حديث جميل

في مجائب القرآن ومدهشاته إذ يشبه فيه الدين بشجرة ذات فروع

قال صاحب : قد فهمت ذلك ، ولكن أرجو أن تحذرنى حديثا جميلا يكون فيه صبر للبدي والخاصر  
أصرف به أن جميع العلوم يطلبها القرآن غير ما ذكرته سابقا حتى أزيد اطمئنانا وعلما ويثبت في قلب أن مافعله  
آبائنا من التقاعس عن العلوم العصرية خطأ وأن ديننا يطلبها جميعها لافرق بين دنيوي وأخروي ، نقلت :  
اعلم أن جميع العلوم كشجرة أصلها ثابت في العقول وتستمد من السور الإلهي وفرعها يسمو إلى الملا ويمتد  
على طول الزمان ، وإذا نمت الشجرة إلى أعلى فإن فروعها تكون قسمين : قسم منها في القلب ، وقسم منها  
في الأطراف ، والقسم الذي في القلب عليه مدار الشجرة ، والقسم الذي في الأطراف يحيط بالقلب ، وأنت  
إذا بحثت الشجر كله وجدته على هذا النمط .

ولا جرم أن القلب في فروع الشجرة أهم من الأطراف ، أفتوافق على ذلك ؟ قال نعم ! قلت انظر :  
أليست العلوم في الدنيا كلها على قسمين : قسم به حياة الأمم وسعادتها وهي العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية  
وقسم به حفظ البلاد والعباد كالتقوانين وكالطب وما أشبه ذلك ، قال نعم ! قلت : فدين الإسلام له قلب كقلب  
الشجرة وأطراف كأطراف الشجرة ، قال نعم ! قلت : والقلب هي علوم الفلك والطبيعة من معدن ونبات  
وحيوان وإنسان وعلم النفس ، وهكذا علم طبقات الأرض ، وكذلك علوم الحساب والهندسة والجبر التي لا تتم  
حياة إلا بها ولا يعرف الفلك إلا بدرسها ، وعلم الفلك لا بد منه لأمر كثيرة منها سير السفن في البحار  
وهكذا ، قال نعم ! وهذه العلوم بها شكر الله وبها التوحيد ، وبها معرفة جمال الله ؛ فيها حب الله ، وبها  
عبادة الله ، وبها شكر الله ، وبها توحيد الله ، والزيادة في التوحيد والزيادة في الشكر واجبان عينيان على  
كل قادر .

وقد أجمع العلماء على أن شكر المنعم واجب ، ولا معنى للشكر إلا على نعمة ، ولا شكر على نعمة لانرفها  
ولا معرفة لمنعم الله حقا إلا بدراسة ما حولنا من السماء والأرض .

وعلى مقدار دراسة ذلك يكون الشكر ، إذ لا شكر على مجهول ، ولا حب لله بغير سبب ، وأهم الأسباب  
الوقوف على دقة صنعه ، وجمال وضعه ، وبديع حكمته ، قال صاحب : إذن هذه العلوم واجبة على كل مكلف  
وهذا محال . قلت نعم محال ! بل أنا أقول كل من قدر على المزيد منها بحيث لا يخجل ذلك بأحواله وجب عليه  
لفول الله تعالى « وقل رب زدني علما » وقوله « واشكروا لي » ولا شكر إلا بما علمت .

فهذا هو قلب دين الإسلام ، وهو نفس علم التوحيد ، وهو الذي به تحفظ الأمة نفسها وتنفع الأمم  
وتعلم ، وهذا سر قوله تعالى « ومن يش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

فن عكف على علم الفقه وهو قادر أن ينظر في جمال النجوم وبهجة القمر والشمس وجمال الزرع  
والزهر وبهجة الأنهار والبحار فهو غير شاكر لله ، بل هو غافل نائم ساه .

وهذه حال أغلب المسلمين اليوم ، فلا علم بالله ، ولا سعادة في الحياة ، ولا ثروة ولا استقلال ، لأنهم  
أعرضوا عن هذه العلوم ، وهذا نفسه هو معنى قوله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا .

ونحن نرى يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها  
وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعناب الآخرة أشد وأبقى » فقال

صاحب : واها لك ! واها لك ! واها ! أنتلو آيات سيقف في الكفر فتجعلها في المسلمين ؟ قلت له :  
يا عجبا لك ! أليس يقول الله ؟ « ومن أعرض عن ذكرى » هو لم يقل كفر بي ، بل قال تعالى « ومن

أعرض عن ذكرى « والمسلم يجعله هذه العلوم أعرض عن ذكر الله الخميقي ، ألم تسع قوله تعالى ؟ » الذين  
بذكرون الله قياما وتعودا وعلى جنوهم ويتمكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا  
سبحانك الخ .

فقال : إذن أغلب المسلمين يحشرون محيا ، قلت : لست أقول هذا ، بل أقول الإيمان بالله يورث دخول  
الجنة ، ولكن عمى البصيرة يؤخر الدخول فيها ، فإذا كان شكر الله واجبا وزيادة التوحيد واجبة فإن  
تركهما حرام ، وهذه معصية من الكبائر ، والكبائر القلبية أعظم جرما من الكبائر الجسدية ، وعليه  
يكون الضك الذي حل بالمسلمين اليوم هو الذي جاء في قوله تعالى « فإن له مبيشة ضنكا . ونغشره يوم  
القيامة أعمى » .

إن الله عز وجل سيعذب المسلمين حقا بعد الموت ويوم القيامة كما عذبهم في الدنيا على ترك علوم تعد  
بالعشرات ، وعلى ترك صناعات تعد بالآلاف ، أمرم الله بها فأنشأوا عنها وحضا واجب عينا وأكثرها واجب  
وجوبا كغنائيا ، وأعظم المصائب على المسلمين ترك الواجب الكفائي ؛ فالمسلم الواحد منا بعذبه الله يوم القيامة  
وفي الدنيا بترك آتته صناعة واحدة أو علما واحدا .

هذا هو ما قاله علماؤنا رحمهم الله تعالى ، فإذا مات أحدا وهو يحمل من لأوار بهد العلوم والصناعات  
أفليس يكون أعمى يوم القيامة؟ وكيف يكون بصيرا والله يقول له « أنتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نسو »  
المسلمون الذين يسعون هذا القول ولا يقومون بفنونه يحشرون يوم القيامة عمما على مقدار تقصيرهم ،  
وهام الآن يندون في الدنيا بإدلال الأمم لهم ، فإن تابوا وأقاموا بذلك خفف عنا عذاب الخزي في الدنيا  
بإزاحة الأمم الظلمة عما وفي الآخرة بالخروج من جهنم ، فقال صاحب : عزفت الكلام على قلب الشجرة  
الإسلامية فأحب أن أسمع الكلام على القسم الثاني وهو الأطراف ، قلت : أما أطراف الشجرة لإلامية  
فهي الفروع الفقهية والعلوم الإلامية من النحو والصرف وأمثالهما . فهذه العلوم مكملات ومنتجات للقسم  
الأول محيطت به كإحاطة فروع الشجرة الجانبية بالفروع القلبية ، ولا سيد للقضاة أن يحكموا بالشرعية  
إلا بسياج يحفظ البلاد ، والسياس الذي يحفظها هو الصناعات والعلوم الطبيعية والرياضية التي بها تنمو  
مصالح البلاد ، وإلا فهل ينقض القاضي بين خصوم لا يعيشون وإنما الخصام لموجودين أحياء ؟ قال :  
حسن ما قلت .

بيان أن تشبيه الإسلام بالزرع والشجر سيأتي في سورة إبراهيم وسورة الفتح

فهل ورد في القرآن ما يشير إلى هذا التشبيه الذي ذكرته ؟ قلت نعم استرى في سورة إبراهيم وفي  
سورة الفتح أن الله يقول « ألم تركب ضرب الله مثلا كلة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء  
تؤتي أكلاها كل حين بإذن ربها » ويقول « ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزر فاستغلظ فاستوى  
على سوقه الخ » .

إن الله عز وجل علم قبل أن ينزل القرآن أن المسلمين سيقعون في هذا الجهل والذل للشين فأزل  
هذين التشبيهن اللذين أبرزوا العلوم كلها كأها فروع لشجرة واحدة ، فالإخلال باقلب أمم من الإخلال  
بالأطراف ، وسترى هذا اللقاه واضحا في السورتين إن شاء الله تعالى .

حسن نظم القرآن في هذا التمثيل

ومن هب أن الله عند الأمور الهمة بوقظ النفوس لها بالتصير ، فهذه في سورة إبراهيم يقول  
« ألم تركب ضرب الله مثلا كلة طيبة الخ » فانظر كيف قال « ألم تركب الخ » كما قال في سورة القدر

« أم ز إلى الذي حاج إراميم في ربه » ولإنيان بألم إيقاظ لنا نحن كأنه يوحنا على عدم العناية بالعلوم  
الكنوزية الهزوزة في التعبير بالشجرة الطيبة ذات الفروع للذكورة كما ويوحنا على عدم التفكير في عظام الحمار  
كيف تكسى باللحم ، أي على جهل علم التشريح ونحوه كما تقدم في سورة البقرة موضعا هناك ، فأما أذكر  
للذين أن ينظروا في سائر العلوم كما أذكرهم علم التشريح الذي هو أحدها .

ذكر حديثين

أحدهما بيني وبين عالم مسلم عظيم ، والثاني بيني وبين الأستاذ ( ادوارد براون ) الإنجليزي  
وها أنا فا أيها الأخ أهدتك حديثا دار بيني وبين أحد أفاضل علماء الشيعة من جهات حضرموت  
مشهور الاسم عظيم اللقام ، وإنما لم أذكر اسمه لأنني لم أستأذن منه في ذلك لأنه مسافر وقت كتابة  
هذا الموضوع .

في يوم العيد الأكبر من سنة ١٣٤٤ هجرية زرت رجلا عظيما رداً لزيارته بمنزله بالمباسبية ، ومنزله محط  
رجال العلم والأدب من سائر الأقطار ، فلما استقرت جالوسى حتى قدم ذلك العالم الحضرمي الكبير وكنت لم أره  
من قبل وقد بلفني عنه قبل ذلك بأسبوع أنه يعترض على ما كُتبه في هذا التفسير ، فلما جلس أخذ يذكر المجلس  
بما لديه من علم جمّ و براعة في الحديث والعلم فأعجبت أنا وأعجب الحاضرون به ثم دار الحديث بيني وبينه  
على ما يأتي :

ما تقول في الوهاية الذين هم قد استولوا على الحجاز ورأيت من كلامه أنه يفهم ، وهكذا جرى الحديث  
إلى الشيعة وأهل السنة ، فقلت له : إن جميع هذه الأمة على حق ؟ فلوهاية والشيعة وأهل السنة قوم  
مخلصون وليس عند أحدهم إلا ما اعتقده هو وعلم الفقه عند الجميع قد قام بما هو منوط به ، إن علم الفقه به  
تحفظ المبادئ والحقوق وتحفظ البلاد بالقضاء .

ولا جرم أن هذه الطوائف كلها قد حافظت على بلادها وعلى عباداتها ولكنهم جميعا مقصرون ، قال  
جميعا : قلت نعم جميعا ! ألا ترى أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة الذي جرى عليه الملون منذ ١٣ قرناً  
لا معنى لتكراره الآن ؟ ومن اطّاع على كتاب للوائف وغيره من كتب العقائد عرف كيف كان القاعدة يكيد  
بضم لبعض لأجل الملك ، وهكذا نرى للوك المباسبين قد فضلوا مذاهب أهل السنة حتى لا يتبع الناس  
آل البيت وبقى للكل لهم ، هذا الخلاف الآن مضى زمانه ، ومن الحزن أن يعيش للسلم في القرن الرابع عشر  
ويتخيل نفسه في القرن الأول الهجري .

وها أنا ذا أفصّ عليك قصصاً مع عالم إنجليزي شهير جاء إلى مصر في سنة من سن العشرة الأول من  
القرن العشرين للسيجي ، أي منذ نحو (٢٠) سنة يسرى ( ادوارد براون ) وقاباني وحادثني في أمور الإسلام  
وكان يجيد العربية والتركية والفارسية ولغات أخرى ، فقال : قد كلفني دولتنا الإنجليزية أن أبحث في أهل  
السنة والشيعة من المسلمين هل يتفقون ؟ فسافرت إلى تركيا وجلست بين ظهرانيهم مدة وهكذا إلى بلاد  
فارس وعاشرتهم فرأيت مدهشات ، رأيتهم جميعا يكرهون أهل السنة ، يتخيلون أنهم هم الذين قتلوا الحسين  
رضي الله عنه مع أن الحسين مضى له (١٣) قرناً ، ولقد قال لي طالب من طلابهم : إنني قد حاربت مع الروس  
ضدّ الترك ، حاربتهم بسيفي هذا لأنني أفضل الكلب على التركي لأنه سنيّ ، قل الأستاذ : وأما موقن أن هذا  
الجبان ماذبح دجاجة مدة حياته ولكن البنض ملاً قلبه ، ثم قال : فقلت من هذا أن هذين الشيعيين  
لا يتعدان ، قل : وهجبت كل العجب من هذه البلاهة الخفاء ، كيف برى هؤلاء أن قبصر الروس يحوس  
رجالهم خلال ديارهم ويتفلملون في البلاد ويوشك أن يتلذذوا بها ثم رجعون إلى (١٣) قرناً مضت ، فهل

الحوادث التي مضى عليها تلك القرون كلها نهمهم أكثر مما يصرونه داخل بيوتهم وما هو محيط بهم من كل جانب ؟ قلت له : ذلك لأن المسلمين أكثرهم تركوا عقولهم ومواهبهم التي وهبهم الله تعالى وتركوا القرآن الذي قال الله فيه في مثل هذا المقام « تلك أئمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » قال الأستاذ ادوارد : وقد تمت تقريراً للحكومتنا وسردت فيه هذه الوقائع وقلت هذبن الشعبان لا يتحدان ، انتهى .

هذا رأيه إذ ذاك ، ثم قلت بعد ذلك : فهذه الحادثة تبين مصائب المسلمين للفكرين في العلوم ، فقال بعض الحاضرين : أي العلوم تعني ؟ قلت : إن في القرآن (٧٥٠) آية كلها في معرفة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء ، وما هي إلا العلوم الرياضية والطبيعية ، فلماذا تركوها وحصروا عقولهم في علوم جدلية وظنية ، ألبسوا جميعاً مازمين بالتوحيد ؟ قالوا بلى ، قلت : أليسوا جميعاً مأمورين بشكر الله ؟ قالوا بلى ، قلت : كيف ناموا من هذه العلوم ؟ نعم ناموا عنها لأنها صعبة عليهم تحتاج لمن عظيم ومثقات فاستسهلوا الجدال والطنن والدم والقذح والرجوع إلى الوراء وتركوا علوم آباءنا إلى أوروبا ، علوم آباءنا التي لولاها ما كانت أوروبا ولا أمريكا ولا اليابان الحديثة ولا الصين الحديثة كما رأيت في كتاب [ سديو ] الفرنسي ( وقد تقدم في هذا المقام ) آئمة تنام عن الحقائق وتنتمع بالجدل والشقاق والخلاف جهالة فاشية وموت أدبي ، الله الله ! فليقرأ السني كالوهابي والشافعي والحنفي ، وليقرأ الزيدي والإمامي ، ليقرأوا كلهم هذه العلوم ، ألم يقرأوا قوله تعالى « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خالق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » أم يسلوا أن هذه العلوم هي حياة أئمتهم ؟ فقال بعض الحاضرين : ألسنت نخشى أن يرد عليك بعض المشهورين في الفقه الإسلامي قلت له : اعلم أنه لن يقدر عالم أن يدفع ماقبلته لأن يقول قال الله ، وأقول إن النقل قضى بكندا ، وأقول إن علماءنا السابقين نصوا عليه في كتبهم ، فأى حجة تقائل بعد ذكر هذا ؟

العلوم شجرة متفرعة عن أصل ثابت وفرع في السماء ولم ينزل دين من السماء ولا حدث علم في الأرض إلا كان أولاً أصلاً منتظماً ثم تفرع على مدى الزمان .

وها هو ذا الفقه أصله من العصر الأول ثم تفرع طرقاً ومذاهب ، والفقه كله من مائة وخمسين آية ، فأين التفرع في سائر العلوم التي آياتها كثيرة جداً تعد بالملكات ، فأقر الحاضرون جميعاً ماقبلته واستحسنوه ، بل فرحوا به ، بل صاروا من أنصار هذه الدعوة اه .

ثم قلت لصاحبي : هذا وإني موقن أن هذا الذي أذكره سيعم أقطار الإسلام جميعها وسيكون لهذا القول أنصار وأنصار ورجال عظماء يقومون به وسيبشر الله هذا في القريب العاجل « ولتعلن نبأه بعد حين » .

### خاتمة

ختمت هذه السورة بقوله تعالى « وهو رب العرش العظيم » وقيل أيضاً فوق ذلك إنها خاتمة ما نزل على ربي .

والحكمة في ذلك أن هذه السورة جاءت للقتال والجهاد والبراءة من الشركين ، وقد جاهد المسلمون بقبوك بعد غزوات أخرى .

وهذا فيه ابتداء سقوط عروش ملوك العالم المعروف إذ ذاك ، وقد وعد النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين

فتح فارس والروم ، ولم يفتحا في زمانه ، فيها هو ذا يقول « عليه توكلت » ومن توكلت عليه له  
العرش العظيم .

وهذه الأمم التي أحاربها لها عروش أقل من عرشه ، فهو لا محالة غالبها وستسقط تلك العروش في سلطان  
أمتي وتصيح في عداد قوتها .

وسبأني في (سورة النمل) حديث المدهد وما في قصته من ذكر العرش إذ جاء فيها « إني وجدت  
امراة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم - إلى قوله - ألا يسجدوا لله الذي يخرج الحب  
في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تطنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » فنكر عرشها  
وعرف عرش الله إشارة إلى أنه أعظم من عرشها ، ولذلك نقل عرش بلقيس فأصبح أمام سليمان الذي هو  
مرسل من عند رب العرش العظيم ؛ فالعرش الذي هو المخلوق أصبح في ملك من أرسل من عند رب  
العرش العظيم في سورة النمل ، فهاتنا ذكر العرش العظيم في قوله « لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب  
العرش العظيم » ولم تذكر العروش الأخرى بل اكتفى فيها بالخص على الفزوات لا غير .  
ويظن الأذكياء إلى أن هذه العروش ساقطة لا محالة في يد المسلمين كما أصبح عرش بلقيس بين يدي  
سليمان عليه السلام .

وهذا من لطائف القرآن ومجائبه وهي الحكمة في اختتام السورة بهذه الجوهرة الثمينة ، ومن للناسبات  
قوله « ثم استوى على العرش » بأول بونس .

تذييل لتفسير سورة التوبة وأن الرحمة فيها من أسرار الصلاة

اعلم أن سورة التوبة فيها سر الرحمة التحلية في الصلاة . إن للسلم في صلاته يناجي ربه بالقاعة والتشهد  
وبعض الأدعية وكلها مرجعها الرحمة العامة ، إرجاع الأمور إلى الله .

ففي القاعة يقول للسلم إن الحمد كلها لله على تربيته للعالم العلوي والسفل الذي شملته الرحمة وعمه  
الإحسان والعدل في الخزا . فله وحده الخضوع والتوجه . وبه وحده الامتاعة ، ومنه تكون الهداية للصراف  
السوي ، صراط للتم عليهم الذين هم وسط بين طرفين ، وفي تشهد يفوض كل شيء لله ، فالتاء في القاعة ،  
والنظم في التشهد خاصان بالله تعالى ، وهكذا سائر الأمور ، وكما أنه طلب الهداية من الله في القاعة أقر  
هنا بأن السلام عام من الله على الأنبياء وجميع الصالحين ، ثم هو يناجي ربه طالبا ازدياد الرحمة على النبي  
سلي الله عليه وسلم وصالحى أئمة والتوجه للصالحين من الأمم السابقة ، ثم يستبذل بالله من القبات التي تموقه  
عن القربى لربه ، وزرى للسلم في الاعتناء من الركوع يقول نحو ذلك فيحمده حمداً بلا السموات والأرض  
وغرها ، وسائغ في التبرى من الحول والقوة ، فلا عطاء لغيره ولا مانع لبطانه ، وهناك لا يقع الاجتهاد  
بلا إمامة وهكذا .

فمنخص ما يقول المؤمن في صلاه التبرى من الحول والقوة والاعتناء على الرحمة الواصلة من الله إليه  
وتفويض الأمور له وتسليمها إليه .

هذه هي للتقود من الصلاة وهي لا تصح ولا بقا لها ولا ثواب إلا إذا حضر قلب القلب فيها ، ومضى  
حضر أثرت هذه اللغنى في قلبه ولا بد من العدل بها ، لأن الإنسان يحمل بما يتقدمه واتخاذ للسلم إذ  
أن الله هو الرى وهو السمان وله الخضوع وله العبادة ومنه الهداية ، ولا عطاء لغيره ولا عمل لقبه ، وهذا  
كله تمويش تام .

هذه هي صلاة السلم بكررها طول النهار وطول الليل ، وأعماله النبوية تتخلل هذه الصلوات ، وإذا  
عقلتها أثرت في أعماله وأعماله وأتوا له مادام حاضر القلب في الصلاة .



وهنا بيت التصيد ، هنا تجلي ما أريده في هذه الحائنة ، فلقد رأيت كيف نحى السلم عن الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والساكن وقيل له إياك أن تكون الثمانية أحب إليك من الله فأهاسته وإليه ، ونها يرى للسلم أنه إن قتل فالقتل مقم ، وإن صر فهو مقم ، وإن عاش عدوه أو مات ذلك كله مقم للسلم لأن صدره اشتق من عدوه بذباب جهنم أو عذاب القبر إن مات أو بموته قتل بيد السلم .

فالحياة في نظر السلم كلها سعادة ، فلا فوات للال يحزنه ، ولا ذهاب العمر يؤذيه وإن افتقر فله سينيه إما في الدنيا وإما في الآخرة ، فإذن يكون قلبه غنيا وهو منشرح الصدر .

فانظر كيف أصبح هذا الوجود كله والأحوال جميعها في حق السلم رحمة وسلاما تحقيقا للرحمة للقرومة في القاعة المتكررة في كل صلاة والسلام الذي يرفرف عليه في كل تشهد .

فالسلم إذن في رحمة وفي سلام دائمين وأصبحت الرحمة في العقيدة الراسخة التي تضيئها تلك التلاوات ، والحرب والفقر واللوث والحزيمة والنصر والحياة والنفي ، كل هذه للتناقضات يصحبها الرحمة والسلام للؤمن وإذا أصابه النصب والتب والخصمة والفقر فهو في رحمة وسلام ، لأن السألة حوت من اللذات إلى اللذات ، ومن الظواهر إلى البواطن ، وإذن سر القاعة وسر الصلاة قد تجلي تجليا أعظم في سورة التوبة .

هنا ظهر سر الصلاة ، وسر القاعة ، وسر التشهد ، وسر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صالحي أمته ، وسر القنوت وغيره .

ولعمري إن هنا كله هو سر الحياة وسر السعادة ، أندري أيها الذي ماذا قال الحكماء والفلاسفة في هذا اللقاه ؟ أندري ماذا صنف الفلاسفة المتقدمون في هذه السائل ؟ إني أحيلك على ما تقدم في سورة البقرة ، فلقد ذكرت لك هناك أن فيلسوفا يسمى ( قابس ) قبل الميلاد بخمسة مائة سنة ألف كتابا يسمى [ ليز قابس ] لحصته لك هناك ، ويرجع الأمر فيه إلى أن السعادة ليست في المال وجمعه ، ولا الجمل وبهجه ولا الولد وكثرته ، ولا العلم وعزته ، ولا الصب وشهرته ، ولكن في الصبر والثبات والرضى في مختلف الحالات ، فإن شئت فارجع إليه وإن شئت زدتك اليوم بيانا وأفدتك يقينا وحكمة وإيمانا .

تسبب كيف اتفق العلم والدين وكيف صنف الفلاسفة بقولهم ما نزل الوحي على نبيه ، وكيف يرى بعض الناس أن هذه الواعيد الإيمانية ، والآيات القرآنية ، والبشارات الأخروية إنما جعلت لترغيب الجاهلين والضحك على أذقان المنافقين ، ذلك لأنهم يظنون أنهم امتازوا بهمهم عن بقية المسلمين إذا هم لافي الصبر ولا في التفير ، فلام بقوا مع المائة القليلين . لاهم وصلوا إلى رتبة الحكماء المحققين .

فيا محبا ! كيف يصل العلم أكثر المتعلمين ؟ وكيف يكون العلم ضلالا والتنوير به سرايا ؟

إن الذين يسمدون في الدنيا رجلا : جاهل له إيمان ، وعالم تام الحكمة والمران ، فأما للتوسطون فهم الذين قلمتهم الحيرة والشك في هذه الحياة ، فهم أهدأ مذبون وبتهمون بالتهنوت الجنبانية في هذه الحياة ظنين أنها هي السعادة إذ لا سعادة في سواها ، وما التهنوت إلا « ظل ذو ثلاث شعب . لا ظليل ولا يضي من اللهب » فهم يتقون الحر بالنار . « كالمتجبر من الرضاء بالنار » « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » .

#### حكاية الكوخ الهندي

ألف عالم من علماء أوروبا لا أذكر اسمه الآن كتابا يسمى [ الكوخ الهندي ] تحفه سباحة من الغرب

إلى الشرق ، فطاف مصر وسوريا وسائر البلاد باحثا عن الحق أين هو ؟ فوجد للسبعين والمسلمين واليهود جميعا مختلفين ، فقال في نفسه : أين السعادة إذن ؟ فوصل إلى الهند وانصل بالبراهمة فلم يبيحوا له الاتصال برئيسهم بل أزموه أن يجلس في مؤخر المجلس بعد أن اغتسل فأخذ يلقى أسئلة على آخر رجل في المجلس وهذا بقلبه لمن يليه وهكذا حتى وصل إلى رئيسهم ، وصورة السؤال : [ أين الحق ؟ ] فكان الجواب أنه عند البراهمة ، وبعد أخذ ورد وجدال هزى الجمع بهذا القرنجى فخرج يتثر في أذبال خبيته ، وبينما هو سائر إذ عمر امرأة تبكي حظها وتندب أيامها ، فسألها : ماذا دهالك ؟ قالت : إن زوجي مات ولم أحرق معه ، وكل امرأة مات زوجها ولم تزج نفسها معه في النار تموت تعتبر نجسة فأنا نجسة فلا يكلمني أحد ، فقال لها : وأنا مثلك لأن رجل مسيحي يعتبروني نجسا فاسطلحا أن يتزوجا وعاشا في النفر يشاهدان جمال الله في طلوع الشمس وغروبها وجمال النجوم والتمر وبدائع الطبيعة في البسات والأهار والحيوان والهواء الطلق ثم رزقا ولما .

ومما اتفق لهذا الرجل أن مر به سائح فأخذ يتحدث به وقال له : أنت سعيد ، قال إني لم أحسن بالسعادة إلا في هذه الحياة ، جمال الله مشرق على أطالعه في نجومه وشمسه وقمره وزهره وشجره ونهره ومائه وهوائه وتبريد طيره وحسن صنعه ، فأما في أنوار وجمال وبهاء : وهذا ولدي قرعة عيني وعين أمه وقد ابتعدنا عن ضوضاء المدن ودخاها وآلامها وكذبها وقضاياها ونفانها الخ ، فقل له : كيف نلت هذه السعادة ؟ قال له : بعد أن كتلت نفسي بالمصائب وصبرت على النوائب ، فالمصائب هذبها ، والنوائب صقلتها ، وحوادث الأيام كلفتها ، وقوارع الدهر شذبتها ، فأصبحت نفسي كالجلد للدبوغ ذهب ننته وصلح عمله ، فأما الذين لم تهذبهم الأيام ولم تصهرم للمصائب فهم أبدا في حزن وألم ، فلا للمال ينهبهم ، ولا الجمال وحده يرضهم ، ولا الصيت يسددهم ، ولا الولد يكتمهم ، فهم عرضة للهوان والذلة على كل حال ، فقال له : أيتها الأخ كيف تقول إن احتيال النوائب يسد مع أن النوائب هي الشقاء وهي اللذة وهي الهوان وهي العذاب ، وإذا لم تكن هي عذابا فأين العذاب إذن ؟ لقد جعلت الجحيم نيبا ، والتقى فقرا ، وقلبت الفضايا ، ولم تصب الحقيقة ، فهل يكون الليل نهارا ؟ أم يكون الظلام ضياء ؟ أم الموت حياة ؟ إن هذا هو العجب العجيب !

فقال اسمع يا صاح : إن الجبل صعب المرتقى فإذا تحققت أن فوق هذا الجبل حريقة غناء ، وطبورا منفرة ، وأنهارا جارية ، فأنت لا محالة مرتقى إليه ، فما دمت في الارتفاع فأنت في غناء ، ولا يكون الغناء إلا حيث لم تصل إلى قمة ، ومتى وصلت إلى أعلى الدرجات ، فهذهك لا ألم ولا شقاء بل هناك ما يسر القلوب ويشرح الصدور .

هكذا يكون المرء في الحياة ، فما دامت نفسه لم تصقل بالنوائب فإنه لا يزال في نصب وتمتع وبهيم لها كثيرا ، فأما إذا استكملت نفسه بها فإنه لا يهيمه أمرها وتمرعليه اللذات والآلام كما يمر الليل والنهار والصبح والمساء ، فحمد صاحبه له هذا البيان وأدرك ما لم يعلم في المدارس من قبل .

فانظر أيها الذكي لدين الإسلام كيف رأيت في هذه السورة أصحاب نينا صلى الله عليه وسلم بلا تعلم ولا فلسفة ولا حكمة عقلية قد نالوا هذه الأمانة وأصبحوا لا يبالون بالأهل والإخوان والحياة حتى قال أبو خبيثة : [ نكث ظليل ، وتمر يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسنة ، ورسول الله في الحر وشطف السفر والله لا يكون ثم ركب ناقته ] وكيف رأيتهم يتذوقون الثمرة ليشربوا الماء عليها ، وكيف رأيتهم راضين فرحين متبهجين في قلوبهم ، وكيف رأيتهم يتقدمون للموت ، فالمال مبذول والعمر مبذول ، كل هذا بنى واحد وهو الإيمان .

فانظر كيف فعل الإيمان ما عجز عنه العلم والفلسفة والحكمة ، وكيف جهل أكثر الناس أن السعادة راجعة للوجدان والفلسفة شرحتها والقرآن أبرزها .

انظر كيف كان أكثر الناس لا يعلمون « يملكون ظاهرا من الحياة الدنيا » وهم عن سعادة هذه الحياة نفسها معرضون ، وبأسرارها جاهلون ، وعن الحقائق غافلون « والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » . ٨١ .

ذكر المناسبة بين سورة التوبة والسور التي بعدها ، وهي سورة يونس

اعلم أن المناسبة بين السورتين من ثلاثة وجوه :

[ الوجه الأول ] أن سورة التوبة لأدب الجهاد وهداية الكافرين وقسم الغنائم وأكثر ذلك في السفر أما سورة يونس فإنها لتعليم الناس وهم آمنون مطمئنون .

[ الوجه الثاني ] اعلم أن الله عز وجل علم قبل أن ينزل القرآن أن الأمم الإسلامية ستبذل العلوم وبدائع آياته في سمواته وأرضه ظهوريا وبذلك بذل كثير منهم للأمم المهبطة بهم ، فلذلك يقول في آخر التوبة « وما كان المؤمنون لينفروا كافة الحج » فأمرهم أن ينقسموا فريقين : فريق للسفر والجهاد ، وفريق للتخفف في الدين .

وعلم سبحانه أن هذه الكلمة سيصطلح الناس قرونا متطاولة بعد الصحابة والتابعين على اختصاصها بفروع من المسائل ليست هي كل الفقه كما تقدم بأوضح عبارة ، فلذلك جعل هذه الكلمة في أواخر هذه السورة وأغلبها بسورة يونس وشرح في أولها ما يفيد ذلك التفقه ، شرحها شرحا مستوفيا ، يقول الله هنا لنبي طائفة يتفقهون في الدين وليندروا قومهم الحج ويشكر على الناس تعجبهم من إرسال أحدهم لينذرهم ويبشروهم .

ثم أخذ يبين خلق السموات والأرض وأستواء الله على العرش وتدبير الأمر وأنه أضاء الشمس وتور القمر وقدره منازل يعلم الناس الحساب ، وأبان اختلاف الليل والنهار وحذر من البأس من الآخرة والاكتفاء بالدنيا والاطمئنان بها والنفلة عن هذه الآيات السماوية والأرضية وغيرها ، ومدح الصالحين للهدى .

وختم هذه الجمل بأن أهل الجنة يخطمون دعاءهم بتزبده الله وبحمده على تربيته للعالمين . لاجرم أن هذه هي مجامع التفقه في الدين . هذا الشرح المذكور في أول سورة يونس هو عينه ما ذكرناه سابقا وتعلينا معناه من كتب اللغة ومن كلام الإمام الغزالي .

إن الله عز وجل ليس عن الخلق غافلا كما قال « وما كنا عن الخلق غافلين » وسترى إن شاء الله عند تفسير هذه الآية كيف عرف علماء العرب عجائب هذه الدنيا التي هي داخلة في هذه الآيات القرآنية ، وعسى أن تطلع هناك على بدائع ألوان الحيوان وأشكاله التي عرفها القوم وعرفوا أن تلك الألوان وتلك الأشكال إنما خلقت لتكون وقاية لتلك المخلوقات الضعيفة من أعدائها القالات ، فترى الحشرة تخلق على هيئة حصاة من حجر الصوان مثلا ليجهلها الطائر الذي يبيش عليها فتبقى محفوظة إلى أمد .

فهمكنا هنا ألم الله الإمام الغزالي قبل نحو ٩٠٠ سنة أن يذكر العلماء بعده بأن الفقه الذي لم يعرفوا سواء إنما هو فقه اصطلاحى ، ولكن التفقه المذكور هنا غير ذلك وقد عرفته وعرفت أيها التذكى أنه يرجع في أكثره إلى أمرين اثنين : تهذيب النفس وإثرائها بالعلم .

وهذان الأمران هما المذكوران في سورة الفاتحة التي ابتدئت بهذه الجملة « الحمد لله رب العالمين » ولفظ « العالمين » يشمل العالم العلوي والسفلي ، وهو مبسوط في تفسير الفاتحة .

جميع العلوم التي عرفها أهل أوروبا وأمريكا وبلاد اليابان هي اخذة في قوله « الحمد لله رب العالمين »  
أفلا تعجب من كيف ذكرت الجملة بتامها هنا في دعوى أهل الجنة ولم تذكر بهذه الهيئة بعد القاعة إلا هنا  
وفي أثناء سورة الأنعام التي ذكر فيها عجائب السموات والأرض ، لا يحمد الناس محسنا عليهم إلا إذا  
عرفوا نعمته وعلو مقدارها يكون إعظامهم له بقلوبهم وقيامهم بقضاء حوائجهم بجوارحهم وتناوهم  
عليه باللسان .

فهنا ثلاثة أمور : إعظام بالقلب وحب وهذا بالنسبة لله مطلوب ، ولكن ليس هذا بالتكليف وإنما  
هو نتيجة الشعور بالنعمة والقيام بقضاء الجوارح والأعمال هنا في حق الله مستحيل ، فبرجع ذلك إلى  
الإخلاص في خدمة الناس والعمل لإسعادهم . أما التناء باللسان فلإما هو وظيفة اللسان ، فاللسان هو آخر  
أرواح الشكر الثلاثة .

إذن الحمد نتيجة من نتائج الإنعام المذكور في قوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » ولما أنعمت  
عليها وعرفوا العنة قاموا بإعظامك بقلوبهم وخدموا أمهم ونطقوا بالثناء عليك فقالوا « الحمد لله رب  
العالمين » وهذه الجملة المذكورة هنا لذكيرنا بنعم الله ؛ وبشارة أخرى : لتذكير للسليين بقرارة عجايب  
السموات والأرض التي ذكر منها هنا الشمس والقمر والحساب وتقدير للازل الخ .

فهذه كلها من تزيين الله للعالمين ، فسورة القاعة ثناء ودعاء ، والثناء في أولها بالحمد وفي قسم الدعاء  
سبب الحمد وهو النعمة ، ففي القاعة ذكر السبب بعد السبب ، ثم أقول ها . فكأنم ينزل الله عن الحشرات  
وأشكال الحيوان خلقها على أشكال وهيئات تكون سببا في قيامها إلى أمد .

هكذا هو نظر الأمم الإسلامية الحلبية قبل أن يخففها فها لها الأسباب ونظم الكتب وألمم الطلاء  
فشرحوا لفظ التنفخ مثل ما رأيت من الإمام النزالي وبقى ذلك في الكتب المذكورة والناس عنه غافلون ،  
وبقى الخلف يتبع السلف تسعة قرون والأمم من حولهم يملون وهم مأتمون .

وأول ضربة وقعت على عالم بعد موت الإمام النزالي تلك الضربة التي وجهت إلى العلامة ابن رشد  
إذ كفروه لأنه مع بايئته وبين النزالي من الخلاف وافقه في أن هذه العلوم كلها هي التوحيد وهي للطلوبة ،  
فأداه للسكون وأهانوه ، ويقال إنهم جفوا في وجهه ، ومرة طردوه من المسجد ، وأمر الملك بنيفيه من  
العاصمة إذ ذاك بالأندلس ، وبقى في بلدة لا يسكنها إلا اليهود احتقارا لشأنه ، ثم رضى عنه ومات بعد قليل  
فتفاض العلم من بلاد الإسلام وذلّ للسكون في أقطار الأرض ذلا عظيما ، ذلك لأنهم جهلوا التنفخ في الدين  
الذي أمر به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعرفوا كيف يندرون قومهم ويبشرونهم ، بل عكفوا على  
قشور من العلوم .

يقولون للصبى إذا دخل للدارس الدينية اقرأ فروض الوضوء ويطلبون في ذلك إطالة ويملون كل حياته  
في ذلك ولا يظهرون له جمال الله ومجائبه وبدائع صنعه ، ولا يشرحون له شرحا مستفيضا إخلال الوعد  
، الحمد والحسد وما أشبه ذلك ولا يهذبون نفسه ، وصار ذلك خلقا في الأمة الإسلامية فدنا ذلا عظيما وفقدت  
الإنسانية القائمة هذه الأمة للسكينة ، فلم تنع نفسها ولم تنفع الناس وصارت عالة على الأمم فأدلوها كما فعلت  
النحل في قنبرها ، إذا ترى ملكتها القائمة بتدبير ملكها قد حصل لقاحها فعملت وهناك في القفير ذكران  
النحل فتحمل سكان القفير من النحل المذكور على أولئك الذكور فتيدهم من الوجود لأن الله لا يبق في خلقه  
مالا عمل له .

هكذا الأمم التي خلقها الله لما رأته الأمم الإسلامية غافلة جاهلة حملت عليها فأخذت بلادها وجعلتها تحت

إسرتها إلا تلك الأمم التي استيقظت كالترك والفرس وكالأعنان فإنها لما استيقظت هذه الأيام أخرج الله منها  
الفرجة « وإن عدتم عدنا » .

أقول فمضى النفع الذي شرحه الإمام الغزالي بقي في الإحياء وقد نام عنه المسلمون ، ناموا عنه نوماً عميقاً  
لموت العناء والمفكرين ، وبقي للمسلمون بعد تلك القرون مكفين بعلوم الصوفية حتى إنك ترى العلامة  
عبي الدين بن عربي قد أدخل جلّ الفلسفة والدين في كتابه [ الفتح الحكيمة ] وغلظه بانصوف حرماً  
على العلم ولم يرد أن يعلمهم الفلسفة والعلوم الحكيمة وبدائع السموات والأرض لأنها كفر عندم وقد رأوه  
فوق طاقهم فأعط المسلمون حتى جاء العصر الحاضر فأعان الله على هذا الفسب وأعان غبري على تأليف كتب  
في ذلك ، وهذا أوان مرقى المسلمين .

فلن يقدر صغار العلماء على الطعن في عالم ولا مفكر لأن الأمم للنقطة أحاطت بالمسلمين من كل جانب  
فليس يقدر أحد من جهلة المسلمين على مناوأة ما يكتب الآن لنشر العلوم والنفع في الدين الذي شرحه أسلافنا  
وغفل عنه من بعدهم فحين نستأنس بكلامهم ليعلم المسلمون أن هذه الآراء التي أذكروها في هذا الفسب  
ليست حديثة بل قالها آباؤنا ونام عنها من بعدهم ، وأن الله عز وجل أراد إيقاظ الأمة اليوم ولا راد لما أراد  
وستبقى هذه الأمة أمداً يملئه الله وسيحفظها كما حفظ تلك الحيوانات الضعيفة فإنه يقول « وما كنا عن  
الحلق غافلين » .

وإذا أسأل الله عز وجل أن يوفق عند تفسير هذه الآية برسم صور تلك الحيوانات التي حفظها الله بسبب  
أنه خلقها مشاكلة لما حولها من شجر أو حجر أو مدر لتعلم أنه حكما سيفعل بأمة الإسلام فيحفظها لأنها  
سكنون مشاكلة للأمم في علومها ومعارفها بل سكنون هي الأرقى .

فبين بهذا أن النفع في الدين قد جاء ملخصه في أول سورة يونس ليعرف هذا النبي للمسلمون ويخرجوا  
من مجردم القديم إلى مجرد الحديث وبقروا جميع العلوم ويعرفوا آيات ربهم ويترحموا بجماله وتمتعوا بلامهم  
وهم مبهجون .

وسترى أيها التكي في سورة يونس من عجائب إنقان الصنعة الإلهية ما يبهز الأبصار كالصور الكوكبية  
للمسومة بالصور الشمسية وكذلك الصناعة البشرية التي وضعها قداماء المصريين في معابدهم وفوق جنتهم المنطة؟  
وكيف أبدع الله مئات آلاف من المجرات التي كل منها تشتمل على مئات آلاف الآلاف من الكواكب  
وعرف الناس أبعادها إجمالاً ، وكيف عرفت ذلك الأمم حولنا فرسمت بعض الصور السابوية بهيئة جملة  
تسر الناظرين ، وكيف حذر الله من الغفلة عن آياته سواء أكانت صنع يديه كالصور السابوية أو صنع عباده  
كقطعة فلك البروج التي سترها برسم قداماء المصريين .

وهذا قوله تعالى في سورة يونس « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »  
هذا تمام الكلام في الوجه الثاني من وجوه للنسبة بين السورتين .

الوجه الثالث : حتم الله التوبة بأنه جاء الناس رسول من نوعهم تمز عليه مشقتهم حريص على إيمانهم  
رووف رحيم بالمؤمنين منهم . ثم تلا ذلك في أول يونس بأن هذا الكتاب الذي جاء به كتاب ذو حكمة  
وقل « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس » فهذه الآية تسكلة وتتميم لآية آخر  
السورة هنا . وليس في القرآن من سورة مبدؤها يوافق نهاية التوبة إلا سورة يونس فظهرت للنسبة  
بين السورتين .

وهذه للناسبة كالتى بين سورتي الطور والحج ، فى آخر الأولى « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم »  
 وفى الثانية « والنجم إذا هوى » وكأخر المائدة وأول الأنعام إذ يقول فى آخر الأولى « تعلم ما فى نفسى  
 ولا أعلم ما فى نفسك » إلى قوله « ثم ملك السموات والأرض وما فىهن وهو على كل شئ قدير » ويقول  
 فى أول الثانية « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » إلى قوله « يعلم سركم  
 وجهركم الخ » نخلق السموات والأرض راجع لقوله « ثم ملك السموات والأرض » و « يعلم سركم  
 وجهركم » راجع لقوله « تعلم ما فى نفسى الخ » وهذا القرآن لانتضى عجائبه ولا تنتهى غرابه ؛ والحمد لله  
 رب العالمين اه .

تسكلة للكلام فى مناسبة آخر سورة التوبة بأول سورة يونس

الفقهاء فى الإسلام فى الماضى وفى الحال والاستقبال

مرّ بك أيها القارىء الكرام فى هذه المناسبة وأنها من ثلاثة وجوه ، ومن أهمها أن التفقه فى الدين جاء  
 فى آخر التوبة ، وجاء بعدها فى الترتيب سورة يونس ، وجاء فى أوائلها ذكر ضوء الشمس ونور القمر  
 إلى آخر ما مرّ ، وأتبعه الآن بذكر ماضى الفقهاء وحاضرهم ومستقبلهم .

الاهم إن الحكمة والعلم آمن ما فى هذه الدنيا وخير العلوم ما به يعرف الإنسان قيمة نفسه وخير ما يكتبه  
 للفكر فى الإسلام البحث فى أحوال أمم الإسلام وعاداتها وأخلاقها ، وهما أذا باحث فى الفقهاء  
 بما يناسب للقام .

الفقهاء فى عصر الصحابة

لقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كما مرّ بك من كلام الإمام الغزالي يعدّون الفقهاء أنهم هم  
 أولو الألباب « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض »  
 ويعدّون نعم الله عليهم « ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » وهم الذين « تتجافى جنوبهم عن الضامع  
 يدعون ربهم خوفا وطمعا الخ » .

الفقهاء بعد الصدر الأوّل

ذهب الصدر الأوّل فتضاءل التفقه فى الدين وانحاز إلى ما هو معروف اليوم من الفروع العملية للكنتسبة  
 من أدلتها التفصيلية ، فأما ما عدا ذلك من خشية الله وحبه والولوع به والتفكر فى جماله فذلك قضى عليه  
 القضاء الأكبر وصار نسيا منسيا ، وهذا هو العصر الذى كان فيه الإمام الغزالي فى القرن الخامس الهجرى  
 وقبله وبعده للآن .

الفقهاء فى زماننا

قد قلت لك قبل هذا إن أكابر علماء الإسلام قاموا على تلك الطريقة العقيمة المنتشرة فى أنحاء الإسلام  
 إلى اليوم وذرّوها وشنعوا على القائمين بالدين ، ولكن رؤساء الدين فى الإسلام لم تزعجهم تلك الصيحات ولم  
 توقظهم تلك النهيات ولم يغيروا نهجهم بل الحلف يتبع السلف ، و « كل حزب بما لديهم فرحون » فتبع السنى  
 السنى ، والشيعى الشيعى ، فالحنفى والشافعى والمالكي والحنبلى والزيدى والإمامى ، كل هؤلاء عاكفون على  
 ما درسوه عن أشياخهم موقنون أنهم أهدى من غيرهم عملا وأشرف أملا نابذين ما عدا ذلك بما ليس لهم  
 به علم حافظت الأمة على حصر أفكارها فى واد ضيق فنام للسلفون نوما عميقا أدّى إلى اضمحلالهم إلا قليلا  
 منهم فهم مستيقظون .

ثم اتسع نطاق التسمية بالفقيه فلم يقتصر الناس في التسمية به على من يحفظ أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيوع والرهن والسلم والإجارة والوديعة والهبة والميراث والدعاوى والعتق والحبض والنفاس الخ ، بل صار هذا الاسم يطلق على كل من حفظ القرآن عن ظهر قلب وإن كان من أجهل الجاهلين ، وهذه طريقة منتشرة في بلادنا المصرية يسمون من حفظ القرآن بقية وإن لم يدرك من معانيه حرفا واحدا .

والله يقول « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » وفي الحديث « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فليست تقرأه » وهذه التسمية لهذه الطائفة التي هي أعم من سابقها قد تكون مصحوبة باحتقار نوعا ما واستهزاء لسببين :

السبب الأول : أن هؤلاء غالبا كانوا قبل الآن يعلمون بالعصا والإذلال فتذل نفوسهم وتخضع .

السبب الثاني : أن النفوس الإنسانية فيها نور إلهي عام تخترق الحجب وتعرف بعض الحقائق وإن لم تحسن التعبير عما تعقل فهمنا يظن العامة أن هذا الفقيه لحفظه القرآن عنده علم وفي الوقت نفسه تعلم تقوسم أن قيمته العلمية منحطة ولكن لا يحسنون أن يعبروا عن ذلك .

#### آثار ما تقدم في الإسلام

فانظر كيف كانت الأمم الإسلامية صورة مكبرة لثقافتها ، فلما كان في الصدر الأول أمثال أبي بكر وعمر كانت الأمة شامخة الرأس عزيزة الجانب ، ولما صار الفقيه محصورا في الفروع في الأزمان المتأخرة أو حافظا للقرآن سارت الأمم الإسلامية كلها صورة مكبرة لثقافتها ، فسكا عكف الفقهاء على حفظ السور أو على حفظ الفروع وغفلوا عما سواها ، هكذا الأمة غفلت ونامت ثم ذلت وخضعت ، ذلك هو تاريخ الأمم الإسلامية وقيمتها قديما وحديثا .

#### الفقهاء في مستقبل الزمان

أما الفقهاء في مستقبل الزمان في أمم الإسلام فإنهم سيكونون أشبه بالحسك في أمة اليونان ، فيكون الفقيه في دين الإسلام هو المتمكن من العلوم المطلع على حقائقها الباحث للدق ، فإذا قرأ سورة يونس بعد التوبة كما تقدم بحث في الشمس والقمر والنازل المذكورات في أول السورة وأتبع ذلك بفهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين لهم البشرية في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وينادي في فهم يونس إلى أن يرى في آخرها أن الله نجى أجساد بعض الفراعنة لتكون تلك الأجساد البالية والعظام النخرة المحفوظة في الأبنية للشاهدة عبرة للأمم المتأخرة فيدهشه ما يرى في مصر ( كما ستره موضعا في سورة يونس قريبا ) من إقبال الأمم من أعيان أمريكا وانكلترا وفرنسا وألمانيا على الاعتبار بتلك الجثث المنحطة والتفكر في تلك الصناعات العجيبة والدروس الشائقة النيفة وغرائب العلم وعجائب الحكمة والرسوم الفلكية المرسومة في محال عبادتهم وعلى الصناديق التي فيها أجسامهم ( وستنظر هذا هناك قريبا ) وإذ ذاك يقول هذه من معجزات القرآن لأن الله لم يذم للمرضين عن آيات الله إلا في موضعين في يونس :

الأول : عند ذكر السموات والأرض في أول السورة .

الثاني : عند ذكر الاعتبار بأجساد الفراعنة وأنها من آيات الله ، وهذه الآيات لم يفكر فيها الناس

إلا في هذه الأيام ، إذن هذه معجزة قرآنية .

ثم ينتقل من ذلك إلى أن يحض الأمة على الاعتراف من محور علم الأوائل من أمي دين ونحلة وأمة حتى إنهم يدرسون خرافات الأمم وأساطيرها ليستخلصوا منها الأخلاق والآداب التي كانت عليها تلك الأمم فتريد

الفضول حكمة والفوس علة ، فبالأولى يدرسون رسوم مبابها وفنديتها وعلما وحكمها ويفعلون مانعته  
ألمانيا اليوم وبقية أهل أوروبا فإن لهم طوائف خصصوا كلامهم لعمل أولعلم أولنا ربح أمة كما نعلم علم اليقين  
أن أهل ألمانيا عندهم قوم مختسون بالبحث عن علماء الشرق الأدنى مثلا وهكذا فالمسلمون أولى بهذا لأن  
الله يقول « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس الخ » .

[ نظر الفقيه في مستقبل الزمان في سور أخرى من القرآن ] ثم إذا قرأ سورة هود بعد سورة يونس  
وجدها قد جاء في أوائلها شيء عجب ، ذلك أن الله ضرب مثلا لندبيره في خلقه بالملك على عرشه ، فإذا  
كان الملك يدبر أمر الرعية ويحافظ على ثنورها وتجارها وزراعتها وسياساتها ، فهبنا قبيل ذكر العرش  
يقول « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » فيصاحي  
الفقيه إذن بين عرش الملوك وعرش الملك الملوك .

عرش الملوك لدير الجيوش وحفظ الثنور والبلاد الخ ، وعرش ملك الملوك لنظام السموات والأرض  
وإغداق الرزق على الحيوان والإحاطة به علما والمحافظة على حياته والتمكين به في غدوه ورواحه ، ثم يرى  
هذا الذي يدخل في قصص السورة كقول هود « إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ  
باصفيها إن ربي على صراط مستقيم » ومن استقامة صراطه أن يأخذ بناصية الدواب وبناصية الإنسان .  
فكل شيء تكفل الله به لافرق بين الإنسان والحيوان .

ثم يتأمل الفقيه إذ ذاك فيقول : لماذا ذكرها هود وقد ذكرت في أول السورة ؟ ثم يجيب على ذلك  
بأن علوم الحيوان في زماننا مدهشة عجيبة .

مثل ذلك ما استراه في سورة المؤمنون في قوله تعالى « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن  
الخلق غافلين » فإنك ستري هناك ما لا عين رأت من عيون الغافلين ، ولا أذن سمعت من آذان للتكبرين ،  
ولا خطر على قلب الجاهلين من حكم غالية وجواهر باهرة وغرائب مدهشة ، إذ ترى هناك رسوما شمسية  
لأشكال حيوانية :

(١) كقراش ذى أجنحة تشبه في صورتها ولونها وشكلها أوراقا جافة متبودة .

(٢) وكسوع من الحشرات قد وقع على جذع شجرة عتيقة والتصق بها فيظن من يراه أنه غصن ضمن  
من أغصانها قد قطع من أعلا حديثا .

(٣) وكردود القرائش باللون باللون الظاهر الباهر حتى يتبينه كل ناظر ويعرفه كل صادر ووارد وهكذا  
من كل شاردة غريبة ونادرة عجيبة سترها هناك رسمها إن شاء الله ، وتطلع على سر هذه الأشكال وضرب تلك  
الأشكال وتفهم فهمها حقا معنى « وما كنا عن الخلق غافلين » وأن القرائش ذا الأجنحة التي تشبه الورق الجاف  
إنما خفت على هذه الصفة لتكون تلك المشابهة وقاية لها من الطيور التي تصطادها فعيث عليها . فثبتت  
عليها لم يزعجها من الورق الجاف فلا تصطادها ولا تقتربها .

وأما الحشرات الواقفة على جذوع الأشجار المناسبة لأغصانها فكذلك للاحتراس من أعداء  
تلك الحشرات .

وأما للسألة الثالثة فذلك أن هذا الدود الذي ظهر والكشف بلونه وجسمه وتميز عن الشجر المحيط به  
فإنما ذلك لأنه كرهه الطير فقد حربه الطير للقتل قديما فكرهه ، فذلك منه أنه لو نأهيا ليكون ذلك  
اللون علامة للطير الآكلة للحشرات تمررها أن هذا طعمه كرهه فتجنبه لجرد منظره ولولا هذا اللون  
الذي به امتاز ذلك الدود لكان دائما محط أنظار تلك الطيور فتأني إليه فتذوقه وتريد أكله فلا تقدر  
فيكون الطير في شغل بما لا يتبع ، وذلك الدود دائما خائف وجل من ذلك .



بهذا يفهم الفقيه قوله تعالى في سورة هود « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها  
 ومستودعها كل في كتاب مبين » ويفهم لماذا أعاد هذا للمعنى هود في قوله « إني توكلت على الله ربي وربكم  
 ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فمن درس هذه العلوم وأتقنها أيقن أن الله نظر لكل حيوان نظرة خاصة  
 وأعطاه شكلا ولونا وحجما يوافق كل اللواطف حالة .

فإذا عرف ذلك الفقيه عرف أننا معاشر بني آدم لسنا في حجاب عن نظر الخالق لنا ، إذ إن هو يعامل  
 كلنا منا معاملة خاصة تناسب أحواله نتيجة نافعة له .

فإذا رأينا لون الحيوان لحسكة وشكله لحسكة حتى إنك ستري في تلك الآية أن من الحشرات ما إذا  
 جثم على ورقة أو غصن يرى على شكل زرق الطيور وذلك الشكل جميل وقابة له من الطيور الآكلات له ،  
 فهذه الحشرات حين وقوعها على شجر أو ورق أو حجر لا تلتصقها الطيور ، وكيف تلتصق ما لا تشك في أنه  
 رزقها ، فهذا يتبين الفقيه أن الله حقيق بالتوكل عليه ، وأن كل ما نحن عليه من عز أو ذل أو حزن أو فرح  
 أو إقامة أو حال لله فيه حكمة تفضل عنا كما تفضل تلك الحسكة عن تلك الحشرات التي أشبهت لزرع الطير لو كانت  
 ذات عقل وقات : لم خلقني يارب على شكل زرق الطيور ولم تخنقني بهيمة كالحياء المسمى في ليل الظلام ؟  
 فهذا يفهم الفقيه الإسلامي لماذا قال هود بعد قوله « إني توكلت على الله الخ » « ما من دابة إلا هو آخذ  
 بناصيتها » فإن أخذه بنواصي الدواب كما علمت وكما ستعلم عند تفسير آية سورة « قد أفلح المؤمنون » دليل  
 على أنه آخذ بنواصي كل امرئ من بني آدم وأن كل عمله فينا لحسكة تفضل عنا فلتوكل عليه .

وذلك الفقيه إذا قرأ أمثال ما سمعه الآن في الطير وغير الطير في موسوعات الكتب الفرنجية كما اغرق لي  
 في هذا اللقاه يأخذه العجب كل مأخذ لأمرين :

[ الأول ] أن أم الفرنجة للتأخرين قد برعوا في تلك اللغات التي هي حقا وصدقا تضمنها القرآن  
 ولللسلون غفون .

[ الثاني ] أنه يدعش حين يرى القوم يفرحون تلك العلوم لتدات العلوم فتتسع قرائعهم وتنمو دولهم  
 ويزيد رزقهم وانكسرهم ( كما رأيت أنا ) لا يكثر تون يذكر أنها فعل الخالق ، ولا بأن ذلك دال على جماله  
 وحكمته إلا قليلا جدا مثل ما يذكره ( ابنسرو وأوليفر لودج ) و ( اللورد أفيري ) وأمثالهم ، فهؤلاء يذكرون  
 الخالق تبارك وتعالى عند ذكر بعض هذه المعاني ، وأكثر القوم لا يهتمون بذلك ، وعليه سيكون  
 قتهاء الإسلام مخربين للأوروبيين في طريقة تدريس هذه العلوم ويصنعون في العلوم كما صنعنا بوجه  
 ما في هذا الفسر فيجب الناس صانع العالم ويفرحون بالعلم غراما دائما ، هذا ما يراه الفقيه للمستقبل  
 في سورة هود .

#### مسيره الفقهاء الإسلاميون في سورة يوسف بعد هود

فإذا قرأ ذلك الفقيه سورة يوسف سمع الله يقول « لقد كان في يوسف وإخوانه آيات للسائلين » وأخذ  
 يبرد نظام آداب يوسف في بيت العزيز إذ عفت عن الشهوات ، وهذا هو تهذيب الشخص وآدابه في السجن  
 إذ أحسن الصحابة مع السجونيين من المصريين وأخذ يعظهم ويدعوهم للإيمان وهذا أشبه بتدبير اللزل ،  
 ثم قبض على أزمة الأعمال العاتية في الأمة للصربية والانتصاد وتدبير الدولة ، فكان هذا هو السياسة العاتية  
 وهذه هي ندف علم الفلسفة ، لأن الفلسفة قسبان : قسم علمي ، وقسم عملي .

القسم العلمي : هي الرياضيات والطبيعات والإلهيات .

القسم العملي : تهذيب الشخص وتدبير اللزل وتدبير المدينة .

فهذه الثلاثة هي القسم العملي ، وهناك بسمه يتاجى ربه شاكرًا له إتمامه عليه بالملك والحكمة الخ ،  
وطالبًا منه وفاته على الإسلام وحقه بالصلحين .

ومعنى هذا أن الفقيه يقتدى بيوسف في الحكمة العملية بأقسامها ، وبعد تمام النعمة يشكر الله  
على نعمه التي أفاضها عليه ويشهد له بإبداع السموات والأرض ثم يطلب الثبات على الإيمان والحق  
بالصلحين .

فلذا عرف هذا الفقيه في الإسلام أخذ يبحث في تلك الآيات في أول السورة والآيات في آخرها أي الآيات  
التي قبل قصص يوسف والآيات التي بعد قصته بنامها فيجد عجبا ، يجد أن التي في أول السورة جاء فيها أن  
هذه القصة فيها آيات للسائلين ، وأن التي في آخرها جاء فيها « وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون  
عليها وهم عنها معرضون » هنالك يأخذ في الفهم ويقول :

يقول الله تعالى إن قصص يوسف إنما هو آيات للذين يسألون ولكنه في آيات أخرى يقول « إن في  
السموات والأرض لآيات للمؤمنين » ويقول : إن خلق السموات والأرض من آياته واختلاف الألسن من آياته  
واختلاف الألوان من آياته والشمس من آياته والقمر من آياته وهكذا كل مخلوق هو من آيات الله ، ويقول  
نارة إنها للتفكرين ، وتارة للمؤمنين ، وتارة لمن يعقلون ، وتارة يقول إنها آيات لقوم يعقلون أو يقول  
« للعالمين » بكسر اللام ، وتارة يقول بعدها « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولكن في هذا القصص  
لم يذكر معه إلا السائلين عنه ، وإذن يفهم الفقيه أن هذه القصة إذا كانت آيات للسائلين فهنالك آيات  
لا تخص السائلين بل تعم العلماء والعقلاء والمؤمنين ، وهي التي في السموات والأرض والناس يمرّون عليها  
وهم عنها معرضون ، إذن الآيات قسمان : قسم مسموع وهذا لمن اعتادوا أن يأخذوا العلم بالسماع  
والقليد والاعتبار .

وهذا القسم من العلم المسموع يفرح به الجاهل ويحتر به العالم ، فهو للجاهل علم ، ولدى العقل اعتبار  
كما قال تعالى « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » أما القسم الآخر وهي الآيات المقولة فهي درجات  
بعضها فوق بعض للمؤمنين تارة وللعقلاء أخرى وللعلماء آونة .

ثم ينظر في سورة يوسف فيجد أن هذه القصة ليست كل آيات الله بل هناك من الآيات مئات ومئات  
في مئات لا تحصى قد أعرض الناس عنها ، بل من الآيات ما يختص بالعلماء الذين يدرسون العلوم كما سيأتي  
ذكره في سورة الحجر في قوله تعالى « وأنبئنا فيها من كل شيء موزون » إذ نظام الأوراق وأنه موضوع  
بحساب رياضي هندسي له جداول متناسقة بديعة تشمل أوراق الفصائل النباتية مرتبة كترتيب تلاميذ المدارس  
في الفصول كما ستراه مرسوما مشروحا موضعا .

هنالك يأخذك أنت وبأخذ الفقيه المعبوذ إذ يرى نظاما يجمله جميع أهل الأرض إلا علماء النبات .  
فهؤلاء عرفوا نظام الأوراق وجداوله المنظمة والدوائر المشتملة على عدد من الأوراق معلوم مرسوم  
بأشكال حثرونية لها أعداد خاصة متناسبة كل المناسبة مع أوراق وأشكال النباتات الأخرى .  
ثم يرى هو وترى أنت أن هذا كله معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى ومن الأدلة البديعة على إبداع  
وإحكام صانع هذه الدنيا .

ثم جد ذلك ينظر نظرة أخرى فيقول : اللهم إن هذا العلم اليوم غير معروف في بلاد الإسلام اللهم إلا لمن  
تصلوا علم النبات تعلما تاما ، وهؤلاء لا يعرفون شيئا من الدين إن وجدوا في الشرق واختصت هذه المعرفة  
بالعلماء بهذه العلوم .

اللهم إن قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للمالين » لم يظهر أكبر سره إلا في عصرنا ، فإن اختلاف الألوان والألسنة لم تظهر خبايا سره إلا في هذه الأيام ؛ إذ استبان أن ألوان الحيوان لها آثار في حياتها كما تقدم بعضه في هذا المقال وكما سيأتي في قوله « وما كنا عن الخلق غافلين » وفي غيرها ، إذن سر القرآن يظهر في هذا العصر .

من ذا الذي كان يظن أن للألوان أثرا في حياة الحيوان ، ومن ذا الذي كان يعرف أن جمال الزهرة سائق وداع للحشرة أن تدخل ازهرة فتشرب عسلها ، من ذا الذي كان يعرف أن الحشرة التي تماثل زرق الطير لونا وشكلا قد جعل ذلك فيها لحمايتها وحفظها وبقائها ؟ .

حقا حقا إن هذا لا يفهمه إلا علماء قد اختصوا بهذا الفن ، إذن هذا سر قوله تعالى « إن في ذلك لآيات للمالين » .

ولا جرم أن هذا من الآيات التي ليست للسائلين الذين لم يشترط فيهم أن يكونوا علماء بل هي آيات للعلماء بهذه العلوم ، وهذه معجزة جديدة يسجلها العلم للإسلام .

هذا ما يفهمه الفقهاء في المسلمين بعدنا في سورة يوسف .

نظر الفقيه الإسلامي في سورة الرعد بعد سورة يوسف

ثم ينظر نظرة في سورة الرعد فيجد أن الآيات الإلهية التي لم يذكر منها في سورة يوسف إلا التنبيه عليها والحث على الإقبال عليها قد كثرت في سورة الرعد كرفع السموات بغير عمد ، ثم تمثيل عظمة الله وسلطانه بما يشاهد الناس في الدنيا من عروش الملوك وتدبير الجمهور ونظام المدينة فقال « ثم استوى على العرش » ثم أخذ يفصل تدبير الملكة وحسن نظامها فأبان أنه ليس هذا العرش كعروش ملوك الأرض الذين ينظمون للمالك إلى آخر ما تقدم في السور السابقة في هذه المقالة بل هنا « سخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » فأما ملوككم فأعلى مانطلبه عروشهم وغاية ما يقصده وزراءهم أن يسخروا الأمم لشهواتهم ويقودوا الجنود لتسخيرهم ، فلا مناسبة بين الملوك وبين التسخيرين .

ثم ذكر أنه مد الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا ونباتا مكثونا من ذكر وأنثى ، وفي الأرض أماكن متجاورة مختلفة التربة للنظام العام ، ثم ذكر البرق والرعد والسحاب وأنه إذا كان الناس يخضع بعضهم لبعض بحسب القوة والضعف حتى إن الدليل ليخضع للقوى منكم .

فهاهو الله يسجد له من في السموات والأرض وطائفة من الناس كما في ملوككم ، وهناك سترى ويرى الفقيه الإسلامي بعدنا قوله تعالى في تلك السورة « وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير للتمال » ويطلع على القادير الحسائية والهندسية في العوالم المختلفة ما بين علوية وسفلية لاسيا ( القطع الثلجية ) التي لحظها القوم في الجهات الشمالية إذ أنك سترى هناك أشكالها الهندسية المسدسة البديعة النظام المتلازمة المبتهجة التي عدوها بنحو الألف وقد رسموا منها جملة سالحة ، وهذا الذي رسموه ستطلع عليه وتعجب من أن التسديس تام في كل شكل مع أن كل واحد من تلك الأشكال اختص بحكمة بحيث إنك لا ترى شكلا منها مع اتحادها في التسديس يوافق الآخر في إبداعه ونقشه ورقشته وبهجته وحسن نظامه فبعضها ترى أضلاعه كأنها أعضان عملاقة بالأوراق متفنة الصنع مع أن كل مسدس من تلك المسدسات فيه ٦ مثلثات متساويات الزوايا كل زاوية ثلثا القائمة (١٢٠) درجة .

وهكذا سترى هناك عجائب القطع المتجاورات حتى أن امتزاج الرمل ببعض المواد كانت منه أنواع الزجاج القمر والمهدب في وجهه أو في وجهين وتنتج ذلك في منافع الإنسان من تقريب الأشكال تارة وتكبيرها

أخرى ومنافع ذلك في إصلاح خطأ الأنتظار في عيني الإنسان ، وهكذا ترى رسوم تلك الزجاجات ومحجتها مما يشرح الصدر وبه ينهأ الحسك .

#### نظر الفقيه في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ثم ينظر الفقيه الإسلامي في سورة إبراهيم فيجد أنه تعالى في أول السورة أفاد أنه أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولم يخص الناس بالعرب بل الأمم كلها هم الناس ، وقال في هذا الصدد إن الله أمر موسى أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور إذن موسى لقومه .

وهذا هو الذي حصل الآن ، فإن الذين يتبعون موسى في شريعته هم قومه وحدهم الآن ، وإن كان التوحيد ليس خاصا بهم فتحن انبغاثه وانبتنا رسولنا صلى الله عليه وسلم في التوحيد ، أما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد قال الله فيه « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » فإذن نحن جنبنا في الأرض بعد نبينا للناس كافة لا لأئمة وحدهم .

لهذا انتشر المسلمون في الصدر الأول في الكرة الأرضية ولم ينتشر الدين اليهودي إلا في بني إسرائيل مع أنه قد نسخ بالبعث المحمدي .

وسترى في تلك السورة عجائب التذكير ، جاء موسى لإخراج قومه من الظلمات إلى النور بنص الآية وجاء نبينا صلى الله عليه وسلم بعده كذلك لإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

ثم إن موسى ذكر قومه بأيام الله وهكذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مأمورا أن يذكر قومه بأيام الله .

وسترى ويرى الفقيه في سورة إبراهيم ما الذي به ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من أيام الله للمسلمين كما ذكر موسى قومه بأيام الله من أنهم كانوا أدلاء عند فرعون وقومه ثم نجوا من ذلك وأنهم الله عليهم ثم ما الذي يجب على علماء الإسلام بعدنا من تذكير شعوبهم بأيام الله في كل أمة بحسب الوقوع التي حصلت لها وكيف تعتبر الأمم الإسلامية بتاريخها وسترى هناك النموذج الذي ذكرته للأمم الإسلامية من تاريخها العام من عصر النبوة إلى الآن .

وكيف كان جهل ملوك الإسلام وعلماء الإسلام في القرن السادس والسابع إذ هجم التار والتقول على المسلمين وهم قد جهلوا علم الجغرافيا وعلم تمدد الأمم وأحوالها كما ظهر جهل أمتنا المصرية من أمرائها وعلمائها إذ دخل نابليون البلاد وهم كانوا يظنون أنهم أقوى من أوروبا كلها لجهلهم بعلم الجغرافيا وقد « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » فهزم جمعنا في أقل من ساعة من الزمان ، ذلك كله للجهل العام « وبداهتهم من الله ما لم يكونوا يحسبون » .

هكذا سترى هناك كيف أراد الفرنسيون أن يحتاطوا بالناس عند وقوع الطاعون الذي هو من تربيتنا ومن نظام ديننا وله في الأحاديث النبوية والآيات القرآنية شأن عظيم ، فأخذ الناس يفرون من القاهرة لا اعتقادهم وعلمائهم أن هذا ليس من الدين مع أنه في الحديث المذكور في قصة سفر عمر رضي الله عنه في بعض غزواته ، وكذلك في قوله تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » .

ثم سترى ويرى الفقيه الإسلامي بعدنا في سورة إبراهيم المذكورة ذكر العلماء من أوروبا بعد ذهاب دولة الإسلام الذين علموا الناس علوما وصناعات تفعلهم من ابتداء نهضتهم التي جاءت على أنقاض دولتنا الإسلامية العلية إلى زماننا الحاضر .

كل ذلك هالك لندكر الناس بأيام الله في زماننا كما ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم الأمم في زمانه  
وكما ذكر موسى قومه وكما يذكر فقهاء الإسلام بعدنا أنهم « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »  
والحمد لله رب العالمين .

هذا ما قصدت ذكره هنا من آراء فقهاء الإسلام الذين سيكونون بعدنا وهم الذين سينير الله بهم أمة  
الإسلام وغير أمة الإسلام تحقياً لقوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

[ تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الخامس من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ]

وبالله

الجزء السادس ، وأوله : سورة بونس عليه السلام

## فهرس

## الجزء الخامس من كتاب تفسير الجواهر

	صفحة
٢	تفسير سورة الأنفال وهي تشمل على خمسة أقسام : مقدمة السورة .
٣	ذكر موجز في ملخص السورة السابقة ، ولماذا رتب هكذا إلى هذه السورة .
٥	[ القسم الأول ] « بسألونك عن الأنفال - إلى قوله - ورزق كريم » . التفسير اللفظي .
	لطائف القسم الأول لسورة الأنفال .
	[ اللطيفة الأولى ] في حال المسلمين اليوم يتقاطعون على صفائر الأمور وقد جهلوا سبب نزول هذه الآية إذ أمر الله بتقسيم الغنائم بالعدل فزال شقاق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بسبب العدل ، فلماذا لا يفعل أمراء الإسلام ذلك ؟ .
٦	[ اللطيفة الثانية ] التوكل على الله يستفيد فائدتين ، [ اللطيفة الثالثة ] تبين من هذه الآية أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح .
٧	حكم ظهرت في هذه الآيات ، ههنا أمران : أمر مقاصد السورة العامة ، وأمر مناسبة آخر سورة الأعراف لأول سورة الأنفال .
٨	سورة الأعراف منفردة ، وسورة الأنفال والتوبة مبشرتان بالنصر والنعمة .
٩	حديث « إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا الخ » وكيف جهل للتأخرون من المسلمين إنذار سورة الأعراف ، وتحذيرهم من الطغيان في سورة يونس التي بعد سورتي النصر والغنائم المؤذنة بأن الطغيان بعد التمكّن هو دليل الهلاك في الدنيا .
١٠	دواء هذا الداء ، وذلك بمرض نماذج من جمال هذا العالم تعشق الأطفال في العلم عند قراءة آيات من القرآن . الكلام على الوجع عند ذكر الله وزيادة الإيمان والتوكل على الله ، وحديث « الإيمان بضع وسبعون شعبة » .
	بيان خلاف الأئمة في قول المسلم : أنا مؤمن حقا ، وتبيان أن النبوة قد أومأت إلى شرحه ، وتبيان هذا القام بإيضاح .
١١	الإيمان في ديننا قد ابتلع جميع العلوم لأنها داخلية في الشعب المذكورة ، والمؤمنون كلهم كأنهم إنسان واحد وقصص علم أو صناعة قصص في إيمانهم .
١٢	الصلح في بلاد الإسلام .
	الإيمان أمر واحد كما أن الإنسانية عبارة عن الجسم والروح .
١٣	الكلام على صلح ذات البين .
	الكذب في القرى وفي المدن ببلادنا ، كيف استعاض الناس عن سعادة القلوب بذكر سعادة الباشا الخ فاستموا باللفظ عن المعنى ، الأم الإسلامية وجمعية الأم في أوروبا .

- ١٤ الإصلاح العام وله شروط سبعة ، تحسر المؤلف على الأمم الإسلامية وأنهم لم يجعلوا التعليم عاما إجباريا  
تفسير القرآن في الحقول والحشرات .
- ١٥ وصف حشرة ( بق الهبسكس الدقيق ) .  
انتشار هذه الحشرة في نباتاتنا المصرية ، عدواها تنتقل بالماء والهواء والحيوان .
- ١٦ نسلها كثير ، يحاربها الإنسان وهي تسكر إذن ، الله أكثر من الحشرات النافعة للنبات بالإفحام  
والعائكة به قال تعالى « ونبأونكم بالشر والخير فتنة » إن الأذى من هذه الحشرات قد تلد بدون  
ذكر كما تكون الذكور والأنثى في نبات واحد معا ، إذن الذكور والأنثى في جميع الأحياء  
متحدثان إما فضلا وإما بالشوق .
- ١٧ كل ذلك يفسر معنى قوله تعالى « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »  
فهنا درجتان : إصلاح ذات البين بين المسلمين وتعارفهم مع جميع الأمم .
- ١٨ مافوق السادة ، تذييل لهذا المقام .
- ١٩ إن لذي بفهم ما يضرنا وما ينفعنا دليل على أن هناك عوالم أرقى منا نستلذ بذلك ولا تحب  
إلا النظام العام .
- ٢٠ الله ما فرق الناس إلا ليجمعهم .
- ٢١ تذكرة آية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » سيأتي معناها وهو اللخص الذي كتبه  
الأستاذ ( ستلانه ) التلياني لكتابه [ ابن الإنسان ] وذلك ستقرؤه في سورة الحجرات لأن الكتاب  
مبنى على تعداد الذكور والإناث في الأرض كما في الآية وهكذا جميع أحوال الناس ومنافع الأرض  
فهي مختلفة وبهذا الاختلاف يتم النظام .
- ٢٢ كيف قصر المسلمون في قوله تعالى « وأصلحوا ذات بينكم » .  
فريدة مشرقة في سورة الأنفال والتوبة ثم القتال والفتح والحجرات .
- [ القسم الثاني ] في قوله تعالى « كما أخرجك ربك - إلى قوله - وأن الله مع المؤمنين » .
- ٢٣ مقدمة في سبب غزوة بدر ، والكلام على العير والتغير .
- ٢٥ التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ٢٩ خمس لطائف : [ اللطيفة الأولى ] فيها استبان اقتحام الأخطار في قوله « وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين »  
[ والثانية ] : أن هذا العالم المادى خاضع لناموس العقول .
- ٣٠ [ اللطيفة الثالثة ] دقة الملاحظة والبحث الصادق في أمور هذه الحياة في قوله تعالى « إذ يشيكم الناس  
أمنة منه » .
- [ اللطيفة الرابعة ] الثبات وقوة المزجبة ، [ اللطيفة الخامسة ] عدم الإهجاب بالنفس وترك الكبرياء .
- ٣١ [ القسم الثالث ] « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله - إلى قوله - والله ذو الفضل العظيم » .  
تفسير بعض الألفاظ ، بيان ما يعي القلوب وهو أربعة أمور :
- ٣٢ في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » أربعة أمور أيضا .  
تفسير بقية الألفاظ في هذه الآيات .
- ٣٣ سبع لطائف : [ اللطيفة الأولى ] في قوله تعالى « إن شر الدواب عند الله الصم البكم » .

- ٣٣ مشابهة الإنسان في حال نقصه لأنواع الحيوان ، [ اللطيفة الثانية ] « ولو علم الله فيهم خيرا لأصممهم » .
- ٣٤ [ اللطيفة الثالثة ] كيف يحول الله بين الراء وقلبه وذلك بالنوم والجنون والإغماء والسكر وأحوال المرض ، تأثير الخطباء والشعراء والوسط والبيئة ، كلام العلامة ( جوستاف ليون ) .
- أدوار التنويم المناطيسي وعجائبه وأن هناك ثلاث درجات يتذكر في كل منها ما لا يتذكره في الأخرى فها هو ذا انه قد حال بين الراء وقلبه .
- ٣٦ لمحات الأنوار وبواهر الأسرار في قوله تعالى « واعلموا أن الله يحول بين الراء وقلبه » والحيلولة تنحصر في ثلاثة أقسام :
- [ الأول ] الأصول الصناعية، والأصول الخفية ، والأصول العملية ؛ فالأولى كالبخار والكهرباء، والمنطاد والطيارة قبل العلم بها ولجهل السليين بأكثر الصناعات اليوم، لأن الله حال بينهم وبين فلوهم إلا قليلا منهم .
- ٣٧ [ القسم الثاني ] الأصول الخفية وذلك كاعتقاد الحجر وغيره .
- [ القسم الثالث ] الأصول العملية ، وفيه فصلان :
- ( الفصل الأول ) في العلوم العامة .
- ٣٨ ( الفصل الثاني ) في معرفة الله عز وجل .
- ٣٩ الله جعل الشمس مثالا لنفسه فهي كبيرة مضيئة بعيدة قرية مقابلة لكل امرئ في الأرض لاحصر لضوئها ، هكذا الله عظيم كثير الإنعام الخ . إيضاح بعض صفات هذا المثل وآية « الله نور السموات والأرض » وحديث « إنكم سترون ربكم عيانا الخ » تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم رؤية الله لكل امرئ محليا به بما يرى الإنسان القمر محليا به .
- ٤١ شفاء الصدور ومشرق النور من شموس بازغات ومعان باهرات في هذه الآيات « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللا رسول الخ » .
- ٤٢ وصف السماء وكواكبها ونور القمر وجمال الصباح وشروق الشمس ووصف قوس قزح وأبيات جميلة في وصفها والكلام على الكتب السماوية والمعارف النفسية والكتب الحكيمية .
- الجسم الإنساني .
- ٤٣ النظر في النفس ، عقلة الناس عن القلب ذلك الذي جمع وصف السماء وكواكبها وأنوار أقمارها وشمسها وصباحها ومساءها وكيف كانت الأعداد لها وجود في ذهنه فالقلب يجمع بين الوجود في الخارج والذى لا وجود له فيه فهو أوسع والناس عنه غافلون إلا قليلا .
- ٤٤ الفناء في تحوله إلى سمع وبصر دليل على أن المادة فكر لأن النمرة من جنس البذر ، النفس تصور الواجب والجائز والمستحيل فهي من عالم أوسع من عالمنا .
- ٤٥ النفس في حال النوم تعطيك صورة من الدنيا والآخرة، استيقاظ النفس ونومها يمثلان الحياة واللوت .
- ياقونة في عقد هذا المقال .
- ٤٦ ليس للدار على كثرة العلوم ، وإنما للدار على حسن التصرف والتأمل .
- نفسى ونفسك فيهما قدرة مدهشة وقد حيل بيننا وبينها ، غرائب زهاد الهند .



- ٤٧ بيان « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ». التنويم المغناطيسي وغيره كالمهندي الذي دفن ستة أشهر ثم خرج حيا الخ .
- ضوء الياقونة وازدياد عجائبها كسألة الوسيط الأمريكي (جيمس) وكغلام صيرفي يجادل أعظم الفلاسفة في حال استيلاء الروح عليه ، ولكنه في حاله الاعتيادية لا يدري شيئا من العلوم .
- ٤٨ آراء علماء الإسلام في النفس الإنسانية وصفاتها واطلاعها على المعجائب .
- ٤٩ ما قاله الإمام الغزالي من أن النفس الإنسانية متى ذكرت الله في خلوة وغابت عن الوجود خاطبها اللاشك ، فالانكشاف في النوم وفي الموت وفي صفاء النفس ، الجوع والصمت والسهرة والمزلة هي الأركان الأربعة لفتوح ، طريقة الجوع بحيث يأكل قليلا وذكر مضارها .
- ٥٠ اتجاه الأمم لفتح الحس الباطني دائما بورثها الاعطاط .
- اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة في قوله تعالى « واتقوا فتنة الخ » وفي قوله « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون » وفي قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول » وفي قوله « واعلموا أنما أموالكم » الخ .
- ٥١ [القسم الرابع] : « وإذ يكره لك الدين كفروا » إلى قوله « ونعم النصير » .
- ٥٢ التفسير اللفظي .
- ٥٣ بقية التفسير اللفظي .
- ٥٥ لطيفة في قوله تعالى « فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » وفي بقية الآيات .
- [القسم الخامس] « واعلموا أنما غنمتم » إلى آخر السورة .
- ٥٨ التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ٥٩ بيان التحليل العقلي في قصة بدر وكيف فصل الله فيها ١٤ مسألة فلم يذر نعاسا يشام ولا نصرا ولا خاطرا إلا استخرج منها حكما لمنفعتهم .
- ٦١ الكلام على تكثير القليل وتقليل الكثير لإصلاح هذه الدنيا .
- ٦٣ بقية التفسير اللفظي .
- ٦٨ كيف صح أن قوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » ليس بمنسوخ كما حصل في حرب مراكش حديثا إذ غلب الواحد عشرة كما هو معلوم . وهذا من عجائب القرآن في هذا العصر .
- ٦٩ لطيفتان : الأولى قوله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وبيان آثار الوهم في الإنسان .
- ٧٠ بيان ما نقل من مجلة في (برازيل) أن امرأة خرج ولدها ضفدعة .
- ٧١ كيف يتعمرن المهندي على الزهد في الحياة ؟ وكيف يكون شؤم التفكير المحزن سببا في الحزن ؟ وكيف جرت أحد الأطباء قوة الاستهواء في نيل مجرم بالوهم الخ . وكذلك بائع اللبن في إنكسار الذي أوهمه المشترون أنه مريض فمرض .
- ٧٢ طريقة (اميل كويه) الفرنسي في قوة الاستهواء وأنها تشفى كثيرا من الأمراض ، وقال إنه يجب على الأطباء للدواوة بالاستهواء .

- ٧٣ إذا ردّد الإنسان كلمات كل يوم تدل على أنه قد شق من مرضه فذلك نافع عند (كويه) الطبيب .  
اللطيفة الثانية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الخ .
- ٧٤ الحرب من مقومات الأمم ومنشطاتها في الحياة ، والكسل والخمول يميتان .
- ٧٥ المفرقات في الحروب من القطن والوادي للتهبة . كيف يصنع الديناميت . الجلادين المفرق وغيره .
- ٧٦ القطن والكبريت والتريك قد حوت إلى مادة محرقة . انه أمرنا بهذه الصناعات استعدادا للحرب .  
نظرات الفلاح إلى شجرة القطن ، ونظرات علماء الحرب .
- ٧٧ تناسق آي القرآن وتلاحقها في مسألة عدة الحرب والقتال . التعجب من أن القطن الذي نلبسه كنت فيه قوة مهلكة .
- ٧٨ بيان أن هذه الخواص من عجائب خلق السموات والأرض . الابتهاج بالعلم والحكمة والتعجب من القطن وغيره ، فكيف كنت فيها تلك المهلكات ؟ .
- ٧٩ زهرة ناضرة بهجة في قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .
- ٨٠ كيف أدرك أبو مسلم الحراساني غايته في الحرب بسبب الكتمان . وكيف كان الجيش الفرنسي قد كاد ينحل ، ولولا تكتم الرؤساء لحسروا الحرب ، وهذا السرّ ظهر اليوم . أسامرك أيها التركي في تكثير القليل وتقليل الكثير ، فتقليل الكثير كما فعل اليابانيون في الحرب مع الروس إذ أخفوا سفنهم بالنابون وكسفر الشمس في أعيننا ، والعكس كالطفل عند أبويه .
- ٨٢ تفسير بقية السورة من قوله تعالى « ما كان لبيّ أن يكون له أسرى الخ » .
- ٨٣ حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم الخ » وبقية التفسير لهذه الآيات .
- ٨٥ لطيفة ذكر فيها أن الأئمة لو كانوا أحياء ورأوا جهل المسلمين لعوم ولأمروهم بما نكتبه لهم الآن ، والكلام على ذمّ للتقاعدين عن هذه العلوم .
- ٨٦ البراث ميراثان : ميراث الحى ، وميراث الميت وشرح هذا اللقاع .
- ٨٨ سورة التوبة وبيان أنها أربعة أقسام ( القسم الأول ) من أول السورة إلى قوله « إلا قليل » .
- ٩٢ الكلام على سبب هذا النداء يوم الحج الأكبر .
- تفسير هذه الآيات تفسيرا لفظيا .
- ٩٧ خمس لطائف في هذا القسم .
- اللطيفة الأولى في قوله تعالى « ونفصل الآيات لقوم يعلمون » ، وبيان أن الصديق رضى الله عنه أبى أن يترك الزكاة التي قرنت في القرآن بالصلاة ، وقد فصل الله الآيات لقوم يعلمون ، فهو بهذا من الذين يعلمون ، أما المسلمون اليوم فكيف صرح القرآن بالعلوم وهم نائمون ؟
- ٩٩ اللطيفة الثانية في قوله تعالى « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » الآية .  
اللطيفة الثالثة قوله تعالى « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم » .
- ١٠٠ اللطيفة الرابعة « أجمعتم سقاية الحاج الخ » .  
اللطيفة الخامسة « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم » .
- تفسير بقية الآيات من قوله تعالى « ويوم حنين - إلى قوله - عن يد وم صاغرون » .

- ١٠٣ مقدار الجزية ، مناكة الهوس والصابئين وذبايحهم . وقالت اليهود عزير ابن الله وحكاية بولس الرسول وحيلته .
- ١٠٤ حقيقة مسألة بولس وأنه رجل فريسي الخ ، نتائج الخلاف في النصرانية ، تنازع النصارى في أمر للسيح ، وذلك في أوائل الجبل الرابع وقد انقسموا حزبين : مقرّ بألوهية للسيح ، ومنكرها وظهور ( أريوس ) وإسكندر أسقف الإسكندرية ، الشتام بين آباء النصرانية ، أقام قسطنطين مجما في أنطاكية .
- ١٠٥ تفسير قوله تعالى « ذلك قولهم بأفواههم الخ » .
- ١٠٦ تفسير « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان الخ » .
- ١٠٧ تفسير « إن عدّة الشهور عند الله - إلى قوله - إلا قليل » .
- ١٠٩ اللطيفة الأولى في تحقيق الكلام في الأشهر الحرم .  
بيان أن من يقول بنسخ تحريم القتال في هذه الأشهر ومن لا يقول به متفقان مآلا .  
اللطيفة الثانية الشهور العربية والأفريقية والقطبية وعلّة تسميتها بأسمائها ، كأن يقال الحرّم لتحرير القتال فيه ، وينابر مأخوذ من يأنوس معبود خرافي كانوا يمثلونه بوجهين الخ ، وتوت هو تهوت إله الحكمة والقلم عند القبط .
- ١١١ اللطيفة الثالثة « يوم يحمى عليها في نار جهنم الخ » . وبيان أن الاطلاع على علم الأرواح معجزة للقرآن في مثل هذه الآية .
- ١١٢ جوهرة باهرة في هذه الآيات وهي : « قل إن كان آباؤكم - إلى قوله - عما يشركون » مظهران وهما :  
(١) آثارها في الأمم الإسلامية القديمة وإهمال التأخرين . (٢) وآثارها في أم الإسلام .  
آثار هذه الآيات في صدر الإسلام .
- ١١٣ ذكر حكايات عن أبي بكر وعمر وزهدهما ، ثم ذكر غرور للتأخرين من الأمة الإسلامية .  
لقام الثاني آثار هذه الآيات في الاغلاب الأوروي .
- ١١٤ الكاثوليكية وكيف كان البابا رئيسهم بذل اللوك في أوروبا إذ ابتداء حكمهم من سنة ١٠٨ هجرية .  
كلام اللؤرخ ( كرينوس اضربيا ) في بيع الغفران بالنقود ، وكيف تاجروا بالضمائر الخ .
- ١١٥ محازي البابوات ورؤساء النصارى أيام ( شرلمان ) الكبير والإحراق والقتل والحرق والقتل صبوا ، وقد أحرق لوبس الحادى عشر ١٨٣ شخصا مع راعيهم وهكذا غيره ألوفا وألوفا .
- ١١٦ ذكر المحكوم عليهم بمحكمة التفتيش بأسبانيا وأنهم ٥١٠٠ في مدّة ١٨ سنة والذين أحرقوا ما بين ثمانية وعشرة آلاف الخ ، وقتل من المسلمين مائة ألف بإيعاز رئيس أساقفة بأسبانيا ، وقتل في انكلترا وإيكوسيا لأجل الدين في مائتي سنة ألفي نفس الخ .
- ١١٧ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت تحت عنوان : [ رجال الدين ] قد ذكرت ظلم رجال الدين في أوروبا وأن ( قولتير وروسو ) وأمثالهما لم ينتسروا مبادئهم إلا بعد أن قرءوها في كتب المسلمين فأعتقت أوروبا من ذل رجال الدين بفضل الإسلام . تنبؤها بأنه سيأتي وقت قريب تسلّم فيه أوروبا وأمريكا .
- ١١٨ تذكر أن عمر كان عادلا والله يقول « وشاورم في الأمر الخ » .

- ١١٨ القانون المدني ، صورة محوّرة من الشريعة الإسلامية . تحسرها على الشرق وعلى الإسلام .
- ١١٩ ذمّهما لعلماء المسلمين في مصر والحجاز وفي بنى غازی الخ .
- ١٢٠ [ للظهر الثاني ] ماجاء عن علماء الأرواح حديثا بأوروبا ، معجزات القرآن في هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقا للقرآن ، [ الجوهرة الأولى ] مجمل هذه الآيات .
- [ الجوهرة الثانية ] في تحليل النفس الإنسانية وكيف قبلت جميع الموجودات وشاركت كل شيء وتوقفت على كل موجود وتودّ لو تتلّع العالم كله وشرح هذه الأربعة شرحا مستفيضا .
- ١٢٣ [ الجوهرة الثالثة ] معجزات القرآن التي ظهرت مطابقة لما تقدم عند بعض علماء النصارى الذين حدثوا الأرواح ، وذكر ( عمانوئيل - سودنبرج ) وتاريخ حياته ومنزله في المملكة .
- ١٢٤ ماذا يحدثنا عمانوئيل ، يقول إن الإفريقيين من بين جميع الأمم هم المبهوبون أكثر من الجميع في الجنة ولا جرم أن الإفريقيين مسلمون ، وذمّ السبعين وقال إن نصيبهم في الآخرة مزعج محزن ويقول إن الأرواح أخبرته بأن الله واحد وأن اعتقاد الثلاثة محير في الآخرة وأن الأطفال يدخلون الجنة ولا عبرة بمسألة ماء العمودية عند النصارى وهكذا .
- ١٢٥ كلامه في جهنم وأن أبوابها تحت صخور وفيها خرابات ومنازل بعد شبوب نيران ، وقال إنه رأى الأرواح الشريرة تدخلها ، وقال إن الله يرى كالثمس وكل ذلك موافق تمام المواقة للقرآن .
- ١٢٦ اعتراض على المؤلف بأن هذا لا دليل عليه ، جوابه بأنه ذكره لثلاثة أمور : أولا هذه الآراء توافق كتاب الأرواح ، ثانيا توافق آراء خواص علماء الإسلام ، ثالثا إني نظرت في هذه الدنيا بعقل الخ .
- ١٢٧ تبيان نظام هذا الوجود ، وكيف كان كله متحدا وإذن لا يتمّ نظام الإنسانية إلا إذا أصبحت كلها نظاما واحدا مشاكلا لنظام هذا الوجود وإلا فمهي إنسانية حقيرة ذنينة كما هي الآن .
- ١٢٨ بيان سقراط أن الدين يحكمون الجمهورية يكونون أعفّ الناس وأعلمهم ، وبيان أن أهل كل دين في الأرض طغوا وبغوا كالسبعين وكالمسلمين وغيرهم وذكر آيات من القرآن والإنجيل .
- ١٢٩ دين الصين القديم للنبي ( يوالكبير ) ثم الفيلسوف ( ليوتسو ) ثم ( كونفسوس ) وبيان أن الناس هم الذين يحصلون الدين الطاهر جاريا على حسب أخلاقهم فينزل صافيا من السماء وهم يحملونه كدرا .
- ١٣٠ [ القسم الثاني ] « لا تنفروا بذبكم - إلى قوله - إن كنتم تعلمون » .
- التفسير اللفظي « لا تنفروا بذبكم الخ » .
- ١٣١ [ القسم الثالث ] « لو كان مرضا قريبا - إلى قوله - والله عليم حكيم » .
- التفسير اللفظي لهذه الآيات .
- ١٣٦ « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا الخ » .
- ١٣٧ « ومنهم من يلزك في الصدقات الخ » .
- ١٣٨ « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم الخ » .
- ١٣٩ « فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الدين من قبلكم بخلاقهم الخ » .
- ١٤٠ « يحلفون بالله ما قالوا الخ » .
- ١٤١ « فيسخرّون منهم سخر الله منهم الخ » .

- ١٤٢ « وأولئك لهم الحيرات الخ » .
- ١٤٣ « وآخرون اعترفوا بذنوبهم الخ » .
- ١٤٤ ذكر ١٤ لطيفة .
- ١٤٥ بيان اللطيفة الأولى « لا تنفروا بدينكم عذابا ألما ويستبدل قوما غيركم » .  
بيان أن الأمم الإسلامية إذا تركت الأعمال العامة استبدل الله بها غيرها .
- ١٤٦ اللطيفة الثانية « لا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثلثي الخ » وفيه بيان لمجرة  
التي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . اللطيفة الثالثة « انصروا خفايا وهابا » .
- ١٤٧ « فلا تسبك أموالهم ولا أولادهم » وهي اللطيفة الرابعة . إيضاح هذا اللقائم ببيان أن الفكر  
هو الذي له أثر في عذابنا ونعيمنا ، فمن كان في جنة أو نار وهو لا يحسّ بهما فلا عذاب  
ولا نعيم عنده .
- ١٤٨ ظاهر هذه السورة العذاب وباطنها النعمة . السعادة لا تشرى بمال . وبيان الإيطالي المتحرر تخلصا من  
النفي والثروة مع أنه لا يعمل له .
- ١٤٩ جمال هذه الآيات ، وبيان أن الحشرات تلد الآلاف وهي لا تعذب بالذرية ، والإنسان يلد الآحاد  
وهو معذب بها ، وهذا سرّ قوله تعالى « ففرّوا إلى الله » بعد قوله « ومن كل شيء خلقنا زوجين  
املِكْ تذكرون » الآية .
- ١٥٠ السنة الخلق أقلام الحق ، وبيان أن الناس يتبرّمون من الحياة وهذا تعبير عما سطر بقلم الحكمة  
في الظاهر أمام الناس وإن كانوا لا يشعرون .
- ١٥١ شعر ترنس الانجليزي مترجما شعرا بالمرية في أن الفقراء يحسون بالسعادة أكثر من الأغنياء .  
موازنة بين شعر أبي العلاء وبين شعر شارل وكذا شكسبير الانجليزي مما نظمته سابقا في كتاب  
[ جوهرة الشعر والتعريب ] .
- ١٥٢ شعر شكسبير مما ترجمته إلى الشعر العربي بما يفيد « كل من عليها فان » شعر المؤلف في كتاب  
ضاع منه قبل أن يرجع إليه .
- ١٥٣ كيف ينطق الطير للناس بلسان الحكمة يقول : انخدوا لكم مكانا في الملا كما انخذت .
- ١٥٤ بيان نطق الطير لسليمان في قوله « يا أيها الناس علنا منطلق الطير » غفلة الناس عن الجمال وعن الفهم  
وعن النعم العائمة ، فالجوع والشبع والمرض وغيره كل هذا نطق أفصح من نطق اللسان .  
فهم بعض سرّ هذه الآية في هذا الزمان وأن الحرب الكبرى إنما جاءت من أجل المال .
- ١٥٥ الكلام على الاشتراكية . اللطيفة الخامسة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين الخ » وإيضاح اللقائم .
- ١٥٦ اللطيفة السادسة « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » وأن الاستهزاء بالدين يورث افتراق  
العقائد فتفرق الأفراد فتضيع الأمة . جوهرة في قوله تعالى « قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون »  
الاستهزاء بانتدنيين .
- ١٥٧ استهزاء علماء الفقه بجميع العلوم واستهزاء بعض الناس بهم .  
حكاية أمير هندي وسري من سراء الهند والعالم الصيني .
- ١٥٨ نتيجة الاستهزاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زماننا ، قاعدة كلما زاد الاستهزاء به كلما زاد  
الاستهزاء وبالأبواب للاستهزاء بها واضحة في سورة يس .

- ١٥٩ قاعدة : أكثر الناس تعرضا للاستهزاء أكابرم ، آثار الاستهزاء في بلاد الإسلام .  
إيضاح آتم للاستهزاء بآيات الله .
- ١٦٠ مواكب الله ومواكب الملوك والدول في عصرنا .  
إعراض أهل الهند وأهل إيرلاند وأهل مصر عن عظماء الإنجليز وجنودهم احتجاجا على احتلالهم  
لبلادهم ، فالإعراض عن مواكب الدول له نظير وهو الإعراض عن مواكب الشمس والقمر والنجوم  
فذلك أرسل مواكب أقرب وهي الطيارات والدافع .  
ذكر ستة أنواع من مواكب الله تعالى التي عرضها وأعرضنا عنها كما تعرض الأمم المحكومة عن  
عظمة حكامها .
- ١٦١ أعرض المحكومون عن بطش الحكام فأوجب ذلك أثره ، هكذا إعرضنا عن مواكب الله في الأرض  
وفي السماء .
- ١٦٢ اللطيفة السابعة « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة » إلى قوله « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »
- ١٦٣ اللطيفة الثامنة « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .  
اللطيفة التاسعة « وهموا بما لم ينالوا » .
- اللطيفة العاشرة « قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » .
- ١٦٤ اللطيفة الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة .
- ١٦٥ اللطيفة الرابعة عشرة في أصناف النافقين وهم عشرة .
- ١٦٦ [ القسم الرابع ] « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » إلى آخر السورة .
- ١٦٨ التفسير اللفظي لهذه الآيات .  
« فاستبشروا ببيعكم الخ » .
- ١٦٩ « إن إبراهيم لأواه حليم الخ » .  
١٧٠ « وضاعت عليهم أنفسهم الخ » .
- ١٧٢ « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار الخ » .  
« فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون الخ » .
- ١٧٣ ذكر مقالة أدرجت في الجرائد تناسب هذا المقام .
- ١٧٦ الإسلام والاستعمار وسبب تأخر المسلمين [ المقالة الأولى ] وفيها الأوامر التي صدرت في بلاد هولانده  
وتلك المقالة كتبت قبل إلغاء ذلك الأمر ومعاملة المسلمين بالحسنى .
- ١٧٧ بيان أن المسلمين لا يتسنى لهم أن يعيشوا مع أمم أعلم منهم فلا بد أن يسادوهم .
- ١٧٨ [ المقالة الثانية ] خطاب إلى أمراء الإسلام المستقلين ومن هم تحت سيادة الأجانب وإلى جميع زعماء  
الإسلام وعظماؤه .
- ١٧٩ للصلحون في الإسلام اليوم [ المقالة الثالثة ] .
- ١٨٠ [ المقالة الرابعة ] تهافت الآراء في بلاد الشرق ولا سيما في بعض البلاد الإسلامية .
- ١٨١ حديث مع قاض شهير . وذلك أن المؤلف كان يقرأ الرسالة القشيرية مع عالم فرنجي أمره أستاذه  
الألماني بذلك . وقد حضر لزيارة العالم الفرنجي قاض مشهور في مصر بالتأليف ، وملخص الحديث :

أن القاضي يحقر الديانات وإن لم ينطق بذلك ، والمؤلف يوجب مزج العلوم بالدين والماضي بأبي ذلك ثم إنه خضع لحجج المؤلف .

١٨٢ اعترف القاضي الأهلئ المذكور بأنه مقتنع ولم يقنعه أكبر عالم في مصر قبل ذلك ، حديث الإمام الغزالي إذ يذم علماء الدين في زمانه ويصفهم بأنهم شرّ من الشياطين لصدّهم الناس عن هذه العلوم المعروفة الآن في أوروبا وأمريكا ، وذلك في مقالة عنوانها [ الإسلام والاستعمار ] .

مخاطبة المؤلف للإمام الغزالي يقول له المسلمون اليوم هم لا يزالون كما تركتهم لا يحبون إلا علم القضاء والمهامة والراغبون في العلوم الأخرى قليل . الواجب على المجالس الشورية .

١٨٣ [ المقالة السادسة ] هل في الإسلام نابغون ؟

١٨٤ ذكر ماجا . في الجرائد سنة طبع هذه السورة أن ملك الأفغان كان قد أقفل مدارس البنات فاستغنى علماء مصر والمهند فافتوا بأن الأثنى كالدكر ففتح للمدارس لمن ثانيا .

١٨٥ بيان أن تقسيم الأعمال مأخوذ من الآية بطريق الاستنتاج بل بطريق النص ، وفي هذا ذكر المعنى اللغوي للتفقه وهو غير الاصطلاحى المعروف ، وبيان ما يدل من ألفاظ العلوم وهي خمس الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة .

١٨٦ أقوال السلف في هذه الألفاظ وأن الفقه كان يطلق على تعدد نعم الله وعلى ما به الخوف منه الخ .

١٨٨ من هم الأولى أن يسموا علماء في الإسلام .

١٨٩ منافع للرجان النبات في البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر ونحوها في قاع البحر من ٣٠ قائمة إلى ١٣٠ ويفوس الإيطاليون عليه والفرنسيون والأسبانيون وبيان النفود التي كسبوها في بعض السنين وللمسلمون نافعون .

١٩٠ ذكر أن الطعومات واللبوسات والجواهر من حشرة برية ودودة وحيوان بحري الخ .

١٩١ نقل الكلام في فروض الكفايات من كتاب [ جمع الجوامع ] وشرحه .

١٩٢ أيهما أفضل : الملك أم العالم ؟ ، نقل كلام المؤرخ الشهير ( سيدو ) الفرنسي الذي اجتهد في إظهار علوم العرب وأنهم هم الذين أناروا أوروبا .

١٩٣ ذكر أنهم ملكوا من نهر ( التاج ) إلى نهر ( الكنج ) وأنهم بعد العزّ وللك لزموا جزيرتهم كرتة أخرى .

حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم الباطنية عند الفرنجة .

وصف للدين العربية .

١٩٤ ذكر من اشتهر من علماء العرب وبيان أنهم أعلم من الترك ومن الصين بعد البحث الطويل وانتقال علمهم إلى الهندستان بواسطة البيروني ، وإلى المغرب بواسطة الطوسي ، وإلى العثمانيين أيضا ، ثم أهل أوروبا بعد ذلك ، وذكر أن العرب هم الذين أيقظوا أوروبا من الجهل وهكذا نشر علم العرب بين أهل الصين ( كوشيو كنج ) ، الكلام على العلوم الطبيعية عند العرب .

١٩٥ مبحث علم الكيمياء عندهم ، مبحث علم النباتات عندهم أيضا ، وكذا المادة الطبية والاقتصاد الزراعي .

١٩٦ مبحث في علم الطب عندهم وللدرسة اليونانية العربية والفخر الرازي وابن سينا .

- ١٩٧ مبحث في عدم اقتصار العرب على شرحهم فلسفة أرسطاطاليس وتكذيب العلامة (سديو) المذكور علماء الفرنجة القائلين إن العرب ليس لهم إلا النقل عن اليونان .
- ٢٠٧ بيان أن الله ليس عن خلقه غافلا ، ولذلك حفظ في كتب للتقدمين معنى التفقه لعرفه في هذا الزمان ، كما أنه جعل بعض الحشرات على هيئة حصة ليكون هذا الشكل وقاية لها يصد عنها الطيور التي تصطادها
- ٢٠٨ إذلال المسلمين سابقا للعلماء كابن رشد بصقوا في وجهه ونفوه فلذلك هرب العلم إلى أوروبا من بلاد الاسلام وصار الناس يقرءون التصوف وحده ولكن في عصرنا لن يقدر أحد أن يقاوم للفكرين لأن الأمم كلها استيقظت وللمسلمون أذبحهم الدهر ووعظهم .
- ٢٠٩ ملخص التفقه في الدين قد جاء في أول سورة يونس .
- [الوجه الثالث] ختم الله التوبة بأنه جاء ثلثا رسول من جنسهم الخ وأول سورة يونس فيها مثل هذا
- ٢١٠ تكملة الكلام في مناسبة آخر سورة التوبة بأول سورة يونس .
- الفقهاء في الماضي والحال والاستقبال . الفقهاء في عصر الصحابة . الفقهاء بعد الصدر الأول . الفقهاء في زماننا .
- ٢١١ آثار ماتقدم في الإسلام . بقية نظرات الفقيه في سورة يونس .
- ٢١٢ نظر الفقيه في مستقبل الزمان في سور أخرى من القرآن كسورة هود ، وكيف يفهم استواء الله على العرش ؟ وما الفرق بين عرش ملك الملوك وعرش أولئك الملوك ؟ ويفهم معنى كون الله آخذا بناصية كل دابة ومناسبتها لتوكل هود وما مثال هذا في الكشف الحديث . وذكر الفراش ذي الأجنحة التي تشبه أوراقا جافة أو التي تشبه غصنا ضخما على شجرة عتيقة أو الدود اللؤلؤ الظاهر الباهر لأن طعمه كربه فكان ذلك وقاية له . فهذه أخذ الله بناصيتها فهكذا يأخذ بناصية الإنسان لاسيما الأنبياء .
- ٢١٣ بيان أن من درس علوم الحيوان وأتقنها فهم هذه الآية حق فهمها . وبيان أن الفقيه في مستقبل الاسلام ينظر فيها في موسوعات الفرنجة من الحكم السجبية وبموجب كيف كان أكثرهم لا يتعجب إلا من نفس السنتة ثم لا يتعجب من الصانع ، وذكر مسيراء الفقهاء الاسلاميون في سورة يوسف بعد سورة هود عليهما السلام ذكر ما يراه الفقيه في سورة يوسف ولم قال « آيات للثقلين » .
- ٢١٤ بيان أن القصص للموع غير الآيات المشاهدة أو المقولة ولكل أساس مذاهب في العلم ، فمنهم الذين يستمعون ومنهم الذين يفكرون ؛ فللأولين قصة يوسف وغيرها ، وللآخرين آيات السموات والأرض التي هم عنها معرضون .
- بيان أن بعض الآيات الكونية كغرائب الازديت في نظام الأوراق على النبات اختص به علماء هذا الفن ، وأن نجاة الحيوان بسبب لونه كما تقدم لم يظهر إلا في زماننا ظهورا واضحا وهذا يفهم من قوله تعالى « إن في ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام ولم يقل للثقلين الخ .
- ٢١٥ نظرة الفقيه الإسلامي في سورة الرعد بعد سورة يوسف .
- ذكر القطع الثلاثية التي تذكر في قوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » وسترسم هناك وبيان أنها مشتملة على مسدسات كل مسدس فيه ست مثلثات كل مثلث منها متساوي الزوايا كل زاوية منها (١٢٠) درجة .
- ٢١٦ نظر الفقيه في سورة إبراهيم عليه السلام ، وأن موسى ذكر قومه وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهكذا نبينا في الأمرين معا .



الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

الشمس علي عجائب بين المكنون وغريب الألبان باهراً

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوي جوهرى

للمدرسة بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقاً  
مع الله المسلمين بحياة آمين

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر

بباشرة محمد بن عمران

« إن في ذلك لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »  
( قرآن كريم )

## بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سورة یونس مکیة ، وهی تسع ومائة آية  
وهی سبعة أقسام

[ القسم الأول ] فی دلائل معرفة الله تعالى والیوم الآخر ونعيم الآخرة من أوّل السورة إلى قوله  
« أن الحمد لله رب العالمین » .

[ القسم الثانی ] فی أدلة مختلفة علی التوحید من النظر فی النفس والنظر فی القرون الخالیه ، من قوله  
« ولو يجعل الله للناس » إلى قوله « فننبئکم بما کنتم تعملون » .

[ القسم الثالث ] فی أدلة البعث وأحوال البعثین من قوله « إنما مثل الحیة الدنيا » إلى قوله « وذلّ  
عنهم ما كانوا یفترون » .

[ القسم الرابع ] فی إثبات النبوة وتقريع الجاهلین وتوبيخهم مع أدلة إثبات الربوبية من قوله  
« قل من یرزقکم من السماء والأرض » إلى قوله « بما كانوا یکفرون » .

[ القسم الخامس ] قصة نوح علیه السلام من قوله « وائل علیهم نبأ نوح » إلى قوله « كذلك نطع  
على قلوب للمتدین » .

[ القسم السادس ] قصة موسى وفرعون من قوله « ثم بئنا من بعدهم موسى » إلى قوله « فبما كانوا  
فیه یختلفون » .

[ القسم السابع ] فی تقرير ما تقدمت کله من القصص والدلائل - من قوله « فإن کنتم فی شک مما  
أنزلنا إلیک » إلى آخر السورة .

## ( الْقِسْمُ الْأَوَّلُ )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آر • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ • أَ كَانِ لِلنَّاسِ حِجَابًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِذْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ • إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ • إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ • هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ • إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ • إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ • دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

اعلم أن أول هذه السورة كالتميم لآخر السورة السابقة فإن آخر تلك يرجع إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم :

(١) أرسل من العرب . وهو روف رحيم بالمؤمنين .

(٢) وحى الله وحده نوكه . (٣) ثم وصف الله تعالى بأنه رب العرش العظيم .

وفي أول هذه السورة :

(١) أنه ليس من عجب أن يرسل الله للناس رسولا منهم وهو متمم للأول من السورة السابقة ، فكأنه يقول إنه ليس للعرب خاصة بل للناس عامة ، وكأنه من العرب هو من سائر الناس فهو لهم مرسل .

(٢) وأنه يبشر الذين آمنوا أنهم لهم منزلة رفيعة عند ربهم وهذا في مقابلة الأمر الثاني في السورة السابقة وهو أنه روف رحيم بالمؤمنين .

(٣) ثم وصف الله بأنه استوى على العرش وهو في مقابلة الأمر الرابع هناك .

(٤) وقوله «إليه مرجعكم جميعا» يفيد الوجدانية الاستفادة من اختصاص التوكل به ، ثم إن هذه السورة جاءت بعد الأفعال والتوبة اللتين اختصنا بالقتال والتزوات وقسمة الغنائم وذكر المنافقين ووعيدهم وما حكم عليهم به من العذاب والتوبيخ والتفريع ، وفيها ذكر الصدقات وقسمتها على للمستحقين فهما للسائل الفقهي والأحكام العملية فناسب أن يؤتى بعدها بما يغذى العقل من الحكمة والعلم فهناك عمل إسلامي وهنا علم حكيم ولذلك ختمت سورة التوبة بأن الله ذو العرش العظيم توطئة لما سيذكر في أول هذه السورة من الجلال الإلهي والحكمة العلية وذكر الشمس وضيائها والقمر ونوره وأقسام منازلها ومعرفة عدد السنين والحساب واختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والمعجائب للصنوعة ، والارتقاء من ذلك إلى ترقية الأرواح الإنسانية بهذه المعجائب النورية والازعاج عن العالم الكثيف والاطمئنان بالعالم اللطيف ، فمن الناس من يكفي بالجلجات الجارية أنهارها ، ومنهم من يرتقى إلى سبحات الجلال ومقامات السلامة من اللادة وتغيراتها ثم يرتقى إلى مقام الحمد الذي تنغذى النفس فيه بالمعارف العلية ومعرفة ترتيب الكائنات ونظامها .

#### تفسير الألفاظ

(الر) قد عدت حكمة هذه في أول سورة آل عمران واستبان هناك سرّ الحروف التي في أوائل السور وكيف كانت ١٤ وجعلت في أوائل سورة وكيف نوعت إلى أحادية وثنائية وثلاثية الخ ، وكيف كان عدد ٢٨ من الأعداد الثامنة وهو مما له علاقة بتشريح كثير من الحيوانات الفخرية وفقراتها وكيف كان في ذلك رموز وإشارات ثلاثية عقول الأمم التي نزل القرآن عليها لاعتيادها الرموز والإشارات في الكتب السماوية والعلوم القدسية في نظرهم ، وكيف اتصل الكلام من ذلك إلى ماهو أم وأكل من حيث إن اللغة العربية النازل بها القرآن متبقي إلى آخر الزمان لمناسبتها للنازل الفلكية والفقرات الحيوانية وبعض الأحوال الطبيعية وكيف وافق ذلك رأى مؤلف ألماني في روايته مستنتجا ذلك من تغير اللغات وثبات لغة العرب لبقاء القرآن بها فارجع إليه إن شئت ( تلك آيات الكتاب ) أي الآيات المذكورة الآتية في هذه السورة وما تقدمها ( الحكيم ) من الحكمة فهو ذو الحكمة ، أو هو قد وصف بوصف من تكلم به قال الشاعر :

وغريبة تأتي للوك حكيمة قد قلنا ليقال من ذا قلها

وهو الحاكم في الاعتقادات وحكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى الخ وبالجنة لأهلها والنار لأهلها (أكان للناس عجبا) استفهام إنكار للعجب وعجبا خبر كان واسمها (أن أوحينا) والعجب حالة تعمرى الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة ، وقد كانوا يقولون [ العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ] (أن) هي الفسرة (قدم صدق) سابقة ومترلة رقيقة سميت قدما لأن سبق بها كما سميت النعمة بدا لأنها تعطى باليد وأضيفت للصدق لتحققها وفي ذلك تنبيه على أنهم ينالونها بصدق القول والنية ( لسحر مبين ) أو « لساحر مبين » أي « أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم » فلما جاء بالوحي وأندرم قال الكافرون الخ (استوى على العرش) استعلى بالقهر والغلبة كما جاء في آية أخرى « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه » والعرش إما بمعنى الملك وإما بمعنى البناء ، فكل بناء يسمى عرشا وبانيه يسمى عارشا ، قال تعالى « ومن الشجر وما يعرشون » أي يبنون وقال في صفة القرية « فعي خاوية على عروشها » والمراد أنها خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوطها « وكان عرشه على الماء » أي بناؤه (بالقسط) أي بجدانهم وقيامهم على العدل في أمورهم وذلك لا يتم إلا بإيمانهم (الحكيم) الماء الحار (الشمس ضياء) ذات ضياء (والقمر نورا) ذا نور وما باللات يسمى

ضروا وما بالدرى يسمى نورا ( وقدّره منازل ) أى القمر وإنما خصه لأن سيره أسرع وبه يعرف انقضاء  
 الشهور والسنين والشرع اعتبر الأهلة أى قدّره ذا منازل ( لتعدوا عدد السنين والحساب ) حساب الأوقات  
 من الأشهر والأيام فى معاملتكم وتصرفاتكم ( إلا بالحق ) ملتبسا بالحق مراعىا فيه مقتضى الحكمة ( بفصل  
 الآيات لقوم يعلمون ) إذ لا يتفهم به سواهم ( اختلاف الليل والنهار ) مجيئ كل واحد منهما خلف الآخر  
 ( وما خلق الله فى السموات والأرض ) من أنواع الصور والأشكال والمعجائب التى لا حصر لمددها ( يتقون )  
 العواقب ( لا يرجون لقاءنا ) لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وغرامهم بالمحسوسات عن العقولات ( ورضوا بالحياة  
 الدنيا ) لغفلتهم عن الآخرة ( واطمأنوا بها ) سكنوا اليها مقصرين مهمهم على لذاتها وزخارفها ، أو سكنوا فيها  
 سكون من لا يرجعون عنها فبنوا شديدا وأملوا بعيدا ( والذين هم عن آياتنا غافلون ) لا يتفكرون فيها  
 لانهما كهم فيها بضادها فهم جامعون بين الحسنيين : الانهماك فى الشهوات والغفلة عن عجائب الآيات  
 ( بما كانوا يكسبون ) بما واطبوا عليه وعمرنوا عليه من العاصى حتى صار سليقة لهم ( يهديهم ربهم ليعلمهم )  
 أى بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدى إلى الجنة أو لإدراك الحقائق ، ثم استأنف فقال ( نجري من تخلفهم  
 الأنهار ) حال كونهم ( فى جنات النعيم ) وقوله ( دعواهم فيها سبحانهك اللهم ) أى دعاؤهم لأن اللهم نداء لله  
 ومعناه يا الله إنا نسبحك تسبيحا ( ونحيتهم ) ما يحى به بعضهم بعضا ونحية اللائكة إياهم ونحية الله أيضا لهم  
 ( فيها سلام ، وآخر دعواهم ) دعائهم ( أن الحمد لله رب العالمين ) أى أن يقولوا ذلك وأن تحففة من التوبة ،  
 انتهى التفسير .

هذه الآيات التى فى هذه السورة التى تقدمتها آيات القرآن الذى نزلت فيه الحكمة وحكم فيه بين  
 الحق والباطل والضلال والهدى .

يا عجبا للناس كيف يعجبون منا أن أرسلنا رسولا منهم لينذرهم أجمعين ويبشر المؤمنين ؟ أظنوا أن العلم  
 والحكمة والوحى تابعت لآل والبنين فلكل وجهة هو مولها .

أليس الله بأعلم بمن استعدّ لآلم ومن حرم الحكمة ؟ ها ضدان لا يجتمعان ، وكيف ينزل الوحى إلا على  
 المستعدّ له ؟ وليس الاستعداد بالعظمة والجاه ولا بكثرة الأتباع ، وإنما هو استعداد فى القلوب وعطاء من علام  
 الغيوب ، فكيف إذن يعجبون بمن أوحينا اليه لينذرهم ويبشر المؤمنين أن لهم منزلة سامية ومقاما رفيعا ومجدا  
 يوم يلقون ربهم ، فلما أرسلناه اليهم قال الكافرون إن ما جئت به سحر مبين ، إن هذا ليس بسحر بل هو حق  
 قام عليه البرهان .

أليس ربك الله الذى خلق السموات والأرض فى أزمان متطاولة عددها ستة وسميت أياما واليوم عند  
 كل محسبه .

#### فصل فى بيان قوله تعالى « ستة أيام »

فإذا نظرنا لأهل الأرض رأينا اليوم عندهم عبارة عن دورتها مرة واحدة حول نفسها وكانت هذه  
 للدة معتبرة فى أزمان أخرى أنها بسبب سير الشمس حول الأرض كل يوم وليلة من الشرق إلى الغرب ،  
 فلما تبين بطلان هذا استقرار الأمر على أنه بسبب دوران الأرض على محورها نفسها ، فإذن أهل العقول  
 مستعدون أن يقبلوا أن يكون اليوم مقدّرا بمقدار سير كوكب حول كوكب آخر ، وبناء عليه لو اعتبرناه  
 كذلك ونظرنا لكوكب من الكواكب الثابتة فإنه قد يتمّ دورته فى مئات السنين بل فى آلافها ومئات  
 الآلاف وآلاف الآلاف كما تقدم فى مواضع من هذا التفسير ، فإذا قرأنا فى القرآن « وإن يوما عند ربك  
 كألف سنة مما تعدّون » وقرأنا « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ونظرنا فى علم الفلك الحديث

فإننا نقول إن اليوم إذا اعتبرناه من هذه الناحية وإن لم يكن عندنا كذلك والعقل الإنساني قبل ذلك سابقا قلنا إن اليوم قد يكون آلاف الآلاف من السنين ، وإذن تكون تلك الأيام المذكورة في القرآن لتفتح العقول إلى البحث ، فإذا سمع الناس أن الله خلق العالم في ستة أيام صدق الجهلاء المؤمنون وكذب وشك أكثر المتعلمين وتركوا الدين وأصبحوا في حيرة وفي شك من ليل الجهالة مظلم ، ثم يبحث الحكماء منهم والصابرون في تحقيق ذلك فتكون نتيجة ذلك معرفة علم الفلك ، فهو يبحث عن عقيدته عسى أن يجد لها مصدقا من العلم ولو بالتأويل فينتهي الأمر أن الأمة قد ظهر فيها عالم بهذا العلم ، وهذا هو مقاصد الديانات أن تكون الشكوك مبدأ للباحث ، والبحث يولد الحكمة والفلسفة وإذن يخرج النابغون في الأمة ، فالنابغون من هذا الباب خلقوا ، ومن عش الشك درجوا ولا مفر من هذه الباحث في الدين ليخرج علماء مختلفون في علوم نافعة للأمم .

واعلم أي قد وفيت هذا المقام حقه في أول سورة الأنعام فلا أعيدنه هنا وأبنت هناك كيف كانت تلك الأيام الستة وساعد على ما ذكرناه هناك آيات كثيرة من القرآن فارجع إليه إن شئت .  
واعلم أن الآية هنا أفادت أن خلق السموات والأرض في ستة أيام كان متداولاً معروفاً عند الناس بدليل التعبير بالاسم للوصول ولا يكون الوصول إلا حيث تكون الصلة معروفة والصلة خلق السموات والأرض في ستة أيام .

أقول : إن هذا كان حقيقة معروفاً متداولاً عند اليهود والنصارى المذكورين في أوائل التوراة فكانت هذه الجملة شائعة عند رجال الدين ، ولأنقل لك ملخصها من نفس التوراة .

قال في الإصحاح الأول من سفر التكوين : في البدء خلق الله السموات والأرض ثم شرح بعد ذلك النور والظلمة والليل والنهار ، وأن الأرض كانت خربة مظلمة وروح الله ترف على وجه الماء . وقال إن الماء خلق الله فيه جلداً لما فوقه صار سماء ومنه للسما والصبح والماء الباقي صار تحت السماء فاجتمع في مكان واحد وبقي الأرض صار يابسا وأبنت الأرض عشبا وبقلا وشجرا وجعل الله في السماء القمر والشمس والنجوم ، وجعل في الماء زحافات ذات نفس ، وخلق طيرا فوق الجبل وتنانين كبيرة والحوانات المائية والبهائم والوحوش . ثم خلق الإنسان على صورة الله فسلطه على سمك البحر وطيور السماء وعلى البهائم وجعل الإنسان كبيره ذكرا وأنثى .

ثم ختم الإصحاح بما نصه [ورأي الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا وكان مساء وكان صباح يوما سادسا] وقد كانت الملخص الذي ذكرته لك مقسما على الأيام الستة اختصرته بحفاة التطويل عليك ، وعلى ذلك كانت الأيام الستة معلومة مشهورة من التوراة المتعارفة بين الناس فلذلك ذكرها القرآن بالاسم للوصول .

فصل في قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر »

أي خلق الله السموات والأرض في أزمان متطاولة وأحوال متغيرة عدتها ستة وسماها أياما . ومجرد الخلق ليس تمام المقصد وإنما أهم الأمور نظام الملك وإحكامه وحسن هدايته ، لذلك عطف بين الترتيب الذي ذكرى إشارة لتباعد ما بين المرتبتين : مرتبة الخلق ، ومرتبة إدارة الشؤون ونظام الأمر ، فقال ثم استوى على بنائه الذي بناه بالتسطيح والنشكيل بالأشكال ورفع السمك ونظام السكرات وإدارتها وتنظيم ما عليها من مخلوقات وحساب دوراتها ونسبتها إلى غيرها ونظام أيامها وشهورها وسننها وقبر ذلك ، وهذا على اعتبارنا أن العرش هو البناء ، أو يقال ثم استوى على الملك الذي شكله في الوجود وذلك الملك كالفضول الأربعة

وللمادن والنبات والحيوان والإنسان وجميع ما خلق الله في الأرض والسماء من الصور والأشكال على اعتبار أن العرش عبارة عن الملك والملك عبارة عن المخلوقات والمغنيان بثولان إلى مقصد واحد مع فرق دقيق .

فصل في قوله تعالى « يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه »

أي يتدبر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته وهيبت بتحركه أسبابها وينزلها بقدر ، والتدبير تنزيل الأمور في مراتبها وعلى أحكام عواقبها لتلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي ، فهو يدبر أحوال الخلق في ملكوت السموات والأرض فلا يحدث في العالم السفلي ولا العلوي حادث إلا بتدبيره ، وقوله « مامن شفيع إلا من بعد إذنه » أي لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة في تدبيرهم ، فليس يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم ، وفي هذا رد على الكفار القائلين بشفاعة أصنامهم .

وتدبير العرش للذكور هنا يقرب منه ما سيأتي في سورة هود عليه السلام « وكان عرشه على الماء » فالعرش هنا مقرون بالتدبير وهناك فوق الماء وللمنى متقارب ، فإن معنى الماء هناك ما أشار له الله تعالى في قوله « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » إلى قوله « كذلك يضرب الله الأمثال » فقد جعل الماء هو الذي يبقى في الأرض لنفع الزرع والضرع والإنسان وقد زرع عنه الزبد فصار جفاء وجعل مثلا للقرآن والعلم . وجاء في حديث البخاري « مثل ما بعث الله به من العلم والهدى كتل القيث الكثير أصاب أرضا الخ » فصرح صلى الله عليه وسلم بأن الماء مثل للعلم . وهكذا جاء في سورة البقرة « أو كصيب من السماء الخ » فجعل القرآن هناك كالنظر النازل من السماء وعليه صار الماء هنا هو العلم والحكمة والتدبير ، فافهم هذا القام نجد أن قوله هنا « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » نظير قوله « وكان عرشه على الماء » فهنا يدبر العرش بالحكمة والعلم ، وهناك كان العرش على الحكمة والعلم ، وأيضا إن المخلوقات على أقسام : فمنها ما هو خير محض ومنها ما أكثر خيره ومنها ما قل خيره أو عدم ، والقسمان الأخيران لا وجود لهما إلا في مخيلات الناس والأولان موجودان ، وزى المخلوقات الطبيعية من هذا القبيل كالإنسان والحيوان وأعم هذه المخلوقات وأظهرها الماء ، فيه حياة النبات والحيوان والإنسان والطهارة ، ومع هذه النعم الجليلة يفرق فيه عالم نافع وناسك صالح ومحجوز مسكينة وخرق السفن ، وهذا الشر القليل اقتضت الحكمة أن يحتمل للخير الكثير ، فالماء مثل للعلم والحكمة ومن الحكمة أن يضطر الضرر القليل في جانب النفع الكثير ، فعرش الله مبنى على الحكمة ومن الحكمة ألا تترك هذه المخلوقات الطبيعية وأن يتحمل الناس ما يصيبهم من الآلام في جانب النعم الكثيرة وأيضا إن هذه العوالم الأرضية خيرها أكثر من شرها فلذلك بقيت وما أبقاها الله إلا لهذه الحكمة الظاهرة في الماء السكونية في كل مخلوق مادي .

فهذا من لطائف التعبير بلفظ الماء الذي استوى العرش عليه ، فكأنه سبحانه يقول اقتضت حكمتي أن أدبر الأمور على الخير المحض وعلى ما غلب خيره لأن من ترك الخير الكثير لشر القليل باء بالجهالة ورجع بالندامة وهو حسير ، فما أجمل التعبير بالماء هناك ، فتدبير العرش هنا للعامة وللعلماء ، وكون العرش على الماء هناك للغواص وللحكاه « وما يقلها إلا العالمون » وما أبدع هذا التعبير ليرضى للفكرين وليتبع الجاهلين وكأن قول الله « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » رمز إلى حكمة الحكاه في هذا القام ، فإنه لا يبقى في الوجود إلا ما غلب نفعه والماء كذلك فلذلك مكث في الأرض ، وهذا القام معانيه في الحكمة مسطورة ، ومقاصده فيها مبرهن عليها ميسورة ، فانظر كيف أشار الله في القرآن بلفظ الماء إلى غاية الحكمة ونهاية

الغلة فرمز بلقاء إلى ما أطول به العلامة ابن سينا في كتاب الإشارات وشرح السراج كلارارى والطوسى بأطول العبارات ، ولكن نألف ما أجمل الحكمة والفلسفة إذا تجت في كتاب سماوى ورمز لها في الوحي النبوى ، فقه در الحكمة الدينية والمعلوم النبوية والآراء الحكيمية .

فانظر كيف اتفق العلم والدين والإيمان واليقين ، وإذا طالت الحياة وكتبت في سورة هود لا أذكر من هذا شيئا إن شاء الله ، وإنما أحبك على ماسطرته هنا ، فافرح بنعمة الله وبهجة العلم وكن من الشاكرين .

جمال في إشراق شمس المعارف من قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر »  
 وإنما اخترت لك هذا العنوان في هذا اللقاع لأنك سترى فيه بهجة الناظرين وقرّة أعين المفكرين وزينة الدنيا والدين وجمالا يأخذ بالألباب وحسنا قصرت عن أفقه زينب وليلي والرباب وحكمة تسمي الحكما وتدعش الأدباء .

### حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمتسج

ذلك أنه بينما أنا جالس أرتب مسودات هذا التفسير لأفدتها للطبع إذ حضر صديق لي فقال :  
 يذكر الله تدير الأمر ويقول في بعض آياته « يدبر الأمر بفصل الآيات لعلمكم بلقاء ربكم توقنون »  
 فهل لك أن توضح لي هذا التدبير بشكل يفهمه الخاصة والعامة وأرجو ألا تخجلني على علم الفلك وطبقات الأرض وما أشبه ذلك ، وإنما أنا أحب أن تحضر لي موضوعا واحدا يكون فكاهة للتفكهيين وزينة العاقلين وسمو الجالسين بحيث أحدثت به إبنى وأمر به جليسي وأنتفع به في حقل ويستعمله نجلى ونسير به الكهرياء وتستعين به السيارات ويشقى للرضى وتحتاج اليه الأندية المدية وأكثر أهل هذه الكرة الأرضية ، تعرضت عليه أواعان النبات والحيوان فلم يرقه ما أقول ولم يعجبه للقول ولا للعقول ففكرت مليا وقلت قد وفقت على ضالك للنشودة وعرفت غايتك المحمودة خذ القول عنى واسمع التفصيل منى ، ذلك أن هناك شجرا لا يثبت إلا في (البرازيل) بأمریکا وفي (برنيو) وفي جنوب أمريكا وفي وسط استراليا وربما يثبت قليلا في جهات أخرى كإفريقيا ولكن أثره في كل مكان مشهود ، ثمرة ليست بما كولة كالنفاح ولا بمشروبة كمنقوع الاقحاح ولا بدواء كالسنا السكى وغيره من العقاقير ولا زيت كشجر الزيتون ، وإنما تستخرج منه مادة سائلة هي عذة للسافرين وزينة الكابيين وشفاء الرضى ومنتاع للقوين ، تسقى الحدائق والمزارع وتدفع النار عن المنازل ، لا يستغنى عنها مهندس ولا كاتب ولا يقوم بدونها درس مدرّس ولا حساب حاسب عمّت سائر طبقات للتعليمين ودخلت جميع الدواوين وجمالست الوزراء والأمراء وحافظت على قوة الكهرياء وكانت خير الحافظات للقاء قهى نور الله في أرضه وإشراق شمس حكيمته ومحجيب حكمه وبديع صنعته ، يحسبها الجاهل من سقط المنتاع وهي عند الحكماء نور أضاء سائر البقاع ، فلما سمع ذلك منى قال صف لي هذه الشجرة وصفا مدققا وبين أعمالها عمقنا ودع الإجمال وهات التفصيل ، فقلت هذه الشجرة عظيمة الحجم كبيرة الساق قد ألهم الله الأمم قديما فقبوا فقترتها السمبكة ووضعوا تحت الثقب إناء ينزل فيه سائل لبنى ، وذلك السائل يصير جامدا بعد نزوله في الإناء ، وهذه تسمى (كاوتشوك) باللسان الإفريقي (ربراترى) يعنى (شجرة الأستيك) كما قدمنا أو (مطاط) الأول بالفرنسية والثانى بالإنجليزية والثالث بالعربية .

وذلك أننا نشاهد في بلادنا وفي جميع المدارس والدواوين مادة تحافظ على حجمها دائما سواء أردنا مدها أم أردنا ضغطها فهي ترجع إلى حالتها الأصلية ، بها نحمو ما أردنا محمو كما كتبناه ونزيله وهي (الأستيك) المذكور فنراها في أيدي التلميذ والأستاذ والكاتب والحاسب وهكذا ، وهذه المادة بعد أن يلقوها



في الأواني يغلونها وينظفونها ثم يضعونها بين اسطواناتين من الصلب بهما تضغط وتصب قطناً شق وهذا هو الأستيك النقي الذي يكون في الصيف طرياً لزجاً وفي الشتاء صلباً ثابتاً .

إن منعمة هذا النوع خاصة بأسلاك الكهرباء ، وأنه يمنع انفلات أي ذرة منها فهو حافظها الأمين ، إن هذا النوع تمكن إذابته بمائل متخذ من (البترول) المعلوم ومع أحيل بذلك سمي إذن (الاستيك المحلول) وهذا منفعة في إطار العجلات التي تجري بها الدراجات (بيسكل) التي يركبها الناس اليوم ويحركونها بأرجلهم فإذا نضب ذلك الإطار أمكن رتق فتحة بهذه المادة التي هي في الحقيقة من مادته .

#### الاستيك والكبريت

هذه المادة القوية للتخنة من الشجرة إذا أضيف إليها مقدار قليل من الكبريت فهي التي تراها بين ظهرائنا وهذه لها خاصتان :

إحداها : محافظتها على حجمها . ثانياً : أنها أقوى مانع يمنع مرور الماء .

فبالخاصة الأولى تصنع منها إطار العجلات في الدراجات التي وصفتها هنا وفي العربات وفي السيارات التي هي باللسان الأجنبي (متكار) فهذه الآلات تصاح لركوب بهذه المادة وترجع الركابين .

وبالخاصة الثانية تصنع منها قفل الماء التي تحفظ على درجة الحرارة السكامة فيه والوسائد التي يكون حشوها هواء ، والأواني التي يعمل فيها للماء الحار ليستدفي بها المرضى بمقتضى أمر الطبيب ، وتصنع منها الأنايب التي في أيدي الرجال القامئين بإطفاء النار المشتعلة في المنازل والمدن والغرى ، وهكذا الأنايب التي تسقى بها الحدائق وتصنع منها (معاطف وأردية) تمنع المطر عن لباسها .

وهناك حال أخرى لهذه المادة ، وهي أن يضاف إليها من (٢٠) إلى (٣٠) جزءاً من مائة جزء من الكبريت ، وإذا ذلك تصبح ذات خواص وأوصاف مغايرة لسابقتها صالحة لأعمال غير أعمالها ، ذلك أنها مادة سوداء لامعة صلبة كصلابة قرن الحيوان ، وهذه تصنع منها مساطر ومقابس توضع في نهايتها أسنة الأفلام وتدخل في كثير من الزينة وحلية نوع الإنسان ، انتهى وصف هذه الشجرة ومنافعها وخواصها .

#### رسم شجرة الاستيك



شكل (١)

خلق هذه الشجرة قبل خلق الناس ووضع فيها هذه الخاصية ، ولما جاء هذا العصر قال أنتم لن تحفظوا ذرات الكهرباء إلا بهذه المادة وهي تقي فلا كبريت يحاطها ولا غبار يمتزج بها فاذن تحفظ الكهرباء للإضاءة والإشراق في كل مكان ، مدة الناس الأسلاك البرقية (التلغراف) في الأرض ولم يجد الناس شيئاً

ألا ترى رعاك الله عجائبها ؟ انظر ثم انظر كيف خصها الله بأرض دون أرض وجعلها في أمم دون أمم وانظر كيف جعل لها ثمرة غير مانعة ، نحن نأكل الفخر ونتم الورد ونأكل اللبن والفشدة من شجرة الفشدة للعلومة ونلبس من الكتان والقطن ، كل ذلك معروف مفهوم وإنما هذا له فائدة غير ما عرفناه وحكمة غير ما أدركناه ، فانظر كيف خزن الله هذه النعمة في الشجرة حتى احتجنا إليها ، علم الله أننا نحتاج إلى الكهرباء بعد آلاف السنين ، فماذا صنع ودبر ؟

لدها في البحر حتى عثروا على هذه المادة فحفظت الأسلاك البحرية من أضرار الماء لها فيها كان تواصل الأمم وتعارفها كما قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » وهمه إحدى دواعي التعارف ، أليس هذا هو التدبير ؟ يقول الله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ويقول « يدبر الأمر بفصل الآيات » فهذا من تدبير الأمر وهذا من تفصيل الآيات ، هذا بعض أنواع التدبير والتفصيل .

علم الله قبل أن يخلق حاجتنا إلى الأسلاك البحرية التي سيخلقها فدبر هذه الحكمة والحاجة المذكورة . دبر الله هذه المادة ووضعها في هذه الشجرة ، وخزن الفحم في أعماق الأرض ، ولما أراد ارتقاء نوع الإنسان علمه البيان وأرسله إلى باطن الأرض فاستخرج الفحم وجرت به القطرات وأدار الدوالب وسقى الأرض وحمل على ذات ألواح ودرر في البر والبحر واستخرج الكهرباء واحتاج إلى ما يحفظها فأرسله إلى تلك الشجرة فقررت عينه واستخرج منها ذلك السائل .

(١) فكان حافظ الكهرباء

(٢) ثم ألهمه أن يذيب تلك المادة فأصبحت رتقا لفتق العجلات في سفره .

(٣) ثم ألهمه أن يضيف إليها الكبريت قليلا فكانت ساقية لبستانه مطعنة لنار احتراق منزله الخ ما تقدم .

ثم زاد الكبريت فعمت المنفعة في الكتابة ونظام رسم الحرائط وجمال الكتب وزينة نوع الإنسان ، تبارك اسمك وتعالى جدك دبرت بحكمة .

(١) جعلت هذه الشجرة قليلة في الدنيا لأن كثرتها في الأرض معطلة للنافع بأثرة التجارة ، كيف لا وهل هي تشابه النخل محتاج إليه في حوز الرطب والتمر وما أكثر حاجتنا إليه ، أما هذه الشجرة فإنها وإن عمت الحاجة إليها فإن ما نستعمله منها لا يوازي عشر معشار ما نحتاج إليه من النخل وكثير من أشجار الفاكهة والزيت ، لذلك قات هذه الشجرات في الأرض .

(٢) ثم هي متباعدة في أقطار السكونة ليرحل الناس إليها ولم تقرب من تناول كل حي فهي كالعلم محرم منه من لا يستعد له وإن كان المعلوم مشاهدا محسوسا ولا يحظى به إلا من هم له مشوقون وبحصيله مغمومون ، إن هذا الإنسان خلق ليكون في حركة جسمية وعقلية أمد الحياة ، تباعدت مطلوباته لتكثر أعماله فتقوى روحه ويتعود الصبر والثبات ؛ فالحكمة في هذه الشجرة أشبه شيء ببعض الحكم في الحج ، جعل الله الحج ليكون من فضائل التدريب على فراق المألوف والتعرف بغير ما هو معروف والتناهي عن الكسل واللبادة إلى العمل والسعي لصفاء النفوس والمزودة لتجلى للناس معاني هذا الوجود .

(٣) كلما كان الشيء أشرف كان أعز مطلبيا وأغلى ثمنا وأبعد في طلبه كما نرى في الذهب والفضة والأحجار الكريمة وهذه الشجرة .

آراء نوع الانسان في أمثال هذا المقام

اعلم أن الناس في أمثال هذا الموضوع ثلاث طبقات :

(١) طبقة دنيا وهم العامة وكثير من أنصاف التعالين ينظرون الى مثل هذه المادة وأمثالها نظريهم الى ما يأنفون ولا ينظرون الحقائق السكامة فيه .

(٢) وطبقة وسطى وهم الذين يدرسون منافعها كما يدرسون منافع كل مخلوق .

(٣) وطبقة عليا وهم الذين تجلت مواهبهم ونظروا لهذا وأمثاله نظرة عامة محيطية ترجع الى التدبير العام والنظام الكلي أو تلك هم أعلى نوع الانسان وهم آباء والناس جميعا أبنائهم وسببتهم الى الناس كنسبة للوكة والأمراء الى عامة الشعوب ، فهؤلاء يقودون المفكرين في الأمم الى النظرات العامة الشارحة للصدور ولاحق هذا جاء الأنبياء بطريق الوحي ، فهؤلاء نظرهم كلي وحسبك ما نرى في القرآن من أمره للناس بالنظرات العامة ، وكلما قلت هذه الطبقة من أمة قلت سعادتها ، وكلما كثرت زاد ارتقاؤها ، هؤلاء هم الذين يدرسون هذا الوجود درسا يفهمون به التدبير العام ، وهذه الطائفة تقل في نوع الانسان كما قلت هذه الشجرة من بين الأشجار ولكن علمهم يعم الأقطار كما عممت منافع هذه الشجرة الأمصار .

هذا كله تدبير محكم منظم ، إن هذا الوجود كله ساعة منظمة وهيكلي محكم ، هذا الوجود كله لا فرق بينه وبين جسم الإنسان والحيوان من حيث الإيقان والنظام ، انظر كيف علم الله احتياج الناس في أسفارهم في عصرنا إلى ما يرتقون به فتق المجالات فوضع هذه الخاصية في تلك الشجرة . فكما نرى العين في الإنسان والأذن وبقيّة الحواس لانتم منفعتها إلا بالأيدى والأرجل والأحشاء وبقيّة الأعضاء وأعصاب الحس والحركة بحيث نرى هناك اتصالا بين اللغز وبين أطراف اليد والرجل وجميع الشعر ، هكذا نرى هنا ارتباطا وثيقا بين الناس وبين منافع الأرض في سائر الأقطار ، وهذه الشجرة من شواهد ذلك فهناك ارتباط الفهم بالكهرباء بهذه الشجرة بحياتنا بعلومها بمدارسنا بالشمس بالقمر بالكواكب .

كل هذه متصلات اتصال أعضاء أجسامنا ، هذا هو معنى قوله تعالى « ثم استوى على العرش » ، وقوله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وقوله « يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون » . انظر إلى قوله « يفصل الآيات » وانظر إلى أنه أتبعها بقوله « لعلكم بقاء ربكم توقنون » لماذا جعل هذه الجملة بعد التي قبلها وأتبعها بها ، أما تفصيل الآيات فيها هو ذا كثير في هذا التفسير ، أما الإيقان فلماذا يكون عقب ذلك ؟

#### الإجابة على هذا السؤال

يجب عالم البلاغة على هذا السؤال ويقول لما بينهما من الجامع العقلي أو الوهمي أو الخيالي إلى آخر ما تراه مسطورا في كتب البلاغة كالمفتاح للعلامة السكاكي وكتاب السعد الفتازاني وغيرها ، وهذه إنما تنفع للتلمين أثناء دراسة اللغة ولكننا نحن الآن نريد أن نبين ما يمس ذلك في عصرنا الحاضر : أي في القرن العشرين ، انظر إلى علماء القرن التاسع عشر فإنهم كانوا غالبا لا يفكرون في النظام العام باعتبار التدبير والإحكام بل باعتبار النشوء والارتقاء ، وكثير منهم من أنكسر صانع الوجود للنظم لسلك موجود لأن أنظارهم انحصرت على مادون النظام التام ، فلما أن بزغت شمس العلم في عصرنا ظهر في الأمم مجددون وحكماء مفكرون ، منهم :

(١) العلامة (إيلي دوسيون) في كتابه [ الله والدم ] الصادر سنة ١٩١٢ قال [ الفرضان اللذان يقوم عليهما مذهب الفالين بالانتخاب الطبيعي وانتقال الصفات المكتسبة قد قضى الأول ( سبنسر ) و ( ويسمان ) قضى الثاني ] وقال إن انتقال الصفات بطريق الوراثة لا أصل لها وبرهن على أن هذه المشاهدات المزعومة لا تقوم إلا على حكايات مختزعة لاتعلو قيمتها العلمية عن قيمة حكاية المرضعات ، ونرى أمثاله كثيرين في عصرنا أمثال الدكتور ( ادوارد هارتمان ) إذ قال : [ إن الذين قالوا إن هذا العالم وجد بلا قصد كلامهم من الأمور الموهومة التي لا أساس لها ، وعمل ذلك بأن الطبيعة ذات نظام ميكانيكي ، ولا يمكن النظام بلا قصد كما

لا يمكن القصد بلا نظام ، وكل ما لانظام له فهو مهمل في فوضى كالتبران المائعة والطبيعة التي يعلنون بها ليست كذلك [ اه .

وأمثال (لويز بوردو) إذ قال : [ يجب أن يعترف بأن هنالك قصدا مقصودا وروحا مدبرة لأنه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها فالقصد يظهر في تلازم الحوادث ويثبت به ] .

وأمثال الأستاذ (فون باير) الألماني في القصد قال : [ إذا كانوا يملنون الآن بصوت جهورى بأنه لا قصد في الطبيعة وأن السكون لا يقوده إلا ضرورة عمياء ، فأنا أعتقد أن من واجباتي أن أعلن عقيدتي في ذلك وهي أنى أرى أن هذه الموجودات تؤدي إلى أغراض ومقاصد سامية ] .

وأمثال (كاميل فلامريون) الذي قال . [ إن درس الوجود يجعلنا ندرك أن له نظاما مقررًا وغاية دفع به إليها ، إن التبصر الذي يظهر في النباتات والحشرات والطيور الخ وهي غائبة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها وامتحان للشاهدات في التاريخ الطبيعي يستتج منها أن في الطبيعة عقلا مدبرا ] .

وهكذا كثير من الحكماء ذكرناهم في غضون هذا التفسير كلهم نطقوا بمعنى هذه الآية « يدبر الأمر » وهذه شهادتهم طرّا ترجع إلى قوله تعالى « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » فعطف الجملة التي فيها الإيقان في سورة الرعد التي تناسب ما في هذه السورة ظهر أثره في هذا الزمان فإن العلماء الذين أتبعوا وجود مدبر للسكون رجعوا في براهينهم إلى هذا التدبير المحكم ، فالتدبير والتفصيل كما رأيت في الشجرة المذكورة هنا هو الذي أوردت اليقين واليقين أشرف من الإيمان وهو المذكور في قوله تعالى في سورة الأنعام « وكذلك ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من اللوقين » فلما سمع صاحبي ذلك قال : هل من علماء غير هؤلاء بحثوا في هذا الموضوع وأنى لهم اليقين كلسابقين ، قلت : قد كتب العلامة (ادمون برييه) في مجلة [العالم الحى] سنة ١٩١٢ ، قال إن ثقة الأستاذ (جينو) بتأثير البيئة (الوسط الخارجى) ضعيف جدا ، فإن هذه البيئات على مايقول لاتصلح لإيجاد أى تغيير ورأى ثابت ، فالبط وسائر الطيور المائية ترى بمنمة بأرجل ذات أصابع متصلة بششا ، فيظن أن هذه الأغشية قد أوجدها نوع معيشتها ولكن بالمعكس من ذلك في مذهب اللسيو (جينو) فإنه يقول بأنها وجدت لها مقدا بدون تأثير من الخارج وأخذ البط يعوم لأنه وجد له أرجلا مفضاة تصلح للوم ، فهذه الحيوانات قد أعدت من قبل للوم : أى أنها خلقت للوم قبل أن تستفيد تركيب أرجلها من اللوم .

(٢) وأيضا الأستاذ (بلوچر) الألماني الشهير قال : [ لم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال الصفات بالوراثة ] وأيضا قال الفزيولوجى الكبير (دوبوار بوند) [ إذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن يعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلفت لمجرد تعديل الحوادث المراد تعابليها وأنها هي نفسها من للفرضات الغامضة ] فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذه أقوال لأفهم لها معنى ، ما هي الصفات المكتسبة والوروثية ؟ هذا كلام غامض ، قلت : أنا قلت لك إن علماء القرن التاسع عشر وما قبله كانوا يقولون إن هذه الحيوانات يكتسب الفرع منها صفات الأصل ، وهذا أصل من الأصول الأربعة التي هي مذهب (داروين) .

(١) وهي أن الحياة ذات أطوار وتغيرات وانتقال من حال إلى حال .

(٢) وهذه التطورات تنتقل بالوراثة إلى النسل .

(٣) وأن الأحياء جميعها بينها تنازع البقاء .

(٤) وكلما كان الحى أتم وجودا وأقوى وأكل كان أسلح للحياة والبقاء والأضعف محكوم عليه بالقناء .

فهؤلاء العلماء في القرن العشرين نازعوا في بعض هذه القضايا ، ومعنى هذا أن المذهب الأول يقول : إن العالم لاصانع له وهذه التنوعات كافية في مقامه ، وعلماء هذا القرن الذين ذكرتهم والذين لم أذكرهم هم الذين يقولون كلا إن للعالم صناعا وبرهانه ما يشاهدون من نظام الحشرات والإلهامات والمعجائب كما شرحناه في هذا التفسير وهو مضمون قوله تعالى « ثم استوى على الرمش يدبر الأمر - هنا وقوله - يدبر الأمر يغصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم يوقنون » ثم قلت : وهذا ظهر أن هذه الدنيا ومن عليها من الناس أشبه بأمّ تربي أولادها ؛ فكما أن الأم يخلق لها التديان قبل خلق الولد ، والابن يخلق في الثدي قبل الولادة ، هكذا الناس خلقت لهم قبل أن يخلقوا هذه الحيوانات ، وهذه الشجرة التي نحن بسدد الكلام عليها وذلك من التدبير ويناسب قوله تعالى « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

هذا ، وسترى في سورة النحل والنمل والعنكبوت وغيرها من السور عجائب الحيوان وبدائع تلك الإلهامات والقوى التي أجمع حكماء عصرنا في الأمم كلها على دلالتها على حكمة نظمها ، وهكذا سترى في سورة اللذثر عند الكلام على قوله تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » إفاضة الكلام على بعض الحشرات اللاتي خلقت لتميش في أجسام الحيوان والإنسان ، فالناس حرم عليهم أن يأكل بعضهم لحم بعض لا بالقبية ولا بالأكل الحقيقي ، ولكن أحل الله ذلك للذرات صغيرة خلقها لتميش في أجسام أناس مستعدة للمرض وللوت لتخلو الأرض لعيرهم وتسلح بسكانها ، فلها شأنان : شأن أنفسها تميش وتنمو وتلد وتخلقها غيرها لتفهمنا قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا طائر بطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » فالتلبي هنا سيظهر أثرها في بعض أحوالها ، إذ تعيش هذه الحيوانات التبرية في أجسام الناس والحيوان ، وأما بالشأن الآخر فهي أنها أشبه بالشرطة الذين يكونون في المدن ليحفظوا النظام ويمنعوا تصادم اللارة في الطرقات والشوارع . هكذا هذه الحيوانات التبرية خلقت لتقلل من الإنسان والحيوان « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة » ولو كره الناس أجمعون ، وهناك ترى أن هذه أيضا من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو وإنما علمنا بعضها لأنه قال « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » فالذي نعلمه الآن مما شاء الله أن يعلمه للناس من جنوده .

واعلم أن هذا التفسير جملة الله مقدمة لهضة الأمم الإسلامية فهو أشبه بشدى الأم قبيل الولادة ، إذ يكون مستعدا لدرّ اللبن وكهذه الشجرة السهاء في بلادنا ( بالاسقيك ) وأيضا ( كوتشوك ) مأخوذة من كلمة فرنسية وتقدم ذكرها بالإنجليزية ، ويقال لها في بلادنا للصربية أيضا ( مطاط ) ، فكما خلقت هذه الشجرة قبل خلق الكهرباء وأفادتها هكذا ظهر هذا التفسير الذي سبق ظهور آلاف من قادة الإسلام في مستقبل الزمان وسيقرءونه ويكون لهم شأن في رقى الأمم الشرقية « ولتعلن نبأ بعد حين » انتهى ما أردت ذكره في هذا المقام .

#### فريدة في التدبير العام

إن التدبير العام نوعان : نوع لتدبير القوة ، ونوع لتدبير المادة ؛ فالنوع الذي هو لتدبير القوى ، فذلك أننا نرى غرائز حيوانية وعقولا إنسانية وقوى قدسية ، أما الغرائز الحيوانية فهي أدنى الدرجات أنها قد ألهمت جميع ما تحتاج إليه في حياتها وبناء مساكنها وتربية أولادها ونظام أعمالها .

ناهيك ما ترى من نسج العنكبوت ودقته ومسدسات النمل وهندسته وحرص الحشرات على تربية ذريتها سواء أكانت من التي تكفل تربيتها كالنحل والنمل أم كانت تموت قبل أن يفقس بيضها كما ترى في التاموس الذي ستعرف تفصيله في سورة اللذثر عند قوله تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » والجراد ودود القز

إذ الناموس لا يضع بيضه إلا في للسقعات والأماكن التي تكون مرعى خصيبا قدرته قبل استحكال قوتها .  
هكذا الجراد لا يضع بيضه إلا في أماكن خاصة وهي يدفنها في الأرض بحيث لا تسكون أبعد ولا أقرب من  
الوضع الذي يصح معه التفرغ في الأرض ، وهكذا سائر الطيور علمت وألهمت جميع ما تحتاج إليه في أنفسها  
وذرياتها ، وهذا التفسير قد جمع ما يكفي ذا اللب في مثل هذا ، وهكذا العلوم اليوم في الأمم المحيطة بنا  
تكفلت بهذا البيان وأعطت اليقين للمكبرين ، وهذا كما قال الله تعالى « قاررنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »  
وقال « سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » فهذا هو التقدير وهذه هي  
الهداية وبهذا وأمثاله يكون العلم واليقين .

#### العقول الإنسانية

أما العقول الإنسانية فإنها أرقى من الغرائز الحيوانية ، إن العريزة خاصة بعمل لا يحيد عنه ، ينسج  
العنكبوت ويصطاد بشبكته ويطير بنسيجه كما يطير الإنسان اليوم في الجو ويعمل له ما يشبه القنطرة ويبني  
مساكن من نسيجه . وهكذا مما ستراه في سورة العنكبوت مفصلا موضحا وهكذا غيره ، كل هذا لا يصل  
إلى درجة الإنسان ، فإن الحيوانات وإن كانت غرائزها محيية هي قاصرة ، أما العقل فهو أوسع نطاقا وأرقى  
وأقوم وأقوى فهو أعلى من العريزة ، ناهيك ما تراه اليوم من الإبداع والارتفاع والارتقاء .

#### القوة القدسية

أما القوة القدسية فهي أعلى من القسمين . فالعقل وسط بينها وبين غريزة الحيوانات ، ولعلك تقول  
أين القوة القدسية ؟ إنها خاصة بالملائكة وأنت عودتنا في هذا التفسير أن تجعلنا نلس الحقائق بعقولنا .  
العقل عرفناه والعريزة فهمناها ، أما هذه القوة القدسية فإننا لم نعرفها إلا نقلنا من كتب الديانات أو من  
كلام الفلاسفة ، قلت اعلم أن هذه القوة نعرفها نحن بأنفسنا ، ذلك أننا رأينا طائفة من هذا الإنسان لهم قوة  
غير القوة العاقلة وهي أشبه بغرائز الحيوان وغرائز الأمهات بالنسبة لأولادها ، قال هذا لم أنهمه فأوضحه ،  
قلت إن الأم والأب لهما غريزة أشبه بغريزة الحيوان من حيث المطف على ولدها ، إن للإنسان غرائزه  
كما للحيوان في الأكل وتربية الولد وغيرها ، ثم هو امتاز عن الحيوان بأن العقل ساعد العريزة في تربية ولده  
ولكن الطائفة الممتازة التي ألقبت إليها القوة القدسية أو بعض آثارها هم طائفتان : الأنبياء والتابعون ومنهم  
الحكماء ، فالأنبياء يتلقون الوحي عن الملائكة . ولا جرم أن هذا فوق متناول العقل .

ثم إن الأنبياء اليوم ليس منهم أحد على الأرض وإن الله عز وجل خلق في كل أمة من أمم الأرض  
أناسا استعدادهم خلق للعموم لا للخصوص ، فهم أبدا مغرمون بإسعاد المجموع أو بتعليمه يجدون ذلك  
في صدورهم ويحسون به في أنفسهم لا يقر لهم قرار ولا يكون لهم اضطراب إلا إذا جدوا في الأسفار وقطعوا  
القفار وركبوا متن البحار واستخدموا الكهرباء والبخار لنيل الأمانى والأوطار وإدراك المعالي وحوز العلوم  
ونفع العموم ، وهؤلاء ليهم ساهر ونهارهم عامل ، فهذه الحال لا تفارقهم ، وهذه الأخلاق لا تفادهم فهم  
مع العلم ومع أنهم أشبه بالأم الواهية على ولدها ، المولمة بقلدة كبدها ، ولكن هذه الصفة في هؤلاء الأشراف  
أعلى مقاما وأرفع منارا وأشرف مقصدا ومحتدا فلم تنحط إلى غرائز الحشرات ولا إلى عطف الأمهات من  
الآدميين والحيوانات بل إنها تعلو على العقل وتسخره فتجد تلك الموهبة تسوق العقول التي جاورتها  
في الأجسام التي حملتها فتحمل المتصفين بها على تحمل المصاعب وقطع السباب وإفراغ الجهد في استخدام  
العقل ، ذلك هو وصف التابعين في سائر الأمم والله لم يخل الأرض قديما ولا حديثا منهم ، وكل يظهر في آتته  
ما وفق له من أمر مادي أو معنوي ، كل ذلك لإلهام يلهمونه كإلهام الحيوان وعامة الإنسان ولكن هذا  
أعلى من العقل فهنا إضافة من الملائكة ، وترى الإلهام في الأمم المادية كأهل أوروبا يرجع إلى المادة

وفي الأمم التي قصرت همها على الأمور الروحية نبئت فيها فقط وكلامها إلهامه ناقص ، فأما الأمم الإسلامية التي ستظهر بعد هذا التفسير وأمثاله فإنها سيكون إلهامها جامعا للأمرين معا فلا يقفون عند الماديات كأهل أوروبا غالبا ولا على المعنويات والروحيات كبعض الأوروبيين وعامة أهل الهند فيكون الإلهام شاملا للأمرين نافعا في الروح والجسم والمعنى والمادة .

وهذا عرفت القوى الثلاثة : العزيمة والعقل والقوة القدسية ، وأن هذه القوة في عالم أعلى منا وتنزل على أفراد في الأمم المختلفة وتظهر على أيديهم . منافع للناس وسعادة مادية أو معنوية ، وأرقى هذه الطائفة هم الحكماء الذين يدرسون هذا الوجود وهم مغمومون برهيم وبنظامه وبنظام الأمم ، فوجود هؤلاء في الأرض دليل على أن هناك قوى أعلى منهم يستمدون منها إلهاماتهم وهم يبنون عليها سواء أعلموا ذلك كالأنبياء أم لم يمدوه بالحكماء وبعض التابعين .

فهذا هو النوع الأول من النوعين العامين للتدبير وهو تدبير القوة ، فظهور أناس في الناس امتازوا بقرة أرقى من غيرهم ، وعموم العقول في الناس وعموم الغرائز في الحيوان في ذلك كله معنى التنزل من السماء إلى الأرض يكون الوحي للأنبياء فيعلمون العقلاء وهؤلاء العقلاء يفكرون في الوحي ويذهبون مذاهب شتى لنفع الناس ، فهذه العقول كلها مسخرة لهذه اللوهمية القدسية ، ثم إن غرائز الحيوان والإنسان تحت ذلك كله مسخرة مطيعة كما سخر الله الإنسان فنفع الحيوان طوعا أو كرها ، ألا ترى أنه يقدم الطعام للثور وللفرس وأنه يزرع القطن فيأكله الدود . فهو ذا الإنسان سخر طوعا وكرها كسكل مخلوق .

وملاحظه : أننا نرى القوة القدسية ألفت شعاعا من العلم على العلماء التابعين للأنبياء ، وبالإلهام للتابعين والحكماء ، وبالقوة العقلية زرع الناس ونظموا الأرض فأكل الحيوان أردنا أم لم نرد ، هذا هو معنى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » في هذا المقام وهو الكلام على القوى الثلاث وبه تمّ النوع الأول وهو تدبير القوة .

#### النوع الثاني من التدبير العام : تدبير المادة

إن تدبير المادة أيضا داخل في قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » فكما رأينا القوى بمد أعلاها أسفلها ، هكذا رى المادة بمد أعلاها أسفلها .

ألم ترى إلى الشمس كيف كان أهل الأرض لا يعيشون إذا لم يكن ضوءها مرسلًا إلى أرضهم فسترى في سورة « الشمس » وضحها « كما رأيت في مواضع كثيرة من هذا الكتاب مثل ما في سورة الفأعة وغيرها ، أن كل مخلوق على الأرض لا يجأ إلا بوجود الشمس فلولاها لم يكن ريح تهب ولا ماء يجري ولا حيوان يدب ولا إنسان يوجد بل تسكون الأرض قاعا صفتها ، ثم إنك ترى السحاب يجري والرياح تهب كل ذلك لمنافع الناس على الأرض ، فهذه القوى العالية وحافظت على من دونها طوعا أو كرها ، سخرت العوالم المحيطة بنا لحياتنا ، وامتلاء الجو بالبخار والسحب ونزلات الأمطار وزجر الرعد ولمع البرق وهبت العواصف فنبت الزرع وازينت الأرض للناظرين وبهرت النجوم في سمواتها وأرسلت أشعتها تترى لأهل الأرض فساروا على هداية ضوئها في البر والبحر فكانت نورا لسائرهم وهداية لمسافرهم ومرشدا لربانهم ونجاة لسفنهم وإسعادا لبدوم وحضرهم وهم آمنون .

#### مستقبل الأمم على الأرض وواجب المسلمين

ها أنت ذا أيها الدكي قد اطلعت على ترتيب التدبير من السماء إلى الأرض في القوى والمواد ، وها أنا ذا أذكر لك نتائج ذلك في الأمم فأقول :

قد نبين لك أن العنول موزعة على الناس وللناس على الأرض في مواطن من هذا التفسير وأهل الأرض متضامنون وليس لهم دخل في إزال المطر ولا ضوء الشمس ولا خلق الهواء ولا خواص الأرض ، تضيء الشمس وتثير الرياح بحرارتها تتجري السحب فتزول على الأرض والناس يتقنون الماء فيها ويزرعون والماء يجرى في الأنهار إلى البحر المالح ، يظن الإنسان لأول وهلة أن هذا الماء الجارى إلى البحر ضائع لافائدة منه كما في ماء النيل بمصر ودجلة والفرات المحيطين ببلاد الجزيرة ، وكثير الكنج بالهند وكثير الأمزون وغيرها .

يقول الناس إن الماء يجرى أيام الفيضان إلى البحر ولا فائدة منه بل هي قوى معطلة وليس الأمر كما يظنون . إن الماء إذا سقى الحنظل وأنبت العشب وعاشت به الأمم فإنما مثله مثل رجل يسمى أولا لما يبقى جسمه ثم تراه يسمى ليربي أولاده ليشوا بعده ، هذه حال هذه الأنهار ، الناس يعيشون بها ثم هي تجرف الطين والرمل والحصى إلى البحر كل سنة ليكون ذلك طبقات وراء طبقات بها تتكون الجبال في قاع البحار فيملأ هناك كما تملأ اليابسة كل سنة (بالعرب) الذي يحمله الماء ، فجمع الجبال التي تراها كالمقطم وكجبال همالايا وغيرها كما ستراه مفصلا في هذا التفسير في السور التي بين صورتي يوسف والنحل إن شاء الله تعالى ، وفي قوله تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » إلى قوله « وإلى الجبال كيف نصبت » في سورة العاشية إنما تتكون أولا في البحار في مئات الآلاف من السنين ، فهي أجنة في بطون البحور تخرج بعد أم طويل ، إذن ليست القوى معطلة ، فالتهر إذا عشنا بماؤه فوق الأرض فإن مافضل يستعمله بإذن الله في إحداث عوالم ستكون بعد قرون ، فالجبال مكوّنات من فضلات الأنهار كما كوّنت الأجنة مما فضل من غذاء الأبوين في أجسامهما ، فاللطيفة منهما من فضلات الدم الجارى في عروقهما ودم الحيض الذي لا يكون إلا زمن القوة واللبن المغذى للطفل ، كل ذلك فضلة فائضة من القوى كما فاض الهر وجرى فسكونت به هذه الجبال ، وليس معنى هذا أن الناس على الأرض ينامون ويتراكون أنهارهم ؟ وإنما هذا تدير محكم ونظام محبب عام .

#### ازدياد الناس على الكرة الأرضية

ازداد الناس اليوم على سطح هذا السيار الذي نعيش فيه وازدحمت القرى والأمصار بسكانها واشترأوا إلى منافع الأرض وقد علموا أنهم متضامنون وإن لم يعملوا بهذا التضامن ، والذي أراه أن الناس سائرهم إلى حال ستجمعهم طوعا أو كرها ، سيفكر الناس في استخدام جميع اللواهب العقلية في الإنسان والخواص في الأرض كما ستراه في ملخص كتابي [ ابن الإنسان ] في تفسير قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » وذلك بقلم الأستاذ ( سنلانه الطلياني ) تقر يظاله وهو مترجم إلى العربية من التليانية ، فإن هذا الملخص هناك هو معنى الآية وهو موضع لهذا المقام .

قرب الوقت الذي نحاسب فيه كل أمة على ما فرطت في عقولها وما أهملت من أرضها كما في الكتاب المذكور ، قد رأيت ألا شيء في الوجود معطل وأن ماء النهر الجارى إلى البحر له عمل فيبسطر الناس إلى أن يحاسب بعضهم بعضا على ما أضعوا من قوى ، وستقول كل أمة للأخرى إن عندك قوى محزونة في جبالك أوفى مائك أوفى أرضك أوفى عقول أبنائك فاستخرجها لأن النافع تعود منك على في التجارة واللبادة وغيرها فإذا أت فورها غيرها واستخرجوا النافع وشاركوها ، ذلك سيتم متى ازداد عدد السكان يبسطرون لذلك اضطرازا لأنهم متضامنون كما قدمنا ، وأضرب لك مثلا :

خذ ملابس صبي من صبيان المدارس في أنحاء الأرض الآن فهي مركبة من :

(١) صوف يحضرونه غالبا من استراليا أو من جنوب أفريقيا .

(٢) أو قطن مستحضر من مصر أو أمريكا أو بلاد الهند .



- (٣) أو كنان مستحضر غالبا من بلاد اروسيا أو بلجيكا أو إيرلنده .  
 (٤) ويحتاج إلى سير من جلد مخصوص وهو يجلب من أمريكا الشمالية .  
 (٥) ويصنع ذلك كله في بعض ممالك أوروبا .  
 (٦) وأزرّة من فضة تستجلب من بلاد (الكسيك) .  
 (٧) ومشابك أخرى إما من نحاس أصفر مستخرج من النحاس الأحمر المستجلب من أسبانيا .  
 (٨) أو من قصدير من شبه جزيرة بلاد اللابو .  
 (٩) وكل هذه تحملها السفن فتعبر البحار .  
 (١٠) وقس على ذلك كل ما يحتاج إليه .

واجب للمسلمين الذين ألف لهم هذا الكتاب

أيها المذكي إياك أن تظن أن إطالة هذا الموضوع خارجة عن الآية في التدبير العام ، والتدبير العام انحصر في القوى والمادة وقد رأيت تدبير القوى من الأعلى إلى الأدنى ، والمادة أيضا من الأعلى إلى الأدنى وهذا ملخص ما ذكرنا وهذا الكتاب للمسلمين وأنت مخاطب لأنه لا يفهم هذا إلا أناس لهم قوة بها يفوقون المجموع والذي ذكرته علم والعلم إن لم يصحبه عمل ضاع فها أناذا أوصيك المسلمين ، إن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم من كل جانب وقد سبقهم الصاري والمجوس واليهود فعم التعليم اليهود واليابان وأوروبا ولم يبق جاهل إلا المسلم ولا يتعلم غالبا إلا القليل ، جرد كل الجرد وانخذ سبيلا إلى تعميم التعليم حتى نلحق بالأمم وهذا لا يحتاج إلى أكثر من عشرين سنة ، ومتى نما التعليم في الأمم الإسلامية أمكنها استخراج النافع من العقول ومن المادة كما شرحنا ، يدبر الله الأمر من السماء إلى الأرض ونحن مكلفون أن نعمل بقدر طاقتنا ، ومتى ارتقت أمم الإسلام صارت مجارية للأمم الأخرى وحينئذ تكون مساوية لهم فلا تنهم أنها عطلت عقول أبنائها ولا منافع أرضها وخواصها ولا النظر النازل في أرجائها ، فإن لم تكن سابقة الأمم في ذلك فلنكن مساوية لهم . هذه هي السبيل التي يجب اتباعها ونشرها وأن هذا التفسير وأمثاله في هذا العصر مقدمات لتلك الرقي للشهود والمجد لله رب العالمين .

فصل في قوله تعالى « وقدره منازل »

هي ثمان وعشرون منزلة أولها الشراطين وآخرها بطن الحوت وهي مقسومة على اثني عشر برجاً أولها الجمل وآخرها الحوت لكل برج منزلتان وثلاث منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستزليتين إن كان الشهر ثلاثين ، وإن كان تسعا وعشرين اختفى ليلة واحدة .

القمر أصل الشهور والأسابيع

اعلم أن القمر لولاه لم تكن شهور ولا أسابيع ولكان اختلاف الناس عسيرا في حسابهم ؛ وبيانه أن دورة القمر التي تتم في ٢٨ يوما كما تقدم جملة مقياسا للشهر ، ثم بالنظر لاختلاف الفصول من شتاء وصيف وخريف وربيع جعل مقياسا لها لجعل كل فصل ثلاثة أشهر وكل شهر أربعة أسابيع وكسر .

فدورة القمر هي التي نهت النوع الإنساني إلى أقسام السنة الاثني عشر السجاة شهورا ، فأما سير الشمس فلم يحط الناس إلا الفصول الأربعة باعتبار بعد الشمس وقربها وهي الدورة السنوية ، ههنا أخذت الأمم تفصل أيام السنة وشهورها بحسب ما يعين لها فإنهم لما رأوا الأسبوع سبعة أيام لم ينظروا لليوم ينظر واحد .

(١) الكلدانيون والفرس يجعلون مبدأه من شروق الشمس ويجعلونه ٢٤ قسما متساوية هي الساعات .

(٢) اليهود يبتدئون من غروب الشمس إلى شروقها ليلا ، ومن شروق الشمس إلى غروبها .  
فالساعات ليلا ونهارا تختلف طولا وقصرا بحسب الفصول عديم بخلاف الكلدان والفرس فهي متساوية  
مع اختلاف الفصول .

(٣) الإيطاليون في أواسط القرن التاسع عشر كانوا يحسبون كاليهود .  
(٤) العرب يحسبون النهار من مرور الشمس على خط الزوال مبتدئين من الساعة الأولى إلى الرابعة  
والعشرين التي تنتهي بمرور الشمس عند خط الزوال عينه في اليوم التالي .  
(٥) لم تنفق الأمم الكبرى كفرنسا وغيرها في مصالحها العمومية لاسما في مواعيد السكك الحديدية  
على ما كان عند العرب إلا في زمن قريب جدا ، وأسما الأيام مستنبطة من أسماء الكواكب السيارة :

(١) الاثنين القمر عند الفرنجة .  
(٢) الثلاثاء من مارس عند الفرنجة : أى للريح .  
(٣) الأربعاء يرجع عند الفرنجة إلى عطارد .  
(٤) الخميس يرجع إلى جوبيتر عديم : أى للثرى .  
(٥) الجمعة يرجع إلى الزهرة .  
(٦) السبت يرجع إلى ساتون : أى زحل .  
(٧) الأحد يرجع للشمس وهذه كانت معروفة عند آباءنا العرب ، فإذا قالوا الفرنجة مثلا إن الأربعاء  
وهو (مركردى) مشتق من مركور : أى عطارد ، فإن آباءنا قالوا إن يوم الأربعاء لعطارد وهكذا بقية  
الأيام بالقل عن الأمم .

ولقد اتفقت الأمم كلها على تحديد عدد أيام السنة ابتداء من القرن الثالث للبلاد واعتبر أكثرهم أن  
مدة الأسبوع معادلة ربع دورة القمر حول الأرض .

(١) وكان الفرس والاصريون لذلك العهد يعتبرون السنة (٣٦٥) يوما مقسمة إلى اثني عشر شهرا ،  
والشهر ٣٠ يوما يضاف إليها في آخر كل سنة خمسة أيام (أيام النسي) ومع ذلك لم تطابق السنة الحقيقية .  
والاشهر عند قدماء المصريين هي (نوت ، فاووفى ، أوثير ، شوكا ، نوبى ، مشير ، مامينوت ، فرمونى ،  
باشون ، بونى ، أبينى ، ميسورى ) والشهر الأول منها وهو (نوت) يبتدىء في الاعتدال الخريفي (٢٢)  
سبتمبر من كل عام .

(٢) الصينيون كانوا يعرفون السنة الشمسية وقد ضبطوها مرات عديدة .  
(٣) العرب : السنة تتألف من (١٢) شهرا والشهر مؤلف من (٢٩) يوما وبله شهر مؤلف من  
٣٠ يوما ، والسنوات الكبيسة يزداد عليها يوم واحد ، والكبيسة في كل ٣٠ سنة إحدى عشرة سنة والباقي  
وهو ١٩ بسيطة .

(٤) اليهود نفوهم الدين بالقمر ونفويهم المدينى شمسي يبتدىء من فصل الربيع .  
(٥) قدماء الرومان يبتدىء السنة عديم من فصل الربيع ولكن (رومولوس) مؤسس رومية قسمها  
عشرة أقسام ذاهلا عما رسمه القمر في سيره من تسعة السنة ١٢ قسما . وأسماء الشهور بعضها مشتق من  
أسماء الآلهة عديم ، هكذا : مارس ، ابرليس ، يونيو ، وبعضها أسماء أعداد وأضاف بعض ملوكهم شهرين  
آخرين وهما (جاواربوس وفبرواربوس) ثم أضافوا شهرا آخر فصارت الشهور ١٣ شهرا وهو أمر  
غريب . فانظر ماذا حصل ؛ جاء الامبراطور (بوليوس فيصر) فوضع التقويم اليونانى بأن تكون السنة  
مؤلفة من ١٢ شهرا بعضها يحتوى على ٣٠ وبعضها على ٣١ يضاف إليها كل أربع سنوات يوما في السنة

الكبيرة ، ولما كان الرومانيون يجهلون نظام الأسابيع وسقطت الدولة الرومانية غيروا نظام الشهر الروماني وجعلوه على ما علم اليوم من الأسابيع للمعرفة اليوم المجهولة عند الرومان .

وقد نقش الامبراطور أغسطس على ألواح النحاس التقويم الذي وضعه فيصر وأطلق اسم يوليوس (بوليو) على شهر يسمى ( كنتيكيس ) تخليدا لاسمه ، كما أطلق اسمه هو وهو أغسطس على شهر يسمى ( سكتيليس ) .

فانظر كيف اضطرت الأمم كلها أن تجعل السنة ١٢ شهرا لماذا ؟ لأن القمر لما دار حول الأرض ١٢ مرة كان هذا قريبا من السنة ينقص عنها نحو ١١ يوما فكان القمر في سيره نطق بلسان فصيح قائلا : ها أنذا رحمت لكم الشهور فانسجوا على متوالي حتى اضطرت الرومانيون بعد ما قاسوا للشاق في تعديل السنة وقد عملوا عن سير القمر إلى حذف الشهر الزائد عن اثني عشر ، وأول من تفتان لهذا يوليوس ورجع إلى الشهور الاثني عشر كسائر الأمم . وهذا هو سر قوله تعالى « وقدره - أي القمر - منازل لتعلموا عدد السنين » فأفاد أن نظام القمر هو الذي يفيد السنين ويمرّتها ويقسمها ولولاها لاختلفت شهورهم وضاعت مصالحهم .

ولما كانت الأمم بعضها محتاج إلى بعض نظم الله لهم سير القمر حتى يتبعوه في الحساب فتنتظم معاملاتهم ، فنظام السموات تبعه نظام أهل الأرض .

فصل في معنى قوله تعالى « والحساب » من قوله « لتعلموا عدد السنين والحساب »

اعلم أن السنة الشمسية كما قد منا في كل أربع سنين فيها سنة كبيسة وثلاثة بسيطة ، وقاعدتها أن تقسم سنن التاريخ للسيحى على أربعة . فإن قبلت السنة القسمة فهي كبيسة وإلا فهي بسيطة ، ولا شك أن هذه السنة التي أكتب فيها هذا التفسير وهي سنة ١٩٢٤ تقبل القسمة على أربعة وإذن فهي كبيسة ، أما في هذه الساعة أكتب ليلة السبت نصف الليل القليلة السادسة من شهر سبتمبر من هذه السنة ، ومع ذلك السنة على هذا الحساب لم تزد على ٣٦٥ يوما و٦ ساعات وهي في الحقيقة ٣٦٥ يوما و٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٥٠ ثانية أعني ٣٦٥٢٤٢٢١٧ يوما وسطيا وحينئذ تكون كل سنة يوليوسية تزيد عن اللدة الحقيقية لسنة الفلكية بكسر من اليوم مساو إلى ٠.٧٧٨٣ ر . أعني ١١ دقيقة تقريبا ، وهذا الفرق وإن كان قليلا يصير يوما كاملا في كل ١٣٢ سنة ، وفي سنة ١٥٨٢ ميلادية قد وصلت هذه الزيادة إلى عشرة أيام ، فأمر البابا (جريجوار ليلوس) الطلياني بأن يصلح هذا الخلل فأسقط ١٠ أيام من تلك السنة إذ جعل الخامس من شهر أكتوبر الخامس عشر ، ولما كان الفرق وهو ١١ دقيقة يصير ١٨ ساعة تقريبا في كل مائة سنة وثلاثة أيام في كل أربع مائة سنة وجب إذن طرح ثلاثة أيام من كل أربع مائة سنة فأضاف إلى القاعدة اليوليوسية قاعدة أخرى وهي أن كل ثلاث سنين مثنوية عوضا عن أن تكون كبيسة تكون بسيطة والراجعة تبقى كبيسة وهم جرا .

والراد بالسنة المثنوية ما ينهى عدد التاريخ فيها بصفرين مثالة سنة ١٦٠٠ ، ولزيادة السهولة اتفقوا على أن السنة المثنوية الكبيسة هي التي عددها يقبل القسمة على ٤٠٠ ، فسنه ١٦٠٠ كبيسة و١٧٠٠ و١٨٠٠ و١٩٠٠ بسيطة .

وقد قبل هذا التعديل جميع الأمم ماعدا المسكوف والأروام والأقباط فإنهم بقوا على التعديل اليوليوسى ولتلك ترى فرقا ١٢ يوما بين حسابهم وحساب الأفرنج ١٠ منها هي الأيام التي أسقطها (جريجوار) والاثنتان ناشن من جعلهم سنن ١٧٠٠ و١٨٠٠ كيبستين والأفرنج جعلوها بسيطتين ، ومع ذلك لا يزال هناك فرق يبلغ ربع يوم تقريبا كل عشرة قرون فيكون يوما واحدا كل ٤٠٠ سنة بحيث يجب أن يضم يوم واحد

لسنة ٥٥٨٢ لأجل تعديل الخطأ المجتمع القليل جدا فتعجب من الحساب كيف بلغ في الدقة مبلغا شغل العالم  
الإنسان أجمعه وقد كان ابتداءه سير القمر الذي قسم السنة ١٢ قسما ، وهذه الأقسام تنقص ١١ يوما تقريبا  
فشدت الشهور من حال إلى حال ، ومضى زادت عن ١٢ تذب الناس وحذفوا الزائد ثم أخذوا بحذفون  
وزيدون أجيالا وأجيالا إلى أن وصلوا إلى الثواني من آلاف السنين .

أليس هذا هو سر قوله تعالى « تعلموا عدد السنين والحساب » أو لم يكف أن يقول « عدد السنين »  
حق أضاف لما الحساب إشارة إلى هذه الدقة المتناهية ، فالقمر حكم عليهم أن يحملوا السنة ١٢ شهرا ، وم  
اضطروا بالحساب أن ينظموا أيام الشهر ، فبدل أن يكون ٢٩ يوما و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة بحساب القمر  
زادوه نحو يوم تقريبا في الشهر الشمسي ، ولا يزال الحساب يتناهى في الدقة إلى الآن .

فيا عجباً كيف كان القمر دليلاً على الحساب ؟ وكيف شغل الناس بالفرق بين الشهر القمري والشمسي  
والسنة القمرية والشمسية ؟ وكيف كانت السنين الكبيسة والبسيطة في الحساب العربي في كل ٣٠ سنة  
لا تزيد الزيادة للكبس فيها على ١١ يوماً دائماً أبداً ، وكل دور (٢١٠) من السنين وهذا الدور مشتمل على  
أدوار صغيرة كل دور منها ٣٠ سنة وهي سبعة أدوار ، فتعجب كيف كانت الكبيسة الشمسية محتاجة إلى  
دقة أم كما رأيت وكل هذا سر قوله تعالى « تعلموا عدد السنين والحساب » وقوله « ما خلق الله ذلك  
إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » يعني أن الله راعى في خلق ذلك الحكمة والصلمة ولم يذر القمر  
والشمس يتخطان في سيرهما ويتفران في جرمهما بل ضبطهما بحساب على مقتضى احتياج الناس وحسابهم .  
وبهذا الحساب يزدادون دقة وحكمة ، فلو أنني جعلت الحساب سهلاً كما لا كسر فيه لأدنى ذلك إلى جمود  
عقولهم وموت نفوسهم وجهالة عقلاهم ، ولكن ذلك الكسر في السنين الشمسية والقمرية يؤدي إلى  
نبوغهم في الحساب فترتقى الأمم ، وإذا كانت الحرب في الأمة وشدة الحاجة إلى العلوم والصناعات تؤدي إلى  
ارتقاها ، هكذا هنا في الحساب ودقته تؤدي الأمم إلى رفعة الشأن ، فكلما ازدادوا حيرة ازدادوا اجتهاداً  
بأثرها ، هذا معنى قوله « ما خلق الله ذلك إلا بالحق » وختم الآية بقوله : لمن أفضل هذا ؟ أصله لقوم يعلمون ،  
يعني أن مثل هذا اللغز لا يعرفه إلا العلماء به ، فأما الجهلاء به ولو كانوا أعلم الناس بالنحو والصرف واللغة  
والفقه فإن التفصيل ليس لهم ، فعارض على أمة الإسلام أن تخلو من الناخبين في هذا الفن ، وكيف ترى التعديل  
يأتي من أوروبا والمسلمون تأخرون اليوم وليسوا كتابتهم الأولين .

اللهم إنك أنزلت هذا الكتاب وطلبت فيه أن تكون الأمة فيها علماء في كل علم ، فإذا قصرت الأمة كما  
هو حاصل الآن وليس أحد عالم بهذه العلوم إلا الفرنجة ، فمن يفصل لهم القرآن ؟ ومن يقرأ ؟ وكيف  
يفصل الله الآيات لقوم لا يعلمون ؟

يارب إن المسلمين اليوم لا يعلمون أكثر العلوم ويعمرون على مثل هذا القول مرة الكرام ولا يحفظ لهم منه  
إلا حظ الجائع من القسيم .

فيا ليت شمري لمن هذا التفصيل ومن هذا القول ؟ يا أمة إنك قد سلطت الفرنجة علينا لجهلنا .  
يارب إنك فصلت هذه الآيات لقوم يعلمون العلك ، والأمة غائلة فنقله أنت إلى الفرنجة وصرنا نقرأ  
القرآن ولا نبالي بما سمعنا ، إنك تفصله لقوم يعلمون لأن المسلمين اليوم قوم علم ذلك يجهلون .

فلاهم اجعل منهم قوما عاشقين لعلوم مختلفة وبث الحية في قلوبهم واجعل منهم من يحثون على كل صناعة  
وكل علم واجعل كتابي هذا مما يحرضهم على عشق العلوم وحب الحكمة والتخلق بخلقك وخلقك العلم  
والحكمة لألك العليم الحكيم اه .

مهجة العلم في هذه الآيات

إن تقدير المنازل والبروج للشمس والقمر وسيرهما بحساب متقن هو الذي جعل الناس آمنين على أمرين :  
حساب الدرجات الأرضية ونظامها ، وحساب الميزان والكيل والمساحة ، ولأبين ذلك في مقامين ،  
المقام الأول : حساب الدرجات الأرضية ومعرفة كرويتها ودورانها .  
الم أن أول من فكر في كروية الأرض رجل يقال له (أرابوستانس) هذا الرجل ولد في القيروان  
سنة ٢٧٦ قبل المسيح ودرس في الاسكندرية وأثينا ثم دعى إلى الاسكندرية سنة ٢٣٤ قبل الميلاد فأقام بها  
إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٤ ق. م وهذا الفيلسوف ألف كتابا في معرفة جرم الأرض ، وقال إن الشمس  
تسكون عمودية فوق الأرض في مدينة أسوان وقت الانقلاب الصيفي ، فإذا نصب عمود في الأرض هناك لم  
يظهر له في الظهيرة ظلٌ ممتدٌ شمالا ، وإذا نصب عمود آخر مثله في الاسكندرية ظهر له ظلٌ شمالي في تلك  
الذقيقة عنها ، وإذا رسم خط من أعلى هذا العمود إلى طرف ظله وجدت الزاوية التي تسكون بينه وبين  
الظل سبع درجات وخمس درجة فهي المسافة بين الاسكندرية وأسوان .  
ولييان هذا المقام حق البيان أقول : إن هذا الفيلسوف قد تربي في الجامعة المصرية بالإسكندرية التي أسسها  
بطليموس الأول وقد تخرج منها كثير من العلماء والأطباء ومنهم هذا الفيلسوف فتأقت نفسه يوما أن يسافر  
من الإسكندرية إلى أسوان فسافر في نهر النيل فلاحظ أمرين :

[ أولهما ] أنه كلما أوغل في جهة الجنوب سفرا يرى بعض النجوم الشمالية الظاهرة تغيب تدريجاً .  
[ وثانيهما ] أن بعض النجوم التي لم تكن ظاهرة تبدو تدريجاً غطرت له أن هذا لا يكون إلا إذا كانت  
الأرض كروية وكيف يقيس الأرض كلها ؟ إذن هنالك اجترأ بقياس بعضها ثم يحسب الباقي وما ذلك البعض  
يأزى ؟ هو ما بين الإسكندرية وأسوان فقامه فوجده (٦٨٠) ميلا وهذه المسافة هي التي ارتفاعها الشمسي  
عند الإسكندرية أكثر من أسوان ٧ درجات وخمس درجة ، فإذا هذه المسافة جزء من خمسين من الدائرة  
التي تحيط بالكرة وبضرب هذا العدد في خمسين يساوي (٣٤٠٠٠) ميل ، ثم قال في نفسه إذا أنا سافرت  
من أسوان أيضا جنوبا واستغرقت ثلثي أرجع إلى الاسكندرية من الشمال ثانيا إذا قطعت قدر هذه المسافة  
المذكورة خمسين مرة ، هذا ما قاله ذلك الفيلسوف ولكن الحساب الآن ليس كذلك فإن الدائرة حول الأرض  
لا تزيد عن (٢٣٧٠٠) ميل ، والسبب في ذلك الخطأ القدر بنحو (١٠٣٠٠) ميل ، أن أسوان ليست  
في جنوب الاسكندرية تماما بل هي تنحرف جهة الشرق الجنوبي قليلا لذلك طالت المسافة جدا ، انتهى  
مترجمته من الكتب الانجليزية مقتصرًا على الفائدة .

ومن المؤلم أن هذا العالم لما عمى في آخر حياته ترك الأكل حتى مات قانلا [ لاخير في حياة لاتصحبها لذة  
المطاعة والعلم ] فذلك آثر الموت انتحارا .

انظر إلى الآية التي نحن بصدها وتفكر في عمل هذا الفيلسوف اليوناني المصري كيف عرف بارتفاع  
الشمس الدرجات السبع والخمس وأنها هي جزء من خمسين من الدائرة المحيطة بالأرض وحسب المحيط كله ،  
لولا دوران الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ما أدرك هذا العالم هذا الحساب ، انتهى الكلام على  
كروية الأرض .

٢ أما دورانها فإنه قد وضع فيما كتبه في كتاب [ جواهر العلوم ] وقد جمعت في محاوره بين فني وقتاة  
فلا تقل ما دار بينهما من الحديث لتقف على ما كنت أكتبه في أول أيام تأليني ولتري أن دوران الأرض  
حول الشمس ليس غير مخالف للقرآن لحسب بل له منه دلائل كما ستراه فيما يأتي ، وهنا ننقل ما في  
[ جواهر العلوم ] .

فصل في الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر في الأفلاك  
ومسألة الدوران والشمس هي الدائرة حول الأرض أم بالعكس ؟

فتت يا سيدي أرجوك ذكر مقال شاف يكشف لي حجاب الخفاء عن الهيئة فقد أشكل القول فيها  
وخالف السلف الخلف وكل حزب بما لديهم فرحون . فإني لا أدري ما الصواب فيها ؟ أقول الأقدمين الذين  
قالوا إن الأرض ساكنة وإن الشمس وجميع الكواكب تدور حولها ، أم قول العصريين القائلين بأن تلك  
الأجرام لا وجود لها وإنما السماء لها معنى آخر وهو الشمس المشرقة وتوابعها من السيارة وسبارة السيارات  
وأنها سبع طبقات بعضها فوق بعض وهي الأقدار السبعة للعلومة ، وأن الأرض هي التي تدور حول الشمس  
نم ما الذي حملهم على ذلك حتى جدوا فيه وما الفائدة في تلك المباحث ؟ فقال اعلى أن التقدمين والتأخرين  
أفرغوا وطابهم في البحث عن الأجرام العلوية والكواكب المشرقة ولم يألوا جهدا في البحث عنها لميل الطباع  
البشرية إلى اقتناس شوارد العلوم وفوائد المنطوق والفهوم ، ولذلك يرى كل إنسان يجب بعلمه ولو في مسألة  
من دنيا المسائل ، فقالت يا سيدي وهل في العلم أدنى وأعلى ؟ فقال نعم إن المعلومات تنقسم إلى علوية شرفة  
وإلى سفلية تستضيء منها مركبة من عناصر سريعة الأتحال قريبة الدنور ، واللذة في العلوم على حسب شرف  
المعلومات ، فكلما كان العلوم أشرف وأفضل كانت البهجة به واللذة أكثر ، وكلما نقص عن رتبة الشرف  
والفضل بأن استمد من غيره أو كان قريب الدنور والأتحال قلت البهجة به واللذة وأنى يستوى لذة معرفة  
موت فلان وحياته وغنى زيد وفقر عمرو وغير ذلك بلذة معرفة أقدار الكواكب وأبعادها وحساب دوراتها  
وسننها وشهورها وأيامها وانتظام سيرها في دوائرها فإن اللذة بالأول وقتية قليلة بخلاف اللذة بالثاني فهي  
عظيمة جدا دائمة بدوام العلوم ، وعلى هذا القياس كانت سيرة العلماء والملوك والحكام والدول الكبيرة ألد  
من سيرة العامة والسوقة والجهلة والدول الصغيرة وكذلك العالم العلوي على السفلي . ولذلك كان البحث عن  
كامل الله وجماله أهبج وألد في النفوس الشريفة لأنه لا أشرف منه ولا أدوم .

وبالجملة فالبحث عن العلويات أمر لذيذ ولذلك انجذبت أفكار الأمم بأجمعها إليه وصوتت أسهم آرائها  
لرضه . ولقد اطلعت على آراء قديمهم وحديثهم وعجربهم ومجربهم وغتهم ومبينهم فوجدت موضوع أبحاثهم دأرا  
على محورين :

[ الأول ] القوانين الحسائية التي بها يعرف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول  
والانتقالات وغير ذلك مما توقف عليه أحوالنا المعاشية وعباداتنا وحبنا وصومنا وإفطارنا وغير ذلك وهو فن  
التقويم المسمى علم الفلك وهذه القوانين ليس فيها بين المتقدمين والتأخرين كبير خلاف بل هي متقاربة  
ولا خلاف إلا في أمور جزئية لاتهدم أصلا من الأصول ولا توجب خطأ في مقول .

[ الثاني ] البحث عن العالم بأسره وهو علم هيئة الدنيا وهو فن يبحث فيه عن الأرض مع غيرها من  
أجزاء العالم ، والعالم هو سائر المهدئات فهو صنعة عظيمة تشكل العقول عن الإحاطة بعلم ما احتوى عليه من  
المخلوقات وعن الأبعاد بين الكواكب ومقادير أجرامها وطبائعها وما تشتمل عليه وعن السيارات والثواب  
وعن الشمس أهي التي تدور حول الأرض أم الأرض هي التي تدور حولها وعن حقيقة السموات  
وغير ذلك ؟

وهذا هو الفن الذي حمى فيه وطيس الخلاف بين الأوائل والأواخر ، وعلماء هذا الفن مقرّون بأن  
أدلتهم ظنية ، غاية الأمر أن بعضها أقرب إلى الظن من الآخر وبشده أنهم كانوا مطبقين على تقدير جد  
الزهراء عن الشمس وعلى مقدار جرمها ، ثم في سنة ١٢٩٣ أرسلوا النارينين إلى الجهات وحرروها فمروا

أن جميع حساب السابقين خطأ محض وأنها أقل من ذلك كله بما وجدنا ، ومن الجائز ظهور الخطأ في هذا التحرير أيضا في وقت آخر .

وحيث كانت مسائل هذا الفن ظنية اختلف علماءه في أسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد بعد الإجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس والأرض ، فقد كان علماء الهيئة في غابر الأزمنة على ما وصل إلينا يدرسون في مدارسهم ويعلمون تلامذتهم هذه الهيئة الجديدة للعرونة الآن ، فقد كان ( فيثاغورس ) الفيلسوف الشهير يعلم تلامذته في مدرسة ( كروتونيا ) من بلاد إيطاليا على طريقة حركة الأرض وذلك قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام بمدة خمسمائة عام معتقدين أن هذا للرئي الذي نسميه سماه أو فلنسا هو فضاء واسع وزرقته ناشئة من اكتشاف الأشعة الشمسية للأجزاء الأرضية ، وأن الكواكب الثابتة في ذلك الفراغ عبارة عن شموس كشمسنا هذه ، وكل شمس حولها سيارات كسيارات شمسنا وأقمار كقمرها وذوات ذوات كما حول شمسنا ، وكل واحد من هذه السيارات والأقمار وغيرها عالم مثل كرة أرضنا ، ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة ولها دائرة مخصوصة بها وهذه متعلقات تدور حولها من السيارات .

ومن جملة السيارات الدائرة حولها هذه الأرض التي نحن عليها والقمر ملتزم لها ويدور عليها ومعها على الشمس وفوق ذلك صفوف دوائر شمسية متساوية بعضها فوق بعض إلى حيث لا يحيط به النظر ولا يدركه الفكر « وما يعلم جنود ربك إلا هو » فالسماوات عندهم عبارة عن هذه الدوائر بما فيها من الكواكب الكبيرة .

ولما شاعت هذه الطريقة في زماننا هذا وأراد العلماء تطبيقها على ما ثبت عندهم من ظواهر الشرعية من كون السماوات سبعة قالوا معلوم أن الكواكب الثابتة سبع طبقات فما كان منها يرى في غاية الظهور والإضاءة فهو الطبقة الأولى ويقال لها المرتبة الأولى والقدر الأول وما كان أبعد منها غير كثير وأقل في الظهور والإضاءة بمقدار يسير فهو الطبقة الثانية وهكذا إلى الطبقة السادسة كل طبقة ترى كواكبها أبعد عن التي قبلها وأقل منها ظهورا واستقرارا ، والطبقة السابعة هي التي خفيت كواكبها فلا ترى إلا بالمنظرة للعظمة ، فهذه الطبقات هي طباق السماء ، وفي قوله تعالى « وزينا السماء الدنيا بمصابيح » قالوا السماء الدنيا عبارة عن الدوائر الشمسية التي نحن فيها للزينة بما احتوت عليه من السيارة وسيارة السيارة وذوات الأذنان وغيرها من متعلقاتها إلى نحو ذلك من التأويلات التي شرحها علماءهم وكتم ورد عليهم من اعتراض وكتم أجابوا عنه .

وقد رأيت في بعض رسائل العلامة للرحوم عبد الله باشا فكرى أن تلك الباحث مستوفاة التفصيل في كتاب [ أسرار الملك وللملكوت ] وشرحه الموسوم [ بأفكار الجبروت ] والنسخ المذكور في دار السلطة السنية وهو باللغة التركية ومثله بالعربية .

ثم إن هذه الطريقة كما قدمنا هي التي كانت سارية في أعماق المعمورة بين علمائها مستنبضة بين خاصتها وعامتها حتى جاء ( بطليموس ) قبل الميلاد بمائة وأربعين سنة فاختر الفول بسكون الأرض ودورة الشمس عليها وبنى مذهبه على ذلك فصاعت قاعده بين الناس واشتهرت في البلاد .

ولما جاء الإسلام وترجمت الكتب اليونانية إلى اللغة العربية نقلها الفارابي من فلاسفة الإسلام في مؤلفاته العربية أوائل القرن الرابع من الهجرة وتبعه ابن سينا وغيره . فمن جاء بعده وهجرت الطريقة للتقدمية التي كان عليها ( فيثاغورس ) وقد قال هؤلاء العلماء إن السماوات أجسام متراكبة بعضها فوق بعض كطبقات

(البصلة) مناساة ولا تقبل الحرق ولا الالتئام وإيست حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا لون لها ولا توصف بلين ولا ملاسة ولا خشونة ولا خفة ولا ثقل .

وبالجملة فهي أجرام أثيرية شريفة مخالفة للأجسام العنصرية الأرضية في جميع أوصافها وهي التي تدور الحركة اليومية والكواكب تتحرك معها قسرا وللسيارات حركة أخرى مخالفة لحركة السموات : أي أن السموات تدور من المشرق إلى المغرب وتلك الكواكب معها ثم الكواكب لها حركة أخرى تدور بها من المغرب إلى المشرق كمنحلة على دولاب تسير متجهة إلى غير جهة حركته وبهذه الحركة المخالفة تكونت الفصول والسنون وانتظمت أحوال العالم ودون ذلك في كتب للتقدميين .

ولما شاعت هذه الطريقة بين علماء الإسلام أخذ بعضهم في تطبيقها على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسكت عن ذلك فريق ، وفريق كفر القائل بذلك للذهب ثم برهن محققوهم كالغزالي وغيره على أن هذه لا تصادم الدين وأن من اعتقد ذلك فقد جنى عليه وضلّ سواء السبيل وأضلّ الناس فإن الدين لا يفتى ولا يثبت ، وكما أن من يقول إن الله خلق (البصلة) ست طبقات أو سبعا أو ثمانيا وإنها كروية أو موشة أو مربعة لا نسكفره كذلك لا نسكفر من يبحث في العلويات إنكلها من مخلوقاته عز وجل ولم يذكر إلا الاستدلال على صانعها والدلالة واضحة على كل حال وعلى أي شكل ، وكثير من علماء الكلام كانوا يناضلون الفلاسفة ويخطونهم ويضلّون فهمهم حتى قال العلامة النخعي الرازي إن الأقرب للقرآن أن تكون الكواكب سابعة في السماء كما يسبح السمك في البحر ، وأدحض حججهم في قولهم إن الحرق والالتئام مستحيل على الملك واشتغل بقوله تعالى « كل في فلك يسبحون » وكان بعضهم يعرف الطريقة المستفضة الآن ويقارن بين الطريقتين ويميل إلى هذه الطريقة كما سيظهر قريبا ثم نبغ بيلاد لستان رجل يقال له (كوبرنيكوس) متهتم في العلوم الرياضية واشتغل بالهيئة والرصد والحكمة من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ من الميلاد وهي سنة ٩٣٧ من الهجرة فرجع إلى الطريقة التي كان عليها (فيثاغورس) المؤسسة على حركة الأرض وقرّر أن الشمس مركز وأن الأرض والسيارات تدور حولها ، فأولا عطاردهم ثم الزهرة ثم الأرض ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل ، وأيد هذه الطريقة بأدلة وأشهر ذلك في كتاب له عنوانه [ حركات الأجرام السماوية ] حكم عليه في مجمع كنيسة رومة بالزنج والإلحاد ولو أمكنهم قتله لقتلوه ونهوا عن إظهار كتابه ومع ذلك شاع هذا للذهب فنسب إليه وقيل هيئة (كوبرنيكوس) ثم قام بعده جماعات في جهات متعددة وأزمان مختلفة في أنحاء أوروبا وعتولوا على هيئته ومموها بالهيئة الجديدة ومموها التي قبلها بالقديمة ، وأنت ترى من هذا أنها في الحقيقة هي القديمة وأن تسميتها جديدة بحسب ما شاع وظنه كثير من الناس خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة ، والطريقتان المذكورتان مستفيضتان في الكتب الإسلامية وقد ذكرها العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد التتوفي سنة ٧٥٦ من الهجرة في كتابه المسمى بالمواقف وأورد على طريقة دوران الأرض اعتراضات ثلاثة ، ثم كر على تلك الاعتراضات بالقض والردّ وجرى معه على ذلك شارحه العلامة السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني التتوفي سنة ٨١٦ في شرحه وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧ فليراجعه من أراد وليتأمل البصير وكيف كان علماء الإسلام يدرسون الطريقتين ويعرفونهما حق معرفتهما قبل أن يظهر (كوبرنيكوس) .

وبدعى البعض أن ما تلقفوه من أفواه أسانذتهم من الأفرنج تقليدا لهم مخترع من عندهم لم يسبقهم به أحد وهكذا نسبة كثير من السائل إليهم مع أنهم في الحقيقة ناقولون عن غيرهم ويدعون أنهم هم السابقون فليتأمل المنصفون ، راجعي تاريخ العلامة (سدوي) للؤرخ الشهير الفرنسي ، تعلمي الحجج الدامغة التي ألقاها على أن أكثر الاختراعات لبني جنسه كذب محض وأنها في كتب العرب من قبل ، فقالت له قد طال



الكلام في هذا الموضع فما رأيك ؟ فقال : إني قد تمت الأسباب إلى رأيي في صدر هذه المقالة وأريد الآن وضوحاً فأقول :

إن الله عز وجل فطر كل مخلوق على فطرة تناسب احتياجه ، ولو نظرنا لجميع الحيوانات التي على وجه الأرض وكذا الإنسان لوجدنا كل فرد منها يعلم ما يحتاج إليه حق العلم ويجهل ما عداه لطعام من الله تعالى به ، ولما كانت الكواكب والأفلاك لا تحتاج منها إلا إلى القوانين الحسابية أظهرها لنا اللطيف الخبير بالبراهين القاطنة ولم يحرم وطيس الخلاف بين الأمم في الأرمنة المختلفة فيها والخلاف فيها يسير جدا لا يهدم أصلا من الأصول ، أما معرفة أجرام السماء وسكانها وهل الأرض التي تدور أم الشمس ؟ لجهلنا به وعلنا سيات لا يتوقف عليه أمر من أمور معاشنا لما ثبت بالبرهان أن الحساب لا يختلف سواء اعتبرنا الأرض هي الدائرة أم الشمس .

ومن عجيب الأحكام أن أدلته ظنية فعظم الخلاف بين الطائفتين بالاثبات والنفي وكأن الله أراد أن يرينا أن أقرب شيء إلينا جهلناه ! وباللجب كيف نجهل حالنا مع أرضنا ؟ أعين مقيمون أم ظاعنون ؟ ومستقرون أم متحركون ؟ وذلك مصداق لقوله عز وجل « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » فكيف من شيء جهلناه وهو قريب منا كسألة الروح فقد احتدم فيها الوغى بين العلماء في كل عصر ولم يهتدوا إلى الآن . وما علم الهيئة إلا كعلم الطب فإنه ظني أيضا ، فقالت الفتاة لقد بنيت كون الهيئة علما ظنيا على أنه ليس مما يحتاج إلى تحقيقه في المعاش والمعاد وعلى قياسه على الطب ، وأنا أحتج على أن المسألة يقينية بما رأيت في كتب القوم من البراهين فلا أسلم أن علم الهيئة ظني ، فقال اختصرى في البراهين فالوقت لا يسع والقصد أن يكون مجلسنا بهذا لطيفة وإعمار علوم لأجدليا ، فقالت: استدلوا [أولا] بأنه لا يصح دوران الجسم الأكبر حول الأصغر فالعكس هو الطبيعي [ثانيا] كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الأرض [ثالثا] تغير ظل الأرض وقت الحسوف على سطح القمر بهيئة تدل على أنها دائرة وظلها يتبع لها [رابعا] ذبذبة البندول فقد وضموه وضعا بدقة لا يتأثر بمؤثر خارجي عليه فرسم خطوطا تقطع وتكون رؤوسها أقواسا تطول كلما قرب البندول من القطبين وتقتصر كلما قرب من خط الاستواء وفيه يكون على خط مستقيم دائما [خامسا] أنهم وضمو مقداراً من الزيت في الكؤول وأداروه بإبرة فدار وتكوز وتفرطح في قطبيه إلى آخر ما قالوا فلعلها مثله ، فقال لها إبراهيم بعض هذه الأدلة أقيسة تمثيلية وهي لا تثبت حكما . وبعضها مبنى على الاستبعاد وهما لا يفيدان القطع ولكن باجتماعها أفادت الإقناع لا اليقين ، فقالت الفتاة : هل القرآن ينفي هذا للذهب على فرض أنه يقين ؟ فقال إن القرآن كلام الحكيم الذي أعجز جميع البلغاء والمصحاء ولم يكن القصد منه أن نشغل أذهاننا بتطبيقه على كل مذهب يحدث في العالم وعقول الناس تتفاوت ، ولو طبقناه على هذا المذهب هل نؤمن أن نحدث مذاهب أخرى فوجب أن يطبق عليها أيضا ؟ كيف ولم تذكر العلويات فيه والكائنات الأرضية إلا ليصرف كمال الصانع بالصنعة ؟ أما كون الصنعة دائرة أو ساكنة فذلك ليس محل بحث ، وكما حاول العلماء تطبيقه على الهيئة التي أدرجت في الألف كفان مع أن كثيرا من ظواهر الألفاظ كان مخالفا حتى جاء اكتشاف الإفرنج فأبطل المذهب السابق وظهر أن تلك المحاولة والتطبيق على المذهب الباطني لم يصادف محله ، على أن علماء الإسلام كانوا يضللون الفلاسفة السابقين ويخالقون مشاربهم بأرائهم الثابتة حتى وافقوا من قبل علماء الإفرنج في هذه الأيام ، فقالت وهل تذكر شيئا من ذلك ؟ فقال نعم .

أولا : نفس دوران الأرض ، فقد شتم من كلام صاحب الواقف أنه يعتمد على هذا كان قبل أن يعرفها الإفرنج .

ثانيا : كانوا يعتقدون النحاس والسعد وخراب الدول وعمارتها من آثار العلويات .

ثالثا : عدم الحرق والالتهام في الفلك .

رابعا : أن الأفلاك لها نفوس وإرادات

خامسا : أن بعد الهواء كرة النار .

وكل ذلك نقضه علماء الإسلام وواقفهم الإفرنج في هذه الأيام ، على أننا لو أرخينا العنان للقلم ونظرنا في القرآن لوجدنا ما يشير إلى الطريقة الجديدة وإن لم يذكر في كتب للتقدميين ، منها قوله تعالى « صنع الله الذي أتقن كل شيء » بعد قوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » ومنها أنه قال « وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ينعش الليل النهار » فذكر الليل والنهار بعد ذكر الأرض يشير إلى أنها من آثار الأرض ويقوى ذلك أنه قال « ينعش الليل النهار » فجعل الليل الذي هو ظلة الأرض ينعش به النهار الذي هو ضوء الشمس فيه فليصح إلى أن الأرض هي التي تحدث ذلك بفعل الله تعالى ، ومنها « والشمس وضحاها » والقمر إذا تلاها » والنهار إذا جلاها » والليل إذا يشاها » فجعل النهار الذي هو في مقابلة وجه الأرض للشمس مجليا لها ، والليل الذي هو الظلة الأصلية للأرض منسبيا لها فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس وهو الليل والنهار الذي هو من آثار الأرض ، وهذان الوجهان ذكرهما العلامة الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي ، ومنها قوله « وكل في فلك يسبحون » بعد ذكر الأرض والقمر والشمس ، ومع ذلك كله فالقرآن لا يعارض شيئا من هذه الأشياء على أننا لا نحتاج لتأويل القرآن إلا لليقينيات وهذا ليس منها ، فإن نوع بني آدم لا يمكنه أن يحيط بشيء من علم الله تعالى إلا بما شاء ، وهل يشاء الله أن تعلم ما لا مصاحبة لنا في علمه ؟ بل علم مثل ذلك ربما أضرت بمصالح الإنسان من حيث ولوعه بما هو بعيد عنه وربما يشغله عن أمور معاشه ، بل الأعرب أن أحد العلماء الفرنسيين للتأخرين قال ما ترجمته [ إن للعقل حدا محدودا لا يتجاوزه ، فإتصاب العقل في معرفة الأجرام العلوية وماهيتها كإتصاب البصر في أن يرى ما فوق السقف من أسفله ، فهب أنك أعتته بأعظم الرأيا المكبرة فإنه لا يمكن أن يحترق السقف حتى يرى ما فوقه ] ويناسب هذا ما صرح به عالم الفرنسيين للسمى ( فيلسكس لامبروس ) في القرن التاسع عشر من قوله [ إن الجذب كلمة يعلم منها الفعل لا السبب ، فإن هذا للعلمي بحث عنه الطبيعيون فلم يوفوه الخ ما قال ] . فكلام هذين العالمين يؤيد ما قلنا من أن هذه ظنيات ، انظره في كتابنا [ ميزان الجواهر ] وسيرد عليك فيه أيها القارى إن شاء الله تعالى أن كل حيوان له حد ومقدار في المعارف لا يتجاوزه ولا ينقص عنه ولولا ذلك لاختل نظام العالم . ههنا انتهى الكلام على المقام الأول وهو دوران الأرض وكرويتها .

### الشمس وشفاء الأمراض

قبل الانتقال إلى الكلام على [ المقام الثاني ] يحسن أن أتف وقفة معك أيها الذكي أريحك فيها من عناء الفكر وإتصاب الدهن بذكر بعض منافع الشمس فانتقل بك من مسألة الدوران وما يتبناها إلى منافع نورها في صحة أجسامنا ونضوية قواها لترى اتساع هذا النظام ، فبينما نراها تنعم بالتفصيل بقربها وبعدها وبحيما الحيوان وينمو النبات بها ، إذا بها تقوم مقام الأدوية التي امتلأت بها الصيدليات التي يشي بعض المرضى بها وكثيرا منهم تضره الأدوية لعدم تحرسي الطبيب ولجهله وقلة علمه وعدم إلمامه بأطراف موضوع المرض . وقد أجمع العلماء أن المعالجة بالأمور البسيطة أفضل من المعالجة بالمركبة ، والبسيطة مثل الهواء والماء والشمس . فهناك ماقاله طبيب فاضل في مقالة نشرها في صيف هذه السنة ( سنة ١٩٢٧ م ) قال ما نصه :

## الاستشفاء بنور الشمس في الصيف

عند حلول فصل الصيف يؤم كثير من سكان المدن شواطئ البحار والجبال للاصطياف تمتعا بالراحة واستنشاق الهواء النقي لتصح أجسامهم وتستقيم صحتهم ، ونظرا لحلول موسم الاصطياف هذا العام رأينا لفت نظر الجمهور وكل من يهجم الاحتفاظ بصحته وصحة عائلته وأولاده إلى أن هناك قائدة كبرى ، بل هناك كل القائدة من تريض الأجسام للشمس .

ولما كانت الأشعة فوق البنفسجية وهي العنصر الفعال في الطيف الشمسي لا تتوافر بكثرة إلا على الجبال وشواطئ البحار وفي الحقول وذلك نظرا إلى صفاء نور الشمس وتقاوة الهواء في الجهات المذكورة . فإن هذه الأشعة لا تتوافر تماما في المدن حيث يضيع معظمها باختلاط نور الشمس برطوبة الهواء والتبار والأبخرة .

والبرهان المحسوس على ذلك أن مدة قليلة يقضها المرء في الحقول أو على شواطئ البحار والجبال يجعل الجزء المعرض للشمس من جلده أصفر اللون في حين أن الإنسان لا تتغير بشرته لو تعرض للشمس في المدن ولو كان ذلك مدة طويلة .

إن الحمام الشمسي مفيد جدا إذا استعمل بالعناية التامة مع مراعاة الإرشادات التالية حتى يدرأ المرء عن نفسه ماعصاء يتعرض له من الضرر ، أما طريقة تريض الجسم للشمس فتتكون بالكيفية الآتية :  
يجب أن يتلقى الإنسان ضوء الشمس مباشرة على جلده من غير أن يجعل بينهما حائلا كالملابس والزجاج والحمام الشمسي يجب أن يحم الجسم ماعدا الرأس ، فإذا تمدر تريض الجسم كله لسبب من الأسباب وجب تريض أكبر مسطح مستطاع منه .

ويؤخذ الحمام الشمسي تدريجيا لأنه إذا عرض الجسم كله دفعة واحدة من أول مرة مدة طويلة أصيبت الأحشاء بالاحتقان والبشرة بالنسلخ ، ويؤخذ الحمام الشمسي كل يوم حتى في الأوقات التي يكون فيها الجوق ملبدا ببعض الغيوم ، ويجتنب التعرض للشمس في الأوقات التي يكون فيها الحر شديدا ، كما يلزم تنظية الرأس بقبعة من القش واسعة الأطراف ، أو يستظل بمظلة فاتحة اللون مع وضع نظارات ذات زجاج ملون وعلى السيدات أن يضعن شاشا ملونا على وجوههن وأن يلبسن قفازات منعا لتأثير نور الشمس واستمرار وجوههن وأيديهن ، ولا بد من اجتناب تيار الهواء .

وتراعى في الحمام الشمسي أمزجة الأشخاص بالنسبة إلى السن ولون البشرة وحجم الجسم ، لأن المذكور والبدنين والسمرا اللون يتحملون حرارة الشمس وتريض أجسامهم لها مدة أطول من اللدة التي يتحملها الإناث والأطفال ونحيفو البنية وذوو البشرة البيضاء .

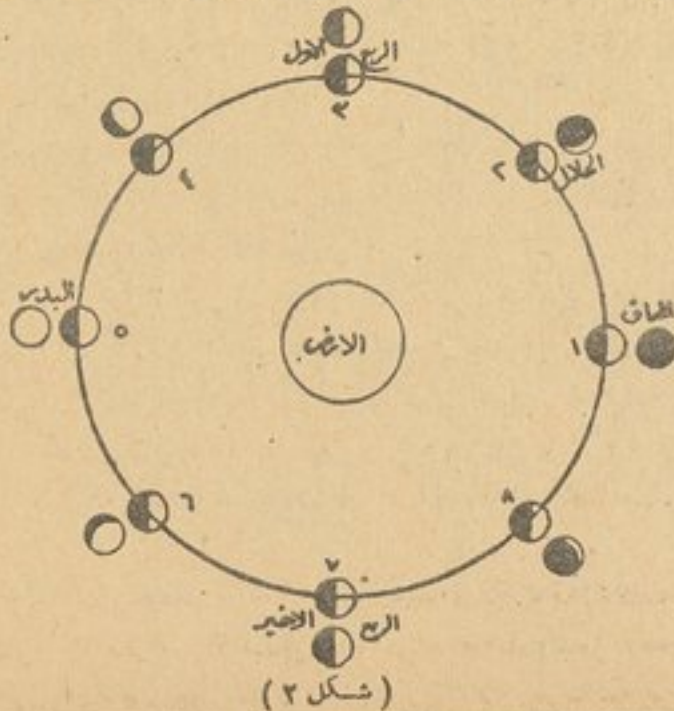
وعلى من يريد الاستشفاء بنور الشمس أن يشرب كمية كبيرة من مياه الشرب أثناء ذلك ، ويعين أن يكون التعرض مرتين كل يوم : مرة في الصباح بعد طلوع الشمس بمدة قصيرة وقبل القطور بنصف ساعة تقريبا ، ومرة أخرى قبل الغروب بنحو ساعة لأنه لوحظ أن الأشعة فوق البنفسجية تتكثف في الطيف الشمسي صباحا ومساء أكثر من وجودها وسط النهار ، وللواعيد التي هي أكثر ملاءمة في هذا الفصل هي ما بين الساعة السادسة والتاسعة صباحا ، وما بين الساعة الخامسة والسادسة مساء والتريض يكون بالطريقة الآتية :

يضطجع الإنسان في الشمس ويغطى رأسه كما تقدم ، وفي اليوم الأول يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه مدة خمس دقائق ، وفي اليوم الثاني يرفع ملابسه عن أطرافه العليا والسفلى ، وبعد خمس دقائق يغطى ذراعيه ونغذه ، وخمس دقائق أخرى باقى الأطراف ؛ وفي اليوم الثالث يرفع ملابسه عن بطنه وأطرافه ،

وبعد خمس دقائق يغطي بطنه ، وخمس دقائق أخرى يغطي ذراعيه وغذيه ، وخمس دقائق ثالثة يغطي باقي الأطراف ؛ وفي اليوم الرابع يرفع ملابسه عن جسمه وبعد أن يعرض صدره للشمس مدة خمس دقائق يغطيه ثم يغطي بطنه بعد خمس دقائق ، ثم ذراعيه وغذيه بعد خمس دقائق أخرى ، ثم باقي أطرافه بعد خمس دقائق من ذلك ويعرض ظهره مدة خمس دقائق ؛ وفي اليوم الخامس يرفع جميع ملابسه عن جسمه ويعرض عنقه مدة خمس دقائق ثم يغطيه وهكذا يوما بالتدرج إلى اليوم السابع الذي فيه يعرض الرء جسمه جميعه مدة ساعة من الزمن ويستمر بعد ذلك على هذا للنول مدة ساعة أو أكثر حسب استعداده .

والنتيجة المؤكدة لتعريض الجسم للشمس هي تيبه القوى وتحسين الشهية للطعام وإزالة فقر الدم وتنشيط الجسم الحامل وتنظيم الدورة الدموية وإعاش الجهاز العصبي وإصلاح وظائف الأحشاء وإبادة للكروبات التي قد توجد على سطح الجلد وتحسين وظائفه ، كما أنها تضاعف الفعل الشافي للأدوية ومختلف طرق العلاج . هذا ، والفائدة التي تعود على من يستعمل الحمام الشمسي هي أعظم بكثير مما لو اقتصر الرء على استنشاق الهواء التي دون تعريض جسمه للشمس الأمر الذي دعا مصلحة الصحة العمومية لأن تجعل تعريض الأطفال لنور الشمس لوقايتهم من الكساح في اللقاهم الأخير مع العلم أن الأفكار انجهدت في أوروبا وأمريكا وخصوصا في ألمانيا لتعريض أجسام الأطفال إجباريا للأشعة فوق البنفسجية - واء كانت مبائرة من الشمس أو من الجهاز الصناعي لوقايتهم من مرض الكساح كما هي الحال عندنا في النطعم الإجباري للوقاية من مرض الجدري ، ولذلك ننصح المصطفين سواء كانوا على شواطئ البحار أو على الجبال أو في الحقول أن يهتموا بتعريض أجسامهم للشمس في الصباح والنساء أكثر من أن يهتموا باستنشاق الهواء النقي فقط انتهى .

تقدم الكلام على الشمس والقمر في سورة الأنعام عند قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » وقد رسمت هناك صور الشمس وتواجهها ولم يرسم هناك القمر فوجب أن يرسم هنا وجوه القمر ، لأن ما هنا من الآيات مكتملة لما هناك إذ جاء في هذه السورة ما هو أوضح ، وسرسم أيضا صور المجموعات الكوكبية والسدم ليكون الطالع على هذا التفسير قد ألمَّ بجمال هذا العلم وفرح بالحكمة ، فهناك صورة أوجه القمر :



## الكلام على المقام الثاني

وهو بيان أن المساحة والميزان والمكيال في بلادنا المصرية تابعات لسير الشمس  
ستمجب أيها الذكي من هذه الجرأة وتقول أي مناسبة بين الرطل والآفة والوقية والدرهم والقنطار  
وبين سير الشمس وقول الله تعالى « لتعلموا عدد السنين والحساب » في هذه الآية توجب وحق لك أن  
تستجيب مني أن أدعى دعوى يصعب تصديقها بل لا تعقل ، وكيف يعقل أن الكيلة والربع واللوة والقدرح  
والأردب في بلادنا المصرية منسوبة لسير الشمس ، وأي عقل يتصور ذلك ، إن الأردب ١٢ كيلة والكيلتان  
وية والكيلة الواحدة ربحان والربح ملونان ، وستدهش من قولي لك إن القدان منسوب مساحته  
لسير الشمس في السماء ، سيدهشك قولي وتقول : أي مناسبة بين مساحة القدان وسير الشمس  
وآيات القرآن .

كل ثلاثة فدادين (١٠٠٠) قصبه والقصبه ثلاثة أمتار ، و (٥٥) ستمتيراً ، فأين الشمس هنا  
وأين القرآن ؟

ثم إن الناس يقيسون الأنواب بالذراع البلدي للمروف وبالهنداسة وعندهم ذراع يسمى ( الذراع النبلي )  
لاناسبة بين هذه كلها وبين الشمس وآيات القرآن ، هذا ما يخاطر بآلك وقت كلامي في هذا المقام .  
أما الجواب عليه فهو وإن كان يعرفك السبب فإنه لا يدع العجب ، بل إنك عند ماتعرف الحقيقة تزيد  
دهشاً وعجيباً ، فهناك ملخص ما سياتي في سورة الرحمن ألخص لك منه ما يكفيك الآن ، وهناك  
يزيد الإيضاح .

إن الله يقول هنا « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » لماذا قدره منازل ؟  
« لتعلموا عدد السنين والحساب » إذن تقدير النازل يعلمنا عدد السنين ويعلمنا الحساب ، والحساب يدخله  
الكيل والوزن والمساحة للمبر عنها في سورة الرحمن بالميزان إذ يقول هناك « والسماء رفعها ووضع الميزان »  
ألا تظفوا في الميزان » يقول هناك إنني رفعت سمواتي ووضعت فيها الميزان بحيث يكون سير الشمس وغيرها  
بحساب لأجل أنكم لا تزيدون في ميزانكم ولا تنقصون بل يكون للميزان حقا ، فهذا هو قوله « وأقيموا  
الوزن بالقسط ولا تحسروا الميزان » هذا كلام الله فانظر عمل الإنسان قبل أن ينزل القرآن بألاف السنين .  
محمد المصربون القدماء إلى ( الهرم الأكبر ) فبنوه على مقياس مدار الشمس السنوي لجعلوا :

(١) محيط (الهرم الأكبر) جزءا من مليار من محيط مدار الشمس السنوي أي من ألف ألف ألف

جزء منه .

(٢) ارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض أي مليار .

(٣) ضعف الارتفاع المذكور يساوي قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم .

(٤) فالارتفاع نفسه يساوي جزءا من مليار من البعد بين الشمس والأرض .

(٥) ضلع الهرم يساوي جزءا من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية .

(٦) الصلع المذكور يساوي (٤٠٠) ذراع بلدي أو (٣٦٠) هنداسة .

(٧) الذراع البلدي جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط أي من مائة مليار من محيط

الدائرة الشمسية .

(٨) ربع الذراع البلدي المكعب ألف درهم من الماء المقطر .

(٩) وكل ١٢ درهما أوقية وكل ١٢ أوقية رطل فالرطل ١٤٤ درهما والقنطار مائة رطل ، ثم إن

المنائيس منها عشري ومنها اثنا عشري .

(١٠) الأردب ذراع بلدى مكعب .

(١١) الأردب إذن جزء مكعب من (٤٠٠) من الضلع المذكور ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية .

(١٢) الفدان (١٠٠) هنداسة في (١٠٠) هنداسة تسارى (١٠٠٠٠) عشرة آلاف هنداسة فطولها مائة وعرضه (١٠٠) فهو نسبة عشرية ، والهنداسة جزء من (٣٦٠) جزءا من ضلع الهرم المنسوب لرابع محيط الدائرة الشمسية .

(١٣) الذراع النبلى ٥ من ٦ من الهنداسة فيكون ضلع الفدان (١٢٠) ذراعا نبليا ، والفدان (١٤٤٠٠) ذراعا نبليا ويكون القيراط (٦٠٠) والنهم (٢٥) والذائق (١٠٠) فالذراع النبلى والهنداسة كلاهما بحبان الفدان (١٠٠ في ١٤٤) يساوى (١٤٤٠٠) .

هذا هو الذى فعله قدماء المصريين ، انظر كيف يقول الله « لتعلموا عدد السنين والحساب » وانظر كيف كان نفس هذا السر هو الذى صنعه قدماء المصريين كيف علموا أنه لن يستقيم لنا وزن ولا كيل ولا مساحة إلا بنسبة محفوظة وعلموا أن أرضنا ليس بها شيء ثابت فلم يروا أثبت من مدار الأرض حول الشمس في مدارها السنوى الذى هو مدار ظاهرى للشمس حولها ، علموا ذلك فبنوا الهرم الأكبر على مقتضاه حتى إذا تهدم رجع الناس إلى الدائرة الفلكية فقاوسوها وإذن يصححون مقاييسهم . هذا كلام الله وهذا سره الذى ظهر على يد قدماء المصريين قبل نزول القرآن بألاف السنين ، وهذا أعجب العجب .

إن الفرنسيين لما أرادوا أن يجعلوا لهم وحدة حاولوا أن يصنعوا ماصنه قدماء المصريين ، فإذا فعلوه ؟ قاسوا درجة أرضية كما فعل العلكى المصرى المتقدم ذكره هنا ثم ضربوها في (٣٦٠) درجة التى هى الدرجات لكل دائرة وجعلوا ذلك (٤٠٠٠٠) أربعين ألف كيلومترا أو (٤٠) ألف ألف متر وقالوا إن المتر الواحد جزء من (٤٠) مليون جزء من محيط الكرة الأرضية ، وعليه أخذ الناس بقياسون به ثم بعد ذلك علموا أن محيط الكرة الأرضية لم يكن قياسه مضبوطا بل هناك خطأ ، والإنجليز نظروا نظرة أخرى فإنهم عندما (الباردة) التى هى أقل من المتر فهم نحو (٩١) من مائة من المتر ، ثم أيضا حاولوا الرجوع إلى نظام الطبيعة ، فجعلوا الyarde هى المقياس لأنها عبارة عن طول الساق المعدنى الذى هو رقاص الساعة الذى يتحرك مرة واحدة فى الثانية إن رقاص الساعة إن طال قلت حركته ، وإن قصر أسرعته فهذا الرقاص الذى يتحرك مرة واحدة فى الثانية هو الذى جعلوه مقياسا ، وإنما أوردت لك فعل الفرنسيين والإنجليز لتعلم وجهة النوع الإنسانى فإنهم جميعا يريدون أن تكون مقاييسهم على نظام ثابت وأى ثبات تغير النظام العام ، فالأوروبيون رجعوا للعالم الأرضى ونظامه ، وقداماء المصريين رجعوا لدائرة الشمس ، ثم إن الفرنسيين نسبوا جميع المسكيل والموازين إلى المتر كما فعل قدماء المصريين سواء بسواء .

ههنا عرفت الحقيقة وأدركت سرا من أسرار القرآن ، وههنا يتبدى لك العجب الأكبر ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى هذه السورة « فالأيوم نتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » . أليس من الآيات التى أظهرها الله على أيديهم وغفل عنها أكثر الناس قبل زماننا ما ذكرته لك الآن فى الهرم وبنائه ؟ أليس الهرم محلا تدفن فيه جثث أحد الفراعنة وإن لم يكن فرعون موسى ؟ وسترى فى هذه السورة أنهم وجدوا صورة البروج مرسومة على تابوت أحد القدماء من المصريين كما سأوضحه هاك ، فله أبقى جثث الفراعنة وألهم علماءهم أن يضعوا أسرار السموات على تلك الأبدان تارة بالرسم والتصوير كما ستراه فى هذه السورة ، وتارة بالأبنية التى أسست على نظام السموات وسير الشمس

إن هذه هي الآيات التي وُجِّعَ الله العالم الإنساني على جهلها فقال « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ذم الله الناس على التغفل عن علوم قدماء المصريين التي دونوها على نوابيتهم أو بمباينهم وهندستها كما عرفت في الهرم

هذا هو السر للكون ، وهذا هو العلم المخزون ، وهذا من أجل أسرار القرآن ، وليس التبسيط قاصرا على المسلمين بل يعم الناس كلهم كالفنانيين والإنجليز الذين أسسوا موازينهم ومقاييسهم على نظم ليست أدق من نظام قدماء المصريين .

فيآيات شعري كيف يعيش المصري للسلم ويموت وهو يجهل أن السكينة والذراع البلدي ومساحة الفدان منسوبة للهرم وليسر الشمس ؟ أم كيف يعيش المسلمون ويموتون وهم لا يعلمون أن هذا قد جاء في القرآن وأن موازين المصريين ومكاييلهم قد ذكرها الله في القرآن وهي له معجزة وأي معجزة ! .  
الهم إن المسلمين اليوم قوم نيام وقد آن استيقاظهم وأقبلت أيام مجدهم « ولينصروا الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

#### تذكيرة للأمة المصرية وللأمة الإسلامية

قد كنت وعدت في سورة الأعراف أن أكتب في هذا المجلد ما كتبت له لمجلس النواب المصري ومجلس الشيوخ والوزارة في شأن التعليم في المدارس المصرية أيام الاحتلال الأوروبي فإن هذه الآيات جمعت العلوم التي يجب أن يعرفها المسلمون ولا يحزمون من علوم القرآن التي تمتع بها أهل أمريكا واليابان والصين وأوروبا لحسد الأوروبيين لنا خيفة رجوع مجدنا ، فعلىنا الآن لما رجع التعليم إلى حظيرة الوطن وردت بضاعتنا إلينا أن ندرس العلوم كلها ، وهذا نص للتذكيرة :

#### مذكرة لإصلاح التعليم الثانوي بالمملكة المصرية

قدمت إلى أصحاب العالی رئیس مجلس الشيوخ ومجلس النواب ووزير المعارف

(١) لكل جماعة متعددة من الطوائف الإنسانية صفات خاصة تشملهم وأحوال معلومة تجمعهم وتثبت وحدتهم وتصون ألفتهم ، فإذا انتفت تلك الصفات أو نقصت زلت قدمهم وزالت وحدتهم فنفروا شذرا مذر وهم غافلون .

(٢) إن أقوى دعائم الوحدة ما يتعلمه الطلاب في المدارس العامة من العلوم ، فإن أواصرها تربطهم وتجمع الأبناء في ساحة الآداب والسكال .

(٣) ليس التعليم الابتدائي بمنزلة فتيل في هذا الضمار ، كلابل هو محمد لما هو أعلى مراما وأثبت نظاما ، وكذلك التعليم في المدارس العالية فلما هو لاختصاص الطلاب في أمور عملية . إن مدرسة الطب والصيدلة ومداداة الإنسان ، ومدرسة البيطرة للحيوان ، والزراعة لنظام الحقول ، والحقوق والقضاء للفصل في الخصامات ، والهندسة للرئى وللبنيان ، والحربية والشرطة لحفظ الثغور ونظام الجمهور .

(٤) فإذا ن التعليم الذي يشترك فيه أبناء الأمة ويحفظ وحدتهم ويوسع مداركهم العامة هو التعليم الثانوي وعليه للمقول في الأمم الرافية الآن وفي مصر قبل نحو ٣٥ سنة وما عداها فلما محمد له وإما صناعات عملية .

(٥) فلننظر نظرة عامة في مدارسنا المصرية الثانوية ، إنها خالية من العلوم التي بها الحياة فليس بها علم الثبات ولا علم الحيوان ولا خلاصة من تشريح الإنسان ولا نبذة في علم الهيئة ؛ الطالب في الثانوي لا يدرس طبقات الأرض الصرورية للحياة ولا ما في الجبال المصرية من المعادن ولا الأقوام الذين ولدوا للمصريين وسكنوا

السودان ولا أوامر القرابة التي تربطهم ولا يعرف من تاريخ عظماء مصر قديما وحديثا إلا قليلا بمبتمرا  
غير مشوق لحب الوطن .

لقد حدثني الأستاذ (ادوارد براون) الإنكليزي المستشرق حينما زار مصر أيام الاورد كرومر قال :  
[ أرسلت لى حكومتنا البريطانية ثياب عشرات من رؤساء القبائل الجندلين في حرب التمايشي لأترحم  
الأوراق المهوطة فيها فوجدت منها ما يشابه الهولة العباسية خطأ وإنشاء ، ومنها ما يناسب دولة الأمويين ]  
فصبت كيف يعرفون قبائلنا ونحن عنها غافلون ؟ .

(٦) إن الطالب في الثانوى ليس لديه ما يشوقه للعلوم وهو يجهل ما بين يديه وما خلفه وما تحته ، يجهل  
طبقات الأرض ومعادنها إلا قليلا ، ويجهل ما في دارة من حيوان ، وما في حقله من نبات ، وما في جسمه من  
أعضاء ، ودورة دموية ، ودورة تنفسية ، ودائرة عرقية ، وما فوقه من نجوم لامعات ؛ اللهم إلا تلك النبذة  
الضئيلة في كتب الجغرافيا ، إنه لا يدرس نفسه ، ولا هضم طعامه ، ولا نظام الضياء والظلام ولا هروته التي  
يألفها ولا فرسه التي يركبها ، ولا الزهرة التي يستحسنها ويشمها ، إن التعليم في الثانوى يحول العقول إلى  
الخيال ويصرفها عن المسوسات ، وهو الذي صرف بعض الأذهان عن حقائق العلوم إلى خيال الروايات  
وضياع الأوقات ، إن حاسة البصر جردت من أكثر مدرستها العلمية فانصرفت النفس إلى شهوتها إلا من لهم قدم  
في الفضل ثابتة وجدّة عظيم ، ومن أغمضت عينه عن اللذائيات ناب عنها سمعه فاحتاج إلى قائد كما لعميان ،  
هكذا يفعل الغرب إذا نصح للشرقيين ، لو كان التعليم الثانوى تاما كما في البلاد الغربية أو كما كان  
في مصر قبل الآن لكان ذلك نورا على نور الذكاء وظهر الذكاء للصيرى فريدا .

(٧) لولا الذكاء للصيرى والاجتهاد الفردى والتعليم في أوروبا وعموم الجرائد والمجلات والهضة العلمية  
الصيرية مارأينا في البلاد تابعين ولا قادة ماهرين ، لقد كان التعليم الثانوى شاملا في مصر في أوائل الاحتلال  
وقبله أكثر هذه العلوم المفقودة الآن ، ولقد كانت مدته خمس سنين وكانوا يدرسون العوالم المحيطة بهم ،  
ثم اعتري التعليم ما اعتراه بالتدرج وحرمان أبناء النيل ارتشاف مناهل العلم بأصول الكائنات وجمال مصر  
ومعجائب السودان وغرائب ما فيه من المعادن والنبات .

(٨) إن التعليم في المدارس الثانوية إن لم تتوجه هم أصحاب الشأن وأولى الأمر بالبلاد إلى تربيته أصبح  
المهندس أو القاضي أو كل من له رياسة عامة في الأجيال المقبلة في دائرة محدودة من العلوم ، يقول العلماء :  
[ البلادة خير من القطانة البتره ] وإذا كان الجهل شرا فشر منه نقص يدلى إلى غرور ، فأولهما جهل  
بسيط ، وتانيهما جهل مركب يجعله الأمم المفيرة سلاحا لتقتل به الضعفاء ووسيلة لتغلب الأنوياء ، فأما الأمم  
المستقلة فهي التي تراعى النظام التام وتفتح باب العلم واسعا ليجرح طلاب الثانوى شوقا إلى العلوم ، إن اتساع  
التعليم الأولى في البلاد لا يفي شيئا عن التعليم التام ، إن متعلما واحدا خير من آلاف الآلاف من المتعلمين  
تعلما أوليا ، فهو رأسهم يقودهم إلى طريق الفلاح ، فإكمال التعليم الراقى لقواد الأمم أزم لها من تعميم التعليم  
الأولى في البلاد .

(٩) لقد أدرك هذه الحقيقة في مصر الأستاذ لمير الفرنسي ناظر مدرسة الحقوق سابقا وظهر ذلك  
في حادثته المشهورة بينه وبين وزارة المعارف إذ أبان لها ذلك القصر الشأن في التعليم الثانوى قائلا إنه لإصلة  
بين نفسه وبين السكال في دراسة الحقوق ، وكيف يكون دارس الحقوق خاليا من مبادئ المنطق وبعض  
العلوم ؟ فكان جزء ذلك الحرّ الشجاع أن قدم استقالته وسافر إلى ليون وأصبح أبا وأستاذا لطلاب  
الحقوق بفرنسا من المصريين إجماعا بذكائهم وهم مجدون .



(١٠) إن لم يغير هذا المنهج أصبح طبيعة راسخة وهبات هيبات أن يغيره متخرجون في مستقبل الأجيال وكف يظنون غيرهم ما يجهلون ؟ وكل امرئ بمله مفتون ، والفرور يعمى ويصم ، والناس أعداء ما جهلوا ، فإليك أيها القادة أوجه خطاي هذا ، وقتنا أنه يوافق مقاصدكم البيلة التي أجهت أنظاركم إليها حتى ترى زهرة البلاد مقبلين على العلوم عاكفين على البحث والتنقيب فلا نمود نسمع من أكبر تاجر للكتب في مصر أن أبناء البلاد معرضون عن الكتب العلمية عاكفون على الأدبية ونحوها .

إن المتعلم إذا اقلعت عين بصيرته العلمية فلم يشق العلوم كان آخر عهده بها نيل الشهادة ويكون ذلك مفتاح الثروة والحرص فيود لو فتتح له الحكومة خزائنها ليقضى منها لباته ويكون عالة عليها وهو في فرور ، أما إذا افتتحت عين بصيرته بما ذكرناه من العلوم فإنه يرجع بآتمته إلى مراقي الفلاح ، وإذا كانت مدارسنا الثانوية قبل عهد الاحتلال وفي عهده حافلة بهذه العلوم وكان للتملون غير البلاد بها وكنا نتحسر على تلك الأيام .

فما أسعد هذا اليوم إذا خاطب شيوخ الأمة وتوابعها وحكوماتها الوطنية وتمرانها الناضجة أن أغيثوا البلاد وأنتم خلاصة الأمة وقادتها وفيكم فطاحل التعلين والتأخين قبل قوات الفرصة ، وليدرس للتهج الثانوى الذى كان في مدارسنا قبل مسخه وليزد عليه ما يناسب هذا الزمان حتى يقول أبناؤنا :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا  
وها أنا ذا قد أدت ماوجب على وهيتكم الوفرة الرأى الأعلى .

جوهرة سنية في أن جمال الكواكب قبسة من عوالم الجنات عجبت في هذه الحياة اعلم أن الجمال على قسمين : جمال يشير فينا ما كمن من اللذات الحيوانية والشهوات الجسمية لداعية التناسل فهذا أدنى القسمين ، وهذا نوع من العذاب للعجل في الدنيا وذلك يشير له قوله تعالى « فلا تحسبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وزهق أنفسهم وهم كافرون » وكل جمال لاحظناه في شجر أو زهر أو تصور أو حود في هذه الحياة وكان قصارى أمره الشهوات الطبيعية أو التملك أو ما أشبه ذلك فهذا قد شبت لفته بالألم وجته بجهنمه وسعادته بشقائه ، فإننا نفرق بين جمال بستان تملكه وآخر لا تملكه بأن الأول يخالط جماله تكاليف الملك وعذاب الحرص وحسد العدو وغيره الصديق ومطالب نموه ورعايته وحفظه بأن نسقيه ونقيم عليه الحراس وما أشبه ذلك .

أما الذى لا تملكه من تلك للزراع والبساتين وما أشبهها فإن خطر بأنفسنا للوازنة بيننا وبين المالكين له ونحسرها أو حسدنا فإن ذلك من نوع العذاب ، فأما إذا لاحظنا أنه كشجر البادية أو كالغابات العاتية فإن ذلك الجمال لا ألم فيه يدعو لراحة النفس وسرورها وبهجتها على مقدار نصيبها من ثقل الجمال .

وقد لك نجد أن لكل أمة من الأمم الراقية حدائق عاتية وبساتين ومنتزهات تسر الجمهور ، فترام بحرصون الحرص كله ألا تكون الأشجار مثمرة ولا الأزهار أرجة ذكية الرائحة ، ذلك لتتمتع أبصار الجمهور ولا تتناوله الأيدي ، ولو أن هناك أثمارا مأكولة لحرص الناس على أكلها وتسايقوا إلى نيلها ونسوا جمالها فتصبح تلك البساتين أشبه في جمالها بالرجال عند النساء وبالعكس ، فإن جمال كل من الصنفين يدعو الآخر إلى التناسل الدامى إلى العمل في الحياة والشقاء .

إذن البساتين العاتية في المدن جعلت لراحة الناس من مشاق الحياة وأسقامها وآلامها ونسيان مرأزها وسعيرها لحيل بينها وبين الشهوات البهيمية التي فر منها الناس إلى الضواحي والحلوات .

ألا ترى رعاك الله أن جمال الكور والإينات إنما هو طليعة البرية وماهو إلا كالجلب يرى به للطائر فيقع في الشبكات ، إنه مقدمات لنظلم الأسرات لاغير وكما ازداد سنهما وكبر بنوها وبناتهما رأيت الحب

هو من الجمال الأدنى إلى الجمال الأعلى ، جمال المعاشرة وللساقفة في زينة التربية والتعاون والأنس والاشفاق بعد أن كانا في مبدأ التعارف لا يلحظان إلا حمرة الخد وجمال الوجه واعتدال الفم وطول الشعر ودمع العين ولسم الشفة وألا يفتر الثغر إلا عن لؤلؤ رطب أو برد أو أقحوان ، أصبحا لا يذكران إلا صحة الولد وإسماعه وتربيته وآدابه وقوته وتمله وما أشبه ذلك من مطعمه وملبسه .

فهذا كله دليل على أن الجمال في الجنسين وسيلة لا تقصد لذاتها بخلاف جمال الحدائق العامة والترفات ، لأن الجمال هناك مقصود لذاته ولو خالطته اللواتي الشهوية كالفاكهة لرجع إلى ماسمئ الناس منه في منازلهم وحياتهم الحيوانية ، إذا عرفت هذا فأتى وجهك إلى النجوم وانظر جمالها ولأجلها .

### الكواكب جنات للفكرين ولكن أكثر الناس عنها محجوبون

يا سبحان الله وإسماعناه . نظرت يأقفه إلى الأمم الأرضية العذبة فأرحمتهم بالحدائق في ضواحيها وزرعت لهم في الطرق أشجارا وجعلت لهم أوقانا يسمعون فيها للوسيقى وهكذا ، هذه لذات تكاد تكون خالصة من الآلام ليرجحوا نفوسهم من الأعمال الشاقة ، فانظر ماذا فعل الله بعد ذلك ؛ أفضل العيون وأفضل الجفون وأطفأ السراج الوهاج وأبرز النجوم وأشرفت الأرض بنور ربها في الليالي للدلهات وقال للحكماء : هذه هي الرياض فتمتعوا فيها وانظروا معانيها أنتم في حظرتي فما كوها ، فلئن أعدت أعمكم الرياض العامة لرياضة العامة ، فما أنادأ أعددت حدائق السهوية لرياضة الخاصة فأنسيتهم أسقام الحياة وآلامها أضاعف أضاعف ما أفضل مع العامة ، إن العامة أهدمت الأمم أن يبدوا لهم ما هو أقرب لعقولهم وأدنى إلى فهمهم ، فلم أخرجهم من سجن الحياة وذلك للعبشة إلا لما هو أقرب إليها وهي البساتين العامة فهي بساتين أرضية ، أما أنتم أيها الخاصة الذين أعددتكم لجوارى والقرب من العلم والحكمة فهاكم رياضاً جميلة واسعة هي مبادئ الجنات فهناك تلحظون عظمة الوجود ، فلئن ابتهج العامة والجهلاء بمنظر زهرة في شجرة فأنتم تبتهجون بدل كل زهرة بكوكب مشرق في ظلمات الليالي تزوه بأعينكم صغيراً وتلاحظونه بعقولكم كبيراً ، فبينما أعينكم ترسمه على شبكيته كأنه ليمونة إذا عقولكم ترسمه أكبر من أرضكم وأعظم من شمسم ، وها أناذا أبحث لخيالك أن يتصور ما يشاء من الصور الحسان الجليات فتتخيّلون ماسمئ عن الأرواح في العلم الحديث من أن هذه الكواكب ربما كان فيها سكان وأنهم أرفع مقاما من سكان أرضكم وأسعد حالا وأنعم بالا وأشرف منزلة وتمنون اللحاق بهم ليعيشوا معيشة أهنا ونسعدوا سعادة أكل ، فما أناذا ملأت خيالك بجمال باهر من النجوم ثم فتحت الباب على مصراعيه لتساقوا إلى الحيرات وتقولوا فلتكن أعمالنا مرضية وقلوبنا نقية حتى نسارع إلى ذلك الجمال ونعيش في باحات الكمال .

أقول هذا هو البستان الذي زرعه الله للفكرين من سائر أم الأرض ، وهذا البستان يجمله العامة في جميع الأمم ولا يفتقونه ، هذا البستان لا ألم فيه البتة ، جمال الحور الحسان في هذه الحياة مشوب بالأم .

أما جمال النجوم فإنه مشوق لما وراءه من علم وحكمة ودراسة ، وكما أن جمال الحور الحسان داع للتأمل ، هكذا هنا جمال النجوم داع لسراستها ، فليقرأ الناس أقدار الكواكب وأبعادها وأوارها فتصبح العقول ونحن على الأرض في عوالم أرقى وأرقى ويعدون المرصد في الممالك فيشاهدون مشاهد تنسبهم لذة العقول الصغيرة على الأرض ويرون أن الضوء الذي يسير في الثانية الواحدة مقدار (٣٠٠) ألف كيلومتر يحتاج في وصوله إلينا من بعض الكواكب التي تراها ليلا إلى ثلاث سنين بل إلى (٥٠) بل إلى (١٠٠) بل إلى (١٠٠٠) بل إلى (١٠٠٠٠٠) ألف ألف ، بل إلى ستين ألف سنة ، وقد تقدم هذا في هذا التفسير في مواضع مختلفة ، وأيضاً برون اختلافاً في أضوائها كالاختلاف في أبعادها ، فإذا جعلنا ضوء شمسننا واحداً

فهناك كواكب من هذه تكون أضواؤها منها (١٠) مرات بل (٢٠) بل (١٠٠٠) بل (٨٠٠٠) ثمانية آلاف كالمسك الرامح بل أكثر بما لا نعلم ، وهكذا في أقدارها بما لا يحصر له .

هذا يجعل ما يفكر فيه المفكرون في عالمنا ، إن الله عز وجل جعل على هذه الأرض أناسا أرقى من الناس وهم المفكرون وفتح لهم باب الجنة في هذه الحياة وهم على قسمين : قسم فرح بتخييل الأنوار في أضواء الكواكب وهذا لدننه خيالية ، فهو إذ ذاك في سلام وأمان من المموم والأحزان مادام على هذه الحال ، وهذه الطبقة من الناس قد دخلوا في اللذة الخيالية التي سيكونون فيها في البرزخ بعد الموت ، وقسم نظر في علوم تلك العوالم وضع الناس بها وأرشدهم وهذا أمدهم قبله ، وللأول الإشارة بقوله تعالى هنا « ونحبهم فيها سلام » ولثاني الإشارة بقوله « وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين » .

رياض الجنات التي أعدها الله في هذه الدنيا للمافرين وهياها للمفكرين في قوله تعالى

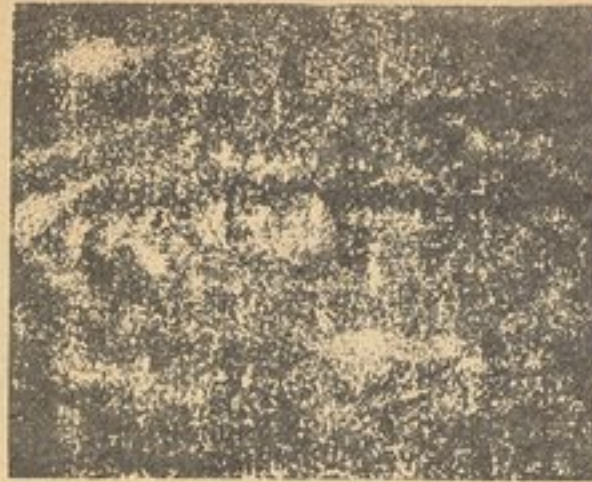
« إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض الخ »

لقد ذكرت لك كيف جعل الله للناس في الأرض رياضاً في المدن وأعدّها للعلماء وللجاهلين وقد ذكرت لك بعض رياض الحكمة في السموات ، فلأترك في هذه للقالة الرياض الفناء في السموات التي كشفها الله اليوم وهياها لمن بعدنا من الأمم الإسلامية ليكونوا بها علمين .

تعلم أيها الدكي أن أرضنا التي نسكنها قد عرف الناس مساحتها ووزنها وبعدها كما تقدم في سورة الأنعام وأنها ناجة للشمس ، وهناك سيارات أخرى معروفة مذكورة في سورة الأنعام أيضاً وللسيارات أقطار وكلها للشمس تابعة ، وهناك أيضاً النجوم ذوات الذنب التي يقول العلماء في عصرنا إنها كمدد السمك في البحار وكلها دائرات حول شمسا ، وما شمسا هذه العظيمة التي هي أكبر من أرضنا بنحو ثلثمائة ألف مرة وألف ألف مرة إلا إحدى الشموس وهي من أصغرهن قدرا وتلك الشموس تمتد بمئات ألاف الألاف فيقال إنها تبلغ نحو (٢٤٢) ألف كوكب شمسي ، كل هذا معروف في هذا التفسير مرارا ، فهذه الشموس كلها هي للسكونة للجرة ، والمجرة براها الناس بأعينهم كل ليلة صافية الأديم كأنها سائل لبي أو كأنها تين ولذلك نسمي عند العامة [ طريق التبانة ] وعند الإنجليز [ الطريق اللبني ] وعند علماء الدين [ أبواب السماء ]

هذه هي المجرة التي شمسا واحدة من شموسها وهي ترى واضحة ظاهرة كما قلت لك في ليلة ليس فيها سحب ، يراها الإنسان بعينه معترضة السماء من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربي والناس لا يعلمون عنها شيئا ولم تعلم حقيقتها حق علمها إلا قريبا ، فقد كنا منذ نحو (٤٠) سنة ونحن نطلب العلم في دار العلوم نتلقى عن أساتذتنا في الفلك أن الشموس التي أمكن معرفتها في تلك المجرة لا تزيد على (١٨) ألف ألف شمس ، أما الآن فقد عرف العلماء منها أكثر من (٢٤٢) ألف ألف شمس ، وربما كان لكل شمس سيارات وتوابع ، هذه هي المجرة التي شمسا واحدة من شموسها ، وما هذه المجرة إلا روض واحد من رياض الله التي زرعها في هذا الجو الصبيح المملوء من الأنير ، فهناك ما تلقيناه عن أساتذنا للرحوم حسن أفندي حسني الذي هو أساتذنا في هذا العلم ثم أتبعه بما عرفه العلماء في عصرنا ترى الرياض الزاهرة والجمال الفتان في السماء لتعرف معنى هذه الآية ، وهذه صورة المجرة في الصحيفة التالية :

هذه هي الروضة الكوكبية التي  
شمسنا شجرة من أشجارها ، وأرضنا  
غصن من أغصان تلك الشجرة ، ومصر  
ورقة من أوراق ذلك الغصن ، والقاهرة  
ذرة من ذرات الورق وسكانها وأنا منهم  
نعيش حول تلك الذرة الصغيرة ، ونحن  
إلى الله ذاهبون ، وكما أن القاهرة بلدة  
مما لا عدد له من البلدان في الأرض ؛  
هكذا الهجرة ماهي إلا روضة واحدة من  
رياض لا حصر لها في هذا الجوّ الفسيح



( شكل ٣ )

وقد قسموا تلك الرياض النجدة في السماء إلى ثلاثة أقسام:

فسم منها يسمونها ( القنوان ) التي يمكن تحليلها بالنظارات إلى جملة نجوم وتسمى مجموعاته كوكبية .  
والقسم الثاني يسمونها ( القنوان ) التي يمكن تحليل جزء منها إلى نجوم بالنظارات .  
والقسم الثالث يسمونه ( سدام ) لا يمكن أن يرى النظارات تحليله .

هذه هي الأقسام الثلاثة التي اصطلح عليها العلماء ، والقنوان : جمع قنو ، فكأن النجوم في هذين  
القسمين قنو النخلة أو عقود العنب ، ومن القسم الأول جملة التريا الموضوعة في صورة الثور وهي مركبة  
من ( ٨٠ ) نجمة تقريبا ؛ ستة منها ترى بالعين المجردة ، والسدام : جمع سدبم وهو في اللغة السحاب الرقيق  
وفي اصطلاح الفلكيين سحابة أو ضباب أو قطلة نيرة سحابة لا تحلل إلى نجوم مفردة بالنظارات القوية .

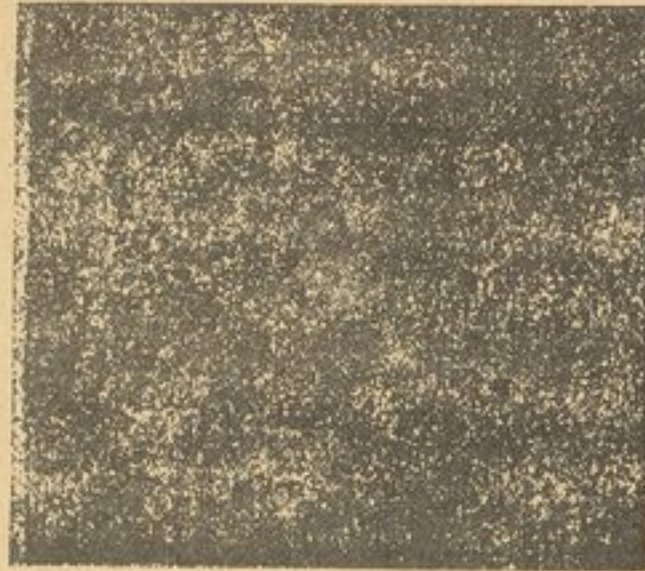
#### المجموعات الكوكبية

تظهر المجموعات الكوكبية بشكل مستدير غالبا حتى  
بظن في مبدأ الأمر أنها من ذوات الأذنان ولكن عدم  
تغير شكلها وعدم تحركها يبرهنها عن ذوات الأذنان ،  
والنجوم المتكوتة منها المجموعات الكوكبية تظهر في جهة  
المركز أكثر عددا مما في الأطراف ، وقد حسب المعلم  
( هرشل ) أن بعض هذه المجموعات التي شكلها كروي  
لا تشمل على أقل من ( ٥٠٠٠ ) نجمة منضمة إلى بعضها  
في ستة قطرها الظاهري لا يزيد عن عشر قطر القمر ،  
وأشهر هذه المجموعات قنوتوكان وهي في السماء الجنوبي  
وترى دائما بالعين العارية ( شكل ٤ ) والجزء المركزي منها  
ذو لون أحمر برتقالي فأخضر



( شكل ٤ )

ومثل هذا القنو ماهو ميبين في شكل ٦ ( رسم قنوتوكان - شكل ٥ ) .



(شكل ٥)

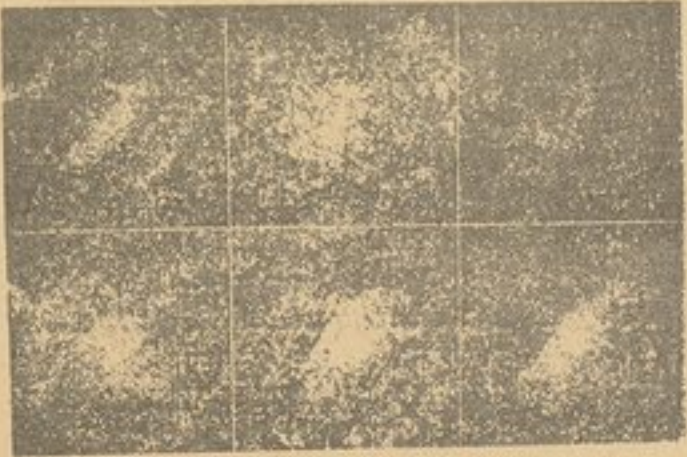
القسم الثاني السدام التي يمكن تحليل بعضها

السدام التي يتحل جزء منها تظهر في الغالب على شكل منتظم قليلا أو كثيرا ولا شك في أن هذه المجموعات هي من المجموعات الكوكبية ، غير أنها موضوعة بعيدا جدا أو أنها مركبة من نجوم صغيرة جدا يمكن تحليل بعضها بالنظارات ، وبعض السدام ذات الشكل المنتظم مستدير وبعضها يضاوي وبعضها ناقص مطاول جدا يقرب من المستقيم (شكل ٧) وبعض السدام البيضاوية حلقي كإبري في (شكل ٨) وأحيانا ترى نجوم على نفس الحلقة .

(١) من البزاق (٢) من الماء على ركبتيه (٣) من الجوى (٤) من الماء (٥) من الحبة (٦) من الجوزا



(شكل ٦)



(شكل ٧)

ومن ضمن السحابات المنتظمة ما شكله مخروطي أو كشكل ذات الذنب ، ويمكن أن يكون انتظام الشكل مترتبا على قوة الآلة بحيث إن الانتظام لا يكون إلا ظاهريا فعلى رأى (هرشل) تظهر سحابة كلب الصيد مثلا على شكل حلقة مضاعفة في نصف دائرة وفي وسط الحلقة توجد سحابة لامعة جدا وخارجا عن الحلقة على بعد منها توجد سحابة صغيرة مستديرة .

[ القسم الثالث ] السدام الغير المحلولة ذات الشكل غير المنتظم ، توجد سدام لا يمكن أقوى الآلات حلها وهي سدام الرتبة الثالثة ، وهذه السحابات تظهر عموما بشكل غير منتظم ، وذلك كسديم للراة للسلسلة ( شكل ٩ ) والسديم الحلقي الناقص للأسد ( شكل ١٠ ) .

( شكل ٩ - سديم للراة للسلسلة )



( شكل ١٠ - سديم الأسد )



وهذا القسم الثالث وهو السدام لم يعلم منه العلماء أيام تلقينا هذا العلم منذ أربعين سنة إلا خمسة آلاف فقط فهذه ترى كأنها سحاب أو ضباب ولكنها ليست واضحة وضوح الهبرة ، أما الآن فهذه مائة اهدكتور

(هبل) يقول إنه رأى في أواح التصوير للتصويرة بالتلسكوب الأكبر الذي قطر مرآته نحو (١٠٠) بوصة نحو (ألف ألف) أي مليوني سديم يبلغ بعدها عنا (١٤٠) مليون سنة .

ومعلوم أن شمسا يصل ضوءها لنا في (٨) دقائق و (١٨) ثانية وهذه للسافة يقطعها القطر في نحو ٣٦٥ سنة ، وقلة للدفع في نحو ١٢ سنة ، فانظر كيف يكون بعد تلك السدم التي لا تبعد بأقل من مائة وأربعين مليون سنة فتعجب .

وهذه السدم منتشرة في أبعاد شاسعة جدا يبلغ البعد بين الواحد والآخر منها (١٨٠٠٠٠٠) سنة فورية ، وفي كل سديم منها مادة تكفي لتكوين مليون شمس مثل شمسا ، ومعلوم أن شمسا نجم من نجوم المجرة كما تقدم ، والمجرة نفسها سديم من السدم ، فانظر أيها الذكي وتعجب .

هذه هي الرياض الواسعة ، هذه هي جنات العلم والحكمة ، أرضنا صغيرة وحدائقها وبلدانها وبحارها حقيرة وشمسا صغيرة ومجرتنا إحدى المجرات ، والمجرات بلغ للعلوم منها اليوم نحو ألف

يا سبحان الله وباسمائه ، نحن محبسون في الأرض هذه الأرض الصغيرة ، أما أنا فلا أرى فرقا بين السجون وبيننا نحن على الأرض ، فالمسجون يستروح بالأخبار عن أحوال أمته وأحوال حكومته ويشوق لتلك وهو في حجرة ضيقة والناس في الخارج أحرار ، هكذا نحن في هذه المجرة الضيقة عشا محكوما علينا بالبقاء في الأرض إلى اللوت وقد حرمانا من الصعود إلى السماء لتنتهج تلك الشمس وأنوارها وسكانها ومجاليها وتفرح لأخبارها ، وهذا قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » وقوله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء » .

لاجرم أن الجنة ليست تحتنا بل هي فوقنا ، إذن هي في السماء (راجع ما قلنا من الأحاديث وأقوال العلماء في سورة آل عمران) .

أفلمت ترى معي أن مثل هذا هو المقصود من قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج » أفليس هذا هو النظر في السماء ؟ رقب في الآيات الصافية أديم السماء فترى قبة زرقاء جميلة الملبها بمجموعات كأنها ضباب ، وهذه المجموعات تبدو ضئيلة ثم بحث العلماء عنها فوجدوها نحو مليونين ، سبحان الله إن البعد شاسع بين العالم والجاهل ، الجاهل لا يرى في السماء شيئا والعالم يراها موطن الكرامة والحكمة والمخلوقات العظيمة .

هذا هو ما تشير له الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها ، فبعد أن ذكر الله ضوء الشمس ونور القمر والحساب واختلاف الليل والنهار قال « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الخ » فهاهو ذا سبحانه ذكر الاطمئنان بالحياة الدنيا والنفلة عن آيات الله وعدم الرجاء في لقاء الله واستحقاق جهنم ، كل ذلك بعد ذكر جمال السماء وكواكبها . فعلوم السماء فتح لأبواب الجنة والنفلة عنها فتح لأبواب جهنم ، لأن الإنسان لا يشتاق إلى حياة أهلها إلا إذا علمها ، إما بتابع الوحي وإما به مع الدراسة العلمية كما أوضحناه غير مرة في هذا التفسير .

جوهرة في إشراق نور العلم في القلوب بإشراق نور الكواكب

ها أنت ذا أيها الذكي ورأيت صورة المجرة وصورا لعوالم أخرى غير المجرة ، ورأيت أن عالم المجرة والعوالم التي تشابهها تزيد على مليونين ، ورأيت كلام العلماء في أبعادها التي بعدت جدا ، ومعلوم أن كل ذلك تخريب ، فهناك الآن آخر ما وصل له نوع الإنسان من العلم فيما رأيته فاقراء وانتظر غيره واقراء علوم الأمم حولنا بعد أن تفقه ما ذكرناه .



انظر إلى الهجرة التي رسمت هنا في صورة (٣) ارجع البصر كرتين لما نجد أنها هي التي فيها كواكب كثيرة منها شمسا ، إن المسافة التي يقاس بها البعد بينا وبين الشمس التي هي كوكب من كواكب هذه الهجرة نحو ٨ دقائق و ١٨ ثانية كما تقدم بسير النور وقد عرفته بسير قلة المدفع وسير القطار في الأرض فلا نعيده ، نحن لا نقيس بعد هذه الهجرة إلا تدريجيا ، إذا عرفت بعد الشمس منها فإن بعد أقرب كوكب من كواكب هذه الهجرة وهو (ألفا قنطورس) يبلغ بسير النور ثلثمائة ألف ضعف بعد الأرض عن الشمس : أي ثلاث سنين ونصف سنة نورية .

فياليت شعري ماذا يكون ذلك البعد بالقطار أو بقلة المدفع ؟ مع العلم بأن النور يسير في الثانية ما يسير القطار في نحو ٤٥ سنة ، وما تقطعه قلة المدفع في نحو سنة ونصف ، ولنتنظر نظرة عامة في الهجرة فنقول :

يقول علماء عصرنا لتتخذ الشمس مركزا ولنرسم حولها كرة قطرها ألف سنة نورية ، فهذه الكرة تشمل جميع الكواكب التي تراها بالعين المجردة ، وإذا أوسعنا هذه الكرة حتى يصير قطرها خمسا وعشرين ألف سنة نورية شملت جميع الكواكب التي في نظام الهجرة التي هي مرسومة أمامك .

صفة الهجرة : هي تشبه حبة العدس قطرها (٥٠) ألف سنة نورية ، والمسافة التي بين وجهيها عند مركزها عشرة آلاف سنة نورية ، وخارج هذه الهجرة عالمان آخران في غيوم (مجلان) يبعدان نحو (٢٠٠) ألف سنة نورية وهناك كون آخر يبعد (٧٠٠) ألف سنة نورية ثم على مليون سنة نورية نجد السديمين الكوكبيين في المرأة للسلسلة وكوكبة الثلث وكل منهما طوله الأطول نحو (٥٠) ألف سنة نورية وهو طول قطر الهجرة .

ولكن هذه الهجرة وأبعادها الشاسعة عالم صغير جدا من العوالم ، فلماذا بعدها ؟ الجواب : هناك مجاميع من النجوم وقد رأيت بعضها مرسوما أمامك في هذه الصفحات ، وكل مجموعة منها فيها نجوم كنجوم الهجرة وكلها ماثورة في الفضاء كأنها بساتين زرعتها الله في الفضاء للتسع ، أو كأنها جزائر في البحر ، لجزائرنا الأرضية في البحار المائية ، وهذه جزائر في البحار الأثيرية التي تظهر لنا كأنها فضاء ، ويقولون في عصرنا الحاضر : إنها الأكوان (الجزرية) .

ولأذكر لك على سبيل المثال سديم المرأة للسلسلة للتقدم ، وجده العلماء يبعد عنا مليون سنة نورية وقطره خمسون ألف سنة نورية وفيه ألوف للملايين من النجوم أكثرها لا يمكن رؤيته ، والكواكب التي تراها فيه تزيد ألوف الأضعاف على شمسا من حيث النور واللمعان بدليل أننا لو أقمنا الشمس عنا مسافة مليون سنة نورية لم يمكن رسمها بالمصور الشمسي ، أما هذه النجوم التي تبعد عنا هذا البعد الشاسع فإنها رسم فلذا كانت شمسا بالنسبة للكواكب التي عرفت صغيرة جدا وضوءها ضئيل ، وإذا كانت الهجرة فيها مئات الملايين من الشمس وكانت الهجرات الأخرى فيها كواكب مثلها أو أكثر وهي أضوأ ثم أضوأ ثم أضوأ ، أفليس هذا معناه أننا نضمر في هذا الوجود ؟ وإذا قال الشاعر :

« إذا ذلت مولى للره فهو ذليل »

فهكذا نقول إذا صغر أهل الأرض بجانب الأرض وبجارها وجبالها ، وإذا صغرت الأرض بجانب الشمس ، وإذا صغرت الشمس بجانب مئات الملايين من كواكب الهجرة ، وإذا صغرت الهجرة بجانب مائة ب من عدد مليونين من الهجرات فما نحن في هذا العالم إلا صغر ، وبهذا تفهم قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فقلنا قليل كقلة أرضنا بالنسبة لشمسا ، وشمسا بالنسبة لهجرتنا ، وهجرتنا بالنسبة للهجرات ، وقد يش الناس أن يعرفوا لهذه العوالم نهاية .

وسيعرف المسلمون من ذلك معنى قوله تعالى « وخلق ما لا تعلمون » وقوله « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر » اه .

إذا عرفت هذا فهمت تفسير هذه الآيات ، فإذا سمعت الله يقول « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عهد السنين والحساب » وختمها بأنه فصل ذلك لقوم يعلمون أدركت ما قدمناه من أن البسائين العامة للموم ، أما السموات فهي للعلاء بها وهم الخواص ، وإذا سمعت قوله تعالى « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا » ثم وصفهم بالاطمئنان بها والتفلة أدركت ما قدمناه من الحياة الزلية وشقاها التي لا مندوحة عنه وهو عين ما جاء في قوله تعالى عند ذكر الأولاد والأموال أنهما للعداب في الدنيا .

ثم لحس القام كاه بقوله « دعواهم فيها سبحانك اللهم الخ » ويانه أن الإنسان في الأرض أشبه مسجوننا أجد عن ملكه كما تقدم ، فهذا المسجون له أربع أحوال : حال السجن ، وحال الخروج مع عدم الأمن من السجن ، ثم حال الأمن من السجن . ثم أن يعطى له ملكه ، فهذه الدرجات الأربع تحصل لنا نحن الآن في سجن تكاليف الحياة والشهوات ، وإذا خرجنا منها ربما وقمنا في شقاء آخر وهو للمبر عنه بجهنم ، فإذا سلمنا منها فهو نعمة ، فإذا أعطينا الكمال اللائق لنا فهذا غاية المراد ، فقوله تعالى « سبحانك اللهم » نزيه لله عن الحوادث ملحوظ فيه تشبه العبد به في الخلوص من الملائق النبوية وهو للرتبة الثانية للتقدمة وقوله « سلام » هو للرتبة الثالثة ، والراجعة كالعلم بهذا الوجود الذي هو جنة العارفين في الدنيا وفي الآخرة الذي لا يحقق للحمد إلا به ، إذ لا معنى للحمد على تربية العالمين إلا بعد العلم بها ، ومن العالمين هذه الكواكب والشمس والقمر للضئيات للذكورات في الآيات التي يتمتع بها الخواص في الدنيا والآخرة والله يعلم أن العامة محرومون من هذا الجمال فألهم رجال الحدائق فزرعوا لهم من تلك البسائين بعض روضات منظمة على أشكال (بضائية) أي اهليلجية وهي للنبات بالقطع الناقص التي تشبه دوائر الكواكب في السموات كدائرة الأرض حول الشمس فإنها ليست دوائر ناتئة والشمس تكون في إحدى بؤرتيها صيفا وشتاء كما أوضحته في غير هذا القام في التفسير ، فببببب العامة في بعضها ذلك الشكل كاه يذكر العوام بدوائر الكواكب التي لا يضاهي ليل إلا الخاصة .

#### تذكيرة

أيها الذي سيقراً هذا التفسير إن شاء الله شبان من للسلفين في حياتنا وبعد موتنا وسهرعون إلى بناء للراصد في للمالك الإسلامية في بلاد للرب ومصر والشام والمراق وبلاد جاره والملايو وسائر بلاد الهند الشرقية ، وسيكون هذا القول من أوكد الأسباب لارتفائهم في علوم النجوم وسائر علوم الحكمة ، لاسبأ إذا قرءوا ماسبأ في تفسير قوله تعالى في سورة إبراهيم « وذكرهم بأيام الله » كيف كان موسى يذكر قومه بأيام الله وكيف ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم قومه بأيام الله ؟ وكيف ذكرت أنا الأمم الإسلامية بأيام الله وكيف يتجلى لك هناك ما برع فيه آباؤنا الأولون من العلوم في الملك وغيره ، وكيف شهد لهم العلامة (سديو) المرسي بأهم سادات أوروبا وأساندتها في العلوم ، وأنهم هم الذين أسلحوا علم اليونان كما وضعه هو إيضاحا تاما ونقلت أنا هناك بعضه ، ثم كيف كان بعض ملوك الدولة العباسية بحاربون ملك الروم لأجل مجله عليهم بيلم يسمى (ليون) من شدة ولوعهم بالعلم ، وكيف غير الله عقولهم في أواخر الدولة فطاردوا العلاء كما فعل الملك يعقوب في الأندلس بابن رشد ، وكيف دلت المسلمون شرقا وغربا بعد نبذهم العلاء ؟ وكيف كان الجهل سبب خراب بغداد ومصر وبلاد الأندلس وتفصيل ذلك كله مع الإيجاز ، ستقرأ هذا التفصيل هناك وتقرأ ما نبئت به بعد ذلك أوروبا لما أخذت علوم ابن رشد وكشفت من العلم ما انتفضنا به وأصبحنا عالة عليهم

في علمهم وصناعاتهم ، سبقوا هذا وذلك أبناؤنا السلون والشرقيون وسيطرون للعلم سراعا وبرحمون مجددا  
ساع وعزاً ذهب ، والله هو الولي الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .



(شكل ٨)

فصل في قوله تعالى « إن في اختلاف الليل والنهار

وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون »

اعلم أن اختلاف الليل والنهار قد فصلته تفصيلاً في سورة البقرة ، وأما الكلام على ما خلق الله في السموات  
والأرض فيها أنا ذا أزيدك بياناً فوق ما مضى منه في هذا الكتاب لينشرح صدرك وتكون رياضة بعد العناء  
في حساب السنين وأذكر لك لطائف :

القطيفة الأولى : النبات للمفترس

إن الحيوان المفترس يسطو على الغزلان والأرانب والمز والنعيم وما أشبهها ، وهكذا كل حيوان يسطو  
على النبات فيأكله ليتغذى به ، والأكثر فيه أن يكون غير مفترس ، وماذا تقول إذا قصصت اليوم عليك  
نباتاً مفترساً .

ذلك أن العلامة ( آليس ) الإنجليزي قد كشف نباتاً في ( أمريكا الشمالية ) له ورق كأنه مصيدة القار  
والورق مفاصل كمتاصل البدن والرجلين في الإنسان والحيوان وعلى ظاهرها زغب يقوم مقام الأعصاب  
في ظهر الإنسان ، ثم هناك شوك يحيط بها من كل جانب فإذا جاءت حشرة صغيرة على الورقة أحسن الرغب  
بها حالاً فنسبت الورقة فتطبق عليها ولا تدعها تفلت وتفرز مادة عليها كما تفرز نحن عصارة البنكرياس  
في المعدة والريق في الفم على طعامنا ، وكما تفرز الحية اللامة السمية فتضم طعامها بلا أسنان ولا معدة ،  
وحينئذ تمتص الورقة تلك التسمية وقد اقتضت لأنواع النبات من عدوها الحيوان وهي تقول :

فيوم أنا ويوم علينا ويوما نساء ويوما نسر

وتقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

القطيفة الثانية

نبات مائي يسمى عند النباتيين (غاليستر ياسبير اليس) وهو ينبت في مجارى الأنهار ، واقد عدلت في هذا  
الكتاب أن لكل نبات ذكر وأنثى ، وقد يكون الذكر في زهرة والأنثى في زهرة أخرى من الشجرة  
الواحدة كنبات القرع ، وقد يكون الذكر والأنثى في زهرة واحدة كالقمح ، وقد يكون كل منهما في شجرة  
كما في النخل ، ومن النوع الأول هذا النبات اللأني الذي نحن بصدد الكلام عليه ، فإن للزهرة الأنثى من  
ساق لولبيا طويلاً ، وهذا الساق يحمل الزهرة ويحوم بها فوق الماء مرقصاً لها في الهواء ، أما الزهرة التي

فيها لقيح التذكير فإنها ليست تنوم بل هي قريبة من للنبت تحت اللحاء فإذا جاء الأجل وحل أوان الخمر ،  
 لماذا يحصل ؟ أنزل الزهرة الأثني حتى تصل في اللحاء إلى زهرة الذكور ، أم يطول ساق الذكر حالا فيصل  
 إلى أهل فيحصل الإلقاح ؟ كلا . لاهذا ولذا ذلك وإنما تنفصل زهرة التذكير وتصعد فوق اللحاء حتى تجتمع بالأثني  
 وهي منفصلة ومتى حصل الإلقاح يتقبض لوب الأثني حتى تصير في قاع مجرى النهر عند ساق النبات في أسفلها  
 وهناك يتم البرز ، فتعجب وزد علما وقرأ « إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض  
 آيات لقوم يتقون » .

#### الطيفة الثالثة : شجرة تفرس إنسانا

جاء في بعض المجلات المصرية العصرية أن في بعض الجزائر شجرة يقدها أهل تلك الجزيرة ويبدوها  
 ويضمون لها في كل سنة فتاة يختارونها لذلك فيحضرون ومعهم آلات الطرب من طبل وغيره ويضعون هذه  
 البنت في أعلى الشجرة في مقعد هناك فيه مادة حلوة لذيذة من نفس الشجرة تشرب منها الفتاة فتسكر وتغيب  
 حواسها فلا تلبث تلك الشجرة أن تجتمع أوراقها وأغصانها وأشواكها النافذة وقضبانها اللثوية التي تشبه  
 الجبال فتضم جميعها على الفتاة والأوراق تكتم أنفاسها والحبال تنف حولها والشوك ينفذ في باطنها من أعلى  
 ومن أسفل وتأخذ الشجرة إذ ذاك تمضغ الفتاة وتهضمها وهي لا تتدري على النجاة والقوم يدقون الطبول فرحا  
 بهللا العيد الديني وفي الحال لا يسمعون تأوه الفتاة وأنيبها وعويلها وصراخها ثم ينصرفون بعد ألا يبقى لها  
 إلا ما تلتقطه الشجرة من عظام لا لحم عليها ولا عرقا ومكنا ، وذلك أيضا من انتقام النبات من الحيوان  
 جزاء ما يفعل الحيوان في النبات « وربك يحاق ما يشاء ويختار ما كانت لهم الخيرة سبحان الله وتعالى  
 عما يشركون »

#### الطيفة الرابعة : كيف تظهر صور المخلوقات في فصول السنة الأربعة

انظر للدنيا في فصل الربيع [ من إخوان الصفا ] فإذا نزلت الشمس أول دقيقة من برج الحمل استوى  
 الليل والنهار واعتدل الزمان وانصرف الشتاء ودخل الربيع وطاب الهواء وهبّ النسيم وذابت الثلوج  
 وسالت الأودية ومدت الأنهار ونبت العيون ونبت العشب وطال الزرع ونما الحشيش وتلاأ الزرع وأورق  
 الشجر وفتح الثور واخضر وجه الأرض وأخرجت زخرفها وازينت وفرح الناس واستبشروا وصارت  
 الدنيا كأنها صبية شابة تزينت وتجلت للناظرين .

#### فصل الصيف

إذا بلغت الشمس آخر الجوزاء وأول السرطان تنهى طول النهار وقصر الليل وأخذ النهار في القصران  
 وانصرف الربيع ودخل الصيف واشتد الحر وحى الهواء وهبت السموم وتقصت للياه ويبس العشب  
 واستحك الحب وأدرك الحصاد ونضجت الأثمار رحمت البهائم واشتدت قوة الأبدان وأخصبت الأرض  
 وكثر الريف ودرت أخلاف النعم وبطر الإنسان وصارت الدنيا كأنها عروس منعمة رعاء ذات جمال .

#### فصل الخريف

إذا بلغت الشمس آخر السنبلة وأول اللبزان استوى الليل والنهار مرة أخرى وأخذ الليل في الزيادة  
 وانصرف الصيف ودخل الخريف وبرد الهواء وهبت ريح الشمال وتغير الزمان وجفت الأنهار وغارت العيون  
 واصفر ورق الأشجار وصرفت الثمار وديست اليبادر وأحرز الحب وفنى العشب واقبر وجه الأرض  
 وهزلت البهائم وماتت الموامم وانجمرت الحشرات وانصرف الطير والوحوش إلى البلدان الدقية وأخذ الناس  
 يحرزون القوت للشتاء وصارت الدنيا كأنها كهلة مدبرة قد تولت عنها أيام الشباب .

## فصل الشتاء

إذا بلغت الشمس آخر القوس وأول الجدى تنامى طول الليل وقصر النهار وأخذ النهار في الزيادة وانصرف الخريف ودخل الشتاء واشتد البرد وخشن الهواء وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات وانجحرت هوام الحيوانات في بطن الأرض وضعت قوى الأبدان وعمرى وجه الأرض من زيتته ونشأت الميوسم وكثرت الأنداء وأظلم الهواء وصارت الدنيا كأنها محجوزة هزيمة مدبرة قد دنا منها الموت ، فإذا بلغت الشمس آخر الحوت وأول الحمل عاد الزمان كما في العام الأول وهذا دأبه « ذلك تقدير العزيز العليم » هـ . هذه صورة ما خلق الله من شيء في فصول السنة الأربعة وقد قال « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » أي تناقض ولا اختلال ، وها أنت ذا قد شاهدت أن هذه الرواية تمثل كل سنة تمثيلا متواصلا لا اختلاف في فصول الروايات من حيث العموم وإنما تختلف في أحوال جزئية « فبارك الله أحسن الخالقين » .

فصل في قوله تعالى « إن الدين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا الخ »

لابد في ذكر المناسبة بين هذه وما قبلها من بيان مقدمة في جبهة الناس وغرائزهم وما فطروا عليه . اعلم أن الناس في هذه الدنيا مولعون بما خلقوا له مغمومون بما استعدوا له لا يرجون سواء ولا يحبون إلا الوصول إليه .

- (١) فالفتاة في المدرسة مفرمة بالعرائس تلبسها وتلب بها .
- (٢) والصبيان فيها لا يهنأ لهم إلا حب السلاح وآلات الحرب غالبا والغالبية في اللعب . ذلك أن الفتاة خلقت للولادة والتربية ، والفتى سيكون من شأنه مداومة الأعداء عن البلاد .
- (٣) وترى قوما يميلون بحسب ما طبعوا عليه إلى التجارة .
- (٤) وقوما للزراعة . (٥) وقوما للإمارة . (٦) وقوما للملك . (٧) وقوما للعلم .
- (٨) وكل هؤلاء مختلفون اختلافا كثيرا .

وقد ظهر بالاستقراء أن من طلب شيئا وهام به ناله كله أو بعضه على مقتضى حاله ، وليس يكون الإنسان مفرما إلا بما شاكلة وقد بناه ، فهل تغرم الفتاة بآلات الحرب والقتال ؟ أم تستعد للإمارة بصناعة البديل ؟ ففي الحديث « كل ميسر لما خلق له » فليست ترجو الفتاة سلاح الحرب غالبا وليس يجب الفتى أن يكون مرضعا وظئرا للأطفال وهكذا ، وإذن أصبح الناس بالنسبة إلى الأشياء على قسمين : قسم مستعد لشيء يرجوه ، وقسم ليس مستعد له ليس يرجوه ، فالخالد مثلا عادة لا يستعد للحكمة والفلسفة فهو لا يرجوها ومن خلق مستعدا لها يرجوها فبئها الثاني ومحرم منها الأول .

فلننظر إذن نظرة في هذه الآيات نجد وصف السموات والكواكب وسير الشمس والقمر وهذا من نوع الجمال العالى وفي نوع الإنسان عشاق لهذا الجمال وفيه من لا يشقون بل هم مكتفون بالمأكل والشرب والتنازل كالدواب والأنعام والغالبية كالأساد ، فعشاق هذا الجمال يكفون على الحساب والهندسة والجبر والفلك وحساب الثلثات ويهرعون إلى الراصد فينظرون النجوم ويتأملون أشكالها وجمالها وحركاتها ويدققون ويعسبون وهم بذلك فرحون مستبشرون . فهؤلاء يتمنون لو يساعدهم للقدر ويسبحون في عوالم السماء حتى يقفوا على كنه تلك العوالم ويحرفوا جمال الصنعة الإلهية ، وكما ازدادوا علما ازدادوا سرورا وبهجة بتلك العجائب والبدائع ؛ فالنظر للعوالم العلوية بهيج الصدر ويجعل الإنسان مفرما بالاطلاع على جميع العوالم ، أقول فهل هذا الترام خلق في بعض هذا الإنسان باطلا كيف وقد خلقت الفتاة ومهما غريزة تربية الصنغر في العبة وهي طفلة وكذلك الفتى يفرم بالسلاح الذى هو من جنس ما يكون في مستقبله وهكذا أرباب

الصناعات والحرف كل يميل إلى ما خلق له كما كانت أمة اليونان في قديم الزمان تدخل الصبيان في الهياكل وقد وضوا فيها صور جميع الحرف ويسألون الصبي عما يميل إليه فيجيبهم فيحكمون عليه بأنه من أهل هذه الحرف وقد خلق لها .

فإذا كان الاستقراء أثبت هذه القاعدة فلنفس الغائب على الشاهد ونقل : إن من أغرم بهذه العجائب يكون له مستقبل في الوصول إليها وإن العالم الأخرى أي ما وراء بد اللوت قد أعد لكل امرئ فيه ما استعداد له في الدنيا ، فأهل الترام بالجمال في صور هذا العلم من حيث الحكمة ودقة الصنع وإدراك المهامن سينقلون هناك على تلك الحال وينالون حظا مما أغرموا به وعشق هذه الأفلاك عشق لحاقها ومتظاهها ومبدعها فهذه غرائز أو شب غرائز في النفوس فلا بد من الوصول إلى ما استعدادت له وهذا هو بيت التصيد ولذلك تمت الآية هنا الناس (بعد السلام على عجائب الأفلاك والطبيعة) قسمين : قسم لا يرجو لقاء الله ورضى بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن هذا الجلال ، وقسم في جنات النعيم ولهم ثلاث درجات في ملك الجنة [أولا] يعتنون الله بنوع الجلال وهي صفات التنزيه وهم منغمسون في لذات الجنة ونعيمها ثم يرون فيكرههم أن خلق الجنة أكبر من هذا كله وأعظم فيسبحونه : أي يزهونه عما هم فيه من النعيم [ثانيا] تبتدى أي لهم سعادتهم فيحييهم بضم بضاً بالسلام وهو الأمان من المخاوف فيقولون لبعضهم إن هذه اللذات في الجنة لا يجرها نقص ولا فقر ولا هم ولا غم فهذا هو السلام الذي يدور بينهم وبين بعضهم وهذا من أعظم السعادات إذ يرى الإنسان نعيمه لا نقص فيه وقد فهموه من أنفسهم ثم يترقون من هذه المرتبة الإنسانية فيسعون سلام الملائكة كما قال تعالى « وللملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم » وهذا سلام أعلى ويعجبون إذ ذلك بسعادة أجمل من الأولى لأن سلام الملائكة من عالم منزه عن المادة فيكون أجمل وألطف وهذا يعدم لسباع السلام من الحق فإذا سمعوه خروا ساجدين ونسوا نعيم الجنة وحرق في أعينهم كما يصغر طعام الملك عند من حظى بمجالسته ومؤانسته وإذن يكون غداؤهم هو النظر في ذلك الجلال الأبهى وفي عجائب القدرة وهذه هي المرتبة الثالثة مرتبة الحكماء والعلماء والأنبياء الذين مارسوا هذا الجلال في هذه الحياة الدنيا فيقولون « الحمد لله رب العالمين » وذلك أنهم يطلعون على تربية العوالم المحسوسة والمقولة وهناك تكون السعادة الروحية التي يحسها الناس بعضها في أوقات قليلة ، بل إن كثيرا من الناس قد أولعوا بالعلم حتى نسوا كل شيء فما بالك إذا كان ذلك في تلك الساحات البديعة والمقامات الشريفة ، وإن أردت شاهدا على ذلك من العالم الأخرى ولم تكنف بالاستنتاج فاصم ما قالته روح (غاليليو) الفيلسوف الفلكي حين أحضرها ليستطلعوا رأيا في أحوالنا بعد الموت فأبانت عليهم مقالا صدقا لهذه الآية ، فلقد أوضح هذا اللقال أيما إيضاح وكشف عن هذه الحقيقة الثام وجاءنا من عالم النيب بخبرنا أنه منعم بالتفرج على عجائب الفلك وأنواع النجوم بحيث يراها بأنفسها وأقدارها وأشكالها وأنه شاهد عوالم أرقى نقوسا وعقولا وأخلاقا ومدنية ولهم أعمال غير أعمالنا وعقول غير عقولنا وأنه هو يطوف في تلك الأرجاء وينهج بمرآها . وأفاد أن الكواكب هناك مع عظم قدرها تتفرج عليها الأرواح الفاضلة كما تتفرج نحن على الزهر في الشجر ، وبين أن أرضنا هذه ستزول من الوجود وأما أرواحنا فإنها تبقى ثم ترتقى في عوالم أخرى عند الله وتسكن عن الهجرة وكيف يطلع هو اليوم على الملايين من النجوم فيها ثم ينتقل إلى مجرة أخرى وهكذا في العوالم الشاسعة العجيبة ، وهذا القول من روح (غاليليو) هو ما يقوله علماءنا [ إن جنة المازفين هي العلوم والمعارف ولا نهاية لها ، أما جنة الغفلين فهي التآكل والشرب ] وأنا لا أطبل لك أكثر من هذا وإن أردت الاطلاع على هذا اللقال للفتيد الطويل فأقرأ في تفسير سورة آل عمران للتقدم في المجلد الثاني ، ولملك نقول : كيف يقول (غاليليو) ذلك وهو كافر بالله ؟ أقول

هذا القول لم أجزم به وإنما نقلته ليعلم للصحود من المسلمين أن عقيدة الآخرة موجودة بأوروبا التي هم يتدسونها ، فإذا كفروا بذلك فهم لا شرقيون ولا غربيون لأن الإلحاد قد جعله بعض صفار العقول من التملين صناعة يرتزقون بها إذ يوهمون الناس أنهم علماء حتى كفروا بملهم ، وهناك إجابات أخرى على هذا الاعتراض في تفسير آل عمران فارجع إليه هناك ، انتهى تفسير القسم الأول من هذه السورة .

مناسبة هذه السورة لآخر التوبة

قبل الانتقال إلى القسم الثاني يحسن أن نذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها بإيضاح فنقول :

لقد ذكرت في آخر سورة التوبة هذه المناسبة ، وأريد الآن أن أذكر للناسبات للتشابهة من أول سور القرآن إلى هذه السورة غير ما ذكر لكل منها خاصة به ، إن الجزء الثاني من سورة الفاتحة يشتمل على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، صراط للنعم عليهم ، وأول البقرة يفيد أن هذا الكتاب « هدى للذين » وهم الذين عبر عنهم في الفاتحة بالمنعم عليهم ، وآخر سورة البقرة جاء فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وللؤمنين آمنوا بالقرآن وبالملائكة والكتب والرسل بعد ذكر أن فمافي السموات ومافي الأرض وأنه سبحانه يعلم ما تخفي وما تظهره ، وهاهو ذا في أول آل عمران يذكر القرآن والتوراة والإنجيل وكل ما يفرق بين الحق والباطل وهذا راجع للأمر الثاني في البقرة . ويقول لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو راجع للأول . أما آخر سورة آل عمران فهو طلب التقوى من المؤمنين ، وأول سورة النساء طلبها من سائر الناس ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عام للأمة كلها ، وقيل آخر سورة النساء « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » وأتبعه بجواب استفئائهم في مسأله الكفالة ، وأول سورة الأئدة خطاب هؤلاء المؤمنين بأوامر بعد أن أجاب استفئائهم وآخر سورة للأئدة أن الله له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وأول سورة الأنعام بيان سبب كون الملك مختصا به ، ذلك لأنه خلقهم فهو يقول له ملكهما ثم يقول هو خلقهما وخلق الظلمات والنور ، وفي آخر سورة الأنعام يتبرأ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ثم أتبعه بطريقة الهداية وبإخلاسه لله إذانا بأن الذين فرقوا دينهم يخالفون هذا التسليم لله وهذه الهداية ، وفي أول الأعراف أخذ ينذر من كفر ويذكر المؤمنين تبيانا لنتيجة تبرئتهم منهم ، وفي أواخر سورة الأعراف يقول « يسألونك عن الساعة » فأجابه بأن عليها عند الله وأتبع ذلك بأنه لا يعملك لنفسه نفعا ولا ضرا وأن الناس كلهم كذلك لأنهم في قبضته لأنه خلقهم واستطرد بدم الأصنام والشيطان وبطلب الإصماء للقرآن الخ . ثم أتبعه بقوله « يسألونك عن الأنفال » فكما سألوه عن الساعة فكان العلم عند الله ، هكذا سألوه عن الأنفال فكانت الإجابة عنها من الله ، وآخر الأنفال « إن الذين آمنوا وهاجروا - إلى قوله - بعضهم أولياء بعض » وهكذا الذين يهدم . فتلخص ذلك أن هنا صلة دينية عامة وصلة رحم خاصة فلم يبق إلا ذكر الكفار بالبرادة منهم ، أما آخر برادة فإنه يفيد :

(١) أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم . (٢) بهم بأمرهم .

(٣) وهم ربما يعرضون عنه . (٤) وهو يتوكل على الله رب العرش العظيم .

وأول سورة يونس إنكار على الناس تعجبهم من إرسال رجل منهم إليهم وهو راجع للأول وكان حق التعجب أن يكون من إرسال ملك ، لأن اللوعظة إنما تكون ممن يشاكل لامن المخالف في الجنس ، وقوله « أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا الخ » راجع إلى الثاني وهو الاهتمام بأمرهم ، وقوله « قال الكافرون إن

هذا لساحر مبین « راجع للثالث ، وقوله « إن ربك الله » إلى قوله « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » راجع إلى الرابع فهو توكل عليه لأنه رب العرش العظيم في آخر التوبة ، وهناك ذلك بأن استواءه على العرش بعد خلقه السموات والأرض لأن للملك إنما يدبر الملك بعد تأسيسه ، فهنا للناسبة دقيقة ثابتة إنما التقى بموزة التفصيل أنه عبر هنا بقوله « رب العرش العظيم » ثم عبر بأنه خلق السموات والأرض الخ يقول صلى الله عليه وسلم إن الله كافيه لأنه ملك متصرف في ملكه .

بيان الفارق بين توكل نبينا صلى الله عليه وسلم وتوكل هود في سوره الآتية

فأما هود فإنه يقول « إني توكلت على الله ربي وربك مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » فهو توكل على من بيده نواصي كل دابة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم توكل على من له العرش العظيم وخلق السموات والأرض فكل منهما تذكر من صفات ربه ما دل على زعة نفسه ، فهو يريد السلامة له ولمن اتبعه لأنه عادل في عمله فهو يحفظ كل نسمة ويكفوها ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يغفر في أمر الملك العام والنظام ، فهمته متجهة إلى النظام العام وهذا هو التقى بايق باتبعه .

أيها المسلمون انظروا كيف كان اتجاه النبي صلى الله عليه وسلم وأجابه إلى النظام والملك والعرش والاصلاح العام فأعطى ذلك واتبه أصحابه وأنتم منهم فهدوا إلى الحكمة والهدى والنظر العام . أيها المسلمون كأي أرى جيني رأسي أقواما منكم نبهوا في المعلوم كلها وفاقوا الأمم . تلك الأمم التي لا يزيد إلا أنفسها ولا تحافظ إلا على كيانها . أما أنتم فإنكم الأعلون وأنتم تنظرون إلى العدم . نظام السموات والأرض ونظام الأمم .

كونوا على قدم نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا ينسى لكم ذلك إلا بالفكرة التي ذكرها في التوكل عليه فوجه وجهه شطر العرش العظيم وفصل ذلك في يونس بأنه « يدبر الأمر » .

إن أفضل صفة الانسان أن يتشبه بالله بقدر طاقته البشرية والله يدبر الأمر فليدبر المسلمون الأمور في الأرض تابعين في ذلك ربه بعد درس نظامه ونظم الأمم وليكونوا خير أمة أخرجت للناس . ومستحيل أن يتم ذلك لنا نحن في المستقبل إلا بالعلم والعمل الذي شرحناه في هذا التفسير . المسلمون يتخللون القارات كلها فإذا صلحوا أصلحوا كل الأمم . والاصلاح العام هو تأخي جميع الإنسانية الذي ورد في الأحاديث أنه الاصلاح العام المعنون عنه بزول عيسى عليه السلام ولقد شرحته في هذا التفسير مرارا وملت في غير موضع إنه لن يتم ذلك إلا بأخذ العدة له وتعميم التلميح في بلاد الاسلام الخ .

لم يكن الله ليجمع الإصلاح طرفة فذلك ما لا نراه فلم يخلق الطفل في لحظة بل أبقاه في بطن أمه تسعة أشهر ولم يجعله شيخاً إلا بعد مروره على أحوال شتى ، القهم إن الاصلاح العام وتدير الأمر في الأرض ونظام العرش الانساني للناسب امرشك العظيم للوزن للتظم لم يحصل فيها مضي ومستحيل أن يحصل في المستقبل إلا بعد إعداد الأسباب واتخاذ الوسائل وتعميد الطرق وتسهيل السبل له بارتقاء الأفراد والأمم سنين وسنين ، هنالك يرح القول أن الناس يستأهلون أن يقبلوا تعاليم الهدى أو السبع ، أما أن فردا سينزل إلى الأرض يضع سنين فيغير الأخلاق ويصلح الاحوال إلى أبد الآبدين ودهر الدهارين فهذا لم نعرفه في عمل الله عز وجل .

إن ولادة الجنين إنما تكون في حينه بعد استعداده للخروج ، فلهذا مدير الأمر كما في هذه الآية مستو على العرش والتدبير يتطلب النظام والترتيب ، إذن لن يكون المسلمون قائمين بمعنى هذه الآية إلا بنشر العلوم ومعرفة نظام هذه الدنيا والسعي في التعاون العام . هذا هو الذي يؤخذ من هذه الآية وبعض ضعفه المقول في بلاد الاسلام يتكلمون على السبع إذا نزل بل هم يظنون أنهم ينامون على فراش الراحة الوثير ويقضون



أوطارهم وهم آمنون بلا مقدمات ولا أسباب ، وهذا معناه السكسل والنوم ، وهذا ضد النبوة والسموة  
الحمدية على خط مستقيم فنحن نتوكل على الله رب العرش العظيم الذي يدبر الأمر ، فهكذا نحن يجب أن  
نتشبه بمن نتوكل عليه في تدبير الأمر ، لا أننا نبحث قواما وتكفل على من سيرسله الله إلينا فيسعدنا ونحن  
ناعون ، كلانم كلا .

#### العائد لمقاصد

إن العقائد إنما أزلت لحما على الفضائل لا لاقراف الرذائل ، عقيدة المسيح وإن كانت أشبه بالظنيات  
لأنها من الأحاديث الصحيحة قد جاءت لهدى الأمة ولنكون التل الأعلى في هذه الأرض وتقوم الأمم  
قيادة المحبة والسلام والوئام كما تقدم مرارا في هذا التفسير بإيضاح حين تضع الحرب أوزارها . هكذا  
عقيدة الإيمان بالملائكة لنعلم أن هناك حالا أخرى بعد اللوت أشبه بحال الملائكة للأبرار وبحال الشياطين  
الفسحار .

فالعقيدة للملائكة لإصلاح الأخلاق ، وعقيدة المسيح لإصلاح الأمم بالعمل لا بالأمل ، هذا ما وقر في  
نفسى الآن بمناسبة توكل النبي صلى الله عليه وسلم على الله ذى العرش العظيم الذي يدبر الأمر ، وأن همة التوكل  
تجبه إلى صفة من صفات التوكل عليه ، وقد حصل ذلك في هذه النبوة فكان لهذه الأمة عروش ملك  
في الأرض ولكن العرش العظيم لهذه الأمة هو النظام العام فيها بنظام الحب كما في نظام السموات والأرض  
القائم بالمجازية والحب العام ، والحمد لله رب العالمين اه .

#### (القسم الثاني)

وَلَوْ يُعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ  
لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ \* وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا  
كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ تَرَاهُ كَآنَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \*  
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا  
لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ \* ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ  
لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ \* وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْنُمُ آيَاتُنَا يَنبَغُ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتِ  
بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّلهُ مِنْ بَلَاءِهِ وَمَنْ يُلْقَاهُ فَنُفِىَ إِنْ أَتْبَعُ إِلَّا مَا يَوْحَى  
إِلَى إِيَّيْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ \* قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ  
وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى  
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ الْمُجْرِمُونَ \* وَيَتَّبِعُونَ مِنَ دُونِ اللَّهِ  
مَالًا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُوَ لَاءَ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أُتِبْتُوْنَ اللَّهُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُمْ

فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ \* وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً  
 فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ \* وَيَقُولُونَ لَوْلَا  
 أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ \* وَإِذَا  
 أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا  
 إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَمْكُرُونَ \* هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ  
 فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرَبِّمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ  
 كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ  
 لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ \* فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا  
 النَّاسُ إِنَّمَا بَنَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نَسُوا الْإِنْسَانَ الَّذِي رَزَقَهُمْ مِنْ قَبْلُ  
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

#### التفسير الفطري

قال تعالى (ولو يجعل الله للناس الشر) إذا طلبوه مستعجلين بأن يدعو الرجل عند الضر والنصب  
 على أهله وولده ويتعجل البلاء والنعمة فيقول انكم الله ولا يبارك الله فيكم ، يقول الله لو أن الله أجابهم إذا  
 دعوه بالشر الذي يستعجلونه به (استعجالهم بالخير) أي تعجيله لهم الخير : أي لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به  
 كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه (لقد أهدى إليهم رجوعهم) أي لا يمتدوا وأهلكوا جميعا . ولكننا لا نعجل ولا نقضى  
 وإنما عملهم إهمالا (فندد الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم) معاصيهم وشركهم وضلالهم (يعمّهون)  
 يترددون ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاما للحجة عليهم (وإذا مس الإنسان) أصابه (الضر دعانا)  
 لإزائه مخلصا فيه (لجنبه) ملق لجنبه : أي مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) أي في جميع أحواله (فلما كشفنا  
 عنه ضره مر) مضى على طريقته واستمر على جهالة وكفره ومعاصيه ونسى موقف الدعاء والتضرع (كان  
 لم يدعنا) أي كأنه لم يدعنا واسم أن المنفعة ضمير الشأن (إلى ضره) إلى كشف ضر (كذلك) مثل  
 ذلك الذين لهذا الإنسان الذي نسي موقف الدعاء (زين للسرفين ما كانوا يعملون) من الإهمالك في السموات  
 والإعراض عن العبادات (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يا أهل مكة ويا جميع الناس (لما ظلموا)  
 حين ظلموا بالتكذيب وعرف مواهبهم فيما لا ينبي (و) الحال أنهم قد (جاءتهم رسلكم) الحجج (البيانات)  
 الدالات على صدقهم (وما كانوا ليؤمنوا) أي وما استقام لهم أن يؤمنوا لتصاد استعدادهم وخذلان الله لهم  
 (كذلك) مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم (بحزى القوم المجرمين) تجزيكم فوضع للظهور  
 موضع للضرر دلالة على أنهم مجرمون (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) استخلفناكم فيها بعد القرون  
 التي أهلكناها استخلاف من يجتبر (لنتظر كيف تعملون) أي أخيرا تعملون أم شرا ؟ فنعاملكم على مقتضى  
 عملكم (وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا) أي للشركون لما غاظمهم ما في القرآن من ذم  
 عبادة الأوثان والوعيد الشديد (انت بقرآن غير هذا) ليس فيه ما يبيح بما ذكر (أو بدله) فتسقط ذكر

الآلهة ودمتها وتجعل مكان آية العذاب آية رحمة فأجاب (قل ما يكون لي ما يحملني (أن أبدل من تلقاء نفسي) من قبل نفسي (إن أتبع إلا ما يوحى إليّ) أي لا أتبع إلا وحي الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل (إني أخاف إن عصيت ربي) بالتبديل من عند نفسي (عذاب يوم عظيم) أي يوم القيامة (قل لو شاء الله) غير ذلك (ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) ولا أعلمكم بالقرآن على لساني (قد لبثت فيكم عمرا) مقدار عمر أربعين سنة (من قبله) من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه (أفلا تتقون) أن من عاش أربعين سنة لم يمارس فيها علما ولم يدخل مدرسة ولم يشاهد عالما ثم جاء بأخبار للماضين والأحكام والآداب ومكارم الأخلاق وهذه العجائب المتكررة لا يمكن أن يكون أمها عاديا ، بل هو من طور آخر وهو الوحي (فمن أظلم ممن ألقى على الله كلفا) سواء أكان بإسناد قول إلى الله تعالى لم يقبله بادعاء النبوة ، أم بادعاء أن لله شريكا أو ولدا (أو كذب بآياته) فكفر بها (إنه لا يفلح المجرمون . ويصدون من دون الله ما لا يضرهم) إن تركوا عبادة كالأصنام (ولا يفقههم) إن عبدوها (ويقولون هؤلاء) الأصنام (شفعواؤنا عند الله) في أمور للعالمين لأنهم ما كانوا يقرّون بالبعث لقوله تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » وبعض العرب كان يقرّ بالبعث (قل أنتبشون الله بما لا يعلم) أي أنخبروه بكونهم شفعاؤه عنده وهو لا يعلمهم (في السموات ولا في الأرض) وإذا لم يكن عالما بهم وهو يعلم كل شيء ، فذلك دليل على عدم وجودهم (سبحانه وتعالى عما يشركون) زه نفسه أن يكون له شريك ، ولما كانت هذه الأحوال مما يدعو إلى التعجب من هذا النوع الإنساني ، وكيف يبدون ما يصنعون ، ويقلدون من لا يعلمون ؟ وكانت النفوس الإنسانية تميل إلى الحقائق أنى بعد هذا بإحدى الحقائق الطبيعية الحكمة الإلهية فأفاد أن نوع الإنسان يولد على الفطرة والحال الطبيعية فهم فيها منفقون لاختلافهم ، ومتحدون لامتزاجهم ، ولكن الحكمة في هذا الوجود تقضى الاختلاف والاتراق ليجتمع بعد التفرق المختلفون ليتعارف ، يد التجاهل للمتفرقون يخالف بين لغاتهم وأوطانهم وأزبانهم وعاداتهم وبيئاتهم وأحوالهم وألوانهم وممالكهم كما اختلف الزهر في الأشجار وطعموم الأثمار ، فإن هذا العالم على الاختلاف مخلوق وعلى الاتراق مجبول فإن لم يكن الاختلاف كان العالم هباء منثورا ، فإذا كان الاختلاف مبداء ومنتهاه فكيف يتفقون في الدين ، وإذا لم يتفقوا في حال من الأحوال التي لا تسكاد تخصي فهم في الدين مختلفون وفي الحقائق متفرقون وإن كانت فطرهم واحدة وإنسانيتهم في الأصل غير مفترقة ألا ترى أن تعريف الإنسان بالحيوانية والناطقة ، فهذا هو الأصل الساري في كل إنسان ، وبعد هذا افرق في سائر الصفات والأحوال ومنها الدين ، وهذا قوله تعالى (وما كان الناس إلا أمة واحدة) بحسب فطرهم ومقتضى إنسانيتهم (فاختلفوا) فصاروا في الدين وفي سائر الأحوال مختلفين (ولولا كلمة سبقت من ربك) أن الاختلاف سنة طبيعية وحكمة إلهية وغايتها السكال وانحاد النفوس في كثير من الأطوار وتألقهم بما زاووا من الأعمال على درجات مختلفة وأحوال متباينة فيكون الناس بعد أعمالهم طول الحياة قد صاروا في حال أكل ، وكل جماعة منهم تتحد في عمل أو خلق فيكون هذا الاختلاف جميلا في مقاصده نبيل في نهايته ، لأنه يشر عقولا مختلفات الجمال كما اختلفت الأشجار في الأزهار والأثمار فصارت بساين بنفس الاختلاف ، هكذا تكون النفوس بعد اللوت بفتنها في الأخلاق والأعمال كالرياض الزاهرات والحقول الباهرات ، فلولا اختلاف الثمر ما جعل البستان ، ولولا تفرق الزهر والشجر ما استحسنتها الإنسان ، فمقول الناس بساين العالم الأمل كما أن الأشجار والأثمار بيساينتنا ، وكل ذلك إنما نشأ من الاختلاف .

يقول الله « ولولا كلمة سبقت من ربك » بهذا الجمال (لنقى بينهم فيها فيه مختلفون) ليتناز الحق من للبطل ، ومن الجمال أن يكون في العالم الروحي أرواح شريرة كما ترى في الأرض المنظّل وشوك القتاد

وضربوا من الأشجار للرتة ، ونظير هؤلاء في نوع الإنسان الفجار والكفار ليكون ذلك دليلا على الجلال  
 فإن التي لا يعرف إلا بضده ، وبضدها تميز الأشياء ، فبقاء الكافر وللؤمن والصلاح والاطلاع إلى أجل محدود  
 لتكامل آجالهم فتظهر أحوالهم ظهورا أجلى ويكون الحنظل مع اللوز والأثل مع النخل وهذا هو النظام  
 الجليل وهذا القول ظاهر في علم الفيلسوف الحاضرة والعلم للوروث فإن العالم كله من أصل واحد هي المهيولى  
 التي لا تعرف إلا بالمثل ، وعند بعض الحكماء المحدثين أن العالم يرجع إلى الجواهر الفردة وهي متائلة ، وعند  
 المحققين إلى حركات ، فأما الإنسان فإن الأرواح قبل حلولها في الأجسام في أول نشأتها تكون متائلة  
 لا تمايز بينها وهكذا أجسام الأجنة في بطون أمهاتها تكون في أول أمرها متشابهة مع حيوانات أخرى  
 ثم ترتق شيئا فشيئا حتى تخالف سائر الحيوان باستكمال الخلق ، وعند الولادة يكون الاختلاف بين الولدين  
 من الإنسان في أمور محدودة فإذا كبروا وربوا كان هناك خلاف عظيم ولذلك خلقهم الله كما قال في آية أخرى  
 « ولقد خلقهم » وهذا هو الحق والعلم الصحيح وما عداه فأقوال متفرقة وآراء غير محققة اختلط فيها الحق  
 بالباطل والذهب النقي بالزبرج والزيغ بالجيد ، والله هو الليم الحكيم

ثم أتى بمسألة أخرى كانت سبب الاختلاف في النبوة وهو انتراح آيات خاصة فقال ( ويقولون لولا أنزل  
 عليه آية من ربه قل إنما الغيب لله ) وهو وحده العالم أن هذه الآيات للقرحة فيها مفاصد لا نفع فيها ( فانتظروا )  
 نزول ما اقترحتموه ( إني معكم من المنتظرين ) لما يفعل بكم بحدودكم ما نزل من الآيات ( وإذا أذقنا الناس رحمة  
 نحسبوا وسعة ورحمة ( من بعد ضراء مستهم ) أي من بعد شدة وبلاء كأهل مكة إذ حبس عنهم المطر سبع سنين  
 حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم رحمهم الله فأزل عليهم المطر الكثير حتى أخضبت البلاد فلم يعظف الناس  
 بذلك بل رجعوا إلى الفساد كما مر في قوله « وإذا مس الإنسان ضر دعانا جنب » إلى قوله « مر كأن لم  
 يدعنا إلى ضره » ولذلك جاء جواب « وإذا أذقنا » موافقا لذلك الجواب مع إيضاح وتنويع فقال ( إذا )  
 هي للفاجأة واقعة في جواب إذا الأولى كما تقع الفاء : أي ففي الحال ( لهم مكر في آياتنا ) بالظن فيها والاحتيال  
 في دفعها ( قل الله أسرع مكرا ) منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، وقد تقدم عقابهم في سورة  
 الأضال والتوبة وآل عمران ، وللكر : إخفاء الكيد وهو من الله الاستدراج والجزاء على الكر ( إن رسلنا  
 يكتبون ما تمكرون ) الرسل هنا الحفظة فليس يحق على الله خافية ، ولما كان هذا القول وما مر قبده وهو  
 « وإذا مس الإنسان ضر الخ » دالين على سرعة تقلب الإنسان وعدم وثاقه واتماظه وكان هذا المقام يحتاج  
 إلى إيضاح أردفهما بثالث دلالة على أنه أمر يجب النظر فيه ، فإن عدم الثبات وسرعة التقلب ووجود النعم  
 بورث العذاب الأليم ، ولذلك قال ( هو الذي يسيركم في البر ) بأرجلكم وبالهدايا والقطرات الجارية  
 والعربات والسيارات الجارية بالكهرباء وغيرها وفي الهواء بالمرالكب الهوائية والمطاود جمع منطاد ( والبحر )  
 بالسفن العائمة والقاطنة ( حتى إذا كنتم في الفلك ) السفن ( وجري ) أي السفن ( بريح طيبة ) لينة الهبوب  
 ( وفرحوا بها ) أي بتلك الريح لبينها واستقامتها ( جاءتها ) أي الفلك وهنا اعتبرت جمعا كأسد وهي مفردة  
 كقفل ( بريح عاصف ) ذات عصف : أي شديدة الهبوب ( وجاءهم اللوج من كل مكان ) يجيئهم اللوج منه  
 ( وظنوا أنهم أحيط بهم ) أي أهلكوا وسدت عليهم مسالك الخلاص ( دعوا الله محصلين له الدين ) من غير  
 إشراك لأنهم رجعوا إلى فطرتهم لزوال العوارض للأنفة من ذلك قائلين ( إني أنجيتنا من هذه لتكونن من  
 الشاكرين ) نعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك ( فلما أعجم إذا هم يفقون في الأرض ) يغفدون فيها  
 ( بغير الحق ) مبطلين فيه ( يأبها الناس إنما بيئكم على أنفسكم ) فإن وبالله عليكم ، وأيضا هو على أمثالكم  
 وبني جنسكم وجميع الناس متضامنون والبنى على من نفعه عائد عليك ضار بك ، تتمتعون ( متاع الحياة الدنيا )

على التعب ، أو ذلك مناع الحياة الدنيا على الرفع ( ثم إلبنا مرجعكم فنبتنكم بما كنتم تعملون ) بالجزء عليه ، انتهى التفسير اللفظي .

اعلم أن هذا القسم متصل بما قبله وصلته بقوله تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياء » إلى قوله في آخر القسم « ونحبهم فيها سلام » وآخر دعوانهم أن الحمد لله رب العالمين » .

لقد تبين لك هناك أن السلام على ثلاثة أنواع :

سلام الناس بعضهم على بعض يوم القيامة ، و سلام للملائكة ، و سلام الله تعالى ، و لابد من شرح هنا للوضوع شرحا وافيا حتى يعرف اتصال هذا القسم بما قبله وإذن يظهر لك سر مكنون وجوهه بديع وعجب هجاب .

وهنا أصلان [ الأصل الأول ] أن هذا اللقاع عبارة عن مبحث في السعادة والسلام والأمن ، فكل من كان من الناس أهدأ بالا ورضى فهو إلى السعادة أقرب ، وكل من كان جزع النفس مضطرب القلب حزينا متألما أو طامعا أو ما أشبه ذلك فهو إلى الشقاوة أقرب على مقتضى ما انصف به قلة وكثرة ، وإذا كنت أيها الدكي بمن تاجوا هذا التفسير فقد عرفت ذلك [ الأصل الثاني ] أنه لا يتفق الأمن والسلام والراحة ، لجميع الناس في الدنيا دائما في أم ومطالب تزعج لب اللبيب وتوغر صدر الحليم ، فالخير والشر مقرونان في قرن ، وعليه تكون السعادة محالة في هذا الوجود ، فبإضمار الأصل الثاني للأول يتناقضان ولا يجتمعان وهذا الرأي وهو عدم السعادة في الدنيا قال به كثير من العقلاء ، وهناك سعادات اكتسابية يكتسبها الناس تقرّبهم إليها وهي :

(١) أنا نجد السلم في الصلاة يسلم ٣٦ في الصلوات الخمس للفروضة ، فإذا انضمت إليها النوافل بلغ القدر ضعفا أو أضعافا .

(٢) ولا معنى لهذا السلام إلا تذكرة السلم بالأمن وراحة الضمير وبعد المكروه وجميع اللصائب فهو يسلم على الأنبياء والصالحين وعلى نفسه بهذا المعنى ، فالسلم مأثور بطريق دينه أن يعتقد أنه في أمان من كل مكروه ، وأين هذا ؟ ذلك بثلاث طرق :

الطريق ٢٠١ طريق الإيمان ، فكلما أصابته مصيبة يقول « إنا لله وإنا إليه راجعون » وليس يكون ذلك باللسان وحده فيرى أنه يحمد الله رب العالمين ؛ أي ربهم باللين والشدة للعبير عنهما بالرحمة وملك يوم الجزاء ، ويقول تعالى « وتبأؤمكم بالشر والخير فتنة » فحق أحضر الرء في نفسه أن المكروه من الله وأن الله لا يفعل إلا خيرا واطمأن لذلك كما في قوله تعالى « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وقوله « هل ترصون بنا إلا إحدى الحسينين » فإن عنده نوع سعادة ، فههنا أمران :

[ الأمر الأول ] إسناد الأمر لله وهذا عند الاستمداد له يعطى بعض الراحة للقلب ولهذا الإشارة بقوله « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير » لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فحق أيقن العبد أن كل شيء معلوم عند الله ارتاح قلبه جدا ووصل إلى السلامة على شرط الإيقان فتكون الحوادث مثل الليل والنهار .

[ الأمر الثاني ] أن يرى كل مكروه ظاهرا هو محبوب باطنا ، ويرى كل شر أشبه بالحجامة أو شرب الهواء الكريه فيكون متألما منه ولكنه راض وهذا نوع من السعادة وله الإشارة بقوله « هل ترصون بنا إلا إحدى الحسينين » حيث جعل القتل حسنى وأى مصيبة أعظم من اللوث حتى إن الصحابة كانوا يسرعون إلى الحرب لذلك . الطريق الثالث طريق الصبر وقوة الزميمة وهي التي شرحتها سابقا في لفز قاس

في سورة البقرة ، وكذلك طريق كتاب [ للكوش الهندي ] الذي أعطيتك صورة منه سابقا  
تلخص مقصوده ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » وقوله « وبشر الصابرين »  
وما أشبه ذلك . . .

فهذه الأمور الثلاثة تمنى الإنسان سعادة كسبية مادام في هذه الحياة : ومستحيل أن يصل الإنسان  
إلى تمام السعادة في هذه الحياة إلا قوم مذهبون ذهولا دينيا أو دينويا بأن فارقوا إحساسهم فكيف يحزنون ؟  
فالسلم في الصلاة وتكراره في الركعات يوقظ نفس السلم إلى أحد هذه للتراتب عسى أن يصل إلى درجة  
الراضين وإن كانوا في مكروه وهذه نوع من السعادة والسلام في هذه الحياة ، هذا هو السر في تكرار  
السلم في الصلاة ، فإذا مات للسلم أحس بالسلامة من الآفات وبالأمّن إذا كان صالحا ، وبحس إخوانه بذلك  
فيحيونه به ، وليس ذلك تحية لفظية كما في الدنيا ، بل المعاني هناك متجلية كما تجلت الألفاظ في هذا العالم ،  
فإذا ارتقوا عن هذه الدرجة حينئذ لللائكة ثم حيّاهم الله ، ففي الآية « ولللائكة يدخلون عليهم من كل باب »  
وفي آية أخرى « تحييتهم يوم يلقونه سلام » فمضى حصل لقاء الله كان هناك السلام ، واللقاء هنا على من كان  
أكثر علما بالله كان أقرب للسلامة والأمن ، فقد يموت للرء ولا يلقى إلا العذاب ويحجب عن ربه فأين  
السلامة ؟ ولن يلقى ربه إلا بريئا من الذنوب كامل النفس ، هناك تخاض عليه النجوم ويدرك سر الخليفة  
وإذن لا يكون هناك غم ولا هم لأنه وصل إلى منتهى السعادة .

فصل الإنسان أن يجد في الأخلاق والعلم ومنفعة الناس حتى ينال السعادة الروحية ويزيد من ربه قربا  
ولن ينال السعادة في الآخرة وهو لم يحصل أوائلها في الدنيا بالاكْتساب وتطمئن نفسه في الدنيا بعض  
الاطمئنان وهذا يكمل له بعد الموت ، أما الذي مات مضطرب الفكر لآثبات عنده إما لجهالة وإما لذنوبه  
فذلك لا يسمد في الآخرة لأنه لا مادة في الآخرة إلا إذا كانت أوائلها في الدنيا ، فقوله « تحييتهم فيها سلام »  
وآخر دعوانم أن الحمد لله رب العالمين « مردّد لصوت السلام في الدنيا وفي القابلات بين الناس وللحامد التي  
يحمدها الله وللمعاني الطيبة التي أدركها الإنسان في نظام هذا الوجود ، فبدأ السلام والسعادة في الألفاظ  
في الصلاة ، وأوسطها في اكتساب ذلك بالإيمان وتهذيب النفس ، ونهايتها حصول السعادة والسلام فعلا  
وهو السر عن سلام لللائكة ثم سلام الله تعالى ( تحييتهم يوم يلقونه سلام ) هذا هو القسم للتقدم ، ثم أتبعه  
بما هو في مناه كالتمسك له فقال : إن الناس يبعثون عن السعادة والسلامة بعدا شاسعا جدا تنفر بطهم  
في للتصود من معنى السلام في صلواتهم وجهلهم القصد من تكرار السلام ، ذلك أنهم إذا أصابهم مصيبة  
وهم لم ينالوا درجة من درجات السعادة المتقدمة شتمت أنفسهم وكرهوا الحياة وأمن الرجل أهله ومن حوله  
ومنى الموت ، ولو أننا سارعنا إلى إجابة الشر كما نسرع إلى الخير لملاك الناس ، فهذا دليل أن هذا الإنسان  
خلق هلوفا يعني « إذا مسه الشر جزوعا » وإذا مسه الخير منوعا » وكان يجب أن يكتب سفة الثبات  
بأحد الأمور الثلاثة المتقدمة ، وإنما عبر بقوله « لا يرجون لقاءنا » إشعارا بأن هذه الآية من نواحي ما قبلها  
ولقاء الله إنما يكون للروح المهذبة الكاملة علما وأخلاقا وغيرها منقطع عنها فلا يلقاه فلا يرجو لقاءه .

ثم أتبعه بجمل أخرى فذكر أن الإنسان لا صبر عنده وإذا مسه الضر دعا الله هلهما ، فإذا زال  
الضر نسي ، وإنه إذا داق النعمة بعد الشقاء والتقى بعد الفقر ساقه البطر إلى تكذيب الآيات واتباع  
سبل الضلالات .

وزاد ذلك بما يمتريه في البحر إذا اضطربت الرياح واختلقت الأمواج كيف يدعو خالقه ؟ فإذا نجاه  
نسيه ، فهذه الآيات قررت أن الإنسان سريع الاغتيال يمتنى للموت إذا أصابه الشر للمدّة لتكليه لجهالة

ويهلج ويطلب النجاة ، فإذا نالها غفل وهذه الغفلات علامة الشقاء والبعد عن السلامة • وبضدها تتميز الأشياء • انتهى تفسير القسم الثاني .

لطيفة

إن ابتهال الإنسان فـ إذا أصابه الضر أو أحاطت به الأمواج أو وقع في كرب عظيم دليل على أن العالم خاتما ، ألا ترى أن الطفل يلجأ لأمه والفصيل والعجل وأمثالهما كلها ملتجئات إلى أمهاتها ، هكذا حبات البرز في ظلمات الطين ملتجئات في تفتيتها إلى الأرض والماء ، فإذا ما شب الطفل وقوى الحيوان واشتد النبات اعتمد كل على نفسه بتناول الغذاء من الخبز والهواء فهي مستغلات إذا قويت منبهلات إذا ضعفت ، هكذا الإنسان القوي إذا أصابه الضر وأحاطت به الأنواء كر راجعا إلى مافي داخل قلبه من نور محبوبه وهو الوجودان الذي يرى أن له مرجعا خارجا عن المادة فيناديه قائلا [ يارب ] فإذا نجاه رجع إلى قوته ونسى ربه كما تغدى النبات بالهواء وحرارة الشمس لما قوى واكتفى الحيوان بالنبات مثلا فهذا برهان وجداني إقناعي على وجود الله .

( القسَمُ الثَّالِثُ )

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ • وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَسْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ • وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيْلَنَا مِنْهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ • فَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ • هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

( التفسير اللفظي )

قال تعالى ( إنما مثل الحياة الدنيا ) حالها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واقترار الناس بها ( كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ) فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا ( مما يأكل الناس والأنعام ) وهي الزروع والبقول والحشائش ( حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ) زيتها بالنبات

واختلاف ألوانه ( وازينت ) وزينت بأنواع الزين وقد أدغمت التاء في الزاي . وقرئ « تزيت » على الأصل . فقد مثلت الأرض بالعروس وقد أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكنتها وزينت بغيرها من ألوان الزين ( وطلق أهلها ) أهل الأرض ( أنهم قادرون عليها ) متمكنون من منفتحها محصلون لثمرتها راضون لطنها ( أنها أمرنا ) عذابنا وهو ضرب زرعهما ينضض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم ( ليلا أو نهارا لجلناها ) لجلنا زرعهما ( حصيدا ) شبيها بما يحصد من الزرع في قطعه واستصاليه ( كأن لم تنن ) كأن لم ينن زرعهما . أي لم يلبث : أي كأن الأشجار القائمة والنباتات الطيبة والزرع البهجة لم تكن غنيت من غنى فلان بالمسكان إذا أقام به وقوله ( بالأس ) هو مثل في الوقت القريب والمثل به مضمون هذا القول وهو زوال خضرة النبات فجأة فيصير حطاما بعد ما كان غضا والتف وزين الأرض حتى طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح ( كذلك ) كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا كذلك نين حجبتنا ودلائلنا لمن تفكر لنزول الشبهت ويكون اليقين .

هذا القول متصل بما قبله من تقلب الأحوال على الإنسان تارة يطلب اللوت والملاك ويلمن الزوج والأبناء لشوكة يشا كها أو زلة قدم يزها وأخرى يدعو بالنجاة من الضر قاعدا أو قائما فإذا نجاه الله نسي الدعاء والدعو وهكذا شأنه عند كل نعمة أزال الضر فانه يكيد كيدا ويصد عن سبيل الإيمان وإذا غشيه للوج ودعا بالخلص وجاءه الفرج لا يذكر النعمة ويرجع إلى سابق عهده . ثم أتبع بهذا المثل إذ جعل حياة الانسان أو حظوظه أشبه بعروس ذات جمال وبهجة ودلال قد ازينت للناظرين فلبست من الثياب ألوانا وأخذت من كل زينة أشكالاً فصارت حوراء في حلها وحلاها .

فما أجهم حسنها وفرحوا بها وظنوا أنهم منها متمكنون أنها صاعقة أو برد أورج جعلها حصيدا كأن لم تكن قائمة بالأس . وهذا مثل للتشبهت بالدنيا الراغب في زهرتها وحسنا [ ذلك ] أن الله لما قال « يا أيها الناس إنما بينكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا » أتبعه بهذا المثل لمن بنى في الأرض وتجر فيها وركن إلى الدنيا وأعرض عن الآخرة . فالتشبهت بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون . فحظوظ الدنيا كبهجة النبات معرضة للزوال فجأة كهلاك النبات بصاعقة . ونفس الحياة كذلك يحترمها اللوت فجأة والانسان لا يشعر بذلك . حياة الانسان للوت معرضة كل حين وشبابه وقوته وصحته وماله وولده وسروره وقدراته كل ذلك قد ضرب له هذا المثل . فالحياة كتلك العروس والقوة والبأس والتذكر والصيت والجمال . كل ذلك داخل في المثل إذ يعتبرها الذهب والفناء في لمح البصر أو هو أقرب . فكمن جميل أذهب جماله للرض . وغنى أهلك ماله الجوائح . وعاقل ذكى قتل الذكاء . والمقل هموم وأشجان فذهب إلى المارستان وذى بنين شهود للمحافل قواد للمحافل حسدهم للتون وهم لا يشعرون فأصبح فريدا وحيدا ، وكمن من ذى صيت جيد وذكر جميل أخى الدهر على ذكراه بريية ذكرها وشعنا . تبيينوها وذنوب أشاعوها فأصبح المدوح مدموما ، وكمن من معجب بشبابه وصحته وهو مبتهيج غلور جاءه الموت فجأة فأصبح من أهل القبور ، هذه المعاني وأمثالها داخلة في هذا المثل .

واعلم أن هذا المثل وما تقدمه إنما جاء بعد قوله في آخر القسم الأول « تحييم فيها سلام » تبياناً لما عليه الناس في الدنيا من عدم السلامة ومن الشقاء والدلة وذم الحياة والمهلج والجزع وما أشبه ذلك من كل ما يوجب الاضطراب كما تقدم في مثل البحر وأمواجه والنجاة منه الخ ما ذكرنا وقررنا ، وهكذا نفس الحياة وحظوظها الخ . فلما أبان ذلك أيما تبيان وأظهر كيف تكون عدم السلامة في هذه الدار وكيف يكون الاضطراب والزوال أتبعه بما هو المقصود فقال ( والله يدعو إلى دار السلام ) ومعلوم أن النكرة إذا أعيدت



معرفة كانت عين الأول فهو سبحانه يقول : ها أنتم هؤلاء عرفتم حياتكم ونسبها وتقلب قلوبكم وحظوظكم واخترام آجالكم في هذه الدار التي لاسلام فيها بحسب طبيعتها ، فما أنا ذا أدعوكم إلى دار الأمان والاطمئنان والسلامة المذكورة في قولي « ونحيتهم فيها سلام » فما أنا ذا أدعوكم إلى دار السلامة من الآفات بعد ما تبين لكم الهالك وللشاق ، ثم قال ( ويهدى من يشاء ) بالنوفيق ( إلى صراط مستقيم ) لأن الناس مختلفون استعدادا ، ولما قال هناك « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » بعد قوله « نحيتهم فيها سلام » أي بنظيره هنا بعد دعوته الناس إلى دار السلام ، فقال ( للذين أحسنوا الحسنى ) أي الجنة ( وزيادة ) هي النظر إلى وجه الله الكريم .

والنظر لوجه الله الكريم هنا معناه ازدياد العلم بآياته وجماله وحكمه ومجانيه وبدائمه ، وكما ازداد علما ازداد بهجة ، فهذا النظر بهجة الحكاء والأنبياء ، وهو يقابل « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » هناك ، فقد تبين هنا كيف تكون دار البلاء ، ثم كيف تكون دار السلام ، ثم كيف يكون ازدياد العلم بالله للعبير عنه بالنظر ، وأنت أيها الذي تعرف من نفسك الآن أمن أهل الجنة أنت أم من أهل النظر لوجه الله ؟ فإن كنت سالما ولكن لا شغف لك ولا لذة في العلم بهذا العالم فأنت تكون في الجنة وهي دار السلامة ، فأما إذا كنت في جمال العلوم راغبا ورأيت في نفسك لذة وغراما بها فاعلم أنك ستنظر وجه الله حتما بعد الاستعداد التام .

روى صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم ندخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية ( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) » أخرجه مسلم .

فالعامة يتصورون شكلا ينظرونه كما ينظرون للوك ؛ فأما الخاصة فإن النظر لوجه الله يتدى لهم في الدنيا بمشق مصنوعاته وقراءة العلوم قديمها وحديثها فينفع أحدهم بالعلم كما ينفعهم الله بالخلق ثم أحدهم يرجع في معارج الكمال متشبيها بمحبوه سائرا في طريقه ، محبا لخلقه ، ناظرا إلى جماله الذي تبدي في أصناف الشجر والنجم والقمر حتى إذا فاجأته للنون أصبح عند من كان محبوه ، وصار الغائب مشهودا ، والمحبوب موجودا وأدرك إذ ذاك أنه كان معه ولكنه هو عنه محبوب ، وإذا سمعت سيدنا عليا كرم الله وجهه يخسر الزيادة بلؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب ، فما ذلك إلا عين ما ذكرناه ، وما اللؤلؤة إلا هذا العالم المخلوق يظهر أمام مجلوا جيلها بها كلؤلؤة وهو مبدأ النظر لوجه الله الكريم ، فإن العالم الذي نحن فيه جميل كاللؤلؤة ، ومستحيل أن يعرف الإنسان جماله إلا بالعلم ، ومتى عرف الجمال عرف من هو الجليل وهذا هو النظر عينه ؛ فسيدنا علي يرمي إلى هنا التمام لأنه يرمي على الأنفهام فعرفه بمثال ، لأن الحقيقة تخفى على العوام وكثير من الخواص ، وقوله ( ولا يرهق وجوههم ) لا يشاها ( قمر ) غيرة فيها سواد ( ولا ذلة ) هو ان : أي لا يشام حزن وسوء حال ( والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ) عطف على قوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ( ما لهم من الله من عاصم ) ما من أحد يصمهم من سخط الله ( كأنما أغشيت وجوههم ) غطيت ( قطعا من الليل مظلم ) لفرط سوادها وظلمتها ، وقوله ( ثم يقول للذين أشركوا مكانكم ) أي الترموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم ( فزيلنا بينهم ) أي فرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا ( وقال شركاؤهم ) أي الأصنام وكل معبود لهم ( ما كنتم إيانا تعبدون ) تبرأ للمعبودين من العابدين ، فما كانت العبادة في الحقيقة إلا لأهوائهم ولمن زين لهم تلك العبادة ( فسكنى بالله شهيدا بيننا وبينكم ) أي كفى الله شهيدا وهو تمييز ( إن كنا عن عبادتكم لتافلن ) إن محقة من التضيعة

واللام فارقة بينها وبين النافية ( هناك ) في ذلك للكان ( تباو كل نفس ) تختبر وتذوق ( ما أسلفت ) من العمل فتعرف أبيض هو أم حسن ؟ ( وردوا إلى الله ) إلى جزائه ( مولاهم الحق ) ربهم ومتولى أمورهم على الحقيقة ، لا ما اتخذوه مولى ( وذل عنهم ) ضاع عنهم ( ما كانوا يفترون ) من أن آلهتهم تشفع لهم ، أو ما كان يدعوون أنها آلهة اه .

#### لطيفة في النظر لوجه الله تعالى

لقد اطلع على هذا المقال أحد العلماء ممن لهم قدم في العلم واسعة ، فقال لئن سرتني في هذه المقالة حال لقد ساءتني حال ، قلت وكيف ذلك ؟ قال كيف يحمل النظر لوجه الله الكريم عبارة عن العلم وأي شيء العلم ؟ إن الإنسان إذا رأى وجهاً جميلاً استلذ به وفرح ؛ فأما العلم فهو معروف ولا شيء فيه من ذلك ، قلت له إن هذا المقام ليس يعرف إلا بعد البيان ، حقا إن الإنسان إذا نظر وجه الجليل سرته القدر والشكل والقون والأنب والعم والعين والحدّ وحسن الهيئة وجمال الزينة ، والمطف بكسر الأول ، والمهف والخور والشنب وسائر ما يقوله الشعراء في أشعارهم ويبدو في أقوالهم ، ولكن العلم شيء والشعر شيء ، فإن حاسة النظر إحدى الشبكات الظاهرة الخمس التي يصطاد بها العقل للمعلومات والحب على مقدار العلم ، فإذا نظرنا إلى الجليل وممنا نعمته وفصاحته وممنا طيب ريحه وذقنا ما مذاق منه ولمسنا جلده ، هنالك يضم إلى النظر هذه الذكورات فتتضاعف اللذة وتزداد الحب ، فكيف بنا إذا تغلغلنا في باطنه وعرفنا مواهبه الباطنة من عفة وحلم وكرم وأدب وحسن خلق ومعارف وعلوم ، هنالك يحصل لذلك العالم به من اللذة به ما لا يوصف ومن الحب ما هو أعظم ؛ وإذن قد تبين لك أن النظر الذي أعظم قدره الناس ما هو إلا وسيلة من وسائل العلم وليس خارجاً عنها وأن اللذة بنظر العين جزئية ، فإذا كان المخلوق للشاهد المحسوس لا يستلذ به إلا باستكمال العلم به ظاهراً بالحواس الظاهرة وباطناً بإدراك العلم ، فما بالك بمن لا تدركه عبوتنا ولا تصل إليه مشاعرنا ، فمنه إذن نتجى إلى العلم الذي عرفت أن النظر من جنوده وتدع القرع وتمسك بالأسل وتقول للقعود هو الأشرف وهو العلم .

ولا ريب أن العلم مبدؤه في الدنيا ومن لم يبتدىء ذلك في الدنيا فليس له حظ من هذا العلم في الدنيا ، وذلك هو النور للذكور يسمى بين يديه بعد الموت ، ومن لا نور له هنا لا نور له هناك .

#### اللطيفة الثانية

التفسير في علوم الكائنات يحرم أحياء المسلمين من العلبة وأمواتهم من النظر لوجه الله الكريم قد تبين أن النظر لوجه الله الكريم مبدؤه العلم في الدنيا ، ومن لم يعلم لم ينظر ، والعلم يرجع إلى النظر في جمال هذه المخلوقات ومحجوب النفس وبدائع الصنع وتركيب الأجسام ونظام الوجود . والناس في الدنيا إذا قرءوا هذه العلوم على ثلاثة أقسام : قسم يقرؤها لماشاه كالعلوم الرياضية لنظام الدواوين ونظام الجند وما أشبه ذلك ، وقسم يقرؤها ليتحلى به في المجالس ويتفاخر به على الأقران ، وقسم يقرؤها كما يقرؤها الصبيان المتقدمان ولكنه يتحلى بالنظام والجمال ويعجبه بهجة التشريح ونظام النبات وحساب الطبيعة وبهجة النجوم ومحجائب حركاتها وبدائع أشكالها ويتغافل في ذلك ، وهذا لاشك يهيج إلى الفرح بمن هو السبب الأول فيه وهذا مبدأ النظر ، وكلما ازداد علماً زاد حياً للصانع ، ولا نهاية لهذا العلم كما لانهاية للحب ولا للذة ، هذا هو الحق الصراح الذي لا يحبس عنه .

والأمة إذا حظيت بهذه النعمة سعد أحيائها بالقلبة والمجد وفرح أمواتها بالنظر لوجه الله الكريم . فياحب كل العجب لأمة الإسلام ! تلك الأمة التي جاء القرآن بتربيتها في الآخرة وخالطها بما يعرفه

الخلق من الجنات المحسوسة ولم يشأ أن يترك الجنة الحقيقية والسعادة الأبدية التي هي أعلى من المحسوسات حتى يستتجها الفلاسفة والمفلساء ، كلاب لوطح لها بقوله « وزيادة » وجاءت السنة فمرتفتنا الزيادة وقالت هي النظر لوجه الله الكريم وأرتنا أن هذا سيكون الله عند أهل الجنة وهنا وصلنا إلى مقام الحكمة والعلم .

فالكتاب والسنة عندنا أريانا أن النظر لوجه الله أعظم اللذات والنظر يقصد منه العلم ، فإذا قيل إنه بين تخلق لنا خلاف هذه في الآخرة فهي أيضا علم ، وإذا كانت أعيننا في الدنيا من شبكات العلم فالأمر هناك ظاهر . فكيف تغفل أمة هذا دينها عن علوم هي النعمة في الدنيا والسعادة في الآخرة .

أليس من محب أن يكون في هذه الأمة من يكفر قارى هذه العلوم وما هي إلا سعادة الأحياء وبهجة الأموات ، انتهى تفسير القسم الثالث .

### ( القسم الرابع )

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَتَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ \* فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، قَدْ آذَانَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ \* كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ \* قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ \* قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَسَاءَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ \* وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ \* وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَأْتَهُمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْفَاسِدِينَ \* وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ

نَسِيعُ الصُّمِّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ • وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ  
 كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ • إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ •  
 وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا  
 بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ • وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ  
 ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ • وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ  
 وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ • قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا  
 وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ  
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَنَا كُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ • أَلَمْ إِذَا  
 مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ • ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ  
 الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ • وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ  
 لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ • وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ ظَمِئًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ لَآتَيْنَتْ بِهِ وَأَسْرُوا  
 النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَانِي السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ • هُوَ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ  
 تُرْجَعُونَ • يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى  
 وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ • قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ •  
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ  
 لَكُمْ أَن تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ تَقْتُلُونَ • وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ  
 لَدُوٌّ فَضِيلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ • وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا  
 مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُقِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَمُزُّبُ  
 عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا  
 فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ • أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ • الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا  
 يَتَّقُونَ • لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ \* وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ \* هُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ \* قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ \* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

## التفسير اللفظي

( قل من يرزقكم من السماء والأرض ) بأسباب سماوية كالضوء والطر ومواد أرضية فيكون منهما النبات والحيوان الخ ( أم من يملك السمع والأبصار ) يستطيع خالفهما وتوحيتهما تسوية بديهة تقدم شرحها في سورة آل عمران ومن يحمهما من الآفات العارضة ( ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ) أي من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه مثلا ؟ وشرح ذلك مذكور في تفسير سورة الأنعام ( ومن يدبر الأمر ) ومن يلى تدبير أمر العالم كله علويه وسفليه ( فيقولون الله ) فيجيئونك عن هؤلاء أن القادر على هذه هو الله ( قلل أفلا تتفون ) الشرك في العبودية إذا اعترفتم بالربوبية ( فذلكم ) أي الذي تولى هذه الأمور المستحق للعبادة ( ربكم الحق ) الثابت ربوبيته ، فهو الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم وهو المالك لسمعكم وأبصاركم ( فماذا بعد الحق إلا الضلال ) استفهام إنكارى : أي ليس بعد الحق إلا الضلال ( فأتى تصرفون ) عن الحق إلى الضلال : أي فكيف تفعلون ذلك ؟ وكما حقت الربوبية لله أو أن الحق بعده الضلال ثبتت كلمة الله وحكمه على الذين تمردوا في كفرهم وخزجوا عن جادة الإصلاح وفسدوا لأنهم لا يؤمنون ، وهذا هو قوله تعالى ( كذلك حقت كلمة ربك - إلى قوله - أنهم لا يؤمنون ) ثم أخذ يقم الحجة عليهم فوق ما تقدم فأخذ يحاورهم بطريق الاستفهام الإنكارى في أمرين :

(١) خلق هذه العوالم ابتداء منظمة وإعادتها .

(٢) وإيجاد الأدلة والمعاني والآراء والحجج التي تهدي النفوس إلى مطالبها الحققة ، فأجاب عن الأول بأن الله هو الذي يبدأ الخلق ثم يبيده ، لأن لجأهم لا يدعهم يعترفون بها ، وعن الثاني بأن الله هو الذي يهدى للحق لأنه نصب في هذا العالم دلائل وجعل نواميس تبهق العقول وتنتج علوما كثيرة يستخرج منها الناس أمور معاشهم ومعادهم ، ثم أخذ يتم الكلام في القسم الثاني لأنه اللهم في مقام الهداية ، فقال هل الذي يبيد للمالك ويوضح للشكليات وينصب الأعلام أولى بالاتباع أم الذي هو كالأعمى العاجز لا يهتدى إلا أن يهديه سواء ، فكيف تحكمون أيها الناس بما يقتضى صريح العقل بطلانه ؟ وكيف تكون الأصنام القائمة العمياء التي لا علم لها هادية ؟ فإله الذي ملأ هذا العالم بالنواميس للتيرة السبل أولى بالاتباع . يقال هدى للحق وإلى الحق وكلاهما في الآية ، وقوله ( أمن لا يهدى إلا أن يهدى ) أي من لا يهتدى إلا أن يهدى . وقرئ « يهدى » بفتح الياء والهاء وتشديد الهاء وبكسر الهمزة وفتح الياء وبكسر الياء والهاء وبسكون الهمزة وتشديد الهاء :

أى يهتدى في الجميع ، وهذا قوله تعالى « قل هل من شركائكم » إلى قوله ( فما لكم كيف تحكمون )  
ثم قال ( وما يتبع أكثرهم ) فيما يعتقدون ( إلا ظنا ) مستندا إلى الخيال ، والراد بالأكثر الكل ( إن  
الظن لا يبنى من الحق ) من العلم والاعتقاد الحق ( شيئا ) من الإغناء ( إن الله عليم بما يفعلون ) هذا وعيد  
لهم على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان ( وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ) أى افتراء من  
الخلق ( ولكن ) كان ( تصديق الذى بين يديه ) مطابقا لما تقدمه من الكتب الإلهية للشهود بصدقها  
والنبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم علما ولم يأخذ عن أحد ، وقد جاء في القرآن قصص وأخبار مطابقة لما  
في التوراة والإنجيل ، فكيف يكون ذلك وهو لم يتعلم ولو أنه لم يطابق ما في تلك الكتب لشنوا عليه الفارة  
الشعواء ولأزلوه في منزلة هو منها براء ، فهذا معنى قوله « ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ »  
وتفصيل ما حقق وأثبت في العقائد والشرايع ( لا ريب فيه ) متفيا عنه الرب كائنا ( من رب العالمين ) فأخبار  
كان أريفة : تصديق ، وتفصيل ، ولا ريب فيه ، ومن رب العالمين ( أم يقولون ) بل يقولون ( افتراء )  
محمد صلى الله عليه وسلم ، والمهزلة الاستهزام الإنكارى ( قل فأتوا بسورة مثله ) في النظم والبلاغة وقوة  
اللقى على وجه الافتراء فإنكم مثلى في العربية ، بل أنتم أشد عمرا وأقرب تمكنا منها بأساليب النظم والنثر  
( وادعوا من استطعتم من دون الله ) أى وادعوا للاستئمان على الإتيان بمثله ما استطعتم من خلقه ( إن كنتم  
صادقين ) أنه خلقه ( بل كذبوا ) سارعوا إلى التكذيب ( بما لم يحيطوا به ) بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن  
يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه كالتقصص التى قصها وأخبار البعث والنشور والجنة والنار التى ذكرها فانهم  
ينكرونها لجهلهم بها ( ولما يأتيهم تأويله ) ولم تبلغ أذهانهم معانيه ولم يعرفوا جد تأويل ما فيه من الأخبار  
بالتبويب حتى يتبين لهم أصدق أم كذب ( كذلك كذب الذين من قبلهم ) أنبياءهم ( فانظر كيف كان عاقبة  
الظالمين ) فسيماقون كما عوقبوا إذا أصروا على البناد ( ومنهم ) من الكاذبين ( من يؤمن به ) أى سيؤمن  
به ويتوب عن كفره ( ومنهم من لا يؤمن به ) فيما يستقبل بل يموت على الكفر ( وربك أعلم بالمفدين )  
بالمعادين أو المصيرين ( وإن كذبوك ) ويشت من إجابته ( قتل لى عملى ) جزاء أعمالكم ( ولكم أعمالكم )  
أى جزاء أعمالكم ( أنتم بريئون مما أعمل ) فلا تؤاخذونى به ( وأنا بريء مما تعملون ) من أعمالكم  
فلا تؤاخذكم بها وهذا فى حال الضعف ، فلما حان حين القوة تغيرت الحال ( ومنهم ) أى من هؤلاء ( من  
يستمعون إليك ) حين تقرأ القرآن وتعلم الشرائع ولكنهم لا يقبلون كأنهم صم ( أفأنت تسمع الصم ) أى  
أقدر على إسماعهم ( ولو كانوا لا يسمعون ) أى ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم بما أسدل على العقول من  
الأوهام وما أوحى إليه العادة وما اتخذت له من الأمثال ( ومنهم من ) ناس ينظرون إليك ويحايون أدلة  
صدقك وأعلام نبوتك ولكنهم لا يصدقون كأنهم عمى لا ينظرون بأبصارهم ( أفأنت تهدى العمى ولو كانوا  
لا يبصرون ) أى أعصب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة ، فهؤلاء كالصم  
العمى الذين لا عقول لهم وهؤلاء لا يمكن إيمانهم ، وكل ذلك بنظام ثابت وحكمة عالية ، فإن ذهب البصائر  
وقلة التفكير والعلم والانهماك فى التقليد إنما جاء كله بالاستعداد ، والاستعداد فى النفوس سائر بنظام الخليفة  
وهذا النظام هو الصالح للوجود فلا ظلم فيه ، لأن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ( إن الله لا يظلم الناس  
شيئا ) لأنه لا يظلم إلا على مقتضى العلم ، والعلم متعلق بالحقائق الثابتة التى تقتضها الحكمة ( ولكن الناس  
أنفسهم يظلمون ) لأن هذه هى حقائقهم التى عليها الله وعلى مقتضاها كان الاستعداد ومن الاستعداد الناقص  
والتمام ، وهؤلاء فى نقصهم كالحشب يصلح للوقود ولا ظلم فى ذلك وغيرهم كالتمر يأكله الإنسان وكلاهما يقتضيه  
النظام العلم .

ثم هناك وراء هذا أبحاث لا يجوز ذكرها في مثل هذا التفسير العام ، وليس ما ذكرناه بمثلج للصدور ولا شاف لما في القلوب ، فان هذا وراءه أسئلة كثيرة توجه على هذا ولكن لا سيبل إلى الإجابة عليها ، فيجب على طالب الحقائق أن يفتح لنفسه باب العلم والملم واسع باب الله يعطى من يشاء .

والتصريح بالحقائق يريك جمال الله بأوسع معانيه وأن رحمته واسعة فاطلب هذا منه هو ولا تفهم العامة لتلا يقدحوا عليك في دينك وأنت على علم تام .

ثم قال : واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء للشركيين لوقف الحشر ، ومعنى الحشر إخراج الجماعة وإزاجهم من مكانهم كأنهم لم يلبثوا في قبورهم أو في الدنيا إلا قدر ساعة من النهار وذلك لهُول ما يرون : أى ويوم نحشرهم حال كونهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة وحال كونهم ( يتعارفون بينهم ) وهى حال مقدرة : أى يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً ، وهذا أول ما ينشرون ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم وحال كون الذين كذبوا بقاء الله قد خسروا أنفسهم ( وما كانوا مهتدين ) إلى ما يصلحهم وينجهم ( وإما زينك ) نصرك ( بعض الذى نعدم ) من العذاب فى حياتك كما أراه ذلك يوم بدر والغزوات بعده وفتح مكة كما تقدم فى سورة النبوة ( أو توفينك ) قبل أن تريك ( فإلينا مرجعهم ) فزيك فى الآخرة : أى إما زينك بعض الذى نعدم فيها ونعمت ، أو توفينك فإلينا مرجعهم ، فهذه الجملة جواب « توفينك » ( ثم الله شهيد على ما يفعلون ) أى مجاز عليه ، فالشهادة أريد نتيجتها وهى الجزاء ( واسلك أمة ) من الأمم ( رسوله ) يبعث إليهم ليدعوم إلى الحق ( فإذا جاء رسولهم ) بالبينات فكذبوه ( قضى بينهم ) بين الرسول ومكذبيه ( بالقسط ) بالعدل ، فأجينا رسلنا وأهلكنا المكذبين ( وهم لا يظلمون ) والنجاة والمهلك فى الدنيا وهو معلوم وفى الآخرة بأن يشهد الرسول عليهم بالكفر والإيمان فيقضى بالعقاب والثواب كما قضى بالمهلك والنصر فى الدنيا ( ويقولون ) استبعاداً لهذا الوعد واستهزاء به ( متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ) يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون ( قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً ) فكيف أملك لكم فاستعجل فى جلب العذاب لكم ( إلا ما شاء الله ) أى ما شاء الله من ذلك كأن ( اسلك أمة أجل ) مضروب لهلاكهم ( إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ) لا يتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلوا فيجىء وقتكم وينجز وعدكم ( قل ) يا محمد لأهل مكة ( أرأيتم ) أى أخبروني ( إن أناكم عذابه ) الذى تستعجلون به ( بيانا ) ليلاً ( أو نهاراً ) وأنتم فى طلب معاشكم ( ماذا يستعجل منه المجرمون ) أى أى شئ من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لا يلائم الاستعجال وهذه الجملة الاستفهامية جواب إن ، والجملة الشرطية كلها متعلقة بأرأيتم أى أخبروني أى شئ تستعجلون من العذاب إن نزل بكم وكله مكروه لا يلائم الاستعجال ( أ ) تستعجلون العذاب ( ثم إذا ما وقع ) عليكم ونزل بكم ( آمنتم به ) أى آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس كما سيأتى فى هذه السورة من إيمان فرعون وقد أدركه الفرق ، وقيل لكم ( الآن ) أى أحيان وقع العذاب تؤمنون ( وقد كنتم به تستعجلون ) تكذبوا واستهزاء كما قيل لفرعون فما سيأتى « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » فانظر كيف ذكر هذا هنا ليطبق عليه قصة فرعون حتى يعتبروا ويصدقوا أن الإيمان يجب أن يكون وقت القوة والإمكان لا وقت اليأس ، ثم عطف على قيل للقدرة ( ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ) الدوام ( هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ) من الشرك والتكذيب ( ويستنبئونك ) ويستنجرونك فيقولون إنكاراً واستهزاء ( أحق هو ؟ ) أى ماجئت به من وعد وقرآن ونبوة تقول بعد أم باطل تهزأ به ( قل إى وربى إيه لحق ) ثم وربى إن العذاب لكائن إى من لوازم القسم ، ولذلك يوصل بوادى التصديق ، فيقال إى والله ولا يقال إى وحده ، ومنه [ أبوه ] محزول إى والله ( وما أنتم بمعجزين ) ضالين العذاب ( ولو أن لكل نفس

ظلمت) بالشرك أو بالتمدي على حقوق الناس أو حقوق الله تعالى (ما في الأرض) من المعادن والأهبار  
والخزائن (لاقتدت به) لجمته فدية لها من العذاب فان ما يملكه يقصد به نفع نفسه (وأسروا) فعل أسر  
يستعمل لإخفاء الشيء وإظهاره فهو من الأضداد وهو هنا بمعنى أظهرها (الندامة لما رأوا العذاب) لأنهم  
يهتوا بما عابوا مما لم يحسبوه من فطاعة الأمر فلم يقدروا على السكبان (وقضى بينهم بالقسط) أي وحكم  
بالعدل بين المؤمنين والكافرين والرؤساء والرهوسين والظالمين والظالمين من الكفار (وم لا يظلمون)  
فيخفف من عذاب اللطوم ويشدد في عذاب الظالم ، وقوله « ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض »  
لو فيه حرف امتناع لامتناع ، وإنما امتنع ذلك لأن لللك لله فمن أين يأخذ الكافر الفداء وهذا قوله (ألا إن  
الله ما في السموات والأرض) وقوله (ألا إن وعد الله) أي ما وعد الله به على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم  
من نواب وعقاب (حق) ولكن أكثر الناس لا يعلمون (إلا ظاهرا من الحياة الدنيا) هو يحيى ويميت  
هو القادر على الإحياء والإماتة (وإليه ترجعون) وإلى حسابه وجزائه مرجعكم فيخاف ويرجى (يا أيها الناس  
قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) للوعظة ما يدعو إلى الصلاح  
بطريق الرغبة والرغبة ، وشفاء الصدور خلوصها من الشكوك وسوء الاعتقاد ؛ فالغنى إذن قد جاءكم كتاب  
جمع الحكمة العملية التي تبين محاسن الأخلاق ومقاييسها والحكمة العملية التي تنفي الصدور من الجاهلة  
والشك ، ثم قال « وهدى » إلى الحق واليقين « ورحمة للمؤمنين » لأنهم نجوا به من الضلال في الأخلاق  
وسوء الاعتقاد (قل) يا محمد (يفضل الله وبرحمته) فيفرحوا إن فرحوا بشئ (فبذلك فيفرحوا) والفاء  
في قوله « فيفرحوا » زائدة نظيرها في قول الشاعر :

• فإذا هلكت فبند ذلك فاجزمي •

وكرر ذلك لتأكيد : أي يفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته : أي ما آتاهم الله من اللواعظ وشفاء  
الصدور ونيل اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه ، وهذا يقرب من قول قتادة : [ فضل الله الإسلام ورحمته  
القرآن ] وقول غيره : [ فضل الله القرآن ورحمته السنن ] وقول أبي سعيد الخدري : [ فضل الله القرآن  
ورحمته أن جعلنا من أهله ] .

وهذه الأقوال كلها متقاربة ترجع إلى أن العلوم والمعارف علمية أو عملية خير من الأمور المادية ، وهذا  
هو قوله ( هو خير مما يجمعون ) من حطام الدنيا فإنها سريعة الزوال .

واعلم أن المعارف هي مصادر المال ؛ فالعلوم مقدمة على الأعمال ، ولذلك قيل [ نية للره خير من عمله ]  
والنية من نتائج العلم ، والعمل نتيجة النية .

وقد ظهر في هذا الزمان بأجلى مظهر أن الأمم للتملة تتغلب على الجاهلة فأصبح العلم مصدرا للقوة  
والمال ؛ فالعلم يرق العقول ويصلح الأحوال ويحبب الأموال ، فأما جلب الأموال بالطرق المقيمة فإنه يضيع  
الوقت ولا يرفع النفس إلى معالي الأخلاق ، فأما العلم واقتناؤه فلإن صاحبه يحرف من ضروب الأسباب  
ما يسعده ويسعد أمته بأدنى عمل كعلم الكهرباء فلإن استعملها في إنارة البيوت وجرى للركبات أراح الإنسان  
من عناء الشيء ، والحيوان من تعب الكد ، فلهذا العلم فإنه راحة للأجسام وسعادة للقلوب ، فبالعلم فيفرح  
الطلون وبالنعم الدنيوية فيفرحوا لا باعتبارها أنفسها بل باعتبار أن الله أنعم بها : أي فيفرحوا بفضل الله  
على العبد لا بنفس النعم ، فمن أنعم الله عليه بولد أو مال أو ذكر فليكن فرحه بأنه صدر من الله وأن الله  
تفضل به عليه لا بنفس النعم لأنها زائلة خسيسة والذات الخسيسة صائرة للزوال ، فأما العلوم والمعارف  
والفضل الإلهي في ذلك وفي النعم للمادية فهو الذي يفرح به العبد .



وإذا كان القرآن شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، وبه وبأمثاله من فضل الله ورحمته يفرح المؤمنون . فكيف جعلتم مما رزقكم الله حلالا وحراما حرمتم على أنفسكم في الجاهلية شيئا وحلتم آخره ؟ كما تقدم في سورة الأنعام إذ قالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أرواجنا إلى آخر ما تقدم شرحه هناك ، وكبحرهم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام . فكيف تفعلون ذلك ولا ترجعون في التحريم والتحليل إلى ما نزل في القرآن الذي هو شفاء الخ . وهذا قوله تعالى ( قل أرأيتم ) أخبروني ( ما أنزل الله لكم من رزق ) أي شيء من زرع وضرع خلق الله لكم بإزال الماء من السماء وضوء الشمس والحامه على الأرض وإنبات النبات وخلق الحيوان وإتمامها ( فجعلتم منه ) أي من ذلك الرزق ( حراما وحلالا ) كما تقدم ( قل ) يا محمد ( الله أذن لكم ) أي أخبروني « الله أذن لكم » في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ( أم على الله تغترون ) أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه ، وقوله « ما أنزل » ما استفهامية العامل فيها أنزل ، وكرر « قل » لئلا كيد ؛ ولما كان الافتراء على الله عظيما أردفه بقوله ( وما خلق الدين يفترون على الله الكذب ) أي أي شيء ظنهم ( يوم القيامة ) أي يحسبون أنهم لا يجارون عليه ، ويوم منصوب بالظن : أي أي شيء ظن القترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهذا القول وعيد عظيم لأنه أهم أمره ، والاستفهام للتوبيخ والتفريع لمن يفتري على الله الكذب وليس تفريع الكاذبين وتوبيخهم إلا لهدايتهم وإبارة السبل لغيرهم إذا لم يهتدوا ، فعذاب الله وتوبيخه وأمثالهما يقصد بها جميعها هدايتهم وإبارة سبلهم ، وهذا من جملة النعم . لذلك أعقبه بقوله ( إن الله قدو فضل على الناس ) يعنه الرسل وإزال الكذب وتبيان الحلال والحرام وتفريع الكاذبين كما في هذه الآية ( ولكن أكثرهم لا يشكرون ) هذه النعمة ولا يتبعون الهدى ، ولما كان عموم الفضل من الله لا يتم إلا وهو عالم بجميع أحوال العباد ظاهرا وباطنا أعقبه بذلك فقال ( وما تكون في شأن ) أمر مهم ويكون أيضا معناه الفصد فهو على الأول اسم وعلى الثاني مصدر ( وما تتلون من قرآن ) أي وما تتلو من أجل شأن قرآنا ( ولا تعملون ) أي الناس جميعا ( من عمل ) أي عمل ( إلا كنا عليكم شهودا ) شاهدين رقباء . مطلقين عليه نحصى عليكم ( إذ تفيضون فيه ) تخوضون فيه وتدفعون . من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه ( وما ينزب عن ربك ) وما يعد عنه ولا ينبغي عن علمه ، وأصل النزوب البعد ( من مثقال ذرة ) وزن نملة صغيرة حمراء وهي خفيفة الوزن جدا ( في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ) يعني من الذرة ( ولا أكبر ) يعني منها ( إلا في كتاب مبين ) يعني في اللوح المحفوظ ، ولا نافية للجنس وفي كتاب خبرها ؛ وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ( إلا إن أولياء الله ) الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ( لا خوف عليهم ) من حقوق مكروه في المستقبل ( ولا هم يحزنون ) على ما خلقوا من خلفهم ، فلا من المستقبل يخافون ولا على القاتل يحزنون ثم بين من هم فقال أعي أو هم ( الذين آمنوا وكانوا يتقون ) الشرك والمعاصي ( لهم البشرا في الحياة الدنيا ) بالذكر الحسن وبناء الناس عليهم وبمجة الناس لهم وبينارة الله في القرآن بالجنة لهم وبالرؤيا الصالحة براها الرجل أو ترى له وبأن يرى الولي عند الزرع مكانه في الجنة وينزل اللائكة بالبشارة من الله عند الموت لهم فهذه البشارات الستة واردة في كتب التفسير وبعضها في الحديث وسيأتي إيضاح هذا المقام ( وفي الآخرة ) هي الجنة وأن تتلقاهم اللائكة مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وهذا بيان لتوليه إياهم ( لا تبدل لكلمات الله ) أي ولا تفسير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ومنها ما وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى السنة رسله ( ذلك ) أي كونهم مبشرين في الدارين ( هو الفوز العظيم ) أي النجاة الوافرة فازوا بالجنة وما فيها ونجوا من النار

وما فيها ، وهاتان الجملتان اعتراض لتحقيق للبشر به ، وليس من شرط الاعتراض أن يقع بعده كلام يتصل  
بما قبله .

واعلم أن أولى هو الذي إذا رؤى يذكر الله وهو المؤمن النقي وهو الذي يجب لجلال الله لا المال  
ولا الجاه وهو الذي يذكر الله بذكره وبذكر إذا ذكر الله وهو من الولاء وهو القرب والنصرة ، فهو  
يتترتب له بكل ما افترض عليه وهو مشتتل القلب بالله مستغرق في معرفة نور جلاله ولا يرى بقلبه  
غير الله .

ولا جرم أن هذه الصفات اتصف بها الأنبياء ومنهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الولي  
لا يخاف إذا خاب الناس ولا يحزن إذا حزنوا فالأنبياء أولى ، ولذلك قال ( ولا يحزنك قولهم ) أي تكذيبهم  
وتهم بديهم وتشاورهم في تدبير هلاك وإطال أمرك ، وكيف يحزن وأنت ولي الله كما في آية أخرى « إن  
ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » وإذا كان العبد كذلك فلا يخاف من شيء ولا يحزن  
على شيء لو توفقه برحمة الله في السراء والضراء صح أو مرض حي أو مات ؟ وكيف يحزن والحياة واللوت  
عنده سيان كما في آية « قل هل ترحبون بنا إلا إحدى الحسينين » جعل النصر والقتل حنينين ، فالقتل  
في الجهاد حسنى والنصر حسنى .

ولعمري كيف يحزن من يرى النصر والملك يساويان اللوت وترك الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك  
فكيف به إذا كان الله وعده بالنصر وله العزة وحده فإن عدم الحزن أخرى ، فلذلك أعقبه بقوله ( إن  
العزة لله جميعا ) كأنه يقول كيف تحزن من قولهم فإن العزة والقهر والقدرة لله جميعا وقد وعدك بالنصر ،  
فأنت تستنصر عليهم فلام الحزن إذن ؟ وقوله ( هو السميع ) أي لأقوالهم ( العليم ) أي بجزماتهم فيكأنهم عليها ،  
وقوله ( إلا إن الله من في السموات ومن في الأرض ) أي من اللاتسكة والتقلين وإذا كان هؤلاء مملوكين لا يصلحون  
لربوبية فقبرهم من باب أولى ، وهذا استدلال على ما بعده وهو ( وما يتبع الدين يدعون من دون الله شركاء )  
وكيف يكونون شركاء وهم مملوكون ( إن يتبعون إلا الظن ) أي إنما يتبعون ظنهم أنهم شركاء ( وإن هم  
إلا يخرسون ) يكذبون فيما ينسبون إلى الله ، وقوله ( هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصر )  
أي مضيئا لتبصروا مطالب أروافكم ومكاسبكم . تقول العرب [ أظلم الليل وأبصر النهار ] أي صار ذا ظلمة  
وذا ضياء ( إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ) أي سمع اعتبار وتدبر ( قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ) تنزيها له  
عن اتخاذ الولد وتنجيب من كلهم الجاهلة ، وكيف يكون له ولد ، والولد إنما يكون لأمرين : أن ينفع أبويه  
في كبرها وأن يكون بقاء لذكرها بعد فناءهما ، والله ( هو العلى ) وإذا كان الولد لتبوية ضعف الوالد ولتقاء  
من فقره ولتشراف به من ذله ، فكيف يكون لله ولد وهو غنى عن ذلك كله ( له ما في السموات وما في  
الأرض ) ملكا ولا تجتمع النبوة مع الملك ، وهاتان الجملتان تدحضان أن له ولدا فلا حجة لكم أيها الناس  
في ذلك ، وهذا قوله ( إن عندكم من سلطان بهذا ) أي ما عندكم حجة بهذا القول فإن الولد لمن افتقر إليه ،  
ولا فقر عندي والولد لا يكون مملوكا وأنا أملك السموات والأرض ومن فيهن فكيف أملك ما ألد والملك  
والولادة لا يجتمعان ، فلذلك وبخهم فقال ( أتقولون على الله ما لا تعلمون ) فهذا توبيخ وتفرغ على اختلافهم  
وجهلهم ، ولذلك رتب عليه قوله ( قل إن الذين يفترون على الله الكذب ) بأخذ الولد وإضافة الشريك إليه  
( لا يفلحون ) لا يفوزون بالجنة ولا ينجون من النار لاقرائهم ( متاع قليل ) يقيمون به رئاستهم في الدنيا  
وهم كافرون ( ثم إنا مرجعهم ) بالموت فيلقون الشقاء للؤيد ( ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون )  
أي بسبب كفرهم ، انتهى التفسير اللفظي لهذا القسم .

خزائب القرآن في سورة يونس وهو - ويوسف

بمناسبة قوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء والأرض - إلى قوله تعالى - ذلكم الله فأنى تؤفكون »  
جلّ الله وجلّ العلم والحكمة وعظمت اللثة وظهر النور وبهر وتجلت الآلاء بأهرة زاهرة .

يارب هل نامت الأمم الإسلامية هذه القرون عن هذه البدائع القرآنية ، يقول الله في أول سورة يونس  
التي نحن بصدد الكلام عليها مملخصه :

(١) إن الذي رباكم هو الذي خلق السموات والأرض

(٢) وهو الذي استوى على الملك .

(٣) وهو الذي يدبر الأمر .

ويقول هنا في مقابلة الأول « قل من يرزقكم من السماء والأرض » وفي مقابلة الثاني : إنه يملك أسمعكم  
وأبصاركم ويخرج الحي من البطن ويخرج لليت من الحى ، وهذه الأعمال من مقتضى الاستيلاء على الملك ،  
وفي مقابلة الثالث : « ومن يدبر الأمر » .

ذكر هذه الأمور في أول السورة على هيئة الخبر وذكرها هنا على هيئة الاستفهام وذكر في ختامها  
تدبير الأمر ، فالعناية متوجهة إلى تدبير الأمر ، وهذا كقوله في سورة الطلاق « الله الذي خلق سبع سموات  
ومن الأرض مثلهن ينزل الأمطار ليعلموا أن الله على كل شئ قدير . وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً »  
فالعناية موجهة في هذين اللقائين إلى التدبير العام والنظام ، هذا مقام الشهود .

فهذا هو اللقائى المحمود ومقام الشهود الذي جاء في سورة آل عمران « شهد الله أنه لا إله إلا هو  
واللائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » أنزلت بإثبات القرآن وصرفت فيه من كل  
مثل وفات في هذه السورة كما قلت في غيرها ، يا عبادى ها أناذا أدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، فانظروا  
هذه للشاهد وزوروا هذه للماهد . أما أنا فقد عجبت كل العجب من أم ينزل كتابها موجه عناية إلى هذا  
اللقائى المحمود ، ومقام الشهود مقام العلم ، والحكمة مقام الحكماء الذين يقرءون علوم هذه الدنيا فيها يعيشون  
وبها يوفنون وبها يرجون إلى العالم القدسي .

يا ليت شعرى هل يعلم الناس بعدنا ، هل يعلمون أن سياسة القرآن وإن كانت متوجهة إلى الدعوة إلى  
الله قد تضمنت جميع مطالب الدنيا فإنه يستجيب علينا أن نشهد هذا التدبير والنظام إلا بعد دراسته ومتى  
درسناه قام فريق منا ، فاختص باللقائى المحمود مقام الشهود فمرجت روحه إلى اللقائى الأقدس ، وهذا كقوله  
في سورة البقرة « لعلمكم تفكرون في الدنيا والآخرة » لجميع العلوم الكونية مبدؤها النظام الديوى  
ونهايتها الرقى العقلى وشهود التدبير .

وإني أحمد الله وأشكره أن هيا الأسباب وأعد المدد لهذا اللقائى بهذا التفسير فهو إن شاء الله كاف لمن  
قرأه أوجه وفهمه يهديه إلى مقام الشهود ، وبه يكون من أولى العلم الذين هم مطوفون على اللائكة الذين  
يشهدون الوحدة سارية في هذا العالم مع العدل والقيام بالقسط ، ولهذا وأمثاله يقول الله تعالى « قل بفضل  
الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » هذا مقام العلماء والحكماء والأولياء . هذا مقام الحمد  
ومقام الصديقين ، وسيكثرون في هذه الأمة عما قريب .

هذا ما تجلى في نفسى اليوم صباح السبت السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ [ أما سورة هود ] فقد  
تجلى فيها ما استراه هناك من العجب ، فستجد هناك من آيات الله الباهرة التي لم تعرف حق معرفتها إلا في زماننا  
وستشهد هناك مشهداً يبهرك ، وترى نور الله مشرقاً على الحيوانات وتندرك منها ما لم يكن ليخطر ببال حكيم

من أكابر الحكماء ، فبينا ترى حيوانا أمامك له لون أو شكل فتمرّ عليه بلا فكر إذا بك أمام مشهد إلهي بأمر عجيب ، أنتدري لم هذا ؟ هذا لأن الله ذكر في أول السورة أنه مامن دابة في الأرض إلا عليه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ، ثم بعد آيات كثيرة جاءت قصة هود وأعاد الكرة على مسألة الحيوان فقال « مامن دابة إلا هو أخذ بناصيتها » إذن يعلم العقلاء أن هنا سرا يجب التنبه له ؛ فكما كان السرّ في سورة يونس تدير الأمر العام ، هكذا كان السرّ في سورة هود تدير أهمّ الأمور في الأرض وهو عالم الحيوان ، ولعله لذلك سميت السورة هود ، لأن أم مافيا إنما هو الأخذ بناصية الحيوان المذكورة في قصة هود ، يرشدنا الله بنيته بتدبير الأمر وإعادة ذكره وبتنظيم الحيوان وكلامه إلى أن القرآن أنزل مثل هذا .

أنزل القرآن لأقوام يحفلون بهذه النعم ويفكرون في التدبير المحكم العام نارة والحاص أخرى ، أفلا نتعجب مني يا صاح كيف نام المسلمون وهم يقرءون القرآن ويدرسون التفاسير ؟! أين كانت عقول للتأخرين ؟ .

اللهم إني قد نصحت وأديت ما عليّ ، اللهم فاشهد فإنه لا عذر للمسلمين بعد ما كتبت في هذا التفسير ولا عذر لمن عرف هذا ولم يصرف حياته في نشر هذه الفكرة في أمم الإسلام .

أما سورة يوسف فقد جاء في أولها « تلك آيات الكتاب المبين » ثم أعاد ذكر الآيات قبيل أواخر السورة فقال « وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » .

يقول : ليست قصة يوسف ولا غيرها من كل الآيات ، إن أهل الأرض معفونون في الآيات تحيط بهم من كل جانب ولكمهم عنها معرضون ، إذن سورة يوسف عنايتها بالنظام العام ، وسورة هود عنايتها بنظام الحيوان ، وسورة يوسف وجهتها أن التدبير العام والتدبير الخاص كلاهما دلالات على الله وهي كثيرة جدا حتى ذكرها بلفظ « كآين » .

#### مقاصد قصص القرآن

اعلم أن قصص الأنبياء أشبه بأشجار ذات روع وأوراق وأزهار ؛ فالجملة يكتبون منها بظواهرها ، والحكماء والعلماء ينتفون ثمراتها ، فترى صفار العلم يبحثون في الآثار وفي كتب التاريخ يقول أحدهم أين قوم عاد ؟ أين أنار نوح ؟ وهل نجد في آثار المصريين ذكر يوسف ؟ وهل حقيقة كان يوسف وزير للملأبة ودبر الأمور ؟ فبينا هؤلاء يضيعون أوقاتهم في ذلك عسى أن يفتروا على ضالّتهم للنشودة فيؤمنوا إذا بالطفافة الحكيمة تعرض عن هذا وتقول هذه أشجار وأزهار جاءت لمواعظنا نحن آمننا بها والإيمان لن يكفينا ، فلا بدّ من اليقين ، وأين هو اليقين ؟ ثم يجدون ذلك اليقين في ثنايا القصص ؛ إذ يقول هود : إن كل دابة أخذ الله بناصيتها ، وفي يوسف أن قصته ليست هي كل شيء ، فالله فيها آيات ؛ فاليقين والرفق في الدنيا والآخرة إنما يكون بالتوجه للقاصد والثمرات لا للأغصان والزهيرات ، ولذلك ختم سورة يوسف بأن في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، إشارة إلى أن الناس قسبان : قوم أولو ألباب ، وقوم أولو قشور ؛ فأولو الألباب يعمدون إلى لبّ هذه القصص ، وأهل القشور يرجعون إلى قشور العلوم كعلم الآثار في التناحف أو في نواويس قدماء الأمم عسى أن يفتروا على تصديق هذه .

كل له غرض يسمي ليدركه والحرف يجعل إدراك الملا غرضا

للتدبير ثمرتان : ثمرة عليّة ، وثمرّة عملية

إن تدبير الأمر الذي ذكره الله هنا وفي آيات أخرى قد ظهر لك أيها الذي ظهر لك على قدر الطاقة الإنسانية ، وقد رجعت إلى نظام هذه الدنيا وحسن إتمامها ومجائها ومن نال هذا الحظ في هذه الدنيا فإنه

يحتس له أوقانا يلحظ فيها جمالا لا يملكه المافلون فينسلخ من هموم هذه الدنيا انسلخا مؤقتا ، وهذا الانسلخ يقر من السعادة ويبعده من شقاوة المادّة ، وهذا هو المعنى فيها ورد « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا ، قالوا وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال مجالس الذكر » ولنا نبهت الآن في صحة سند الحديث وإنما معناه صحيح ، لأن الذين أدركوا معنى هذه الدنيا يتخلصون من ذل الحياة وأسر المادّة في بعض أوقانهم وهذا هو القى يشير له الحديث « أرحنا يا بلال بالصلاة » وإليه الإشارة في قوله تعالى « فلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم » فانتقال هموم الحياة فيها آلام قد تصير أشد من ألم النار بل كثيرا ما يحرق الإنسان نفسه في أيامنا هذه تخلصا من هموم هذه الحياة ، إذن هموم حياتنا قد تعادل النار وقد تكون أشد منها ، وكما ورد من الأخبار في هذه السنة عن قوم أحرقوا أنفسهم وأنا نفسى أعرف رجلا بينه في قرية (الرج) بالقرب من القاهرة عدت منذ شهرين أنه تخلص من آلامه للرضية بإيقاد النار في جسمه فمات محترقا بالنار تخلصا من نار المرض الشديد . فاذا جعل الله النار المحسوسة على إبراهيم بردا وسلاما فهو يعمل نار الحياة التي تشبهها أو تزيد عليها بردا وسلاما أيضا ، وذلك بائتهاج النفس بالعلوم العامة الداخلة في قوله « يدبر الأمر » .

ضرب مثل لهذا المقام وهو الاستعداد بمشاهد التدبير

اعلم أن جميع العلماء الذين أغرموا بعلم خاص كالطب والهندسة وكل علوم الله وكلهم الحيوان ، وهكذا يحسون براحة من هموم الحياة في الوقت الذي يحسرون همومهم في علمهم ويحسون بقلّة ، فهناك أمران : نبيان هموم الحياة في لحظة الاشتغال بالعلم ولذة نفس هذا العلم ، فإذا كان هذا في علم حزنى فما بالك بمن نظره في هذا النظام العام كما هو مذكور خلال هذا التفسير .  
لاجرم أن هذه الطائفة لها لذة أعلى من لذات غيرها ثم يعقبا آلام الحياة للمعادة وهكذا ، فهذه هي الثمرة العملية للعلم بالتدبير العام .

الثمرّة العملية لتلك التدبير

أما الثمرة العملية فاعلم أن التدبير كلما كان أتم كانت الوحدة أقوى وأكمل ، وكلما كان التدبير أضعف كانت الوحدة أضعف ، ولعلك تقول هذا لفر ، فما معنى ضعف الوحدة وما قوتها ؟ أقول :  
اعلم أن الأمم التي فوق هذه الأرض وتعيش معها من أمم الشرق والغرب قسما : أمم تعلت وعقلت فقامت بالعدل في أمور الحياة وانصفت بصفات الإنسانية فهذه يكثر عددها كأمم الألمان واليطليان وهكذا الولايات المتحدة . فهذه الأمم عظمت وقويت وحدتها وهذه الوحدة لم تم لها إلا بنظام وتديير ، ولولا حسن التدبير والتعقل ما اجتمعوا ، فالاجتماع نتيجة حسن التدبير والنظام ، فأما الأمم الجاهلة فهي التي يقل فيها حسن التدبير فتتفرق شيئا وبذوق بعضها بأس بعض ؛ فالأعراب في البوادي والأمم الجاهلة تراهم متفرقين يحارب بعضهم بعضا . واعلم أننا في زماننا نرى الأمة العظيمة الواسعة الأكناف الكثيرة المدد تسطو على التي قلّ عددها ، وكأن الله بذلك يذكرنا بأنكم أيها الناس مادتم غير عاملين بنظامي غافلين عن حكمتي في تدييري فانكم مغلوبون على أمركم .

ألا ترون أنكم لما قلّ عددكم سلطت عليكم من هم أكثر جمعا لأنهم غالبا ما كثر جمعهم إلا لصلوات بينهم وحكومات تقضى بالحق في مشكلاتهم ، فأما للتنازلات والنشاكسون فاني أسلط عليهم الأقوياء الذين قلدوني في عملي . إنني دبرت هذه الدنيا وجعلتها عالما واحدا ، ولذلك تراه متصلا غير منفصل يستمد بعضه من بعض

والناس لما عجزوا عن تقليدي في صنع عذبتهم على مقدار هذا العجز ، ولو أنهم قلدوني في تديري لكانوا  
أوفر جمعا لخلاف عدوم منهم لو حذتهم القوية للستمة من وحدانيق .

هذا ما فهمته من قوله تعالى « ومن يدبر الأمر » في هذا الآيات . وملخص هذا كله أمران :

[ الأمر الأول ] أن الناظر في هذا العالم الذي درسه يكون له أوقات يلح فيها جناب القدس وينال  
بهجة لا يعرفها سواه .

[ الأمر الثاني ] أن الأمم التي هي أتم نظاما تكون أوفر عددا والعكس بالعكس ويكون العز غالباً  
لكثرة العدد للنظام أو لقوة الجماعة التامة ، والقدر لمن ليس كذلك .

كيف يشهد الناس التديير في هذا النظام

اعلم أننا مادنا في هذه الأرض فإننا لانشاهد صانع هذا العالم بحواسنا كالسمع والبصر الخ . لأن هذه  
لا يدرك إلا الأجسام وإنما ندرك آثاره في نظامه وتدييره وتبتهج ويكون ذلك سعادة معجبة في الدنيا وهي  
أرقى السعادات لأنها خاصة النفس الإنسانية ، فإذا انسلخنا من هذه الأجسام إما بالوت وإما بالباطن ،  
فقد يرى فوق ما يراه الناس في الأرض ولكن لانشاهد الله عز وجل قط إلا إذا خلصت أرواحنا من كل  
ما يلزمها من عوائق الكمال ، فإنها بعد اللوت مادامت ملطخة بالآثام فإنها تكون أشبه بالمادية ولا تزال  
ترتق في الصفاء طبقاً عن طبق حتى تصير روحاً خالصة أشبه باللائكة فتعابن الله .

ولما كان الإنسان في هذه الأرض على هذه الحال ذكر في للرتبة الثالثة في قوله « شهد الله أنه لا إله  
إلا هو ولللائكة وأولوا العلم » فأولو العلم في الأرض يشهدون آثار النظام واللائكة يشهدون مشاهد أرقى  
ولا يعلم الله حق معرفته إلا الله تعالى ، وليس كلامنا في الأنبياء فهذه طبقة لها مقام لنا من أهله حتى نحوض  
فيه ، انتهى .

لطيفة في قوله تعالى « ألا إن أولياء الله الخ » وتحقيق هذا اللقاع

اعلم أن قوله تعالى « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة - متصل بقوله تعالى - وما يتبع  
الذين يدعون من دون الله شركاء » فأما ما بينهما وهو قوله تعالى « إن الله لدو فضل على الناس » وما اتصل  
به من ذكر أن الله مطلع علينا حين تدفع في شئوننا وحين تلو القرآن لأجل تلك الشئون لنعمل بمقتضاه  
وحين نعمل أي عمل وأن الله عز وجل لا ييب عنه شيء صغير أو كبير وذكر الأولياء وأنهم لا خوف عليهم الخ  
وذكر صفاتهم وأمر النبي صلى الله عليه وسلم ألا يحزن وتذكيره بأن العزة لله جميعاً وذكر أن لله ما في السموات  
وما في الأرض ، فهذا كله كقدمات لقوله « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون  
إلا الظن » لتأييد قوله أولاً « وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » واعلم أن عادة القرآن  
أن يدخل في غرضه من المصالح والمعارف والحكم ما يثلج له قلوب المستبصرين ، فبينما تراه يثبت عدم الشرك  
وخطأ الكافرين تراه يأتي لك بالمعجب العجيب من عموم علمه ونصر أوليائه ، وكأن حكاية الكفار كانت  
سبباً في إدخال هذه الحكمة العجيبة الجليلة .

واعلم أن مدار القال في هذا اللقاع على عموم علم الله لكل صغيرة وكبيرة ، وأولياء الله تعالى هم الذين  
تقدم تعريفهم بأنهم للتحابون في الله كما في حديث مسلم « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : أين للتحابون  
علائي ، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » . وفي رواية الترمذي « لهم منابر من نور ينطقهم النبيون  
واشهداء » . وفي رواية « يجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن ، يفرح الناس ولا يفرعون ، ويخاف  
الناس ولا يخافون » وتقدم أيضاً تعريفهم أنهم يذكرون بذكر الله ويذكر الله بذكرهم ، فقد روى أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تبارك وتعالى : إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكركم بذكركم » وهذا ذكره البغوي بغير سند .

فهؤلاء الأولياء لا يحزنون ولا يحزنون ، واعلم أن في الولاية معنى القرب وليس القرب من الله بالمسكان وإنما القرب له بالعلم ، فإذا علم العبد أن الله سبحانه هو الذي نظم هذه الكائنات وأحاط بها علما وربط العالم العلوي بالسفلي بحيث جعل ضوء الشمس والقمر والكواكب نافعاً لزرعنا ولنا وللحيوان وجعل حركات تلك الأجرام معلقة لنا وهادية بحيث نعرف بها أوقاتنا وسير سفننا في البحر بمواقع النجوم ، وكأن هذا العالم كله جسم واحد ، فكل حركة وسكون معلومة عنده جعلت لصلحة حتى أدنى حركة من كوكب ، وهذه الأرض التي نحن عليها ومن هم فوقها مرتبطون بالعالم الأخرى ارتباطاً لا اشكالك له .

فإذا عرف العبد هذا وأيقن به ثم زاد ذلك الإيقان بما يرى من الأدلة والبراهين الدالة على علم الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة فإنه لا يخاف ولا يحزن ، وقد قال الله تعالى في آية أخرى « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » فهذه الآية تشير إلى أن العبد متى أيقن أن الله يعلم كل شيء وقد كتبه في اللوح المحفوظ فإنه لا يحزن ولا يفرح لأنه يعلم أن ذلك لا بد منه وأن الله يفعل لمصلحة العبد ، ولا يظلم ربك أحداً وأن العبد إذن لا يقصر عنده لأن القدر قاله ، فالمدار على إيقان العبد بأن الله يعلم كل شيء . وهذا اليقين عزيز الوجود ، وإنما الذي في القلوب إنما هو الإيمان والإيمان أقل من اليقين .

ولما كان للعلم مقام العلم وعمومه لكل شيء أتبعه بذكر الأولياء للإشارة إلى أن ولايتهم إنما جاءت من جهة اقترابهم بالعلم ، ومن عجب أن يذكر في الحديث « الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » ، فمن عبادة بن الصامت قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى - لهم البشرية في الحياة الدنيا - قال هي الرؤيا الصالحة يراها للؤمن أو ترى له » أخرجه الترمذي ، وفي البخاري عن أبي هريرة قال صلى الله عليه وسلم « لم يبق بعدى من النبوة إلا للبشرات ، قالوا وما للبشرات ؟ قال الرؤيا الصالحة » وفي البخاري أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رؤيا للؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وروى مسلم « وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ، والرؤيا ثلاث : الرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث الله لنفسه » .

قال العلماء إن ولي الله لا يستراق همه في جلال الله يكون عند النوم مشغول القلب بالله فلا يرى إلا سداً . ويقال إنما كانت جزءاً من ستة وأربعين لأن مدة الوحي ٢٣ سنة وكان في ستة منها يؤمر في النوم بالإنذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءاً .

أقول : إن في ذكر الرؤيا هنا إشارة إلى أمر أعجب وعلم أحكم ، فإن الناس كما قاله بعضهم لم يصدقوا الأنبياء إلا لما ركز في نفوسهم من أن فهم من يرى بعض رؤيا صادقة تقع كما رؤيت . فلهذا جوزوا أن يكون من الناس من يطلع على النبيات الدينية كالأنبياء ، وأيضاً إن الإنسان إذا رأى رؤيا وقعت كما هي وكان قد رآها قبل وقوعها فإن ذلك دليل أن الله تعالى يعلم كل شيء قبل حصوله ، وإذا كان العبد قد علم ذلك قبلها بزمن يسير ، فلهذا قبل خلق الإنسان فعليه تكون الرؤيا الصادقة من الدلائل عند الناس أن الله يعلم كل شيء قبل حصوله ، والإيمان لا يكفي لذلك لأن الإيمان لا يعطى الناس اليقين وإنما الإيقان بأحوال أخرى فوق الإيمان .

فاعجب لذكر أولياء الله بعد ذكر علم الله وكيف كانت الولاية هي القربى والقربى إنما تكون بالعلم ،

ومن زاد علمه بهذا العالم ونظامه وأيقن بانتظامه ورأى تناسق العوالم العلوية والسفلية وارتباط بعضها ببعض وأن حركات الكواكب لها اتصال تام بعالمنا ونظامه ، وهذا النظام أشبه بما في الصلاة من الدعاء بالهداية العامة ، إذ يقول للصلي « اهدنا الصراط » ولا يقول اهدني وحدي ، ويقول إن المهامد لله لأنه ربي العوالم كلها ، ويقول إن التعظييات كلها لله ويلقى نظرة على النبوة العامة وعلى الناس الصالحين كأنهم شخص واحد تسلمهم السلامة من الله الذي يسلم عليهم يوم القيامة .

أقول : فمن ينظر للعوالم وهي مرتبطة ارتباطا محكما والأمة كلها وارتباطها في دعاء السلم وأنهم جميعا متصامنون متحابون بدعو آخرهم لأولهم ويعلم آخرهم أولهم كما ارتبطت العوالم كلها بعضها ببعض فإنه يعتبره الدهش من نظام بديع وثيق وبخار له لاسيا إذا لاحظ تألق الأنوار للشعة في نواحي هذا العالم وحسابها الدقيق البديع فإنه يحترق ساجدا لتلك العظمة ويحب ذلك الجمال ويبحث في العلوم على ضالته للنشودة ، ويرى أن بيته أن يقف على ذلك السر المصون وأن العالم كحسم واحد تدره ذات واحدة لا يعزب عنها صغير ولا كبير من أموره ، ثم إذا ازداد هذا الرأي عنده فمرف أنه لا يفعل إلا المصلحة لذات الخلق نفسه وأن الخير والشر الجاريين على كل مخلوق إنما حملا لسكاه ، وإذا تأكد عنده أن الله يعلم كل شيء وهو المحرك لكل شيء ، فإن لاحالة يزول عنه الخوف والحزن فلا يخاف من مستقبل ، لأنه يرى الله الرحيم هو الذي يتولاه كما تولي كل حيوان ونبات ولا يحزن على ماض لأنه يعلم أنه لا فعل له فكيف يندم على ما لا قدرة له عليه .

واعلم أن الناس وإن كانوا مؤمنين لا يزال يساورهم الوسواس ويقولون : لو فعلنا كذا لحصل كذا ، ويخافون من أحوال آتية في الحياة وبعد الموت وذلك لعدم تفهم بأن الله مطلع على الصغيرة والكبيرة ، ولو عدوا ذلك مع علمهم أنه أرحم من الأم ما هلكت قلوبهم ولا جزعت نفوسهم ولكنهم إلا قليلا منهم لا يعلمون ذلك فكانت الرؤيا التي وردت في البخاري ومسلم أنها من البشريات نافعة أيضا في إيقان الناس بأن الله يعلم الأشياء قبل حصولها فيستيقظون لذلك العلم ويفتح لهم باب المعرفة فيرون الله مطمعا على العباد ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيقول الحزن والخوف .

واعلم أن الأولياء والأنبياء والعلماء والأكابر والحكماء جميعا يخافون ويحزنون ولكن الخوف والحزن عندهم جزئي لا كلي لأنهم يعتقدون نهاية كل شيء وأن الله هو الخالق فيفوضون الأمر إليه ، وأيضا إذا جد العبد واجتهد وفعل كل ماوجب عليه ثم نزل القدر فحزنه يكون ضئيلا بالنسبة لحزن الجهلاء الذين قصر نظرهم .

هذه هي الحال العامة في سائر الأولياء والأنبياء عليهم هذه حالهم على سبيل الإجمال وهناك حال خاصة ، ذلك أن العبد إذا استغرق في معرفة الله بحيث لا يخطر بباله في تلك اللحظة شيء مما سوى الله ، ففي هذه الساعة تحصل الولاية التامة وصاحبها لا يخاف شيئا ولا يحزن بسبب شيء ، وكيف يعقل ذلك والخوف والحزن لا يحصلان إلا بعد الشعور بالشيء ، والمستغرق في نور جلال الله غافل عن كل ما سوى الله فيمتنع أن يكون له خوف وحزن ، وهذه درجة عالية والناس في كل وقت يشاهدون من هو مغرم بمشوقه حتى ينسى ماله وولده ، ومن هو مغرم بقتال عدوه فينسى ولده وماله وقت الانهماك في القتال ، ومن هو مستغرق المهمل في شئون أخرى ، وكلهم على هذا النوال وهذه حال خاصة ليست دائمة .

وكل هذا الذي ذكرناه في الدنيا ، أما أحوال الناس في الآخرة فالأولياء والأنبياء هم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فهذا تفصيل للقام



## حكاية

عن إبراهيم الخواص أنه كان بالبادية ومعه واحد يصعبه فاتفق في بعض القبالي ظهور حالة قوية وكشف تام له تجلس في موضعه وجاءت السباع ووقفت بالقرب منه والربرد تسلق على رأس شجرة خوفا على نفسه منها والشبيخ ما كان فرعا من تلك السباع ، فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففي الليلة الثانية وقعت بموضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة ، فقال للربرد : كيف تليق هذه الحال بما قباها ؟ فقال الشبيخ إنما حملنا الباردة ما تحملها سبب قوة الوارد النبي فلما زال ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله .

وهذه الحكاية سواء أهدت أم لم تصح رمز لحال جميع الناس أنهم إن ورد وارد عليهم أهمهم شغلهم ذلك الوارد ، فرب رجل تقطعه السيوف في الحرب وقد غاب شعوره من خوف أو ذهول ، وهنا في حبه الله قد ييب الشعور للحب أو لمشاهدة جمال غالب في النفس ، وعلى ذلك تفهم ما يتخى به كثير من الناس من قول ابن الفارض : وبما شئت في هواك اختبرني فاختباري ما كان فيه رضاك

فإن هذا القول بقله صاحب الإحياء الذي كان قبل ابن الفارض بأكثر من قرن عن بعض الصوفية وقال إن قائمه أسيب بحصر البول ثلاثة أيام فاضطوا أن يجمع الأطفال ويقول لهم قولوا فلان كذاب فلان كذاب ثم عفا الله عنه وشفي

والحاصل أن الناس في الدنيا أقسام :

(١) منهم من يرى أن العالم مادي لا عقل فيه ، وكل ما فيه إنما هو مصادفات وحمق وحزن ، وهؤلاء يحزنون ويخافون .

(٢) مؤمنون بالله ولكن هؤلاء في أكثر الأوقات غافلون عن أنه مطلع ومقدر لكل شيء ، فهؤلاء ربما قل الحزن والخوف عند التذكير ولكنهم في أكثر الأحوال مثل غير للتدينين يسرون على مقتضى المادة من الملح والجزع .

(٣) مؤمنون بآتياء صالحون ، وهؤلاء يتكرار ذكر الله والاعتبار يقل الحزن وعدم ولكن هذا ليس مطردا فيهم ، ومنهم من تغلبه الحال فلا يخاف ولا يحزن إذ ذلك ، فإذا زالت تلك الحال رجع إلى عادته .

(٤) مفكرون عرفوا أن الله مطلع على كل شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وهؤلاء ربما يقل الحزن والخوف وعدم ، ولكن ذلك يجوز أن يقف للرء بنفسه على أن الله يعلم كل ذرة ويكون ذلك نصب عينيه يراهين لاتقبل الشك عنده ويقنع هو بها ، وهذا يكون أقرب إلى السعادة فلا خوف ولا حزن عنده إلا قليلا ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا الخ » .

والحق أن الإنسان لا يهدأ له بال إلا إذا أيقن وشاهد أن هذا العالم في يد الله وأنه للطلع على صغير الأمور وكبيرها وأنه لا يفعل إلا لمصلحة العبد وأن كل ما يفعله العبد أو يتناهبه كان مقدر في الأزل ، متى تم ذلك تمت سعادة للرء في الدنيا قبل الآخرة لأنه أصبح ولا حزن عليه ولا خوف ، وكيف يخاف وهو يتقن أن الله رحيم ، وأن ما أصابه من خير ليس من نفسه ، وما أصابه من شر ليس من نفسه ، وأن ذلك بالقضاء والقدر والله لا يتبدل لكلماته ومقدراته فإنها كلها بقضاء الله ولا يتبدل لتلك القضاء وهذه راحة تامة نفسية ، فإذا انضم لذلك أن يكون للرء متوكلا على الله حقا ، أي قائما بكل الواجبات وكل ما يجب عليه وقام في حياته على السنن للرسم الطبيعي ، فمثل هذا العبد سعيد اليوم وسعيد غدا ، فلا حزن اليوم ولا خوف ولا شقاء غدا .

وإلا أن تنظر أن التوكل على هذا الخط غير سائغ ، فلتعلم أن التوكل إن لم يتم بكل ما ذكرته فهو مغرور وليس بتوكل ، انتهى القسم الرابع .

( الْقِسْمُ الْخَامِسُ )

قِصَّةُ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَأَنبَأُ عَلَيْهِمُ تَبَا نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي  
بِآيَاتِ اللَّهِ فَقُلِيَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ  
غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ \* فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ \* فَأَسَاءَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِي إِنْ أَجْرِي إِلَّا  
عَلَى اللَّهِ وَأَمْرُتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ  
خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ \* ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ  
بَيْنِهِمْ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِجَاوِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ  
كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكَبِّرِينَ

الفسير اللفظي

اعلم أن الله لما ذكر في هذه السورة أمر الكفار وأهم لا يفلحون وأن العزة لله جميعا وأن لكل أمة  
أجلا وأن العذاب آت وما أشبه ذلك من الوعيد تصريحها وتلويحا ناسب أن يذكر قصة ، لأن التاريخ أحكم  
في الغوس وأوفق للعقول وأشد وقعا وأعظم وعظما ، فقال ( وانبأ عليهم ) يا محمد ( نبأ نوح ) خبره مع قومه  
( إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم ) عظم عليكم وشق ( مقامي ) مكاني ، يعني نفسه ، كقوله تعالى  
« وان خاف مقام ربه جتان » أي خاف ربه ، أو مقامي : أي مكاني بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاما  
( وتذكري ) إياكم ( بآيات الله فقل الله توكلت ) وتفت به ( فأجمعوا أمركم ) فاعزموا عليه : من أجمع الأمر  
إذا نواه وعزم عليه ( وشركاءكم ) الواو بمعنى مع : أي اجمعوا أمركم مع شركائكم ( ثم لا يكن أمركم ) في صدق  
( عليكم غمة ) أي لا يكن فصدكم إلى إهلاك مستورا عليكم ولكن مكشوف مشهورا تجاهروا به ، والغمة  
الستر ، من غم إذا ستره ( ثم اقضوا إلي ) ذلك الأمر الذي تريدون بي : أي أدوا إلي ما هو حق عندكم  
من هلاك كما يقضى الرجل غريمه ، أو اصنعوا ما أمكنكم ( ولا تنظرون ) ولا تمهلوني ( فإن توليتهم ) فإن  
أعرضتم عن تذكري ونصحي ( فما سألتكم من أجر ) من جعل يوجب توليتكم عن نصحي ويستدعي النصيح  
الحزن على ما فوتني إذا توليتهم وإنما أذكركم لوجه الله وذلك أوقع في النفس ( إن أجرى إلا على الله ) وهو  
الثواب الذي يبين به في الآخرة ( وأمرت أن أكون من المسلمين ) من المستسلمين لأوامره ونواهي  
( فكذبوه ) فداموا على تكذيبه ( فنجيناه ) من الترقق ( ومن معه في الفلك ) أي السفينة . يقال إنهم كانوا  
ثمانين ( وجعلناهم خلائف ) أي جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض بعد المهالكين ( وأعرفنا الذين  
كذبوا بآياتنا ) بالطوفان ، وقوله ( فانظر كيف كان عاقبة المتكبرين ) تحذير لمن كفر بالرسول صلى الله عليه

وسلم وتسليته ، وقد تم هذا فإنهم حل بهم ما حلّ بقوم نوح في الفزوات المتابعات فأولئك أغرقوا وهو لا .  
 قتل منهم قوم والآخرون أسدوا كما أسلم ذرية الدين قتلوا وتم الأمر وهو من عجائب القرآن بل هذه أم  
 معجزة فكيف يقول هذا في مكة ثم يصح الأمر ويتم النصر كما أنذرهم وهذا هو العجب العجيب ( ثم جئنا )  
 أرسلنا ( من بعده ) من بعد نوح ( رسلا إلى قومهم ) كل رسول إلى قومه ( فجاءهم بالبينات ) المعجزات  
 الواضحة الثابتة لدعواتهم ( فما كانوا ليؤمنوا ) فما استفام لهم أن يؤمنوا لشدة تمسكهم بالكفر ( بما كذبوا  
 به من قبل ) أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتجرئهم عليه حتى صار كالطبيعة فيهم ، ثم قال مثل ذلك  
 الطبع ( نطبع ) أي نختم ( على قلوب المعتدين ) أي المجاوزين الحد في التكذيب ، انتهى تفسير  
 القسم الخامس .

### ( الْقِسْمُ السَّادِسُ )

قِصَّةُ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا  
 وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ \* فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ \* قَالَ مُوسَى  
 أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ \* قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا حَمَا  
 وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ \*  
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ \* فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ  
 مُلقُونَ \* فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ  
 الْمُفْسِدِينَ \* وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ \* فَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةُ  
 مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ  
 لَمِنَ الْمُرْسِفِينَ \* وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ  
 مُسْلِمِينَ \* فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ  
 الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ \* وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْتَمِعُوا  
 بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ \* وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ  
 وَمَلَائِهِ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ  
 وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ \* قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا

فَأَسْتَقِيمًا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ • وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمُ  
 فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ بَنِيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ النَّرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ  
 بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ • آ لآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ •  
 فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَبْنَوكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ .  
 وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ  
 الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

#### التفسير اللفظي

قال تعالى ( ثم جئنا من جدم ) من بعد هؤلاء الرسل ( موسى وهرون إلى فرعون وملكه بآياتنا )  
 بالآيات التسع ( فاستكبروا ) عن اتباعهما ( وكانوا قوما مجرمين ) معادين الاجرام واجترأوا على تكذيب  
 الرسل لما انطبع في نفوسهم من الذنوب والقسوة . ثم أخذ يفصل ذلك فقال ( فلما جاءهم الحق من عندنا )  
 بتظاهر للجزات الباهرة ( قالوا إن هذا لسحر مبين ) فائق في فنه واضح ( قال موسى أتقولون للحق لما  
 جاءكم ) هذا استفهام إنكارى وللقول محذوف تقديره إنه لسحر ، ثم قال ( أسحر هذا ) وهو استفهام آخر  
 على سبيل إنكارى يعنى أنه ليس بسحر ، ثم احتج على صحة هذا بقوله ( ولا يفلح الساحرون ) يقول لو كان  
 سحرا لاضمحلت ولم يبطل سحر السحرة ولكنه لم يضمحل وأبطل سحر السحرة فهو إذن ليس بسحر  
 ولما لم تستقم دعواهم أنه سحر شرعوا يدعون دعوى أخرى إذ ( قالوا أجبتنا لتلفتنا ) تصرفنا . واللفت  
 والفتل أخوان ( عما وجدنا عليه آباءنا ) من عادة الأصنام ( وتكون لسكا الكبرياء فى الأرض ) أى للملك  
 فى أرض مصر وسمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ( وما عن لسكا بمؤمنين ) بمصدقين ( وقال  
 فرعون اتنوني بكل ساحر عليم ) حاذق فى السحر وذلك لمعارضة المعجزة التى أتى بها موسى ( فلما جاء السحرة  
 قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى ماجئهم به السحر ) أى الذى جئتم به هو السحر  
 لا ما ساءه فرعون وقومه سحرا ( إن الله سيطله ) سيمحقه أو سيظهر بطلانه ( إن الله لا يصلح عمل المفسدين )  
 لا يثبت ولا يقويه لأن السحر نموه لاحقيقة له . وقد شرحت هذا الموضوع فى سورة البقرة فارجع إليه إن  
 شئت ( ويحق الله الحق ) ويثبت ( بكلماته ) بأوامره وبوعده الصادق لموسى أنه يظهره أو بما سبق من  
 قضاة وقدمه لموسى أنه يظلم السحرة وأن الحق يعلو على الباطل ولو بعد حين ( ولو كره المجرمون )  
 ذلك ( فلما آمن موسى ) فى مبدأ أمره ( إلا ذرية من قومه ) إلا طائفة من ذرارى بنى إسرائيل أى إلا أولاد  
 من أولاد قومه لأنه دعا الآباء فلم يجيئوه خوفا من فرعون ولم يجبه إلا طائفة من أبنائهم مع الخوف كما هى  
 العادة أن الشبان أسرع لقبول الدعوة الصالحة . أما الشيوخ فقد تصلبت فيهم الآراء القديمة ولبسوا ثوب  
 اللذة ضافيا عليهم ولم يصل لتلك أبنائهم كما هو دأب الأمم كلها . فالشبان أوّل سابق للوطنية وللسياسة  
 وللانقلاب العام ، فقوله ( على خوف من فرعون وملئهم ) أى أشرف آل فرعون ( أن يفتنهم ) أى أن  
 يضلهم فرعون وهو يدل منه . فهذا القول تبيان لحال كل دعوة دينية أو سياسية فى أوّل أمرها إذ يكون  
 للبعوث من الشبان ومن الضعاف وهم خائفون وجلون من رجال السياسة وللوك وإنما أفرد الضمير القاعل  
 فى قوله « أن يفتنهم » للدلالة على أن الخوف من اللئال كان بسببه ( وإن فرعون لعالم فى الأرض ) لعالم

فيها ( وإياه لمن للسرفين ) في الكبر والعنق حتى ادعى الربوبية . ولما كان الهداة دائما يشجعون للدعوتين  
ويشتونهم على اللبدي الجديدة ورأى موسى شبان بن إسرائيل خاضعين وجلين أخذ يشتمهم ويقوى إيمانهم  
ويربهم أن الله هو مدبر الأمور وأمرهم بالتوكل عليه فامتثلوا أمره وطلبوا من الله ألا يتلهم بتعذيب  
الظالمين وأن ينجيهم برحمته من كيد القوم الكافرين ومن شؤم مشاهدتهم وهذا هو قوله ( وقال موسى )  
إلى قوله ( ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ) وقوله ( توكلوا ) أى تقوا وقوله ( مسلمين ) مسلمين  
لقضاء الله محضين له ( فقالوا على الله توكلنا ) لأنهم كانوا قوما غاصين فذلك قبل توكلهم وأجاب دعاهم  
إذ قالوا ( ربنا لا نجعلنا فتنة للقوم الظالمين ) موضع فتنة : أى عذاب بعدونا أو لا تمذبنا بعذاب من عندك  
فيقول قوم فرعون لو كانوا على الحق ما عذبوا ويظنون أنهم خير منا فيفتنون بذلك ( ونجنا برحمتك من  
القوم الكافرين ) أى وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستبدونهم ويستعملونهم  
في الأعمال الشاقة . ولما كان من عادة الأنبياء وسائر الصالحين أنهم جد أن يطمشوا قومهم ويسكنوا  
جأشهم يبعثون فيهم روح النظام وأمرهم بالاستقامة ونظام المدن وحفظ الحال العامة أردفه بما يغيد أن الله  
أوحى إلى موسى وهرون أن يجملا قومهما بمصر بيوتا من بيوتها يرجعون إليها ويتوطنون فيها وأمر الجميع  
أن يجملوا تلك البيوت مصلى يصلون فيها خيفة من الكفرة من آل فرعون لئلا يظهروا عليهم فيؤذوم  
ويقتوم عن دينهم كما كان ذلك في أول الإسلام وفي أول كل دين جديد من الأديان وأمرهم بإقامة الصلاة  
فيها حتى يأمنوا على أنفسهم ، ثم أمر موسى أن يبشرهم أنهم لا يصل إليهم مكروه وهذا قوله تعالى ( وقال  
موسى ربنا إنك آتيت فرعون ) إلى قوله ( العذاب الأليم ) ولما كان لكل داع من الهداة نظرة فيمن يلتمهم رسالته  
فتارة يدعو بالهلاك كنوح ، وتارة يرجو أن تكون منهم ذرية مؤمنة فيقول « اللهم اغفر لقومي فإنهم  
لا يعلمون » كسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتارة يكون الهداء بين هاتين الحصلتين كافي هذا المقام ، دعاسيدنا موسى ربه  
قائلا ربنا إنك أعطيت فرعون وأشرف قومه ما يتزينون به من اللابس وللراكب ونحوها كما هو مشهور  
في الشرق والغرب من آثار الفراعنة ، وأنواعا من اللال وتمكون عاقبة ذلك أنهم يضلون الناس عن سبيلك  
ويكونون فتنة لمن رآهم من الناس على هذه الحال ، فيارب اطمس على أموالهم واحفظها بحيث لا ينتفعون بها  
بأن يدفنها في القابر والنواويس ويجعلوها حليا للوك ولللكات في قبورهم فاجعل يا الله كل مهمهم في ذلك  
الطمس ، واشدد على قلوبهم : أى قسها واطبع عليها حتى لا تؤمن إلا بدينها القديم ورأيها العتيق من دفن  
الأموال والزرين بها تحت التراب وتخلية الأموات بها وتبقى البلاد المصرية ممرأة من الحراس لأن الحراسة  
يلزمها اللال ولللال معظمة يكون تحت التراب فذلك تجد بيوت المصريين القدماء أكثرها من اللبن . أما  
للقابر فانها مزينة بالرسوم والتمائيل وبالذهب والفضة وبجميع الأحجار النجينة . ولما استمر وا على هذه  
الحال مدة طويلة وقست قلوبهم دخل البلاد ملك الفرس وأهلك الحرث والنسل وذاتت مصر العذاب الشديد  
بسبب العقائد الموروثية التي جعلتهم منهمكين في دفن الأموال مع الأموات وجعلتهم يمدون الحيوانات كالمهرة .  
ولما دخل [ قميز ] مصر في مدة الأسرة السادسة والعشرين التي هي الأسرة الثامنة بعد خروج بني إسرائيل  
من مصر لم يساعده على إهلاك البلاد إلا عبادة المهرية فانه أمر بإيقاف صف من القطط بين الجيوشين فتحصى  
المسكرو للصريون أن يضربوا آلتهم وهي القطط واتهم عسكر الفرس على مصر بسبب أن قست قلوبهم  
على عبادة الحيوانات كما قست بدفن الأموال في القبور فذهبت مصر سدى ولم يؤمن للصريون إيمانا صحيحا  
إلا بالدين المسيحي بعد ذلك وإلا بالدين الإسلامي آخر الزمان . فهذه هي القساوة وإنك ترى آثار المصريين  
الآن في القبور وأهل الشرق وأهل الغرب يتقبون عليها ، وتجب من القرآن وحكمه وتجب كيف ذكر الله  
هذا وكيف قال اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم وكيف ظهر الأمران . فالأموال ملأت متاحنا

للصرة ومتاحف فرنسا وأمريكا وانكلترا وسائر متاحف أوروبا ، وطمس القلوب ظهر أثره في قناتهم على جهاتهم حتى تنصروا لما كانت النصرانية في أول أمرها ثم أسلموا إلى الآن .

أليس هذا من العجب . أو ليس من العجب أن الله لم يذكر طمس الأموال فيما أذسعر ولم يذكر نجاة الأجسام كما سيأتي إلا في الفراعنة . أو ليس هذا من عجائب القرآن . وكيف يذكر طمس الأموال وقد ظهرت ونجاة الأبدان بغير أرواحها وهذا أمر مشاهد كما سأوضحه قريبا . وكل هذا وذاك في الأرض المصرية الآن واضح . إن هذا لعجب عجيب وهذا هو قوله تعالى « وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون » إلى قوله « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » قوله « ليضلوا عن سبيلك » أي ليضلوا الناس عن طاعتك وهو متعلق بآيت ، وربنا تكرر للأول وللحاج في التضرع وهذا كقوله « إنما على لهم ليزدادوا إيمانهم » والطمس على الأموال هنا معناه دفنها وعدم ظهورها والانتفاع بها وهو المعروف الآن . وليس ما قبل في بعض التفاسير إنها مسخت حجارة بحق لأنه ظهر خطؤه الآن والقرآن معجزة باقية إلى آخر الزمان ، وقوله « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » جواب للدعاء والمراد بالعذاب الأليم ما أحاط بالأمم للصرة من العذاب الذي حل بها من العقاب المتعرف عن سنن دينهم الأصلي الذي كانت فيه العبادة على وجهها فطمسوا على الأموال وعبدوا الأصجار والحيوانات فكان ذلك سببا لدخول الأمم بلادهم كما تقدم وهذا هو العذاب العام ولم يؤمنوا بدين خال من الوثنية حتى جاء المسيح فاتبعوا دينه قبل أن يسبح ثم جاء الإسلام فاتبه أكثرهم ولم يكن ذلك إلا بعد أن ذاقوا العذاب الأليم من الأمم المحتلة من الفرس واليونان والبطالسة والرومان فهنا هو العذاب الأليم العام ، وهناك عذاب أليم خاص وهو ما حصل لفرعون وجنوده لما غرقوا في اليم ولم يؤمن فرعون حتى رأى العذاب الأليم بالترقي ولم ينفعه إيمانه كما ستره قريبا . ولما كان هذا الدعاء واردا من موسى مواقفا لما في علم الله وأمره الطرد في الأمم من أنها تسير على نواميس تلاميها وتوافقها ومن نواميس للصريين ملازمة التنين في عبادة الأوثان ودفن النقوش والرسوم والأحجار الثمينة والذهب والفضة أردفه بما يفيد الإجابة (قال قد أجيب دعوتكما) يعني موسى وهرون (فاستقما) فابتنا على ما أتتا عليه من الدعوة وإزام الحجة ولا تستجلبا فان ما طلبنا كأن ولكن له وقت معلوم . ويقال إنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (ولا تنجان سبيل الدين لا يظنون) أي طريق الجبهة في الاستعجال أو عدم التوق والاطمئنان بوعده الله تعالى فليس في الأرض من داع لأمر عظيم إلا إذا كان واتقا بنجاح دعوته وظهور أمره . فأما الذي لا تارة له بمستقبل أمره فانه لا نجاح له في عمله ولا ثبات له في دعوته . ثم أخذ يشرح العذاب الأليم الخاص للتقدم فقال (وجاوزنا بيني إسرائيل البحر) أي قطعنا بيني إسرائيل البحر الأحمر وجوزناهم فيه حتى بانوا الشط حافطين لهم . وقرى « جوزنا » كضعف وضاعف (فأبهم فرعون وجنوده) أي لحقهم وأدركهم (بضيا وعدوا) أي ظلما وعدوانا : أي باغين وعادين أو للبنى والعدو (حتى إذا أدركه الترقى) لحقه (قال آمنت أنه) أي بأنه (لا إله إلا الله آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) في وقتها . قال ابن عباس لم يقبل الله إيمانه عند زول العذاب به وقد كان في مهل ، والإيمان والتوبة عند معاينة لللائكة والعذاب غير مقبولين وفي آية أخرى « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » وفرعون ذكر الإيمان والإسلام واعترف بهما ولم ينفعه (الآن) أي قال الله أو لللائكة الآن تتوب وقد أضمت التوبة في وقتها وتكبرت عنها وآثرت دنياك الفانية (وقد عصيت قبل) كعمرت بالله (وكنيت من للفسدين) في أرض مصر بالقتل والشرك والدعاء لتبخر الله وعبادة الجبل للسمى [ مجمل أيس ] وبعض الطيور ( فاليوم تنجيك ) نبعذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجملك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل وغيرهم (بيدك) في موضع الجمل : أي كاملا سويا ( لتكون لمن خلفك ) لمن وراءك من بنو إسرائيل وغيرهم من أمم الشرق والغرب

(آية) أي عبرة وموعظة ليعرف الناس أن أعظم اللوك قدرا وأجدم جيتا وأعظمهم ذكرا وأرقم منزلة وأساهم مقاما وأرفهم مجدا قد تحفظته للتون وزل به المزون . وها هوذا في اللحد مدفون وفي الصندوق مقفلا عليه . وأيضا يتر الناس بالقرون الحالية والأمم الماضية فيعرفون صناعاتهم وعلومهم ومعارفهم . ومن عجب أن القرآن لم يذكر هذا القول في أمة من الأمم ولا في جيل من الأجيال إلا في قداماء المصريين فانهم هم الذين سخرهم الله بعبادتهم التي أودعها في نفوسهم وربطها ربطا وثيقا في قلوبهم أن يحفظوا أمواتهم في صناديق مقفلة ، وليس يعرف أحد من المسلمين معنى قوله تعالى « فالיום ننحيك بيدك لتكون لمن خلفك آية » إلا إذا حضر إلى بلادنا المصرية وشاهد جثث اللوك في صناديق عجبية الشكل بديعة الصنع وهي محنطة منذ ثلاثة آلاف وأربعة آلاف وخمسة آلاف أو ستة آلاف سنة وعليها أ كفافها لم يبل منها ثوب ولم يفتت عضو من الأعضاء فيها ولم يكن ربما ، فهذه الجثث الباقية التي نشاهدها في متاحفنا المصرية لاسيما ما يتجدد حديثا كقبرة [ توت عنخ آمون ] التي أشرنا إليها في سورة البقرة عند قوله تعالى « يحبونهم كحب الله » شواهد ناطقة وجمع قائمة على جمال الله عز وجل ونعمه التي أغدقها على الأمم السالفة والأجيال البائدة ، وكيف أعطاهم هندسة وعلمًا ونظامًا عجيبا غفل عنه المحدثون ، وكيف نطق آثارهم بما لله من مجد وفضل ومن على الأمم القديمة ، وكيف يحجز اللاحقون عما أنشأ السابقون ، وكيف ألهم الله قداماء المصريين أن يبقوا هذه الجثث ذخيرة لنا وآية قائمة على جمال الله وجلاله ، وكيف كان ذلك منفعة للأمم الحديثة ودرسا لعلمائها أنهم مسبقون بأهم أعظم قدرا منهم ، إن هذه الآية من بدائع القرآن، وعلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يدرسوا علوم قداماء المصريين ، أليس من العيب عليكم أيها المسلمون أو ليس من العار المتجمل ، أليس من أكبر للصائب التي حلت بأمة الإسلام أن المرئجة هم الذين يتسابقون إلى تعلم لغة القوم ويمنون علينا أنهم أعلم منا بها ، أو ليس من المحزن للبكي أن أمة الإسلام هي التي تجهل قداماء المصريين الذين قال الله فيهم « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

فياليت شعري لم ذكر هذه الجملة هنا ، وكيف أوردها في هذا المقام ، وكيف يقول إن كثيرا من الناس غافلون عن آياتنا لا يفكرون ولا يتنبهون بعد ما تقدم ، أليس ذلك لعظم الأمر وأن قداماء المصريين سيكون لهم شأن وأنه بهذا الآية نبه للمسلمين إلى ذلك .

وأنا أقول : أيها المسلمون ، أما أن لكم أن تدرسوا الأمم القديمة ، أما أن لكم أن تدرسوا علوم الأمم القديمة والحديثة ، أما أن لكم أن تدركوا مجدكم وشرفكم ، وكيف يسبقنا إلى علمهم أهل أمريكا وأهل ألمانيا وغيرهم ، إن ذلك هو الضلال الكبير والحزى العظيم والصاب الجلال .

يا أمة الإسلام ، قد شعبتم نوما فاستيقظوا ، قد أدرككم الفرق فأيقظوا ، قد طحنكم الدهر بكلكله فاتهبوا فيها هو ذا كلام الله ، وهذه حوادث أيامه قد أحاطت بكم وقد عاقبة الأمور .

واعلم أن كل أمة لها مبدأ وجهاد للسكال ، ثم تناقص واختلال ، فهكذا بنو إسرائيل جاءهم موسى فهدوا حتى خرجوا من أرض مصر ونجوا ونم أمرهم واستقامت من السنين ثم اختلفوا في دينهم وهذا قوله تعالى ( ولقد يوآنا ) أنزلنا ( بنو إسرائيل ميثاقا صدق ) منزلا صالحا مرضيا وهو [ الشام والقدس والأردن ] لأنها بلاد الحصب والخير والبركة ( ورزقناهم من الطيبات ) أي تلك اللنافع والخيرات التي رزقهم الله بها ( لما اختلفوا حتى جاءهم العلم ) لما اختلف هؤلاء الذين فطنا بهم هذا القمل من بنو إسرائيل إلا من بعد ما قرءوا التوراة وعدوا أحكامها ( إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ) فيميز الحق من اللبطل بالانجاء والملاك .

﴿ لطيفة في موازنة هذه القصة بأحوال الأمة الإسلامية ﴾

اعلم أن هذه الآيات أفادت ما يأتي :

- (١) إنكار قوم فرعون لدعوة موسى وادّعاءهم أنها سحر .
- (٢) احتجاجهم أن هذا فيه هدم المجد القديم وهو مجد الآباء ، فنخالقهم ذهب لفضلمهم وانحراف عن سنتهم .
- (٣) أنكم تريدون أنه يكون لكم للكم في البلاد .
- (٤) إحضار السحرة ومعارضة معجزة موسى سحر الساحرين .
- (٥) ذكر إيمان طائفة من أولاد بني إسرائيل .
- (٦) أن هؤلاء خائفون من فرعون وقومه أن يذبواهم .
- (٧) وعظ موسى لبني إسرائيل أن يتوكلوا على الله .
- (٨) موافقتهم له وطاعتهم وتوجههم إلى الله بالدعاء .
- (٩) أمر الله لموسى أن يحض قومه على اتخاذ المساكن وجعلها مصلى .
- (١٠) تبشير السليين .
- (١١) دعاء موسى على بني إسرائيل بطمس أموالهم وبقائهم كافرين .
- (١٢) استجابة الدعاء .
- (١٣) عبور بني إسرائيل البحر .
- (١٤) اتباع فرعون لهم وغرقه هو وجنوده .
- (١٥) نجاة يده وحكمة ذلك .
- (١٦) استحكام أمر بني إسرائيل ورفقهم .
- (١٧) وقوع الاختلاف فيما بينهم .

واعلم أن هذه الصفات التي لحقت بني إسرائيل هي بينها التي لحقت بأمة الإسلام ونبينا صلى الله عليه وسلم .

(١) فقد دعا الله فكذبوه .

(٣ و٢) وظنوا أنه يريد الملك فرفضوا عليه أن يملك أمرهم ويترك ذم آلهم ، وأيضاً أنه يريد هدم ما كان عليه آبائهم

(٤) آذوه كثيراً وكادوا له كيدا عظيماً .

(٥) ما آمن به أولاً إلا الضغاء .

(٦) كانوا خائفين من أهل مكة كصهيب وبلال وغيرها حتى هاجر قوم إلى الحبشة وهاجر الجميع إلى المدينة .

(٧) وعظ النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالتوكل

(٨) موافقتهم له وطاعتهم .

(٩) بنى النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً في المدينة واتخذ المسلمون مساجد كثيرة وسكنوا بيوتهم وصلوا فيها وفي مساجدكم .

(١٠) في أكثر القرآن بشاراً للمؤمنين .

(١١) دعا النبي صلى الله عليه وسلم لقومه فقال « رب اعقر قومي فإنهم لا يفلحون »



(٢٢) استجاب الله دعاءه ففتح مكة وأسلم قومه وذريتهم للآن .

(١٣) نصر المسلمين في زمن النبوة وبعده .

(١٤) هلاك الكافرين في كل وقعة .

(١٥) نجاة المسلمين في كثير من الوقائع .

(١٦) استحكام أمر المسلمين ونظامهم في القرون الأولى ورفقهم .

(١٧) اتلاف المسلمين وتنازلهم منذ (٨) قرون فهم في اضطراب سياسي عظيم .

فهذا التاريخ بضارع تاريخ الإسلام وقد ذكر هنا ليكون عبرة للمسلمين ودرساً لهم ليتعظوا اه .

لطيفة في قوله تعالى « وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغانفون »

تقدم أني قررت في هذه الآية أنها لاخص على فهم علوم للصريين والبحث في أطوارهم وأن الله لم يذكر أمة بأن أبدانها عبرة لمن بعدهم وأتبعها بحملة كهذه إلا للصريين ، فلذا ذكر من آيات الله التي ألهمها للصريين القدماء ليكون ذلك ذكرى للمسلمين وعبرة وليجروا في البحث عما دفعه الله في الأرض وما أظهره في الأمم حتى يعرف المسلمون كل شيء بحيث نختم كل طائفة بمباحث خاصة يتقدمون في معرفتها . وهذه العلوم كلها فرض كفاية ، فلا تقل لك [أوسع نبد] من علومهم :

البند الأول : محاوره فلسفية بين مصري ورومي

وجدت في قرطاس محفوظ في متحف (برلين) وإليك ترجمتها من كتاب الحضارة القديمة :

(١) قالت الروح لسااحبها ليس في الموت فرح للإنسان .

(٢) أقول لفسى كل يوم إنه كرجوع الصحة إلى الريض حين يخرج ويذهب إلى الساحة بعد تأله

هكذا حال الموت .

(٣) أقول لفسى كل يوم كأنه استنشاق بشذا العطار أو كالجلسة في بلد السكر ، هكذا حال الموت .

(٤) أقول لفسى إنه كجبرى تمرّ به مياه النيل الفاض .

(٥) أو كرجل دخل الجنديّة ولم يثبت أحد أمامه ، هكذا حال الموت .

(٦) أقول لفسى إنه كرجل ذهب في ضياء القمر ليصيد الطير بالشبكة فوجد نفسه في إقليم لا يعرفه .

هكذا حال الموت اه .

#### البند الثاني

اعلم أن من أعجب معجزات القرآن هذه الآية التي نحن بصدها ولم يكن للتقدمون من أمتنا الإسلامية ولا قدماء العرب ولا المعاصرون لنبى صلى الله عليه وسلم يعلمون شيئاً عن الجثث المصرية ولا عجائب علومهم ، ولذلك تجرد للفسرين بذكرون أن أموالهم مسخت حجارة ، أفلا تعجب للقرآن كيف ظهر في هذا العصر العجب العجيب من الجثث المحنطة والعلوم المحيية والحكم المنظمة التي أشار لها القرآن بقوله « لتكون لمن خلقك آية » وأقصد أن أكثر الناس غافلون عن العجائب .

فانظر كيف ظهر في هذا الزمان أيام كتابة هذا التفسير أعظم الكنوز المصرية وهو كنز [نوت بنخ أمون] وقد كشفه رجل يقال له (هوارد كارتر) بعد أن بحث ٣٢ سنة في البلاد المصرية مجتهداً في ذلك وقد أحدث ظهوره دهشة لإصجاب في العالم كله .

وفي يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ فتح الباب المقنوم بفتح الملك لبعش القرف ووجد بالفرقة الثالثة صندوق بديع داخله جثة الملك وجواهره الثمينة وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالحجارة الكريمة ويبلغ طوله نحو

سنة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار تقريبا ، ووجدت العرقة الراجعة مملوءة بأناث من أنظر المفاخر مرتبة ترتيبا حسنا يفرق منظرها في جهاتها وعظمتها ما وجد في العرقتين الخارجيتين ، وتوافد عشرات الألوف من أوروبا وأمريكا على القطر المصري للتمتع بمشاهدة هذه الآثار العجيبة ، وفوق ذلك قد اهتمت دور الصناعة في أوروبا وأمريكا للحصول على نماذج للأزياء المصرية الأثرية للملابس وأناث المنازل والأواني ليصنعوا نظيرها وهم يضحون عشرات الألوف من الجنيهات في سبيل الحصول على هذه النماذج وبدأت السيدة الغريسة في مدن أوروبا وأمريكا متجلمة بلبس ملابس قدماء المصريين في عهد [ نوت عنخ أمون ] .

وفي صباح ٨ مارس سنة ١٩٢٣ أبصر المارة في شارع ( فث أفينو ) وهو أعظم شوارع نيويورك ثلاث سيدات يسرن معا وقد لبسن من قمة الرأس إلى أخمص القدم ثيابا مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمة واحتدين أهدية على شكل ( الصندل ) فكانت ثيابهن هذه موضع إعجاب وقبلة أنظار الجميع وهكذا في إنكلترا وغيرها ، وقد اشتد الإقبال في أوروبا وأمريكا على درس تاريخ مصر وحضارتها القديمة ومشاهدة آثارها الكبيرة المنتشرة في المتاحف ، فالتاس يقبلون زرافات على المتاحف التي فيها آثار مصرية . وقد أغلق المدفن يوم الاثنين ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ على أن يفتح ثانيا في الحريف المقبل ، وهذه الليلة التي أكتب فيها هذا المقال ٢٧ من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ لم يفتح القبر إلى الآن وسيظهر بعد فتحه العجب العجيب .

أفليس هذا من سرّ قوله تعالى على سبيل الإشارة والتلميح ؟ « لتكون لمن خلفك آية » فهذه آيات الله التي ظهرت لعباده آيات الصناعة والتطريز والزخرفة والنقش والهندسة والبناء ، وكذلك الاعتبار والاعتناظ ونذكر الموت والبلى ، كل ذلك ظاهر اليوم لجميع الأمم ، فعلى المسلمين أن ينظروا جمال الله في كل شيء سبحانه وتعالى جلّ جلالا وعزّ كالا .

#### البذة الثالثة

أقدم كتاب في العالم نصائح الحكيم المصري القديم [ آني ] لتلميذه [ خونسو هتب ] في عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم [ نوت عنخ أمون ] أي منذ ٣٣٠٠ سنة تقريبا وهي ٤٨ نصيحة نقلت عن ورقة بولاق البردية التي ستر عليها [ مارييت باشا ] مؤسس مصلحة الآثار المصرية في أحد مقابر الدبر البحري بطيبة بالأقصر سنة ١٨٧٠ م ، وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنكليزية وميت [ ورقة بولاق ] لأنها حفظت بالمتحف المصري في وقت أن كان في بولاق ، ولأذكر لك بعض هذه الحكم تبينا بالقرآن القائل « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ولأذكر لك ما اخترته منها اختصارا للقول :

(١) أخلص لله في أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتالحظك عنايته فإنه يهمل من تواني في خدمته .

(٧) من أنهم زورا فليرفع مظلمته إلى الله تعالى فإنه كفيل بإظهار الحق وإزهاق الباطل .

(٨) اجعل لك مبدأ صالحا وضع نصب عينيك في جميع أحوالك غاية شريفة تسمى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة ونهي لك مكانا في الآخرة فإن الأبرار لا تزعمهم سكرات الموت .

(٩) صن لسانك عن مساوي الناس فإن اللسان سبب كل الشرور ، ونعمر بحسن الكلام واجتنب قبائحها فإنك ستسأل يوم القيامة عن كل لقطة .

(١١) لاتهمل الترحم على والديك ، وهن وقت بذلك قام به لك ولدك .

- (١٢) اعتن بأبنائك كما اعتنت بك أمك ولا تنضبها لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك  
 (١٥) إذا كنت قوي الإرادة فلا تدع المرأة تسلسط عليك .  
 (٢٠) النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية .  
 (٢٥) إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها  
 (٢٨) لا تجرح بكلامك شعور الناس فيسئنان بك  
 (٣٤) ليست السعادة بالثروة وحيازة الأموال ، إنما هي في استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والسكاف .  
 (٣٨) لا تستسلم لليأس والقنوط مهما قام في سبيلك من العقبات والشدائد .  
 (٤١) لا تنق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالإخلاص فإنهم يجرونك إلى الحراب العاجل .  
 (٤٦) تطف مع ضيفك وحادثه ببشاشة ولا تسمح له بالتطرف في الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام .  
 (٤٨) لا تكن شرها فإن الإنسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقا للحياة الأبدية . انتهى .

هذا هو الذي اخترته من حكمه ، وهناك نصاب آخرى لرجل يقال له (قائمه) وآخر يقال له (بناح حنپ) وهذا الأخير قد وجدت له (٤٤) لوحة قد نقشت عليها حكمه ، ولأذكر لك منه ثلاثة ألواح [ لوحة ١٠ ] إذا تواضعت امتثالا لرئيس فليكن سيرك مع الله حسنا جدا ، فالسعد لا يأتي إلا عن إرادته وليس هناك أحكام سوى مشيئته .

ومما جاء في اللوحة الرابعة عشرة [ تمسك برأيك متى كان الحق يدك ، إن الذي يملك نفسه خير ممن غمره الله خطايا ، لأن الرجل الذي يتقاد لهواه يكون تحت سلطان امرأته ، بين منهاج سلوكك من غير كلام ] .

وجاء في اللوحة (٣٤) ليكن وجهك باشا ماعشت .

#### البذة الرابعة

كان قدماء المصريين يعتقدون بقاء النفس وكانوا يرون أن الإنسان يكون أمام محكمة مكتونة أمام الإله أوزيريس و٤٣ قاضيا ويتولى الرئيس عملية وزن القلب ووضعه في كفة الميزان والمدل في الكفة الأخرى فإذا رجحت الكفة الأولى أوساوت قبل التوفي في مملكة أوزيريس ، وأهم هذه المملكة عندهم الزراعة فتقوم الأرواح بحرق الأرض وبذرحب وجنى محصول القرة السماوى وهى أحسن وأجمل من ذرة الأرض ، وفى تلك المملكة تكون الأرواح فى المجرى السماوية وتجلس تحت وارف ظلال الأشجار الباسقة وتلب الأنامب التى نهواها ، والإنسان يكون له جسم روحى يبدأ فى الوجود من وقت أن يوضع فى القبر ويأكل للتوفي خبزا لا يتعفن وشرب خمرا لا يفسد وملابسه أردية بيضاء ويجلس على عرش وسط اللائكة الذين يجلسون حول شجرة الحياة ويلبس التاج الذى يعطيه له الإله ويعيش مع الإله (رع) إلى الأبد .

وعملية التحنيط للمروفة عند قدماء المصريين التى أشار لها القرآن بقوله « فالיום نتجيك بيدك » محفوظا كسائر قدماء المصريين إنما اخترعوها سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد وبقي إلى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد لاعتقادهم أن النفس بعد أن تمر فى أدوار كثيرة تعود تتحل فى الجسم فلهذا كان التحنيط ، ولهم قصة خرافية وهى أن

(أوزوريس) كان يحب أمته المصرية فعلها وفتح البلاد الأخرى غير حرب ومعه (نوت) ولكن أخوه (سيت) غار منه فصنع له صندوقاً وأهداه له على شرط أن يكون على مقدار جسمه ، فلما دخله أقفله عليه وهو متحد مع الضباط وألقاه في النيل فبحثت عنه زوجته (إيزيس) وعثرت عليه في البحر وخبأته في غابة كانت أشجارها متكيفة وذهبت تبحث عن ابنها (حوريس) في مدينة (بوتو) جنوب البرلس في الدلتا ، ثم إن (سيت) عثر على الصندوق وهو يصطاد في ضوء القمر فقطعه ١٤ قطعة وبثرها فبحثت عنها (إيزيس) وجمعتها إلا قطعة واحدة وركبتها في مواضعها من البرن وحطت اللامكة جسمه وصنعوا له عائم ولقائف ، فهذا انتقل من القبر إلى السماء ، وله فيه قصر عظيم وأصبح ملك (أوزوريس) هو الذي يصعد إليه الأرواح الطاهرة بعد الموت ولا بد من التحنيط وعمل السحر والطلاسم ، هذا هو السبب في التحنيط عندهم اه .  
 فيبحان من جعل الحرافات سبباً في الملوم النافعة للإنسان وحفظها على مدى الزمان ، والحمد لله أولاً وآخراً .  
 ويقال إن فرعون موسى عثر عليه منذ سنين في جهات الوجه البحري في مديرية الشرقية ، وعسى أن عثر على هذا النص فألحقه بهذا الكتاب ، والله السمعان .

فرعون موسى قد وجد بدنه وهو بالمنحف المصري

وبعد كتابة ما تقدم بيومين اطلعت على ما كتبه أستاذنا في علم الآثار المصرية الأستاذ أحمد بك نجيب أمين ومفتش الآثار المصرية في [ اللوسعات ] في أعداد مختلفة ، فلأخص ما كتبه بنهاية الاختصار قال :  
 إن رمسيس الثاني (سيزوستريس) هو الذي ربي موسى عليه السلام . وأن ابنه (ريان با) وهو المعروف باسم (منفطه) هو الذي غرق في البحر وهما معا من الأسرة التاسعة عشرة ، قال وقد أجمع العلماء أن فرعون (منفطه أوريان با) هو التريق والحمد لله على وجود جثته الآن ، وأما العبرانيون فإنهم دخلوا مصر أيام احتلال العماليق لها وأقاموا في وادي غسان المعروف الآن برأس الوادي بمديرية الشرقية ولقطة (فرعون) كانت اسمها عاماً للملك مصر كلفظة (قيصر) علم على كل من ولي الروم ، و (كسرى) لسكل من ولي العجم ، و (نجاشي) لسكل من ولي الحبشة ، و (أمبراطور) لسكل من ولي رومه ، وفرعون أصله (إبرعا) أو (فرنا) معناه (الدار العظيمة) لأن (فر) معناها الدار و (عا) معناه العالية أو الجليظة أو العظيمة كما يقال الآن (الباب العالي) أو (الباب المهيأوني) ، قال : وبعد رمسيس الثاني الذي ربي موسى و (منفطه) أو (ريان با) الذي غرق في البحر لم يذكر في الآثار شيء عن العبرانيين ، قال وإني في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٩٠٠ فتحت تابوت (فرعون) يشهد من علماء الآثار وقسته فكان طوله من قمة رأسه إلى قدمه متراً واحداً واثنين وسبعين سنتياً وعرضه عند الأكتاف أربعةون سنتياً ، ومن قمة رأسه إلى الكتابة التي على صدره ٤٥ سنتياً ، قال ولم أر وجهه لأنه مسجى بأكفان من قماش الكتان يضرب لونه إلى الصفرة الداكنة من تأثير الحنط عليه ، وتابوته مصنوع من قماش كالورق القوي خال من الكتابة وهو لاشك أنه ليس تابوته الأصلي ، ومعنى (ريان با) شمس العلم أو روح الشمس ، وقال أستاذنا أيضاً : إن رمسيس الثاني استعمل العبرانيين في بناء فلاح كبيرة وعمل طريق بحر بوسطها يخرج من مدينة رعسيس ويسلك إلى الشرق مع الجنوب حتى يدخل قسم آسيا ، وهناك قلعة باسم فرعون موسى نفسه ابن رمسيس الثاني وهي المذكورة في ورقة من البردي أرسلها أحد العمال إلى رئيسه يعلو بما فعله ، وهالك نصها [عما أمرت به خاطر سيدي هو أني أخبره أننا أعطينا الحرية التامة إلى قبائل الأعراب الآتية من إقليم (ايدوم) لتمر بنهاية الحرية من قلعة (خانوم) للملك (منفطه) وهو فرعون موسى كما تقدم ، وهناك حجر محفوظ بالمتحف المصري مكتوب في السنة الخامسة من حكم هذا الملك عليه لقطة (إسرائيل) أي الإسرائيليين ، وهالك ترجمة بعض عباراته (وقبيلة خاني سلمت فسلمت ، وقبيلة كتانان قد

سجنت على أقيح كيفية ، وأهل عسقلان أحضروا أذلاء ، وأهل غزة وما حولها جاءوا أسارى ، وقبيلة (أيا واميغ) اندممت ، وأمة (إسرائيليو) هلكت وما عاد لديها حبوب للأكل ، وقبيلة خارو صارت كأملة حقيرة بمصر [ اه .

وقال رحمه الله في سبب ادعاء الملك (منقطه) الألوهية : إن هذه عادة هؤلاء الفراعنة جميعا ضعافا كانوا أم أقوياء ، قال وانظر إلى مشكلة المطرية تجد عليها ماسورته [ الجليل حياة كل مولود ملك الصعيد والبحيرة دام بقاء صاحب التاج معطى الحياة لسلك موجود الإله العظيم ابن الشمس الخ ] وهذا المدوح هو الملك (أوزرتسن الأول) في العائلة الثانية عشرة وهو صاحب هذه المسلة ، قال واقدم كان (رمسيس الثاني) والده فرعون مصر أول من سخر العبرانيين في الأعمال فبنوا له مدينة رمسيس ومدينة بيتوم ، وهالك نص ورقة ردية محفوظة في بلاد الإنجليز بقلم رجل مصري يسمى (كانيزاك) أرسلها إلى رئيسه الدعو (بي كانبناج) بطلبه أنه أغد أمر الملك سيده وصورتها [ قد أعطت أمر سيدي رمسيس وفعلت ما أمرني به حيث قال لي أعط قفحا إلى المسائر الحفراء وإلى العبرانيين الذين يغفلون التجارة لبناء الحصن العظيم بمدينة رمسيس الذين هم تحت رئاسة (أمنان) رئيس فرقة المحافظين على العمال فكنت أعطيهم قفحا في كل شهر حسب الإرادة السنية التي أمرني بها سيدي ] وعلى ظهرها مکتوب [ هذا حساب البنائين الذين أدوا الأعمال للفروضة يوما فيوما بدون انقطاع عن العمل ما عدا الرجال الذين يصنعون الطوب ] ومدينة رمسيس اختلف العلماء في مقرها ؛ فقبل إنها مدينة (صان الحجر) بمركز فاقوس بمديرية الشرقية ، وقال أستاذنا بدار العلوم القفص للذكور إنها في مكان أطلال (المنقطه) بالشرقية ، فالمنقطه المذكورة هي رمسيس ، وقد وجد اسم رمسيس على لبنا (طوبها) وهذه المدينة أجمل المدن المصرية وقد وجدت ورقة من البردي محفوظة في بلاد الإنجليز فيها قصيدة لشاعر مصري اسمه (بنينا) يحجر أحد الأمراء السمي (أمنه ايت) وكان الملك رمسيس دعاه لوليمة يوم الفراغ من بنائها ، قال [ لما دخلت مدينة رمسيس وجدتها في أحسن حال ما لها مثل في عمارات (طينة) ولا عمارات (جبل السلسلة) فهي مدينة التعم وحقولها مملوءة بالأشياء اللذيذة وللأكولات الفاخرة وحيطانها مملوءة بالسماك والطيور المائية تدرج على غدرانها ومروجها خضرة وسفن البحر تأتي إلى نهرها وتكثر فيها الخيرات طول السنة وينشرح صدر من يقيم فيها إذ ليس بها من يمارض ولا من ينزاع والصنار والكبار فيها بيان وترى فيها الجوارى الحسان جوارى الملك قائمات على أبوابها والفرح عاما في جميع أرجائها ، عشت يارمسيس في صحة وعافية ] .

وقال بروكش باشا : إن موسى عليه السلام تربي فيها حيث كانت محل إقامة الملك ، أما تحت مصر فكان في مدينة (طبة) أو (طيوه) ومكانها الآن الأقصر أو الكرنك والقرنة ومدينة أبو بمديرية قناه .

وذكر أستاذنا أيضا في تلك المقالات ما وجد منقوشا باللغة البرائية على جدار معبد الكرنك مما يختص بتعذيب الأسرى ، قال (سطر ٥) لما كان الملك (منقطه) هو الذي يحطى الحياة إلى قومه حضهم على ترك الحمول (سطر ١٣) أتى (مرابو) ملك الليبيين بن ديد بجنوده المؤلفة من المشاوشيين والكعكاكين والسردينيين والشكلاشين وهجم على مصر (سطر ١٦) وجمع ملك مصر رؤساء عساكره وقال لهم اسمعوا أنا الملك (منقطه) لخارس ، أنا رب مصالحكم أنا أبوكم . هل فيكم من يمانلى ويحبى أولاده مثلى ؟ ها أنتم ترتشون كالوز أمامى (سطر ١٩) ها هو العدو دخل بلادنا هل يستطيع النيل أن يردنا عنا ؟ كلانم كلا (سطر ٢٢) مرادى الآن قتل الأعداء وسجهم على بطونهم كالسماك ولا عبرة برئيسهم الذى صورته كهورة الكلب (٢٥) أنا الذى يبدى الإعطاء والمنع والدنيا تحت حكمى ، أنا (منقطه) القاهر ملك مصر . (سطر ٣٣)

واندفعت عساكر المشاة مع عساكر العربات على العدو فأغرقوه في بحر الدم (سطر ٤٦) أما عساكر مصر وشبانها فنادوا يسوقون حميرا تحمل القنائم والأحليل المقطوعة من العدو مصنوعة حزما وموضوعة في جلود (سطر ٥٢) ٦٣٥٩ لبيون مقتولون وأحضرت أحاليهم (سطر ٥٦) ٦١١١ رجلا من الأعداء قطت أحاليهم بحضرة الملك (انظر لهذا التوحش) . (سطر ٥٧) ٢٣٧٠ أيد مقطوعة أحضرت لدى الملك (سطر ٥٩) ٩٣٧٦ أسرى .

ورجع الملك إلى طيبة في موكب حافل ، وقد وجد مكتوبا في ورقة محفوظة مانصه : ما أعظم عودتك أيها الملك إلى (طيبة) نظلك سحابة النصر وعربتك نسجها الرجال . أما الرؤساء للغلوبون فيشون أمامك القهقري وأنت تسوقهم إلى حتفهم اه .

وإنما قلت لك هذا لتعرف كيف كان فرعون موسى يذب الأمم للعلوية ؟ وكيف سخر بني إسرائيل كما سخرهم أبوه . وكان يفهم قومه أنه معطى الحياة وفي يده كل شيء . وهذا ماجاء في القرآن من قوله « أما ربكم الأظفى » وغيره ، وهكذا تعذيب بني إسرائيل المتكرر في القرآن اه .

#### نبذة خامسة رد اعتراض

لعلك أيها الذكي المطلع على هذا الكتاب تقول كيف أطلقت في هذا المقام ؟ ولماذا تذكر حكم القوم تارة ومظالمهم تارة أخرى ؟ ولماذا تكرر هذا القول ؟ أتريد أن نعلمنا علمهم ؟ أو ليس القرآن يكاف ؟ أو ليس ديننا بخيرنا ؟ . أقول : على رسلك ولا تلم .

اعلم أن من بظن أن قراءة القرآن وفهم معانيه القريبة والابتصار عليها يكفي للسليخ مخطئ . كل الخطأ بل جاهل كل الجهل ، فقل لي بريك إذا سمعت الله يقول « وقف على الناس حج البيت » أفلا تسعى إلى الحج أم تكنتي فهم الآية ؟ فلا إخالك إلا قاتلا لا بد من الحج .

أقول : هكذا يقول الله هنا « فاليوم نتجيك » يامنغطه (ريان با) ونعظفك في أماكن بالبلاد المصرية ونأمر بتحنيطك وبقائك للسائحين والنادين والرائحين « لتكون » أنت وأمثالك من الفراعنة « لمن خلقك آية » تردهم إلى العلوم والمعارف والانتماظ بذهاب القرون ويقف على صنائع قومك وعلومهم أهل أمريكا وآسيا وأفريقيا وأوروبا ، والمسلمون أيضا متى قصفوا وعقلوا « وإن كثيرا من الناس » في الشرق والغرب « عن آياتنا » في بلادك وقومك وعلومك ومعارفكم وسركم وغيرها مما خلقنا في السموات والأرض « لناقلون » والفتلة موجبة الحرمان كما سيأتي في قوله تعالى « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » فأما إذا لم يفهم الناس واطلعوا على علوم الأوائل كقدماء المصريين وشاهدوا في الحكم السابقة وغيرها أن الله قد أزل عليهم منذ سبعة آلاف سنة أنه وزن الأعمال وأنها إذا ثقلت نجا صاحبها وإذا خفت لم ينج ، وأن الرجل المظلوم إذا دعا الله ينجيه ، وأن قوى الإرادة لا ينبله النساء ، وأن المخلص لله تلحظه عنايته ومن توفى في خدمته يمهله وأن من أتهم زورا ورفع مظلمته إلى الله فإنه يظهر حقه ، وأن السعادة ليست في المال وجده بل في الفضيلة والقناعة ، وهكذا من الحكم الشريفة العالية ، إذا فعل الناس ذلك ولم يفهموا عرفوا أن شرائع الله القديمة كانت كالحديثة وأنها متتالية متناجحة متحدة في الأصول ويحصل للرد اثتناس واطمئنان .

أوليس الله بأمرنا أن ننظر في السموات والأرض ، فإذا ن آيات القرآن تشير إلى آيات السموات والأرض وما أنتجه عقل الإنسان قديما وحديثا ، فأيات القرآن أشبه بالمنظار المعظم ترى به الأشياء القريبة والبعيدة فمن ظن أن المنظار مقصود لداته فهو جاهل كمن يرى أن القرآن وحده كاف فهو مخطئ . إنما القرآن نزل ليصل به ولا يعمل به إلا بأن نبحت فيها خلق الله في السموات والأرض من العجائب ونقرأ العلوم وندرس علوم

الأمم : أى أن يكون في الأمة طوائف لكل علم طائفة تقوم بعلم أو صناعة ولو كانت تعدّ بالآلاف ، انتهى الكلام على حسنات المصريين وسيناتهم العملية .

الكلام على محاسنهم العلمية . نظام السموات عند قدماء المصريين

جاء في أوائل السورة « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » وقال « إن في ذلك آيات الخ » وكرر لفظ الآيات ثلاث مرات وهكذا ذكر الآيات وذم الإعراض عنها في الكلام على فرعون ، فبالت شعري يبرّ هذا القول مروراً علينا ولا نعطيه حقه ، ذم الله الغفلة عن الآيات عند ذكر الشمس والقمر وذمها عند الإشارة للفراغة لما هذه الموافقة في سورة واحدة ، ولماذا تدم الغفلة عن الآيات في سورة واحدة ، إن في ذلك سرا عجبيا فاستمع لما سيأتى :

علم الفلك وقداماء المصريين

جمال الصور السماوية يسحر العقول - احتجب عن جميع الناس وهم ينظرونه - محاولة قدماء المصريين قبل غيرهم كشف هذا الحجاب - رسمهم الصور السماوية التي يقرؤها الناس في أوروبا والشرق الآن - وجوب معرفة نتائج العقول في الشرق والغرب لأن العقل البشرى صنع الله كما أن عقول الملائكة من صنعه فالعالم كله مصنوعاته وعلى المسلمين أن يعرفوها

اعلم أننا خلقنا في جوّ من الجمال والبهجة والحسن والإتقان والكمال والسعادة والحبور ، ولو أننا أدركنا ما نحن فيه من الجمال لتنهلت عقولنا وأصبحنا فاقدى الشعور والإحساس لانقل .  
أقول هذا لك أيها الدكي وأنا موقن به ، إن الله وضع أرواحنا في هذه الأجسام الأرضية تلك الأجسام التي وضعت بحكمة ودقة وأحاطت بها الأنوار من الشمس والقمر والكواكب والجمال ، الشمس تقسم الزمن أياما ، والقمر يقسمه شهورا كما تقدم موضعا ، والشهر الواحد يجعله أربعة أقسام ؛ فمن الحاق إلى التريبع أسبوع ومن التريبع الأول إلى ليلة البدر أسبوع ، ومن ليلة البدر إلى التريبع الثاني أسبوع ، ومن التريبع الثاني إلى الحاق أسبوع .

فالشمس والقمر قد فصلا الزمن تفصيلا ، فالأيام والسنين الشمسية عرفت بسير الشمس كما تقدم والأسابيع والشهور القمرية والسنين القمرية عرفت بالقمر ، إذن الشمس والقمر تكفلا بتقسيم الزمن أياما وأسابيع وشهورا قمرية وشمسية وسنين كذلك ولولا ذلك لم نعرف الأيام وما بعدها ، ونجد القمر والشمس والكواكب لا تغطي في سيرها والأنوار الفاضة منها على الأرض جميعا بهجة تلون كما تلون في أنوارها القبول فأنوار الكواكب ليللا مختلفة في الظلام الخالك والقمر يقسم الليل تقسيما بأضوائه ويظهر ويختفي على أشكال مختلفة ، وهكذا أنوار الشمس تختلف في أثناء النهار ، فبينما ترى ضوء أدنى كوكب بالنسبة إلى الشمس أقل من مليون مليون ضوء غيره من الكواكب أقل من جزء من مليون من ضوء الشمس وضوء البدر أقل من جزء من ثمانمائة ألف جزء من ضوء الشمس تراها أيضا والقمر يتلونان ألوانا محسوبة منظمة جميلة لا يستقران في هيتهما على حال ، الحيوان حولنا والنبات ومحائثهما لا تتناهى ، في أرضنا عجائب كثيرة ، أجسامنا مصنوعة من الحكمة بل هي حكمة مدججة ؛ لو أن أرواحنا خلقت في هذه الأرض مجردة عن اللادة لتنهلتنا من الجمال الذي غرقنا فيه ولكن من لطف الله أنه أجاعنا وأعرانا وسلط الحر والبرد علينا وجعل الأرض لنا دار عمل ونصب وشقاء ، لماذا ؟ ليحجبتنا عن هذا الجمال ، ولماذا ؟ لأجل أن يحفظ عقولنا فيربها فلا يعطيا هذا الجمال إلا بمقدار شيئا فشيئا بالتدرج وهذا التدرج يكون بالتعلم .

فصل في أن أول من تفتن لرفع الحجاب عن جمال السماء هم قدماء المصريين

قد قلت لك أيها الدكي إن الناس خلقوا في الجمال وحجبوا عنه وهم بالتعلم يعرفونه شيئا فشيئا ، وها أناذا

أذكر هنا أن أول من ابتدأ معرفة هذه العلوم هم قدماء المصريين على خلاف في ذلك ، وإنما أردت ذلك ليظهر سر القرآن ولماذا يذكر النقلة عن الآيات ويذمها في السموات والأرض وفي معرض ذكر أبدان الفراعنة وسوى بينهما في ذم النقلة .

إن هذا الزمان هو زمان ظهور النور الإسلامى ، انظر ماذا ترى ؟ ترى أن الأمم ما عدا المصريين كانوا في غفلة ساهون قبل العصر للكردون ، فقد كان العبريون لا يعرفون سوى بلادهم وما جاورها من للمالك ، وكان اليونان في أيام هوميروس الشاعر المشهور : أى قبل المسيح بسبعائة سنة يظنون أن بلادهم وآسيا الصغرى في وسط للسكونة بحيث جعلوها شاغلتين جزءا عظيما من سطح الأرض ، وقالوا إن حولهما جزائر البحر المتوسط وإن مصر وسوريا وإيطاليا حول ذلك البحر المحيط .

وتنبه بعد ذلك (بطليموس) في عهد الرومان سنة ٢٣٠ إلى شئ من ذلك ، وهكذا أخذ العلم ينمو شيئا فشيئا ، أما الأمة المصرية فإنها كانت قد سبقت هذه الأمم إلى معرفة نظام السموات وصور نجومها وبروجها .

هيئة السماء في صندوق حتر بطييه وهيئة البروج فيه

وما صاحب هذا الصندوق إلا من الفراعنة الذين نجحهم الله يدينهم فكان لمن خلفه آية للشرقيين والأوروبيين فهو مصداق للقرآن وذلك من آيات الله في القرن العشرين .

واعلم أنى قد قدمت لك في سورة الأنعام نبذا من الصور السماوية عند قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » وأن تلك الصور ثلاثة أقسام : الصور الشمالية ، والصور الجنوبية ، والبروج التى هى داخل منطقة فلك البروج ، وذكرنا هناك أن الصور كلها نحو ٤٨ صورة وهى مسماة بأسماء أشياء أرضية من الحيوانات وغيرها ، ثم أقول الآن : إن الناظر إلى السماء لا يرى فيها رسم حيوان ولا إنسان ولا شيئا من ذلك فإذا سمعهم يقولون النور وهو أحد البروج أو الجدى أو السنبله أو الحوت فاعلم أنه لاحوت ولاسنبله ولأنور ولا شئ من ذلك ، وإنما هى صور خيالية تجلوها وسموها ، وتجد أم الأرض قد انفقوا جميعا على تسمية مجموعات النجوم بأسماء ولكنهم لم يتفقوا على تلك الأسماء ولا فى واحد منها ؛ فالسبينيون أكثروا من أسماء الجواميع حتى بلغت ثلاثمائة اسم وسموا بعضها بأسماء عظمتهم ، والعرب سموها الجواميع بأسماء حيوانات وغيرها كالذئب الأصفر والذئب الأكبر وبنات نعش الصغرى وبنات نعش الكبرى ، والآريون سكان الهند صوروا السماء بصور أخرى فى كرتهم التى آتموها قبل للمسيح بنحو تسعة قرون ، فرسموا فيها نجمة ووزنين وشجرة كبيرة فيها كلب وصورة زنجى ضخم الجثة ، والصور اليونانية التى ذكرها بطليموس فى المجلد فى المجلد يظهر كما قال بعضهم إنها عملت فى بلاد العرب أيام الجاهلية وأهل (أسكندينايا) سموها بالكلب والركبة والنزل و (الإسكيمو) وضعوا بينها صورة حيوان بحرى فى بلادهم ، وترى الثريا فى العربية مشتقة من التراء أى الترى وفى اللسان المصرى اسمها الكثرة لكثرة نجومها ، وفى الهندية الدجاجة وفرأخها ، وهنود أمريكا يسمونها بما معناه الرجال والنساء أو الرافعات ، وللمصريون القدماء كان عندهم كرات مصورة من قديم الزمان ولم تزل آثارها فى قبر الملك (سبق الأول) فى بيان اللوك ، وكذلك فى قبر الملك رعمسيس الرابع فى مدينة (أبو) فيها صور بعض مجاميع النجوم مثل النهر والسهم والكركدن ومعنى .

ها أماذا الآن أكتب هذا وبين يدي الصور للنقولة من كتاب أبى الحسن الصوفى الذى ألفه فى أواسط القرن الرابع للهجرة نسخت للسلطان (أولغ بك كوركان) والصور للنقول عنها كانت ملونة وهى لسائر الصور السماوية وقد أجاد للصور رسمها وتزويقها وأفرغ فيها دقيق الصنعة ورسم الكواكب فيها بالقصب ، وها أماذا أشاهد فى الكتاب أمامى الآن صورة التنين من رسم العلامة للذكور ، ولكن ليست هذه



الصورة ملونة كالمنقول عنها ، هذا ما أردت أن أقدمه في هذا الموضوع قبل الدخول في للتصود وهو الكلام على صور قدماء المصريين التي صوروها ووجدت الآن في مقابرها مصورة على صناديقهم مصداقا للآية إذ يقول الله « فاليوم نتجيك بيدك لتسكون لمن خلفك آية » هانحن أولاء نقرأ آيات الله للرسومة في مقابر قدماء المصريين .

أكتب هذا وأما هيئة البروج الاثني عشر وهي : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والليزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، وهما ذو صندوق حتر الذي وجدوه بطيبة وفيه رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها ويسترها ثوب طويل وفي رجلها خلان وعلى رأسها عصاية وقد رسمت فوقها الشمس وعلى جانبي الرأة البروج الاثنا عشر ، منها ستة عن اليمين وهي السرطان والأسد والسنبلة والليزان والعقرب والقوس ، وستة على اليسار وهي من الجدي إلى الجوزاء ، وترى هذه الصور واضحة جلية ترى صورة السرطان على يمين الرأة الخ .

وهكذا بقية البروج فترى الجوزاء بهيئة امرأتين متقابلتين قد مدت إحداهما يدها إلى الأخرى للسلام عليها وأمسكت كل منهما بيد الأخرى ورجل كل منهما تخطو إلى الأخرى والثور واقف قبل تلك الصورة ، والدلو عبارة عن رجل واقف يصب الماء من إناء بين يديه ، والجدي نصفه معزى ونصفه الآخر على هيئة السمك .

صورة منطقة فلك البروج التي وجدت في هيكل (ذندرة) في عصر القياصرة الأول  
ها أناذا أرى شكلها أمامي في كتاب [الحضارة القديمة في مصر والشرق، الجغرافيا الرياضية] أو [علم الهيئة عند قدماء المصريين] لسدينا للرحوم الأستاذ الجليل أحمد بك كمال ، ها أناذا أبها الذي أبنت لك كيف تصور الناس هذه النجوم قديما ؟ وكيف جعلوها مجاميع ؟ وكيف صوروها بما يعرفون ؟ وكيف كان قدماء المصريين قد رسموها وجعلوها في مقابر عظمائهم وكبرائهم ؟ وكيف صوروا البروج التي نعرفها نحن بنفس الصور التي نقرؤها كالثور والسنبلة والحمل والحوت الخ ؟ وكيف كان هذا العمل من النوع الإنساني كله قديما وحديثا وعند علماء الإسلام وأوروبا ليكشف الناس الحجاب الذي حجب عقولهم عن ذلك الجمال الذي ستره عنهم الشهوات والحروب والنوائب وحدثان الدهر وتقلباته . فهم بهذا الدرس يختلون ليدركوا جمال هذا العالم الذي نعيش فيه ، وكيف حث الله على النظر في هذه السورة وذكر الشمس والقمر والنبات والنور ؟ وكيف ذم المرصين عن ذلك الجمال في الآيات كما ذم المرصين عن الآيات في مقام ذكر نجمة فرعون بيده ليكون لمن خلفه آية ، وكيف كانت الفراعنة قد رسم على صناديقهم تلك الصور السماوية وأودع في مقابرهم وآثارهم حكمة الله عز وجل في السماء والأرض .

القرآن يأمر بالنظر لكل ما هو محكم الصنع

إن الله يأمرنا بالنظر في مصنوعاته كلها كالشمس والقمر والأرض ، وبالنظر في مصنوعات الحيوان كالعنكبوت والنمل والنحل وفي النبات الذي هو تحت تدبير اللاتسكة ، وهكذا كل حيوان وإنسان وغيرها إن للاتسكة بالنسبة لله تعالى « وفيه للثل الأعلى » كالعين والأذن واليد والرجل للإنسان ؛ فكما أن أحدنا يقول رأيت عيني أو رأيت أنا ويقول ضمت أذني وسمعت أنا ، فالسماح والرأى إنما هو نفس الإنسان إذ الأذن والعين إنما هما له ، فهكذا يقول الله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها » ويقول « قل يتوفاكم ملك الموت » فعمل الملك هو عمل الله ، وما للملك إلا نوره سبحانه وتعالى وشأن من شئونه ، وما عمل الضلالة من نوع الإنسان من هندسة وتصوير وعلم وحكمة إلا أثر من آثار اللاتسكة ، إذ الثابت في ديننا أن كل عمل إنما يكون من إلهام ملك إن كان خيرا ، ومن وسوسة شيطان إن كان شرا ، إذن علوم قدماء المصريين

لرسومة في المياكل وكنا كل العلوم التي ألقاها لللائحة على قلوب العلماء في الهند والصين وعلماء الإسلام  
وعلماء ألمانيا والنمسا والمجر واليابان وغيرها ، كل هذه يجب علينا النظر فيها وجوبا كفايا ، وإذا قصرنا فيها  
طافنا الله بما نحن فيه الآن وزادنا منه ، أما أنا فإني أدبت ما قدرت عليه ونصحت أمتي .

إن الله ذمّ للمرضين عن آياته في هذه السورة بعد ذكر الشمس والقمر كما ذمّ للعرض عن آياته بعد  
ذكر فرعون الذي نجّاه من عباده ، فثبت بهذا أن مصنوعات الله ومصنوعات الحيوان ومصنوعات العلماء  
والغلاء من بني آدم كلها مصنوعات وآياته ، وإذا كنا مأمورين أن ننظر في النبات وجماله وفي نظام النحل  
والنمل والعنكبوت ونسجه ، فبالأولى نؤمن بأن ننظر في فعل من هو أرقى وهو الإنسان وتأخذ بالأحسن  
والأفضل منه .

اللهم إني قد أدبت الأمانة لأمتنا الإسلامية ، وأنت أيها الحكيم القاري لهذا التفسير مسئول مثلني فعلم  
أتمتك وأدرتها وأخرجها من سجن الجهالة وأفهمها كتاب الله والله لا يضيع أجر المحسنين اه .  
تذكرة

اعلم أي كتبت ما تقدم ولم يكن ليخيل لي أني أرسم هاتين الصورتين الفلكيتين الصريتين لما فيهما  
من صور بعض الحيوانات فانفق أن وقع نظري على كتاب مؤلف حديثا فيه صور بعض الحيوانات وقد صدر  
بمقدمة فيها أحاديث وردت يؤخذ منها جواز صور الحيوان إذا كانت لا تعلق لها ، فعجبت كيف اطلمت على  
هذا اليوم ؟ ففكرت في الأمر ونظرت نظرا عليا ففتح لي باب لن يقفل على المسلمين بعد الآن .

ذلك أنه ظهر لي أن الصور الشمسية ماهي إلا أضواء شمسية [ وبعبارة أخرى ] ظلها والظلال إذا  
حرمتها امرؤ فقد انسلخ من عقله ودينه ، وكل امرئ يباح له النظر إلى صورته في الرأفة فإذا دام النظر  
وتكرر لم يحرم ، وما الصور الشمسية إلا كالصور في الرأفة الخ ماسياني فاعتقدت الإباحة والأحاديث الواردة  
في الجواز لما يرسمه الناس بأيديهم لا يرسم الشمس إلى آخر ماسياني شرحه .  
فها أنا ذا الآن أذكر ثلاثة فصول :

[ الفصل الأول ] في رسم الصورتين الفلكيتين للنقولين عن قدماء الصريين مع شرح العلامة  
أحمد بك كمال .

[ الفصل الثاني ] في الكلام على ما يجوز من الصور وما يمتنع وما يجب .

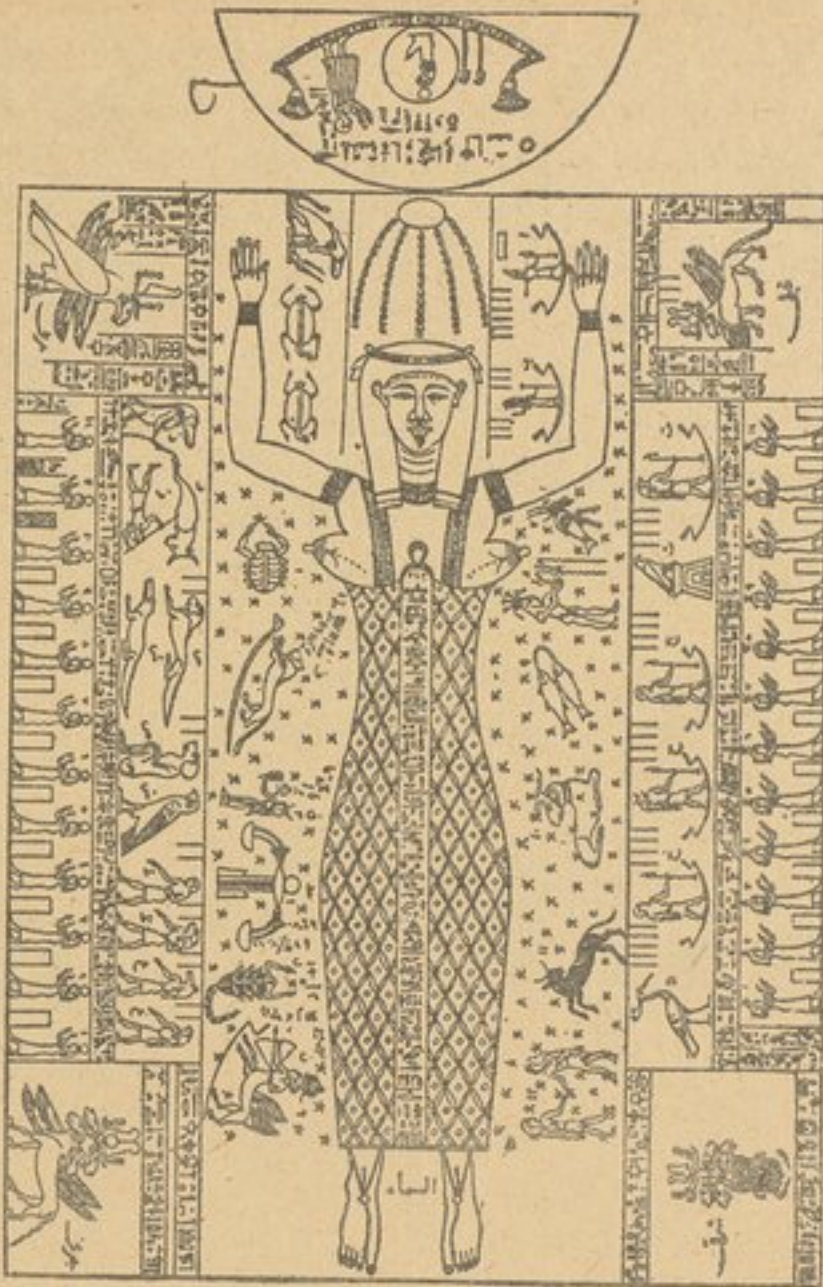
[ الفصل الثالث ] في الكلام على بناء الأهرام بمصر لأن ذلك البناء من أسباب النجاة لبعض أبدان  
الفراصة القدناء .

الفصل الأول في رسم الصورتين المذكورتين وشرحهما

قال العلامة الأثرى الكبير أحمد بك كمال في كتابه [ الحضارة القديمة ] مانصه :

إن قدماء الصريين في عصر اليونان أو الرومان حسبوا هيئة السماء بالكيفية التي وجدت على صندوق  
حتر بطبية ( شكل ١١ ) وفيها رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها ويسترها ثوب طويل مثبت على  
الأكتاف بحمالات وفي رجليها نعلان ، وعلى رأسها عصاة وفوق رأسها إشارة هيروغليفية يشار بها إلى  
الشمس ذات الأشعة ، وعلى جانبي هذه للرأفة البروج الاثنا عشر ، منها ستة عن اليمين وهي السرطان  
والأسد والسنبلة والليزان والقرب والقوس ، وستة عن اليسار وهي الجدى والنلو والحوت والحمل والثور  
والجوزاء ، وأجل شيء يستحق الالتفات إليه الكواكب السيارة الخمسة البادية الذكر وهي بين النجوم  
المتنشرة عن يمين للرأفة (نوت) منها اثنان فوق برج الأسد وهما كوكب المشتري وكوكب زحل أشير إليهما  
بحرف (ف) كما أشير بحرف (ق) إلى كوكب المريخ للوضوح بجانب برج السنبلة ، وفوق هذا البرج اسمه

وهو (تر - سب تاحم) وبين للبرازن والمقرب عند حرف (ك) كوكب عطارد ويسمى (سيك) ونحت ذلك  
 نقوش صبة الحل مرسوم لها بحرف (ل) وهي تدل على برج للبرازن ، وبين المقرب والقوس في للسكان  
 الرموز له بحرف (م) كوكب الشعرى الجمانية (تر - دوا) والسكناة التي فوق المقرب صبة الحل أيضا وهي  
 اسم برج المقرب ، ويرى فوق القوس اسمه (بشت) وقد وضع فوقه حرف (ن) للدلالة عليه ، أما الصور  
 للرموز لها بحروف (ت ش ج ح خ د) فإنها تدل على كواكب عرفت مدة الفراعنة لأنها وجدت مرسومة  
 على بعض آثار الأسرة التاسعة عشرة والعشرين ، وقد عرف قدماء المصريين نجومًا غير ما ذكر كالمرسومة  
 بين ذراعي (نوت) وكالجزءاء للشار إليها بحرف (ا) والشعرى الجمانية والنجم المسمى (حسن - مون)  
 أو (رتز) أي النسرة الواقع والذب الأكبر للرسوم على هيئة نخد الثور يسمى (ضبس) والنجم (آن) والأحد  
 (س) والتمساح (ش) والصور الأربعة المشار إليها بحروف (ط ظ ع غ) رمز بها لللائسكة الأربعة المختصة  
 بحفظ أحشاء الأموات وهي (أمست) و (حي) و (دواموتف) و (قبس سنوف) وقد جعلت هنا رموز النجوم  
 أما الأربعة والعشرون صورة التي عن يمين ويسار المرأة الدالة على السماء فهي رموز للأربع وعشرين ساعة  
 فساعات النهار جعلت على هيئة نساء فوق رؤوسهن قرص الشمس إشارة إلى النهار، وساعات الليل رحمت  
 أيضا كنساء فوق رؤوسهن نجمة إشارة إلى الليل ويجانب ساعات النهار كتابة معناها [السلام عليك  
 أيها اللطيف حتر بن للرحومة بحر الخ ] .

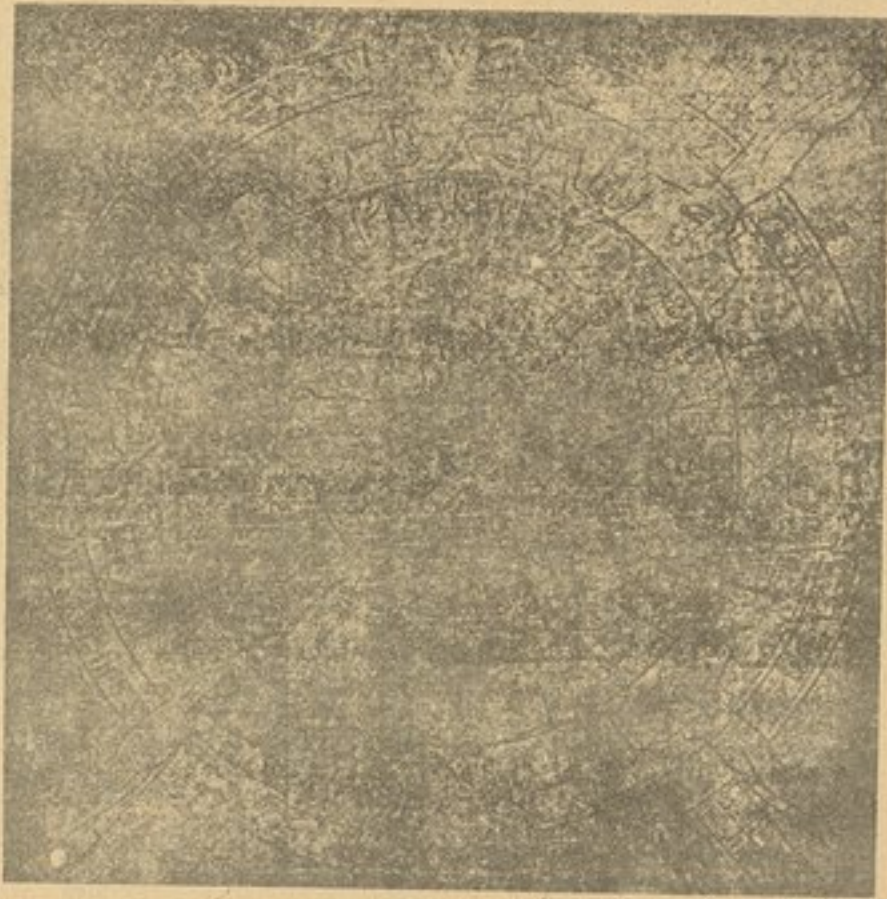


( شكل ١١ )

فالساعة الأولى هي ساعة الفجر والأخيرة هي ساعة المساء ، وقد رمز للنقط الأربع الأصلية في أركان شكل (١١) أيضا بحيوانات ، فللجهة البحرية سبع له أربعة أجنحة ورأس كبش فوقه قرنان وبينهما قرص الشمس تملوه ريشتان وبجانبيه ثعبانان وأشاروا للجهة الشرقية بسبع له أربعة رؤوس كباش ، وللجهة الغربية يباشق له أجنحة ورأس كبش عليه ريشة وقرنان فوقهما ثعبانان ، وللجهة الغربية بسبع له أربعة أجنحة وأربع رؤوس كباش ، ويشاهد في الرسم الذي فوق رأس المرأة (نوت) الدالة على السماء مركب الشمس وفيها صورة للتوفى (حتر) انتهى الكلام على الشكل الحادي عشر .

## الكلام على الشكل الثاني عشر

هو الذي وجد في هيكل (دندره) وهو رسم لمنطقة فلك البروج صنع في عصر القياصرة الأول وهو وإن كان متأخرا لا يخلو من الفائدة ، وإليك رسمه :



(شكل ١٢)

هذه الدائرة وجدت في هيكل (دندره) الذي بنى في القرن الأول وهدم في آخر أيام البطالسة وتم بناؤه في عهد القيصر أغسطس وذلك فوق معبد قديم من الطبقة الأولى اهتمت به ملوك الأسرة الثانية عشرة وأعظم ملوك الطبقة الوسطى مثل (نخونس الثالث) و (رمسيس الثاني والثالث) وكانت للمنطقة مرسومة في سقف الرواق الثاني من جهة الجنوب وقد أخذها القرنسيون بأمر المرحوم محمد علي باشا سنة ١٨٢١ وحملوها إلى مدينة باريس ، فترى في هذه المنطقة (١) أربعة من صور النساء واقفات جعلت للدلالة على الشرق والغرب والجنوب والشمال وهي تحمل السماء ويساعدن في ذلك ثمانية من صور (حورين) جاثبات رؤوسها على شكل الباشق وجسمها كجسم الإنسان ، وهذه المنطقة المحمولة على أيدي هذه الصور الاثني عشر تنقسم إلى (٣٦) قسما وكل قسم إلى عشرة أقسام فيكون مجموع الأقسام (٣٦٠) قسما والقسم يوم ، وكانت هذه الصور الاثنا عشر التي رمز إلى اللائكة رأس منطقة فلك البروج القديمة المصرية في أقسامها كافة ، ثم لما جاء اليونان بمصر ونشروا منطقتهم الفلكية جعلوا كل ثلاثة من هذه الصور لقسم من الدائرة وبهذه التجزئة بقيت المنطقة معتمدة لأن لدى علماء الفلك ، ويشاهد في نفس المنطقة وفي أقسامها بعض نجوم رصدتها المصريون قديما كالدائرة للشملة على ثمانية من اللذنين القنولي الأبدى الجائين على الركب وعلى

الثمان الكبير للتوج بالتاج (انف) وتبتدى المنطقة في أعلى هؤلاء اللذين يبرج الأسد ثم بواسطة البرج الأخير وهو السرطان تدخل في الدائرة للوضوعة فوق الأسد بحيث يتكون من الجميع شكل حلزوني ، ويرى في داخل الدائرة أن الكواكب قد رسمت كل خمسة معا في هيئة رجال تسير الهولينا .

قال (شامبليون فيجاك) من تأمل هذه الدائرة وجدها مبتدئة في وسطها يبرج الأسد للرسم كالسبع السائر فوق ثعبان ومن خلفه امرأة ، ثم يبرج السنبلة وهي امرأة في يدها اليسرى سنبلة قمح ثم يلي ذلك من اليمين إلى اليسار برج الليزان بكتفه ثم برج العقرب ثم القوس نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور وله أجنحة ثم يليه الجدى نصفه ماعزى ونصفه الآخر سمكي ومن يده الدلو وهو كرجل يصب الماء من إناء بين يديه ثم الحوت وهو أملك مجتمعة في مثلث مخصصة بإشارة الماء ثم الحمل وهو أول البروج اليوم عند علماء الفلك وبعده الثور وكلاهما مرسوم فوق صورة إنسان سائر وبينهما الجوزاء ثم السرطان .

هذه هي البروج الاثنا عشر للرسم داخل المنطقة ولأجل الوصول إلى معرفة ترتيبها والوقوف على أول بروجها نكتفي بالتأمل إلى السرطان إذ هو الموضوع مباشرة فوق رأس الأسد ، ويليها فالاثنا عشر برجا موضوعة على شكل حلزوني وتعرف الشكل بسهولة لأن مبدأها الأسد كما تقدم ، أما غيره من البروج فيتمه مرتبة حسب ترتيبه الوارد في المنطقة ، وأما باقي الصور المنتشرة في دائرة للمنطقة فهي نجوم أشهرها الشعرى اليمانية وهي للرسم كالبقرة فتراها نائمة في سفينة وعلى رأسها نجمة وفي جيدها هذه العلامة (♄) الدالة على الحياة وهذا النجم يعرف عندهم باسم (أسيس) ويتبع هذا الفصل [جوهرتان] الجوهرة الأولى في عجائب هذه الصور الفلكية المصرية ، الجوهرة الثانية في فوائد ذلك للسلمين

#### الجوهرة الأولى

انظر أيها القدي في هتين الصورتين ، لقد تبين فيهما ما في علم الفلك من ثوابت وسيارات وما عرف الناس من البروج الاثني عشر . وانظر كيف تجلى ذلك في الصورة الأولى التي وجدت في قبر حتر مرسومة على صندوقه بهيئة صفيين عن يمين وشمال وفي صورة معبد (دندره) بهيئة شكل حلزوني عجيب ، وكيف أمكن القوم أن يبينوا في صورة على مقدار راحة اليدين الجهات الأربعة وأيام السنة وفصولها وشهورها وبروجها وقد رسموا ذلك بصور آية في الحكمة وآية في الصنعة وغرائب الإبداع ، ههنا تجلى معنى القرآن ، ههنا تجلت بدائع الفرقان .

ذكر الله في أول السورة الشمس والقمر ونورها وحسابهما وذم للمرضين عن ذلك ، وههنا أبان أن للإنسان صنعا في ذلك وذم للمرضين عنه ، إذن الله يذم المرضين عن صنعه والمرضين عن صنع عباده .

ألا ترى رعاك الله أن صنعه قد تجلى في الصور للرسم في أول السورة مثل صور أوجه القمر وصور سديم المرأة للسلسلة وسديم الأسد وصورة المبرة .

هذه هي الصور التي لم تمسها يد البشر وإنما وضعت في السماء بيد خالقها ورسمت على قرابطينا بضوء صنعه ، ثم إنك ترى هنا صوراً أخرى رسمت بيد العباد من آلاف السنين لتجمع أشتات الصور السماوية وتبين للناس مناظر السماء وبروجها موضوعة بأشكالها حتى تكون أسهل مأخذاً وأوضح تصوراً وأقرب فهما ، جل الله وجلت الحكمة ، ههنا [رسمان] للصور السماوية ، رسم في أول السورة بيد الله ، ورسم هنا بيد العلماء ، ذم الله المرضين عن الصورتين ولم يفرق في القدم بين من أعرض عن الآخرة ومن أعرض عن الأولى ، بل إن صور قدماء المصريين الصناعية أقرب إلى الفهم لأنها صور معدة للدراسة وأقرب إلى الأذهان ، إلا إنها هي أشبه بكتلة المخ الإنساني ترسم عليه صور شتى فيحفظها .

هكذا الصور الفلكية قدماء المصريين جمعت شتات علم الفلك فصارت كمرآة للنجم وهي صغيرة تزيه كل عامرة وقصر ، انتهى الكلام على الجوهرة الأولى .

### الجوهرة الثانية في فوائد ذلك للمسلمين

رب مطلع على هذا يقول : كيف ساغ لك أن تحرض على قراءة علوم القدماء وهم قوم عباد أوثان ؟ أليس القرآن ينينا . أقول : هذه شبهة قد نشرها إبليس بين المسلمين ليعدمهم عن ربهم ويذلهم لخلقهم ، لم يقل أحد من علمائنا إن هؤلاء قوم محكوم عليهم بجهنم بل أجمعوا أن أهل الفترة ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان .

فالأهم التي لم تبلغها دعوة نبي نحاسبه على مقتضى عقائدها وليس محكوما عليها بالملاك ، فهذه شبهة ضالة خاطئة ، وأيضا هب أنهم ضالون فهل ضلال قوم يمنعنا عن أخذ ما لديهم من النافع .

الاهم إن كل قوم يحرمون ذلك فهم قوم ضالون ، وكيف يحرم الناس ذلك وقد قال الله « أفلم يسروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » يقول « لهم قلوب يعقلون بها » ولم يبين أية معقول يعقلون ، أعلى يد كافر هو أم على يد مسلم ؟ وإذا كان ابن آدم يقول في سورة المائدة كما مر هناك « يا ويلتي أبعثت أن أكون مثل هذا التراب فأواري سواة أخى » أى أن الإنسان يتلقى العلم عن التراب ويأخذ الحكمة عنه إذا وجد نفسه مقصرا عنه في فضيلة أو عمل ما ، فإذا رأى التراب يدفن أخاه يكون من التقص أن لا يدفن أخاه ؛ فكما تحسر ابن آدم على نفسه بالنسبة للتراب ، فهكذا يتحسر المسلم على كل ما يمكنه علمه مشتق من علم الطيور وبالأولى ما كان من علم الإنسان ، وللتحسر على نفسه عن التراب يكون أكثر تحسرا على نفسه عن الإنسان التي هو أقرب إليه وهو من جنسه .

وهذا هو القصد في هذه الجوهرة ، حتى أننا نكون في حيرة وتقص شديدتين إذا سبقتنا أوروبا التي هي في زماننا .

وإذا سبقتنا قدماء المصريين ولم نعلم ما علموا ، فمن تحسر على معرفة التراب في دفن أخيه التراب فما أحرأه أن يتحسر على علوم مكتوبة له مرسومة على ألواح مرصودة في القابر مهيئة له ثم هو يولى مرضا عنها فحق عليه قول الله « باحسرة على العباد الخ » .

### حكاية النملة وسيدنا سليمان عليه السلام

وباليت شعري إذا كان نبي الله سليمان عليه السلام يقول « يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين » ثم أخذ يذكر قصة النملة التي سمها في وادي النمل تقول « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » مع النملة سليمان ، فماذا فعل ؟

- (١) تبسم ضاحكا من قولها .
- (٢) « وقال رب أوزعني » أى ألهمني « أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي » .
- (٣) « وأن أعمل صالحا ترضاه » .
- (٤) « وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .

تبسم سليمان فرحا بأنه عرف ما تقوله النملة واعترف بنعمة الله عليه وعلى والديه وطلب من الله أن يجعل صالحا الخ ، فيقول سليمان إنه علم منطق الطير وأوتي من كل شيء ، ويقول إن هذا فضل مبين ، فإذا كان منطق الطير مع ما عطف عليه فضلا مبينا ، فما بالك بمنطق الحكماء والعلماء من نوع الإنسان .

إن الإنسان إذا عرف ما نطق به الحكماء وما دوتوه في الألواح والكتب والطوامير يكون أولى بالشكر والإقرار لله بالفضل .

إن العلم للودع في الإنسان أعلى من العلم للودع في الحيوان ، فإعلان النبي سليمان شكره لله على علمه بمنطق الطير حتى لدوى النقول أن يعرفوا نعم الله فيما نالوه من حكمة الحكماء وعلم العلماء .  
اللهم لم يبق بعد هذا البيان عذر لأمة الإسلام بعدنا ، اللهم قد أسنت بفضلك لهم ما يجب عليهم من العلوم ونقل الحكمة ، إن للسليين بعدنا هم الذين يعرفون ما قرأته جميع الأمم وما ظهر من عجائب هذه الدنيا .

مرت على للسليين قرون وقرون وهم نائمون بعد العصر الأول ، أنامهم شيوخهم للفرورون قتل أولو الألباب وذلت الأعقاب وهذا أوان استيقاظهم ، فليكونوا فيما مضى أشبه بحيوان عاش في بيضة فصار دودة ثم فيلجة كدودة القز ، وها هو ذا قد جاء أوان استيقاظهم وبناء مجدهم فيكونون أشبه بذلك الحيوان وقد حل وثاقه وصار في حرية يتمتع بالنسج والشجر وأعمال الأزهار اه .  
فهذا هو قوله تعالى « فاليوم نتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لنافلون » انتهى .

ذكرى أيام الشباب وشكر الله تعالى على نعمة العلم والرفان

قد ذكرت في سورة الأنعام أن عويل نساء قريتنا على عظيم من عظمتها كان ذلك يورثني حزنا على جهلى ، وأوضح الآن أكثر إيضاحا فأقول :

لقد كانت هذه حالي أيام الشباب ، فكنت إذا سمعت الناديات يندبن بهيئة منظمة موسيقية تحدث في قلبي رقة وآلاما على جهلى بجم الفلك ، لأنى كنت أنظر إذ ذاك إلى النجوم في الليالى للظلمة وهي تلمع خلال النخيل المحيط بالقرية ، فكان يحيل لى أن أصواتهن ترضع في طبقات الجوى صاعدة وأنا أسعد الأنفاس حزنا على جهلى بجم هذه النجوم ، وتارة كانت تحدث هذه حزنا فى نفسى على الآثار التي خلفها الأولون وأنحسروا حزنا على ما أودع فيها من محائب ، ولست أدري سبب اقتران بكاء النساء بهذا ولا بذلك ، ولكن هذه كانت حالى ، وقد كنت أيام الصبا قبل للراهقة أبيت فى الحقل مع أقاربي فأسمع طنين التاموس فى الحقول فأحس فى نفسى بحزن عميق على جهلى بهذه الدنيا وهذا الوجود وكأن ذلك الطنين أرسل إلى لى ذكرى بالجهل الطويل الممتد كامتداد هذه الدنيا فلا أدري أوائلها وأواخرها ، هذه كانت حالى أيام الصبا وحالى أيام الشباب .

أفلا يحق لى الآن ، بل أفلا يجب على أن أشكر الله وأعلن فضله على إذ جمعت من محائب وغرائب النجوم والأفلاك صورا جميلة وبدت بهيئة ظريفة قد زينت للناظرين ، وبعض هذه الصور إلمية وبعضها بأيد بشرية مدفونة تحت أطباق الترى كما كنت أجد فى نفسى أن فى السماء عبرا ، وفى الأرض وآثارها للدفونة خيرا .

اللهم إنى قد علمت من ذلك على قدر الطاعة البشرية وأدركت بعض نظام هذه الدنيا ، فأنا اليوم أحمدك وأشكرك على فضلك العظيم ومنتك الكبرى إذ أرفنى من محائب كواكبك ومن غرائب خزائن الآثار التي رسمها القديما ، وقد انقلب حزنى فى الشباب على الجهل سرورا فى للشيب على العلم والحكمة والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

الفصل الثانى فىما يجوز من الصور وما يمتنع

ولما أردت أن أصنع صورة البروج للستخرجة من قدماء للصريين للذكورة حضر صديق لى من قراء



هذا التفسير وهو من أهل العلم الصالحين المطلعين ومن قرأه وهو الشيخ محمد السيد دياب ، فقال : كيف تضع صوراً في التفسير والتصوير حرام ؟ قلت إن الصور على نوعين : نوع ورد ذكره في الأحاديث وكلام العلماء ، ونوع لم يرد . أما الذي ورد ذكره في الأحاديث وكلام العلماء فهو قهراً : التصوير الذي له ظل والذي لا ظل له ، والأول منها محرم بالسنة وقد شرط له العلماء أن يكون على هيئة يعيش بها الخ ، والقسم الثاني مباح لما روى عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تدخل اللامسة بيتاً فيه صورة » قال بسر فرض زيد بن خالد فمدناه فإذا نحن في بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبد الله الحولاني : ألم يحدثنا في التصاوير ؟ فقال إنه قال « إلا رقماً في ثوب ، ألامسته قال لا ؟ قال بلى ! فذكره » وروى الترمذي بسنده « أنه دخل على أبي طلحة الأنصاري يورده فوجد عندده سهل بن حنيف ، فقال : قدما أبو طلحة إنساناً يزعم عطا عنه ، فقال سهل لم تنزعه ؟ قال لأن فيه تصاوير وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما علمتم قال : أولم يقل إلا ما كان رقماً في ثوب ، فقال بلى ! ولكنه أطيب لنفسى » وقال الترمذي حسن صحيح . وروى « أن عائشة رضي الله عنها كان لها قرام ( ستر ) سترت به جانب بيتها فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم أميطي عن فإنه لا تزال تصاويره تعرض في صلاتي » اهـ .

وجاء في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي والترمذي عن أبي هريرة « أن جبريل أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمر بالستر الذي فيه تماثيل فيجعل منه وسادتان توطآن » فهذا يدل على أن تلك الصور ترجع إلى القصور منها وهي مباحة .

أما النوع الذي لم يرد ذكره في الأحاديث ولا كلام العلماء فهو التصوير الشمسي وما هو إلا صور رسمها الله بشمسه فأحتال الناس على سكنونها فكنت كما يرى الإنسان صورته في المرآة ، فهل يباح لنا أن نراها فيها ولا يباح بقاؤها ؟ إنها من نوع الظلال الشمسية ومن حرم الظلال الشمسية تحت جبل أو حائط أو جبل فقد اغلغ من عقله ودينه معاً .

فالصورة الشمسية لم ترسم بأيدينا والنظر إليها كالنظر إلى الظلال المروقة ، على أن هذه كالمعجزات القرآنية في هذا الزمان ، يقول الله سبحانه « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً » فها هو ذا - يكونه المروزة في الآية ، فقال الشيخ محمد السيد إذن هذا مباح : قلت بل هو واجب ، فقال ابن الدليل ؟ قلت هو هنا للتعليم والتعظيم وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، كما يقول الشافعي رضي الله عنه في غسل الرفق مع غسل التبراع ، قال وهل هذه هي تماثيل إسلامية ؟ قلت بل هي لب الإسلام وقلبه ، إنها صور البروج والبروج تشمل النازل للذكورة في هذه السورة في قوله تعالى « وقدره منازل » فكيف يعرف الناس للنازل إلا برسمها ؟ فعلى تفسير القرآن وهي توحيد لله تعالى وهي شكر له .

إن التوحيد هو العلم بما هو في هذا الوجود ، وهذا الوجود لا يعرف إلا بأمثال ما ذكرناه وهو من ملكوت السموات والأرض الذي أراه الله إبراهيم الخليل ، فقال تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من اللوطين » فهذا يكون الإيقان الذي هو أرقى من الإيمان ، ومعلوم أن الشكر علم وعمل وهذا لب العلم وهو الذي حض النبي صلى الله عليه وسلم على تعلمه فقال « نحن أحق بالشك من إبراهيم » ومعنى هذا أن علينا أن نبحت ونجد حق نوقن ، ولا معنى للبحث والجد إلا في علوم هذه الكائنات التي يكون بها اليقين تشبهاً بالخليل عليه السلام الذي نظر فيها وأيقن وإن كنا لانصل إلى مقامه ، فقال ذلك الصالح : ولم خصصت الرسم بما نقل عن قدماء الصريين ؟ قلت :

[ أو لا ] إن هذه أرقى وأكمل من غيرها في التعليم .

[ثانياً] إن الله سبحانه ذكر للنازل في هذه السورة ثم جاء في نفس السورة فذكر فرعون وهو من قدماء المصريين وقد جعل بقاء جسمه آية ، فتجنزى للناس بعض هذه الآية التي وجدت في مقابرهم لتخلص من الغفلة عن الآيات في قوله « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » فها هنا استبان أن الغفلة عن آيات الله [ومنها الآيات التي خباها الله في قبور الفراعنة] مذمومة منهي عنها . وهذه الأسرار لم تظهر إلا في هذا الزمان فوجب علينا أن نظهر للناس أن القرآن قد أشار إلى علوم قدماء المصريين ، وهذا منها لاسيما أنه هو المذكور في نفس السورة وهي صور البروج والنازل .

فهذه العلوم من جهة فرض عين على كل قادر على الازدياد من التوحيد ومن الشكر ، وفرض كفاية بحيث يكون في الأمة من يعرفونه مثل جميع العلوم والصناعات .

#### ملخص ما تقدم

إن هذه الصور وضعت فيما هو فرض عين على كل قادر من وجهين : وجه التوحيد ، ووجه الشكر ، وفرض كفاية على الأمة بحيث تخصص له جماعة يقومون به من وجهين أيضا : وجه أنه علم الفلك ، ووجه أنه علم قدماء المصريين فيكون نوابه هنا مضاعفا ، والثاني به قائم بفرضين معا لسلامة الأمة ، ثم قلت له أيها الفاضل لتفرض أن أحاديث الجواز وإباحة الصور لم ترد وأن حديث أبي طلحة وهو قوله صلى الله عليه وسلم « لا تدخل لللائكة بيتا فيه صورة » لم يذكر فيه ما بعده وهو إباحة التصوير إذا كان رقما في نوب . وبالإجمال لتفرض أنه لم يرد شيء من الحل ولم يرد إلا الله ، فهل تمنع رسم الصور ؟ قال نعم ! قلت له قد ورد في رواية من نفس هذا الحديث « لا تدخل لللائكة بيتا فيه كلب أو صورة » قال أذكر ذلك ، قلت إذن سوي الحديث بين الكلب والصورة ! قال نعم ! قلت فهل هناك نهى عن كلب الصيد أو حراسة القنم ؟ قال لا قلت لماذا ؟ قال لأن كلب الحراسة ينفعنا لحفظ غنمنا ، قلت ثم ماذا ؟ قال وأيضا كلب الصيد يفيدنا في حياتنا نأكل مما يصطاد لنا ، قلت إن الصور في عصرنا الحاضر أنفع لنا من كلب الصيد وكلب الحراسة إنها تحرسنا وتفيدنا ، قال هذا لا أعقله ، قلت أنت تعقله ولكنك تريد أن تعلم الناس ، قال حقا ، قلت له اعلم أن الناس اليوم في أوروبا وأمريكا واليابان وبلاد الترك قد عرفوا من العلم ما يجعله كثير من الناس ، ذلك أن الحيوانات على قسمين : قسم تراه ، وقسم لا تراه ، والذي تراه بالنسبة لما لا تراه قليل جدا .

إن جميع ما على الأرض من الأعمام والبهائم والحشرات والطيور لا تساوي في تعدادها ما في جسم رجل أسابه طاعون أو حمى أو مرض الجدري أو الحصبة أو حمى التيفوس أو حمى التيفود ، فهؤلاء جميعا لا يمرضون ولا يموتون إلا بحيوانات دقيقة تحدث ذلك .

وقد احتال علماء هذه الأمم فصوّروا تلك الحيوانات وعرضوها على الناس وهي مكبرة ألف مرة وعشرة آلاف ومائة ألف ، فظهرت خراطيمها مع أجسامها فترفها الناس فاحترسوا منها بأن أتوا بما يضادها فأهلكوها فأنجوا كثيرا من الناس بذلك ، ولولا ما فعلوه ما بلغ قطرنا المصري اليوم (١٤) مليوناً بعد أن كان (٣) ملايين أيام للرحوم محمد على باشا تقريبا وهكذا جميع الأمم .

وأبضا هذه الحيوانات وغيرها لما رسمت في الكتب وظهرت صورها عرف الناس جمال ربهم وحكمت وإتقانه وإبداعه فآمنوا به .

ألا ترى إلى ما ذكرته لك في سورة الأعراف عند قوله تعالى « ورحمتي وسعت كل شيء » فقد قلت لك هاك إن علماء القرن العشرين من الماصرين لنا في أوروبا أدهشهم نظام ربهم في حيوانه ، فقالوا إن علماء

القرن التاسع عشر آراؤهم في العالم كآراء المعبأز وهو أقرب إلى الخرافة ، إذ يظنون أن هذا العالم جاء بالصادفة والانتخاب الطبيعي الخ .

فإذا كان هذا شأن الصور الحيوانية الكبيرة إذا فرضنا أنها مرسومة بأيدينا ، أفلا تساوى تلك الصور كلاب الصيد و كلاب الحراسة ؟

وإذا جاز لنا أن نحرس غنمنا بكلبنا ونصطاد التزاله به ، والصيد واقتناء الغنم مباحان : وقد خرجنا بذلك عن كراهة اقتناء الكلب ، أفلا نخرج عن كراهة الصور أو تحريمها إذا كانت مرسومة في الورق ! قال أما هذا القول فهو حسن ، قلت ماذا تريد بحسنه ؟ قال إنه يثبت الجواز إن لم يرد في الحديث جوازه مع أن الأحاديث نطقت بجوازه ، قلت ليس هذا جوازا وإنما هو وجوب ، وكيف لا يكون وجوبا ونحن لو تركنا معرفة هذه الحيوانات وحرمتنا رسمها على أطبائنا لجهلوا أمراضنا ولقتكت بنا تلك المخلوقات ، أفلا يكون ترك ذلك حراما ؟ قال بلى ! قلت إذن حراسة الإنسان والحيوان من الطاعون وللموت أفضل آلاف اللرات من حراسة غنات في البادية لأعرابي ، قال نعم ! قلت إذن رسم الصور وتكبيرها يكون واجبا لأمرين : معرفة الله وشكره ، وحفظ الأمم الإسلامية من الهلاك ، فقال يا للمجب ! إن هذا القول جميل ، وإن من البيان لسحرا ، وأود أن ينشر هذا القول بين المسلمين لأن هذه الأمة قد رسخت فيها هذه العقيدة وأكثر الناس لا يفرقون بين صورة وصورة ، ولا بين حالة وحالة ، بل الناس غافلون ناعمون يسمعون تحريم الصور فيأخذونها على علاتها ، والعامية يتبعون صفار العلماء و صفار العلماء أعينهم في غطاء عن ذكر الله ومن الغطاء عن ذكر الله أن تحفى صور الحيوانات العجيبة فلا يفتنون لها .

فالمسلمون اليوم وقعوا في برائن أسدين مفترسين : أسد جاء من الخارج وهى الأمم الراقية بذلوتهم ويفترسونهم للجهل العظيم عليهم ، وأسد من الداخل وهم صفار الفقهاء في الدين الذين تصدروا للفتيا واتبعهم الناس وأعينهم في غطاء عن ذكر ربهم فضاعت الأمة فريسة للأسدين : أسد الأعداء الخارجيين ، وأسد الأعداء الداخلين بجهلهم وهم الأعداء حقيقة . وفى اللؤلؤ [عدو عاقل خير من صديق جاهل] فهؤلاء أسدقاء جاهلون يحفظون كلات ولا يفقهون معناها ، فإن الله وأنا إليه راجعون . وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى [ إن من ينصر الدين بطريق الجهل أضرم عليه من أعدائه . وناصرو الإسلام أكثرهم جاهلون ] قلت له لا تأسف وتعلم أن الله أذن للمسلمين اليوم بالارتقاء ، وهذا التفسير من مقدمات تلك النهضة ، فلا يكن في صدرك حرج مما ابتلى به المسلمون من الجهل والله على كل شيء وكيل ، فقال أنا كما قدمت موقن بهذا الموضوع ولكن بهذا البيان أفرح ليطلع عليه المسلمون ، وإنى قد اطلمت في تفسير القامحة الذى نشر حديثا فى كتاب خاص أنك ستكتب فى النحل وفى العنكبوت وغيرها عجائب لا تحصى ، فأنا أود كما يود أهل العلم جميعا أن ترسم تلك الحيوانات بالتصوير الشمسى لئى بأعيننا تلك الحيوانات مكبرة ، فنرى أرجل النحلة والنحلة الست ونرى أرجل العنكبوت الثمان وهكذا ، وإذا كانت محاورتى معك قصدت منها أن يطلع للمسلمون فى بلاد الإسلام وأنا قبل ذلك مقتنع بحديث مسلم وغيره ، فإنى أود أن أقابل أكابر علماء الحنفية والشافعية والمالكية وآتى بأرائهم لوضع هنا حتى يكون رسم الصور إجماعيا بمن يمتد بهم ، فلما أطلعت على ما كتبه جماعة من هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر من اللذاهب كلها رأيت أنهم اتفقت آراؤهم واختلفت عباراتهم ورجعوا جميعا فى المعنى إلى أمر واحد وهو جواز التصوير الشمسى كالتصوير فى هذا التفسير ، وهذا نص ما قاله شيخى وأستاذى بالجامع الأزهر شيخ السادة الشافعية ومن هيئة كبار العلماء بنصه قال : [ التصوير المحرم إنشاء صورة تشبه صورة الحيوان بخلاف حبس صورة حيوان بنحو زجاج فليس بتصوير

وحيث لا حرمة بل هو مثل حبس الصورة بالمرآة وهذا الحبس ليس بحرام [ ونحنا نحوه صديقنا الشيخ يوسف الدجوي من كبار علماء المالكية وهكذا غيره .

فلما قرأت ما ذكر قلت له الجواز لا يعني بل هنا يكون الوجوب ، لأن العلم لا يظهر حقائقه في هذا الزمان الذي انتعت فيه دوائره إلا برسم صور المخلوقات الحية وغير الحية كما تقدم .

وإذا سمعنا صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة «أميطي عنى فإنه لا تزال تصاوره تعرض في صلاتي» فإننا نفهم منه أنه لم يمنع من ظهوره أمامه في الصلاة إلا أنه شغله عنها ، إذن التصاور دخلت في الصلاة فأمر بالإماتتها .

إذن إذا كانت التصاور تعرفنا جمال الله وحكته في كتبنا التي ندرسها فإننا لا نخطئها ولا نبعدها لأنها مذكورة بالله وبجماله .

إن العلماء استنتجوا من وجودها عنده وأمره بالإماتة في تلك الحال أن الصور التي لا تظل لها مباحة فكيف بنا إذا رأينا صور الكتب التي ترشدنا إلى جمال ربنا ونظام حياتنا ، فهل هذه تخطئها ؟ كلا والله ! ثم كلا ! بل للفهوم من الحديث أننا نحبها وجوبا أو ندبا .

تذكرة

بعد أن كتبت هذا زارني أحد الفضلاء فاطلع عليه فقال : إن ما أبديته من الأدلة كاف في جواز بل وجوب الصور الشمسية لإظهارها الخفايا والدقائق التي يحيط الإنسان علما بما في هذه الحيوانات من العجائب ولكن هذا ليس ينتفع به جميع المسلمين وهذا التفسير عام لا يختص بأهل سنة ولا بشيعة ولا بامامية ولا يزيدية بل هو كتاب عام ، وفي هذه الطوائف من لا تقنعه البراهين العقلية ولا تكفيه الأدلة الحكيمة ، وإنما يقول على نصوص القرآن أو الحديث . وما عدا ذلك يضر برون به عرض الحائط ، فهل لك أن تذكر ما يناسب الصور الشمسية من الآيات القرآنية ولا تنف عند ما ذكرت من قوله تعالى « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا » وأن هذه الصور إنما هي من أشعة الشمس واحتال الناس عليها فأسكنوها فان مثل هذا لا يجتري به ذلك الفريق من المسلمين ، فقلت إن تصغير الكبير وتكبير الصغير قد جاءا ما في غزوة بدر ، ألم تر أن الله يقول « وإذ يريكوم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا » ويقول « إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراهم كثيرا لقشتم ولتنازعتم في الأمر » فهنا صغر الله الكبير كما رسمت صور الدباء في هذه السورة مصغرة ، وهكذا صور الهجرة وأنواع السديم فهذه قد رسمت لنا مصغرة لكي تكون أمانا ، أما هي فلا حصر لعظمتها فهناك صغر الله للمسلمين في أعين الكفار وصغر الكفار في أعين المسلمين عند اللقاء وصغرهم في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، كل ذلك ليقدما على الحرب ، وههنا صغرت صور المجرمات وأنواع السديم ليدفعنا هذا لدراستها ، فهناك التصغير لا يقع الحرب لينتشر الإسلام والعلم ، وهنا وضعت أمانا صور الكواكب والأرض وغيرها في العلوم جميعها كالجغرافيا والنبات والحيوان والفلك وعلم طبقات الأرض لتعلمها وتعملها ، فالتصغير هناك للحرب والحرب لنشر العلم وهو دين الإسلام ، والتصغير هنا لتجهد في البحث فتعلم فكلامها للعلم صغر جيش الكفار في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفي أعين الصحابة عند التقاء الجيشين لنشر العلم ، وهكذا هنا صغرت هذه المخلوقات بالتصوير الشمسي لنشر العلم ، فقال صاحبي هذا والله أعجب العجب ، إن هذه أمور لا تخبر بالبال واستنتاج غامض ولكنه حق ولكنه لا يزال ناقصا ، أنت الآن عرفتنا تصغير الكبير ولصغرك لم تأت بما يدل على تكبير الصغير ولا يكفينا قوله تعالى « ولو أراهم كثيرا لقشتم ولتنازعتم في الأمر » لأن « لو » تدل على الامتناع فهنا أطلب منك أمرين [ الأمر الأول ] ما للناسبة بين رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ورؤية الصحابة جمع الكثرة

من أعدائهم جمع قلة وبين التصوير الشمسي [ الأمر الثاني ] أين تكثير القليل ؟ فقلت له الرؤيا عبارة عن انطباع صور في الخيال الذي اصطلمحوا على أنه في مقدم الدماغ ، فإذا رأى الإنسان شيئا في المنام فعناه أنه انطبع في مخيلته لأقل ولا أكثر ، فالذي صلى الله عليه وسلم لما رأى الأعداء قليلا انطبعوا في الخيلة قليلا وهكذا لما رأى الصحابة رضوا الله عنهم أعداءهم طبعوا في الخيلة عند كل واحد منهم قليلا بعرض سبوي لانهه وحصل لهم في اليقظة ما حصل لابي صلى الله عليه وسلم في المنام وهذا أمر سهل والصورة الشمسية ما هي إلا ما طبع على جرم من الأجرام بأشعة الشمس وهذا الطابوع يتمثل بنظر العين إلى الحس المشترك والحس المشترك يوصله إلى الخيال ، فرجع الأمران إلى التصوير الشمسي ورؤية الصحابة ورؤيا النبي صلى الله عليه وسلم إلى النتيجة وهي وجود صور في الخيلة لأقل ولا أكثر وبهذه الصور تكون نتائج على مقتضاها فيكون الإقدام على الحرب هناك والإقدام على التفكير والعلم هنا ، أما [ الأمر الثاني ] وهو تكثير القليل فهو المذكور في غزوة بدر أيضا ، ألم يقل الله تعالى في سورة آل عمران « لقد كان لكم آية في فتنين النخلافنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة برونهم مثلهم رأى الدين والله يؤيد بنصره من يشاء » فانظر كيف أبدعهم بالصر إذ جعلهم في أعين العدو ضعفي عدده ، وعدد العدو كان نحو ألف ، إذن يكون جيش الصحابة صار مقدار نفسه نحو ست مرات ومقدار جيش العدو مرتين لأن جيش الصحابة نحو ثلاث جيش الأعداء ، فهنا لما التقى الجيشان وكان كل منهما يرى الآخر صغيرا صار أصغرهما أكبر من أكبرهما لما أراد الله نصر ذلك الأمر فأراهم للآخرين ضعفي عددهم ، فهذه الإراءة قد جعلها الله لنصرهم على عدوهم ، هكذا هنا إذا نحن كبرنا صور الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والعنكبوت والحيوانات الدرية التي تكون سدا في الحمي والجدرى وأمثالها بنال علما ، وذلك أننا يزيد باقنا علما فزوحده ونشكره وبطباع الحيوان فهما فتعاشاه وتركه وتكثر جموعنا وتقل أمراضنا ، ثم قلت إذن التكثير والتقليل قد جاء في القرآن والله عز وجل أنزل ذلك في القرآن ليعلم للسليين أنهم سادات هذا العالم ، فليصغروا الكبير لهذه الرسوم الكوكبية والجغرافية وغيرها حتى يستطيعوا دراستها ، وليكبروا الصغير حتى يتمكنوا من فهمه وتمقله ، فلما سمع ذلك صاحي قال الآن عرفت أن هذا القرآن لا يزال بكرا وأن آياته لم تزل محجوبة عن الناس ، ها نحن أولاء نقرأ هذه الدور صباحا ومساء ونكرر تقليل الكبير وتكثير القليل والناس حولنا قد اتهلوا من ينابيع العلم وكرعوا من أنهر الحكمة والسليون هم الساهون اللاهون ، تصغر الأمم الصور الساهوية والناطق الأرضية وتكبر الحيوانات الصغيرة وذرات طلع الأزهار في الأشجار وتعرف مستغر كل شيء ومستودعا ، والسليون لا يجتنبون بما في القرآن ، ولا يفكرون أن الصور التي رسمها الناس كلها ترجع لهذين : تصغير كبير لتقريبه ، وتكبير صغير لانه لا يمكن فهمه ، هذا هو أول العلم وهذا آخره والقرآن ذكر الأمرين معا في نفس القرآن لجعل التصغير للإقدام على الحرب والتكبير لفصل الخطاب وإيقاع الهزيمة ونصر من يشاء ، فقلت له إن في قوله تعالى « إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » إشارة إلى ما ذكره الآن ، فالعبرة في الآية ترجع إلى نصر جند الله مع قلتهم وخذلان الكفار مع كثرتهم ، وهذا الاعتبار قد سار شوطا بعيدا باجتهاد الأئمة كالتأسي إذ جعل القياس مأخوذا من هذا الاعتبار ، ونحن نقول ويقاس على تكبير الصغير هناك وتصغير الكبير ما ذكرناه هنا ويكون ذلك اعتبارا لأولي الأبصار ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله اه .

فقال صاحي أرجو أن تفصل فوائد السليين في تصغير الكبير وتكبير الصغير ، فقلت سيقوم للسليون قومة رجل واحد على علوم السموات وعلوم الأرض من القارات واللمادن والنبات والحيوان والإنسان ويرسمونها ليفهموها مصغرة ثم يرسمون أيضا الحيوانات الدرية الصغيرة فيكبرونها ، ويتفحصون بكل موجود صغيرا أو كبيرا لأنهم بهذا يتقنون على فهمه ، واعلم أن للسليين أقدموا على ذلك ولكن باعتبار أنه لا علاقة

له بالدين ، أما اليوم فانهم سيقدمون عليه باعتبار أنه من الدين ، وسترى في هذا التفسير إن شاء الله تعالى  
مجائب الحيوانات وغيرها مكبرة ، وترى رسوما مدهشة كما ترى في سورة النمل فهناك صور مساكنه مكبرة  
ومزارعه التي يزرعها ويحصدها ويخزنها ، وترى فيها طرقا زراعية جميلة يقرؤها أهل أوروبا لأبنائهم  
ويفرحون بحمل ربهم ، وللسلمون محرومون من جمال ربهم وقد آن أوان ارتقائهم « ولينصرن الله من  
ينصره إن الله لقوى عزيز » والحمد لله رب العالمين اه .

الفصل الثالث في الكلام على بناء الأهرام لأنه من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة  
ظهر جمال الله الأمام قديما وتجلي لم ينجومه الباهرة وأنواره الظاهرة ، يا الله أنت سابت العقول  
وسخرت النفوس وأخذت الأئمة وأدعت حيك في البرية ، وأتت نفوسا في أرضنا وهي محبوسة في هذا  
المهكل للصوب ، يا الله تزلت كواكبك الدرية في سمواتك العلية وقسمتها مناطق وبروجا وخالفت بين  
أماكنها وأقدارها وأبعادها وأشواتها وثلت في القرآن « وأشرق الأرض بنور ربها » .

يا الله أنت أبهجت العقول وأتت النفوس بنور هذه الكواكب تلك الرافعات في الدباحي الساحرات  
الطرف الناعسات العوانس ، إنك يا الله خلقت في هذه الأرض نفوسا أسكنتها في هذه الأجسام ثم شرحت  
صدورها لهذا الجمال وزينته عندها وصرفت أكثر الناس عنه وهم غافلون ، وهؤلاء الذين أدركوا هذا  
الجمال جعلتهم للناس قادة وحملت وجوههم وقلوبهم وأقوالهم وشرقتهم على عبادك وعلمتهم من لدنك علما  
وأكسبتهم حكمة وجعلتهم للعلم وارثين ، كما نظروا نجما يتلأأ أو قرأ يضيء ، أو شمسا تشرق رأوا في ذلك  
سناك وجمالك ، وأنت تقول في القرآن « وهو الله في السموات وفي الأرض » .

من هذه الأمم الأمة المصرية ، أولئك الذين بهرم جمالك وشغف قلوبهم بآهر نور نجومك فأولعوا بك  
مفرمين وهاموا في جمالك متيمين ، وأرسلت لهم نبيك إدريس الذي يسمونه (هرمس الهرماسة) وأيضا  
(هرمس الثلث) وأيضا (أخنوخ) وينطق به في هذه الأيام . وقد يقال له (سيزوستريس) .

هذه أسماء لسمى واحد عندهم ، ويسمى بهذا الاسم النجم المسمى (الشعري الجمانية) أو (كلب الجبار)  
وهذا الكوكب أيضا يسمى (توت) فلقرامهم بحمال النجوم الباهرات اختلط عليهم نور العلم الذي أفضته  
على رسولك إدريس بالنور الظاهري الذي أفضته على هذا الكوكب فأشركوها معا في هذا الاسم ؛ فكلاهما  
يسمى بالأسماء للتقدمة ماعدا لفظ (توت) فيظهر أنه خاص بالكوكب المذكور .

وقد نسبوا إلى من يسمى بهرمس المذكور أنه كان حاكما في الأرض ووضع بها كثيرا من العلوم وألف  
مئات من الكتب .

ثم إن الكوكب المذكور يظهر مدة الفيض ويختفي في آخر تلك اللمدة ، فسموه باسمه وقالوا شهر (توت)  
أي الشهر الذي يظهر فيه للعبود (توت) وهو خير السماء وملك الكواكب وبقى الشمس من الوقوع  
في الهاوية للهلكة وهو للوكل بكتابة أعمال الأموات يوم الحساب ويده لليزان وكانوا يصورونه قابضا على  
رقعة يكتب فيها موازين الناس .

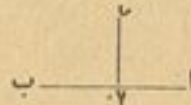
هذا ما كان عند قدماء المصريين في هذا الكوكب .

هذا الكوكب هو قبلة المصريين القدماء

فلما فنتم جمالك وآنسهم أنوار وجهك وأنجه حكماؤهم إلى مقامك الكريم ، بنوا مقابرهم بحيث تكون  
أنوار هذا الكوكب ساقطة عليها عمودية لامانة ليكون الشعاع أمكن منها وأكثر إشراقا عليها لتتوالى  
الرحمات على ما وصل إليهم في دينهم القديم .

ومن هذه المقابر الأهرامات الثلاثة الظاهرة بناحية الجزيرة التي تبعد عن النيل ثمانية كيلومترات وثلاثة أمتار وهي منسوبة إلى (خفو) و(خفرع) و(منقرع) ، وهؤلاء الملوك من الأسرة الرابعة بمدينة (منف) بالقرب من الجزيرة ، والمهرم الأول منها للأول من الأسماء وهو (١٧) فداناً والباقيان للأخيرين ، والحجارة التي بنى بها الأول تكفي سورا يحيط بأرض مصر ، ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران ، ويبتدىء من الإسكندرية إلى أسوان إلى البحر الأحمر ومن السويس إلى المريش .

وهذه الأهرام الثلاثة التي هي من عجائب الدنيا دعا إلى بنائها الاعتقاد الديني إذ ذاك ونحن ليس لنا في هذا مدخل لأن ديننا جاء بعد ذلك الدين ، فهم أم قبلنا لأنهم عليهم بل يحكم عليهم النبي المرسل لهم وهو سيدنا إدريس عليه السلام ، وقد قال الله فيه « ورفضاه مكانا عليا » وألم للصريين أن يجعلوا نور ذلك الكوكب الجليل ذا وضع عمودي على الهرم كما تقدم ، حينئذ سألت ذلك الصالح فقال لي : قل لي تترك الله بالعلم مامعنى كون الوضع عموديا ، قلت معناه أن هذا الكوكب الذي يطلع جهة الجنوب أيام الفيضان يسقط نوره على حائط الهرم متجهاً اتجاهها مستقيماً كقطرات المطر تنزل على الأرض فلا تنحرف يمنة ولا يسرة ، قال أوضح هذا للقال ، قلت إن أستاذي للرحوم أحمد أفندي نجيب مفتش وأمين عموم الآثار المصرية نقل في كتابه عن للرحوم محمود باشا الفلكي أن بناء الأهرام كان قبل الميلاد بنحو (٣٣٠٣) معتمداً في ذلك على أن قدماء المصريين لما بنوها جعلوا أشعة الكوكب النورية تقع عمودية عليها من جهة الجنوب لئلا يتبرك بها الأموات من داخل الهرم كما أننا نجعل روس أمواتنا متجهة دائماً نحو القبلة تبركاً بالكعبة المطهرة ، وقال وقد علم من رصد هذا الكوكب أنه ينحرف في كل سنة عن وجه الهرم بقدر ثانية وثلاثي ثانية ، وكان قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة يوازي في مسيره لمدار الشمس متى كانت في نهاية منطقة البروج أو للقلب الشتائي ، فقال صاحبي هذا قول لا يفهمه أكثر الناس ، فقلت سل : فقال مامعنى كون الضوء يميل ثانية وثلاثي ثانية ؟ فقلت انظر هذا الشكل :



فالخط (ج د) عمود على (ا ب) فالضوء كان يأتي أيام البناء مستقيماً كالخط (ج د) ، والقرع الذي بين (ج د) وبين الناحيتين من الخط (ا ب) يقال لها زاوية وهما زاويتان (ا ج د) و(د ج ب) فهاتان الزاويتان تصم كل منهما (٩٠) جزءاً كل منها يسمى درجة والدرجة (٦٠) دقيقة والدقيقة ستون ثانية الخ ، فهذا الضوء كان يسقط عمودياً ، يعني ليس مائلاً إلى إحدى الجهتين ، وكما مرت سنة مال ميلاً يسيراً جداً وهو ثانية وثلاثي ثانية ، والثانية تتكون من تعدادها الدقيقة والدقائق تتكون منها الدرجات ، قال فهمت الآن ، ولكن بقي أمر واحد وهو كيف يتبرك كون بهذا النور ؟ قلت هذه كانت عقيدة القوم سواء أكانت عن نفس النبي إدريس أم كانت من تغيير وضع الدين ، إنما الذي يظهر أن أصل هذا الدين كان شريفاً ذا جمال وكال لأنه جذب نفوس القوم إلى للعالي والحكمة والجمال الإلهي الذي يكون الأحق به أمة الإسلام ، فقال وأنى دخل لأمة الإسلام في هذا اللقاع ؟ قلت حياك الله قل لي : أليس إدريس رفعه الله مكاناً علياً ؟ قال بلى ! قلت أليس نبينا صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يتبع الأنبياء ويقتدى بهم ؟ قال بلى ! قلت هؤلاء القوم أغرموا بالكواكب وجمالها وحسبوا ، ويقولون « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها » ويقولون « فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسيم لو تعلمون عظيم » ويقولون « والنجم إذا هوى » ويقولون « رب الشرقي

والعرب « ويقول « رب المشرق والمغرب » وأخيرا يقول « ربّ الشعري » شوق السلم للنجوم وجمالها ونسب على أنه « هو ربّ الشعري » والشعري هي ( توت ) وتوت هذا معبود المصريين وقد دخل في أسماء ملوكهم قبيل ( توت عنخ أمون ) مثلا ، وهؤلاء الملوك الفرعون بهذا الكوكب جذبوا إلى مصر في زماننا أعظم العلماء والحكام من أوروبا وأمريكا وغيرها .

كل ذلك ليشاهدوا تلك العلوم وتلك المعارف التي ذمّ الله من أعرض عنها فقال « فاليوم نتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

الحمد لله النعم التفضل وقد أراني الله في زماننا سر القرآن قد ظهر للعيان ، وقد كشف الله بعض آيات العلوم التي تركها قدماء المصريين وأبرز الهرم ومجائب الهرم وما الهرم إلا مقبرة جعلت لتضم عظام بعض اللواتي من ملوك القدماء والناس يتقاطرون لينظروا آياته في ذلك مصداقا للقرآن .

### الكعبة وكوكب الشعري

فقال ذلك الصالح باعجبا ! إذا كانت الشعري وغيرها من الكواكب قد جذبت نفوس القوم وصرفت همهم إلى جمال العلوم ، فلماذا لم تكن لنا إحدى تلك الكواكب قبلة بدل الكعبة التي بناها الناس بأنفسهم مع أن الكواكب أجمل وأبهى ، فقلت اعلم أن الله عز وجل جعل أمة الإسلام آخر الأمم لتقتبس سائر علومها وقصص الأمم لذلك .

ولما كان القدماء الفرعون بالكواكب إذا طال عليهم الأمد قمت قلوبهم وجمدوا على ذلك الكوكب الذي هو قبلتهم وعبدوه وسوا ربّ الكوكب ، صرف المسلمين عن ذلك وجعل لهم الكعبة قبلة وفتح عقولهم لسائر العلوم وحرصهم على النظر في كل جميل من كوكب وجبل وشجر وخصب الشعري بالذكر ، فقال « وأنه هو ربّ الشعري » فالشعري التي عبدها قدماء المصريين وبعض العرب كما سيأتي في سورة النجم ليست لها بل هي من آيات الله تعالى وهو ربها كما هو ربكم .

فالمسلم يستقبل الكعبة ويحج الله بالنظر في عجائب الشعري وغير الشعري وسيرت علوم الأمم ويقرأ ما قرأه قدماء المصريين من عجائب هذا الكوكب وغيره ، ولما كان النظر في العالم العلوي أعلى ما يطلبه الدين . قال الله في إدريس « ورفعناه مكانا عليا » فليكن هذا العلوي لإدريس نورا للمسلمين الذين لا يعتقدون ألوهية في الشعري ولا في غيرها ولا يفتنون بكوكب ولا بغيره . بل يؤمنون الكعبة التي لا يتخيل فيها ألوهية كما تخيل القدماء ألوهية الشعري لأنها تطلع عند الفيضان فتصبح القبلة كأنها إله ، لأنها قبلة .

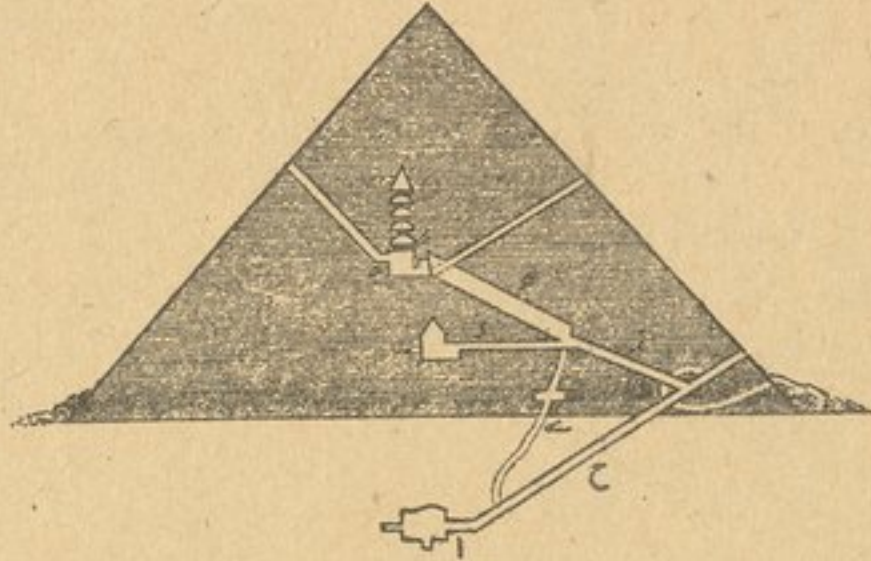
بهذا أصبح للسلم بيده عن مظان الكفر بما هو قبلته ، وفي الوقت نفسه مجذوب إلى النظر في جمال هذه النجوم ، فقال صاحب عجايب لهذا المقام ! إنني لم أر أحدا من المفسرين ذكر هذا ، فقلت إن هذه العلوم لم تظهر إلا في زماننا ، وللقرآن عجائب وبدائع يظهرها الله حينما بعد حين ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما توفي جعل الله في القرآن أسراراً تظهر وقتا بعد وقت ، كأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال حيا وهذه معجزاته تتوالى ليطمئن الناس ويوقنوا بربهم ويزيدوا علما كما قال تعالى « وقل ربّ زدني علما » فالمسلم يزيد علما والسلم يقرأ جميع العلوم ، والعلوم فروض كفايات ، والسلم مادام قادرا على النظر والفكر فهو مأمور به فكرا لربه ، وزيادة معرفة .

إن المسلمين في مستقبل الزمان سيكونون أرقى علما من غيرهم ، ولهذا التفسير إن شاء الله دخل في تشويقهم إلى كل علم وكل حكمة وكل جمال في الأرض وفي السماء ، لأنه مصداق لقوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فهذا التفسير فيه بعض الآيات التي أراها الله للناس في زماننا .



معجزة القرآن في هذا الزمان

ومنها هذا الهرم الذى أفضنا في الكلام عليه الداخلى في قوله تعالى « فاليوم نتجك بيدك لتكون لمن  
خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » انتهى .



( رسم الهرم ، شكل ١٣ )

بيان قوله تعالى « لتكون لمن خلفك آية »

اعلم أن صورة الهرم للرسمية أمامك فيها تعاريج يقصد منها إضلال من يريد دخول الهرم معجزة لقوله  
تعالى « لتكون لمن خلفك آية » وذلك أنه لن يكون آية من قدماء المصريين إلا من بقيت جثته محفوظة ،  
وكيف تبقى محفوظة إلا ببناء يكتمها وضلال لئلا يأتى سرايتها وإجماع دول أوروبا وأمريكا على حفظها ، هذا هو  
المعجزة القرآنية .

انظر إلى نقطة ( أ ) التى هى رواق تحت الأرض ، فذلك لا يمكن الوصول إليه الآن لأن  
طريقه مسدود .

ثانها نقطة ( ب ) وهى الرواق العروف الآن باسم رواق اللسكة ، وتلك التسمية لم يتم دليل  
عليها الآن .

ثالثها نقطة ( ج ) وتعرف باسم رواق الملك .

رابعها نقطة ( د ) وهى بسطة يخرج منها مجريان للهواء انزلق منها حجران كبيران فأغلقا منفذى  
رواق الملك غلقا محكما بعد وضع جثته فيه داخل تابوته .

خامسها نقطة كل من ( هـ و ز ح ) وهى سراديب معدة لتوصيل الأماكن لبعضها .

سادسها نقطة ( ط ) وهى بسطة يخرج منها السرداب الذى فتحه اللأمون .

سابعها نقطة ( ي ) وهى البئر التى تحير فيها عقول أولى النهى .

والقصد من ذلك كله أن يضل السائر فلا يهتدى إلى السبيل ، وتعلم أستاذنا فى الأثر الجليل ماضه :

[ قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحيم فى كتابه : ( تحفة الألباب ) فتح اللأمون الهرم الكبير وقد دخلت

في داخله فرأيت قبة مربعة الأسفل ، مدوّرة الأعلى ، كبيرة في وسطها بئر وهي مربعة ينزل الإنسان فيها فيجد في كل وجه من تربيص البئر بابا يفضى إلى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم أكتفان كثيرة أكثر من مائة توب على كل واحد وقد بليت لطول الزمان واسودّت أجسامهم وهم مثلنا ليسوا طوالا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شيء ، وأجسامهم قوية لا يقدر الإنسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالنشاء لطول الزمان ، انتهى [ .

وقل عن غيره أنهم بعد اللتيا والتي والجهد الطويل والشقة وجدوا في أعلاها بيتا مكعبا وفي وسطه حوض من الرخام مطبق ، فلما كشفوا غطاءه لم يجدوا فيه غير رمة بالية ؛ فعند ذلك كتب المؤمنون عن تعب ماسوا ، انتهى .

شكر الله على الحكمة والعلم ، وأن الإسلام أعتق الإنسانية من الحرمانات

إني أحمد الله على نعمة العلم والحكمة ، إليك اللهم الشكر على ما تفضلت بالحكمة وألممت من العلم أذكر أيامك معي وأذكر أيام أن كنت مجاورا في الجامع الأزهر حوالي سن العشرين ثم أرجع إلى بلادي في القرى ببلاد الشرقية ، ثم أخرج من بين البيوت لعلى • أحدثت عنك النفس بالليل خاليا • وكنت أشد قول مجنون لبلى :

وأخرج من بين البيوت لعلى أحدثت عنك النفس بالليل خاليا

وكنت أسامر النجوم الرافعات في دياجى الظلمات وأفكر في أمرها وأمر هذا العالم وأمر آثار قدماء المصريين وأمر الأمم التي في الأرض التي مدت في بلادنا السكك الحديدية وقطارها .  
ولطالما كنت أقول ياليت شعرى ! ماهذه الأطلال القديمة وما علوم أهلها وماذا تصنع الأمم اليوم في علومها وصناعاتها ، ولماذا لأرى للمسلمين حركة فكرية مثلهم ؟ ولماذا أرى شيوخ الدين لا يفكرون فيما حولهم إلى آخر ما في كتاب [ التاج المرصع ] في أوله .

كل ذلك كان ديدنى ، وأذكر أنى كنت عاهدتك أنى إذا اهتديت لحلّ العمى من هذا الوجود وعرفت بضه فإنى أنشره لمن بعدى حتى لا يضل شبان بعد ضلالى ولا ينالهم نصب كما نالنى ، بل أنا أجعل ما أعلمه لهم شرابا خالصا سائفا للشاربين ، هذا ما كان يحول بخاطرى ؛ فما أنا ذا اليوم أتحدث بنعمتك على وأقول :

لقد منّ الله على بعد طول الزمان واليأس والسب بالحكمة والعلم وألممنى أن أوّلف هذا التفسير الذى أرجو أن يكون ذخيرة ونورا للأذكيا بعدى .

إن أكثر ما أكتبه في هذا التفسير يحول بنفسى الآن ويكون قوى المهجوم على النفس بحيث لا يفارقنى في غدوى ورواحى ، وخلقوى وجلوى ، وسمرى مع الأصحاب وصحتى ، ونوبى ويقطقى ، فلما لجأت إلى من هذه الخواطر إلا بكتابها ، ومتى سطرته هددت النفس واستراحت واستقبلت غيرها ، ذلك شأنى في هذا التفسير .

وهذا الذى أكتبه في هذا اللقاه قد كان خاطره قويا ، فكما كنت أتخيل هذه الأمور في الصغر متحسرا أشد الحسرة على جهلى بها ، هكذا أنا اليوم أجد فى النفس ميلا قويا إلى كتابتها ونشرها وأحسن بأنى بلغت أمتى من هذه الحياة بذلك [ وقه فى خلقه شئون ] ويخطر لى أن هذا سيكون سائفا وشائقا لأولى الدكاه إلى حوز العلم والحكمة .

وإني كثيرا مايقع في قلبي أنني لو لم أكتب مايهجم على نفسي من الخواطر الجميلة الهاججة على ، فإن الله يجعل العقوبة لي في هذه الحياة .  
ولقد من الله على بنشره ، لقد من الله على بذلك وشرح صدرى وقد كتبت بما أجده فيها ، والله هو الولي الحميد .

تفصيل آية لقوله تعالى « لتكون لمن خلفك آية »

وكيف أعتق الإسلام الأمم من الخرافات

إنم أن الديانات القديمة كلها كانت أشبه بهذا العالم الذي نعيش فيه ، ألا ترى أركان الله أن الشوك يصعب الورد ؟ والغذاء الذي تأكله تصعبه فضلات ؟ والنمر لا يكون إلا مع الورق ؟ والحلب لا يكون إلا مع العصف ؟ هكذا كانت الديانات ، فإذا نزل إدريس على المصريين بدين سماوى فهاهو ذا قد تغير الدين وصار ممزوجا بخرافات حتى إنك لترى أنهم وجدوا كثيرا من الأحجار النحوتة على هيئة الأهرام والمسلات موضوعة في المقابر بمجوار الأموات ، وهكذا وجدوا أحجارا رسمت عليها صورة الأهرام وبازائها علامة الكوكب المتقدم وكل ذلك للتبرك ، فكانت الأهرام رمزا لهذا المعبود الذي كانوا يصورونه في معابدهم في هيئة جسم إنسان له رأس طائر ( أيس ) وهو أبو قردان وكانوا يعبدونه أيضا .

إن في نظر ذلك لبرة للعقلاء ، فانظر إلى قبلهم وهو المرم كيف جعلوه مع كوكب الشعرى مناط الألوهية . ثم انظر في مسألة السماء كيف كانوا يقولون إن جميع الأجرام السماوية تحت رياسة الشمس ، وتارة كانوا يرسمون السماء على شكل وادى مصر تشقه المجرة وقد مثلوها بالنيل وحصروها مثله بين سطحين ممتدين من الجنوب إلى الشمال وقسموا السماء إلى أقسام كأقسام مصر والشمس تطوف عليها كل يوم في مسيرها من المشرق إلى المغرب وتدخل في المساء في فتحة جبل مثلوه ( بجبل العرابة للدفونة ) أو ( الحرامة للدفونة ) التي بمديرية جرجا بالصعيد ثم تغور في سراديب وتغشى آلاما ونضى على قوم آخرين ثم ترجع لنا كرة أخرى بعد الشقة والآلام

وقالوا أيضا في الروح الشقية تحول دعواتها وصلواتها إلى عبث وهزؤ فتجلبد وتلعن وتبحث عن جسم إنسان لتسكنه وتمسكون في مرض وذل أو جنون ، أو عن جسم حيوان وتدوم على ذلك قرونا إلى أن تستوفي العذاب ثم تموت وذلك بشهادة القلب ، قال أستاذنا المذكور : وقد وجد على أحد أوراق البردى ماصورته [ أيها القلب الذى خلقت لي وأنا في بطن أمي وأنت ممي إلى الدنيا لا تنازعني ولا تشهد على بين يدي الله ] أما الروح الراضية للرضية فاتها بعد الحساب أخذ بيدها الرجال الصالح وعفها الشياطين ولكن تلاوة المزامير عنهم ثم تعدد الروح بأوزيريس وتصير مثله : أي تدخل في العنبر الذى خرجت منه وتقطع للساكن السماوية وتزور جسمها متى شاءت ، ولذلك يحفظون الأجسام .

هذه آراؤهم في السموات وآراؤهم في الأرواح وآراؤهم في الدين ، فانظر أيها السلم إلى دين الإسلام إن الديانات القديمة فيها الفس والسمين . واختلط فيها الكذب بالصدق كما هو شأن الناس في أقوالهم وأفعالهم وكما هو شأن ما كلمهم ومشاربهم ولكن الله يريد رقى الإنسانية ، ثم ماذا فعل ؟ أنزل الدين لليسى ، ثم ماذا حصل ؟ لم يرض بالأصنام وجعل الإله واحدا ولكن أذاعه جعلوه ثلاثة ؛ فجاء الإسلام وقال كلا ؛ الإله واحد هناك زلزلت الأرض زلزالها ، زالت الأصنام تماما ، وفات الزمان الذى تقدر فيه الشمس والكواكب ونزل قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » فليست الشعرى التي ترسم على أحجار المصريين مع هرمهم هي الله

بل هو ربها ، وأيضا ليست الشمس هي الإله وبعد ذلك انطلقت العقول وقام المسلمون بحركة العلم في العالم من القرن السادس الميلادي إلى القرن الحادي عشر .

وهناك تعلقت أوروبا من المسلمين كما وضع بعضه في آخر سورة التوبة ، ويتضح باقية في قوله تعالى « وذكركم بأيام الله » في سورة إبراهيم عليه السلام وصار المسلم بل كل عاقل في الأرض فك عقال عقله للمسلمون ، يقرأ كل علم وكل فن ويقرأ المسلم « وفل رب زدني علما » ويقرأ قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » فأيات الله في كل بناء وشجر وحجر وكوكب ؛ فالهزم آياته ، والنجم آياته . وتدرج الأمم من الجمود في القرون الأولى إلى الحرية العلمية اليوم في عصرنا آياته ، وتصور المسلمين الأولين للعالم الإنساني من آياته .

وسترى في سورة إبراهيم تصميم العلامة ( سديو ) الفرنسي وجزمه أن العرب وسائر الأئمة المحمدية هم نور العالم ولولاهم لم يكن لهذه الديار قى وأتى فيه بمئات الأدلة القطعية كما رأيت وسترى بعضه . ولذلك ترى الأمم اليوم أن الشمس التي هي سيدة الكواكب عند قدماء المصريين والبابليين صارت في أخربات الشمس كما أطلعتك عليه في سورة البقرة وآل عمران والأنعام وغيرها حتى أن بعض تلك الشمس ضوءها مقدار ضوء شمسا ( ٨٠٠٠ ) ثمانية آلاف مرة بل أكثر من ذلك ، وأن الشمس لا تعد لعظمتها وعددها وأنها تبلغ مئات الملايين ولا يزال الكشف يزيدنا بيانا . إذن علم قدماء المصريين من العلم الذي حدث وانتشر بسبب ظهور الإسلام الذي حرك أوروبا والعالم للبحث .

إن دين الإسلام جاء لمحو الخرافات وللاعتقاد على العقل وبند كل ما ليس معقولا ، هذا هو سرّ قوله تعالى « لتكون لمن خلفك آية » فالآية هنا واسعة النطاق من علوم وصناعات بلا اعتقاد يحصر الفكر ، وبالقرآن عندنا فك عقال العقول حتى اقتنصت شوارد العلم في الأرض وفي السماء . إن الإنسان اليوم غيره بالأمس ؛ فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

#### لطيفة وذكرى

قد كنت وأنا مراهق رأيت أهل قريبتنا قد عثروا على رجل مدفون في قاع بركة أمام قريبتنا ولم يجدوا إلا عظامه وقد وجه وجهه إلى جهة الجنوب ، وقد بنى عليه قبر يكفل من الأرض للصبرية الحصيد الجافة للمروفة في بلادنا ( بالتراق ) وقد حفظ ذلك القبر جنته آلاف السنين وهو تحت وجع الأرض بنحو ثلاثة أمتار .

فها أنا ذا أحمد الله عز وجل اليوم إذ عرفت سرّ هذا الدفن وأنه قصد به التوجه للهرم للشمول بنسابة كوكب الثمري وعرفت اليوم أن هذه خرافات وأن الإسلام محاذك وجعل قبلتنا الكعبة ودأبنا النظر في كل كوكب وجمال كل شمس ووجهنا وجهها لله لا للكواكب ولكن ندرس كل كوكب وكل شمس وقد فتح الله للناس أبواب السماء فدرسوا ، وهام أولاء يدرسون علم الأرواح كما اطلمت عليه في سورة آل عمران والبقرة ، فالحمد لله الذي نعمته تتمّ الصالحات .

وفي اعتقادي أن هذا التفسير وأمثاله سيفتح مجالا للأمم الإسلامية وستقوم أمم بعدنا من المسلمين يرقون رقىا عاليا ويعدنون في الأرض قوة كما أحدثت أجدادنا أصول هذه النهضة ، والحمد لله رب العالمين اه .

وجدان المؤلف أيام الشباب والشيب وكتاب الله تعالى وأمم الإسلام

ها أنا أهدئك أيها الذي عنى أيام شبابه وشيبه بأوسع مما تقدم فأقول : ذكرت لك آنفاً شوقى إلى العلوم أيام الشباب ، وها أنا ذا أوضعه فأقول :

قد كان يطربنى مر النبهات على الأعشاب فيسرى تغريدها ويطربنى تمايل الأغصان وحفيف الأوراق وتنفى الحشرات وعصف الرياح « والليل إذا تعسس . والصبح إذا تنفس » وإذا غربت الشمس وظهرت النجوم أجلس على بساط من الحشائش وأخذ أستمع لما في الحقول من نعمات وأنظر لما في السماء من نجوم باهرات ، وكنت كأنى في محفل جمع بين بهجتين : بهجة النظر للراقصات الحسان القاصرات الطرف الناضرات البهجات وهى النجوم ، وبهجة الموسيقى تشف الآذان بيدائع الألحان ، فالناظر سماوية والنعمات أرضية ، هذه الصور الجميلة عندي طبعت في المحبة يوماً فيوماً وليفة لليفة ، دام ذلك سنين وسنين .

وقد كان حلوة الجوف بالصوم ولقياهم بعض النايالى أثر في ذلك الجمال والبهجة والشوق ، ذلك الجمال الخيالى دعا العقل إلى الجمال الملقى ظهوره الحاسن في الطبيعة التي ارتسمت في خيالى لانفارقته ، ألجأت القوة العاقلة أن تتجمل بالمحاسن كجمال الخيال ؟ ولا محاسن للعقل إلا صور معنوية هى الحكمة والظفر في مختلف العلوم .

الجمال متناطيس العلوم يجذب إليه كل ماهو جميل معنوى ، جمال الوجوه في الحى يجذب العاشقين ، وانطباع الخيال بالجمال يجذب العلوم والحقائق لتسكن في العقول .

جلت الله وجل العلم ، إن شبيه الشيء منجذب إليه ، وللمجاورة حكمها ، جاور الخيال العقل في الدماغ ، فلما رجعت الأول بالدرر الحسان من الكواكب والنعمات حنّ الثاى إلى حقائق الوجودات ليتحلى بالحكمة ويزدان بالعلوم .

النفس واحدة والعالم واحد ، العالم الذى نعيش فيه واحد ونفوسنا تنظر له أيام الصفر واحداً ، لجميع العلوم عندها علم واحد لا علوم ، كما أن العالم أشبه بجسم واحد ، هكذا العلوم المختلفة كأنها واحد ، العلوم كشجرة واحدة لها فروع وأغصان .

ضعف الإنسان فوق الأرض فلم يطق الفرد الواحد أن يعرف هذا الوجود ، قسم أوصافه إلى أنسام : سمى كل قسم منها علماً مع أنها كلها أوصاف شيء واحد هو هذا العالم ، لهذا ترى العلوم قسمت على الأفراد كما وزع الإحساس فى الجسم على الحواس ؛ فللمسمع غير ما للبصر .

هكذا العلوم قسمت على الناس فيحتمل زيد ما لا يحتمل عمرو ، ذلك لضعفهما كما ضعف العين أن تسمع السمع إلى البصر ، وضعفت الأذن أن تسمع الإبصار إلى السمع « ووربك يخلق ما يشاء ويختار » « لا معقب لحكمه » وهذا تولى تعالى « وحلق الإنسان ضعيفا » فلولا هذا الضعف لكانت جميع العلوم عنده علماً واحداً ، كنت أنظر للأشياء جميعها بلا فريقة بين علم وعلم ، أنظر للآثار والأطلال والأشجار والأخبار وتاريخ الأمم والصناعات وأمم الفرنجة وأمم الإسلام ودين النصارى ودين الإسلام .

ذلك هو الذى حركنى إلى سائر العلوم التى اطلمت على كثير منها بمدرسة دار العلوم وعلى باقىها بالاطلاع على علوم شرقية وغربية .

ها أنا ذا الآن فى العقد السابع من حياتى أنظر فى أمرى فتنى فأجد الغرام القديم والحب والشوق قد تجملت لها مع طرب وسرور كما قل مجنون ايلى :

فتاب بنو ليلى وشب بنو ابنها وأعلاق ليلى فى الفؤاد كما هيا

فنفسي في شيبها مفرمة كما كانت أيام شبابه ، بل هي أهد غراما والغرام اليوم بالنشر والتعليم ، والغرام  
إذ ذلك بالحصيل ، وفي النشر ازدياد لعلم وابتهاج بالتحقيق .

كتاب الله تعالى

لقد كنت أيام الشباب لا أرى في هذا القرآن معاني لأني حفظته بلا عقل ولا فكر وكنت أسمي الظن  
بمن يقولون إنه يدعو إلى العلوم ، وكنت أقول إن هؤلاء صرايون كاذبون ، فلما درست ونظرت أيقنت بأن  
هذا القرآن يدعو الناس إلى مختلف العلوم ويشوقهم لها كما كنت أشاق لها زمن الشباب . فكأن هذا  
القرآن يدعو النفوس إلى فطرتها ، وإذا قل الله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » ففيه تلميح إلى ما قررنا ،  
فنفوسنا تطلب كل العلوم وهذا القرآن يشوق لها « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وما ذكرته الآن  
سيظهر أثره في أمة الإسلام .

أمة الإسلام

إن الأمة الإسلامية تطلع اليوم على أمثال هذا الكتاب ، وهناك نفوس خلفت مفصورة على النظر مجبولة  
على التفكير فتقابلها الحيرة والحيرة كما قابلتني أيام شبابي ولكن الله أذن بإبرار هذا التفسير ليكون  
مفتاحا يفتح للمقول مجال النظر فيفرون من سجون الجهالة العميقة في البلاد الإسلامية وينطلقون من حبس  
العقول إلى ساحات الجمال وباحات العلوم ، وحدائق الحكمة ، ويشمون أزهارها وينطقون ثمارها .  
هذا الكتاب بصرة مستزید ، ومنهج لمريد ، وبلغة قاصد ، وزاد مسافر ، وفك عقال معتقل ، وفتح  
باب ، وهدى وذكري لأولى الألباب ، انتهى .

تحفة مهداة للمستبصرين في الإسلام والنظر في كتب الفرج وجمال الصور  
لوجودات في الأرض والسموات

تبين من هذا أن سبب هذا التفسير ومبدأ النظر في جمال هذه الدنيا صفرا وتحصيل العلم وحب النشر  
في الكبر ، ذلك كله مبدؤه النظر في جمال الأرض وجمال السماء .

ولقد اطلعت على كتب الفرجة للبتدئين فرأيتها عملاة بالصور الجميلة الحسنة من شجر وزرع ونمر وكوكب  
وقمر بحيث يشاهد الطفل في مدرسته صور ما كنت أشاهده في الحقول ، فتبارك الله الذي ألهم الناس أن  
يحاكوا الطبيعة ويشاكلوا صور الموجودات وجمالها .

هكذا فلتعلموا أيها المسلمون ، لنقم طوائف منكم وليدرسوا نظم التعليم ونظم الكتب والصور التي فيها  
والحكايات التي تدرس للأطفال والتحف المليئة اللذيذة ، ولتأخذوا لكم أحسن النمل وأجمل الطرق ، ولتلهوا  
أبناءكم حب هذا الجمال كما أحببناه ، فكل هذا الوجود آيات الله وكله نور الله ، وكله دين الإسلام ، والحمد  
لله رب العالمين ، انتهى تفسير القسم السادس من سورة يونس .

( الْقِسْمُ السَّابِعُ )

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ  
جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ • وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ  
اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ • إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ • وَلَوْ جَاءَتْهُمْ

كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ • فَلَوْلَا كَانَتْ قُرْبَى آمَنَتْ فَفَنَعَمَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ  
 يُؤْنَسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ • وَلَوْ شَاءَ  
 رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُسْكَرُهُ النَّاسُ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ •  
 وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ • قُلِ انظُرُوا  
 مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ • قُلْ  
 يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ •  
 ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ • قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ  
 كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ  
 الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • وَأَنْ أقيمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا  
 وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ • وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ  
 فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ • وَإِنْ يَسْسُكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ  
 يُرِيدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ •  
 قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ  
 ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ • وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ  
 يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

## التفسير اللفظي

قال تعالى ( فإن كنت في شك مما أزلنا إليك ) من القصص على سبيل الفرض والتقدير ( فاسأل الذين  
 يقرءون الكتاب من قبلك ) فإنه محقق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك ، وللرأى تحقيق ذلك  
 والاستشهاد بما في الكتب السابقة وأن القرآن مصدق لما فيها ، والخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم  
 فالقصود أمته ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أشك ولا أسأل » ( فلا تكونون من المتمرين ) أى الشاكين  
 بالترزول عما أنت عليه من الجزم واليقين ، وقوله ( ولا تكونون من الذين كذبوا - إلى قوله - من الخاسرين )  
 من باب التيسير والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله « فلا تكونون ظهيرا للكافرين » ( حقت عليهم كلمة  
 ربك ) أى وجبت عليهم لأن استعدادهم بينهم من قبول الإيمان ( لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية ) فإنهم  
 لا يؤمنون بها ( حتى يروا العذاب الأليم ) حينئذ لا ينفعهم الإيمان كما حصل لفرعون الذى قال « آمنت »  
 بعد فوات الفرصة كما في قوله « أتم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستمعون » فانظر كيف ذكر

فرعون وغرقه لمناسبة ماضى في هذه السورة لتكون تلك القصة تطبيقاً على هذا القول ، بقوله في مسألة فرعون « آلا وقد عصيت قبل » هو كقولك للتقدم آنفاً « أتم إذا ما وقع آمنتم به » وهو بمعنى ما جاء في سورة الأنعام « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها » وقد أوضحت للقام هناك بما لا مزيد عليه ، وههنا يقول الله في هذا المعنى « إن الذين حقت عليهم - إلى قوله - حتى يروا العذاب الأليم » ثم أتبعه سبحانه بما يفيد فتح باب التوبة وقت القدرة فقال ( فلولا كانت قرية آمنت ) أى فهلا كانت قرية من القرى التى أهلكتها آمنت قبل معاناة العذاب ولم تؤخر الإيمان كما أخره فرعون ( فنفخها إيمانها ) بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها ( إلا قوم يونس ) لكن قوم يونس وهو استثناء منقطع ( لما آمنوا ) أول ما رأوا أمانة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله ( كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتناهم إلى حين ) أى إلى انتهاء آجالهم .

يروى أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من اللوصل فكذبوه وأصرروا على تكذيبه فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث ، فلما دة الموعد أغامت السماء غيا أمود ذا دخان شديد فهبط حتى غشى مدينتهم فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه فلبسوا السوح وبرزوا إلى الضعيف بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين كل والدها فحن بعضها إلى بعض وعات الأصوات والمجيج وأظهروا الإيمان وأخلصوا التوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم الضر . ويقال إنه كان يوم عاشوراء يوم الجمعة ( ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ) بحيث لا يشذ منهم أحد وإنما لم يجتمعوا على الإيمان بل منهم من لم يقبله لتنظام الذى اختاره الله بحيث يختلف الناس باختلاف الأزجة والأحوال والأخلاق وأن الاستعداد هو الذى عليه مدار الارتقاء والأحطاط وإن يكون القضاء إلا على مقتضى الحقائق الثابتة وهؤلاء هذه حقيقتهم ، وهل يشاء الله إلا ما هو حق ؟ ( أفأنت تكفره الناس ) بما لم يشأ الله منهم ( حتى يكونوا مؤمنين ) بخلاف للشبهة مستحيل ، وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به ، ولذلك قرره بقوله ( وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ) أى بإرادته وألطفه وتوفيقه ( ويحمل الرجس ) أى العذاب ( على الذين لا يعقلون ) لا ينفقون بقولهم فلا ينظرون الحجج والآيات ولا يفكرون فيها فيكونون ظافلين عما حل بالأمم السالفة وما أصابها من خير أو شر وعقل وفكر وجهل وغباوة كما جاء آنفاً « لتكون لمن خلق آية » ونمى على الناس غفلتهم عن ذلك وعما أعقبه من السموات والأرض وعجائبهما فقال ( قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ) من عجائب صنعه والآيات والعبر باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع والثمار مما لا يتقاهى من حكم بارعات وآيات بينات وغرائب مدهشات ، كما أمرهم بالنظر فى هجائب الأمم وأبدانها الباليات وآياتها الباهرات .

فمن قرأ العلوم الفلسفية والعلوم الرياضية والطبيعية فهو من اللوحدين توحيداً حقيقياً أرقى من علم التوحيد للشهور إذا وجه نظره إلى نظام العالم العام وتعجب من جمال صنعه ، أما إذا قرأه قراءة الغافلين كما أكثر من من يتعدون بالمدارس اليوم فأولئك عن ذلك مبعدون وهم عن الله غافلون . وهكذا من قرأ علوم المصريين والبابليين والآشوريين والأوروبيين فى تاريخهم وأحوالهم العجيبة يكون ذلك منه امتثالاً للدين وترقية للعقل وله ثواب عظيم مادام يرى لمرض شريف .

ولما كان ذلك لا ينتفع به إلا ذوو الاستعداد العقلى أردفه بقوله ( وما تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ) بحسب ما سبق به العلم ، وما نافية ( فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ) مثل وقائهم كما يقال [ أيام العرب لوقائهم ] ( قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ) أى فانتظروا هلاكى إني معكم



من المنتظرين هلاككم ، ولقد جرت عادتنا فيما مضى أنا نهلك الأمم الذين كذبوا ( ثم تنجي  
 رسلنا والذين آمنوا ) من تلك الأمم إنجاء كذلك الإنجاء ، تنجي محمدا صلى الله عليه وسلم  
 وصحبه حين نهلك المشركين ، حق ذلك حقا علينا ، وهذا هو تقدير قوله تعالى ( كذلك حقا علينا  
 تنجي المؤمنين . قل يا أيها الناس ) خطاب لأهل مكة ( إن كنتم في شك من ديني ) وصحته وسداده فهذا  
 ديني فاستمعوا وصفه ، ثم وصف دينه فقال ( فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ) أى الأصنام ( ولكن  
 أعبد الله الذى يتوكل على عبيتكم ، وإنما وصفه بذلك ليربهم أنه هو الذى يتق ويخاف بخلاف ما يعبدون وهو  
 ما لا يقدر على شيء فكيف يخاف ( وأمرت أن أكون من المؤمنين ) أى بأن أكون : أى أن الله أمرني  
 بذلك بما ركب في من العقل وما أوحى إلى في كتابه ( وأن أمم وجهك للدين ) أى وأمرت بالاستقامة في الدين  
 بأداء الفرائض والالتناء عن القبائح أو في الصلاة باستقبال القبلة ، فهذا عطف على أن أكون ( حينئذ ) حاله  
 من الدين أو الوجه : أى مستقيما عليه غير معوج عنه إلى دين آخر ( ولا تكون من المشركين ) مع المشركين  
 على دينهم ( ولا تدع ) لا تعبد ( من دون الله ما لا ينفعك ) في الدنيا والآخرة إن عبدته ( ولا يضرك ) إن  
 لم تعبد ( فإن فعلت ) عبت ( فإنك إذا من الظالمين ) من الضارين لنفسك ( وإن يمسك ) يصبك ( الله  
 يضرب ) بشدة وأمر تكبره ( فلا تكشف له ) فلا رافع للضرر ( إلا هو ، وإن يردك بحجر ) بنعمة وأمر تسرببه  
 ( فلا راد لفضله ) لآمانع لعطيته ( بصيب به ) بالخير ( من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ) فتعرضوا  
 لرحمته بالطاعة ولا تأسوا من غفرانه بالمعصية ( قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ) الرسول أو القرآن  
 وليس لكم بعدة عذر ( فمن اهتدى بالإيمان والتابعة ) فإنما يهتدى لنفسه ( لأن نعمة لها ( ومن ضل ) بالكفر  
 ( فإنما بضل ) عليها ) لأن وبال الضلال عليها ( وما أنا عليكم بوكيل ) بحفيظ موكول إلى أمركم ، وإنما أنا بشير  
 ونذير ( واتبع ما يوحى إليك ) بالامتثال والتبليغ ( واصبر ) على دعوتهم وتحمل أذيتهم ( حتى يحكم الله ) بالصر  
 وإظهار دينك ( وهو خير الحاكمين ) لأنه لا يمكن الخطأ في حكمه لأنه مطلع على السرائر كاطلاعه على الظواهر  
 بخلاف حكام الناس فليس لهم إلا الظواهر .

خاتمة في عجائب هذه السورة وما تقدمها من السور

انظر إلى عجائب هذه السورة وما تقدمها . انظر كيف ذكر في أوائلها بدء الخلق وهو بيده ، وكيف  
 جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وكيف قدر النازل وعلم عدد السنين والحساب ، وذكر اختلاف الليل  
 والنهار وأخذ يذم الذين هم عن آياته غافلون وجعل لهم النار بما كانوا يكسبون .

وانظر كيف ذكر في خواتيمها كما ذكر في أوائلها ، ذكر أنه جعل جنة فرعون للوضوعة في نجوة :  
 أى مكان مرتفع من الأرض آية وذم للمرضين عنها كما ذم للمرضين عن آيات السموات والأرض ؛ فهناك  
 يقول « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك  
 ماؤام النار » وهنا يقول « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » فجعل الغافلين عن آيات الله في الأمم  
 كالغافلين عن آيات الله في السموات والأرض .

عجب عجائب للقرآن وحكمه العجيبة ! وهنا أمر بالنظر في السموات والأرض وأوعد الذين لا يعقلون فقال  
 « ويجعل الرجس » أى العذاب والحذلان « على الذين لا يعقلون » : أى لا يستعملون عقولهم .

فانظر كيف كانت أوائل السور تنحوتها ، نظر وفكر وتمثل وذم الغافلين ، وانظر كيف سوى بين  
 الجهل بالعوالم العلوية والسفلية والجهل بأحوال الأمم كأمة للمريين ، فهذه من القرآن دلائل واضحة .

أن علوم قداماء للمصريين وغيرها كعلوم الفلك والطبيعة من تركها من الأمم أصبحوا في أسفل سافلين ولهم جهنم في الآخرة وهم في الدنيا أيضا معذبون لأنهم جهلاء « ومن كان في هذه أعمى » لا يعرف العلوم الكونية والنظامية والسياسية « فهو في الآخرة أعمى » لا يرى طريق النجاة ، والقصود أن تكون هذه العلوم قائما بها طوائف من الأمة لكل علم جماعة .

فمن قرأ تاريخ المصريين فهو قارى آيات الله ، ومن قرأ علومهم فهو مطلع آيات الله ، وكذلك الآشوريون والبابليون وجميع الأمم .

ومن درس ما عرفه الألمان والإنجليز والأمريكان من علوم الفلاحة والسياسة والتجارة والتجارة والحداثة والديباغة وما شاكل ذلك كان مطالعا على آيات الله بدرسه للعلوم التي يرزاهها والحكمة التي للعباد أهداها .

فويل للمسلمين القائلين وويل ثم ويل لهم إذا غفلوا بعد ما بيناه ، وهلاك لهم إذا ناموا بعد ما بسطنا .  
فيا ترى ما ذا يريد السلون ؟ أولم يكنهم أن الله سلط عليهم أوروبا فملكتم بلادهم شرقا وغربا وهم ناعمون ؟ أولم يكنهم أنه لهم طائفة من المسلمين الآن فنبهوا المسلمين أن جميع العلوم والصناعات واجبة فرض كفاية وهم غافلون ؟ أو ما علموا أن العذاب حل بهم وهم لا يشعرون ؟ وسلام ثم سلام على من يفهمون للمسلمين في الأقطار الإسلامية واجباتهم وعلومهم التي حرموا منها وهم لا يعلمون .

وكما فصل ذلك في هذه السورة فعل في سورة الأعراف فجعل في أوائلها ذكر الرياح والسحاب والمطر واللاء والثمار ، وفي أواخرها النظر في ملكوت السموات والأرض وحذرهم من اقتراب آجالهم ، هكذا فعل في الأنعام ، فجعل في أولها خلق السموات والأرض والظلمات والنور ، وفي أواخرها أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وأنه رب كل شيء .

وفي السائدة ذكر في أوائلها حل الأنعام وحرمتها وقصة ابن آدم المشتعلة على أن الإنسان يتعلم من الحيوان وذكر في أواخرها أنه ملك السموات والأرض .

وفي سورة النساء ابتداء بذكر خلق الإنسان وأنهم من نفس واحدة ، وجعل في أواخرها ذكر السموات والأرض مكررة .

وهكذا سورة آل عمران ابتداء بوصف الله بأنه الحى القيوم وكيف خلق الجنين في بطن أمه وصوره وجاء في أواخرها « إن في خلق السموات والأرض الخ » .

وهكذا البقرة جاء في أوائلها « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والدين من قبلكم الخ » ، وفي أواخرها « قه ما فى السموات وما فى الأرض الخ » .

فهذه السور من ابتداء البقرة إلى هذه السورة هذه كانت مبادئها وهذه كانت خواتمها كلها حاضرة في أوائلها وأواخرها على النظر في علوم السموات والأرض ، فأما هذه السورة فقد أبانت أن القائلين عن علوم الأمم السالفة ملومون غافلون ، والقائلون معذبون في جهنم ، والعذاب هنا في ترك فرض الكفاية .

اللهم ألمه أمتنا الإسلامية عقولا رافية ونفوسا كبيرة ؛ فوالله لئن لم ينته علماء الإسلام عن هذا التصبر لتكون هذه الأمة في الهاككين ويستبدل الله بها غيرها « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

فيا هجبا لأمة الإسلام كيف ينامون ؟ كيف يخفون ؟ وهذا القرآن بين أيديهم يقرءونه صباحا ومساء .

ولعلم أيها الدكي للطلع على هذا الكتاب أنك مسئول عن هذه الأمة ، وإياك أن تقول من أنا .  
 فإنك متى كتبت مفرما بقراء أمثال هذا الكتاب فلا جرم تكون نفسك من ذوى الجد والعلم الذين يعرفون  
 قيمة أنفسهم وهم مصلحون فلتنكن مصلحا ، وترشد الناس بقدرك وإسنانك وحديثك ، وتعرض الأمة على  
 حوز العلوم .

فلعمري لقد قابلت طوائف هذه الأمة للسكينة من أهل جاوة وسومطرة وبلاد الملايو وبلاد سيام  
 وبلاد العرب وغيرهم من الأمم والممالك ومن بلاد الصين فوجدتهم جميعا خاملين خاملين تأميين لم يفتنوا ،  
 وذلك لما رسخ في عقول علماء الدين أن الدين بعيد عن العمران ، بعيد عن الأوطان ، بعيد عن العلوم ،  
 بعيد عن الصناعات ، فضلوا بذلك وأضلوا وهم لا يحقون ؛ فلتنقذ الأمة من ضلالها ، ولتنشلها من هذبتها  
 ولتطلعها على دينها الصحيح في نحو ما سطرنا وفي مثل ما كتبناه ، والله هو الهادي إلى سواء الصراط .  
 تم تفسير سورة يونس عليه السلام .

## سورة هود مكية ، وهي مائة وثلاث وعشرون آية

وهي أربعة أقسام :

[ القسم الأول ] في المقصود من الرسالة ، من أولها إلى قوله « ليلوكم أيكم أحسن عملا » .  
 [ القسم الثاني ] تأنيبهم على استبعادهم البعث والإلحاق إلى قصص الإنسان ، ومقاصد أخرى من قوله « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت » إلى قوله « هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » .  
 [ القسم الثالث ] من قوله « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » إلى قوله « بشئ الرعد للرعود » في قصص الأمم والأنبياء .  
 [ القسم الرابع ] في طريق هداية الأمم إلى الفلاح من قوله « ذلك من أنباء القرى قصة عليك » إلى آخر السورة .

هذه أقسام السورة . ولقد كنت لخصتها منذ ١٤ سنة وأنا مدرس بدار العلوم وقسمتها على هذا النقط ولكن القسم الثالث تبعه قسمان موضحان له تابعان له فصارت الأقسام ستة . ولما كان الإنسان في كل سن من أسنانه عمل يناسبه وإنشاء يلائمه ورأى يوافقه رأيت أن أكتب ذلك للملخص لتطلع على ما كتبت إزداد وأما مدرس بدار العلوم وتوازنت بما أكتبه الآن فتجد أن الرأي اللاحق هو السابق فأسذكر ذلك للملخص ثم أتبعه بتفسير السورة إن شاء الله ، هاك ما كتبت إزداد لتطلع على مجمل تفسيرها كما مرآة ثم أذكر مفصلا في اللاحق ،

تفسير هذه السورة ، مقاصدها ست :

المقصود الأول من أول السورة إلى قوله « ليلوكم أيكم أحسن عملا »

ابتداء الله عز وجل هذه السورة بالمقصود من الرسالة ، وهو عبادة الله عز وجل والإجابة إليه بالتوبة وعدة المؤمنين التائبين بالفوز في الدارين والسعادة في الحياتين الدنيا والآخرة ، وإبذارهم بالعذاب إن أعرضوا فقد جمع بين الإنذار والتبشير والإخافة والإطمان وهذه هي الطريقة المثلى وذلك في قوله تعالى « الر » كتاب أحسنت آياته « إلى قوله « عذاب يوم كبير » ثم أخذ يشرح سعة علم الله وإحاطته بالكائنات فلا تحفى عليه خافية بما أبان من اطلاعه عليهم وهم مستغشون بشياهم في احتلالهم وفي أسرهم وعند نومهم ويقظتهم وعلى الدواب البرية والبحرية في غدورها ورواحها وليلها ونهارها وتقديره أرزاقها وقيامه بما يقم به أودها وبيق حياتها ويحفظ نسلها إلى أجل مسمى ، ثم شرح قدرته عز وجل بما أبدع من عجائب السموات وعرائب الأرض ولم تكن شيئا مذكورا حينما كان عرشه على الماء ، فما قدسناه منحصر في العادة والتوحيد والإنذار إجمالا والتبشير ، ولقد كانت العناية بصفات الله أمم والاهتمام بقدرته وعلمه أعظم ليكون آدمي خاضوع لعظمته والإيقان بجله وحكمته ، وذلك آدمي لإجلاله والخوف من عقابه وهيبة سلطانه وامتثال أمره واجتناب نهيته والإيقان ببديع حكمته حتى لا يكون العالم بلا غاية ، ولا أعمال العباد بلا نتيجة .

والمقصود الثاني وهو من قوله « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت » إلى قوله « هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » أخذ فيه يؤنبهم على استبعادهم البعث بعد الموت ووصفهم له بالسحر واستبطائهم عذاب الدنيا إذ يقولون « ما يحبسهم » وما أجمل أن يشرح خلق الإنسان العام وما فيه من النقص والجهل فهو اليشوس من الفرج ، الكفور بالله إذا إصابه الضر ، وهو الفرج البطر الفخور إن أذاقه الله نعمة ، ذلك لجهل الإنسان وقصر نظره الحيوانى الطبيعي ، ولا مفر من هذه الخلة الشائنة إلا بالصبر في الضراء والسراء بالصفة

والسكينة والوقار وضيبط النفس في النهي والتمالي عن الانتداس بالمادة وأن يفكر في زوال الحياة وفناء  
الذات وانتقال المال من يد إلى يد وتصرم الآجال وذهاب الأموال وسرعة تقلب الأحوال ، وضيبط النفس  
في الحالين من فقر وغنى يصير الإنسان رجلاً كاملاً ، وما أنسب أن يسلي النبي صلى الله عليه وسلم مما يضيق  
به صدره بما يقولون عليه تسلياً له وتثبيتاً لقلوبهم فأزل عليه ما يبلغ صدره إذ قال « فلعلك تارك بعض ما يوحى  
إليك » إلى قوله « إنما أنت نذير » .

ثم شرح حال الرائيين والناقضين والشركيين وأبان أن أعمالهم حابطة وأظهر ما عليه المؤمنون والنبي وصحة  
حججهم ووضوح دلائلهم وتبليغ نور شمسه وانتشاع النبوء بأشوايه ووضوح الحجج بالقرآن وسطوع النور  
بالبیان بقوله « أفمن كان على بينة الحجة » ولم يبق من أنواع الإيضاح إلا أن يمثل أولئك الذين لم يروا خمس  
الهداية ولم يتبينوا نور العلم والحكمة وسطوع الحجج الواضحة في القرآن بأنهم عمى لا يبصرون وصم لا يسمعون ،  
والآخرون ميسرون سامعون .

فتعجب كيف تدرج من أول السورة إلى هذا القام من حال إلى حال ، فتوحيد بعبادة يتلوه نظام  
وعلم يتلوه إنذار بعباد من بعد ذلك إيضاح وإيضاح وبيان يفقوه بيان حتى صار المقول محسوساً والغالب  
مشاهداً فصدع بالأمر فوصف قوماً بالعمى والصمم ، وآخرين بالبصر والسمع فالعمى عن رؤية السموات  
والأرض والدواب ومستقرها ومستودعها ، والصمم عن سماع اللوعظة والإنذار والتبشير ، ولم يبق بعد  
هذا البيان إلا أن يقص القصص ليعتبروا ، ويقوم البلدان ليدركوا ، ويسمعهم التاريخ ليزدجروا  
لعلهم يبصرون عداً إذ قال « وتلك عاد الحجة » ولعلهم يسمعون ما حلّ بالأمم الغابرة والأجيال البائدة  
ولا يكونون صما عن اللواعظ عمياً فلا يبصرون آثار الأمم البائدة وأطلالها المهامدة وأحوالها الفاتمة  
ذلك هو العجب العجيب

القصد الثالث من قوله « واتممت أرسنا نوحاً إلى قومه » إلى قوله « بشئ الرشد للرفود » وفيه تخطيط  
البلدان التي سكنتها هذه الأمم والإلتصاق إلى تاريخهم . ذكر الله في هذه السورة عداً ونعمود وإبراهيم ولوطاً  
وشعياً ، فقوم نوح نبيهم نوح ، وعاد نبيهم هود ، ونعمود نبيهم صالح ، وقصص إبراهيم لم يذكر معه  
قومه فيها ، وأهل سدوم بناحية حمص بالشام نبيهم لوط ، وأهل مدين نبيهم شعيب ، وأهل مصر  
نبيهم موسى .

#### مساكنهم

أما قوم نوح فقبيل الهند ، وقيل بالعراق وما والاها . وأما عاد ونعمود فهما بجزيرة العرب حوالي اليمن .  
وأما إبراهيم فقد كان في تلك الحال بفسطاطين من أعمال الشام بعد أن رحل بابن أخيه لوط من أرض بابل  
فكان هذا بفسطاطين وهذا بسدوم . وهي خمس قرى بينها وبين فلسطين نحو أربعة فراسخ . وأما أرض  
مدين فعلى شاطئ البحر الأحمر تجاه بلاد صعيد مصر من الجهة الشرقية ، وأما أرض القراعنة فمعلومة  
وهي مصر .

ألا تتعجب كيف كانت الأمم المذكورة في السورة محصورة في جزيرة العرب وما حولها داخلة الآن  
في حوزة الإسلام .

ليتعجب طلاب العلم ولينذركروا كيف كانت هذه السورة جامعة تقصص الأمم المحيطة بالسكينة أو ما يقرب منها  
وكيف أراد الله إيقاف أقوام سكنوا تلك الأقطار بعد نومها وحياتها بعد موتها وعزها بعد ذلها وشرها  
بعد صحتها ، وكيف دخل الإسلام هذه الأقطار وعمّ هذه النصار فدخل اليمن وما حولها وضم جزيرة العرب  
ومصر والعراق وبعض أقطار الهند ، هذه بعض حكم القصص لم يذكرها الله إلا إيقافاً لأهلها فاستيقظوا  
وتذكروا لأهلها فتذكروا .

## المقصد الرابع : استنتاج الأخلاق مما ذكر في المقصد الثالث

جرت عادة الله أن لا يهلك أمة ، ولا يبديد دولة ، إلا إذا عاث أهلها في الأرض فسادا أو بطشوا بطش الجبارين وطفخوا وبنوا واستكبروا وأفسدوا فنكون العاقبة الملاك في الدارين والعذاب في الحياتين والشقاء بالويلين ، فإن الله لا يهلك القرى لسفها أهلها إذا كانوا مصلحين لشأنهم منظمين مدتهم حافظين لأمرهم ضابطين لنظامهم قائلين بأعمالهم كما قال تعالى في هذه السورة « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » فأما إهلاك قوم نوح فبسبب الإعراض عن الهدى واستمرار مرضى الجهل والإخلاق إلى الأرض والتباعد عن الرشد واتباع طرق الفسق والاستكبار على العقلاء الذين آمنوا واسترذلمهم واستهزأهم بالعلم والهدى وانتمهم أن يأخذوا العلم عن بشر مثلهم والحكمة عن واحد منهم ، إلا أن نوحهم حيوانية وجيلاهم حجرية كثر أولئك الذين لا يرضخون إلا بالعلم غريب عن الديار نازح عن الأوطان لما أنهم لا يمتثلون إلا كما تمقل العائمة الجهلاء من الخضوع للجبارين والأخذ عن الجهوليين أو السحرة للماكرين أو القوم الشاذين لقوة ساطنتهم بالترهات وحبيلهم بالطلسمات ، أما العقول فهم عنها معزولون ، ثم إن الكبر والجهل صنوان وهما رضيما لبان وفرسارهان وخليلان لا يفترقان وشقيقان لا ينفصلان فهلكوا بالترق وبادوا بالطوفان .

وأما قوم عاد فلقد طفخوا في الأرض وبنوا وقالوا من أشد منا قوة بأنهم أرباب والزراع وأهلكتهم فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم .

وأما نوح ففكروا النعمة ولم يشكروها وجمعوا بين تيمسيتين : تعنت في طلب الآيات وخوارق العادات وكفر على نعمة أعطوها فلم يحمدها الله فيشكروها بل ذبحوا الناقة ظالمين وأكلوا لحمها كافرين فاصفرت الوجوه ثم احمرت ثم اسودت ثم أخذتهم السيحة التي صاحبها جبريل وزلزات الأرض ورجفت بهم رجفة فأصبحوا هالكين ، جمعت نوح بين [ الحستين ] معاداة العلم بالتمت وطلب الخوارق للعادات والبغى والظلم فقد أساءت في القوة الملية ولم تحسن في القوة العملية ، وقوم لوط فسفوا وأولعوا بالشهوات الجنانية ففعلوا ما يبدي النسل وطفخوا في شهوة الفرج كما طفئ أهل مدين فيما به قوام الأجسام من السكيل واللوزون ، وما طفئان قوم فرعون إلا كعاد وقوم نوح ، فالنتيجة أن قوم نوح وقوم فرعون وعادا ملكتهم القوة الغضبية وأضلهم النفس الشيطانية ، وقوم لوط وأهل مدين ضلوا بالقوة الشهوية ، وهؤلاء فيما سبق الأجسام : وهؤلاء فيما يديم النسل ، فهؤلاء فيما بسد الجوع وهؤلاء فيما يتناسل الحيوان والإنسان .

وقوم شعيب عليه السلام أغمضوا القوة العقلية فاستحبوا العمى على الهدى .

هذه مجامع علم الأخلاق ذكرها الله في السورة تذكرة لهذه الأمم وإيقاظا لها وإيدانا بأن الأمم التي أهملت شأنها فلم تقو إرادتها ولم تستيقظ عقولها ولم تصلح شؤون نفوسها أولئك التي اغترت بأنفسها وفرحت بما عندها من العلم ونامت على مهاد الراحة واستكبرت عن أخذ العلم بمن كانوا أعلى منهم مقاما وأرقى شأنًا وأوسع حكمة كملكه مراكش أيام استقلالها وعظمتها أو تلك التي أطلقت أيدي العابثين من أبنائها فلم يأخذوا على أيدي الظالمين فساد الفساد بتطيف للسكيل واللبزان وعموم الرشوة وإعطاء للرء ملا يستحق من الأعمال وغش الفضلاء حقوقهم وترك حيل الأمور على غاربها فأولئك لا محالة ذاهبون للدمار واقعون في شرك الويل والتبور .

للمقصد الخامس : استنتاج النظام العام الخالي من هذه السورة في هذه الأمم وكيف كان هلاكهم تابعا لسقوطهم في الأخلاق والفضيلة والآداب ، وكيف رجعوا لتاريخهم القديم اليوم وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن مذهب أخلاقهم ذهبوا

إن هذه الأمم التي قصها الله تعالى في هذه السورة بعد أن هلكوا واستؤصلت شأقتهم ملكت أرضهم وسكنها قوم آخرون وهي الآن بلاد الإسلام فنحن أهلها للملكون وأصحابها للسيطرون ، ولما طغى أهلها البائدون أخذتهم ساعة العذاب المهون ؛ فمنهم من أغرق ، ومنهم من أهلك بريح صرصر عانية ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت دياره فصاروا صميدا جزرا ، وذلك القصاص من السلطات عند سامي القرآن ، فلننسى حالنا اليوم بمن حللنا ديارهم واتخذنا مساكنهم وننظر هل أحسننا الخلافة وعرفنا قوله تعالى « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » .

رى أن البلاد العربية خاوية من العلوم ، خالية من النظام ، عريقة في التقاطع والتدابير ، وهكذا مصر لما أن رأيت بصيصا من النور لم تعرف كيف تبصر ولم تزن أعمالها وخلطت عملا صالحا وآخر سيئا ، وهذا القول منذ ١٤ سنة كما قدمت لك ، أما الآن فإنها آخذة في الاستقلال والرقى ، وهكذا أرض بابل وما بين البحرين فإن الجهل لا يزال ضاربا أطنابه في ربوع الإسلام فلذلك أحاطت به من كل جانب المصائب وحق بنا للكرهه من كل جانب ، وهذا مقدمة لعذاب الحزى في الحياة الدنيا مثل ما حلّ بأسلافنا ، حدونا حدوم حدو القفة بالقذرة ، وما ذكر الهلاك الدفنى إلا لينذرنا بالهلاك التدريجي والعذاب العظيم باحتقار الأمم لنا واستهزائهم بنا فقد تركنا عقولنا وشأنها فلم تربّ القوة العقلية ولم نم الفكر الإنساني وكثرت أربا والنش في الليعات كما فعل أهل مدين وتجرأنا على المحرمات كقوم نمود ، والطامة الكبرى أننا فرحنا بما عندنا من العلم وصممنا آذاننا عن الحكمة التي أرسل الله أنوار شمسها على أرض القارب وكساها وجه اليابان والصين وأذناها لأمة الأمريكان فتكبرنا عن العلم ونعج الجاهلون وأعرضنا عن الحكمة ونحن معرضون ونمنا والناس مستيقظون ، هذا ما كتبت إذ ذاك ، ولكن الآن دبت أرواح في جميع هذه البلاد وعسى أن ترقى هذه الأمم وهم فرحون مستبشرون .

للقصد السادس : دواء هذا الداء وخاتمة السورة من قوله تعالى

« ذلك من أنباء القرى » إلى آخر السورة

لقد بان لك حالنا اليوم وما أحاط بنا من مكروه وما نزل بنا من شر ، وكيف أصبحت أمم الإسلام غارقة في بحار الجهل تائهة في قفار الضلال بعيدة عن طريق الهداية إلا قليلا ، وكيف عكفوا على المجد القديم واستكبروا في الأرض بغير الحق واكتفوا بما عندهم من علم قديم ومجد موروث وأهملوا الأخلاق والفضائل وقال قائلم لمن يسأله عن سبب انحطاط أمم الإسلام (إنها للعاصي) ولو سأله أي هي ؟ لقال النية والنجمة والحمر وما أشبهه . وأكثرهم يجهل أن الجهل أكبر للعاصي وأن نظام المدن ورقى التجارة وإتقان الصناعة وإحكام الزراعة ونظام الإمارة من أفضل العلوم ، والجهل بها أكبر للعاصي وأقبح المخازي ، وأن عكوف كل امرئ على شأن نفسه وحده وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أسوأ أضرارا وأكثر خطرا وأعظم ضررا من غيبة وجمعة .

ولا سبيل لصلاح البلاد الإسلامية وإسعاد الأمة المحمدية إلا أن يجدوا في العلوم والصناعات وأحكام التجارات والإمارات ونظام المدن والجماعات ، ولم يؤسسوا برنامجا من السعادة ولم يقنطوا من إصلاح حالنا وتغيير العادة .

ألا ترى كيف ذكر الدواء بعد الداء فقال « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أفرقوا قومه وكانوا مجرمين » فإن معناه هلاك

في الأمم العابرة والفرون البائدة مرشدون ناصحون وعداء واعظون وحكام مبصرون بنهون غوغاهم  
ورشدون جهالمهم وضربون على أيديهم كما فعلت أمة اليابان والصين والأمريكان ، فإن الأمة إذا اقتربت من  
العطب وانسل إليها الإهلاك من كل حذب فأيقظ أهلها الواقظون وأرشدوا لموضع الهداء الناصحون أرحمت  
العرز إلى نفسها ونصرت على عدوها وإذ ذاك لا ينالهم هلاك الدارين ولا يحيط بهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا  
ولا عذاب السمير في الآخرة .

وتعجب كيف يقول جد أن أمم قصة فرعون « تلك من أبناء القرى نفعه عليك منها قائم وحصيد »  
وكيف أرجع الظلم إليهم وقال « وما ظلمناهم الخ » ولكن ظلوا أنفسهم لما نعمتهم الآلهة المعبودة ، هكذا لم  
ينفع أهل الشرق اليوم بن يدمم ويمنيهم من بعض الرؤساء الجاهلين بل زادهم تقيبا ، ثم قاس أحوال  
الأمم في الأرض بهذه الأمم للذكورة فقال « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة » ثم شرح عذاب  
الآخرة وكيف يسمد قوم بالجنة وبشق آخرون بالسمير .

مقاصد الدين [أمران] بقاء الأجسام بنظام للدنية وحفظ النسل وسعادة الأرواح بالعلوم والشوق  
إلى معرفة الله والعبادة ، ولا أرواح بلا حياة ولا حياة بلا نظام .

لذلك كان جل مقاصد هذه السورة حفظ الأجسام وبقاء المدن ونظام الجمعية وحفظ الأموال ليهب الناس  
لجمعها ويتضافروا على العمران ويكثر النسل فتعني الله عليهم البخش في الميعات والمواط والاستكبار عن العلم  
النافع ، فهذا كله لبقاء الأجسام وهو النظام المدني .

ولقد أرشد الله لحفظ الأرواح وزكيتها بالعبادة والتوحيد والأخلاق العاضلة ، فتعجب كيف غفل  
المسلمون اليوم عن النظام المدني ؟ وكيف يقرءون ولا يعلون ويحشون ولا يفكرون ؟ إلى أنذر المسلمين  
اليوم كما أنذرم الله وأقول لهم ليم في كل قطر من أقطار الإسلام رجال يحضون على العلوم ليكثروا المرشدوا  
إخوانهم ليأمروا بالمعروف لينهوا عن المنكر ، أأنذر المسلمين أن يهلكوا كما هلك من قبلهم ، إلى أنذرم  
صاعقة المدافع والعذاب الواقع ماله من دافع وحصد النفوس وذهاب الفلوس وضياح القرى ، ومن  
يش يره .

آيات الأخلاق ، آيات العلوم ، آيات الأحكام ، آيات النظام العام

آيات العلوم من هذه السورة إحدى عشرة آية

« إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير » إلى قوله « في كتاب مبين » وقوله « وقيل يا أرض  
إلى قوله « الظالمين » وقوله « إلى توكلت على الله ربي وربكم » إلى قوله « مستقيم » وقوله « فإن تولوا  
قد أرسلناك بالبينات وبالحق وأمرناك بالعدل » إلى قوله « حفيظ » وقوله « ولو شاء ربك لجلد الناس أمة واحدة »  
إلى آخر السورة .

وهذه الآيات في الأكثر تبيان لعظمة الله عز وجل وجلاله وقدرته وسلطانه وعلمه ورحمته التي وسعت  
كل شيء .؟

ومن أعجب ما في هذه الإحدى عشرة قوله تعالى « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط  
مستقيم » لن يقل دقائق إحاطة الله علما بالدواب إلا من قرأ علوم الحيوان ووقف على غرائزه وعجائبه  
وبدائع تركيبه ومحاسن صنعه وما أتت له من أعضاء منظمة ووهب من قوى درآك وصور براءة  
ونفوس مختارة .

إن في الحيوان لآيات ، وفي النحل لمجيبا ، وفي النمل لحكما ، واقرأ إن شئت هدية العنكبوت  
ونظام بيوت النمل وبيدائع دودة الحرير ونظام الجراد ودود القطن وكيف أكلت مما نلت ، ولبست مما نسجت



أختها دودة الحرير ، فكيف كانت إحداها تخلق علينا لباسها والأخرى تسلبنا ما زرنا لتلبسه ؟ إن  
في الحيوان والإنسان لمرائب « وفي خلقكم وما يبيث من دابة آيات لقوم يوقنون » كل ذلك في كتابي  
[جمال العالم] انتهى .

آيات الأخلاق منها قوله « الر » كتاب أحكمت آياته « إلى قوله « عذاب يوم كبير »  
في هذه الآيات الثلاث خلق التوبة ، ثم إن قوله تعالى بعد ذلك « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها  
منه إنه ليطغى كفور » إلى قوله « وأجر كبير » فيه ذم خلق الأشر واليأس وطلب الصبر على البأساء  
وضبط النفس في السراء والعسر ، وقوله « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا » إلى قوله « وباطل ما كانوا يعملون »  
فيه ذم صفة الرياء . وقوله « وإلى نوح الخ » فيها خلق التوبة وشرفه ، وقوله « وإلى مدين أحاهم شعيبا »  
فيه طلب العدل في السكيل والميزان ، وقوله « ونولا كلمة سبقت من ربك » إلى قوله « لا يضيع أجر المحسنين »  
فيه الأمر بالاستقامة وترك المداينة والركون إلى الظلمة والصدع بالحق والاستعانة بالله وفعل الحسنات والصبر .  
أما آيات الأحكام فقوله تعالى « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك  
ذكرى لذيكرين » واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » وقد نزلت في عمرو بن عرفة بنائع النمر وقد قبل  
أجنبية ، وهذه الآية تدل على أوقات الصلوات الخمس ، فطرفا النهار الفجر فيه صلاة الغداة ، والعشي فيها  
الظهر والعصر ، والزلف : أي الساعات القريبة من النهار أصلاة المغرب والعشاء ، ولا تكفر الصلاة  
إلا الذنوب الصغار على الأوجه ، أما آيات النظام العام فهي طوى السورة بمقصودها والله أعلم .  
هذا هو الملخص الذي كتبت في ذلك التاريخ ، فلا شرع في تفسير السورة تفصيلا بعد ما عرفها إجمالا  
وقرأت حكمها الشريفة ومجانيها المنيفة لتسكون على بينة من معانيها وفي الفهم على صراط مستقيم .

### ( الْقِسْمُ الْأَوَّلُ )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر \* كِتَابٌ أَخْكَمَتْ آيَاتُهُ \* ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ \* أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا  
اللَّهَ إِنِّي لَكُنْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ \* وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ \* ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ  
مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ \* وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ  
عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ \* إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ \* وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* أَلَا إِنَّهُمْ يَبْنُونَ  
صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ \* أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ \* وَمَا يُعْلِنُونَ أَنَّهُ  
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ \* وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
وَمُسْتَوْدِعَهَا \* كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ \* وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ  
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ \* أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .

لأبتدى الكلام على البسملة وعلى قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها  
ومستودعها كل في كتاب مبين » .

جرت عادة العلماء في الإسلام أن يسيبوا في الكلام على البسمة في أول كتبهم ويشرحوا ما يحصها من العلوم الاثني عشر الأدبية كالنحو والصرف واللغوي والبيان والبديع والخط والإنشاء الخ .  
 أما في هذا التفسير فإني تكلمت عليها في أول سورة الفاتحة وبينت الكلام في رحمة الله عز وجل أي في التصود من إنزال القرآن إلى هذه الأرض ، إن أكثر العلماء رحمهم الله أرادوا ترقية العقول واتساع القلوب بالعلوم التي هي آلات الفهم ، أما أنا فإني بحمد الله أكتب هذا التفسير لأناس لهم حظ من هذه العلوم فعلى أن أوجه المهم إلى ما هو المقصود من ذكر الرحمة وقد ذكرت شيئاً منها في الفاتحة وشدوات في سورة آل عمران عند قوله تعالى « بيدك الخير » وقوله تعالى « ورزق من تشاء بغير حساب » فبينت هناك رحمة عز وجل في الحشرات وغيرها وأنه سبحانه أخذ بناصيتها وهكذا عند قوله تعالى في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » وكذلك في قوله تعالى في سورة الأعراف « ورحمتي وسعت كل شيء » . وههنا أقول إن الله كرر الرحمة في القرآن في أول السور فوق اللاتين وهكذا ذكرها في مواضع كثيرة كقوله تعالى « وهو أرحم الراحمين » في سورة يوسف ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قال في نبينا صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ولا جرم أنه الآن في العالم الأعلى فوجب أن نكون نحن المسلمين على الأرض قاطنين بالرحمة ، والرحمة على [ قسمين ] رحمة بالحيوان ، ورحمة بالإنسان ؛ أما الرحمة بالإنسان فلن تتم لنا إلا إذا أصبحنا عالمين بقدر طاقتنا بعلوم هذه الدنيا حتى ترقى نفوسنا وترقى غيرنا ، ومستحيل هذا الرقي إلا بنشر العلوم بيننا أولاً وهكذا الصناعات وحينئذ ترشد غيرنا ونكون رحمة . أما الآن فلا فطن يجمل الرحمة العاتمة كيف يستعملها وكيف ينشرها بين الناس فرحمنا على مقدار عملنا فيها ، وعملنا فيها على مقدار علمنا ، وعلمنا اليوم قليل ، وأما الرحمة بالحيوان فإننا معاشر الأمم الإسلامية لم ننشرها بين الشعب بل حصرت في كتب الفقه والأهم الإسلامية ساهية لاهية عنها والقرنجة قاموا بجمبعيات للحفاظ على الحيوان في بلاد الإسلام وهذا بسبب كتبهم التي ألفوها لصغارهم وفيها ما يرفق القلب على الحيوان ويورث الشفقة .

فلا ذكر ما جاء في الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم ثم أتبعه بما يفتح الله به . وقبل أن أذكر الأحاديث أقدم مقدمة فأقول :

إن العالم على [ قسمين ] عالم لطيف . وعالم كثيف ، فالعالم اللطيف لا يندري منه شيئاً إلا العلوم والأنوار والجمال ، ونحن في هذه الأرض نحسّ بنعمة العلم وبنعمة الجمال وبجمال النور ، هذه النعم الثلاثة نحسّ بأنها خالية من الحزن ومن الكدر والنحس والشقاء ، يقف الإنسان مبهوراً أمام الجمال فينسى كل حزن ويشعر بسرور وخفة روح ولطف الحب الذي سببه الجمال يأخذ باب صاحبه على مقدار الإحساس بالجمال فيصيب عن كل حزن وكدر في ذلك الزمن الذي غشى الحب على قلبه ، ولقد عرف الناس أن الحب درجات : درجة دنيا وهو حب الجهال للجمال الظاهري فإنه سريع الزوال . وحب العلماء للجمال العلم ، فهذه درجة وسطى . وحب الحكماء وأولى الألباب لخالق الجمال ، وهذه هي الدرجة العليا ؛ فالجاهل يابهيه الجمال الحيواني في وقت ما من حزنه وغمه وشقائه ، والعالم والحكيم يجدان لذة لا يحس بها الجاهل في علمهما وحكمتهما وإدراك منظم هذا الوجود على قدر طاقتهما وهكذا النور الذي هو عالم وسط بين اللذات والمعنويات يسر النفس على قدر إدراكها له .

هذه مظاهر تمت في النفوس ارتياحاً لعالم المبررات الذي لم تنله في هذه الدنيا ، أما عالم اللذات فإن الرحمة فيه لا تكون إلا باستعمال الحكمة وإظهار بدائع القدرة واستكمال صور الموجودات بأنواع التنظيم

والإحكام ، إذ يظهر أن هذا العالم اللادى الذى نعيش فيه عالم متأخر تغلب عليه الشقاوة ولكن يد القدرة ومحجب الإبداع والإحكام قرّبه من الرحمة ، وفي هذا التفسير من عجائب التدبير لأجل الرحمة ما يكفي اللبيب مثل ما ذكر في سورة البقرة عند قوله تعالى « إن في خلق السموات والأرض » وفي آل عمران عند قوله « بيدك الخير » وفي آخرها أيضا ، ومثل ما ذكر أول سورة اللائدة ، وهكذا ما جاء في آية « ورحمى وسعت كل شئ » فلا نعيده ولكن نشير إلى هذا الأخير بما ذكر هناك :

(١) مثل أن الأرض يعوزها ما يقلل أضرار اللواد الرطبة التى يفسد الجوؤها بقاؤها فيحصل الهلاك ، لذلك خلق القباب والجراد ونحوها من الحشرات .

(٢) وكثير من هذه الحشرات تضرّ الزرع بقاء البرد أيام الشتاء قتل تلك الحيوانات .

(٣) وهذا البرد يضرّ البذر والزرع الناشئ حديثا زمن الشتاء لاسيما في البلاد التى اشتدّ بردها لجمل لها الثلج واقيا مانعته من بذر وزرع في البرّ ومن سمك في البحر لأن الثلج فوق سطح البحر يمنع البرودة عما تحته فيبقى الماء يندو فيه السمك وبروح برحمة الله ثم يشتد حر الشمس فيذب الثلج فيخرج الزرع نضرا بها جميلا .

فانظر لتدبير منظم حشرات لإفلال الرطوبة ، فبرد لقتلها ، فثلج لإضعاف آثار البرد ، فشمس لإزالة ذلك الثلج ليخرج النبات ، وهذا مثل واحد من آلاف آلاف الأمثال التى تراها في هذا العالم تدلنا أن النظام والحكمة والتدبير هى التى جعلت في عالمنا بعض الرحمة لا كلها ، إن أرضنا كثيرة التغير سريعة التبدل قصيرة الأعمار كثيرة الزلازل منيت بالثمر بمزوجا بالخير فلاخير إلا جعل مصحوبا بشر ولا تقع إلا مع ضرّ ، ذلك كله لأن عالمنا غير مستعد لنظام الرحمة ، فليس من العالم اللطيف الجميل الذى تطول فيه الأعمار ويظهر فيه الجمال ويتلأأ فيه باهر الأنوار للدهشة ، بل إن مالدنيا من النور يصرقنا عن السرور به الرزاق الأراضية هذا هو عالمنا ، لذلك من هذا تفهم الحديث الذى أخرجه الشيخان والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأزل في الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء تراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .

إن هذا الحديث لا يعقله إلا من درس علوم الطبيعة والفلك ، وكما ازداد الإنسان علما ازداد بصيرة ، نحن رأينا الناس لا يرتقون في هذه الدنيا في مال أو علم إلا بنصب وتمب ، رأينا نظام الحيوانات في البرية مبنيا على الغلبة ، ورأينا الآساد تأكل الظباء ، رحمة بالآساد وبالظباء ، وبالناس ، فلولا هذه الحصة للملأّت الحيوانات الآكلة العشب السهل والجبل وملأّت رجمها عند هلاكها أقطار الأرض فكان الوباء فاقتضت الحكمة بقاء العالم ، وليس لهذا طريق إلا أن يخلق حيوانا يقلل ذلك التكاثر ويطهر الأرض من الرمم يجعلها في جوفه بحيث يطحنها ويحياها إلى مادة لاتعفن فيها فيكون بعضها من جملة جسمه وبعضها فضلات خارجات من السبيلين ، فهذه وأمثالها تدبير ولطف « إن ربى لطيف لما يشاء » فهذا التدبير يدهش العقول للفكرة وترى فيه ما لا يحظر يبال للشعوزين من الحيل العجيبة الناظرين للدهشة للفكرين ، ولعل هناك عوالم ألطف وألطف فتكون الحياة فيها أشرف وأشرف وأبقى وأطول ويكون الأحياء أعلم وأعلم ، لا كما نحن عليه في الأرض من رحمة أقل وعلم ضئيل حتى خاطبنا الله قائلا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فله علينا مناسبة لطف الرحمة الواصلة إلينا التى تمنعها نقص استعدادنا حتى لم نزل من الرحمة إلا واحدا من مائة ، وافق الحديث الآيبه .

الحديث ينص على أن رحمتنا واحد من مائة ، والآية جعلت علينا قليلا . قلّ العلم فقلت الرحمة وليس ذلك كله إلا من نقص علمنا الذي نعيش فيه ولم نستعد لإلا له ، إن نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، وقد ورد في الأحاديث ما أوجب علينا أن نحدو حدوه فيها مثل حديث ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الراحمون برحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء الرحم شجرة من الرحمن من وصلها وصله الله . ومن قطعها قطعها الله تعالى » أخرجه أبو داود إلى قوله « من في السماء » والترمذي بنامه ، والشجيرة : بكسر الشين المعجمة وفتحها بعدها جيم : القرابة للشجيرة كاشتباك العروقي .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » أخرجه الشيخان والترمذي .

وفي رواية أخرى لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « لا تزرع الرحمة إلا من شقي » .

وقد وردت أحاديث في رحمة الله تعالى ، منها الحديث للتقدم الذي جاء فيه ذكر مائة رحمة عن الشيخين والترمذي ، وورد فيه زيادات لمسلم مثل قوله : فيها أي في الرحمة الواحدة ، تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض .

وجاء في حديث رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فالزفته يطنها فأرضته فقال صلى الله عليه وسلم : أترون هذه للمرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه قال فأثرت الله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .

وجاء في رحمة الحيوان ما روى عن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيننا رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيه فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل التراب من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله تعالى له ففجر له . قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا قال في كل كبد رطبة أجر » أخرجه الشيخان وأبو داود .

وفي رواية أخرى « أن امرأة بيا رأت كلبا في يوم حار يطيف بيئرا قد أدلع لسانه من العطش فزعت له موقها ففجر لها به » (اللووق الحفّ) .

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال « كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل (الهدف : ما ارتفع من الأرض وحائش النخل : نخلات مجتمعات) فدخل حائطا (بستانا) فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه فأنام رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسح ذفراه فسكت (ذفرى البعير : للوضع الذي يبرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران وهما ذفريان) فقال من ربّ هذا الجمل فقال في من الأنصار هو لي يا رسول الله ، فقال أفلا تتق الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إلى أنك تجعبه وتدني (تعمه بكثرة استعماله) » أخرجه أبو داود .

وقال صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا ظهور دوابكم مناير إنما سخرها الله لكم لتبليغكم إلى بلد لم تكبوتوا باليه إلا بشقّ الأنفس ، وجعل لكم الأرض فمليها فاقضوا حاجتكم » أخرجه أبو داود .

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأينا حمرة (بضم الحاء وتشديد الليم : نوع من الطير في شكل الصفور) تمرش (ترفر) وترخي جناحها

وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جفع هذه بولدها ردّوا ولدها إليها ، ورأى قرية نعل قد أحرقها فقال من أحرق هذه ؟ فقلنا نحن ! قال إنا لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار .

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية نعل فحرق فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك نملة أحقرت أمة من الأمم تسبح » اهـ .

نظرة في هذه الأحاديث وفي الآية التي نحن بصددها الكلام عليها

يقول الله تعالى « وما من دابة في الأرض إلخ » ويقول هود « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ويقول في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم إلخ » وها هو رسوله صلى الله عليه وسلم يقول شكوا الجمل إلى وبأمر صاحبه بالرفق به ، ويقول غفر الله لبيتي سقت الكلب بحفها ، ويقول في الطائر من جفع هذه بولدها ؛ هذه الأحاديث توجب النظر والبحث وتوجب على علماء الإسلام في سائر الأقطار أن ينشروها وينشروها ويقولوا للناس في نشراتهم وفي كتبهم [ ينبغي عدم أخذ صنائر الصافير والطيور من أعشاشها ] .

خطاب إلى علماء الإسلام

أيها العلماء . وبأيها المسلمون ؛ أما أن لكم أن تذيبوا هذه الأحاديث وتقولوا للأمة بإياكم وأخذ فرخ الحمام من أمه قبل استكمال تربيته ، وذبح العجل مادامت أمه ترضعه ، وإياكم وصيد الطيور البرية مادامت تربي أولادها وتقولوا يجب دراسة علم الطير والدواب والحشرات وفهم طباعها فهما تماما ثم جعل الأحكام مطابقة لذلك بحيث تحرمون الصيد في وقت التربية والبيض وما أشبه ذلك . إن هذه الأحكام تختلف فيها العلماء اختلافا كثيرا ولكن لا معنى للخلاف مع وجود الحديث ، ولعل الأمم للسيحية أقرب إلى الرحمة منا .

اللهم إني أبرأ إليك من هذا الجهل القاسي في أمة الإسلام ، اللهم قد نهيت وأوصحت وحسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم إن نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وقد أذرت وحذرت ولكن الناس أهملوا والأمم كلها تيقظت إلى هذه الرحمة ونحن اليوم جهلاء بها وأنت أرحم الراحمين ، فألمم العلماء في الإسلام إكمال ما ابتدأناه وشرح ما أجهلناه ، ألممهم إلهي أن ينظروا في هذا الوجود ، ألممهم أن ينظروا في الأمم حولهم ويقرروا علومهم بلغاتهم إلهم يجدونهم قد عطفوا على هذه الحيوانات وفكروا فيها ، ومنهم من يرحمها وقد ألقوا جماعات نجومس خلال ديارنا ررحمتها وإن كان علمهم أبتى وناقصا ، ألممهم أن يفكروا في أمر الإسلام وكيف يكون للمسلمون أقل رحمة بالحيوان من غيرهم غفلة وجهالة وبعدا عن الحق وأنت قد ذكرتنا بأن هذه أمم أمثالنا وما فرطت فيها وأن عليك رزقها وأنت تعلم مستقرها ومستودعها وأنت آخذ بناصيتها ، فإذا كانت هذه منزلتها منك فكيف جهلنا نحن المسلمين منزلتها عندنا ؟

أباح للمسلمون صيد الحيوان بلا قيد ولا شرط وخالفوا العلماء وخالفوا رسولك القائل « من جفع هذه بولدها ردّوا ولدها إليها » هذا الحديث المذكور في كتاب [ تيسير الوصول للجامع الأصول ] فهو في حكم الأحاديث الصحاح .

ألم بأن للمسلمين أن يدرسوا هذه الأمم درسا مدققا ؟ إننا وإياها نكون أسرة واحدة ، فهي تساعدنا في الزرع والضرع والسفر ، وهي اللعنات لنا لتطربنا في حقولنا وللمطيات لنا ملابس ومساكن ومناظر جميلة

ومنها القناتل لحشراتنا الفاتكات بزرعنا ، وكيف يعرف الناس أن ولد الحمام يخالف ولد البط والأوز والدجاج من حيث عطف الأبوين ، وأن الفريق الأول في حاجة إلى الأبوين مما يعطفان عليه لضعفه وبطمانه ، وأن الفريق الثاني يخرج قليل الحاجة إلى الوالدين لقوته بالریش والنقار والقوة والاستقلال والجري وراء أمه من وقت الولادة وتماطى الغذاء من الأرض فلذلك لم يحتج إلى عطف ذكر البط والديك بخلاف ذكر الحمام الذى يعاون الأم ويعطفان معا على الولد ويتقطع قلبها أسفا وحسرة وحزنا إذا فارقهما وهو ضعيف .

أقول : كيف يعرف الناس ذلك كله إلا بالدرس والعلم ؟ أفلا يحسن أن يتنبه العلماء وحكومات الإسلام بعد ظهور ما كتبنا هنا إلى هذا الأمر ويحرموا الناس صيد أمثال ( الحطاف والصفور والسنان ) أيام تربية الأولاد ، وهكذا صيد أفرانها الضعاف : أى أن يتركوا الأبوين والقدرة أيام الحضنة ثم يصطادون ما يشاءون بعد ذلك حين استقلال الولد عن الوالدين فيصيح الأفران في غنى عن الأبوين فلا يتقطع قلبها ولا يترك الأفران الصغار مقطوعات لا عائل لها .

ومتى زال سبب العطف زال التحريم وهناك يكون المسلمون قائلين بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل « ردوا ولدها إليها » وذلك لسبب الحزن الشديد والعطف من الأم للررفة ، فأما بعد الاستثناء فإن الأولاد تكون مباحة وإذن يصبح هناك فرق بين صغار الحمام وصغار الدجاج فيؤخذ فرخ الدجاج وهو صغير لأن الأم لا يتقطع قلبها أسى وحسرة ، أما الحمام فبعكس ذلك . وهكذا بقية الطيور التى يقول فيها الحديث « ردوا إليها ولدها » ويكون ولد البط كولد الدجاج لأن الدار على شدة العطف وعدمه . هذا ما أراه في هذا اللقاه .

إن هذا الكتاب عام للمسلمين من جميع اللذاهب ، فلا هو خاص بأهل السنة ولا بالشيعه ولا بالإمامية ولا بالزيدية ، بل هو تفسير للقرآن مع الاستعانة بالسنة ، فهاهو ذا كتاب الله وهاهو ذا حديث رسوله صلى الله عليه وسلم وهاهو ذا وجدانكم ورحمتكم وإحسانكم الشريف أيها العلماء وعطفكم ورحمتكم ورحمة رسولنا صلى الله عليه وسلم فهل ترون أننا نكون أقسى الأمم ونبينا بث رحمة للعالمين ، البوذية محرمون جميع الحيوان ، ونحن أمة وسط فأبىح لنا حيوان وحرم علينا آخر وأمرنا بالنظر والاعتبار وتقديم في سورة المائدة أن هناك حيوانات نافعات لنا منعت حكومتنا للصربية صيدها بسبب ما كتبناه كما ستراه في سورة يوسف قريبا فقلنا فليحرم صيد هذه الطيور لمنفعتنا لنا في حقولنا ولتجعل هذه قاعدة ، إن المسلمين يدرسون علوم هذه الدنيا ويحرمون صيد كل حيوان نافع لهم وهذا أمر يجب ألا يختلف فيه العلماء ، فمن قطع أصبع نفسه أو يده حرم عليه هكذا هذه اللاتي تساعدنا قتلها حرام لأن ذلك يفتت منفتها أما التحريم الذى أذكره هنا فهو للشفقة والرحمة التى تكررت في أول كل سورة وفي كل ركعة صباحا ومساء وفي القرآن وفي الحديث ، فمن الجهالة والتقليد الأعمى للذموم الأبله ألا يفرق السلم بين أفران الحمام مثلا وأفران الدجاج ، فلتأمر حكومات الإسلام قاطبة بتحريم اصطياد كل طير في فصل الربيع إبان تربية أولادها حتى يستغنى الصغار عن الأبوين . ومن هذا الحمام الذى تربيه في منازلنا ، فليحرموا عليهم ذبح صغار البدرية مادامت في حضنة الأبوين ، فأما الصغار منها إذا استكملت قوتها فهناك يكون آلام الأثمات قد قل كثيرا وخفت فلا بأس إذن من أخذها .

قد اعتاد المسلمون أن يقدموا دروس الصلاة والصيام على أمثال هذا ، وكان الأجدر أن تؤلف كتب للصغار فيها هجاب هذه الدنيا باختصار ويذكرون فيها بعض الأخلاق ورحمة الحيوان ، وذلك كله قبل الكلام

على أركان الإسلام حتى إذا اشتاقوا لربهم وأحبوه بحمال صنمه وعموم رحمته أخذوا يبينون لهم كيف يصلون لصلواته ولتقربوا منه فيصلون بحب لما يعرفون من عموم رحمته لهم ورافته بهم وبالحيوان ، هذا ما وقف له اليوم والحمد لله رب العالمين .

فمليك أيها الذي القاري لهذا التفسير أن تنشر هذا بين الناس بقدرك ولسانك ومالك من قوة وقدرة أو إمارة ، فالسلكون اليوم في حاجة تصوي إلى انكزرى وأنا أرجو أن يحيى الله بك قلوبا وقلوبا فإن الكتاب لا يعمل له وإنما العمل لرجال ، والله عز وجل يدأني عن اللعين وبسألك عنهم مادمت موقنا بما تقرأه في هذا التفسير والله هو الولي الحميد، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، انتهى الكلام على البسمة فلاشروع في تفسير السورة .

#### التفسير اللفظي

قال تعالى ( الر ) تقدم في أول سورة آل عمران ، هذا ( كتاب أحكمت آياته ) نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نفض ولا خلل كالبناء المحكم من الفساد وليس ينسخها دين بعدها وأحكمت بالحجج والدلائل ، ويصح أن يقال إنها من حكم بالضم إذا صار حكما ، فإن فيها أمهات الحكم النظرية والعملية كما قدمنا في مخلص السورة ( ثم فصلت ) كما تفصل القلائد بالقرائد ، فمن دلائل توحيد إلى أحكام إلى مواعظ إلى قصص أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد : أي بين والحس ، ونم للتراخي في الحال لا في الوقت كما تقول بحكمة أحسن الأحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل ( من لدن حكيم ) فذلك أحكم الآيات ( خير ) بتفصيلها فذلك فصلها . ولما كان في فصل معنى القول جيء بأن الفسرة في قوله ( ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ) كأنه قيل : أي لا تعبدوا الخ ، ثم عطف عليه ( وأن استغفروا ربكم ) من الشرك ( ثم توبوا إليه ) بالطاعات ( بتمتع متاعا حسنا يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة ويعشكم في أمن ودعة وعبشة مرضية ونعمة متتابعة ) إلى أجل مسمى ( إلى أن يتوفاكم ) ويؤت كل ذي فضل فضله ) ويمط كل ذي فضل في دينه جزاء فضله في الدنيا والآخرة وهذا وعد للؤمن التائب بثواب الدارين ( وإن تولوا ) وإن تولوا ( فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ) يوم الشدائد في الدنيا بقمحط أو قتل كما حصل فقد أكلوا الحليف كما قيل وقتلوا في النزوات النبوية ، وفي الآخرة أيضا بعذاب جهنم ( إلى الله مرجعكم ) رجوعكم ( وهو على كل شيء قدير ) فيمتع من يستحق بالرزق ويعطى ذا الفضل فضله ويعاقب اللسيء ويشيب الحسن يوم القيامة .

وهذه الآيات دالة على قدرة الله تعالى ، ثم أتبعها بما يفيد عموم علمه كما عمت قدرته فأبان ما كان عليه للشركون فاتهم إذا دخلوا بيوتهم يرخون ستورهم ، ويحنون ظهورهم ، ويتغشون بتيابهم . ويقول الرجل منهم : هل يعلم الله ما في قلبي ؟ فرد الله عليهم قائلا ( ألا إنهم يثنون صدورهم ) يرضون بقلوبهم من قولهم : نيت عناني ، وهم قد أرخوا الستور ، وأحنوا الظهور ، واستغشوا بالتياب ( ليستخفوا منه ) ليطلبوا الخفاء من الله بتلك الأعمال ( ألا حين يستغشون بتيابهم ) ويحنون ظهورهم ويرخون ستورهم ( يعلم ما يسرون وما يعلنون ) فلا تغاوت في علمه بين سرهم في تلك الستور والتياب وعلمهم في الجامع والمخافل ( إنه علم بذات الصدور ) أي بالأسرار ذات : أي صاحبة الصدور . وإذا علم ماخفي في الصدور فعلمه بغيره أولى .

ولما أثبت قدرته وعلمه العالمين لجميع نوع الإنسان شرع بقررها لجميع الكائنات مبتدئا بالنواب التي هي أقرب إلى الإنسان لمشاركتها له في الحس والحركة مثنيا بالسماوات والأرض خاتما باستنتاج أنه قادر على البعث فقال ( وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ) غذاؤها ومعاشها ( ويعلم مستقرها ) في الأصلاب ( ومستودعها ) في الأرحام ؟ فإثبات القدرة بعموم الرزق وإثبات العلم بأنه يعلم مستقرها ومستودعها كما ذكر في الإنسان أنه يتمتع متاعا حسنا من استحق ذلك وأنه يعلم ما يسر وما يعلن على سبيل القف والنشر للرتب ( كل ) كل واحد من النواب

وأحوالها ( في كتاب مبين ) المذكور في اللوح المحفوظ قبل خلقها ( وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ) تقدم شرحها فيما مضى في يونس وفي أول الأنعام ( وكان عرشه على الماء ) وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة يونس بأن الماء العلم : أي وكان ملكه قائما على العلم ولا يزال كذلك ، وإنما خلق السموات والأرض ليربي ذوى الأرواح فهما بالخير والشر ، وهذا قوله ( ليلوكم أيكم أحسن عملا ) أي ليختبركم بين الحياة والموت أيكم أخلص عملا ، ولولا ذلك لكان خلق العالم عبثا « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » بل خلقناها لتربي فهما نفوسا وترقيها لحياة دائمة وغايات شريفة ويكون لها حياة وموت وارتقاء ومحطاط ابتلاء وامتحان .

## لطائف

اللطيفة الأولى في قوله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت الخ »

لما اطلع على هذه السورة بعض العلماء حدثني قائلا :

إني رأيت ( الر ) في سورة يونس وفي سورة هود قد ذكر الله بعدها الحكمة ، فهو سبحانه يقول في يونس « تلك آيات الكتاب الحكيم » وهنا يقول « أحكمت آياته » ثم يقول « فصلت » ثم يصف نفسه بأنه حكيم وأنه خير ، ومعلوم أن كلام الله موزون بميزان .

وإذا كنا نرى جميع أفعاله موزونة في أصغر التدرجات فهكذا فليكن كلامه فلماذا أكثر من ذكر الحكمة بعد هذه الحروف .

( ج ) لو أنك اطلعت أيها الفاضل على ما تقدم في هذا التفسير لأمكنك الجواب ولعرفت الحقيقة .

( س ) كيف لا أعرفه وأنا منذ كر كل ما قلته أنت في هذا اللقاء ؟

انظر ، ألم تقل في سورة آل عمران : إن « ألم » جاءت لإيقاظ السليدين للفرور الذي فشا في الإسلام كما اعتز اليهود وإن نتيجة ذلك وجوب نشر العلوم الفلكية والطبيعية والرياضية والعقلية وإلا حقت كلمة العذاب علينا وهذا واضح في سورة آل عمران ، وأيضا أنت قلت إن « ألم » في سورة البقرة مذكور بمسألة الجهاد وبمسألة تحليل العناصر ومعرفة حقائق المادة بعلم الكيمياء العضوية وغير العضوية لأن هذه الآيات هناك مبدوءة بهذه الحروف « ألم » فقال تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم الخ » وقال « ألم تر إلى الذي حلج الخ » فصارت هذه الحروف مشيرة لعلم الكيمياء والجهاد ولتعميم العلوم وكذلك في « اللص » جاء فيها ما يقرب من هذا مفصلا موضحا شارحا للتصود من ( ص ) الخ تشير إلى القمص وأن ملك السورة قد جاء فيها قصص آدم وبنيه من الأنبياء وأن هناك استنتاجا قد ذكره الله في نفس السورة ليعلمنا كيف نستنتج من القرآن ومن كل شيء كسألة اللباس الذي زال عن آدم للذكر بأنه أنعم علينا بالقطن والكتان الخ وأنه أنعم بلباس التقوى الذي هو خير الخ ، وهكذا توالت قصص الأنبياء هناك وظهر أن كل حجة احتج بها للعائدون كانت أشبه بحجة إبليس كأن يقولوا « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » فصار الاعتراض بالآباء أشبه باعتراض إبليس بأصله وأنه من نار وأن الناس على الأرض اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم سائرهم على هذا النمط .

فهذا بعض ما تقدم في معاني هذه الحروف ، فكيف تقول إنى لو كنت عرفت ما تقدم لعرفت الجواب ؟ أما ما فإني بعد ما تقدم أقول إنه لا يكفي للجواب ، فإن تكرار الحكمة والتفصيل وأنه خير يدل على مغزى أعم مما تقدم وأبعد مدى وأقوى وأهم .

( ج ) إن هذه الحروف أنزلها الله في القرآن ليخرج بها السليدين من ظلمات الجهالة إلى مشارق النور ومباهج الحكمة ومناهج السعادة وباحات الجمال وساحات العلم والكمال .



علم الله عز وجل قبل أن يخلق الخلق أن للسدين سيامون نوما محيقا وهم غير مقصرين ، بل هم  
مخلصون لربهم ولدينهم فأزل الله هذه الحروف لترفع العشاوة عن أعينهم بعد نومها وتوقظ جماعاتهم  
بعد غفلتها .

(س) أما كون هذه الحروف ترفع عن أعينهم العشاوة وكونهم هم غير مقصرين في نومهم فهذان أمران  
لا أعقلهما وكيف أعقلهما ؟ .

(ج) أما كونهم غير مقصرين في نومهم فإني أوضعه لك

أنا من البلاد المصرية ولى نظراء من بلادنا توجهنا إلى الأزهر لتعلم العلم فوجدنا أماننا النحو والعقود  
والتوحيد ، وهكذا علوم اللغة العربية وعلم الأصول وما أشبه ذلك ، تلك العلوم التي اعمدنا عليها من آياتنا  
وأجدادنا من عصور مضت وقد سلطت عليهم ملوك وأمراء ووقصوا فيها وقت فيهم من الضنك ولم يستخلصوا  
لنا من ظلم الظالمين إلا ما وصل لنا .

تعلمنا هذه العلوم ثم نظرنا حولنا فرأينا أننا ودولنا وعلومنا فرجعنا إلى القرآن فوجدنا أن العلوم التي  
ارتقت بها الأمم يطلبها القرآن فلا نصا صريحا فنصحننا الأمة بتلك العلوم .

أقول لك : لولا اطلاعنا على هذه العلوم ما أسكتنا أن ندعو الأمة لها ، فأسلاننا الدين ورتبوا هذا العلم  
كان أكثرهم لم يطلع على هذه العلوم ومن اطلع منهم ألف ونصح الناس بقراءتها ، ولكن الجهل كان يمنع  
الناس من اتباعهم . وعلى ذلك تقول : إن أحوال الأمم الإسلامية كانت محنة عليهم أن يعيشوا على  
هذا للنوال .

فإذا كان علماء الدولة العباسية قد حاز كثير منهم للمقول والنقول ودعوا إليها كالفزالي رحمه الله والرازي  
ومثلهما ابن رشد بالأندلس وكثير غيرهم ، فإن للتأخرين أرغموا أن يتعلموا العلوم العقلية وقلت فيهم العقلية  
فهم كانوا لا يجلبون ، ولذلك ترى كثيرا منهم حاربوا للفكرين في هذه العلوم كما تراء واضعا في سورة الأنعام  
عند قوله تعالى « يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » فإذا علم الإسلام التأخرون منهم من عرف  
ودعا لما عرف ، ومنهم من جهل ، ومنهم من عرف أن هذه حق ولكنه خاف على شهرته فخرب القائمين  
بها ، وهؤلاء كلهم عند ربهم وهو يجازي كلا بما فعل .

فالمدار في الأمم على شيوع الفكرة ، فحق شاع أمثال ما كتبنا في هذا التفسير فان الأمة تسير على منواله  
ومنوال أمثاله ولا تقصر .

والسؤال الآن عن هذه العلوم أمثالك أنت ممن أيقنوا بهذه الفكرة فهم هم للسؤالون كما أنتي أنا مسؤل  
ولكن الله سبحانه أعانني بنشر هذا الكتاب وهو حقا سبحانه كما أعانني بأن تنشر الفكرة بين المسلمين ،  
أما وأنت وكل من عرف هذه الآراء التي رأيتها في هذا الكتاب فهو مسؤل ، أما الذي لم يطلع فكيف  
يطلب الناس ؟ فالناس على حسب أسانذتهم ومن يباشرهم ؟ فطم الناس فأنه سألهم عنهم واحفر  
من التفسير .

هذا معنى قولهم أنهم غير مقصرين في قولهم : أي غالبا ، فتجد علماء الدين الإسلامي اليوم راضين بما  
حصلوا من العلم وذلك بسبب ما لفته الأسانذة لهم والحلف يقبح السلف ، ولكن هذه الهمة الحالية ستغلب  
التعليم رأسا على عقب وصبح الحق الإسلامي جو حكمة وعلم وإبداع واختراع ونظام واطلاع على بدائع الجمال  
الإلهي وروائع الأحكام الصمداني وغرائب النور النجدي .

هذا شرح لقولي إنهم كانوا غير مقصرين ، وأما

(س) فقال أرجو ألا يجيب عن السؤال الثاني : أى أن هذه الحروف سبب في إزالة العشاوة إلا بعد أن أسألك في نفس الجواب الأول .

(ج) سل ما بدا لك

(س) ما أهم الأسباب في جهل المسلمين بحمال هذا العالم الذى نعيش فيه مع أن الله لا يعرف إلا به والحكمة لا تتم إلا به ، والقول لا ترتقى إلا به ، ونظام الأمة لا يتم إلا به .

(ج) قد أشرت إليه في الإجابة .

(س) هذا لا يكفي !

(ج) قد تكرر ذكر هذا في التفسير في مواضع كثيرة

[ ذلك ] أن الإمام النزالي في كتاب الإحياء شرحه شرحا وافيا وبين أن علماء الفقه في زمانه اعتادوا أن يسموا هذه الأحكام الشرعية بلفظ ( فقه ) ولفظ فقه كلمة مدروحة ، فإن الله يقول في القرآن « لقوم يفقهون » فعلى كلمة مدحها القرآن والحديث جرت على الألسن بأنها الأحكام الشرعية وصرفت الناس عن جمال ربهم ومجانيبه ونباته وحيوانه وثمسه وقمره ومجومه الباهرات ، ومجانيبه الظاهرات ، وآياته للدهشات ، وحكمه العاليات ، ثم درج الخلف على ما كان عليه السلف وأصبح العالم في الإسلام هو من يتعاطى هذا العلم في ذلك العصر وبه يتولى القضاء ويتصدر في المجالس ويصبح غنيا بالمال والمظنة والجاه ، يحتاج إليه الملوك في تصريف الدولة ، لأن الفتوى عليها مدار أمر الأمة لأن الدولة إسلامية والأحكام شرعية ، ذلك هو ملخص مقاله الإمام النزالي ، ثم أخذ يذمهم ويقول هؤلاء يقرءون هذه العلوم للدنيا لا للآخرة وجعلهم شرما من الشياطين وينمذ كثيرا ، وقال كيف يتركون الطب والسياسة وجميع العلوم ويقولون إنهم يقرءون فرض كفاية مع أن فرض الكفاية جميع العلوم والصناعات ، إذن هم لا يريدون إلا الدنيا وإلا فلماذا لا يقرءون الطب وتركوه في يد النصارى واليهود ؟

هذا ملخص كلام الإمام النزالي ، فانظر كيف رأينا أننا نحن جننا في زمان لا دولتنا قوية الجانب فنعتز في الدنيا بها ، ولا نحن متمقلون فرضى ربنا .

فإذا كان العلماء في زمن الإمام النزالي يطلبون الدنيا وكانت عندهم دنيا فكيف نقرأ علم الدنيا الذى لا يأتى بالدنيا أيضا ، لأن أكثر العلماء من الشافعية والحنفية والمالكية ، والحنفية في بلادنا المصرية أكثرهم لا يولون القضاء ، لأن القضاء اقتصر على مسألة الأحوال الشخصية وأصبح القانون الفرنسى هو السارى في بلادنا .

وقد علمنا أن بلاد الترك قد جرت على قانون دولة أوربية فإذن يكون على رأى النزالي علماء الدين إذا ساروا على نهج التقدميين أسوأ حالا ألف مرة من الذين كانوا في زمن الإمام النزالي ، لأن أولئك طلبوا دنيا ولا آخرة لهم فنالوا الدنيا لأنهم لهم صولة بصولة الدين .

أما للتبحرون في هذه اللذاهب في هذا الوقت فهم لا يتلون دنيا ولا آخرة إلا على نياتهم فقط ، أما الدنيا فلا وظائف لأكثرهم ، وأما الآخرة فلأنها لا تنال إلا بأعمال تحتاج لها الأمة وعلوم كذلك ، والأمة في حاجة إلى صناعات وعلوم أخرى غير القضاء ، والعلوم التى تنال بها الآخرة هى الأخلاق وتهذيب النفس ومعرفة محال الله تعالى في سماواته وأرضه حتى يكون الإنسان موقنا شاكرا .

هذا هو السبب الذى حصر علماء الإسلام في الدوائر الضيقة ، وهناك سبب آخر وهو حصر طائفة من

الأم الإسلامية في حفظ القرآن بلا عقل ولا فهم . وهذه أيضا نكبة أخرى بل القرآن يفهم ويقتل إما مع الحفظ وهو أفضل ، وإما بلا حفظ وتنتيجته ترقية العقول والعلوم والأمة ومعرفة جلال الله (س) ما سبب اقتصار طائفة في مصر وبلاد المغرب وبلاد العرب ونحو ذلك على حفظ القرآن بلا عقل ولا فهم ؟

(ج) من أسبابه ماجاء في [ الإتيان في علوم القرآن ] للعلامة السيوطي قال في الجزء الثاني صفحة ١٥٥ مانصه :

فصل : أما الحديث الطويل في فضائل القرآن سورة سورة ، فإنه موضوع كما أخرج الحاكم في اللدخلى بسنده إلى أبي عمار اللوزي أنه قيل لأبي عصمة الجامع من أين لك من عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ، فقال إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بقرآن أبي حنيفة ومغازي ابن إسحق فوضعت هذا الحديث حسبة .

وروى ابن حبان في مقدمة تاريخ الضعفاء عن ابن مهدوى قال : قلت لميسرة بن عبد ربه بن ابن جث بن هذه الأحاديث ؟ من قرأ كذا فله كذا ؛ قال وضمتها أرغب الناس فيها .

وروينا عن المؤتمل بن إسماعيل قال : حدثني شيخ يحدث أبي بن كعب في فضائل سور القرآن سورة سورة ، فقال حدثني رجل بالمدائن وهو حى فصرت إليه فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ بالبصرة فصرت إليه ، فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ بالبصرة فصرت إليه ، فقلت له من حدثك ؟ قال شيخ ببغداد فصرت إليه فأخذ يدي فأدخلني بيتا فإذا فيه من للتصوفة وبينهم شيخ ، فقال هذا الشيخ حدثني : فقلت يا شيخ من حدثك ؟ فقال لم يحدثني أحد ، ولكننا قد رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضنا لهم هذا الحديث ليعرفوا قلوبهم إلى القرآن . قال ابن السلاخ وقد أخطأ الواحدي للفسر ومن ذكره من للفسر في إبداعه تفاسيرهم اه ، من [ الإتيان ] للذكور للعلامة السيوطي رحمه الله تعالى .

فإذن ظهر لك الأمران : انكباب الناس على الفقه ، وانكبابهم على حفظ القرآن .

والأول : للقضاء في القرون التقدمة وللإتيان وحسن النية في القرون للتأخرة .

والثاني : لأجل الأحاديث التي أكثرها موضوع لأجل حفظه القرآن .

(س) الآن قد آمنت بأن هذه هي أسباب الفقه وحفظ القرآن ، فأرجو الآن أن ترجع للموضوع الذي كنا فيه فقد صدقتك عن إكمال الكلام فإنك كنت ابتدأت تجيب عن قولك ، لماذا كانت هذه الحروف هي التي ستوقظ الإسلام ؟

(ج) تبين مما قدمته لك أن للسلمين غالبا تقوهم العادات والأتيان ، والمامة يتبعون الحامسة والحامسة يتبعون من قبلهم ولا يفكرون لماذا سار الأوتون على نعلهم ، قال نعم ! قلت فهذه الحروف قد أزلها الله في القرآن وذكر الحكمة والتفصيل قال « من لدن حكيم خبير » فآله حكيم ، وآله خير ، وآله فضل الآيات ، وآله أحكمها

هذا كله ينبئنا عن أمر جيد النور عظيم الغزى ، فإن العاقل إذا سمع هذا القول وعرف أنه قول الله يقول في نفسه : لماذا هذا كله بعد حروف لا معنى لها ؟ فيفكر فيها طويلا ثم يقول إنما أفردها الله بذكر في أول السور لأمر عام هام وهو ما أشرت إليه سابقا ، ألا وهو قراءة جميع العلوم .

إن هذا العصر عصر الكيمياء ، إن الكيمياء ترجع للركبات إلى عناصرها الأولى ، والعناصر الأولى قد بلغت ثمانين ولها جدول سترا . في ( سورة النكبات ) والجدول عجيب شيق جميل يدلنا على حكمة ونظام

صحيح حتى إن من يطلع عليه يدهشه هذه الحكيم ، إنك ترى أن كل عنصر له مع العناصر التي قبله في صفه والتي بعده والتي فوقه والتي تحته : أي في الصف الأفقي ، وفي الصف الرأسى نسب وزنية وأخرى طبيعية وكماوية ؛ فسترى هناك أن العناصر التي فيها الله في الأرض والكواكب والنبات والحيوان مثل الأكوچين والأدروچين إلى آخرها عند النظر إلى صفاتها الطبيعية والكيميائية والوزنية تصبح متشابهة مرتبة منظمة مصفوفة بحيث لو غاب أحدها لعرف محله من هذه الصفوف .

ولقد أخبر العلماء عن بعض العناصر قبل كشفها ، ولما كشف ثلاثة منها وضعوها في موضعها فصارت أشبه بجسم إنسان واحد عرف موضع عينه وأذنه وبطنه وهكذا ، فانظر لعناصر متفرقات في البرارى والقمار والبحار لما جمها العلماء شكلت شكلا واحدا في هيئة ندهش العقول .

فهذه العناصر هي أصل العالم الذي نعيش فيه وهذه العناصر كلها ترجع إلى عالم لم يره أحد يسمى (الأثير) وهو عالم واحد لا يشم ولا يذاق ولا يلمس ولا يسمع ولا يرى .

هذا هو الذى منه كانت العناصر ، ومن العناصر كانت هذه السموات والأرضون على رأى العلماء في عصرنا الحاضر الذى هو أقرب إلى القرآن وإلى حروف (ال . و) (ال ر) التي في هذه السورة ، فان القرآن وجميع الكلام في سائر اللغات مركب من الحروف الهجائية ولن تعرف لغة من اللغات إلا بتحليلها إلى حروفها الأولية ، ولا يتسنى الكتابة ولا طبع كتاب متأ إلا بإيراد الحروف ثم تركيبها ؛ فكما لانعرف اللغات إلا بمعرفة حروفها هكذا لا يعرف شئ من هذا العالم إلا بتحليله ، ولا يعيش حيوان ولا إنسان إلا بتحليل اللوادة التي حوله ، وإلا لم يكن شئ في عالم الحيوان ولا عالم النبات ؛ فأنه عز وجل حكم على عالمنا الذي نعيش فيه ألا يكون حسن قوام إلا بالتحليل ورجوع للركبات إلى عناصرها سواء أكانت أعذية للأجسام أو أعذية للعقول ، فلا غذا للإنسان أو حيوان أو نبات ولا علم لعالم بأمر من أمور هذا العالم إلا بتحليل ذلك للعلوم ، ولا رقى في صناعة أو طب أو زراعة إلا بتحليل الأشياء إلى عناصرها .

(ر) هذا كلام غامض ، وأى مناسبة بين العلوم وهضم الطعام ؟ إن هذا مما يسمى للفارقات لا للواقات .

(ج) إن الذى أذكره الآن هو الحقائق وسأوضحها لك الآن ، ولتلم أن هذا هو السر الذى نزلت به هذه الحروف وهذا أوان ظهوره للناس ، لأن الله علم أن السلم متقاد للقرآن وقد جعل الله هذه الحروف لتكون نورا يستضيء به المسلمون لأنه حكيم ولأنه خير ولأنه أحكم الآيات ولأنه فصلها ، ومن تفصيل الآيات أنه أتى بحروف الهجاء التي هي أصول للكلمات ، فكانت الكلمات فصلت إلى حروف ، وكما أن الحروف أصول للكلمات هكذا العناصر أصول هذه المخلوقات .

فعلى المسلمين أن يزعوا في فن التحليل والتركيب في هذه العوالم التي هي مركبات من العناصر كما ركبت الكلمات من الحروف

هذا هو السر الذى أراد الله إظهاره في هذا الزمان .

(س) أرجو أن توضح هذا القام من وجهين :

[ أولا ] كيف كان الإنسان هو الذى يحلل هذه العوالم ؟

[ ثانيا ] كيف تستدل هذا الاستدلال وهل رأيت أحدا من العلماء يحا نموك في هذا الاستدلال ؟

(ج) اعلم أن الله وضع هذا الهيكل الإنسانى بهيئة ناطقة بما يأتى : أى أن الجسم الإنسانى كماه الآن

أماى بهيئة خطاب من الله للعباد وهذا مايسمعه قلبى الآن بكلام أنصح من كلام اللسان وأسرع قبولا في الأدهان

يقول الله: أي عبادي للسلين ، إن العالم الذي تعيشون فيه خلق لأجل أن تحلوه وتركبوه وإلا فلا بقاء لكم ولا سعادة في الدنيا ولا الآخرة .

أي عبادي للسلين : ها أنا ذا خلقكم على الأرض وخلق لكم النبات والحيوان واللمدن ، فنفس أحدكم واحدة ولكنها لها قوى ظاهرة وأخرى باطنة ، فيالقوى الظاهرة التي لفوسكم حلتم مركبات العالم حولكم .

أم تروا إلى أصماغكم كيف اختصت بعالم الأصوات التي في المادة سواء أكانت حيوانية أم إنسانية أم نباتية موسيقية وغير موسيقية .

أم تروا إلى أوصافكم كيف اختصت بالصور والأشكال والألوان والأصوات والحركات والسكنات والأحجام والأشكال والسطوح والقرب والبعد .

أم تروا إلى أدواقكم اللبنة في ألسنتكم كيف اختصت بأن تميز الحلو من الحامض واللح والحريف واللز والنعفس واللز وغير ذلك .

أم تروا إلى حاسة الشم فيكم التي تميز الروائح الحبيثة من الطيبة وإلى حاسة اللمس التي تميز الناعم لللس من الخشن ، والحار من البارد ، والثقيل من الخفيف ، والسلب من اللين .

أي عبادي : هذه صفات المادة وهي ست وثلاثون صفة مقسمة على حواسكم الخمس ، أنا الذي خلقت لكل امرئ منكم نفسا واحدة وجعلت لها خمس قوى وقسمت الحواس على هذه الحواس ، أنا الذي خلقت هذه الحواس بهذه الحواس ، فهذا نوع من التحليل الذي أودعته فيكم ولكن أكرهكم لا يملكون .

إن العالم الذي أنتم فيه غليظ ثقيل كثيف ، فانظروا رحمق أيها السلمون كيف تلتفت فجعلت حواسكم وأعضاءكم فتلطف هذا الغليظ فصلح لطفكم ولطفكم ، خلقت الغذاء في أجسامكم حتى استحق أن يلتحق بجملة أجسامكم وحولت صور المواد حولكم إلى عقولكم فكانت موادها تزيدها ذكاء وقطة ، كل هذا من نوع التحليل .

أيها السلمون : فلماذا حرمت أنفسكم من رحمق الواسعة التي وسعت جميع العالمين ؟ ضربت لكم الأمثال بأجسامكم بعقولكم وأزنتكم أنى لطفت المادة فصلحت لأعديتكم وأدويتكم وتعلمكم وأدخلتها في عقولكم فامتزجت صور معانيها بعقولكم كما امتزجت لطائف موادها بأجسامكم .

كل هذا أبرزته لكم أيها السلمون في هياكلكم رحمة بكم وحنانا وسعادة وأنتم أيها السلمون تصرون على الجهالة فأبرزت ذلك في الحروف التي في أوائل السور لعلكم تتفكرون .

عيش ابن آدم وموت بل ربما يكون من الماء وهو لا يدري أنى جعلته بطبعه يحلل المخلوقات أمامه بحواسه وهو لا يشعر وأكثر الناس لا يشعرون .

أي عبادي للسلين : ها أنا ذا قسمت المخلوقات حولكم على حواسكم ، جعلت الشموس والأقمار والنيران من قسم الحاسة البصرية وجعلت النيمات في الجوق من اختصاص الحاسة السمية وجعلت الحلاوة وما معها كلها من قسم اللذوق الذي في ألسنتكم وجعلت رائحة الورد العطرية وضدها من حاسة الأنف الشمية وجعلت الحرارة والبرودة والنعومة الخ من قسم حاسة اللمس ، أليس هنا هو التحليل ؟ لا تقدر حاسة واحدة أن تقوم بهذا كله ففترقت على الحواس الباطنة .

فلماذا اجتمعت هذه السور في عقولكم استخلصت قواكم الباطنة منها صوراً حفظتها عندها فكانت هناك

رسوم وأشكال في عقولكم فيها تصرفون وبعنائها تتفنون كما أنكم بأجسامكم تعيش أيمانكم ، فصور  
المسوسات ترتق العقول ، وبالتفدى بها تبقى الأجسام .

#### الأغذية والعلوم لايتان إلا بالتحليل

وكأنه سبحانه يقول مخاطبا لنا بهذه البيئة التي نعيش فيها أيضا ، يقول : أى عبادى هذه الأغذية المحيطة  
بكم من حيوان ونبات ومعادن بها تعيشون وتتفكرون وتتداولون وتفرحون وتمرحون وتسرون ولم يتم ذلك  
لكم وإن يتم إلا بتحليلها إلى أصغر أجزائها .

ألا ترون أن الطعام تتناولونه فواطعكم وأنيابكم وأضراسكم فكل من هذه يعمل في الطعام عمله ، فمنها  
ماهو للقطع كالسكين ، ومنها ما هو للتمزيق كاللسان ، ومنها ما هو للطحين ثم يتل الطعام بالربق فيساعد على  
هضمه ثم ينزل في المعدة تتقاطه العصارات المختلفة فتزيد في هضمه : أى رجوعه إلى مادة أشبه باللبن قد  
وصلت إلى أقصى تحليلها حتى يمكنها أن تترك مرة أخرى في أجسامكم فتصبح لحما وشحما وظفرا وعظما  
وكبدا وقلبا وورثة وكلية وشعرا ومخا ومخجا وهكذا ، فلولا رجوعها إلى أدق حالاتها بالتحليل ما أمكن أن  
يكون هيكلا عظيما أو وجها جميلا أو شكلا بها عجيبا .

أى عبادى للسليين : هذه أعمالى في بنيتكم تحليل لذاتكم ثم تركيب لأعضائكم ، هذا عملى في حياتكم  
وحياة حيوانكم ونباتكم لولا التحليل التام ما كان هذا التركيب الجميل ، هذا هو الذى تشاهدون آثاره .  
هذا عملى في أجسامكم وبشابهه عملى في عقولكم ، فأنتم قد خزنتم صور المسوسات في عقولكم وربيتموها  
في نفوسكم

وكا أنى فصلت المسوسات على حواسكم هكذا صور المسوسات في نفوسكم قد قسمتها على قواكم الباطنة .  
فهذه الصور الرسومية في عقولكم التى اقتبستموها مما تشاهدون قد جعلت فيكم قوى في الدماغ منها  
ما يحلل ويركب لتلك الصور كما تصورون أعلام ياقوت تشرن على رماح من زبرجد ، ومنها ما يحلل اللغات  
ويركبها بقوة عاقلة تصرف فيها كعلم للنطق وكتدبير للمعيش ، ومنها قوة تحفظ الصور وأخرى تحفظ اللغات  
لأجل أن تستحضروا ذلك عند الحاجة إليه وهذا كله تحليل .

فهذه المادة لاسلطان لكم عليها إلا بتحليلها إما تحليلا ماديا وإما تحليلا عقليا ، والتحليل المادى  
إما بالحواس الخمس ، وإما بتحليل الأغذية ، والتحليل العقلى بالخيال والعقل .

أى عبادى للسليين : هنا هو فضل في حياتكم الجسمية والعقلية ، لاجلها لكم إلا بتحليل الغذاء ولا علم  
لكم إلا بتحليل للمعلومات ، هذا حاصل عندكم ولكن أكثركم عنه غافلون ، لهذا أتلت هذه الحروف إن  
هى إلا تحليل للألفاظ لأرشدكم إلى مستقبل أمركم .

إن مستقبل الإسلام العلم والحكمة وتفصيل هذه العوالم كما فصلت الآيات .

إن مستقبل الأمم جمعا مرتبط بدراسة نظام هذه الدنيا ، ولا دراسة إلا بتحليل الموجودات  
للأدوية وللضوية

ولا جرم أن الحروف من عالم الكلام ، وعالم الكلام يكاد يكون وسطا بين عالم الحس وعالم العقل وإن  
كان هو من أعراض المادة ولكنه لطيف يقرب في لطفه من عالم الضوء الذى يقرب من الأثير فيكون  
تحليل الكلمات إلى الحروف رمزا إلى دراسة هذه الدنيا كلها دراسة تامة ترجع الأشياء إلى أصلها كما رجح  
الطعام إلى مادته في أجسامنا وكذلك المقولات في عقولنا حالت هكذا فليكن مستقبل الإسلام وهو النظر  
في ملكوت السموات والأرض ولكنه نظر يقينى ولا يقين إلا بتحليل العلوم تحليلا تاما ، انتهى .

ولقد ظهر أن هذا العصر عصر الكيمياء فيها تقدمت الزراعة والصناعة والطب وجميع مرافق الحياة  
فالكيمياء الآن عليها مدار الحياة ، وناهيك مافي هذا التفسير من خير كشف استخراج السكر من نشارة  
الخشب والذرة .

وكذلك أشف أن الفحم يقرب في تركيبه من البترول وأن كلامها يحتوي على كربون وعلى أكسوجين  
بمقادير مختلفة وأنهم يجتهدون في أن يجعلوا مقدار الأكسوجين في الفحم مساويا له في البترول فيحول الفحم  
إلى بترول وحينئذ يصبح في العالم قوة جديدة لا يستهان بها .

ويظن قوم أن الناس سيبتدون حتى يمتنعوا قوتنا لما نشاهده من أضعف اللواد المخلوقة . هذا فضل  
الكيمياء في وقتنا الحاضر فهي قوام المدنية الحاضرة .

هذا هو الذي يرى إليه القرآن ، هذا هو بعض السر في ذكر هذه الحروف في أول السورة وهذا  
هو بعض الحكمة التي ذكرها القرآن وهذا هو الزمان الذي ناسب ظهور هذه العلوم فيه . فإذن هذه  
الحروف خزنت في القرآن لأجل هذا الزمان حفظناها وحفظها من قبلنا لنوصلها لمن بعدنا مع مقصودها  
وهو حوز جميع العلوم ، وما العلوم إلا بعد التحليل والتحليل هو الذي أتت به الحروف قتل ماتشاء  
في العلوم وقتش فإنك لا ترى علما إلا فيه تحليل فتركيب ، ولا تركيب إلا بعد التحليل التام وأخصها  
فن الكيمياء .

إن المخلوقات التي حولنا ونعيش بها ماديا وعقليا كلها ترجع لهذا المعنى ، نحن نأكل النبات والحيوان  
فتغذي بمادتهما وتعمل أجزاءهما وتركبها وتقتني صورها في عقولنا ونحللها وتركبها وهكذا تفعل في الباطن  
وذلك لتغذية عقولنا ، وترانا نذكر الثور والأسد في كلبية ودمنة وابن آوى وتخييل حيل ابن آوى وضحكة  
على الأسد وعلى الثور حتى أوقع بينهما المداوة فافترس الأسد الثور ثم ندم ثم حاكم ابن آوى فقتله بالجرعة  
السياسية ، وترانا نتخييل الحمام وهو يتخلص من شبكة القانص كأهل مدينة واجيدة متحدين .

وكذلك ترى العراب والساحفة والظبي وما شاكلها قد اجتمعت وهي طوائف متنافرة لمصلحة وهكذا  
ترى السنور والفأر لما فاجأهما عدو لهما أخذ الفأر يقرض قيود السنور ولم يأمن لعدوه القديم وهو السنور  
وأبقى بعض طيات الجبل فلم يقطعها حتى اقترب الصياد خيفة أن يفترسه القط .

وهكذا تخيلنا وتصورنا صوراشي في الحيوانات كإبن عرس والناسك الذي رجعت فوجد ابن عرس  
قد قتل الثمان الذي أراد أن يفتك بإبن الناسك فظن حماة أن ابن عرس قتل ابنه هو فعجل بقتله ثم تبين  
له أنه أخطأ لأن ابن عرس حافظ على ابنه فندم ندما شديدا وهكذا من الحكم التي لاحظها الإنسان وتخييلها  
ووضعها على ألسنة الحيوانات ، كل ذلك لصفاء ذهنه وذكاؤه وعقله وجودة قريحته ، وكل ذلك لم يخرج عن  
كونه تحليلا وتركيبا ، والتحليل هو الوارد في الحروف التي في أوائل سور القرآن وأعقبها الله بذكر الحكمة  
والتفصيل ، والحكمة والتفصيل ظاهران واضحان في هذا الوجود المحسوس والمعقول .

أنزل الله القرآن وقال إنه أحكم الخ ، ومعلوم أن الكلام اسم وفعل وحرف والاسم والفعل كلمتان دلتا  
على معنى والحرف كلمة لم تدل على معنى في نفسها ، أما هذه الحروف التي في أول السور فهي حروف لامني  
لها في نفسها ولا في غيرها فأين هي من الحكمة وهي قد نزلت في كتاب مقدس أنزله الله ، والكاتب السابوة  
تكون إشارتها أبلغ من عبارة غيرها .

أبو بكر الصديق والشافعي وكيف استنبجا من القرآن

تفطن الصحابة والمجتهدون لأمثال هذا اللقاع

إن القرآن كتاب مقدس ، والكاتب للقدسة شريفة للقرى ، ولكل حرف ولكل كلمة ولكل آية

منها سرّاً يلاحظ ويعلم ، وإذا كان الأسماء واللوك ورؤساء الجمهوريات في وقتنا متى جاء دورهم في القول ونطقوا بجملة تحركت الأسلاك البرقية برا وبحرا ونشروها في أقطار الأرض وشرحوها شروحا وبجثوا ودققوا واستنتجوا وأخذوا بمنطوقها ومفهومها ومقدمها ومؤخرها وألقوا عليها ما يحمله جيران وثلاثة إذا جمع ما كتب في الأمم كلها ، فما بالك بمن هو الذي خلق الدول والأمم كلها ؟ لماذا تقول في كلامه ؟ فإذا لنا الحق أن نوضح ونستنتج ونفهم ونقول لم جاء بهذه الحروف التي لا معنى لها في أوائل السور ، بل تقول كيف فاجتأنا الله هكذا في أول سورنا القرآنية بهذه الحروف وهي التي لا معنى لها ؟ ثم نسمة يقول لنا بعدها إن هذا الكتاب أحكمت آياته وفصلت ويقول إنها من لدن حكيم خبير ، كل هذا ليفتح لنا الطريق ناهيك ما استنتج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إنه استنتج من شيء ليس بحرف ولا صوت ولا فعل ولا اسم بل هو استنتج من تقديم كلمة على أخرى فقط ، وماذا استنتج منها ؟ استنتج منها الدولة الأموية والدولة العباسية ، استنتج منها دولا وجماعات وملوكا ، لولا هذا الاستنتاج لم تكن تلك الدول ولا أولئك الملوك في الابداس وفي الشرق .

ألم تر إلى ما ورد أنه رضي الله لما وقف في سقيفة بني ساعدة وخطب أيام وفاة النبي صلى الله عليه وسلم والأصابع يقولون « منا أمير ومنكم أمير » قال لهم قولوا أقمهم ، وماذا قال ؟ قال إن الله قدم للهاجرين على الأصابع فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، فلما قالها طأطأت الرؤوس وخشمت القلوب وخضعت الأعناق ورضى الأصابع بخلافه فريسي ولم يمارضوم ، لماذا هذا كله ؟ لأمر معنوي هو تقديم وتأخير ، قدم الله كلمة على أخرى فأذلت وأعزت وجملت دولا وملوكا في قوم وحرمت آخرين في زمن ألف وثلثمائة سنة أي ١٣ قرنا كل هذا لتقديم كلمة على أخرى . ورضى الإمام الشافعي اعتبر هذا في الوضوء فأوجب الترتيب في أعضائه ، لماذا ؟ لأن الله رتب تقدم عضوا على آخر ، فذلك يجب علينا تقديمه في وضوئنا ، فإذا كانت هذه حال الصحابة والمجاهدين قبلنا فالأمر هنا أهم وأعظم ، ذلك ليس تقديم ولا تأخيرا بل هو إثبات لأمر محيية مكررة في (٢٩) سورة وهي حروف تبلغ نصف الحروف المحبابة وقد كررت في أول القرآن ووسطه وآخره فهذا أمر عظيم أعظم ألف مرة من تقديم أو تأخير ، بل هذا أمر أعظم فكيف يأتي في القرآن الإلمية أعظم وأعظم ، إن العاية والسر قد ظهرا في زماننا ، فإذا كان تقديم للهاجرين على الأصابع أنهم دولا وأقام دولا فهكذا فليكن ما هو أهم وأعظم وهي هذه الحروف القرآنية المرفقة لإيقاظ السليين في آلاف السنين الآتية لدراسة جميع العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والفنية والعقلية والتقليدية ، ذلك هو السر المخزون والجوهر السكوني خزنه الله في القرآن لأهل هذا الزمان .

(س) هل تريد أن الإنسان منا يعرف جميع العلوم .

(ج) كلا لقد ضرب الله لنا للثل بأنفسنا فلكل امرئ منا نفس واحدة وقد قسمت العلوم بالمسوسات على حواس متعددة ، فهكذا فلتكن الأمة ، يخصص نواب الأمة أو رئيس الجمهورية أو الملك ، كل طائفة من الأمة لعلم من العلوم خاصة أو لصناعة ، وهذا هو السمي فروض كفايات ، فكما قام السمع بالأصوات والبصر بالصور والأشكال الخ وكان في ذلك مصلحة جميع الجسم هكذا تكون الأمة .

(س) إن أوروبا قامت بهذا الميل كما طلبه الله في القرآن وأبرزه في هذه الحروف .

(ج) أوروبا فعلت ذلك بقولها ونم ما فعلوا ، أما للسليون فقد أناموا عقولهم وجهلوا دينهم وهاهو ذا الآن قد ظهر سره وسيطلع على هذا السر للسليون في هذا التفسير وفي غيره ويقرون العلوم منقولة ومنقولة ، ويقومون بدورهم في الحياة ويعرفون علوم الأتس وعلوم الآفاق والحمد لله رب العالمين اه .



الطبيعة الثانية في قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها

ومستودعها كل في كتاب مبين »

اعلم أن القرآن أصبح اليوم مفسرا بالعلوم التي عرفها الناس شرقا وغربا ، وأن العلماء في أوروبا قد تبجروا في علم الحيوان ، فلما اطلعنا على ما كتبوه في كتبهم وما ترجم عنهم ألقينا هذه العلوم كلها مقصود القرآن ، فقلنا : رعاك الله :

يقول الله في سورة الأنعام « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » وهنا يقول إنه « يعلم مستقرها ومستودعها » ويقول : عليه رزقها ، ويقول : إن ذلك كله في كتاب مبين ، وإذا كان الكتاب الذي فيه رزق الحيوان ومستقره ومستودعه مبينا فإن الحيوان يسير على نهج قويم تبعه للكتاب الذي بينت فيه أعماله .

ولقد ذكرت حوادث عجيبة للحيوان في سورة الأنعام في المجلد الرابع فارجع إليها إن شئت ، وههنا أذكر حوادث حيوانية أخرى تعرفنا كيف كان ذلك في كتاب مبين ، وكيف كانت هذه كلها أمما منتظمة المستقر والمستودع كما سترى في سورة النور عند ذكر الطير هناك أن لها رحلة الشتاء ورحلة الصيف كالتي تسكون من أواسط أفريقيا إلى بلاد الإنجليز في فصل من السنة ، وهكذا طيور أوروبا تأتي إلى مصر وتونس والجزائر ، وهو أمر عجيب ستراه هناك مفصلا ، وهكذا النحل والنمل والعنكبوت وعجائبها كل في سورته فانتظره وافرا وارق لتسكون عليها حكما ، فهناك ما أذكره لك من عجائب الحيوان ومستقره ومستودعه .

#### العجيبة الأولى : قضايا الطير وأحكامها

اعلم أن الناس في عصرنا الحاضر أدركوا أن للحيوان إدراكا خاصا وتديرا محكما على قدره فقد رأوا : (١) أن الطير قد تقيم الهاكم وتتعاكم كالبشر ، فهنا ما شاهد في الغربان ذات القنازع التي تكون بجزائر (شتلندا) فهذه تجتمع في حقل أو على نيل وتنتظر بعضها بعضا يومين أو أكثر عند توائبه عن الحضور حتى تجتمع كلها معا ثم تفرد اثنين أو أكثر منها جانبا وتقيم عليها غربانا تحرسها فتعتمها من الفرار ويشرع هاتق في التعيق والتعيب جماعات جماعات أو كلها معا مدة من الزمان ثم تهجم على المحجور عليها هجمة واحدة ، ولا تزال تغدها وتقرها بمنافيرها حتى تمزقها كل ممزق ويحضر كل منها بعد ذلك في السبيل الذي جاء منه ، فالمحجور عليها بمثابة المجرمين ، والحارس لها بمثابة الحرس والجماعات الناعبة والناعقة بمثابة القضاة والمهامين والنفذين للأحكام .

ولذلك زعم للشاهدون لهذه العمال أن غربان (شتلندا) تقيم الهاكم وتتعاكم كالبشر .

(٢) ومنها ما شاهدته القس (أدمند نفس) في غربان بلاد الإنجليز المعروف بالعدفان ، قال كنت يوما راكبا جوادى فسمعت نعبا شديدا ملاء الآهق ، فالتفت وإذا عدفان كثيرة في حقل فدنوت منها ووقفت حيث أراها ولا تراني وجعلت أراقها فإذا هي منتظمة في حلقتين حول عدفان في الوسط وكلها تنفق وتنطق بأجنحتها شديدا كأنها تنقد غيظا وتهيج انتقاما ، والعدفان الذي في وسطها ينطق ويصفق مثلها ويقاومها ويخاصمها والحراس تطير هنا وهناك وكأنها لا تنتبه إلى ما حولها لاشتغالها بما هو دائر بين رفقائها ، ولذلك لم ترني ولم تذر بالخطر كجاري عاداتها ، وبعد هنية تغيرت أحوال العدفان الذي في الوسط بنحة فنكس رأسه وخفض جناحه وأقل من النيب كأنه أقر بذنبه فجعل يطالب الصفع عنه ، وحينئذ وثب عليه عدفان الحلقة الداخلة ومزقته بمنافرها بمنزقة ونبت العدفان كلها نعبا شديدا وطار بعضها هدا وببعضها قربا اه .

والنداف مشهور بالسرقة ولاحتلاس فتسلط صفاره على عشايش كباره وتسرق ما فيها من دقاق الحطب وتبقى أعشاشها بها غصيفا المشقة جمعها عنها ولكنها لا تفعل ذلك إلا إذا كانت الكبار غائبة عن أعشاشها فلا تراها، ثم متى عادت ووجدت أعشاشها مسروقة لا تزال تبحث عن السارق حتى تعرفه فتشكو أمرها إلى جماعة القديان فتبعت ثمانية أو عشرة منها إلى عش السارق فتخرجه ولا تبقى له أثرا .

(٣) حكى بعض الصعدين في جبال (البنا) قال : كنت يوما أصعد في جبل من جبال سويسرا فأبديت مطمئنا من الأرض قد أحرق فيه ستون أو سبعون غرابا بخراب واحد وأكثر من النعيق والتصفيق كأنها تتشاور في أمره وكانت تصمت أحيانا فيبتدىء هو بالنعيق والتصفيق كأنه يدافع عن نفسه يدفع للتهمين أمامها المحاكين ، ولا يزال يفعل ذلك حتى تعود جماعة الغربان إلى الصباح والغواص ويضيع صوته بين أصواتها فيصمت ، واستمرت على تلك الحال مدة ، وكأنها رأيت ثبوت التهمة عليه فأعملت فيه مناقيرها حتى قتلتها ومزقته إربا إربا ثم طارت وتفرقت وغابت عن الأبصار ، وهل هذا إلا كونها أمما أمثالنا وقد علم خالقها مستقرها ومستودعها .

(٤) ومن ذلك ما يشاهد في العصافير وهو أنه إذا نشجر اثنان منها يذهب أحدهما إلى جماعة العصافير ثم يأتي أربعة أو خمسة منها وتنفص على المعتدى وتبادره بالنقد وهي تتوابع بعضها على بعض حتى ينال منها كفاؤه ، وكأن جماعة العصافير تصفح عنه بعد ذلك فتعامله معاملة من لم يرتكب ذنبا .

وحكى الأب بوجان الفرنسي أن خطافا بنى عشافرا عصفور فدخل إليه وامتنع فيه عليه فاستغاث الحطاف برفاقه فجاءت مئات وحاولت إخراج العصفور منه فلم تستطع لأنه كان محوطا بالنش من كل جانب وكان يقعد التي تهاجمه من الباب نقدا شديدا فيصدها ويطردها مولولة من الألم ، ولما أعيأها أمره رجعت عنه وظن الناظرون أن العصفور قوى عليها ولكنها ما غابت حتى رجعت والطين ملء أفواهها فهجمت على اللغد وسدته بالطين لتقتل العصفور داخله خنقا جزاء اعتدائه ، ذلك لأنها أمم أمثالنا علم الله مستقرها ومستودعها .

(٥) ومنها ما رواه المرسل الفرنسي لا كروي عن السبيطر، وهو أنه كان يوما راكبا قاربا فرأى جماعة من طائر (السبيطر) المعروف (بملاك الحزين) ترعى في الماء الضحاح فقاربها محاذرا لأنها شديدة الفرة والإجفال واختبأ وراء شجرة بحيث يراها ولا تراها ، والتي نهبه إليها شدة لغوها ولطمها ، فلما وقف لمراقبتها سكنت وأحدثت بسبيطر منها من كل جانب ووقف السبيطر بينها لا يبدى حراكا ثم عادت إلى ما كانت عليه من اللغظ واللغو وبقيت كذلك مدة ثم سكنت فجأة ووثبت عليه ومارالت تنفزه حتى قتلتها . دل لا كروي المذكور وكل من رأى ما رأيت يحكم أن السبيطر المقتول تعدى شريعة جماعته فحكمت عليه بالقتل وقتله .

(٦) وروى الكتاب عن (اللقاق) روايات كثيرة تؤيد ما ذكرنا وتدل على أن (اللقاق) شديد الألفة والغيرة على عرضه ، من ذلك أن جراحا فرانسويا مقبلا في أزمر زغب في الحصول على لفاق رغبة شديدة فلم يحصل عليه ، وانفق أنه عثر على عش لفاقين فاقتلس بيضهما منه وأبدله ببيض الدجاج ، ولما أفرخ البيض إذا الفرائح كلها دجاج لالقالق فغاب الله كثر ثلاثة أيام ثم عاد ومعه لقالق كثيرة ففرت كلها وأحاطت بالأشئ وجعلت تلتاق وتلمظ شديدا ثم وثبت عليها ومزقتها تمزيقا وطارت ولم يبق في العش حتى .

ومن ذلك ما رواه الطران سنلى الإنكليزي عن لقالقين في جوار مدينة (برلين) وهو أنهما بنيا عشهما على مدخلة بيت فطلع صاحب البيت يوما ووجد فيه بيضة فأخذها ووضع بيضة أخرى مكانها ولم يشعر بها ثم

أفرخت البيضة أوزة ، فلما رآها الذكر طار وحلق فوق العش وهو يقلق شديدا حتى ظاب عن الأبصار  
وبقيت الأثني في مكانها تربي فرخ الأوز كأنه فرخها . وبعد أيام سمع أصحاب البيت لفظا شديدا في حقل بجانبهم  
فنظروا وإذا جماعة من القفال قد اجتمعت معا وأخذت تقلق شديدا حتى سدت أصواتها الفضاء ثم صمتت  
ووقف لقلاق على عشرين ذراعا منها وجعل يصوت كأنه يحاطبها ثم عاد ووقف آخر مكانه وقلق لرفاقه  
كالأول ، وما زالت تعمل ذلك حتى قارب الزوال ثم طارت كلها معا طالبة العش وأمامها دليل منها  
هو صاحب العش ، وكانت أثناء ملازمة عشها وهي خائفة خوفا شديدا ولا تبدي حركة . فلما دنا منها دفعا  
دفعا عنيفا حتى أخرجها من العش ثم انقضت القفال عليها ومزقتها ومزقت فرخ الأوز معها وخرت  
العش وطارت .

وروى (القس موريس) أن بعضهم أبدل بيض القفال ببيض الدجاج في عش والأثني لا تدري ذلك ،  
فلما فرخ البيض ورأى القفال أن الفراخ فراخ دجاج اغتاظا ومزقا الفراخ بمقارهما .  
وحكى آخر أن رجلا أتى بقلاق ووضع مع آخر داجن في بيته فقام الداجن على رفيقه وتقدم بقدا مؤلما  
حتى اضطره إلى الفرار وهو على آخر رفق وبعد أربعة أشهر عاد ومعه ثلاثة غيره فهجمت على القفال الداجن  
وما زالت تنقره حتى أهلكته انتقاما ، وهذا كله تفسير للقرآن وبيان للستمر وللستودع وأنها أم أمثالنا .  
(٧) إن الذي يراقب طبائع الحيوان الأعمى يحكم أنه يدرك وجوده حتى الإدراك وما يترتب على ذلك  
الإدراك أيضا .

انظر إلى الكلب مثلًا من أفعاله وظواهره أنه عالم بوجود نفسه ، اطرح له عظمة ينهشها فتعلم أنه  
يدرك حقوقه ويدافع عنها ، راقبه جروا ابن سنة أو سنتين يلعب مع ولد ابن أربع سنوات أو خمس تعلم  
أنهما كليهما ينشراح باللعب ويفهم أحدهما الآخر فوجدان أحدهما مشابه لوجدان الآخر ، وراقبه بالنفا  
يذهب للصيد مع صاحبه فتجد أنه يفهم ما يجب عليه فعله ويفعل ذلك الواجب كما يفعله المباد صاحبه فيصيد  
كما يصيد ويفرح عند الفوز بالطريدة ويتعاط عند الشلل كما هي الحال مع صاحبه .

إن الكلب لا يستطيع أن يحول انتباهه للبحث عن قوى عقله والنظر في أفعاله وأن يكشف الترامح  
التي هي خاضعة لها إلى غير ذلك من مباحث الفلاسفة وعقلاء الناس ولكن ذلك لا يستطيعه الأولاد الصغار  
أيضا وربما عجز عنه أكثر الماتة الذين لا يهتمهم إلا ملاحظة ماحولهم ولا يلتفتون إلى السكليات والبحث عن  
أفعال عقولهم .

فقل الكلب كما قيل مناسب لحاله ، كما أن عقل الطفل مناسب لحاله ، ولا يمكن أن يعقل الطفل عقل  
الفيلسوف الكبير مالم يخرج عن الطفولية . وكذلك لا يعقل الكلب عقل الفيلسوف مالم يخرج عن السكلية ،  
فالنفاوت في العقل بين البالغ والطفل والكلب تفاوت في الدرجة فقط ، ولا يستدل منه على أن عقل الإنسان  
نوع وعقل الكلب نوع آخر أو على أن الوجدان خاص بالإنسان دون غيره من الحيوان .

(٨) قد اشتهر الكلب بالأمانة والوفاء وهما من أجل الصفات ، وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن  
الأصناف العليا من الكلاب متصفة بأوصاف أخرى أديبة ، فكلاب (نيوفونديندا) التي تنتقل الترقى ،  
وكلاب (سان برنار) التي تنبش الناس من تحت الثلوج متصفة بغزة النفس ، فلا يمكن أن تقبل رشوة ولا أن  
تسرق شيئا ليس لها وهي تموت حبا بالوفاء فتبذل حياتها دون وديعة أو دغتها والحراس التي تقيمها أسراب  
الوحش والطير لتحرسها من قدوم مفاجئ عليها تثبت في أماكنها وتدفع رفاقها بأرواحها وتلك صفة من  
أجل الصفات الأديبة .

(٩) إن إمت الوحش والطير تصبر على الجوع والمطش والألم لنطم صغارها وتسقيها وتحميها من الأوجاع ، فلو لم تكن تستطيع ضبط أهوائها وشهواتها ماصلت ذلك ، وأسراب القردة والفيلة وبقر الوحش والوعول والطور القواطع ونحوها يتسلط بعضها على بعض ويخضع بعضها لبعض ، وكلب الراعى يتسلط على الغنم وقد يسوسها كساحبه وهي تقاد له امتيادها للراعى .

ومنى انفتت القردة على نهب حقل من الحقول يتقدمها كبيرها دليلا فيمشى على رجله منتصبا ويتعكز على عصا يديه وهو يتلفت يمينا ويسارا حذرا من عدو يفاجئها وهي تتبعه دابة على الأربع متحذرة حتى تصل إلى الحقل ثم يقم الدليل حراسا منها على أطراف الحقل فتقف محرس ولا تمد يدها إلى ما أمامها وتتفرق البقية في الحقل فتعيث فيه وتمرح وتأكل حتى تشبع ثم يقطف كل منها سنبلتين أو ثلاثا ويعملها للحراس فأكلها متى رجعت إلى محبتها .

(١٠) الطائر الذى يبنى عشه في مكان ظليل يتسلط على الطبيعة وحرها وبردها كالبناء الذى يبنى القصور الباذخة ، وكل باني وكر وقاطن وجريسود على الطبيعة في ذلك لأنه يتخذها لإتمام حاجته وقضاء أعراضه ، وكل صائد وقانص من الوحش والطير يصيد ويقتنص ويطعم صغاره باستخدام الطبيعة إذ لاتأتيه الطرائد عفوا ، وكل من راقب أفعال الحيوان لا يسهه إلا الإفرار بأنه يستخدم الطبيعة على قدر حاجته أيضا ، انتهت الطيفة الثانية .

الطيفة الثالثة في قوله تعالى « وكان عرشه على الماء »

لقد تقدم الكلام على هذه الآية بما يشرح صدور الحكام ، ويمزج العلم بالدين والحكمة بالقرآن ، وهناك قد نجلى من اللغز ما يبهر الأبصار ويشرح الصدور ، وفسرت هذه الآية بآيات أخرى في القرآن .

ولأذكر لك هنا وجها آخر لتفسيرها موافقا لذي ذكرناه مشهورا : روى عن رزين الثقفي رضى الله عنه قال « قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان في عماما ، ما فوقه هواء وما تحته هواء ، وخلق عرشه على الماء » أخرجه الترمذى ، والمعنى مقصورا معناه لاشئ ، ثابت لأنه مما عسى عن الخلق لكونه غير شئ ، فكانه قال في جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شئ غيره ، ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء : أى ليس فوق المعنى الذى هو لاشئ موجود هواء ولا تحته هواء لأن ذلك إذا كان غير شئ فليس يثبت له هواء بوجه .

والماء بالمد : السحاب الرقيق وهو حق أيضا ، فإن العوالم المحيطة بنا كانت كالبحار المنتشر الذى يدور ويجرى كما في آية أخرى « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » ثم تكونت الشمس والسيارات والأقمار ، فالمراد بالسحاب الرقيق على هذه الرواية إنما هو عالم الشمس قبل تكوينها ، وقد تقدم في تفسير البقرة أن علماء الفلك رصدوا الآن ستين ألف سديم في حال التكوّن الآن تدور حول نفسها كما كانت شمسا قبل تكوينها وتنام حالها ، ثم هذه الستون ألفا بعد آلاف الآلاف من السنين ستكون شموسا كشمسنا ولها أقمار توابع لسياراتها وسيارات كما حصل لأرضنا إذ كانت قديما كذلك فكانت كادخان المنتشر وهي دائرة ثم تفلمت بعد آلاف الآلاف من السنين حتى صارت على ما هي عليه وهي الآن تتناقص ، وبعد آلاف الآلاف تخرب أرضنا ، ثم أخواتها السيارات ، ثم أممى الشمس .

وهذا كله سرّ قوله في الحديث « كان ربنا في عماما قبل خلق السموات والأرض » أى كان مدبرا للسحاب عانيا عليه لأنه كان فيه كما في قوله « ولأصلنكم في جذوع النخل » بنى على جذوعها وهذا أبلغ

في الممكن ، فإله تعالى متمكن من هذا السحاب : أي البخار المنتشر يتصرف فيه ويدبره وينظمه تنظيماً محكماً  
وبجملة سموات وأرضين ويخلق فيه مخلوقات عظيمة .

قال أبو بكر البيهقي على التفسير الأول : في كتاب [ الأسماء والصفات له ] وقوله صلى الله عليه وسلم « كان  
الله ولم يكن شيء قبله » يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرها . وقوله ( وكان عرشه على الماء ) يعني وخالق الماء  
وخلق العرش على الماء ، ثم كتب في الذكر كل شيء ، انتهى .

فتعجب كيف ورد الحديث بالمد والقصر على اختلاف الروايتين : فأحدهما ذكر فيها أن لا شيء مع الله ،  
والثانية أن الله كان مدبراً للسحاب .

فإذا لاحظنا أن العالم لم يكن موجوداً البتة فهناك العدم وهو العدم المحض ، وإذا لاحظنا أن عالمنا كان  
بخاراً منتشراً بعد انعدامه فهناك تدير في ذلك البخار حتى يصير شمساً ثم يتم الخلق ويكون على مقتضى العلم ،  
وهذا هو قوله « وكان عرشه على الماء » فالعدم ثم الدخان ثم خلق العالم على مقتضى العلم وهو للقصد بقوله  
« وكان عرشه على الماء » ولا يزال كذلك كقوله « وكان الله غفوراً رحيماً » .

فتعجب كيف يطابق الحديث ما جاء في علوم العصر الحاضر وأن العالم كان بخاراً وأن هذا أمر مقرر  
في العلوم الحديثة ، ثم كيف كان هذا العالم الذي نحن فيه منظماً على مقتضى العلم ، وتعجب كيف اتضح معنى  
كون العرش على الماء بعد ذلك .

ولا يتم لك فهم هذا المقام إلا إذا قرأت ما جاء في سورة يونس في مسألة العرش وهناك ترى العجب  
البعجاب ، وحكمة الله في القرآن ، وجمال التعبير وحسن التنسيق ، فما أجل العلم ، وما أبهج الحكمة إذا  
ازدانت بالدين ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، انتهى القسم الأول .

### ( الْقِسْمُ الثَّانِي )

وَلَنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ  
مُبِينٌ \* وَلَنْ أُخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ  
لَيْسَ مَفْرُوقًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* وَلَنْ أَدْفِنَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمْنَا  
ثُمَّ نَرْغَبُهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَبُغِ كُفُورٌ \* وَلَنْ أَدْفِنَاهُ تَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْءٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ  
السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ \* إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ \* فَلَمَّا تَرَى تَارِكٌ بَمَضٍ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ  
عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ \* أَمْ يَقُولُونَ  
افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ \* فَلِمَ يَسْتَعْجِلُوا إِلَيْكُمْ فَاَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَإِنَّ لَإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ  
مُسْلِمُونَ \* مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا

لَا يُنخَسُونَ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَخَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلٌ  
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى  
 إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ  
 فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن  
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى  
 رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ \* الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ  
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ \* أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
 مِنْ أَوْلِيَاءِ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ \* أُولَئِكَ  
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ \* لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ  
 الْأَخْسَرُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ  
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \* مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ  
 مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ :

#### التفسير اللفظي

قال تعالى (ولئن قلتم إنكم مبعوثون من بعد الموت) أي ولئن قلت يا محمد ذلك لهؤلاء الكفار (ليقولن  
 الدين كفر وإنا لهذا لا سحر مبین) يعنى القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) يعنى إلى  
 أجل محدود، وأصل الأمة فى اللغة الجماعة من الناس، فكأنه قال سبحانه إلى امراض أمة ومجىء أمة أخرى  
 (ليقولن ما يحبس) أى أى شىء يحبس العذاب، وذلك منهم استهزاء يعنون أنه ليس بشىء (ألا يوم يأتيهم)  
 العذاب (ليس مصروفاً عنهم) أى لا يعرفه عنهم شىء (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى ونزل بهم  
 وبال استهزائهم (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة) رخاء وسعة فى الرزق والعيش وبسطنا له الدنيا (ثم نزعناها  
 منه) يعنى سلينا ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته (إنه ليحسب) يعنى يظن قانطاً من رحمة الله آيساً من  
 من كل خير (كفور) أى جحود لعدمنا عليه أولاً، فقبل الشكر لله بل مبالغ فى كفران ما سلف له من النعمة.  
 قال بعضهم [با بن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدتها، فإن نزعنا  
 عنك فينبئ لك أن تصبر ولا تياس من رحمة الله فإنه العواد على عباده بالخير] ثم قال تعالى (ولئن أذقناه  
 نعماء بعد ضراء مسته) أى ولئن أنعمنا على الإنسان وبسطنا له العيش بعد الضيق والشدك (ليقولن ذهب  
 السيئات عنى) أى المصائب التى ساءتنى (إنه لفرح) بطر بالنعم ففتربها (ظنور) على الناس مشغول عن  
 الشكر والقيام بحقوقها، وإنما عبر بالمش والإذافة ليعين أن الإنسان يياس ويفخر لأدنى ضرر وأدنى نعمة ويشير  
 إلى أن نعم الدنيا وتوهمها قليلة بالنسبة لما فى الآخرة، ثم استثنى من نوع الإنسان من صبروا على الضراء إيماناً

باقه واحتساباً وثقة بعدله ورحمته وأنهم بالضرراء يرتقون عنده فقال (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) شكراً للنعم التي ذاقوها في حالة السراء (أولئك لهم مغفرة) لتوبتهم (وأجر كبير) وذلك كقوله تعالى «والصبر إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» وقوله «إن الإنسان خلق هلوعاً» ثم فسره فقال «إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً . إلا الصابرين الخ» وهذا المقام قد استوفيته في سورة البقرة فأرجع إليه إن شئت .

ولما كان صلى الله عليه وسلم كاملاً والكامل ينال أعلى الحاصل فيصبر على الضرراء نيه الله على ذلك تعليماً لأمته أن يصبروا على الضرراء كما صبر النبي صلى الله عليه وسلم على السهريين الذين إذا تلا عليهم القرآن قالوا له هلا أنزل عليك كثر لتنفق منه على الأنبياء كالمملوك؟ وهلا جاء معك ملك يصدقك؟ وهذا تضيق منه الصدور ويبحث على كتمان بعض القول حتى لا يصاب صاحبه بمكروه، وهذه الحال جبلة في النوع الإنساني لأنه يائس إذا مبه الضر وهذا ضرٌّ عظيم .

قال العلماء ولا يلزم من توقع الشيء لو جود ما يدعو إليه وقوعه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو هنا عصمة الرسل من الحياة في الوحي ، قال تعالى (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك) يقول الله إن هذه الحال تدعو إلى كتمان الوحي وضيق الصدر فإن الاستهزاء وما أشبهه يدعو لذلك ، ولكن العصمة النبوية منمت من الحصلة الإنسانية العامة وذلك تعليم لجميع أهل العلم في الأمة الإسلامية أن يصبروا كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا يأسوا من روح الله وأنهم مستمدون من هذه الروح الشريفة فلصبروا كما صبر الأنبياء وخاتمهم نبينا صلى الله عليه وسلم ليكونوا بمن استثناهم الله في هذه الآية إذ قال «إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير» ثم قال الله له (إنا أنت نذير) أي ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك فسواء ردوا عليك أو اترحوا فأمرهم هين فما بالك بضيق صدرك؟ وكيف يضيق وأنت قد آذيت ماوجب عليك من التبليغ فليس عليك هدام وقد أمرت بصبرك على أذام (واقف على كل شيء وكيل) فهو يحفظ مايقولون ويفعل بهم مايجب أن يفعل فتوكل عليه وكل أمرك إليه فما عليك إلا البلاغ بصدور منشرح فلا التفات إلى استكبارهم ولا مبالاة بسفهمهم واستهزائهم (أم يقولون افتراء) أم منقطعة ، والهاء ضمير راجع لما يوحى إليك (قل فأتوا بشئور مثله مفتريات) كما افتريت أنا بزعمكم هذا القرآن وأنتم عرب مثلي وفيكم الفصحاء والبغاة والشعراء ، فإذا افتريت هذا القرآن فافتروا عشر سور مثله وأظهروا فصاحتكم وبلاغتكم ، وقد تحذام في سورة يونس بسورة واحدة في الإخبار بالنيب والوعد والوعيد والأحكام وما أشبه ذلك ، لأن الفصاحة والبلاغة بدون ما ذكر أسهل ، أما الوعد والوعيد والأحكام والإخبار بالنيب فهي دقيقة المعاني تحتاج إلى عقول أنضج ونفوس أكمل حتى تقبل النفوس على آرائها وشتان ما بين الناعمة والشكلى .

فأين التريا وأين الشرى وأين معاوية منى على

فلما تحذام بهذا الكلام أمره أن يقول لهم (وادعوا من استطعتم من دون الله) حتى يبينوكم على ذلك (إن كنتم صادقين) في قولكم إنه مفترى (فإن لم يستجيبوا لكم) بإتيان مادعوتهم إليه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنهم كانوا يشاركونه في التحدى الذي يثبت يقينهم ويكمل إيمانهم ولذلك رتب عليه قوله (فاعلموا أنما أنزل بلى الله) منبسا بما لا يعله إلا الله ولا يقدر عليه إلا هو (وأن لا إله إلا هو) أي واعلموا أن لا إله إلا هو ، فأما تلك الأصنام فليست بألهة فهي عاجزة عن كل شيء ، وفي هذا تهديد وإفراط لهم من

أن يحيرهم آلهتهم من بأس الله إذا جاءهم ، ودلالة على وجوده ووحدايته بصدق هذا الكلام الثابت بعجزهم عن الإتيان بشئ سور مثله في البلاغة بل بسورة واحدة في الأحكام ونحوها .

ولما كان هذا الكلام برهانا على صدق النبوة ووحداية الله رتب عليه قوله ( فهل أتم مسلمون ) الخطاب للمسلمين أيضا : أي فهل أتم ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذ تحقق عندكم إنجاز كآله قيل أسلموا وأخلصوا لله العبادة ؛ ولما كان الكفر مع وضوح الحجة وظهور المحجة وبيان عجزهم الظاهر من عدم إتيانهم بشئ سور مثله مفتريات كما يزعمون مزريا بالقوة العقلية موقعا في الرياء والتظاهر بخلاف الواقع ناسب أن يؤتى بعدها بما ينفر النفوس من الرياء فوصف المرابين بحمسة أوصاف :

[ الأول ] أنهم يوفون أجورهم على أعمال البر في الدنيا بالصحة والعافية والرزق وما أشبه ذلك .

[ الثاني ] أنهم لا ينجسون : أي لا يتقصون من أجور أعمالهم في الدنيا .

[ الثالث ] أنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار .

[ الرابع ] أنهم في الآخرة حبط ماصنعوه فليس لهم عليه ثواب .

[ الخامس ] أن عملهم في نفسه باطل فترتب على بطلانه ما تقدم في الرابع مع عدم الثواب عليه ، وهذا هو قوله تعالى ( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ) يعني بعمله الذي يعمله من أعمال البر والطاعات والصدقات كأن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليصدقوه بالعطاء ، كأولئك المنافقين الذين كانوا يطلبون بغورهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم ولا يريدون ثواب الآخرة ، وكالذين يتعلمون العلم لغير الله تعالى ( نوف إليهم أعمالهم فيها ) أي توصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرياسة وسمة الرزق وكثرة الأولاد وندفع عنهم الذكارة ( وهم فيها لا ينجسون ) لا يتقصون شيئا من أجورهم ، وذلك القول في أهل الرياء والمنافقين والسكفرة ( أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ) في مقابلة ماصنعوا لأنهم استوفوا ما تنصيه سور أعمالهم الحسنة وبقيت الثبات السيئة فيستوفونها في النار ، فأما السكار والمنافق فلهما التأيد . وأما المؤمن فالعذاب منقطع بعد أجل محدود ( وحبط ماصنعوا فيها ) أي لم يبق لهم ثواب في الآخرة لأن الثواب على الإخلاص ، وهؤلاء لا إخلاص عندهم ( وباطل ) في نفسه ( ما كانوا يعملون ) لأنه لم يعمل على ما ينبغي وبطلان العمل ترتب عليه عدم الثواب ، وعدم الثواب أزرهم النار ، فالجملة الأخيرة علة لما قبلها وهي علة لما قبلها فافهم .

ولما كان ما تقدم رافعا لشأن المخلصين في أعمالهم واضعا لشأن المرابين أردفه بما يفيد أنه لا تقارب بين الطائفتين تأكيذا لما تقدمه فقال أتجمعون الفريقين في منزلة واحدة ، فمن كان على بينة من ربه فكفهم صلى الله عليه وسلم ومؤمنى أهل الكتاب ، وكل مؤمن مخلص ، كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ إن بين الفريقين تباعدا وتباينا ، فالهجرة للإنكار ( على بينة من ربه ) أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق وهو دليل العقل ( ويتلوه شاهد منه ) أي ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل ( شاهد منه ) ومن قبله كتاب موسى ( شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن ويتلوه ذلك البرهان أيضا من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة حال كونه : أي كتاب موسى ( إماما ) كتابا مؤتمنا به في الدين قدوة فيه وحال كونه ( رحمة ) أي نعمة عظيمة على النزل إليهم لأنهم به يفوزون في الدار الآخرة ( أولئك ) أي من كان على بينة من ربه ( يؤمنون به ) بالقرآن ( ومن يكفر به من الأحزاب ) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ( فالنار موعده ) يردها لأعماله ( فلا تك في مربة منه ) من الوعد أو القرآن ( إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ) لقله نظرم واختلاف فطرم . ولما نفي التوازن والتقارب



بين الفريقين شرع يفضل الكلام على الفريق الكاذب فقال ( ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ) بأن أسند إليه ما لم ينزله أو نقي عنه ما أنزله ( أولئك يرضون على ربهم ) في الموقف بأن يحبوا وتمرض أعمالهم ( ويقولون الأشهداء ) جمع شاهد ، كأصحاب جمع صاحب ، أو شهيد كأشرف جمع شريف : وهم لللائكة والنبيون والجوارح لأن الأفواه ينغم عليها وتتكلم الأيدي والأرجل ، وهذه لا كذب عندها لأن شهادتها فطرية لا دخل للكذب فيها بخلاف اللسان فهؤلاء كلهم أشهداء يقولون ( هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ) أى فى الدنيا وهذه الفضيحة تكون فى الآخرة اسكل من كذب على الله ( ألا لعنة الله على الظالمين ) وهذا تهويل عظيم لظلمهم بالكذب على الله ( الذين يصدون عن سبيل الله ) يصدون الناس عن دينه ( ويمنونها عوجا ) يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يفتنون أهلها أن يعوجوا بالردة ( وهم بالآخرة هم كافرون ) أى والحال أنهم كافرون بالآخرة وكرر « هم » للتأكيد ، ثم وصف هؤلاء الظالمين بتأنيده أوصاف فقال :

- (١) فهم لا يعجزون الله فى الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم .
  - (٢) وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه .
  - (٣) وعذابهم يضاعف لأنهم أضلوا الناس كما ضلوا .
  - (٤) ما كانوا يستطيعون استتاع الحق .
  - (٥) وما كانوا يصرون الحق .
  - (٦) وهم الذين خسروا أنفسهم حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله .
  - (٧) وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ما كانوا يفترون .
  - (٨) « لا جرم » أى لا محالة « أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » أى لا أحد أبين وأكثر خسرانا منهم .
- وهذا قوله تعالى ( أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب - إلى قوله - هم الأخسرون ) ثم أتبع هؤلاء بضد فقال ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ) اطمانوا له وخشعوا له ، من الحبث ، وهو الأرض للطهشة ( أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) دائمون .
- ونما وصف كلا من الفريقين بأوصاف على حدة أخذ يضرب لهم مثلا مجتمعين فقال ( مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ) شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ( هل يستويان مثلا ) هل يستوي الفريقان تمثيلا وتشبيها وهو منصوب على التمييز ( ألا تذكرون ) تنتفعون بضرب المثال ، انتهى التفسير اللفظي .

لطيفة فى قوله تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها الخ »

لقد حملنا الآية على عموم الكافرين والمؤمنين والمؤمنين الذين يطلبون بعملهم الرياء والسمعة :

- (١) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قال الله تبارك وتعالى أما أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » أخرجه مسلم .
- (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من تعلم علما لم يبره الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذى .
- (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تعوذوا بالله من جبة الحزن ، قالوا يا رسول الله وما جبة الحزن ؟ قال واد فى جهنم تتموذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يا رسول الله من يدخله ؟ قال القراء ، والراءون بأعمالهم » أخرجه الترمذى .

(٤) وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يطفى بها خيرا » أخرجه البغوي بغير سند .

### تحذير

إياك أن تصدك الآيات والأحاديث الواردة في ذم الرياء عن فعل البر والطاعات ، فإذا خطر لك أمر فزته بالشرع ، فإن كان مأمورا به فبادر إليه فإنه من الرحمن ، فإن خشيت وقوعه على صفة منبهة كعجب أو رياء فلا بأس عليك في وقوعه عليها من غير قصد بها ، بخلاف ما إذا أوقعت عليها قاصدا لها فعليك إنم ذلك فتستغفر الله منه .

قال السهروردي صاحب [ عوارف العارف ] لمن سأله [ أنعمل خوف العجب أو لا نعمل حذرا منه ؟ فقال اعمل وإن خفت مستغفرا منه ] أي إن وقع قصدا ، وقد قيل [ إن ترك العمل للخوف منه من مكابد الشيطان ] كما في جمع الجوامع وشارحه .

وهذه إحدى مصائب المسلمين اليوم ؛ فالصالحون يخافون الرياء ، والطالحون يعملون الشر ، انتهى تفسير القسم الثاني من السورة .

### ( القسم الثالث )

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ \* أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ \* فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ \* قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّ ، وَآتَانِي رَحْمَةً مِّن هِنْدِهِ فَمُضَيْتُ عَلَيْكُمْ أَنزِلًا مِّمَّكُمْ وَمَا أَنتم لَهَا كَارِهُونَ \* وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ \* وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طردتْهُم أَفَلَا تذكرون \* وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ \* قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتم بِمُعْجِزِينَ \* وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَن أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِن

افتريته فمالي اجرامي وانا بري مما تجرمون \* واوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتسبب بما كانوا يفعلون \* واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الدين ظلموا انهم مفرون \* ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملا من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فاننا نسخر منكم كما تسخرون \* فسوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم \* حتى اذا جاء امرنا وفار الثور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل \* وقال اركبوا فيها بسم الله تجريها ومرساها ان ربي لغفور رحيم \* وهي تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين \* قال ساوى الى جبيل ينصيني من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المفرقين \* وقيل يا ارض ابلمي ماءك وباسماء اقلبي وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودي وقيل بندا للقوم الظالمين \* ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين \* قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم لاني اعظك ان تكون من الجاهلين \* قال رب انى اعوذ بك ان اسالك ما ليس لي به علم ولا تنفرن لي وترهنني اكن من الخاسرين \* قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سننتهم ثم يمسهن منا عذاب اليم \* تلك من انباء النيب نوحها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين \* وإلى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من االه غيره ان انتم الا مفترون \* يا قوم لا اسألكم عليه اجرا ان اجرى الا على الذي فطرني افلا تقبلون \* ويا قوم استنصروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين \* قالوا يا هود ماجئتنا بينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين \* ان تقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء

قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ \* مِنْ دُونِهِ فَسَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ  
 لَا تَنْظُرُونَ \* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي  
 عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَبَسْتَحَافُ رَبِّي  
 قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ \* وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا  
 هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ \* وَتِلْكَ آيَاتُ جَدِّدُوا بِآيَاتِ  
 رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ \* وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَمَنَّةً وَيَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ \* وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا  
 قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ  
 فِيهَا فَاسْتَمْتَفِرُّوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ \* قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا  
 مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ  
 قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ  
 إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ \* وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ  
 فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ فِعَالِكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ \* فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ نَمَتُوا فِي دَارِكُمْ  
 ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ \* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ  
 مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ \* وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا  
 فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ \* كَأَنْ لَمْ يَنْفَعُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُعْدًا لِثَمُودَ \* وَلَقَدْ  
 جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِمِجَلِّ حَنِيدٍ \*  
 فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَمَخَّفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا  
 إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ \* وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَسْقُوبَ \*  
 قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ مُعْجِبٌ \* قَالُوا أَمْجِبِينَ مِنْ  
 أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ \* فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ  
 إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ \* إِنْ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوْاهُ مُنِيبٌ \*

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ \*  
 وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا بِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ \* وَجَاءَهُ  
 قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ  
 لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي صِنْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ \* قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا  
 فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ \* قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ  
 شَدِيدٍ \* قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا  
 يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّبْحُ أَلَيْسَ  
 الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ \* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ  
 مَنْضُودٍ \* مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ \* وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ  
 يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَاللِّيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ  
 بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ \* وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَاللِّيزَانَ  
 بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ \* يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ  
 لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ \* قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَانِكَ تَأْمُرُكَ  
 أَنْ تَتْرَكَ مَا يَتَّبِعُونَ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ \*  
 قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ  
 أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَاهُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَنْطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ  
 عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ \* وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ  
 قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ \* وَاسْتَغْفِرُوا  
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ \* قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ  
 وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْمُكَ لَرَجْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ \* قَالَ يَا قَوْمِ  
 أَرَهَيْتُمْ أَغْرَهُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ زُرْعًا كَمْ ظَهَرْنَا أَنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ \*  
 وَيَا قَوْمِ انْمَلُوا عَلَى مَكَاتِحِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ

هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِلَىٰ تَمَكُّمِ رَقِيبٍ \* وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ \* كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا  
فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ \* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* إِلَىٰ  
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ \* يَقَدِّمُ قُوَّةَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ \* وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْئَسُ  
الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ

### قصة نوح

هذه القصة تبين ما يلاقه الدعاة إلى الخير من مصادمة الظالمين الذين يردون الدعوة ولا يسمعون الحججة  
ويودون لو يكونون بلا علم يسمعونه ولا دين يتبعونه ولا هدى ولا كتاب سبر ، فانظر كيف ابتدأ الدعوة  
بالإنذار والتحذير ، وكيف قابله عظماء قومه بطعنهم أذلا في شخصه هو قائلين أي مزية لك علينا وأي  
فضل ؟ وكيف ينزل الوحي عليك دوننا وما دنا متائلين في الحلقة متشاركين في العقل ، فمن ذا الذي يصدق  
بامتيازك علينا واختصاصك بفضيلة دوننا ؟

وثانيا : إن الذين اتبعوك مالم إلا سفلتنا وأراذلنا كالحماكة والأماكفة وسائر أصحاب الصناعات الخسيسة  
فكيف تتبعك وأنت ومن معك على ما وصفنا ؟

ثالثا : إن هؤلاء الأتباع مع خصمهم ودعاتهم ما اتبعوك إلا وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أول رأيهم ،  
فاتباعهم لك ليس عن روية ونظر وتمسق في الفكر ، وإنما هو عن شيء عن لهم يديه ، فهو لا مع قهرهم  
وتأخرهم في الأسباب الدنيوية فلا جاء لهم ولا مال ولا شرف في الحياة الدنيا لم يتبعوك عن فكر ونظر الخ ،  
فقوله « بادئ الرأي » من بدأ يبدو ظهر ، أو بدأ يبدأ إذا فعل الشيء أولا واتصاه على الطرف .

رابعا : ويلزم من ذلك أنه لافضيلة لك يا نوح ولا لمن اتبعك ، ثم إما فوق ذلك نظنك كاذبا في دعوى  
النبوة ونظنهم كاذبين في دعوى العلم بصدقك فلا نبوة لك ولا علم لهم بصدقك ، وهذه هي حجيح قومه وهي  
مواقفة لما يحصل في كل داع وأتباعه ، فان الناس لا يزالون يكذبون الداعي وبصغونه بالكذب ونحوه ، ثم  
يسطفون على أتباعه فتارة يذمتهم بأنهم ليسوا على شيء ، وتارة بأنهم اتبعوه لجهالتهم وقلة عقلمهم ؛ فالظن  
إما في التبعوع وإما في التابع وإما في العلاقة القائمة بينهما ، وقد تم كل ذلك في الآية ووضع .

وهذا تسليم من الله لنا أن نصر عن ساعد الجدة ونقوم بالأمر ولا نبالي بالقدم فينا ولا فيمن معنا من  
الصلحين ولا في العلاقة القائمة بيننا ، بل يجب أن تكون تلك الأقوال مشجعة لنا ونحرص على ما أنعم الله بها  
علينا كما فعل سيدنا نوح ، فانظر ماذا قال في الرد عليهم ، فانه رد على الأول قائلا : « ولا أقول إني ملك »  
ردا على قولهم « ما نراك إلا بشرا مثلنا » .

ورد على الثاني وعلى الثالث مما قال : ( ولا أعلم الغيب ) حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضاهرهم  
أي لا أقول عندى خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب ( ولا أقول للذين يزدري أعينكم ) أي ولا أحكم على  
من استرذلتموه من المؤمنين لفقركم ( لن يؤتيم الله خيرا ) في الدنيا والآخرة لموانهم عليه مساعدة لكم

وزولا على هواكم ( الله أعلم بما في أنفسهم ) من صدق الاعتقاد ، وإنما على قبول ظاهر إقرارهم إذ لا أطلع على خفي أسرارهم ( إني إذن لمن الظالمين ) إن قلت شيئا من ذلك ، وقوله « زدرى » من ذرى عليه : إذا عابه . وقال أيضا في الرد ( وما أنا بطارد الذين آمنوا ) حين سألوهم طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ( إنهم ملاقوا ربهم ) فيشكونني إليه إن طردهم ، وقال أيضا ( ويقوم من ينصرني من الله ) من يمتنى من انتقامه ( إن طردهم أفلا تذكرون ) تتعظون .

ورد على الرابع قائلا : ( ولا أقول لكم عندي خزائن الله ) فأدعى فضلا عليكم بالقي حتى يحدوا فضلي بقولكم « وما يرى لكم علينا من فضل » . وقد تقدم أن القسم الرابع جزآن :

[ الجزء الأول ] ادعائهم أنه لا فضل لنوح وأتباعه عليهم ، وهذا رد عليه

[ والجزء الثاني ] أنهم يظنونهم كاذبين ، فرد عليهم قائلا ( والكنى أراكم فوما تجهلون ) تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل وتجهلون لقاء ربكم كما تجهلون أنهم خير منكم ، وهذا هو قوله تعالى ( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي - إلى قوله - إني إذن لمن الظالمين ) « أرايتم » أحبروني « على بينة من ربي » بيان ويقين من ربي الذي أنذرتكم به ( وآتاني رحمة من عنده ) هديا ومعرفة ونبوة ( فعميت عليكم ) أي أخفيت عليكم أو « خفيت » على القراءتين ، ومعنى عميت بالتحفيف لم تهدكم كما لو عمى على القوم دليلهم في الفازة فبقوا بغير هاد ، فالحجة كما تكون بصيرة ومبصرة بجمل عمياء لأن الأعمى لا يهتدى ولا يهتدى غيره ( أنزلكموها ) أنزلكم على الهدى بها ( وأنتم لها كارهون ) لا تختارونها ولا تتأملون فيها ( ويقوم لا أسألكم عليه مالا ) أجرا ينقل عليكم إن أديتم أو على إن أبيت ( إن أجرى إلا على الله ) وبقية الآيات ظاهرة المعنى فلا تطول بذكرها وهي آيات اعتراض القوم ، فقد لحصناها آتفا وهي مذكورة في المتن ، ولما كانت حجج نوح قد وضحت ورد عليهم وقرّر الرد وأبان ولم يترك لهم بابا أربى عليهم وطوقهم بالبراهين القنعة ( قالوا يا نوح قد جادلتنا ) خاصمتنا ( فأكثر جدالنا ) كما ظهر فيما تقدم ( فالتنا بما تعدنا ) من العذاب ( إن كنت من الصادقين ) في الدعوى والوعيد ، فأما مناظرتك فلا تؤثر فينا ( قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ) عاجلا أو آجلا ( وما أنتم بمعجزين ) بدفع العذاب أو الحرب منه ( ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ) أي إن كان الله يريد أن يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي وهو جواب لما أوهموا أن جداله كلام بلا طائل ، ثم قال ( هو ربكم ) خالفكم والمتصرف فيكم وفق إرادته وقد جرى عليه القديم على مقتضى الحقائق الواقعة الإلهية وإنكم تخلقون على حال لا ينفع فيها النصح ( وإليه ترجعون ) فيجازيكم على أعمالكم .

ولما كانت هذه القصة عجبية والجدال فيها مؤثرا ذكر الله ما يختلج في عقول بعض الكفار أن هذا وأمثاله مخلوق مفترى من عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى هذه الجملة المعترضة ( أم يقولون افتراء ) أي بل يقولون اختلق القرآن محمد ( قل ) يا محمد ( إن افتريته فعلى إجرامى ) إنهم إجرامى ، والإجرام : قتراف السيئة واكتسابها . يقال جرم وأجرم : أي اكتسب الذنب وافعله ( وأنا بريء مما يجرمون ) يعنى من الكفر والتكذيب ، وهذا قول مقاتل وأكثر المفسرين إن الخطاب لنوح عليه السلام .

ثم أخذ يتم القصة فقال بعد أن انتهى الجدال وجاء القول الفصل ( وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا يبتئس بما كانوا يفعلون ) فلا تحزن حزن بانس مستكين ، والابتئاس افتعال من البؤس ، وهو الحزن والفقر : والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإذائك فقد حان وقت الانتقام من أعدائك ، وهذا هو التاريخ العام وكل مصلح في الأرض ، فأولادهم له ولأتباعه وللرابطة بينهما . ثم الرد

عليهم، ثم العناد التام . ثم ظهور الحقائق واضحة جلية ، فلذلك دعا نوح على قومه فقال « رب لا تدرك على الأرض من الكافرين ديارا » .

## فصل

- (١) صنع السفينة .
- (٢) استهزاء قومه به .
- (٣) النجاة من الهلاك بركوب السفينة .
- (٤) هلاك من عصاه من أهله .
- (٥) القصود من القصة وهو أن العاقبة للمتقين وأن الصابرين ينالون الفوز في آخر الأمر .

صنع السفينة واستهزاء قومه به .

قال تعالى ( واصنع الفلك بأعيننا ) أى ملتبسا بأعيننا كأنه أعينا تكاؤه وتحفظه ثلاثين في صنعه عن الصواب ( ووحينا ) وإنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع ( ولا تخاطبني في الدين ظلودا ) ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ( إنهم مغرقون ) محكوم عليهم بالإغراق وقد قضى به وجف القلم فلا سبيل إلى كفه ( ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملاماً من قومه سخروا منه ) استهزءوا به لعمله السفينة في برية بعيدة عن الماء ، وأيضاً كانوا يقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً ( قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما نسخرون ) إذا أخذكم الترق في الدنيا وجهنم في الآخرة ( فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ) ويعنى به إياهم ، ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الترق ( ويعمل عليه عذاب مقيم ) وينزل عليه عذاب الآخرة الذى هو دائم . وقوله « وكلما مرّ عليه ملاماً من قومه » أى جماعة منهم ، إلى قوله « عذاب مقيم » جملة حالية ، فقوله « ويصنع الفلك » متصل بقوله ( حتى إذا جاء أمرنا ) عذابنا أى وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الوعد ، فحق هذه هى التى ابتدأ بعدها السلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهى غاية لقوله « ويصنع الفلك » وقوله ( وفار التور ) أى وجه الأرض أو أشرف موضع فيها .

نجانه هو ومن آمن معه

قال تعالى ( قلنا احمِلْ فِيهَا ) فى السفينة وهو جواب أشرط ( من كل ) من كل نوع من الحيوانات ( زوجين اثنين ) ذكرا وأنثى ، والزوجان كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن الآخر كالكه والابن ، والعينين والأذنين يقال لكل واحد منهما زوج ، والتعلان فى الرجلين يقال لكل واحد منهما زوج ، فقوله « من كل » إمامتون : أى من كل نوع زوجين ، وإما غير متون : أى احمِلْ فِيهَا من كل زوجين اثنين ، والمعنى واحد على كل ، وقوله ( وأهلك ) عطف على زوجين . وقوله ( إلا من سبق عليه القول ) بأنه من اللذنين يريد به ابنه كنعان وأمه السبابة واعلة فإنهما كانا كافرين ( ومن آمن ) أى واللؤمين ( وما آمن معه إلا قليل ) قيل كانوا ( ٧٩ ) زوجته للسلة وبنوه سام وحام وياث وناؤم ، و ( ٧٧ ) رجلا وامرأة من غيرهم ، ولقد ذكر العلماء طولها وعرضها ولا فائدة فى ذلك لنا . ويقال إنه جعل فى أسفلها الدواب والوحش وفى وسطها الإنس وفى أعلاها الطير وكانت ثلاثة بطون ( وقال اركبوا فيها ) أى صيروا فيها ، وإنما سمى ركوبا لأن السفن فى البحار كالمدواب على الأرض ، وقوله ( بسم الله مجريها ومرساها ) جملة حالية من « ها » : أى اركبوا فيها حال كونها إجراؤها وإرساؤها كائنان باسم الله على وجهه ، ومجريها ومرساها بفتح الليم والراء من جرى مصدرها ووقت ، وبضم الليم وفتح الراء من أجرى للوقت وللصدر ؛ يعنى أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله . يقال إنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله تجرت ،



وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست ( إن ربي لنفور رحيم ) أي لولا مغفرته لما فعلتم من الذنوب ورحمته لكم ما نجاكم ، ثم ركبوا فيها يقولون : بسم الله كما أمروا (وهي تجري بهم) وهم فيها (في موج كالجبال) للوج : ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح فشبه سبحانه بالجبال في عظمه وارتفاعه وكل موجة منها كجبل من تراكمها وارتفاعها .

#### هلاك من عصى من أهله

قال تعالى ( ونادى نوح ابنه ) كنعان وكان ابنه من صلبه ( وكان في منزل ) عن أبيه وعن السفينة وعن دين أبيه ، وهو مفعل ، من عزله إذا نجاه وأبعده ( يا بني ) بفتح الياء . وفي قراءة بكسر الياء ، والأولى اقتصار عليه من الألف المبدية من الياء ، والثانية اقتصار عليه من ياء الإضافة ( اركب معنا ) في السفينة أي أسلم واركب معنا ( ولا تكن مع الكافرين ) في الدين والانزعال ( قال سأوى إلى جبل يعصق من الماء ) أن يترقى ( قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ) أي إلا الراحم وهو الله تعالى أي لا عاصم اليوم من الطوفان إلا مكان من رحم الله من المؤمنين فلا يعصمك الجبل ولا غيره وإنما يعصمك مكان المؤمنين وهي السفينة ، ويصح أن يكون الاستثناء منقطعاً أي لكن من رحم الله يعصمه ( وحال بينهما للوج ) أي بين نوح وابنه ( فكان من المرفقين ) فصار من المهلكين بالماء ( وقيل يأرض ابلى ماءك ويأسماء ألقى ) جعل الأرض والسماء كأنهما من القلاء . يطبعان ما يؤمران به إظهاراً لنفاذ الأمر وسرعة الإنجاز وحصول للأمر به حالاً كما يفعل للأمر المتهور مع الأمر القاهر القادر ، والبلغ : النشف ، والإفلاج : الإمساك ، ثم قال ( وغضب الماء ) نفس ( وقضى الأمر ) وأجز ما وعد به من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ( واستوت ) واستقرت السفينة ( على الجودي ) يقال إنه جبل بالجزيرة بقرب الموصل ( وقيل بعدا للقوم الظالمين ) يقال بعد بعدا لمن لا يرجى عوده ثم استعير للهلاك وحض بدعاء السوء ( ونادى نوح ربه ) أي أراد نداءه ( فقال رب إن ابني من أهلي ) أي بعض أهلي لأنه كان ابنه ( وإن وعدك الحق ) وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال وعدى ( وأنت أحكم الحاكمين ) أي أعلم الحكام وأعدلهم فلا فضل لحاكم على غيره إلا بما يجمل به من العلم وما انصف به من العدل وأيضا إنه يحكم بالحقائق لا اطلاع على بواطن الأمور ودخائلها ، أما الحكام الأرضيون فإنهم يحكمون بالظاهر ويذرون البواطن لمن هو أحكم منهم وهو أحكم الحاكمين ( قال ) الله ( يا نوح إنه ليس من أهلك ) إذ لا ولاية بين مؤمن وكافر ، ثم علل ذلك بقوله ( إنه عمل غير صالح ) أي إنه ذو عمل فاسد وجعل نفس العمل الفاسد للبالغة . وقرئ « إنه عمل غير صالح » أي عمل عملا غير صالح ( فلا تسألن ) نجاة ( ما ليس لك به علم ) أنه ليس أهلا للنجاة .

وذلك أن نوحا عليه الصلاة والسلام سأل الله أن ينجي ابنه من الغرق وكان من أهل النفاق يظهر الإيمان ويخفي الكفر كالمناققين زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعلم حتى أعلمه الله كما حصل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم في سورة التوبة ، فقوله « إنه ليس من أهلك » أي من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر وقد خاطبه الله بقوله ( ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ) ثم أتبع الأمر بعدم السؤال بقوله ( إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ) ومعنى « أعظك » أنهاك وهذا كما نهى رسولنا صلى الله عليه وسلم بقوله « فلا تسألن من الجاهلين » ( قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ) في الاستقبال ( ما ليس لي به علم ) ما لا أعلم لي بصعته ( وإلا تنفرتني ) وإن لم تنفر ما فرطتني من السؤال ( ورحمى ) رحمتك التي وسعت كل شيء ( أكن من الخاسرين ) أعمالا ( قيل يا نوح اهبط بسلام منا ) أي أنزل من السفينة

إلى الأرض مسلماً من الكفرة كالفرق من جهتنا أو بتحية منا (وبركات عليك) وهي الحيرات النامية وهي في حقها كثرة أولاده وأتباعه ، فقد جعل أكثر الأنبياء وأئمة الدين من ذريته (وطى أم بمن معك) أي وطى أم ناثق بمن معك وهم الأمم إلى آخر الدهر لأنهم ذرية من معه في السفينة (وأم ستمتعهم) أي وأم كافرة يحدنون بمدك ستمتعهم في الدنيا إلى منتهى آجالهم (ثم يمسه منا عذاب أليم) في الآخرة ، ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال (تلك) أي قصة نوح مبتدأ خبره (من أبناء العيب) أي بعضها ، وقوله (نوحها إليك) خبر ثان (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وهذا خبر ثالث (قاسم) على مشاقق الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح ، وتوقع في العاقبة لك ولن كذبك نحو ما كان لنوح وقومه (إن العاقبة) في الفوز والنصر والعلية (للتقين) الذين يذرون الشرك والمعاصي ، وهنا لطائف :

#### اللطيفة الأولى : « وقيل يا أرض ابلغي ماءك الخ »

هذه الآية في غاية الفصاحة والبلاغة حتى خصصها بعض العلماء بالتأليف لفخامة لفظها وحسن نظمها ودلالاتها على الحال مع الإيجاز البديع .

فانظر كيف ابتداء الكلام بلفظ « قيل » بالبناء للجهد فلم يذكر الفاعل لعظم قدرته وجلاله ، وكيف خاطب الأرض أن تبايع والسماء أن تقبل وهو مجاز عجيب ؟ وكيف كان « غيض للواء » يعني عن جمل كثيرة « وقضى الأمر » قام مقام العبارة الطويلة الدالة على هلاك قوم ونجاة آخرين ، وهكذا فكل جملة كأنها درس خاص مع الجزالة وحسن التعبير ، وفي هذا اللقمان من المحاسن ما لا متسع للعبارة منه والدوق كاف فيه .

#### اللطيفة الثانية .

اعلم أن هذه القصة قديمة العهد ذكرت في الكتب السابقة ، وما مقصودها إلا إبراز رجال في الأمم يكونون قدوة للصالحين ومنبعا للسلوك ، إلهم تشد الرحال وعليهم يقول الرجال وبهم تصلح الحال ، ولو أنك درست تواريخ السابقين في سائر الأمم والأجيال لم تر أحدا منهم نبغ إلا على مثال نبوغ نوح عليه السلام ، ولم يخلق الله في الأرض نبيا ولا حكيما ولا عالما إلا إذا صادفه مثل ما صادفه نوح عليه السلام ، بل أقول انظر أيها الدكي القاري لهذا التفسير .

ألم تجد في نفسك مثال ماجرى لنوح من بعض الوجوه ؟ وكيف قرأت العلوم ودرست الكتب ثم وصلت لهذا التفسير وقرأته ؟ ما كان ذلك إلا بعد ما جاهدت جهادا آذاك فيه الأقربون والقرباء ، ثم لم تبدأ بذلك ونصرت وفزت بالعلم ، وضل سعيهم وخاب فآلمهم فلمعرك لم يفز أحد في الدنيا بطائل إلا بعد أن يناله التعب ويشاء التعب ويحل به الألم ويسومه أهله وذووه سوء العذاب . فانظر رعاك الله قصة نوح ووازنها بسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

(١) النبي صلى الله عليه وسلم قال له قومه « لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه » وقالوا « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » في مقابلة جدال نوح وقومه .

(٢) طلب كعمار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد من معه من المجلس احتقارا لهم وهم يجاسون بدلم ، فقال الله له « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » إلى قوله « فتطردم فكون من الظالمين » وهذا كقول نوح « الله أعلم بما في أنفسهم إني إذن لمن الظالمين »

(٣) يقول الله تعالى لتبينا صلى الله تعالى عليه وسلم « قل ما أسألكم عليه من أجر » ونوح يقول « واقوم لا أسألكم عليه مالا »

(٤) صنع نوح السفينة لنجاة قومه ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه بالمهجرة إلى الحبشة ثم هاجر هو وهم إلى المدينة ، وهذه في مقابلة السفينة .

(٥) «تبت بدا أبي لخب» وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وطرد ابن نوح من رحمة الله ولم ينفعه أنه ابن نبي .

(٦) سخر قوم نوح منه فأفهمهم أنه هو الناجي وهم الخاسرون ، وقد كان للناقون يقولون : إن عمدا يعدنا ملك كسرى وقبصر ، وإن أحدنا لا يقدر أن يقضى حاجته خارج المدينة ، وكان كفار مكة يسخرون منه فكرر في القرآن أن الله سينصره وقد تم ذلك .

(٧) حمل نوح معه من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكرا وأنثى لبقاء النسل ، وهكذا جميع الأنبياء والصلحاء إما خلفهم الله في الأرض للنعمة العائمة ولا علامة لرجال الإصلاح والعظماء إلا قصد للنعمة العائمة ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مقابلة ذلك ، قيل له « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » لافرق بين حيوان وإنسان وغيرها من المخلوقات .

(٨) وكما غرق الكفار من قوم نوح قتل الكفار من قريش .

(٩) وكما نجى المؤمنون من قوم نوح نجى المؤمنون من العرب وأصبحت جزيرة العرب كلها إسلاما كما تقدم في سورة التوبة .

(١٠) قال تعالى « فاصبر إن العاقبة للمتقين » أي كما نصرت نوحا وكانت العاقبة له فيكون النصر لك فاصبر الخ .

ألا تتعجب من هذا القول كيف كانت هذه السورة تتلى في مكة ولا جيش ولا جند ولا مال لصاحب الرسالة ثم يتلو عليهم هذا القول ويقول الله له ستكون عاقبتك النصر كما كانت عاقبة نوح ، وبعد ذلك بزمن قد تم هذا .

ولعمري إن هذه هي المعجزة الحقة فإنه قس قسمة نوح وقد حصل له مثل نوح أولا وآخرها وقد تلاء عليهم في أول أمره بحيث لا يخلج في النفس أفن أمل في نجاح دعوته وأن العرب وغيرهم يتبعونه ، ذلك هو المعجزة الصادقة ، وذلك هو الذي به يصدق المقلون .

مقصود القصة لسائر الفضلاء

أيها الذي إن هذه السورة تقرأ دائما يقرؤها المسلمون ويكرر نظيرها في الكتب النجوى قبل القرآن بل إن لها نظيرا كما سيأتي في كتب الدين الهندية .

فلمعرك ما بقيت هذه القصة في البيانات للتلاحة على مدى الأزمان لألقاظ يكررونها ولا لجرد آيات يقرؤونها ، وإنما هي حكم ومواعظ وآداب يتحلل بها الفضلاء والناجبون . فإذا رأيت في نفسك ميلا إلى فضلة أو علم أو نفع عام مجاهد في سبيلك واعلم أن الله منك مهما اعتراك من ضيق أو هم أو مرض أو عداوة ، واعلم أن الله لم يعطك الليل لنك الفضيلة ولم يزرع في قلبك حب ذلك العلم إلا وهو يريد سقيه وإنزال النيث عليه لينميها فاعزم وتوكل على الله واتل قوله تعالى « فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

وهذه القصة تنطبق على كل من يقوم بعمل شريف في نفسه وفي قومه ، فإذا أراد للره عملا تافعا لنفسه أو لأمته لاموه أو لامتة نفسه لوما شديدا في أول الأمر كجدال قوم نوح ، ثم يبطل الجدال ويجاهد الإنسان حتى يرسم له طريقا للخلاص كالسفينه ثم يعاديه أهله وولده ، ففي الحديث « أبغض الناس إلى العالم أهله وجيرانه » فليسر في طريقه ولا يبالى بهم ، ثم يسير في طريق الفلاح وينجو في الكفاح وهو لسفينه نجاة ملاح ، ويقال له « فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

## اللطيفة الثالثة : الطوفان في العلم الحديث

الطوفان عام وخاص ، الطوفان العام

اعلم أن الأرض مكونة من (٢٦) طبقة عامة متميزة ، وهذه الطبقات تكونت في ستة عصور كما تقدم مرارا كل عصر منها يبلغ مئات الملايين بل آلاف الملايين من السنين وهي العصر الأصلي والعصر الانتقالي والعصر الثانوي والعصر الثالثي والعصر الطوفاني والعصر اللاحق للطوفاني أو العصر الحالي ، وفي كل عصر من هذه العصور الستة تكونت طبقات في الأرض وهي مختلفة كما قد تقدم ذكرها في التفسير وإنما الذي يهمنا في هذا اللقمة العصر الطوفاني ، فقد قال علماء العصر الحاضر إن تبرا عظيما جاثيا طرأ على وضع محور الأرض وقطبها فاندفعت على أثره المياه على سطحها اندفاعا عاما وانقرض في هذا الطوفان كثير من الحيوانات ولجأ بعضها تخلصا من القرق إلى شقوق ومناور في أعالي الجبال فهلكت جوعا هناك أو بانقراس بعضها بعضا أو خفا في وسط المياه المندفمة عليها وقد كشف العلماء كثيرا من تلك القوار الحايوة عظاما عديدة من الوحوش الكواسر التي عاشت قبل حصول تلك العاجعة وهذا الرأي هو الذي يفهمنا كيف نقصت الحرارة فجأة في الأقطار القطبية ، إنها نكبة عامة مريعة قلبت وجه الأرض وبها انقرضت أنواع من الحيوان على بكرة أبيها وتحولت المياه فجأة من مجاريها واندفعت بعزم على اليابسة فخطمت أعلى الصخور واقتلعت النباتات وجردت الجبال من حلالها السندية وتركزت رواسب جديدة يقال لها في علم الجيولوجيا (الطبقات الطوفانية) وفي هذا العصر بدأ القطبان يكتسيان بالجلد ، وهذا دليل على تناقص جسيم في حرارة الأرض ، والتناقص للذكور حصل فجأة وليس بالتدريج فإن علماء (الجيولوجيا) استدلوا على ذلك من آثار فيلة بل أجسام صحيحة من (الساموث) كشفوها في وسط الجليد الشمالي فحكوا بحصول برد فجائي باعقها وقتلها قبل أن تتمكن من للهجرة إلى أقطار أوفر اعتدالا وأقرب إلى مزاجها .

ولما استتبت السكينة على وجه الأرض بدأ العصر الحالي وهو السادس وفيه ثبتت اليابسة وازداد الهواء نقاء وأرسلت الشمس أشعتها للتمشة فطابت النباتات وأنس الحيوان وظهر بعدها الإنسان ، ولا يعلم أحد الآن هل كان الإنسان قبل العصر الحالي ؟ أم هل كان قبل الطوفان للذكور ؟ ولقد وجدوا آثارا تدل على ذلك هذا هو الطوفان العام .

أين الطوفان الخاص الذي جاء به القرآن والكتب السماوية كما في هذا اللقمة

اعلم أن الطوفان للذكور في الكتب السماوية لم يعلم عنه علماء (الجيولوجيا) إلا ما يأتي وهو أنهم كشفوا أنه كان هناك بحر عظيم يمتد قديما من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالي وهذا البحر من آثاره بحر الحزر وبحر الأوزوف والبحيرات الكثيرة التي في بلاد روسيا وهي مألحة منتشرة في سهول التتر ومفاوز روسيا .

ولما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالي والتسم الآخر انقلب إلى الأوقيانوس الهندي ففرقت بلاد ما بين النهرين وجميع البلاد التي يسكنها أسلاف الشعب العبراني ، وقد حفظت هذه الحادثة في تقاليد سائر الشعوب الذين يسكنون تلك البقاع .

وجاء في أسفار (القيدا الهندية) في هذا اللقمة [تحول براهما إلى صورة ممكدة] وجاء يقول إلى الملك الصديق [فايناسواتا] إن زوال زمان العالم قد دنا وعن قليل تباد كل نسمة من الوجود على وجه الأرض فاسع لك سفينة تدخلها بعد أن تأخذ معك بزورا من كل النباتات وانتظرنى فأوافقك وعلى رأسى قرن نيزنى به ، فأطاع الملك الصديق أمر براهما وعمر سفينة ودخلها بعد أن ربطها بجبل متين

يقرن السمكة فسارت السفينة في الظلة سنين عديدة في وسط عواصف قاصفة واستقر أخيراً على رؤوس جبال هالايا اه .

هذا هو العلم الذي يعرفه الناس الآن من علماء طبقات الأرض ومن علماء الديانات ، فما أنت ذا رأيت الطوفان العام الذي هو قبل التاريخ ، ورأيت الطوفان الذي عرفه بنو إسرائيل عن أسلافهم الذين كانوا بين النهرين وعرفت البحر العظيم الذي خلف بحيرات في أوروبا الآن وعرفت كلام البراهمة عن هذا الطوفان .

ثم اعلم أي ما كتبت لك هذا لأفسر به القرآن ، كلا ؛ وإنما أكتبه لتحيط علماً بهذه المسألة ولتمشق العلوم ولتبحث في عجائب صنع الله وفي تقلبات هذه الدنيا وعجائبها وتمتعب من هذه الأرض كيف تكونت وكيف كان القطبان أشبه بخط الاستواء تعيش فيهما القبلة العظيمة التي لانظير لها الآن ، بل هي أشبه بالقبلة التي كانت قديماً تحمل ثبات من الناس على ظهرها ثم طرأ عليها البرد فجأة فماتت حالا وبقيت إلى الآن دلالة على قدرة عظيمة ، وكيف كان هناك بحر ثم زال من الوجود ؟ وكيف كانت هذه القصة قد لمع بها أكثر الأمم العظيمة للتدنية .

فأما القرآن فإنه قص علينا هذه القصة ليرقينا بها وليدلنا على أن الصابرين فائزون ، وقد أبنا هذا أيام نبيان ، فافرح بما آتاك الله من فضله ، واعلم أن الله عز وجل ما أنزل هذه القصة لأجل للباحث التي ذكرناها ونحوها وإنما أنزلها لما فيها من القدوة الحسنة واليقين ، إن الذين هم مصلحون وقلوبهم مفطورة على الإصلاح فائزون في آخر أمرهم .

ولم يترك إن هذه القصة في القرآن تعطى المصلحين إيماناً وإيماناً وعلماً أنهم بعد الصبر فائزون . وهذا قد أوضحناه تمام الإيضاح . انتهى الكلام على قصة نوح عليه السلام .

ثم قال تعالى ( وإلى عاد أخاهم هوداً ) أي وأرسلنا إلى عاد الخ عطف على قوله « نوحاً إلى قومه » وهوداً عطف بيان ( قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ) على الله لا تخاذكم الأوثان شركاء وجعلها شفعا ( يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذي فطرنى ) وذلك خطاب نوح لقومه بذلك ، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأن النصيحة ما دامت مشوبة بالمطامع لا تنجح ( أفلا تستمعون أفلا تسمعون ) أفلا تسمعون أفلا تسمعون أفلا تسمعون ( يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ) اطلبوا مغفرة الله بالإيمان به ثم توبوا إليه من ذنوبكم السالفة ( يرسل السماء عليكم مدراراً ) كثير الدرور ( ويزدكم قوة إلى قوتكم ) وكانوا قوماً أصحاب زرع وبساتين وكانوا مدلين بما أوتوا من قوة وبطش ، وقال بعضهم حبس الله عنهم المطر وأعظم أرحام نساءهم ثلاث سنين فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتنازل .

يقال إن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال لحاجب معاوية لما شكاه لله الولد « عليك بالاستغفار » فكان يستغفر في اليوم سبعمئة مرة فولد نبيين ، ولما سئل الحسن عن سبب ذلك استدلل بهذه الآية وبآية نوح « ويزدكم بأموال وبنين » ( ولا تتولوا ) ولا ترضوا عما أدعوكم إليه ( مجرمين ) مصرين على إجرامكم وآثامكم ( قالوا يا هود ماجئتنا ببينة ) كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم « لولا أنزل عليه آية من ربه » لوجود الطائفتين آيات النبيين ( وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ) أي وما ترك آلهتنا مادرن عن قولك . قوله « عن قولك » حال من الضمير في تاركى آلهتنا ( وما نحن لك بمؤمنين ) أقنطوه من إجابته وتصديقه ( إن نقول إلا اعتراك ) أي أسابك ، من عراه بعروه إذا أسابه ( بعض آلهتنا بسوء ) أي ما نقول فيك قوله

إلا هذه لقالة وهي « اعتراك بعض آلهتنا بسوء » فأنت يهود لست تخالفنا ونسب آلهتنا إلا لما أصابك بعض آلهتنا بحبل وجنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك ونحن لانفهم أمرك إلا على هذا الوجه (قال) هود عجيبا لهم (إني أشهد الله) على نفسي (واشهدوا) أتم على أيضا (أني برى مما تشركون من دونه) وهي الأصنام التي كانوا يعبدونها (فكيدوني جميعا) احتالوا في كيدى وضرمى أتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإني أرى أنها لاتضر ولا تنفع (نم لاتنظرون) لأعمالهم ، ثم أكد هذا بقوله (إني توكلت على الله ربي وربكم) أي إنه فوض أمره إلى الله واعتمد عليه (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) الناصية مقدم الرأس وسمى الشعر الذي عليه ناصية للجواررة . وكان الرب إذا أرادوا إطلاق أسير جزوا ناصيته لينبوا عليه ويمتدوا بذلك غرا عليه ، فخطبهم الله بما يعرفون: يعنى أن الله هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهره ، والدابة كل ما يدب على الأرض ويدخل فيه جميع بنى آدم والحيوان لأنها جميعها تدب على الأرض (إن ربي على صراط مستقيم) أي إن ربي وإن كنتم مسخرين له مقهورين لا يعاملكم إلا بالإنصاف والإحسان والعدل فيجازى كلا بما فعل المحسن بإحسانه والسوء بإسائه (فإن تولوا) أي تولوا وتمرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم ، فلم يقع مني تقصير في التبليغ وإنما التفسير منكم (فقد أبلتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم) أي إنكم إن أعرضتم عن الإيمان يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم أطوع منكم وهذا عذاب الاستئصال (ولا تضرر ولا تنجو) بتوليتكم عن الإيمان (إن ربي على كل شيء خفيظ) رقيب عليه مهيمن فإتخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مواخذتكم وهو يحفظني من أن تمسني بسوء ، فكما يحفظ أعمالكم ويعاقبكم يحفظني من السوء (ولما جاء أمرنا) بإهلاككم وعذابهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا) ذلك أن العذاب إذا نزل عم فإنا نجاهم الله كان ذلك رحمة من الله وأيضا الإيمان والطاعة من رحمة الله فما تسبب عنهما من رحمة الله لأن كلا من عند الله (ونجيناهم من عذاب غليظ) شديد (وتلك عاد) وهذه قبيلة عاد ، كأنه قيل سيجوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بقبورها وآثارها؛ ثم وصف حالهم فقال (جحدوا بآيات ربهم) أي كفروا بها (وعصوا رسله) لأنهم عصوا رسولهم ، ومن عصى رسولا فقد عصى الجميع (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أي اتبعوا أمر كبرائهم الطاغين، وعنيد من عند عنود إذا طنى فصوا من يهدهم وأطاعوا من ينوهم (واتبعوا في هذه الدنيا لعنة) أي أوردوا لعنة تنبهم ، واللعة الطرد والإبعاد من رحمة الله (ويوم القيامة) أي وفي يوم القيامة أيضا تنبهم اللعة كما أتبتهم في الدنيا ثم ذكر السبب لزيادة الإيضاح فقال (ألا إن عادا كفروا ربهم) أي كفروا بربهم (ألا بعدا لعاد) أي هلاكاً لهم أو بسا من الرحمة (قوم هود) عطف بيان لعاد ، والقصد من هذا العطف المبالة في التصيين للتأكيد ، انتهى التفسير القلبي لقصة عاد وما قبلها .

جوهرة في معنى قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم »

يمش الناس ويموتون وتتلاحق الأمم وتنساق في هذه الحياة ثم يردون أحواض النايأمة بعد أمة ودولة بعد دولة وهم يأكلون الحيوان ويشربون ألبانه ويلبسون صوفه وفراءه ثم أكثرهم يموتون ولاهم يذكرون ، لا يذكرون عجائب هذا الحيوان وغرائبه وغرائب النبات ولا الحكمة للدبرة التي خصصت لكل طائفة منه لونا وشكلا وأحوالا خاصة ، ينظر الناس إلى هذه الصور والأشكال ثم لا يذكرون لم هذا الاختصاص ؟ .

(١) ولم ترى ازنيار مثلا محلى بشكل جميل مزوقا بهجا ولكنه يحمل سلاحا يبدو به على من

بسه بسوء .

(٢) وزى الفيران الصغيرة والكبيرة والوطايط إما رمادية اللون أو سوداء .

(٣) ولماذا يرى بعض السمك مرقشا متفوشا بهيئة بهجة كأنها هيئة البسانين الجميلة ، والأكثر على خلاف ذلك إذ يكون ظهره أزرق مانلا للسواد أو للخضرة وهو من أسفل أبيض اللون .

(٤) ولماذا يرى الجمل والأسد لهما لون خفيف رملي أو صخري رملي .  
وهكذا من أمثلة كثيرة لا يحظر للناس أن يفكروا فيها ، وإنما الرأي العام عند هذا النوع الإنساني أن ذلك أمر عادي .

والجواب على ذلك هو عين ما نقل عن الكسائي لما سئل لم بنيت أي على الضم فقال « أي هكذا خلقت » . هذا الإنسان أوله وآخره قديمه وحديثه عاله غالبا وجاهله مستوون في العفلة والإعراض عن بحث ما حولهم وفهم الدروس التي ألقاها الله عليهم ، هذه هي الدروس الحقة والعلوم التي أنزلها الله للناس وآيات تنزلت عليهم وطلسم وألغاز وزينة زين بها الأرض لامتحان عباده لينظر أيتشكرونه بمرقتها أم يكفرونه بالتلهي بيهجتها والعفلة عن معرفتها ، ذلك هو مثل السليين وغير السليين الحاليين الذين سكنوا هذه الأرض وهم عن آياتها معرضون .

اللهم إنك أنت الذي أسكنت أرواحنا في هذه الأجسام الأرضية وأحطتنا بعوالم خلقت من الجمال وحفظت من الوبال وأحطتها برحمتك وكلائها بمتك ، فهي بينايتك وكلائتك في بهجة وسرور ونعيم وحبور وجعلتها بحسب حقايقها مكللة بالنور مرموقة بنظرك مكفولة بمفطك ولجملت أعيننا غالبا في غطاء عن جمالها رحمة منك لنا وعطفا وإحسانا ، ذلك لأن هذا الجمال الكامن في صورها وخلقها لو تبدى لنفوسنا دفعة واحدة وعرفناه لسكرنا ولتهلنا ولبدأت مهجنا من الاطلاع على أسرارها لأنها من النور خلقت ومن الحكمة صنت ، وكيف تقوى أرواحنا التي لم يكمل حفظها من القوة ولم تصل إلى غاية الكمال أن تترق في بحر الحكمة الذي ليس له قرار ؟

اعلم أي لما وسات إلى هذا المقام حضر لي صديق صالح فاطلع على هذا فقال : هذه للقدمة لم تخرج عن مقدمات كثيرة من التصوف الذين تشرح صدورهم فينشئون للقاتل نلو للقاتل ولم يزد الناس من مقالاتهم كالا في علم ولا معرفة لحقيقة إلا قليلا منهم « وقليل من عبادي الشكور » ابتدأت للقال بأشئلة في القبران والجمال وأمثالها ولم تجب عليها ثم أخذت تنزل في الوجود ، وهذا الغزل أراك ورثته من كتب للتصوفين . إن الأمم الإسلامية اليوم لن تقوم من كيويتها إلا بجم يفتح أعينها لهذا الوجود ، فأما إذا أكرت في الإغراب وأبعدت في الإرقال وزوقت الجمل وجئت برائع الكلام وبديع النظام فما علمت حرفا ولا زدت للناس ذكرا فاهجم على الحقائق هجوما كما رأيت في كثير من الأجزاء السابقة في هذا التفسير ، إن الكتب إذا خلقت من الحقائق الشاهدة عكف الناس على قرائتها وغفلوا عما حولهم ، فهل نحب أن يقرأ الناس هذا التفسير وهم مغمضون ؟ قلت له : هدي روعك وأحسن ظنك واعلم أن للقال الذي شرعت فيه الآن علم عزيز وفق شريف جميل سيريك .

حكما نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمتسج

إنك ستري من آيات الله ومجائب حكمه ما لم يظهه أكثر للتلمين في العالم الإنساني ، ذلك أني اطلمت على عشرات من مجائب ألوان الحيوان وأشكاله ، وكيف كان ذلك كله قد وضع بدقة وحكمة وغاية مقصودة اطلمت على ذلك في كتب القرانجة : أي في موسوعات علومهم ، وهذه الكتب لا يؤلنها إلا المختصون بالعلوم ثم لا يطلع عليها أغلب للتلمين لأن أكثرهم لا يسي إلا لعدائهم ولردائهم ولظهوره بين الناس وأمثال هذا إنما تتخلى به العقول وتساقي به إلى الكمال ، وأكثر الناس في الترق والترب عن هذه للعالى معرضون .

## تشبيه الأرض بدرجة

إن ما سأقنيه عليك اليوم هو النور والبهجة والجمال ، إن هذه الأرض في حقيقتها بعد ما تسمع اليوم ما أتلوه عليك أشبه بدرجة بهجة جميلة متلألئة قد سطت عليها أنوار الكواكب وأشرقت عليها أضواء السيارات يتلاقى على ظهرها [الجلالان] جمال الأنوار ، وجمال الدرّة ، ترى أرضنا قد امتزجت على سطحها الألوان السبعة التي في قوس قزح بأضواء هذه الجوهرة فتدخلت الأشكال وتشابكت الألوان وامتزجت الصور في أمواج فوق أمواج ومخار من الصور والأشكال والبهجة والجمال ، تلك صور هذه الأرض في عقولنا بعد أن ترى ما سأقصه عليك الآن ، بل هذه هي الصورة التي ظهرت في خيالي بعد ما قرأت هذا الموضوع الذي أنا بصدد ذكره الآن على أن هذا التشبيه دون الحقيقة .

نعم الله نور السموات والأرض ، والنور على [قسمين] نور محسوس ، ونور معقول ، ونور النجوم والشمس والأقمار وضوء الجواهر ، كل ذلك محسوس ولا مناسبة بين المحسوس والمعقول ؛ إن النور المحسوس بالأبصار قد سبق ذكره في سورة الأنعام وسورة يونس وقد رسمت هناك الصور الشمسية والأشكال السكوكبية والمجرة وأنواع السدم والقنوان ، قد تقدم هذا كله وتقدم شرح ذلك من علم الفلك بحيث يسهل على القارئ فهمه ولكن هذا كله هو النور الحسي ، أما النور العقلي فهو أكل وأكل وهو النور الذي أنزل في هذه السورة (سورة هود) إذ يقول الله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » ثم يذكر أنه استوى على العرش وأن عرشه على الماء وأنه يدبر الحكمة ، فهذا باب آخر من أبواب العلم وهو علم الحقائق ، ويقول هود « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » الأخذ بناصيتها ليس بالأمر السهل ، إنه يحتاج إلى علم الأمم كلها ودرس هذا الوجود كله .

أنزل الله القرآن وقال لنا « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا » في سورة يونس ومدح للفكرين فيها وهكذا في سورة الأنعام وغيرها ، ولكن في سورة هود آتى بما هو أبعد مرمى وأدق منزى يدل على ذلك قوله « كتاب أحكمت آياته » إشارة إلى الحكمة المودعة في الحيوان وغيره ، وقوله « ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فيه إشارة إلى عجائب الوجود الذي يعيش فيه سيفصلها الله ويظهرها للناس وإلا فكيف يقول لنا « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » والناس في الشرق والغرب لا يرون هذا الأخذ بناصية الدواب لأنهم يرون الدواب ولا يرون الأخذ بناصيتها ، فالأخذ بناصيتها لا يرونه ، ولكن نفس الأخذ بناصيتها هو الممكن للناس معرفته ولا يمكنهم ذلك إلا بالعلوم والحكمة .

أنزل القرآن على أمة العرب وأمة العرب نشرت القرآن ثم نامت ولكن الله لا ينام لأنه هو القائل « ثم إن علينا بيانه » والقائل « سأريكم آياتي فلا تستعجلون » والقائل « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتمرقونها » .

فما هو ذا أرانا بعض آياته في كتب أسلافنا للتقدمين وفي كتب للتأخرين من الفرنجة ، أولئك الذين عرفوا بعض العلوم ونبؤوا فيها ولكنهم لا يملكون أن هذا يطلبه القرآن بل هم فوق ذلك يكتبون العلم محققين لمسائله ولا يفسكرون إلا في الصنعة ، أما الصانع فلا يقول أكثرهم على ذلك أثناء كتاباتهم ، أما أنا فإني أقول بأعلى صوتي أيها المسلمون كتاب الله للنزل عليكم لا تدرك بعض أسراره إلا بقراءة جميع علوم الشرق والغرب ثم لا يتم مقصوده إلا باجتهاد أبناء الإسلام بعد قراءة علوم القوم إذ يزيدون على ما علموه وهم مجدّون ، وأقول أيضا « هذه بضعنا ردت إلينا » هي منطقة تمام الانطباق على آيات القرآن ، فما أمانا الآن



أبها الأخر أريك العجب وستعلم أن هذا من بيان لله الذي سخر له الفرنجة وهو الذي أعترى عليه وهداني  
لهمه ، فهذه البضاعة بها يمر الله قراء هذا التفسير ويحفظ بها سائر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها  
ويزيدهم علما بجدتهم واجتهادهم أسوة بإخوة يوسف إذ قالوا « هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ  
أخانا وزداد كليل بعير الحن » .

قال صاحب الصالح فأجب أولا عن الأسئلة للتقدمة ثم اذكر ما تريد ذكره من عجائب الحيوان ،  
قلت : إن الألوان على [تسمين] ألوان برفقة بهجة ذات أشكال تلفت الأنظار ، وألوان خفيفة لطيفة ليس لها  
بريق ولمعان . أما الأولى فإنما أعطيت لحيوانات عندها ما يجمعها من أعدائها ويحفظها من الغيرين عليها ،  
فأما الألوان الخفيفة اللطيفة فإنما تعطى إلى الحيوانات التي من مصلحتها ألا تظهر بوضوح لأحد [أمرين]  
إما لأنها عرضة للغيرين عليها ، وإما لأنها لها فريسة ، تخفي ألوانها ولطيفها أقرب إلى اختفائها عن أعين  
فرائسها فيمكنها أن تتال منها غذاءها ولو يصب وتنب في الشئ والإبكار ، هذه هي القاعدة العامة ذكرتها  
الآن بوطئة لما أصله فأقول :

من عادة الحيوان أن يكون لونه مشاكلا لما حوله ، وهذه المشاكلة تكون سببا لوقايت لأنه بها يخفي  
عن أعين الرقباء .

#### الكلام على الزنبار

(١) نخذ الزنبار مثلا تراه زاهي اللون منقشا مرقتا ، لماذا ؟ لأنه أعطى حمة بها يهجم على من يؤذيه  
لذلك اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون بمظهره اللامع لأنه لا يخاف عدواً يغير عليه فهو في مأمن من سلاحة  
الذي يحمله .

فالزنبار إذن أشبه بالأمم القوية إذ يحوس رجالها خلال البلاد في الشرق والغرب ظاهرين لأن لهم دولا  
تحميهم وتحافظ عليهم ، ودولة الزنبار هو سلاحة ، فسلاحة يقوم مقام الدول في حفظ رعاياها .  
أست ترى أن الله أخذ بناصية هذا الزنبار فجعل له شكلا جميلا مزوتا وأعطاه سلاحة وقل له كن حرا  
طليقا أيها الزنبار لأنني أنا الآخذ بناصيتك وأنا على صراط مستقيم ، اللهم إنا نحمدك على العلم ونشكرك  
على الحكمة .

#### الكلام على الفيران والوطاويط واليوم

(٢) ونخذ الفيران مثلا آخر والوطاويط التي تكون إما رمادية اللون وإما سوداء ، فسبب ذلك  
أن هذه الحيوانات من الحيوانات الليلية لحوقها من الحيوانات القانصة للهلكتة ، فهي أبدا في النهار  
مخفيات ، فإذا ظهرت ليلا وكان لها لون غير السواد وما قاربه تم ذلك اللون عليها فتمرضها للمطب فكانت  
من المالبكات .

وانظر إلى اليوم فإنك تجد لونه تريا فيه بقع ملونة كثيرة لونا خفيفا ، وذلك ليحصل التشابه بينه وبين  
قشر الشجر والأرض أثناء النهار ولا يكون كثير الوضوح أثناء الليل ، أليس هذا الصنع معناه أن الله أخذ  
بناصية (اليوم) ؟ نعم أخذ بناصيته فلونه على الهيئة التي بها يعيش في كل الفيران وغير الفيران لمصالح هذا  
المخلوق ، وإلا فلماذا يختص (اليوم) باللون الذي يكون حافظا له ؟ وبغير هذا اللون المخصوص يعني (اليوم)  
ولا يكون في الوجود .

#### الكلام على السمك

(٣) وانظر إلى السمك فإن الذي تراه لاما بهجا فإنه يكون عيشه في قاع البحر محوطا بالجمال الرائع

من أعشاب بحرية لامعة ومرجان نابت في قاعها بهيج ، ونبات من الشقائق بهية فيكون ذلك الفاع أشبه  
بعديقة خيالية عبقرية حسنة فيخلق ذلك السمك مناسبا لما حوله حتى يختفي فيها هناك من الأشكال وبذلك  
يتوارى عن الأبحار .

أما السمك الذي يرى ظهره أزرق مائلا للسواد أو للخضرة وبطنه أبيض فذلك لأنه يعيش أقرب  
إلى سطح الماء في البحر فصار ظهره مناسبا للجو ولزرقه للماء في البحار فيختفي عن أعين الطيور القانصة  
للسمك وجعل بطنه أبيض ليختفي عن أعين السمك المفترس فبتشابه لون بطنه بلون الماء فلا يفترسه  
السمك المفترس .

#### الكلام على لون الجمل والأسد ونحوهما

(٤) أما الجمل والأسد ونحوهما وتلونتهما باللون الحفيف الرملي فذلك لأنهما من سكان الصحراء  
والصحارى لا أشجار فيها ولا مراعى ، فالأسد لو كان لونه زاهيا كالزنبور لفترت منه فريسته ، والجمل لو كان  
كذلك لكان عرضة لاقتراس الحيوانات المفترسة فهجم عليه كالنمر والأسد والدئاب فأعطى كل منهما لون  
ماحوه من الرمال ليشتبه بها وبالصخور الرملية التي تحيط به .

وهكذا ترى القنبر وأنواعا أخرى من الطير وكل ما له فروة من الحيوانات الصغيرة ذوات الأربع وجلد  
جفن الحيات والضباب ، كل ذلك ملون بلون الرمال وقاية من الله وحفظا لتلك الحيوانات ، فسبحان  
الحلاق العظيم .

فلما سمع صاحب ذلك قال : إنني وجميع التعلين من أبناء مصر وبلاد الشرق وأكثر بلاد أوروبا  
يقولون غير ما تقول ، يقولون إن الوسط قد أثر في هذه الحيوانات فهذا أمر طبيعي لا غير ، فأما الأخذ  
بالناسية التي ذكرته فإن التعلين لا يقولون به ، قلت له : حياك الله ويياك ، ألم تذكر أنني بينت لك أن هذا  
العلم لا يكون عند المتوسطين في العلوم ؟ إن هذه الآراء إنما يعرفها الحكماء في أوروبا وفي الشرق ،  
فأما تلاميذ المدارس في كل أمة فإنهم كالعامة في هذه النظرات ، بل هم التحيرون في هذا الوجود ولا يعطى  
بالحكمة منهم إلا الأفلون أولئك هم للفكرين ، فقال : هات برهانك وانقل لي ما قاله أكابر حكمائهم  
في عصرنا حتى لا تنتهم بأنك إنما تحاول أن تجعل القرآن موافقا للعلوم بالحلق أو بالتحايل ، قلت :  
قد جاء في كتاب [ موسوعات العلوم ] المسمى ( ساينس فورال ) في المجلد الثاني صفحة ١٢٨  
وما بعدها ما يأتي :

إن للفكر العادي يرى أن ألوان الحيوانات قسمت ووزعت بلا صنعة ولا علم ، وترى المناطق الحارة  
الاستوائية كل شيء فيها لونه بهيج زاه زاهر في جوائه ونباته بخلاف ما عندنا ، ثم يبان السبب في أن هذا  
أحمر وذاك أبيض الخ ، كل ذلك عند أكثر الناس لا يفيد ولا ينتج بل هو عبث ، ثم قال وسأبين لك أن  
حيوانات كثيرة ألوانها ناعمة لها ، بل إن كثيرا منها تتوقف حياتها على حماية ألوانها لها ولولا تلك الألوان  
لاعرضت تلك الحيوانات ولبدت من الوجود .

ثم أخذ يبين تلك الحيوانات واحدا واحدا بدقة وحكمة وفقه وتفكير في الهواء والبر والصحراء والجبل  
والبحر والأقطار الحارة والباردة ، وفي هذه قال :

نبحث في جهات القطب الشمالي فإن لون البياض هو السائد في تلك الأقطار ، وقد ترى هناك السواد  
والسمرة إذا كان ذلك أصلح للحيوان في تلك الأقطار .

#### الأرنب والدب والتعلب القطبيات

ثم قال كل دب في الأرض أسمر أو أسود إلا دب القطب الشمالي فهو أبيض ، وهكذا أرنب القطب

والبوم ، كل هذه بيضاء أو قريية من البياض ، والتعلب القطبي أبيض ، والأرنب الذى يسكن الجبار العالية فهذا يتغير إلى البياض زمن الشتاء ، وهناك طائر يسمى (بستريمين) وهذا خير مثل للحماية بالألوان فهو موافق لألوان الأحجار التى يقع عليها ويلازمها ولا يقدر الإنسان أن يميز سرها منه وهو فى زمن الشتاء يلون بالبياض لأجل حمايته بمشاكلته للتلوج فهو يلون فى الصيف بلون الأحجار ، وفى الشتاء بلون الثلج لحمايته أيضا .

الغيم القطبية والسمور والقراب وألوانها هناك

ثم قال : وهناك [ثلاثة أنواع] من الحيوان تحالف لون الثلج فى تلك الأقطار .

[أولها] نوع من الغيم يسمى (غم مسك) فهذه لونها السمرة مع السواد فتستبين وتظهر وسط الجليد ، وسبب هذا أنه يبش جماعات وليس لفرده أن يبش وحده ، فلون السواد والسمرة الذى يظهرها وسط الثلوج ظهورا وانحاضا ضرورى حتى يعرف كل خروف منها أصحابه ، ولو كان لونها كلون الثلج لضل القطيع وتفرق وانترسته للفترسات ، فهذا النوع بين نارين ؛ إما حياة محمية بالسمرة مع السواد ليتعارف أفراد السرب الواحد ويتفرق فى جانب هذا أن يتفرد الواحد بعد الواحد ضالا الطريق أو مريضا فتختطفه للفترسات كالتعلب القطبي ، أما أفراد السرب فهى متاونات لها حراس يعرفون مواقع الخطر فيفرون بالقطيع كله فيعيشون ويتكثرون ، وإما لونها كلون الجليد لايميز بعضها بعضا فتهلك كلها ، لاجرم أن أول الأمرين خيرها وهذا هو الذى حصل فى الوجود .

[النوع الثانى - السمور] فإنه يحتفظ بفروته العظيمة الثينة الجميلة السمراء فى أيام شتاء (سبيريا) القارس وذلك لأنه يلزم الأشجار ويأكل من ثمارها وهو نشط ويختطف الطيور بين الأشجار فيقتنصها فبأكلها ولو كان لونه السواد لميزته الطيور ففرت منه فلم يأكلها .

[النوع الثالث - القراب] إنه يكون فى أقصى الأقطار القطبية الشمالية ولكنه دائما أسود . ذلك لأمرين : [أولا] أنه لا عدو له فاجتهد إذا تميز فى وسط الثلوج .

[والثانى] أن فريسته وهى الجيفة لا تفر منه إذا أراد أكلها فلذلك حفظ له سواده ولم يغير ذلك كله لمصلحة القراب نفسه ، ثم قال هذه للسائل الثلاث من البراهين الدالة على ما ذكرناه من أن الألوان مقصودة لحماية الحيوان ، وهذه الحججة صادقة ومكذبة لمن يقولون إن البياض فى الأقطار الشمالية من أحد [أمرين] إما من تأثير البرد مباشرة على الحيوان ، وإما من تأثير انعكاس البياض من الثلج على الحيوان ، فهذه الأنواع الثلاثة علمتنا أن بياض الحيوان إنما يكون لما ينفعه البياض ويحفظه فى حياته ، أما التى لا تحتاج إلى حماية البياض أو تلك التى ينفعها السواد فانها تلون به ولا تلون بالبياض ، ثم قال إذن سبب التغير لا يرجع عقلا إلى الأمور الخارجة عن الحيوان بل هو راجع إلى قوانين ، مختلفة تدور كلها حول حفظ الحيوان ومنفعته لاهل الوسط الذى تعيش فيه حشرات تلون بلون جذوع الأشجار وحشرة أبى دقيق التى تلون بلون الأوراق الجافة ، فلما أتممت هذا القول أخذ يقول يا محبا لهذا كلام الحسكاه بأوروبا فى عصرنا ، فقلت نعم هذا هو الذى رأيت وتقلته وسأشرح هذا للقائم إن شاء الله وبقيت حيا فى سورة « قد أفلح للؤمنون » عند قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وهناك أبين هذا للقائم بإيضاح وأثبت لك الصور التى رسمها القوم بالتصوير الشمسى فترى هناك إن شاء الله حشرات طائرات ثم إنها تجتم على شجرة عتيقة فيخيل للرائ أنها عبارة عن ضمن غليظ من الشجرة قد كسر أعلاه حديثا ، وما ذلك إلا أن هذه الشجرة قد خالقت بحيث تكون

على هذه الحال لتلا يعرفها فانصبا من الطيور أشكال الحشرات ، وهكذا ترى هناك صور حشرات أووان  
أجندتها تشبه تمام للشابهة ألوان الأوراق الجافة حتى لايفطن لها آكل الحشرات وهكذا بعض الحشرات  
من أبي دقيق الذي رآه هناك مرسوما على الشجرة وهو لا يتميز من أزهارها التي تلون بلونها . كل ذلك  
ستراه إن شاء الله ولا يسع للقام ذكره هنا ، فقال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

[ بيان أن هذا معنى قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها الخ » ]

فقلت أليس هذا يكفيك في معنى قوله تعالى على لسان هود « إن توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة  
إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » ، فانظر إلى التعبير ربي وربكم فهو ربي هود وربى  
قومه وهو ربي كل حيوان وحافظه وهو على صراط مستقيم أى هو عدل لايجور ، والجور هنا إعطاء الحيوان  
ملاينغمة أو ما يضره ، فلو أنه أعطى السمك الذى فى قاع البحر لون الذى عند سطح الماء فكان فى ظهره زرقه  
مع سواد أو خضرة لامتاز بهذا اللون فتعرض للهلكات ولو أعطى السمك الذى عند سطح الماء ما أعطاه  
للسمك الذى يعيش فى قعر الماء فى البحار الحارة التى يكون قاعها مزدانا بجمال الحيوان والنبات لامتاز  
هذا بلونه البراق البهيج عند سطح الماء فرآه مافوقه من الطيور السائحات وما تحت من السمك المتعرات ،  
إذن ثبت بالعلم الذى نشر اليوم فى أنحاء أوروبا وأمريكا واليابان وجميع العالم الإنسانى أن هذه الآية يفسرها  
حكمة الحكما . وعلم العلماء ويضعف عن فهمها أكثر رجال الدين فى البلاد الإسلامية الذين لم يعرفوا نظام  
ربهم واكتفوا بإيمان المجاز ، وهكذا أكثر المتعلمين بدارس مصر والشام والمراق وأوروبا وأمريكا  
واليابان فان هؤلاء كالفقهاء فى الإسلام ، والفرق بينهما أن الفقيه يقول هذا فعل الله ، وهؤلاء الذين أخذوا  
شهادات عالية من للدارس يقولون هذا فعل الوسط والبيئة ، وأن الثلج آثر على ماحوله من الحيوان فأعطاه  
البياض وأن الرمل فى الصحراء آثر فى الجمل والأسد فجعل ألوانهما كألوان رمال الصحراء ، وقد ظهر لك  
بطلان ذلك كله بالبرهان .

[ العرش والرحمة والعلم ]

قد جاء فى أول هذه السورة أنه مامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها وأن كل ذلك فى كتاب مبين  
وأن عرشه على الماء ، وجاء فى سورة أخرى « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم  
ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك  
وقهم عذاب الجحيم » فالذين يحملون العرش أى الملك والذين حول العرش هم اللذين لهذا العالم من  
العوامل المجردة عن المادّة والعوامل المادّية كالأرض ترى فيها تموس صغيرة فى أجسام إنسانية لتزداد علما وبصفا  
يرتقى إلى أن يصير مع أولئك المجردين عن المادّة من اللائكة ويدبرون كتدبيرهم كل بقدره ، فهؤلاء  
للائكة يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون ، والتسبيح يرجع لمعرفة أن الله مترفع عن المادّة وما يناسبها وعن  
سائر المخلوقات ، والتحميد لاحقيقة له إلا بإدراك الحقائق ، فإن الحمد إنما يكون على نعمة ، والنعمة إن لم  
تعرف فلا حمد عليها ، وكلما كان الإنسان أو الملك أكثر علما كان أكثر حمدا ، والحمد جاء فى اسم سيدنا  
محمد صلى الله عليه وسلم وجاء فى قول الصلى قبل كل مكتوبة « اللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة وابنه  
مقاما محمودا الذى وعدته » فذكر الحمد وتكراره فى الصلاة والدعاء كله راجع للعلم فلا حمد إلا على علم ،  
والجهول لا حمد عليه .

فهؤلاء اللائكة يسبحون بحمد ربهم ، وهم علماء بما حمدوا عليه وهم مؤمنون لأن الحمد لا يكون إلا مع  
إيمان ولكون للؤمنين شاركهم فى الإيمان المأم أخذوا يستغفرون لهم ويقولون « ربنا وسعت كل شئ »  
رحمة وعلما .

فيا ليت شعري كيف نعلم أن الله وسع كل شيء رحمة وعلما إلا بمثل ما ذكرناه ؟ وتجب من ذكر الرحمة مصحوبة بالعلم لأن الرحيم الجاهل لا يقدر أن يضع الأمور في مواضعها فيعطى السمك القدي عند سطح الماء لون المرقتش للزبن الذي في قاع البحر الحار فيموت السمك فريسة هذا القش والتصوير والتزويق ويعطى بجمله الجمل لون الطاوس وكذلك الأسد فهلك الأول بالحيوانات المفترسة ، والثاني بفرار الغزلان والبقرة والجاموس والغنم والمز إذا رأيت في عرض الصحراء .

فالرحمة لا تكون إلا مع العلم ، والرحمة بلا علم حماقة ، وهذا المعنى هو المذكور هنا وهو قوله « إن ربي على صراط مستقيم » وإن يكون على صراط مستقيم ، أي عدل إلا إذا علم طرق للنافع والمضار فأعطى الأول ومنع الثاني ، قوله هناك « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » يقرب من قوله هنا « إن ربي على صراط مستقيم » .

فقال صاحب ما معنى قوله في أول السورة « كل في كتاب مبين » بعد ذكر أن كل الدواب عليه رزقها هل الكتاب الذي كتب فيه كل شيء اطلعنا عليه وأبان لنا شيئا من تلك العلوم ؟ قتل كتاب الله ولوحه المحفوظ لا يعرفه إلا هو ومن يريد تعليمه ولكن هذا الكتاب له آثار ، فقال وما هي الآثار؟ قلت انظر إلى التصوير الشمسي ، ألت ترى الناس يصورون الجبال والأنهار والكواكب والزارع والمحسون بالتصوير الشمسي فيعرفونها معرفة عامة ؟ قال بلى ! قلت فهل الصورة الشمسية فيها مزايا الأصل من كل وجه ؟ قال كلا ! قلت هكذا هنا إن الله وإن لم يطلعنا على اللوح المحفوظ أطلعنا على الصورة للنطبعة في الأرض منه ، فهذه الطوائف الحيوانية والنباتية التي قرأت بعضها هنا وفيما تقدم في هذا التفسير والتي ستقرؤها إن شاء الله في سورة « قد أطلع المؤمنين » إذا درسناها حتى دراستها أرتنا جمال ذلك اللوح المحفوظ فإن الإيمان في الصنع بحيث ترى العار والأسد والجمل وطوائف الحشرات والسمك كل واحد منها قد أعطى ما به حياته .

ذلك كله نظام وترتيب ، والنظام والترتيب إنما يكون من العلم ؛ فالعلم والحكمة المحبوان عنا المحفوظان عند الله قد ظهرا في هذا الوجود وبأنا أيما تبيان لمن يدرسون ، أما الذين يعيشون وهم ساهون لإهون مكثفون بقشور العلوم وبما نالوا من شهادات من مدارس عالية ، فأولئك ربما كان غرورهم بملهم القليل يحملهم على إنكار ما لم يعرفوا ، والنظائر بالإنكار ليدفعوا بذلك الإنكار والتكبر الحزبي والعار أمام الذين يملونهم ، فإذا سئلوا في مثل هذا اللقاع قالوا هذه أشياء يقتضها الوسط والبيئة وأحوال الجوار وهكذا .

واعلم أن الله عز وجل حجب أكثر النوع الإنساني عن معرفة هذا وأمثاله رحمة منه بهم كما قدمت في أول اللقاع ، ولو أنهم عرفوا ذلك لسكروا ولا نهروا فكان رحمهم عظيما لكن الله برحمته شغل الناس بإطعام أنفسهم وبإلباسهم وبدواواتهم وأعمالهم فهم في شغل شاغل . كل ذلك ليقوى عقولهم حتى يستأهلوا لمعرفة هذا الوجود ولو عرفوه الآن لداب أكثر النفوس ، فهو هنا حجبها ليقويها ولا يعطيها من العلم إلا بمقدار على حسب قابليتها .

فإذا رأيت زيدا يحقر هذه للسائل فلا تعجب لأنه الآن يربي بالنعم والنعمة والعز والعدل والفقير والفقير ، لترى نفسه في الصيف والشتاء والحريف والريبع فتشدد وتقوى حتى إذا فارقت روحه بدنه استحق من العلم على مقدار ما استعد له ، فحجب الناس عن العلم لم يكن بخلا ولكنه يحرمهم منه إلى أمد معلوم لنفسهم لا غير ، وإذا رأيت نفوسا متعطشة إلى هذه المعارف ونالت بعضها فاعلم أنها استحققت ذلك ، ذلك هو الصراط المستقيم والحمد لله رب العالمين .

## التسبيح والتحميد

استيقظت قبيل فجر يوم الأحد ٣١ يوليو سنة ١٩٢٧ فظنرت أن هذا الموضوع يعوزه التمام ، فما أناذا  
ذا كر ما اضرح له صدرى تنميا للقال فأقول :

لقد علمت أن الألوان جعلت لحماية الحيوان فيها تقدم وفيها سيأتي في سور أخرى ، فاعجب لذلك واعجب  
لقوله تعالى « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » من هنا فليقرأ المسلمون التسبيح  
والتحميد . التسبيح تنزيه ، والتحميد آثار للنعم ، هذا هو مقصود التسبيح ، أمرنا بالتسبيح في صلواتنا  
وسبحنا في الركوع وسبحنا في السجود في كل واحد (١١) مرة . وحمدا في الرفع والاعتدال فقلنا [ربنا لك  
الحمد] وحمدا في أول القاعة في كل صلاة ، فنحن قوم حمدون ونحن الذين قيل لنا « فسبحان الله حين  
تسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض » وجاء في سورة يونس السابقة قوله تعالى « وآخر  
دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » هذا التمام هو سر التسبيح وسر التحميد الذي لا يفهمه .  
نحن سبحنا وتسبحنا لفظي . وحمدا وحمدا لفظي ، فإذا لم تتبع اللفظ معناه كنا ضالين ، ومعنى الحمد  
وهو التسبيح يظهر في أمثال هذا التمام مقام الألوان .

الله أكبر ، جل جلاله ، وجلت الحكمة ، اللهم إنك أنت الذي أبرزت هذه الأشكال الحيوانية الآتية صورها  
فيها سيأتي ، وأنت الذي رسمت عليها تسبيحك وحمداك ؛ فبالأول زهناك عن البعث في صنعك والبعث عن  
للقنوب في خلقك .

قد كسوت الحيوانات أكنية لونها بألوان خاصة فكانت وقاية لها ، فألبست الدب في الأقطار الشمالية  
قباء أبيض وخلمت على الزنبور حلة مزركشة مروقة براقة يراها الناظرون وحيت سكان الصحارى من  
الدولاب ألوان رحلها وأفضت بنمك على تلك المخلوقات التي هي في كلاءك وزينت بعض الحشرات بزينة  
تشبه زينة حيوانات من نوعها ، وبهذه التشابه أوهمت أعداءها أنها لها سلاح كسلاح للشبه به اقتصادا منك  
في عملك ولطفًا منك بمخلوقاتك ورحمة بها فحميتها من أعدائها بمجرد التشابه اللونية لما له سلاح من نوعها  
كما سيأتي صور ذلك فيما سيأتي من مجلدات هذا التفسير في محله إن شاء الله ، وإذا رأينا حشرة كزرق الطير  
وإذا رأينا طائرا ليلا يسمى (سكانك) في أمريكا الشمالية قد ازدهى لونه وحمل شكله فصار في الليل ظاهرا  
واضحا وقد طال ذنبه الأبيض الزاهي الذي هو علم له رفقه ليعرف .

أقول : إذا رأينا هذا وذلك فإننا نقول إننا زهنا الله بقولنا لا بألفاظنا فقط ، زهنا عن البعث : أي  
البعث في وضع هذه الألوان وهذه الأشكال ، فترى أن شكل زرق الطير للحشرة المذكورة إنما جعله الله وقاية  
لها ، فليس هذا ازدراء واحتقارا ولها ولها بل الحكمة أصبحت معروفة لنا ، فإن الطير لا يشك في أن هذا  
زرقه فيصد عنه فيكون هذا الشكل رحمة بالحيوان ، فإذا سمعنا الله يقول « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما  
باطلا ذلك خلقنا للذين كفروا » فذلك لأن الذين كفروا بالله يقولون إن العالم جاء بالمصادفات والامتزاجات ،  
وهكذا ظن جميع الجهال وجميع التملين تعليقا ناقصا ولكن الذين اتبعوا الأنبياء منهم يؤمنون ويصدقون  
ولكنهم لا يفقهون الحقائق ويخطر لهم أن هذا العالم باطل ولكنهم يدفعونه بإيمانهم وتصديقهم ، والإيمان  
غير اليقين ، وهكذا نقول في الطائر المذكور الآتي شرحه في المجلدات الآتية إن شاء الله تعالى .

يقول إن هذا الطائر الأمريكى قد أعطاه الله سلاحا وهو أنه ينشر رائحة كريهة بها يدفع كل هاجم عليه  
فجل الله هذا الذيل الطويل البهيج الجميل الأبيض ليكون علما له برفه فتراه الطيور الكواسر فخر منه  
ولا تفرجه لأنه نشر علمه بقوله أنا البطل للنوار ، أنا الليث الكرار ، أنا الذي أدفع أعدائي بسلاح هيب  
النشأة غريب .

قلدى الإنسان فاخترع الغازات الحاققة واللمعية ، فأنا أول من حارب الأمم بالغاز الكريه اسمه ، وأعدائى من الحيوان ليس عندها وقاية تقيا على أوفها من رائحة الكريهة ، كما استعمل جيوش الحلفاء أكنة على أوفهم فى الحرب الكبرى وقاية لها من غازات الألمان الذين قلدونى فى اختراعى فى السبق عليهم فى هذه الصناعة .

إذا فهمت هذا فهمت معنى قوله تعالى « وإن من شئ إلا يسبح بحمده » جعل التسبيح ملتبسا بالحمد وهذا هو الحق ، فان الحشرة التى على لون زرق الطير قد كتب على بدنها مانصه : [ أنا أزه الله عن البعث فى وضى على هيئة فندرة فلم يجعل هذا عبثا وإنما جعله لمنفعى ] فقول الحشرة إن هذا الوضع ليس عبثا وإنما لمنفعتها تضمن التسبيح والحمد معا ، لأن النعمة هنا هى الوقاية من الهلاك والوقاية مرتبطة بهذا الشكل القدر ، فقدرته الشكل بها النجاة ، ففى قلنا بها النجاة نزهنا الله عن البعث وصارت له منة على الحيوان فالتسبيح هنا ملازم للحمد ، فهذا هو سر « وإن من شئ إلا يسبح بحمده » فالتسبيح هنا مع الحمد لا يتفصل أحدهما عن الآخر .

فهذا الشكل أفادنا الأمرين معا : نزهة الله عن البعث وفضله على عباده . ومثل هذا قول فى الطائر الأمريكى ، فراخته الكريهة التى يطلقها على عدوه هى شئ قدر ، والله لم يخلق هذا القدر الكريه الرائحة عبثا ، بل جعله وقاية لمن انصف به فحصل الأمران : نزهة الله عن البعث فى وضع هذا القدر للكروه الرائحة ، واللذة والنعمة على الحيوان ؛ فالتسبيح والتحميد متلازمان ، وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى فى سورة يونس قبل هذه « دعواهم فيها سبحانه اللهم - إلى قوله - وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » فهذا اللقاع فتح لنا باب فهم ذلك على قدر طاقتنا البشرية .

إن تسبيح أهل الجنة وتحميدهم ليس كتسبيحنا ولا كحمدها بل هم يسبحون ويحمدون بطريق الإلهام كما ورد فى الآثار « إنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما نلهم عن النفس » فالتعبير بالإلهام يفيد أن ذلك التسبيح وذلك التحميد قد ظهر الآن فى هذا التفسير شعاع نور منه فإن ألوان الطيور وأشكالها ، وهكذا كل حشرة وكل حيوان جميعها امتزج فيها التسبيح بالتحميد ولكنه معقد غير معقول إلا لقليل من الناس ، وللك قال لنا « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » إن تسبيحهم مندمج فى حمدهم .

إن هذه العوالم كلها عبارة عن كتاب كتبه ييدى يده دلالة أوضح من دلالة ما تكتبونه بأيديكم وما تلتفظونه بألسنتكم ولكنكم تفصرون عن إدراك ذلك وأنتم فى هذه الأرض ولا يفهم بضمه إلا أخص اخترتهم لذلك وهم الذين قلت فيهم « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولا يتم الفهم إلا بعد اللوت لأولى الأبواب ولذلك جعلت تسبيح أهل الجنة مفصولا عن حمدهم والتسبيح على قدر التحميد ، أريد بذلك أن اللعاني للعدو عليكم ولللعاني المحبوبة فى هذه الصور والأشكال التى هى حروفى وكلماتى التى خفيت عليكم وأنتم هنا فلا تفهمونها هى التى ستظهر لأهل الجنة فيقولونها بطريق الإلهام فتفصل لكم الأشياء تفصيلا كما فصلت الحمد هنا عن التسبيح بحيث تتفكرون جمالى وقد قويت أرواحكم فحمت ذلك فصارت فى لذة لا يعلم بها ولا تدر على تحملها أهل الأرض ، هذا تحقيق بعض اللعاني فى قوله تعالى « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » للمترجم بالتحميد ، بخلاف أهل الجنة إذ يسبحون ويحمدون بالفهم والتمثل لا بمجرد اللفظ كما تفعلون

هذه هى اللعاني التى نجأها الله فى صور الحيوانات التى تعيش بين ظهرائنا فهو آخذ بناصيتها وهم أخصها تسبيح وهى أنفسها حمد ، ونحن اليوم لانقلها ونسقلها بعد اللوت .  
واعلم أن هذا التفسير فتح لباب هذه اللعاني وسيكون فى هذه الأمة حمادون ومسبحون بطريق العلم

والحكمة ويكونون نورا للناس وتكون هذه العوالم في نظرم جنة عرضها السموات والأرض ، وأنى جنة وأنى لذة أبقى وأرقى وأعلى من الوقوف على الحقائق التي ستكون نورا لنا في هذه الدنيا ويوم القيامة تهتدى به العلوم أعلى والعلوم هي حقائق التسبيح والتحميد .

إذا علمت هذا علمت كيف أمر السلم بالإكثار من التسبيحات والتحميدات بكرة وعشيا ، ولماذا يقول صلى الله عليه وسلم لقاطمة رضى الله عنها لما سأته خادما كما في البخارى « إذا أخذتما مضاجعكما فصبعا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا ثلاثا وثلاثين » ثم ذكر أن هذا خير لهما من خادم ، أليس ذلك معناه أن العلم هو اللذة القصوى ؟ فإذا كان الخدم لراحة بدن الخدم .

[ وبسبارة أخرى ] إذا كانت الحياة فيها لذات كالبقاء فيها وكذلك بالمال والخدم والخدم فإن هناك ما هو خير لسعادة الإنسان وهي إدراك الحقائق التي دخل تحت التسبيح والتحميد والتكبير ، وذلك كله هبوء في العوالم التي نشاهدها أمثال هذا الطائر الأمريكى وهو بدن مركب من أجزاء ، أو كلمة مركبة من حروف دلت على معان لا يفهمها إلا الخاصة ولا يفهمون منها إلا قليلا وفهمها هو عز الدنيا وعز الآخرة ، وسعادة الروح وسعادة البدن ، وهذه الكلمة من كلمات هي للذكورة في قوله تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » فما أنت ذا أيها الذكى أخذت تمرا في هفتا التفسير بعض كلمات الله في اللوح الفتوح أمامك وهو هذه الدنيا وأكثر الناس حولك لا يظنون ، والحمد لله رب العالمين .

للتدوين تعليقا أوروبيا في الشرق يجهلون حقائق العلم في أوروبا وفي الإسلام

تبين لك من هذا المقال في تفسير قول هود « إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بما صديتها الخ » أن كل دابة لا تعطي لونا ولا شكلا إلا لمفعتها بحسب الاستفراء حديثا ، وهالك ما كتبه العلامة ( روبرت برون ) في كتاب موسوعات العلوم التقدم ذكره ، قال ما ترجمته في صفحة ( ٢٨٤ ) من المجلد الثانى [ لقد كتبنا في مقال سابق من صفحة ( ١٢٨ ) إلى صفحة ( ١٨٧ ) ( أقول هي المقالة التي استخلصنا بعضها هنا وستذكر فيما بعد ) في الألوان الحافظة للحيوان واجتهدنا أن نلقى شعاعا من العلم ووضوح الحقيقة في التصود من هذه الألوان الحاسة وفي أصولها من حيث إنها بما يختص بالحيوان عن أعدائه الآكلات له وعن فريسته التي لا بد له من اضطيادها ، ولقد أبنا هناك كيف كان موضوع الألوان متسما متشعب الأطراف في الطبيعة وكيف أن ما كان يظهر للناس من الألوان إنه للزينة وللزخرف :

(١) حينما كنا نبحث الحيوان وهو محبوس في أقفاصنا ( يريد أمثال الطاووس ) .

(٢) وحينما نلاحظ صورته في دار التحف ظهر الآن أنه خطأ محض وضلال مبين ، لأن تلك الألوان جميعها لحفظ كيان الحيوان والحفاظة عليه إذا درسناء وهو في وطنه الأصلي أو رأينا وهو جائم للاستراحة وقد اتخذ شكلا به ينجو من خطر الهجمات ، انتهى بايضاح قليل ، وهذا القول يفيدنا فأدتين :

[ القائمة الأولى ] أن الناس في غفلة معرضون عما حولهم وأن للتعليم في بلاد الشرق الدين قرءوا لفة أو لتبين مع بعض العلوم ، هؤلاء هم أكثرهم تفهما الإسلام وهؤلاء ممن قال الله فيهم « وإن تطعوا أكثر من في الأرض يضلوا عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » أما نحن هؤلاء للتعليم تعليقا أوروبيا فإنه أتجه بمرور إلى أن ما أخذوا فيه شهادة من مدارس أوروبا هو العلم كله وهم في الوقت نفسه يجهلون حقائق العلوم عند الأوروبيين ، فأكبر علمهم في العلوم الطبيعية قد رأيت الآن نص ما نقلته



عندهم وأنهم يعيبون الذين يكتمون من الحيوان بظواهره ولا يعقلون حقائقه ، وأما ظن الفقهاء فظاهر أنهم يتركون النظر في هذا العالم ظانين أنهم عرفوا كل شيء ، والأولون منهم كفروا بقله عليهم ، والآخرون جهلوا ما يطلبه الإيمان ، ولو أن الطائفتين كانوا غير مخدوعين لدرسوا وحققوا ؛ فالسكر في الأولين للغرور ، والجهل في الآخرين للغرور ، وهما هي ذمة علوم أوروبا التي تقاها عن حكايتهم في نصرنا ، بأعداء الشرق هم الفقهاء العاقلون ، ومتعلمو العصر للعقلون ؛ فالفقهاء بادعائهم نصر الدين قد هدموه وهم ظالمون ، والمتعلمون تعلما أوروبيا بتركهم الدين واحتقارهم كل دين أعربوا عن جهلهم بعلوم ساداتهم في أوروبا ، ويقول الله في الطائفتين « فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » وهذا تمام القادة الأولى .

[ القادة الثانية ] إن هودا عليه السلام كان يتأونه قومه ويحادونه ، وهكذا سائر الأنبياء فهو لاء كلمهم قد آذنتهم أمهم . فقال لهم هود : أنا لا أخاف منكم « إني توكلت على الله ربي وربكم » واحتج على ذلك بدليل وهو أن الله أخذ بناصية كل دابة فإن وقع بي مكروه فمناك أحد أمرين : إما أنه ينجيني منه ، وإما أن ذلك للمكروه يكون سببا في ثواب الآخرة كما قال تعالى على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم « قل هل تترصون بنا إلا إحدى الحسنيين » فجعل النصر حسنى والقتل في سبيل الله حسنى ، وهذا هو معنى التوكل : أى أن الإنسان يجتهد في عمله ، والنتيجة تسلّم لله وتكون هي خيرا للإنسان بحسب حاله ، كما أنار أينا الطائر الأمريكى قد جعل للمكروه من راعته والمحجوب من شكله الزاهى الزاهر كلاهما لحفظه ، وكما رأينا تلك الحشرة التي شكلها شكل زرق الطيور قد جعل ذلك الشكل القبيح لوقايتها ، فهنا قبيح وحسن لوقاية الحيوان وقبيح خالص لوقايته أيضا ، هذا هو الذى يقصده هود عليه السلام ، يقول إن الله تكفل بالحيوان وجعل للمكروه والمحجوب لغفته ، فما أنا ذا أتوكل على الله وأقول : إن للمكروه والمحجوب نافعان لى ، والشر كالخير لأن النتيجة هي القادة لى ، وربى الذى رأيناه جعل للمكروه والمحجوب نافعين للحيوان هو نفسه الذى قدر لى للمكروه والمحجوب ؛ فبالمقاييس على الحيوان يكون المكروه كالمحجوب ، فالأول للذنى فى الحال ، والثانى للذنى فى الاستقبال وهذا هو قوله « إن ربي على صراط مستقيم » اه .

زيادة إيضاح « إن ربي على صراط مستقيم »

إنه يرينا على صراطه المستقيم ، وهو يهدينا الصراط المستقيم كما قال تعالى « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله » فقول للعلم « اهدنا الصراط المستقيم » يريد صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، وأن الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض يديرهما بالقسط والعدل ، فيجعل الفأر أسود والزنبرور أحمر ، والطائر الليلي الأمريكى فيما تقدم أبيض ذا ذيل طويل ، والحية والضب بلون الزمالة ولا يجعلهما كالطاووس ، وهكذا مما لا نهاية له يفعل ذلك على صراطه المستقيم ؛ فلو عدل عن هذا الصراط لغنيت الفيران بظهور ألوانها لئلا ولو لم يعط الزنبرور حلتة البراقة الباردة على ماله من سلاح لمجتم عليه الطيور الآكلات للحشرات وهكذا مما علمته .

هذا فتح لنا سرّ القضاء والقدر : القضاء والقدر سرهما محجوب عن الناس جميعا لأننا فى الأرض محبوسون وما أوتينا من العلم إلا قليلا وليس ذلك بخلا من الله كما لم يكن منع إعطاء الفأر لون الطاووس بخلا منه ، بل ذلك منه وفضل ، ولكن ما ذكرناه هنا فيه بصيص من نور ذلك السرّ . ذلك أنه جاء فى سورة الأنعام « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تبغون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرسون . قل فقه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين »

الله أكبر ، جلّ الله وجلّ العلم وظهر بعض السرّ وأذن الله بارتقاء السليين وبعلوّ كهيم في العلوم .  
 إن هذا التفسير منحة من الله ، ذلك أن أبواب العلم اليوم قد نتحت ومن أجلها ما نذكره في هذا المقام .  
 ذكر الله أن الذين أشركوا سيحتجون بالقضاء والقدر على صاحب الرسالة ويقولون إن كل شيء بمشيئة الله ،  
 فلم هذا الوعيد والإنذار على الكفر والذنوب ومنهم أكثر للتعليم اليوم والجهلاء ، فأجابهم أولا بالتهديد بأنهم  
 يذوقون البأس كأمثالهم من الأمم ، وثانيا يصفهم بالحرمان من العلم ولو كان عندهم علم لهداهم ، والعلم شيء  
 والظنّ شيء ، فالعلم اليقيني هو النظر في هذا الوجود والنظر به يكون اليقيني الذي انصف به الخليل ، وهذا  
 اليقيني إنما يكون بمثل النظر في أنواع الحيوان المذكورة .

إن الناس في مستقبل الزمان سينالون حظا عظيما من علوم الحيوانات وغيرها وهناك يدرسون بالعلم  
 والحكمة ، وإن الله لم يعط حيوانا لونا ولا شكلا ولا هيئة إلا جعل ذلك نافعا له وعند التحقق من هذا  
 يزول الاعتراض بالقضاء والقدر ، لأن القبح والحسن وغيرها كلاهما لمنفعة نفس الحيوان ، فهذا هو العلم  
 وهذه هي الحجة البالغة التي كتبها الله لنا بخلق صور الحيوان ، ولست أقول لك إن هذا كل الحجة بل هو  
 فتح لبابها .

يجيب الله كل سائل متكلم على القضاء والقدر بأن العلم هو الذي يعرفه صراط الله المستقيم ومتى علم  
 الناس أدركوا بعض حجة الله البالغة ، وأتى حجة أبلغ من خواص الحيوان ومعجزاته ؟  
 ظهر مما تقدم ومما سيأتي في سورة المؤمنون أن كل حيوان يجب أن يكون على ما هو عليه وإلا لهلك ،  
 فهنا أمور :

[ الأول ] أن لكل حيوان شكلا ولونا لا يصلح لغيره .

[ الثاني ] أن هذا هو العدل ، وسواء ظلم لأنه يترتب عليه هلاك الحيوانات .

[ الثالث ] أن النقص لا فرق بينه وبين السكّال والحسن والقبح ، كذلك فكل ذلك لبقاء الحيوان ،  
 فيكون نفسه بالنسبة لغيره كالا بالنسبة له .

هذه هي حجة الله البالغة هداانا الله إلى أوائلها في هذا التفسير ، هذا صراط الله المستقيم ، فكيف يكون  
 صراطنا نحن في قوله لنا اهدنا الصراط المستقيم ؟ .

قد علمت أن الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم : صراط الله الخ »  
 فصراطنا هو نفس صراط الله ولكن صراطنا على حسب أحوالنا .

[ أولا ] أن نعلم أن ما يحصل لنا من الحوادث ونراه نقصا لنا أو ضرا بوجهه المنفعة لنا قياسا على  
 الحيوان الذي عرفنا كيف كان الله على صراط مستقيم .

[ ثانيا ] أن نذر الإفراط والنفرط في الأمور ونكون وسطا في كل شيء في السلام والأكل والحب  
 والبغض وهكذا ، وهذا ملخص علم الأخلاق .

[ ثالثا ] نزيد علما حتى نوقن أن ما أصابنا من مكروه فهو نعمة علينا كما أن سواد الفأر نعمة عليه ،  
 بل الذنوب التي تورثناها ندما ربما كانت سبب إشراق قلوبنا فإذا ن لا يكون فرق بين المرض الجسمي والمرض  
 الدينّي وهو الذنوب في أن كلا منهما قد ينير العقل .

[ رابعا ] أن نكون حكما ، لا نقول كلمة أو نعمل عملا إلا إذا وزناه كما رأينا الله وزن الأنوان والأشكال  
 ولم يحطها إلا لأربابها فلا نجعل عنده ولا هو حائد عن الصراط المستقيم اه .

## بهجة الأنوار في عجائب الحيوان

يظهر لي أن هذه الدنيا لانهاية لجائتها ولا غاية لبدائعها ، ها أنا ذا ألمت إلى ما ستقرؤه في سورة « قد أفلق للؤمنون » من عجائب الألوان في الحيوان وبعد ما كتبت ذلك عثرت على أمر يدهش العقل ويحير القلب ستقرؤه في سورة الرعد عند قوله تعالى « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب » سترى هناك أمرا عجيبا .

ذلك أن من النبات ما هو مفترس لا يتغذى من التربة ولا يتعاطى خلاصة النبات كالنمل والجمال بل لا يأكل إلا اللحم أو الحشرات وله طرق خاصة لصيد فريسته ومنه ما يسمى (بالنبات الجزار) لأنه متى وقعت فريسته في قبضته لم تغفل منها بل يفترسها ، وسلاحه في ذلك أمران : حسن ألوانه مع الجمال ومقدار من العسل موهوب له من الله ، فمذبان أعطيا له ليكونا سببا لخداع الحشرات فتسرع إليه فتكون غذاء وهناك ترى صور تلك النباتات وشرحها .

أليس هذا من قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » أخذ الله بناصية هذه الدواب النباتية اطعم عليها فلم أنها لا قوة لها لتنتقل بها من الأرض ، فماذا فعل لها ؟ أمر الحشرات أن تطوف حولها وأعطى هذه الدواب المذكورة من نعمه عسلا ومنظرا حسنا ليكونا سببا في دخول هذه الحشرات في الذئب فلا تخرج منها وإنما تدخل في ضمن غذاء ذلك النبات .

المهم إنا نعجب من صنعك وحق لنا أن نعجب ، أخذت بنواصي كل دابة ، يعيش أقوام ويموتون من أهل الأديان ومن للحمدين وأكثرهم يفلون لا يفتنون ، يسمعون أن ذلك النبات يفترس الحيوان فيمرون عليه من الكرام ، فلا للتدين يدهش لذلك ويكون سببا في محنته وسعادته وجمال العلم في قلبه ، ولا للحمدين يفتنون كيف خلق هذا وكيف سهات له الأسباب حتى حلتى بفضائه بدون انتقال وعذب الإنسان والحيوان في طلب الرزق ولم كان البذل مقدرا بمقدار الحاجة ، عجز النبات الحيواني عن السعي فأرسل له ما يأكله بحيل خلقت فيه وأعطانا وأعطى سائر الحيوان قوة فأبعد مطالبنا على مقدار قوانا ، المهم إني أهجب لهذه الدنيا اختلفت أعمالها وانفق نظامها .

## حياة الأرض

ثم إني اليوم نظرت فيما قاله العلامة ( مترلك ) الذي أبدع في حياة النحل وألف في حياة ( الأرض ) على وزن بقرة وهي دودة عمياء ويسمون هذا النوع بالنمل الأبيض أو النمل الأحمر ، والحقيقة أنها ليست بنمل ولا هي بيضاء ، بل لونها جمع بين البياض والكدرة وهو ( الأغبس ) من العيس وقد عرفته .  
[ وبجارية أخرى ] لونها لون الأرض التي تمشي فيها وهي الآية إن شاء الله في قوله تعالى « ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته الخ » في سورة سبأ . فأجبت أن أوجز في وصفها ليزداد علمنا بقوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » يقول هذا العالم إن هذه الدابة عاشت قبل الإنسان مائة ألف ألف سنة ، وهذا بحسب ظنه وظن علماء زماننا .

ويقول إن حضارة هذه الحشرة أقوى من حضارة النمل والنحل وقد درس هذه الحشرة علماء مثل ( كونيغ ) و ( هنري سميثان ) وغيرها من فطاحل العلماء وهو حيوان يتراوح بين ( ٣ و ١٠ ) مليمترات طولا وأغلبه لا يكون له أجنحة وهو بطيء الحركة ولا يعيش في غير البلاد الحارة ولا يرى الشمس لتلايموت ولا يعيش إلا في الرطوبة وهو أنواع كثيرة : فمنه ما هو بناء يقيم هضابا فوق الأرض ، ومنه ما يعيش في العراء ويعيش بين صفيين من الجنود يحتمى بها من الأعداء ، ومنها ما يفتك بالأشجار ، وقد تكون مساكنها تملو

فوق الأرض أربعة أمتار ومحيط قاعدتها (٣٠) قدما كأنها قالب سكر ومنها ما يبدو كالقناطر نصبت فوق  
أعمدة متعوجة وقد يستطيع الفارس أن يعيش من تحتها ، ومن مساكنها مشوهة في أفريقيا الوسطى وآسيا  
في (كنفو البلجيك) حيث يبلغ العلو من ستة أمتار إلى ثمانية أمتار .

ومن عجب أن هذه الحشرة يظن العلماء أنها قد أعطيت علما بالكيمياء لم يعرفه الناس فإنها تعيش  
في أصقاع لا أثر للباء فيها ولا للحياة ، يقولون إنها ربما أخذت (الأكسوجين) من الهواء وجمعت إلى  
(الأوردوجين) الذي نجد في غذائها النباتي ليتكون منها الماء ، ومعنى ذلك أنها تقدر أن توجد الماء  
بطريقة كيميائية عجز عنها الناس في الأرض .

وهذه الحشرة لها ملكة كما للنحل ستري رسمها إن شاء الله في سورة سبأ وبجانها الملك نهى تملأ البد  
وهو كالأنملة وحولها الضباط المحافظون على حياتها والكشافاة الصغار المحيطون بها ، وهناك الذين يطعمونها  
عند ثمارها والذين يتلقون بيضها عند مؤخرها ، ثم إنها لا تقوم من مرقدها حتى آخر أجلها ، وهناك جنود  
وعمال ، والجنود والملك والملكة لا يتعاطين الطعام إلا بما تعطيه لمن العاملات اللاتي تشبه من النحل  
العاملات فيه وهي الشغالة .

ومن عجب أن تلك الملكة العظيمة يقوم بها الملك والملكة والعمال والجند في الظلام وقد تفتك  
بالأشجار والمنازل والملابس والقرى ، ولولا النمل ومحاربه لها لأهلك الحارث والنسل وأخربت كثيرا  
من بلاد نوع الإنسان .

ومن عجب أن هذه الدولة يتربى تحت إشرافها وفي مدينتها في الظلام جماعات كثيرة ذوات عيون  
وأجنحة ، فإذا ولي الحريف ودنا موعد للعار وتلك المخلوقات لم تزل في تلك القرية المحيكة السد للسودة  
الكوي الكثيرة الجنود ذوى القوة والبسالة اللاتي يملن خمس عدد القرية ، هناك يحصل أمر عجب  
لا يدري من أين جاء إنما هو إلا أن يرى الإنسان هؤلاء الجنود (الذين وقفوا على الفتحات التي تأتي بالهواء  
ليلا ونهارا لا يتركون موقعهم لحظة طول السنة) قد نخلت عن أما كنها لحظة واحدة في كل باب وخرجت  
آلاف الآلاف من تلك المخلوقات ذوات الجناح والبصر ، خرجت هذه المخلوقات فرحات إذا هناك جماعات  
يلفن وقت خروجهن من المصافير والحيات والمهررة والكلاب وسائر الحشرات لاسيا النمل فتهم على هذه  
الفرائس التي خرجت في الجو كالعرائس لأنها قد أعطيت قوة الكورة والأوتة بخلاف التي في المدينة ، فإن  
الكورة والأوتة فيها قد صارت آثارا لا عمل لها ، فهذه العرائس تفتك بهذه الجيوش التي حضرت لتقتل  
منها ، وهكذا بنو آدم يحضرون ويقسمون تلك العنيفة مع الحيوان فيجمع الإنسان ما يراه بالمجرفة وبأكله  
بعد التحميص أو يعجنه بالسكر فيصير كاللوز ويبيعه في السوق كما في جزيرة (جاوه) .

هذا ما أردت ذكره من هذه الأرض التي لا تبتغي ولا تذر حتى إنها فعلت ما لا حد له من عجائب التخريب  
قد تأتي على الشجرة الكبيرة فتأكلها ويبقى هيكلها كما هو ، فإذا جلس أحد بجانبها وانكأ عليها اتهازت  
ووقعت كأنها دخان وذلك لأنها تعاذر أن يكون الناف ظاهرا فهي تأكل جميع ما تحت القشر وترتقه ، ولها  
كثير من العجائب عسى أن أذكرها هناك في سورة سبأ إن شاء الله تعالى ، وهنا يأتي العجب فنرجع إلى  
الفكرة الباقية في هذا الوجود .

#### نظري في هذه الدنيا

أرجع فأذكر لك أبها الأخ فكنت في أيام الشباب فقد كنت أقول : هذا الوجود إن كان منظما فله إله  
وإن لم يكن منظما فليس له إله ، وصرت أقول في تنسي إن هذا الوجود إذا كان صنع مبنى على تدبير

وحكمة فإننا معاشر الأحياء نكون سعداء ، وإذا كان هذا الوجود عبارة عن مصادفة عمياء فالحياة هباء لا قيمة لها . فذا اطلمت على ما رأيته في هذا الكتاب وغيره ظهر لي ما يأتي :

لقد تبين لي من صانع هذه الدنيا أنه عمد إلى المادة وعلم أنها قابلة لما لانهاية له من الصور والأعاجيب فتلطف وابتدع كل وسيلة لبلوغ النهايات المختلفة من الصور ؛ فبينما نراه قد خلق حيوانا يأكل الحيوان والنبات إذا به قد خلق نباتا يأكل من الحيوان ويأكل من النبات كما تقدم .

ألا نراه قد جمع بين الضدين آكل ومأكول ؛ ويظهر لي أنه كما سحر عقولنا بما خلق من النبات الذي يأكل الحيوان وهو لم ينتقل من مكانه سحر عقول عوالم أخرى بخلفنا نحن إذ جشنا نحن في الأرض وفينا للتناقضات .

فنحن يحتاج بعضنا لبعض في الشرق والغرب ، وكل لكل محارب ، فإذا اطلمت عوالم أخرى علينا أدهشها هذا الصنع العريب فيقولون قوم يحتاج بعضهم لبعض وهم يقتلون كيف يبشون ، وهكذا يرون فينا أفانين الأخلاق وبدائع اللذيات واختلاف الديانات ، وكيف كان فينا من لا يعقل إلا شهواته ، ومنا من يدرس الدنيا كلها ، وهكذا فيعجبون من متناقضاتنا عجبنا من تباينات الحيوان والنبات .

هذا فيما نراه حولنا من هذه الدنيا والمادة التي نعيش فيها وفي أحوالنا العامة ، فأما أجسامنا نحن وعقولنا فأمرها عجب ، فعل الله بها ما فعل بالمادة وبالحيوان والنبات ، وذلك أنه كما عمد إلى المادة خلق منها مادقاً من الدرر وما عظم من الجبال ، وهكذا الصلب والصخر ثم الماء والنور ، وكذلك خلق اللوز والحنظل والحلو والمر ، أعني أنه استخرج من المادة كل ما يمكن حصوله منها ، هكذا نراه خلق فينا اللذات الصفر والكبر ، والعز والذل ، والصحة والمرض ، والحزن والفرح .

هذه هي صفات أجسامنا صفات تدل على أنه استخرج من أجسامنا وأرواحنا كل ما أمكن حصوله منها فهي تفرح وتحزن وتعرض وتصح وتضعف وتقوى

إذن أجسامنا أشبه بالأرض فهي مزارع ، فكما زرع في الأرض الحلو والمر زرع فينا المهبوب والسكره وكأنه سبحانه رأى من العدل أن يعلنا بكل ما نستعد له ؛ أي أنه يفهمنا كل ما تستعد له أجسامنا وأرواحنا . هذا هو فعل صانع العالم يستوي عنده محبوبنا ومكرهنا كما استوى عنده المر والحلو في الأرض ، والصلب واللين في المادة والهواء والصخر .

إذن صانع هذا العالم يريد أن يستخرج فينا كل شيء كامن في استعدادنا أسوة بالمادة التي نعيش فيها ، هذا هو النظام الذي رأيناه منذ عشنا في هذه الأرض .

إذن ما نتيجة هذا النظام ؟

نحن الآن في الأرض قد حبسنا فيها وليست عقولنا هي للسيطرة لأنها محبوسة ، وإنما يمكننا أن نتلمس الجواب مما عرفناه في هذه الطبيعة .

لقد جاء لنا وحى البيانات كلها بأن هناك عالم الآخرة وعالم الآخرة تظهر فيه أرواحنا بمظهرها الحقيقي والذي جاء في الدين كلام إجمالي ونحن الآن نبحث في طبائنا فنقول :

لعل هذه الأرواح إذا خرجت من الأجساد ينفعها أنها ترى مزرعة الفرح والحزن والألم واللذة التي ابتليت بها في الدنيا فيكون ذلك لها درسا .

ثم إن حيوانات الغابات تقل عندها الأمراض والشرور التي ابتلى بها الإنسان ، فكأن كثرة العطب تتبع الرقى ، وإلا لكان الحيوان أرقى من الإنسان .

وكما أننا في الدنيا تسرنا دراسة الرق والحلو والغذاء والدواء ونرى في ذلك لنا حكمة ، هكذا إذا متنا واطلمنا في نفوسنا على ما قاست من ألم وما أصابت من لذة ، وهكذا ما أحسنت من خير وما أساءت من شر ، كل ذلك ليظهر لها مزارع ومناظر تتأملها النفس فترى في ذلك درسا يعينها على رقى آخر في عوالم أخرى .

ولعلنا إذا لم نجرب الحير والشر والضر والنفع والصحة والمرض هنا نجد أنفسنا في نفس هناك ونحس بجهد عميق ، لأن الروح لم تدرس نفسها ولم تعقل ما كمن فيها فتكون إذن جاهلة بحال نفسها وهذا الجهل بضر بها هناك ، وربما كانت بعض النفوس ستتولى إدارة بعض النفوس أو العوالم بأمر الله تعالى كما قدمناه في بعض هذا التفسير عن العلامة الرازي وإخوان الصفا وعلماء الأرواح في أوروبا ، فربما كان اتصاف الإنسان بالآلام والذات يعطيه فهما لما يتصرف فيه بإذن ربه ، فهنا حالان للنفس : مكروه ومحبوب ، كالمرض واللوث والصحة والحياة .

فأدبى ظهر لنا أن صانع العالم لما له من العلو والعظمة والكبرياء والبطش الشديد مع الرحمة التي لانهاية لها قد خلقنا ولم يبال بإحساسنا ، بل نظر نظرة إلهية لانظره بجاري بها حواسنا وعواطفنا ، خلق الحواس والوظائف لأعمال في الحياة ولكنه هو نظر إلى ما هو أسمى ، فانظر ماذا ترى ؟ تراه يتلطف بالجنين في بطن أمه ويعطف عليه قلب والده ، ويخلق له اللبن ، ويحبب فيه اللبن ، ويخلق الزرع والتجار والجنود ، كل هؤلاء للحفاظ بالرحمة ، وتراه يتلطف مع (النبات الجزار) المتقدم فيعطيه العسل خاصة ويجعل لونه ليكون ذلك بابا لرزقه وفتحنا عليه ، هذا لطف عظيم ولكنه يأتي بعد ذلك فيقلب الوضع فيأتي للنبات من يقلعه وللإنسان من يقتله أو هو يموت ، فأين هذه الرحمة والنعمة ؟

إذن نقول تقيس ما غاب على ما شوهد ونقول إذا قتله أو أماته فنعناه أنه جملة في مكان آخر بحال أخرى . ثم أتبعه بالرحمة التي كان يكلؤه بها في الدنيا .

وإذن نقول : بهذا نفهم الحديث الوارد في الرحمة وأنها مائة جزء وقد ادخر الله منها تسعا وتسعين في الآخرة وأعطى واحدة لأهل الأرض ، بها يتراحم الإنسان والحيوان حتى إن الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .

هذه الآراء التي لاحظناها في هذا الوجود هي التي قد خبثت في قوله تعالى « ونبلوكم بالشر والحير فتنه وإلينا ترجعون » أي أننا استخرجنا منكم كل ما كمن فيكم من الشر والحير كما استخرجنا من اللادة كل ما كمن فيها ، ثم إنكم ترجعون إلينا وقد عرفتم ما فيكم من الصفات علما لانشوبه شائبة ، لأن أعظم العلم ما كان بإحساس الحي نفسه وتجربته هو نفسه .

ويظهر لي أن نوع الإنسان لا يكمل إلا إذا بلغ في العلم مبلغا به يستوى عنده اللوث والحياة تبعا لسنة صانه ، هذا هو الحق ؛ أما الإنسان اليوم فهو لا يزال جهولا كفقارا . إذن عمل الله تعالى هكذا :

(١) أب وأم (٢) زراع وتجار وأطباء (٣) حكومات (٤) معلمون

(٥) منافع عامة في مخلوقات الحيوانية والنباتية وغيرها

(١) أعداء محاربون (٢) فقر وذل ومرض (٣) اضطراب (٤) جهل

(٥) الأساد والحيوانات القدية للحمى والطاعون واللوث

هذان الجدولان وإن كانا إيسا كاملين قد تناوبا على الإنسان فهو حيّ ميت ، سعيد شقيّ ، مريض صحيح .

وإذن الله تعالى من رحمته التي هي أعلى من إحساننا قد أحيانا وأماننا وأنى لنا بالمتناقضات ، وهذا إنما جاء من طريق الوحي . أما من جهة العقل فهو من طريق التمثيل والقياس فسكأننا نفيس ماغاب على ماشوهد لأن علومنا ناقصة لتقص هذا العالم الذي نعيش فيه بالنسبة إلى غيره .

شرف درس الحيوان ونظام الدنيا

أماي الآن كتابان من كتب الفرجة : أحدهما [ مملكة الظلام ] للسمى أيضا حياة الأرضة للترجم حديثا إلى العربية التي ذكرته قريبا ومؤلفه ( مترلك ) والثاني كتاب [ موسوعات العلوم ] باللغة الإنجليزية للعلامة ( روبرت بروان ) للتقدم ذكره .

وفي الأول ماملخصة أن النحل قد يترك عاداته القديمة فيدرك فائدة مايصنعه الناس من أفراس الشمع ليضع فيها العسل فيختص إذن بعمل العسل وحده ، وهكذا نراه إذا نقل إلى (أستراليا) أو (كاليفورنيا) إذ يجد نفسه في سيف دائم ويدرك أنه لايجرم أبدا من الأزهار فيكتفى بكسب قوته اليومي ولا يصنع العسل ، هكذا إذا وجد مايعتاض عنه كما في مصانع السكر ثم يقول إن النملة عندها حماقة تضاد ماعرفت من تعقل النحل ، وذكر من ذلك أنها تخزن من الحب مايزيد عن حاجتها فإذا جاء المطر نبت ذلك الحب فيعلم به الفلاح فيهدم القرية الخ ، ثم قال هل النمل أقل ذكاء من النحل ؟ لاثنى مما نرفقه عنه يثبت ذلك وربما كنا قاصرين عن فهم حاله لأن درس القرية أصعب من درس العقير وأصعب منها درس الأرضة .

ولا يخفى ما في هذا الدرس من الأهمية لأنه متى عرفنا سليقة الحشرات وحدودها وعلاقتها بالذكاء (وبالعقل العام) سهل علينا فهم سليقة أعضاء جسمنا التي نتخفى فيها أسرار الحياة وللوت ، انتهى . وهو قد وضع في موضع آخر من الكتاب أن الحشرات في تقلبها وتصرفها ونظامها بحكمة وانتظام الجنود والعمال ولللك ولللكة مع كثرة الأعداد بما لا حصر له لاسيما في حشرة الأرضة للتقدمة لايمكن ذلك إلا إذا كانت تلك الجموع أشبه بأعضاء لجسم واحد ، كما أن أعضاءنا كلها متحدة معا مرتبطة غاية الأمر أن جسمنا مندمج وجسم تلك الحشرات متفرد في الهواء النقي ، هذا ما قاله الأول .

وجاء في الثاني في المجلد الأول منه صفحة ١٨١ ما ترجمته : إن في أجسامنا من الوظائف والأعمال وأنواع الإحساس عجائب وغرائب مدهشات ولكن لما كنا معادين عليها أصبحت لانستلفت النظر ولا تدعش العقل ، فإن المؤلف يظن أنه معروف لاعتياده والدأب عليه ، وإنما الذي يلفتنا لمرابة هذه الأعمال في أجسامنا والإحساس في إدراكنا إنما هي الواهب العلمية الخاصة فهي التي تدفع ما أسدلته يد العادة على عجائب أعمالنا وإحساننا من الأستار ونوحى إلينا جمال أنفسنا وغرائب أجسامنا وبدائع تركيبها بطرق للملاحظات والتفكير فيها حولنا وما يحيط بنا من العوالم .

ثم قال : إن دراسة العوالم التي تحيط بنا أسهل تناولا من دراسة أنفسنا ، إن دراسة أنفسنا جبا وعقلا قد عجزت عن إيقاننا على بعض من عويصات المسائل للنادية والعقلية ، أما دراسة العوالم الهبطة بنا فهي نبراس لدراسة أنفسنا الخ .

فهذان النصان للتطابقان يرجعان لمرض واحد وهو أن دراسة هذه العوالم الهبطة بنا تعرفنا دراسة أنفسنا ، فإذا درسنا النبات والحيوان وفهمنا قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » ودرسنا نظير ذلك في أول السورة وقرأنا علوم الأمم في هذا القام فإننا نكون إذ ذاك قد فهمنا لماذا قدم الله العوالم

الأرضية على النفسية في قوله تعالى « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون » أفلا تعجب من أن يكون علماء أوروبا يقولون هذا القول وهو نفس القرآن .

يقدم الله النظر في الأرض على النظر في النفس ويقول علماء أوروبا نفس هذا القول ، يقولون إن درس الحشرات يملنا علم وظائف الأعضاء ويقولون إن دراسة العوالم المحيطة بنا تعرفنا دراسة جسمنا ، الله أكبر جلّ العلم وجلت الحكمة وأشرفت الأرض بنور ربها .

### الطيفة

ها أنت إذا رأيت حشرة الأرض وأنها تعيش في الظلام ، أليست هذه الظاهرة من العجائب التي تقرب لنا حال الأرواح الشريرة في الآخرة .

هذه الأرض تعيش في الظلام لا ترى النور وهي محبوسة عاملة ناصبة ، وإذا قابسناها بالطيور كانت الآخرة أشبه بمن في الجنة والأولى أشبه بمن في النار .

انظر إلى هذه الدنيا كيف كان الفرق بين حال حشرة الأرض وحال النملة أو الطيور كالفرق بين الحياة وللوت ، فإذا كان هذا الاختلاف في أرض واحدة صغيرة فكيف يكون الاختلاف في عالم الآخرة بين عوالم كثيرة اه .

فائدة هذه للباحث في آياتنا وهو قوله تعالى « إني توكلت على »

اعلم أن ما تقدم به نعرف نظام هذه الآية ، فهو يقول « توكلت على الله » والبرهان على أنه جدير بتوكلي أنني رأيت أخذ بنواصي الدواب جميعها ، فهو يحفظها ويغذيها ويرحمها كما رأيت في هذا اللقمة وإنما استدلت بالذباب لأنني ألحظها وعسير عليّ أن ألحظ نفسي ، فهم رحمة الله في الحيوان أسهل من فهمها في الإنسان ، كما أن دراسة نظام الحيوان وغيره حوانا أسهل من دراسة أنفسنا .

هذا هو السبب في استدلال هود بالأخذ بنواصي الدواب ، فانظر وتعجب كيف يقول فلاسفة أوروبا قولاً هو الذي فهمناه من نظام الآية وهذا من عجائب القرآن .

وحدة هذا الوجود

إن نظام الأرض المذكورة ونظام النمل والنحل ونظام الإنسان بعد أن درسته وشرحناه كثيرا منه في هذا الكتاب أفادنا أن كل هذه العوالم مشتبكة مرتبطة بخدم الإنسان الحيوان والحيوان الإنسان ، والأرض مثلا راما تصدر آلاف الآلاف كل سنة فتأكلها السكّاب والطيور والحرر والإنسان كما تقدم ، فهذه الأرض تهضم فئات الحطب الجفاف من الورق فينقلب إلى أجسامها ثم أجسامها طعام لنحو المصافير ثم المصافير طعام الحطاف والإنسان وهكذا .

فهذا يدلنا أن هذا الوجود كله مدبر بنقل واحد كما ذكرناه في غير هذا اللقمة إذ يظهر أن الله الذي خلق هذه للادة خالق لها أمرا آخر يسميه الفلاسفة عقلا ، وهذا العقل من نور الله وأشعة هذا العقل ، وهذا العقل مثل شمس مصنوعة تصير في كل شيء بحسبه ، فهي في الجماد تلتصق وجاذبية ، وفي اللعدن صلابة ولعنان وقوة خاصة ، وفي الهواء لطافة ، وفي الماء سلامة ، وفي النبات نمو وذبول الخ ، وفي الحيوان حس وحركة ، وفي الإنسان ازدياد العكر والعقل ، وفي السكون سير منظم وحركة دائمة ، فلعل هذه الأشعة العقلية العامة أشبه بما ترى في أجسامنا إذ أننا نرى الرجل الشهوى يقلّ عقله ، والعفيف الذي حفظ شهوته قد يحفظ عقله وهكذا نجد من أهلك قواه في عمل ماظهر أثر ذلك في تفكيره ، فكأن في الجسم قوة واحدة إذا مالت



إلى جهة حرمت الأخرى منها فعلى في السمع قوة اتقوا الأصوات ، وفي البصر قوة اتقوا الصور وهكذا . ويحمد الناس أن العمى أذكى من البصيرين ، فكأن قوة البصر تأخذ من القوة العائلة نصيباً فتضعفها ، إذن هذا العالم فيه شعاع عقلي عام يشكل في كل شيء بحسبه ، وامل لذلك الإشارة بقوله تعالى « ما خلقكم ولا بشئكم إلا كنفس واحدة » وإلا فلماذا نرى هذا التعاون مع شدة التفاوت ، وما هذه للباقي التي تبنيها حشرة (الأرض) المقدمة التي قد تمتد أميالاً وترتفع أمتاراً وتصبح فيها مراعى خصبة للحيوان أخصب من غيرها ، ولماذا يبيت المرجان في البحار جزائر وجزائر يسكنها الحيوان ويبيت فيها النبات ثم يسكنها الإنسان ، برّ وبحر كلاهما تكون فيه دابة حقيرة تبني مساكن لضع الحيوان والإنسان وهكذا مما لا يتناهى ، ولعل لهذا الإشارة بقوله تعالى « الله نور السموات والأرض » أي « نورهما » ، فهذا هو ذا أظهر لنا أن نور الإدراك والنظام سار في عولنا المتجاذبة المتعاونة للتحدة ، فإننا نرى الجسم الأكبر كالشمس يجذب الأصغر كالأرض والأرض تجذب ما حولها وتجذب قمرها ، هكذا نجد العقل الأعلى يجذب العقل الأدنى فكأن أمثال الأنبياء شموس وكان عظاماً أهمهم كالسيارات وهكذا ، ونجد للدرسين يتعلمهم تلاميذهم والرجل الصالح يلتمس حوله أوف من الناس ، ندنا هذا على أن نظام الأرواح كنظام الأجسام الكبير في الأرواح من حيث الكمال تتبعه الضعفاء الضغار في ذلك الكمال ، والكبير في الأجسام حجماً تتبعه الضغار حجماً أيضاً . فالكبر والصغر في كلٍّ بحسبه - سا ومعنى .

## فصل

(١) الوحدة في العالم اقتضت أن يفدى بعضه بعضاً .

(٢) وفي ذلك تطف وحنن سياسة .

(٣) وفساد شئٍ صلاح آخر .

(٤) والإمامة شريعة كشرعية الحياة ، وذلك لتخلو الأرض للباقيين بعد المالكين .

ولما وصلت إلى هذا اللقاع واطلع عليه أحد الفضلاء قال لو أنك أفقلت هذا الباب لكان أولى ، فلقد أترت ثائرة في نفسي وأخذت أقول : أليس من الظلم أن يترى الأفواج من حشرة الأرض لتكون طعاماً للهرة والكلبة ؟ أولم يكن من الفتن والجداع أننا نراها تخرج من قراها مسرعة لتفرح بالحياة الزوجية إذا اللون حاضر لديها ، وهل من الصدق أن نخدع الحشرة للسكنة بقطرة من العسل عند النبات الجزار للتقدم وباللون الجميل ، إن الذي يقرأ هذه العلوم يغمره الشك ويغشاه الكفر وكراهة هذا الوجود .

قللت أما كون الأرض طعاماً للكلبة وللهرة فهذا هو نظام هذا العالم الذي يعيش فيه ، وأنا وأنت فتختر بأن نكون طعاماً لحيوان فكيف تنكر ما تستحسن وتظهر الكراهة لما أنت محبة له وتضع في هاوية المتناقضين ، فقال هذا لا أعقله وما بي من جهالة ، قللت ألم تر إلى أهل الأرض قاطبة أليسوا جميعاً يشتخرون بأنهم يقدمون أنفسهم للقتل وهم يجاهدون في سبيل حفظ الشرف أو لللال أو الوطن أو الدين ، ومن ذا الذي يصنّ بنفسه على حفظ عرضه وشرفه ؟ ومن ذا الذي يرى زوجه أو أخته قد أهدين شرفها أو مست بسوء ثم لا يهجم على من فعل ذلك ولا يقائله ؟ وإذا خرت صريعاً هو عد ذلك فخراً له ولأعقابه إلى حين .

إن أهل الشرق والغرب يحارب بعضهم بعضاً على الوطن ، وعلى الدين ، وعلى اللال ، وعلى العرض وهم جميعاً متفقون أن هذا شرف وغر للقاتلين ، وهكذا أكثر البيانات .

ومن عجب أن النصارى دينهم ينههم عن قتال عدوهم ولكن الفطرة غالبية ، فهم الآن أول المقاتلين للآثم

حصون ذلك غرا سواء أكان ذلك أخذا للثأر أم ظلما لاجتياح الديار ولأخذ الدرهم والدينار ، فقال إن الأرضة المذكورة قد أكلها الكلب أو المرة أو الإنسان ، وفرق بين القتل وابتلاع الحيوان ، فقلت إننا معاشر بني آدم نقتل في السفن الحربية وقع فريسة للسماك ونحن جميعا نعلم ذلك ونفتخر به ، وهكذا نتأمل في الطيارات فهنك فتخطفنا الطير ويحل بنا الهلاك ، فقال نحن نحارب لشرفنا مثلا ونموت ، ولكن لماذا تكون هذه الخدعة في الحيوان ؟ فهذه الحشرات الجارية للهلاك بذبح النبات الجزار وأنواع الأرضة التي خرجت للفرس فصارت فريسة ، كل هذه مخدوعات ، وأين الصدق إذن ؟ فقلت له ونحن أيضا مخدوعون ولنا بمعرضين على الخداع بل تعده شرفا ؟ فإن أحدنا يأكل لصحة بدنه فيكون ذلك البدن طعاما للدود ، ويحارب العدو ليغيظه فيكون طعاما للسماك أو العقبان ، فهو في الأول قصد حياته ، وفي الثاني إغواء شرفه لأنه يكون طعمة للسماك ، ونبنى الدور ونزرع النخل ويتمتع بذلك غيرنا بل أعداؤنا ، فقال وكيف يصح هذا الخداع ؟ قلت ليس خداعا بل تल्पف وحسن سياسة ، يعيش الحى مطمئنا ولا قلق لديه ولا اضطراب وقد تقدم في سورة الأنفال : تكثير القليل وتقليل الكثير للسياسة وإصلاح الحال ، فقال ولكن هذا لا يشفي ! ولماذا يكون الإنسان فداء لغيره وهكذا الحيوان ؟ فقلت للوحدة العامة ، فالعالم كله كأنه شخص واحد والبعض يخدم البعض «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» وإذن تكون هذه الدنيا ليست للحياة وحدها فالحياة بنظام وللموت بنظام ، وموت الحى لتخلو الأرض للباقيين ولولا الموت ما كانت الحياة ، فإذا أكل الدود لحم الإنسان وأكل الأسد لحم الغزالن وأكلنا نحن لحم الخرفان فإن ذلك لتنظف أرضنا به وتخلو لمن جدنا ليكثر الإحياء بفضل هلاك الأموات ، فالموت مقصود والحياة مقصودة «كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» .

#### موازنة بين حياة وموت الحيوان ونظيرها في الإنسان

يموت الجراد بأكل الطيور ولإنسان له فيحصل فائدتان : خلو الأرض منه لما يخلفه ، وانتفاع الأحياء بحسبه لأنه لا معطل في الوجود ، أما النقاء الجيوش الإنسانية برا أو بحرا فهناك فوائدها :

- (١) تعليم الصبر والشجاعة .
- (٢) والصناعات الحربية كالطيارات والسفن المائمة والناطحة في الماء .
- (٣) وإحراز الشرف للأحياء .
- (٤) والعطف من الشعب على الأموات في القتال وهذان في الأمم الغالبة .
- (٦٥٥) ومثل هذين في الأمم الغالبة .
- (٨٥٧) وظهور الاتحاد في كليهما .
- (٩) وأن تكون الجثث في البحر وفي البر طعاما للسماك وللطيور التي خلقها الله .

هذا في القتال ، أما في حال الطاعون وأكثر الأمراض فإن الاقتصاد في طبيعة الوجود قضى أن ترسل جماعات من الحيوانات القدرية لها نظام خاص في الجسم فتأكل اللحم وتشرب الدم ، لأنه ليس من الحكمة أن يبقى الحى جسمه بالأغذية الجيدة فإذا مات لم تكن له فائدة ، كلا بل يرسل تلك الآلاف للزوافة فتكون طاعونا أو جدريا أو حمى تيفوسية أو تيفودا أو سرطانا أو ما أشبه ذلك فتتسائل وتتكاثر وتربى في الأجسام كما تربت الأجسام في الأرض ثم يكون الموت فتتولى تلك الرمم حيوانات أخرى أولها الدود وبعقبه غيره كالحنافس ونحوها وهكذا ، ذلك لتلا يكون في الوجود معطل ، إن هذا الوجود مبنى على الاقتصاد .

ألا ترى أن اللسان يمضغ الطعام ويذوقه ويدبر نظام الكلام ، فهذه ثلاث فوائد في عضو واحد ظاهرة للناس ، فصانع هذا العالم عظيم الإحكام والنظام متقن حكيم ، كل ذلك من قوله تعالى « سامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فما هو ذا قد أخذ بناصية الأحياء إذا صحت أجسامهم ، وأخذ بناصية الحيوانات القدرية المأثثة في الأجسام التي براد إهلاكها وهكذا ، فلما سمع صاحبي ذلك قال إذن الحرب أمر حتم لرقى الإنسان لأنك أنيت فيه بجمل الفوائد التي تبلغ نحو العشر ، مع أنك تقول : إن السلام أمر لا بد منه في نوع الإنسان .

وأيضاً نرى البوذية يحرقون موتاهم ، فأين فائدة أجسامهم التي لم يأكلها دود ولا غيره ؟ قلت : أما الجواب على السؤال الثاني فهو أن هؤلاء تنفرت عن عناصر أجسامهم في الهواء والأرض فينتفع بها في الوجود فقال وهل هذه شريعة إسلامية ؟ قلت كلا ! ولكن نحن الآن في تبيان الحقائق التي نزل لها القرآن ولكن متى جاء ذكر الشرائع بيننا تحريم ذلك ؟ فالحقائق مطلوبات والشرائع مصنونات .

وإذا كنا نجد مسألة الولادة ليست على وتيرة واحدة ، إذ ترى الإنسان مثلاً قد عمت الولادة فيه جميع الأسرات في العالم ولكنها في النمل وفي الأرضة مثلاً قد اختصت بها الملكة ، فأما البقية فقد توافروا على خدمة المجموع وبذل كل ماله من قوة للجمهورية .

الإنسان لا يعرف اختصاص أحد بالولادة وإنتاج القدرة ولكن النحل عرف ذلك ، هكذا أمر الحياة فما من امرئ إلا وهو موقن أنه لا بد لكل حي من رأس أو جلد أو أعضاء ودم ، فكذب هذا تلك الحيوانات الدنيئة التي لا رموس لها والتي لا جلد لها كالحیوانات الملامية والحشرات إذ لا جلد لها ولا عظم ولا دم وإنما هي لها قشور حلقية داخلها سائل أبيض لا عظم فيه ولا دم ، وترى أمثال ذلك في الرزق فأكثر الحيوان يسمي إليه على مقتضى احتياجه ، وترى النبات الجزار للتقدم تسمى إليه الحشرات ليأكلها يجاذب يجذبها من تلك النباتات التي تأكل اللحوم ، فقال صاحبي لقد أحسنت كل الإحسان وأنيت بجم لم يكن في الحسبان ، ولكن أسألك سؤالاً واحداً وهو أنك تقول إن الأرضة تأكل ما خرج منها فأين هذا ؟ قلت سترأه إن شاء الله عند الكلام عليها في سورة سبأ ، فأما إذا كان هذا غريباً عندك فلتعلم أنها في ذلك كالإنسان لأننا تأكل فضلاتنا وفضلات الحيوان بواسطة إذ نحن نسمد بها أرضنا فتقلب تلك الفضلات في زرعنا حيا وعنيا وتفاحا وغيرها وترجع إلينا ، فنحن والأرضة سبان ولكن هي أكلت فضلاتنا مباشرة ونحن أكلناها بعد أن دخلت في معامل النبات فرجعت إلينا ، فقال صاحبي : فلهذا العلم يقرب البعيد ويجمع للتفرقات « وقل رب زدني علماً » والحمد لله رب العالمين .

ثم قلت : أما مسألة الحرب وأنها ترقى الإنسانية وأنه ذكرت أن السلم أمر لا بد منه ، فلتعلم أننا الآن نصف ما وجدناه وتبين حكمة الله فيه كما بينا فوائد اللسان الظاهرة الثلاث فليس معنى هذا أننا إذا متنا لا يكون هناك حكم في حال الروح ، كلا بل الحكمة هناك أجل وأعلى ولكنها لا تنقلها الآن ، وإذا وجدنا مملكة ( الأرضة ) للتقدمة وكان لأفرادها عقل وسألناهم لقد كرت لنا فوائد البراز الذي يكون لأفرادهم أشهى طعام ثم هو ملاط لبنائها وسدّ لتنورها مع الرمل وطعام لسفارها ، ويقوم مقام الأسفلت في تحسين طرقها وهكذا من الفوائد ، أقول فليس معنى هذا أنه ليس هناك نظام في الوجود أحسن من هذا ؟ كلا ! هكذا هنا فإن الأمم إذا غيرت أخلاقها وبطلت الحرب حصلت هناك حال جديدة أرقى وأرقى في نظام للدين والأخلاق مثال ذلك في الثاني أن تبدل عاطفة الانتقام من الأعداء الذي يورث الفضائل للتقدمة بفضائل

العطف مثلا على الضعفاء فيتحدث رجال أمة على ترقية وتحسين أمة جاهلة ويكونون بالنسبة لهم كالأباء والأمهات بالنسبة لصغارهم ، وهناك تكون فضائل لا تعد كالفضائل التي تكون للأبوين بالنسبة لأبنائهما كالعطف والحنان وبذل النفس والمعاونة بالنفس وإنكار الذات والصبر على هذه للشاق والاعتماد بين هؤلاء الحسينين وحبّ المحسن إليهم للحسينين واعتماد الأمتين وتبادل المنافع ثم مقابلة الإحسان بالإحسان ونمو الأخلاق ، وهكذا مما لا حصر له فليس هذا الوجود له حد في تصرفاته وقابليته .

محجبات القرآن ومحجبات الطبيعة التي نزل لفهمها القرآن

فهنا أذكر عجيبتين :

[ العجبية الأولى ] أن القرآن تراه يدخل في غضون الكلام ما هو حكمة بحيث يكون كزهرة في شجرة ويكون هو أعمّ القصود من الكلام وهذه الطريقة بعينها هي التي درجت عليها الأمم في فكهااتها ورواياتها للؤلؤة لاستيقاظ الشعوب ، فانظر إلى قوله تعالى « إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت الخ » فإنه ذكر الشمس والنجم والجبل والإبل والوحش والبحر والنفس والصحف والسماء والجحيم والجنة .

هذه ذكرها الله على هذا الترتيب ولكن أدخل في غضوننا كلمة واحدة حفظت نصف النوع الإنساني من الهلاك وهي « وإذا للوودة سثلت ، بأى ذنب قتلت » هذه هي الجملة التي أدخلها الله في وسط تلك العوالم المذكورة من أرضية وسماوية فما نطق بها حتى امتنع العرب عن قتل البنات بدفنهن الذي يسمى (وأدا) فانظر للتعليم والتربية ، يذكر المخلوقات والمعارف العامة ويدخل في وسطها جملة قضت على قتل النساء ، هكذا فعل في قصة هود وقومه هنا أدخل في غضوننا الأخذ بنواصي الدواب ، أفلا يكون هذا دافعا للمسلمين إلى دراسة علوم الحيوان بعد هذا البيان كما دفع آباءنا إلى حفظ البنات وعدم قتلهن بالوآد بجملة واحدة .

هذه هي سياسة القرآن ، ها هو ذا أتى بقصة عاد يسمعها الماقل فيرى ما الذي سبقت له فيرى أجله علم الحيوان ، اللهم أنت النور الهادي فاهد المسلمين إلى الرقي إنك أنت السميع العليم .

[ العجبية الثانية ] للمادة والكلام ، زيادة إيضاح

انظر إلى ما تقدم من تنوع الحيوان والنبات والإبداع وتأمل أحوال اللغات الشرقية والغربية ، ها أنت ذا رأيت للمادة كيف تنوعت تنوعا يقلبها على سائر وجوهها كما وضعتها ، تقلبت للمادة على وجوه تظهر كل ما كمن فيها ، فاعلم يقينا أن الله عز وجل علم أن أكثر الناس لا يدركون سرّ للمادة التي يعيشون منها ، لذلك ألهمهم اللغات فنطقوا بها وتصرفوا فيها تصرفا هو عين التصرف في المادة .

إن المادة كما تكون هواء وماء وسماء وأرضا وصلبا ونحاسا وجواهر وحيوانا مختلفا أنواعه الخ ، هكذا اللغات للبريات عن ذلك كله يتصرف فيها الإنسان، وهي التي تعبر عن كل ما صورته للمادة ولا يدرك تصرفها حق إدراكه إلا علماء الصرف والنحو والمعاني والبدیع أولئك الذين يركبون الجمل المختلفة ويشتقون من المصادر أفعالا وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين والصفات المشبهات وأسماء التفضيل وأسماء الآلات وأسماء الزمان وأسماء السكان وهكذا تصرف الفردات ، فهكذا تصرف الجمل من اسمية وفعلية وشرطية وحالية وماضوية ومضارعية ومؤكدة وغير مؤكدة وهكذا مما لا حصر له .

تبارك الله خلق للمادة وخلق اللغات وجعلهما في التصريف كعيسى رهان وذلك لحكمة الحكيم ، ذلك ليعلم الصغار في أول أمرهم أن اللغة لا تتوقف عند حد لأنهم إذ ذاك لا يقدرّون أن يحلوا تصرف المادة .

ولا جرم أن هذا يمدّ أذهانهم إلى إدراك تصرف للمادة إذا كبروا . خلق الله علوم الصرف والنحو وغيرها لصغار القول ولصغار العناء في الأمم لتفتح أذهانهم لمعرفة جمال صنه وباهر إبداعه وبالغ حكته

في تصرف هذه الكائنات ، وهل ترى أبداع وأجمل وأشرف وأبهر مما رأيت في هذا اللقاه من  
جمل النبات للأكل للحيوان آكله ؟

أوليس هذا بينه هو ما يفعله علماء النحو إذ يجعلون المفعول فاعلا والتفاعل مفعولا تدريبا للتلايد ،  
يقول الأستاذ للتلايد : اجعل المفعول فاعلا في هذه الجملة مع التصرف فيها وهي ( يضر الإنسان الحجر  
والحجر والشاي والقهوة ودخان التبغ ) فيقول التلايد هكذا : [ متى عقل الإنسان ترك الحجر  
والحجر الخ ] .

فها هو ذا التلايد آتى بالجملة مع حفظ المعنى وجعل المفعول فاعلا ، وهكذا فعل الله في المادة فجعل لنا كقول  
وهو النبات آكل للحيوان مع حفظ النظام ، فجعل الله وجل العلم فهذا فليفرح قراء هذا التفسير وليكونوا  
نورا وهدى للعالمين ، وأنا بذلك من اللواتين .

وحدة الوجود والإنسان عالم صغير

لمعنى لا يعرف الناس معنى وحدة الوجود ولا أن الإنسان عالم صغير إلا بالبحر في مثل ما ذكرناه لك  
فيها تقدم .

شمس هذا المقدم الثمين

إن النحل والأرضة والحمل كلها تتقرب من ملكاتها وترها أعمالها وترجع إليها ، وهكذا جمهور نوع  
الإنسان يفعل مع رؤسائه ولكن هناك في الإنسان طائفة هم فوق الجميع يعملون وينصبون وتكون لهم  
خلاوات مع ربهم في قلوبهم يعرضون عليه أعمالهم في بهجة الأنوار وبهاء الأسرار انتهى الكلام على قصة عاد ،  
فانشرح في الكلام على قصة نوح بتفسيرها اللفظي .

قال تعالى ( وإلى نوح ) أى وأرسلنا إلى نوح ، وهم سكان الحجر ( أخاه صالحا ) يعنى في النسب لافى  
الدين ( قال يا قوم اعبدوا الله ) أى وحدوا الله وخصوه بالعبادة ( مالك من إله غيره ) فهو المستحق للعبادة  
لا هذه الأصنام ؛ ثم ذكر الدلائل العقلية على وحدانيته وكال قدرته فقال ( هو أنشأكم من الأرض ) هو  
كوّنكم منها لا غيره فإنه خلق آدم وحواء وهو الذى خلق النطف والأغذية منها تتكون الأجسام وكلها من  
التراب ( واستمركم فيها ) أى عمركم فيها واستبقاكم من العمر أو أفدركم على عمارتها وأمركم بها ( فاستغفروا  
ثم توبوا إليه إن ربي قريب ) قريب الرحمة ( مجيب ) لداعيه ( قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا )  
لما ترى فيك من محابيل الرشد والساد فكننا نأمل أن تكون مستشارا أو سيدا عظيما ولكن هذا القول  
أبأسنا منك وانقطع رجاؤنا فيك ، إذ ذمت آلهتنا وخالفت ديننا ( أئننا أن نعبد ما يبد آباؤنا ) ومن ذا  
يخالف ما درج عليه الآباء ( وإنا لفي شك مما تدعونا إليه ) من التوحيد ( صريه ) موقع في الرية ، من أراه  
( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ) بيان وبصيرة وأنى بيان وهي للشك باعتبار المخاطبين ( وآتاني  
منه رحمة ) نبوة ( فمن ينصرتى من الله ) فمن يعنى من عذابه ( إن عصيته ) فى تبليغ رسالته ومنع الناس  
من الشرك به ( فما يزيدونى غير تحسير ) فأنتم باستباحتكم إياى لا تزيدونى غير أن تحسرونى بإبطال ما منحنى  
الله والتعرض لعذابه ( ويا قوم هذه ناقة الله لكم ) حال كونها ( آية ) وعاملها معنى الإشارة ولكم حال من آية  
مقدمة ( فذروها تأكل فى أرض الله ) ترع نباتها وتشرب ماءها ( ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب قريب )  
عاجل لا يتوانى عن مسك لها بالسوء إلا يسيرا وهو ثلاثة أيام ( فصروها فقال تمتموا فى داركم ) عيشوا فى منازلكم  
أو فى داركم الدنيا ( ثلاثة أيام ) ثم نهلكوا ( ذلك وعد غير مكذوب ) أى غير مكذوب فيه ( فلما جاء أمرنا  
نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ) أى ونجينا من ذلك يومئذ وفضيحتة ، وأى خزي

أعظم من حزي من كان هلاكه بضرب الله وانتقامه (إن ربك هو القوي) القادر على تنجية أوليائه (العزيز) القالب بإهلاك أعدائه (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أي صيحة أتتهم من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء (فأصبحوا في ديارهم جامعين) صرعى هلكتي (كان لم يفتنوا فيها) أي كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر ، يقال غنيت بالمسكان إذا أقت به (ألا إن نمود كفروا ربهم ألا بعدا لنمود) أي الحى .

واعلم أن هذه القصة جاءت في سورة الأعراف بأحسن تفسير على ما أعلم فارجع إليه إن شئت .

#### قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) بشرى للملائكة المختلف في عددهم ، فقيل ثلاثة ، وقيل أكثر ياسحق ويعقوب وبإهلاك قوم لوط (قالوا سلاما) سلمنا عليك سلاما (قال سلام) أي وعليكم سلام والجملة الاسمية في الرد أبلغ من الفعلية في الابتداء فافهم (فما لبث أن جاء بعجل حنيد) أي فما أبطأ في الهوى به ، والحنيد للشوى بالحجارة المصاة (فذا رأى أيديهم) أي أيدي الأضياف (لا تصل إليه) أي العجل للشوى (نكروهم) أي أنكروهم وأنكر حالهم لامتناعهم عن الطعام (وأوجس منهم خيفة) ووقع في قلبه خوف منهم ، والإيجاس الإضمار ، وقيل الإدراك (قالوا) له لما أحسوا منه أثر الخوف (لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) إنا ملائكة مرسلون إليهم بالعذاب ، فأما كوننا لم نمد للطعام أيدينا فذلك أننا معاشر للملائكة لأننا كل (وامرأته قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم ، أو على رأسهم للخدمة (فضحكت) سرورا بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد (فبشرناها ياسحق ومن وراءه إسحق يعقوب) وإنما خصت بالبشارة لأنه أولا لم يكن لها ولد ، وإبراهيم ابنه إسماعيل ، ومعلوم أن النساء أعظم سرورا بالأولاد : أي فبشرناها ياسحق ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحق ، وعلى قراءة رفع يعقوب يكون مبتدأ والجار والمجرور قبله خبره (قالت يا ويلتنا) أسفه يا ويلتنا نداء للتندبة ، وهي كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية ما يمتنع منه مثل ما يعجباه (أأله وأنا عجوز) يقال إنها كانت بنت تسعين سنة (وهذا بعلى) يعنى زوجي (شيخا) وكان سن إبراهيم مائة وعشرين سنة يومئذ كما قيل (إن هذا لشيء عجب) يعنى الولد من هرمين وهذا تعجب بحسب العادة (قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) قالوا ذلك منكرين عليها فإن خوارق العادات عند أهل بيت النبوة ليست يبدع فتلهم لا يستغربونه ، كأنه قيل إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكررة من الله عليكم وأهل البيت نسب على الاختصاص (إنه حميد مجيد) أي محمود لإنعامه العظيم بظاهر الكرم إذ أكرمكم بولده صالح (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) الفزع وهو ما أوجس في نفسه من الخوف حين نكر أضيافه (وجاءته للبشرى) بالولد أقبل (بمجادلتنا في قوم لوط) أي لما اطمان قلبه بعد الخوف وامتنأ حبورا بالبشرى أقبل بمجادلتنا : أي بمجادل رسلنا ، وصورة مجادلته إياهم أنهم قالوا له «إنا مهلكوا أهل هذه القرية» فقال رأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنا أنهم لهلكون؟ قالوا لا ، قال فأرسلون ، قالوا لا ، قال فثلاثون ، قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا ، قال رأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أنهم لهلكون؟ قالوا لا ، فبعد ذلك «قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله» (إن إبراهيم لحليم) غير عجول في الانتقام ممن أساء إليه (أوآه) كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس (متيب) راجع إلى الله ، وللقصود من ذلك أن الحمل له على المجادلة إنما هي رقة قلبه وحلمه ورحمته وجه للناس ، قالت للملائكة (يا إبراهيم أعرض عن هذا) الجدال (إنه قد جاء أمر ربك) قضاؤه بعذابهم من الله وهو أعلم بحالهم (وإنهم آتتهم عذاب غير مردود) غير مصروف بمجادل ولا بداه ، ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحو قوم لوط ، وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط

أربعة فراسخ ( ولما جاءت رسلنا لوطا ) لما أتوه ورأى جمالمهم وهم كانوا على هيئة غلمان حسان ( سمى بهم )  
أحزن لأنه ظن أنهم من الناس يخاف عليهم أن يفحش بهم قومه مع عجزه عن مقاومتهم ( وضاق بهم ذرعا )  
تميز : أى وضاق بمكانهم صدره وذلك كناية عن شدة الانتفاض لعجزه عن مدافعة للكروه للترقع حصوله  
لهم من قومه بفعل الفاحشة ( وقال هذا يوم عصيب ) شديد ، من عصبه إذا شده ، ويقال إن امرأته أخبرت  
بهم قومها ( وجاءه قومه يهرعون إليه ) يسرعون كأنهم يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه ( ومن قبل )  
ومن قبل ذلك الوقت ( كانوا يعملون السيئات ) كانوا يعملون الفاحشة حتى أمرنوا عليها وقلّ عنهم استقباحها  
حتى جاءوا وهم مجاهرون بها يهرعون إليها ( قال يا قوم هؤلاء بناتي ) أى هؤلاء نسائكم اللاتي هن بناتي ،  
فإن كل نبي أبو أمتة من حيث الشفقة والترية . وفي قراءة ابن مسعود « وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم »  
أو هؤلاء بنات قومي ( هن أظهر لكم ) أنظف فعلا ( فاقنوا الله ) بترك الفواحش ( ولا تحزون ) ولا تهينون  
ولا تفضحون من الخزي ( في ضيق ) في حق ضيوفي لأن من خزي ضيفه أو جاره فقد خزي ، وذلك من  
دوامي للروءة والكرم ( أليس منكم رجل رشيد ) أى رجل واحد يهتدى إلى سبيل الرشاد فيكيف عن  
فعل السوء ( قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ) حاجة لأننا نودّ الاقتراب من الذكور لا من الإناث  
( وإنك لتعلم ما نريد ) وهو إتيان الذكور ( قال لو أن لى بكم قوة ) أى لو أنى أقدر أن أتقوى عليكم ( أو آوى  
إلى ركن شديد ) أى أو انضم إلى عشيرة يحمونى منكم ، وجوابه لقائتكم . قال أبو هريرة رضى الله عنه  
« ما بعث الله نبيا بعده إلا في منعة من عشيرته » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « برحم الله لوطا لقد كان  
يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أنانى الداهى لأجيتة » فالمراد بالركن الشديد  
هو الله كما قال محي الدين النووي في الحديث فإنه أشد الأركان وأقواها . روى أنه أغلق باب دون أضيافه  
وأخذ يجادلهم من وراء الباب فسقروا الجدار ، فلما رأته اللائكة ماحلة بلوط من الكرب ( قالوا بلوط )  
ركنتك شديد كما مرّ في الحديث ( إنا نرسل ربك لن يصلوا إليك ) بمكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح  
الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم  
فأعماهم كما قال تعالى « فطمسنا أعينهم » فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا به وهم يقولون النجاء النجاء ،  
إن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض ، وقوله « لن يصلوا إليك » جملة واضحة لما قبلها ( فأسر بأهلك )  
فسر بأهلك ، ويقال أدلج بهم ( يقطع من الليل ) في بعض من الليل : أى آخر الليل عند السحر ( ولا يلتفت  
منكم ) ولا يتخلف منكم ، أو لا يلتفت إلى ما وراءه ، أو لا يلتفت بقلبه إلى ما خلف ( أحد إلا امرأتك )  
منصوب على الاستثناء أو مرفوع على البدل من أحد ، فكأنه قيل لا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك فإني  
لا أنهاها عن ذلك ( إنه مصيها ما أصابهم ) أو لا يلتفت منكم إلى ما وراءه أحد إلا امرأتك فإني ستلتفت فإنا  
لا أنهاها « إنه مصيها الخ » والنهي لها لا يفيد .

روى « أنه أخرجها معهم وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلاهى ، فداسعت همة العذاب التفتت وقالت يا قوماء  
فأدركما حجر فقتلها » .

وروى أيضا « أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإن هواها إليهم فلم يسرها » فأصبحت هانان الروابيان  
محتملتين : فإما أن تكون ببيت ، وإما أن تكون خرجت والتفتت ، فإحدى الروابيتين عليها للمنى  
ولا زال مبهما .

هذا تحقيق للقام وإياك أن تظن أن مثل هذا التحقيق هو للقصود من القرآن ، بل للقصود هو ما في  
القصة من الحكم ، فلنسر في طريقنا ، ولنجد في هذه السورة من الحكم والمعاني ما يبهج الأبصار قريبا .

وروى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم قالوا ( إن موعدهم الصبح ) فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا  
 ( أليس الصبح قريب . فلما جاء أمرنا ) عذابنا ( جعلنا عاليها سافلها ) قلبها جبريل جعل أسفلها أعلاها  
 إذ رفعها إلى السماء ثم قلبها عليهم ( وأمطرنا عليهم ) على المدن ( حجارة من سجيل ) من طين متحجر .  
 وسجيل أصلها سنكسكل فمرَّب ( منضود ) نعت لسجيل : أى متتابع ، أو مجموع معدَّ للعذاب ( مسومة )  
 نعت للحجارة : أى مملدة للعذاب ( عند ربك ) فى خزائنه أو فى حكمه ( وما هى من الظالمين بعيد ) أى وما هى  
 من ظالمى هذه الأمة من مشركى مكة وغيرهم « بعيد » لما من ظالم إلا وهو معرض للعذاب المعبر عنه  
 بسقوط حجر عليه .

روى « أنه عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عليه السلام فقال بئنى ظلمى أمتك ما من ظالم منهم إلا وهو  
 معرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة » ( وإلى مدین ) أى وأرسلنا إلى مدین ( أخاهم شعيبا ) ومدین اسم مدينة  
 بناها مدین بن إبراهيم عليه السلام : أى وأرسلنا إلى أهل مدین . وقيل مدین اسم للقبيلة التى هى من ذرية  
 مدین بن إبراهيم ( قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ) وحدوا الله ولا تمبدوا معه غيره ، ولما شرح  
 أمر العبادة شرع يذكركم بما يفعلون من نقص الكيل والميزان فقال ( ولا تقصوا للكيل والميزان إني أراكم  
 بخير ) بسمة تنبيح عن البخس ، أو بنعمة من الله حقا أن تقابل بخير ماتفعلون ( وإني أخاف عليكم عذاب يوم  
 محبط ) مهلك كما فى قوله تعالى « وأحيط بشمره » وأصله من إحاطة العدو ، وهو إما عذاب الاستئصال  
 فى الدنيا ، وإما عذاب الآخرة ( ويا قوم أوفوا للكيل والميزان ) أتموها ( باقسط ) بالعدل ، والنهى المتقدم  
 لتبحيح البخس والتنفير منه ، والأمر هنا للترغيب فى الفعل الحسن وهو إيفاء الكيل والميزان فهناك للتنفير  
 من الشر وهنا للترغيب فى الخير ، وهما معا يعتدل الناس ويتم الوعظ فليكن القسط والعدل بلاقص ولازيادة  
 فالازدياد وإن كان مندوبا قد يكون محرما إذا كان كيلا أو وزنا ليتيم أو فى مال الحكومات أو كان البائع  
 وكيلا ، فكل ذلك تكون الزيادة فيه حراما فوجب العدل ( ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) أموالهم وغيرها  
 سواء أكان بكيل أم بوزن أم بزرع أم بمساحة أم بتقدير فضل فى أعمال عامة كالنظر فى رجال الحكومة  
 وتقدير قهم وأحوالهم وكفآتهم وما أشبه ذلك مما لا يعدم الحصر ( ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ) العثى  
 والبث : أشد الفساد كالسرقة والغارة وقطع السبيل ويشمل البخس والتطفيف ، فإنه عثى فى الأرض وإفساد  
 فيها ، ومن العثى للكس ( بقيت الله ) أى ما أبقاء الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم ( خير لكم )  
 مما يجمعون بالتطفيف والبخس ( إن كنتم مؤمنين ) أى إن كنتم مصدقين لى فى قولى لكم ، ويصح أن  
 تكون البقية الطاعة فيما ذكر وغيره لقوله تعالى « والباقيات الصالحات » ( وما أنا عليكم بحفيظ ) أحفظكم  
 عن القبائح وأحفظ نعم الله عليكم ، وما أنا إلا ناصح أمين وقد أعدرت حين أعدرت ( قالوا يا نبي الله  
 أى كثرة صلاتك ) تأمرك أن تترك ما يجب أبؤنا ) من الأصنام ( أو أن تفعل ) أو ألا تفعل ( فى أموالنا  
 ما نشاء ) من البخس فى الكيل والوزن ( إنك لأنت الحليم الرشيد ) السفيه الضال ، وهذه تسمية مقلوبة  
 استهزاء به كقوله « ذق إنك أنت العزيز الكريم » وهذا رد لما طلبه من عبادة الله وحده ومن العدل  
 فى الكيل والميزان ( قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى ورزقى منه ) من لده ( رزقا حسنا ) وهى  
 النبوة والرسالة والى الحلال بلا بخس ولا تطفيف ، يقول أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة من ربى  
 وكنت نبيا على الحقيقة أليق بى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى ، وهل بعث الأنبياء  
 إلا لذلك ؟ ولست أمنكم عن تطفيف الكيل وبخسه وعن بخس الناس أشياءهم وأنا أستبد بذلك ، كلا !  
 ( وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ) يقال خالفت زيدا إلى كذا إذا قصدته وهو مولد عنه وخالفته عنه



إذا وليت عنه وهو قاصده ( إن أريد إلا الإصلاح ) ما أريد إلا أن أسألكم بموعظتي ونصيحتي وأمرى  
 بالمعروف ونهي عن المنكر ( ما استطعت ) أي مدة استطاعتك للإصلاح وما دمت متمكنا منه ( وما توفيق  
 إلا بالله ) وما توفيقك لإصابة الحق فيها أفضل وما أترك إلا بعموته ( عليه توكلت ) اعتمدت ( وإليه أئيب )  
 أرجع في السراء والضراء ، ثم اعلم أن جرم مثل كسب يتعدى إلى مفعول وإلى مفعولين كما في قوله تعالى  
 ( ويقوم لايجرمكم ) لا يكسبكم ( شقاق ) خلافي ( أن يصيبكم ) إصابة العذاب ( مثل ما أصاب قوم نوح )  
 من العرق ( أو قوم هود ) من الرخ ( أو قوم صالح ) من الرجفة ، وأن وصلنا ثانياً فمفعولي جرم ( وما قوم  
 لوط منكم بعيد ) في الزمان ، فهم أقرب المهالكين منكم ، وفي المكان فنارهم قريبة منكم ( واستشفروا ربكم  
 ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ) عظيم الرحمة فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يسهل الكثير للوذة بمن  
 يودّه ، وذلك وعد من الله أن يقبل التوبة بعد وعيده للذين على إصرارهم على المعاصي ( قالوا يا شعيب ما خلقه  
 كثيراً مما تقول ) استهانة بها وعدم مبالاة ( وإنما لتركنا فيها ضعفاً ) لا قوة لك ولا عز فيها بيئنا ، فكيف  
 تقدر على الامتناع منا ؟ ( ولولا رهطك لرجمناك ) ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم ، وأي قتل شرّ من الرجم ؟  
 وكان رهطه على دينهم ، فلذلك أظهروا الليل إليهم ( وما أنت علينا بعزيز ) فعدم قتلك لم يكن لئلا نعلمنا  
 وإنما يجز علينا رهطك ( قال ) في جوابهم ( يا قوم أرهطى أعزّ عليكم من الله ) أي أهيب عندكم من الله حتى  
 تركتم قتل لئمة رهطى عندكم ؟ فكيف لم يكن حفظي لأجل الله لا رهطى فكيف تركتم أمره ( واتخذتموه  
 وراءكم ظهرياً ) أي نبذتم أمر الله وراء ظهركم وتركتموه كأنه شيء ملقى ( إن ربي بما تعملون محيط ) أي  
 عالم بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية منها فيجازيكم عليها ( يا قوم اعملوا على مكانتكم ) أي اعملوا قارين على  
 جهنم التي أنتم عليها من الشرك والشنآن لي وهي مصدر مكن مكانة فهو مكنين إذا تمكن من الشيء ( إن  
 عامل ) على مقتضى ما ياتيني الله من النصرة والتأييد ويمكنني ( سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ) من  
 استهامية علفت فعل اللطم عن عمله : أي سوف تعلمون أينما يأتيه عذاب يفضحه وأينما هو كاذب ، وهذا هو  
 قوله ( ومن هو كاذب ) عطف على « من يأتيه » أي سوف تعلمون من للمذب والكاذب مني ومنكم ، وكان  
 مقتضى الظاهر أن يقال ومن هو صادق إنصرف الأول لهم والثاني له لكنهم لما جعلوه كاذباً قال « ومن هو كاذب »  
 أي في زعمهم ( وارتقبوا ) وانتظروا ما أقول لكم ( إن معكم رقيب ) منتظر ، والرقيب للراقب ( ولما جاء  
 أمرنا ) بعذابهم وهلاكهم ( نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ) يعني فضّلنا لأننا هديناهم للإيمان  
 وجعلناهم مطيعين ( وأخذت الذين ظلموا ) أي ظلّموا أنفسهم بالشرك والبخس ( الصيحة ) إذ صاح جبريل  
 عليه السلام بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعاً ، أو أنهم صيحة واحدة من السماء ( فأصبحوا في دارهم  
 جاثمين ) أي ميتين ، يقال جثم الطير إذا قعد ولطأ بالأرض فهو هنا استمارة ( كأن لم ينفوا فيها ) يعني كأن  
 لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر ، من غنى بالمكان إذا أقام فيه مستغنياً به عن غيره ( ألا بعدا لمدن ) البعد  
 والبعد : الهلاك كالرشد والرشد ( كما بعدت نوح ) قوم صالح ، وكان عذاب قوم شعيب بالصيحة من فوق رؤوسهم  
 وعذاب قوم صالح بالصيحة من تحت أرجلهم إذ أصابهم حر شديد .

قال ابن عباس « لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح ، فأما قوم صالح فأخذتهم  
 الصيحة من تحتهم ، وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم » ( ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ) بمجيبنا  
 والبراهين التي أعطيناها الدالة على صدق نبوته ( وسلطان مبين ) ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه ( إلى فرعون  
 ومثله ) أي أتباعه وأشراف قومه ( فاتبعوا أمر فرعون ) أي ما هو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاء به  
 موسى ( وما أمر فرعون برشيد ) أي وما طريق فرعون بسديد ولا محمود العاقبة ( يقدم قومه ) يضم

وبقود قومه (يوم القيامة) إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال ، يقال قدم بمعنى تقدم ( فأوردتم النار) جعل بصيفة للماضي كقوله تعالى « أنى أمر الله » وجعل النار بمنزلة الماء فسمى إتيانها «ورودا» ثم قال ( وبش الورد ) للورد ( اللورود ) الذى وردوه فجعل فرعون كالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة ثم قال « بش الورد للورود » الذى يردونه النار وكيف لا يكون كذلك ، والورد إنما يراد لتسكين العاشق ، والنار ضد ذلك ( وأنبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ) أى يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة ( بش الورد للرفود ) رقدم : أى بش العون اللعان ، أو بش العطاء للعطى ، انتهى التفسير اللفظى ،  
ياقوتة مضيئة في قوله تعالى « إن ربي رحيم ودود » على لسان شعيب عليه السلام

اعلم أن اللودة إنما تكون غالبا بين اثنين لهما علاقة واتصال وتجانس وتشابه في الطباع والعادات والأخلاق ، ولذلك ترى للتشركين في صناعة أو علم أو لغة أو وطن أو دين أو جنس أو أمر ما فإنهما يتوادان ويتحابان وذلك لاقتراب الصفات ، وكلما تباعدت الصفات تباعد الود ، ولذلك تجد الأم اليوم في عصرنا رجست إلى الجندية ؛ فالألمان والفرنسيون واليابانيون والصينيون كل يقرب من جنسه بمد أن كانوا قديما يتوادون بالديانات ، وهذا كله قديما وحديثا دال على أن اللودة تابعة لتقارب الصفات .

هذا هو المعلوم في الأم قديما وحديثا ولكن الله تعالى إذا وصف نفسه بأنه رحيم فإننا نفهم ذلك على معنى أنه مفيض الإحسان وهذا أمر مفهوم فإننا نرى الملك والأب والأم وأمنالهم يفيضون الإحسان على الرعية والولد وهكذا ، فالأعلى رحم الأدنى ولا عرابية في ذلك ، فانه رحيم ، أما الود فأمره مشكل إذ اللودة إنما تكون بين التجانسين ، وقال في سورة مريم « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » فذكر الرحمة هناك كما ذكرها هنا وأتبعها بالود ، ولكن الود هناك مفهوم لأنه بين متجانسين في الدين إذ الإنسان كما عمل الصالحات اقترب من أهل دينه للتجانس ، أما الود هنا فهو الذى يحتاج إلى بيان .

أقول : إن هذا يحتاج لدرس العلوم جميعها من فلك وطبيعة وطبقات أرضية وعلم الحيوان والنبات والتتريخ ، هذه هى العلوم التى تعرفنا معنى الود في هذا المقام .

إن هذا التفسير نيه بند كثيرة من هذه العلوم ، والدكى إذا قرأها أصبح عنده مجموعة سهلة فيها خلاصة العلوم ، هذه الخلاصة هى التى تفهمنا معنى الود : أى ود الله للخلق .  
انظر إلى السمك وإلى النحل وإلى الجراد وإلى الدود وإلى التعامة وإلى الدجاجة وإلى النيات والأزهار وإلى الإنسان ، فسترى في سورة النحل كيف ترى أن لها قرى ومساكن وجيوشا منظمة وأطارا جمع ظئر وحجرا على مقدار أسنان الأطفال كما يفعل الناس .

إن خالق العالم لما خلق النحل أعطاها من القوى والقدر والعلم على مقدار ما يناسبها ، فكما يقول الحبيب لحبيبه أما أقدم لك هدية من الفاكهة التى تحبها فيزيد ذلك في اللودة لعم كل من الحليلين بما في جيلة الآخر من الأشرة ، هكذا هنا أعطى الله النحل جيوشا منها على مقدار طاقتها وألمعها أن تتبع مساكنها وتنظم الحجرات وتربي القرية كل منها في حجرة خاصة كأنها مدارس ، فجعل مدارسها على مقدار حاجاتها ولم يحملها ما لا تنطبق من مدارس الإنسان وجيوشه وأساطيله ولم يحسبها مشاق السفن والأساطيل البرية والبحرية ، وهكذا سترى في سورة النحل ما أعطاه الله من قوت وما أفاء عليها مما يلزم حاجاتها .

ألا ترى إلى ماسياتى في سورة الحجر عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » من جمال زهر وبهجته وكيف لوئت الأزهار بألوان جميلة ليمشق النحل ذلك الجمال فيطير سريعا ليشرب من الرحيق المختوم في أسفل الزهرات ثم يطير إلى أخرى وقد حمل على جسمه غبار الطلع فوضعه في الزهرات التى فيها أعضاء

الإناث وألمهم النحل أن لا يدخل ويخرج من زهرة إلى زهرة إلا إذا كانا من نوع واحد ليسهل الأمر عليه فلا يصادف عناء في معالجة فتح الزهرات في ذلك اليوم ، ومعنى هذا أن النحل أعطى ما يوافق مزاجه من العسل ومن ألوان الزهر ومن نظام الزهرات ليسهل عليه ، ومن الإلهام أن لا يدخل زهرة غير التي هي من جنس مادخلها أولاً ، ذلك ليكون متمتعاً بالنعمة والسعادة وليكون ذلك أسون لطلع الذكور من ذلك النوع من الزهر ليوضع على الأنث منه ليدوم النبات كل سنة بالإقحاح رحمة بالنمل أيضاً .

أليس الرجل يقول لابنه إني سأعطيك ثياباً فاخرة وهدايا إذا نجحت في كذا وكذا؟ ويقول التلميذ لصاحبه أنا قرأت كتاب كذا وهو أسهل فأقرأه ، كل ذلك للشاكلة والتقاربة .

إن المودة تقتضي أن يتلطف الودود لصاحبه بما يلائم طباعه لأنه عرفها بكنة المخالطة ، وترى الجراد ألمهم أن لا يتدخر وأن يضع بيضه في أرض صالحة له على بعد مخصوص من سطحها بحيث تصلح الأرض لأن تكون له كالرحم لتحتفظه إلى وقت معلوم ، وإنما ألمهم أن لا يتدخر لأنه هو وأمثاله من القباب والناموس التي ألممت ألا تدخر لاتبشيش إلى عام قابل ، فإن البرد والحرق يتعاقبان عليها فهلك فإذن سمها للادخار عبث ، فذلك لم تلهم الادخار .

أما النحل والنمل فإتبعهما يعيشان سنين ، فإذا جاء الشتاء نامت ولكن لاتموت كما يموت الجراد والقباب والناموس ، لذلك ألمهم هذان النوعان الادخار وأزل الله سورتين باسمهما سورة النمل وسورة النحل تنبها على الفرق بينهما وبين غيرها من الحشرات ، ويقول الله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل » الخ وهذا الوحي للنحل والنمل ولشربها وحي بما يلائم كما يفعل الصديق الودود بصديقه .

وترى الودود لا حاسة له إلا حاسة اللمس ، فلا سمع ولا بصر ولا ذوق للطعام ولا شم ، وإنما حاسة اللمس له هي القائمة بتدبيره بل هي وزارة للمارف العامة للودود بها تمتص ما حولها من الرطوبات وتسيح في بطن البقرة والأسد والإنسان وفي لب الثور وفي دود اللش وهي فرحة سميده بما يناسب مزاجها ، وكان الله بودته لها منع عنها ما يزعجها مما لا يحتاج إليه ، فالسمع والبصر والشم والذوق والقوة العاقلة وللدارس كل هذه عبء ثقيل عليها ، فلو أعطيت ذلك لكان لا فائدة منه بل يضرها ولا تعيش به .

وترى النعامة في العراء تقسم بيضها ثلاثة أقسام : فتحضن بعضاً ، وتجعل بعضاً قوتاً لدرينها ، وبعضاً آخر تمرضه للحشرات فتقع عليه فتطممه لدرينها إذا قويت على أكل تلك الحشرات .

وترى الدجاجة لم يساعدها الديك في تربية أولادها لما أعطيت الأفراس من قوة الريش والعدو السريع ، وعكس ذلك الحمام .

وترى أمر النبات كله عجباً ، ويقول المحققون إن له نوعاً من الإحساس والشعور على مقدار طاقته ، وتراه في أثناء هذا التفسير في مواضع منه ولقد نال لطفاً من الله .

ألا ترى إلى ما استقرؤه في سورة الحجر من الزهر وكيف تنوعت أشكاله تنوعاً بديعاً ولكل نوع منها حشرات خاصة تنام إذا أغمض الزهر أجنانه وتسيقظ إذا فتحت الأكام وضحكت الأزهار ، وهناك تأتي الحشرة وهي تنفي فرحات برائس الزهرات ذات الحلل السندية والروائح المطرية والولائم العسلية والماسن والبدايع الهندسية في الأوراق والأزهار ونظامها ، هكذا تراه يفعل مع الإنسان في نظام جسمه وهيب تركيبه وفي إلهام العقلاء ، فكما يلهم النحلة عملها تراه ألمهم الناس فصنعوا ما يلائمهم من جري السفن في البحار والقطرات في البر بالبخار بالكهرباء وألمهم أن يقطعوا البحار لطلب الرزق والحرب ويجوبوا القياقي ويخوضوا على الدر وللرجان في البحر ويحفروا في الجبال وغيرها فيستخرجوا المعادن .

أعطى الله الهدوء رطوبات ، والنحلة زهرها وعسلا ، والإنسان معادن وكهرباء ، وألهم كلا من هذه المخلوقات ما استمدت له .

هذا هو ودّ الله لمخلوقاته « وهو معكم أينما كنتم » فكما أن الصديق مع صديقه يعرف ما يلائمه ، هكذا ترى صانع الكون لكونه مع كل مخلوق أعطاه ما يلائم طبعه وأبعد عنه ما يلائمه ، ولذلك تراه لما علم أن عقولنا قاصرة لأننا في العالم الأرضي الضئيف حجب عنا معرفة العوالم التي تسكن في الريح أو للشرى مثلا وهكذا التي تسكن الكواكب الكبيرة الثابتة .

علم ذلك من طباعتنا لأننا لو صرفناها واطلمنا عليها لنهلتنا من ذلك الجمال ولدهشت عقولنا ولا نبرنا ، فنحن عن ذلك كما منع الدود أن يعرف السمع والبصر وإلا لم يطق ذلك « ولا تقف ما ليس لك به علم » . فإله ودود ومن ودّه ما ذكرناه ، واعلم أن كل من قلد الله في الودّ كان أقرب إليه ، فكما كان الإنسان أكثر تقعا كان أكثر للناس ودّا .

إن الأم والأب بتربيتهما لولدهما قد ودّا ولدهما ودّا شريفا لأنهما قد جاوزا سنه فهما أعلى منه وقد تنزلا إليه وتلطفا ، فهما بهذا قد ارتقيا إلى نحو الود الإلهي ، هكذا العلماء والحكماء ولؤلؤون ينزلون لعقول الشعب وعلى مقدار تنزّلهم يقتربون من ربهم .

إن الإنسان على مقدار منفعة وعموم فضله للناس يكون قد اقترب من الود الإلهي ، وعلى مقدار اتصافه بهمه للوادة العامة يقترب من ربه كما أن الأب والأم اقتربا من ربهما على مقدار ما علما ولدهما ، هكذا سائر الصالحين .

إن الرحمة والودّ مقرونان في قرن ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا على مقدار ما قاموا به للنافع العامة ؛ فالرحمة هنا تساعد على الودّ لأن الودود يعطى من بودّه ما يناسبه ، وهذه للناسبة تقتضيها الرحمة ولكن الرحمة أعم ، فكما تكون مع الودّ تكون مع العذاب ، فكمن عذاب في التعليم والحرب والضرر كانت نتيجة العزّ والرقى كما قال (أرسطاطاليس) في كتابه إلى إسكندر القديوني تليذه : [ إن الأمة إذا أرخت لها العنان والترف أهلكتها البطنة ، والناس لا يهتمون الراحة ولكم يهتمون للشقات في الحرب وغيره ، فهم في حربهم نشطون فرحون ، وفي أمنهم ودعتهم أشرون بطرون ثم يهلكون ] .

إذا فهمت هذا عرفت بعض سرّ قوله تعالى في سورة مريم « يا أبت إنى أخاف أن يمنك عذاب من الرحمن » فإن اقتران العذاب بالرحمة هناك راجع إلى ما ذكرنا .

فالأمة للذبة بالحرب والضرر وكثرة الأعداء تكون مستيقظة نشطة كما قاله علماء الألمان قبيل الحرب الكبرى : [ إذا أردت رقى أمة فأوقد لها نار حرب فإنها تستيقظ من سباتها ] وقال تعالى فيها « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا » فالرحمة جاءت مع العذاب كما علمت وجاءت مع الود ، إذن الرحمة طامة والودّ فرع من فروعها ، وهما شجيب عليه السلام يقول « إن ربي رحيم ودود » ومن وده أنه الممنى أن أعطى الدين لأرقبكم وعلى مقدار مودة الأنبياء والحكماء والعلماء بالتعاليم يكون قربهم من ربهم وشرفهم ، انتهى القسم الثالث .

### (القسم الرابع)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقَّصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ • وَآءَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا

انفسهم فما اغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء امر ربك  
 وما زادوهم غير تنبيي • وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليه  
 شديدا • ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم تجموع له الناس وذلك  
 يوم مشهود • وما تؤخره الا لاجل معدود • يوم يأت لانكلم نفس الا باذنه فمنهم  
 شقي وسعيد • فاما الذين شقوا فني النار لهم فيها زفير وشهيق • خالدين فيها ما دامت  
 السموات والأرض الا ماشاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد • واما الذين سعدوا فني  
 الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الا ماشاء ربك عطاء غير مجدود • فلا تك  
 في مزية بما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم  
 غير منقوص • ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك  
 لقضى بينهم وانهم اتى شك منه مريب • وان كلالا ليوفينهم ربك اعمالهم انه  
 بما يعملون خبير • فاستقيم كما امرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير •  
 ولا تركزوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تتصرون •  
 وأقيم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى  
 للذاكرين • واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين • فلو لا كان من القرون من  
 قبلكم اولوا يقية ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع  
 الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين • وما كان ربك ليهلك القرى بظلم أهلها  
 مضلحون • ولو شاء ربك لجمل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين • الا من رحيم  
 ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأتلائن جهنم من الجنة والناس أجمعين • وكلا  
 قصص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى  
 للمؤمنين • وقال للذين لا يؤمنون اعملوا على بكتابكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون •  
 والله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك  
 بعاقل عما تعملون .

## التفسير اللفظي

قال تعالى (ذلك) النبا مبتدأ خبره (من أنباء القرى قصه عليك) خبر بعد خبر (منها) من القرى (قام وحصيد) أي بعضها باق وبعضها عاق الأثر كالزرع القائم على ساق والذي حصد ، وهذه الجملة مستأنفة (وما ظلمناهم) بإهلا كنا أيام (ولكن ظلموا أنفسهم) بارتكاب ما به أهلكوا ، وذلك لما جبلت نفوسهم عليه من النقص الذي هو نتائج أسباب خافية وظاهرة في هذا العالم الذي فطر على الخير والشر ، ولكن الشر جاء عرضا ولا يترك الخير الكثير لشر القليل ككفر هؤلاء فلا بد من نفاذ أمرنا لأن تلك هي حقائق الوجود الثابتة التي تعلق علمنا بها ، فهكذا علمنا وهكذا خلقنا وهكذا ربنا ونظمنا المخالقات (فما أغنت عنهم) فما نعمتهم ولا دفعت عنهم (آلمهم التي يدعون) يمدون (من دون الله من شيء) لما جاء أمر ربك (عذابه) ، ولما منصوب بما أغنت (وما زادهم غير توبيخ) تخسير ، يقال تب إذا خسر ، وتببه غيره أوقفه في الحسران : أي مادفت عنهم عبادة غير الله شيئا بل أهلكتهم (وكذلك) أي ومثل ذلك الأخذ وعمل الكاف الرفع (أخذ ربك إذا أخذ القرى) أي أهلها (وهي ظالمة) حال من القرى (إن أخذهم أليم شديد) مؤلم صعب على للأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرهم فيبادر الظالمون بالتوبة ولا يفرحوا بالإمهال (إن في ذلك) فيما قصه من قصص الأمم الهالكة في هذه وفي غيرها من السور (آية) لعمرة (لمن خاف عذاب الآخرة) أي اعتقد صحة وجوده ، فأما من يرى أن العالم لا فاعل له وإنما هي ذرات تتكون وتتحلل فلا يقول بحساب ولا عقاب فليس لهذا عبرة عنده (ذلك) أي يوم القيامة (يوم مجموع له الناس) أي يجمع له الناس لا محالة والناس لا ينفكون عنه (وذلك يوم مشهود) أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين وقد اتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به ، وليس المقصود أن اليوم مشهود في نفسه وإلا لبطل الغرض من تعظيم اليوم بتمييزه فإن سائر الأيام مشهودة (وما نؤخره) أي اليوم (إلا لأجل معدود) الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهائها (يوم يأتي) بحذف الياء ويأتينا « يأتي » والحذف في مثل هذا كثير في لغة هذيل ونظيره قوله « ذلك ما كنا نبغ » والفاعل ضمير يرجع إلى قوله « يوم مجموع له الناس » (لا تسكتم) لا تتكلم (نفس إلا بإذنه) أي لا يشفع أحد إلا بإذن الله « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » (فمنهم) أي من أهل الموقف وهم الناس للذكورون في قوله « مجموع له الناس » (شقي وسعيد) فمنهم معذب ومنهم منعم (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير) هو أول نهيق الحمار (وشهيق) هو آخره ، أو هما إخراج النفس وردة والجملة حال والعمل هو الاستقرار للقدرة في النار (خالدين فيها) حال مقدرة (مادامت السموات والأرض) أي مدة دوام السموات والأرض وذلك للتأييد ونفي الانقطاع كما تقول العرب [ملاح كوكب] وللمقصود التأييد (إلا ما شاء ربك) هو استثناء من الخلود في عذاب النار ، فإن أهل النار يخرجون من النار إلى الزمهرير وأنواع من العذاب غير النار ، وكذلك أهل الجنة يتصلون بجناب القدس ورضوان الله وهذا أعلى من الجنة ، أو ما شاء بمعنى من شاء وهم قوم يقال لهم الجهنميون يخرجون من النار ويدخلون الجنة فهم مستنون من أهل الجنة أيضا لمقارنتهم إياها بكونهم في النار أياما ، فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأييد ولا سعدوا سعادة من لم تمسه النار ، هكذا روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة وهؤلاء هم فساق اللوحدين ، وقيل إن « إلا » هنا بمعنى سوى واللفظ سوى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض فالاستثناء راجع إما :

(١) لنوع العذاب كما يرجع لنوع النعم فيما سبأني ، فالمقصود أنهم يتقلون من عذاب إلى عذاب كما أن أهل الجنة يتقلون من نعيم إلى نعيم .

- (٢) أو نفس المعذبين فمنهم من لا يغلد في أحدهما كأهل الماصي للوحدين .  
 (٣) أو للذة التي تزيد على زمن السموات والأرض التي نشاهدها وتكون « إلا » بمعنى غير .  
 (٤) وهناك وجه رابع وهو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ فليسوا في جهنم ماداموا فيهما والاستثناء إذن من أصل الحكم .  
 (٥) وقيل الزفير والشرق هما اللقيدان بتلك الشريعة لا الخلود ، فالزفير والشهيق دائمان إلا في أوقات يسلها الله .

ثم قال تعالى (إن ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض لأنه بناء على الحكمة العامة في العالم وليس لأناس ما يؤهلهم للوقوف على تلك الحقائق كاملة ( وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدون فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ) وقد تقدم أنهم قوم موحدون عاصون لا يدخلون الجنة إلا بعد العذاب إذا كانت « ما » بمعنى من ، أو أنهم يتلون ما هو أعظم من الجنة وهو رؤية الله تعالى ورضوانه ( عطاء غير مجذوذ ) غير مقطوع فهذا الثواب لا ينقطع ( فلانك في مربة مما يجده هؤلاء ) أي فلا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وأنهم آيلون إلى الهلاك ، وأن الأنبياء ، ومن تبعهم ناجون في الدنيا والآخرة وهذا عدة بالانتقام منهم ووعد لهم وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل من سار على قدمه من المؤمنين وأن الله ناصرهم وناصرهم وخادل أعدائهم وأعدائهم كما جربناه في هذه الحياة مرارا ، وهم ما يعبدون إلا كما عبد آباؤهم من قبل وقد قصصنا عليك ما نزل بآبائهم فسيلحهم مثله فإن للشبهة في الأسباب تستدعي المشابهة في السبب ، وقوله « كما عبد آباؤهم » أي كما كان يعبد آباؤهم وهذا قوله تعالى ( ما يعبدون إلا كما يعبد ) إلى قوله ( وإنما قوم نصيبهم ) من العذاب ( غير منقوص ) حال من النصيب لتقييد التوفية دفعا لما يحتمل أن التوفية تكون لبعض مجازا ( ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ) فآمن قوم به وكفر قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن ( ولولا كلمة سبقت من ربك ) أي كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ( لفضى بينهم ) بين قوم موسى وقومك بالعذاب المستأصل ( وإنهم ) وإن كفار قومك ( لفي شك منه ) من القرآن ( مرئيب ) موقع للريبة ( وإن كلا ) وإن كل المختلفين للمؤمنين منهم والكافرين ( لما ) إلا والله ( ليوفينهم ربك أعمالهم ) وقرئ « لما » بالتحفيف ، فاللام إذن موطنة للقسم والثانية للتأكيد وما زائدة للوصل بينهما ( إنه بما يعملون خير ) فلا يخفى عليه شيء .

ولما أبان الله في هذه السورة كيف كانت عاقبة العاصين وخاتمة الصالحين أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه قتالا ( فاستقم كما أمرت ) أي استقم على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك : أي دم على ما أنت عليه من الاستقامة ( ومن تاب معك ) من الشرك والكفر وهو عطف على ضمير الرفع في استقم ( ولا تظنوا ) ولا تخرجوا عما حدثosكم أو لا تفلوا في الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ( إنه بما تعملون بصير ) فيجازيكم عليه وهذا في معنى التعليل للأمر والنهي .

قال ابن عباس : ما زلت آية على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أشد عليه من هذه الآية ولتلك قال « شيتنى هود وأخوانها » ( ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ) ولا تميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركون هو الليل اليسير كالترى بزهم وتمظيم ذكرهم والليل بالقلب إليهم وطاعتهم ومداهنتهم وتكثير - وادهم والرضا بأعمالهم ( فتسك النار ) أي فتصبيك النار بحرّها كما يحصل اليوم في الأقطار الإسلامية من التشبه بالفرنجية وتقليدهم ومداهنتهم والترى بزهم واحترام تجارتهم وآرائهم وأخلاقهم وفسوق الفاسقين منهم .

فذلك حكم الله على أكثر الأقطار الإسلامية أن يصيبها نار الاستعباد في الدنيا والذل والفقر والاحتلال

والاختلال والذالة والضمف والجبن والخوف وهذه مقدمة لعذاب جهنم « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصل سيلا » .

وقد بينا في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن الفرنجة ضحكوا على ذقون الشرقيين الغافلين وألبسوهم نوب للذلة والعار ومزقوهم شرّ ممزق وكل ذلك لأنهم ركنوا إليهم وصدقوهم ، ولقد قدمت أنهم أشبه بالمسيخ الدجال فإنهم يظهرون جنة اللذات ويخفون نار الاستعباد وقد ركن كثير من الأمراء إلى نار شهوات المال الذي يعطونه لهم أو الألقاب الحقيمة الكاذبة التي يسمونهم بها أو الوسامات التي يملفونها على صدورهم فأوقموهم في نار الاستعباد والذلة والحزى اللين .

هذا كله سرّ هذه الآية ثم قال تعالى ( وما لكم من دون الله من أولياء ) من أنصار يمتنون العذاب عنكم والاستعباد والاحتلال واستنزاف الثروة وحلول الفقر بكم في الدنيا ( ثم لاتصرون ) أي ثم لاتجدون لكم من نصركم ويخلصكم من عقاب الله أي عذاب يوم القيامة وفي الدنيا الذي هو مقدمة لعذاب الآخرة، وفيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضى بأعمالهم .

ومن عجيب الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول « شينقى هود وأخوانها » ولعمرك ماشيتة هود وأخوانها إلا لما في هذه الدورة من العذاب الذي حاق بالأمة الإسلامية أسوة بالأمم الأخرى .

مصدق هذه الآية في تاريخ الأندلس وفي الدولة العباسية بغزوة التتار .

وتعجب كيف تم ما قاله الله تعالى ، وهو أن الركون إلى الظلمة يمرض المسلمين إلى الهلاك والدمار ، ثم يقول الله « ثم لاتصرون » ولقد حصل ذلك وأصبح أكثر المسلمين غير منصورين بل هم في قبضة الفرنجة كل ذلك جاء مصداقا لهذه الآية ، يقول الله « ثم لاتصرون » وقد حصل ذلك وأصبح أكثر المسلمين كعبيد للفرنجية لأنهم ركنوا إليهم ، وواقع لم ينبج من مذلة الفرنجة إلا الدين استقلوا بأعمالهم وتركوا الركون إليهم ورجعوا إلى أنفسهم ولم يشككوا عليهم واعتبر ذلك في الأمة الأندلسية إذ كانوا في أول أمرهم حين كان الإسلام عزيزا مهايا محافظين على أخلاقهم القومية وعاداتهم العربية وشيمهم النبوية ثم تحوّلت الحال وسامت وأصبح المسلمون بعد الأنفة والعزة والتبرف أسرى الأوهام ، وبدأ ذلك أن الفرنجة تماهدوا مع أمراء الأندلس ورئيسهم ابن عباد ، وتلك المعاهدة احتوت على ما يأتي :

[أولا] حرية الدين .

[ثانيا] حرية التجارة .

[ثالثا] حرية التعليم .

ولما تمت تلك المعاهدة أقام ابن عباد احتفالا ومرحانا وأفراحا دامت عشرات الأيام ، ولقد حضر الأمراء جميعا تلك المعاهدة وتمعوا عليها وكان بعضهم قد ركبوا على جياد ناهلها من ذهب .

ولما تمت تلك الوثيقة والأيام الراضية رجعوا إلى ديارهم آمنين مطمئنين ولم يرفض التوقيع على هذه المعاهدة إلا ابن مصعب فإنه قال « ويحكم يا أبناء العرب وعظما. الإسلام كيف تبيحون حرية التجارة والتعليم في دياركم ؟ أفلا ترون أن القوم سيطرون أبناءكم تاريخ أمهم ويحرقون آباءكم ؟ أفلا ترون أن الحجر يباع في بلادكم بعد الآن لحرية التجارة ، وسيشتر في البلاد الترف والنعيم ويكثر للترفون والفسقة والفجار والخلاعة ويقتضى الأمر بفساد البلاد وخراب العباد وطرد العرب من الأصقاع الأوروبية ؟ فسامع القوم مقالته هزوا وساخرين ونهذوة أجمين وقالوا لست في العبر ولا في الفبر ، وهل : بطلع لتصير أمر ، أو يقام لتبر رشيد وذن ؟



« وجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » وقالوا إن هذا كلام الدين لا يعرفون السياسة ولاهم من السياسيين .

فماذا جرى بعد ذلك ؟ قضيت سنون تلتها سنون وصح ما تنبأ به ابن مصعب وانتشر الخمر والفسوق وصار [ كتاب الأغاني ] هو العمدة في البلاد وانتشرت الخلاعة والفسوق وصار الشبان يغازلون الفتيات في الطرقات شاربين وشاربات وسكرين وسكرات وكثر الترف والنعم ولبسوا الحرير وحمتموا بالذهب وصارت الخلاعة مشرب الأدياء وخلق الكبراء فذهبت النخوة والدين وسرى ذلك من الأحداث إلى العظماء والكبراء حتى إن أحد أمراء بني النون اختطف فتاة رومية من أبيها وأدخلها قصره ، فلجأ إلى أمير آخر مسلم ، أدته مروءته أن يكاتب ابن ذي النون ذا كرا له عظم هذا الذنب وقبحه فأبى أن يقبل قوله ، فاعتد ذلك الأمير مع بارونات أوروبا وهجموا على ذلك الأمير وعزقوا شمله وخربوا قصره وأولم الأمير للغالب للقرنجة الحاضرين معه ولجئة دامت أياما فرحا بالانتصار وإظهارا للافتخار ، والأمة العربية إذ ذاك في استعاروهي لا تعلم ما خباياها لها الزمان ، وكان العربي إذ ذاك في الأندلس يحقر نسيبه وأخلاق آباءه وآراءهم وتاريخهم ولا يأنس إلا بالأوروبيين الذين ربوه في مدارسهم .

وقد تجاوز هؤلاء الأساندة حد العادة في تسيير أخلاق المسلمين حتى إن راهبا في قرطبة من أساندة المدارس التي يتعلم فيها المسلمون اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمرا وحلف أن لا يبيعه لأحد إلا لتلاميذه من أبناء المسلمين لحبه إياهم فصار الخمر من مستلزمات المدينة والعمران .

فماذا جرى ؟ سارت الأمة شوطا جيدا حتى قرعت القارعة ووقعت الصاعقة وأتى للثلك (فريدناند) والمسكة (إزابله) وقتما ظهر البلاد وأزال ملك بني عباد وأمراء الأجناد وقبروهم أجمعين إلا قليلا منهم رموه في البحر أجمعين وقتلوهم مجتدين « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ، وما الله بناقل عما يعمل الظالمون ، كل هذا مصداق لقوله تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسك النار ومالك من دين الله من أولياء ثم لا تتصرون » فلم يجد أبناء الأندلس أولياء يتصرونهم لما أحاط بهم الإفترنج من كل جانب وهم غافلون لأنهم ركنوا إلى القرنجة فأصبحوا حصيدا لخامدين .

#### التنار في الشرق

وقد كان المسلمون قبل ذلك بنحو ثلاث مائة سنة في بلاد الشرق قد عملوا بجزم وسكروا بجاههم فلم يظنوا في الأرض قوة أعظم منهم أيام قطب أرسلان إذ أرسل إليه (جنسكيزخان) للمسي تجوجين رجلا من قومه ليتاجروا مع المسلمين بأموالهم ومعهم مال عظيم ومتاجر كبيرة تخاف تجار المسلمين على أنفسهم وضياع تجارتهم ونحس بضاعتهم لمزاحمة أولئك الواردين لأن بضاعتهم أجمل وأبهج وأبهي وأرخس قيمة فأرسل هؤلاء التجار الوطنيين رجلا منهم فقال لقطب أرسلان : هل لك أن تأخذ التجارة من هؤلاء الذين حضروا وأن مامهم يكون غنى لدولة الإسلام وعزا وجاها للحكومة ؟ ففرّ ما يقول وأخذ المال الذي مع التجار الذي قيل إنه كان كثيرا جدا فأخذ تجارتهم وقتلهم أجمعين .

فلما ورد الخبر إلى (جنسكيزخان) أرسل له خطابا مع جماعة يحذره من عاقبة ظله يقول فيه : كيف تسيئون الجوار وتظلمون الناس ، ونبهكم صلى الله عليه وسلم لم يقل به وعطى بن أبي طالب كذلك ؟ أولم يخبركم نبيكم قائلا « اتركوا الترك ما تركوكم » إنا نحن أئمة يأجوج ومأجوج وقد أوعدكم الله بأنهم سينزلون عليكم من كل حدب .

فلما جاء الخطاب إلى (قطب أرسلان) مزقه وسلم آذان الرسل للرسلين من قبل (جنسكيزخان) فسام

هذا الذي يبذل النار ثلاثة أيام تضرع فيها إلى الله أن ينصره على المسلمين الذين هم ينجرون بلاد الله وهو يسعى إلى الإصلاح ، ولم يأكل ولم يشرب في تلك الأيام الثلاثة ، ثم قام بمجموعه وهجموا على الإسلام فأزالوا دولة العباسيين ومزقوا المسلمين شراً ممزق وانتشروا في الهند وفي روسيا ولا تزال بقاياهم إلى الآن على نهر (فلجا) وغيره ولكنهم أسلموا بعد حين وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم « ويل للعرب من شرٍ قد اقترب » وسيوضح هذا القام في تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » وسترى فيه نص الخطاب الذي أرسله (جنكيزخان) لتعلم أن المسلمين كما ركنوا إلى أوروبا فزالت دولتهم ركن مسلو الشرق إلى جوار التجار منهم فسلطوا للوك على إيذاء الجيران فأذوهم فسلط الله عليهم التار .

ذلك لأنهم ركنوا إلى الذين ظلموا وهم تجار المسلمين ، وأيضا كان للمسلمون غائلين جاهلين لم يعرفوا قدرة بلاد التار ولم يدرسوها فهم كانوا جغرافية البلاد المجاورة لهم جاهلين ، فلما آذوهم سلطهم الله عليهم وهم لا يعلمون قوتهم ولا مقدار جيوشهم ولا عددهم ولا صبرهم على القتال ، ذلك كله مصداق لقوله تعالى « ثم لا تنصرون » .

#### مصداق هذه الآية في الأمم الإسلامية اليوم

ولقد قدمت مرارا في هذا التفسير كيف استولت القرصبة على بلاد الشرق وقتلت إنهم استولوا عليهم بنس الطريقة التي أهلكتها بها بلاد الأندلس فإنهم كما أهلكتها الأندلسيين بالشموات والذوات وفتحو لهم باب الترف فكثرت الدين والإسراف والخر والمجاهرة بالمعاصي مع الغايات ولبس الحرير والتنعيم والربا واحتقار تاريخ الآباء وآرائهم وأعمالهم وخصالمهم ومما عليه من التمسك بالدين وما أشبه ذلك .

هكذا فعلوا ذلك مع أهل الشرق من التونسيين ورجال الجزائر والراكشيين والصريريين بحيث ترى الأغنياء من بلادنا الآن لا يهتأ لهم طعام إلا في مطاعمهم ولا شراب إلا في قهواتهم وباراتهم ، ولا مغازلة إلا مع نسائهم ولا شراء إلا من محال تجارتهم ولا لباس إلا على زهيم ، ولا خادمة إلا من أحسن نسائهم ولا استئانة إلا من مصارفهم ، وإذا أرادوا عملا عاما لا يكون إلا في أماكنهم التي لهم في بلادنا .

إذا علمت هذا علمت جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر لما سأله قائلا « قد شئت يارسول الله إذ قال صلى الله عليه وسلم شيتني هود والواقعة والرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » .

وفي رواية أخرى قال « قلت يارسول الله عجل إليك الشيب ، قال شيتني هود وأخوانها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الفاشية » .

ويقول العلماء لأن هذه السور فيها ذكر القيامة والبعث والحساب الخ ، فهذا صريح في أنه يخاف عذاب الآخرة ، ولا شك أن مما في سورة هود حساب الأمة المحمدية في الآخرة على أنها تركن إلى الذين ظلموا وقد أظهر الله مقدمات هذا الحساب ودلائله فيما ذكرناه .

وورد أيضا « ويل للعرب من شرٍ قد اقترب » وقد حصل ذلك بظهور التار وغلهم للمسلمين كما سيوضح في سورة الكهف وكما قد مناه الآن فليعتبر المسلمون .

ولما كان اختلال الأمة ينشأ من ركونها إلى الذين ظلموا ، وكانت إقامة الصلوات في أوقاتها مما يجمع القلوب ويؤدى إلى اتحادها أعقب ما تقدم بقوله ( وأقم الصلاة طرفي النهار ) غدوة وعشية وهو منصوب على الظرفية لأنه مضاف إلى الظرف وصلوة طرف النهار الأول الصبح ، وطرف النهار الثاني الظهر والعصر

(وزان من الليل) الزلف : جمع زلفة، من أزلفه إذا قربه: أي وساعات من الليل قريبة من آخر النهار وهي صلاة القرب والعشاء (إن الحسنات) كالصلوات الخمس (بذهبن السيئات) أي الذنوب .

وفي الحديث « إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب » ومثل الصلوات جميع الطاعات : قال عليه الصلاة والسلام « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » ومن الطاعات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقد ورد في الحديث أيضا مرادة بهذه الآية : وفي البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رأيتم لو أن نهرا يباب أحدكم يقتل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا لا ! قال فذلك مثل الصلوات الخمس يححو الله بها الخطايا » .

إن الذنوب الصغار تكفرها الصلوات والطاعات ، أما الذنوب الكبار فلا يكفرها إلا التوبة النصوح بالإقلاع عن الذنوب بالكليّة وبالندم وبالزم التمام ألا يرجع إلى الذنب .

وفي الحديث « إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبار » وفي سبب النزول أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني قد أصبت من امرأة غير آئي لم آتتها فترزت (ذلك) إشارة إلى ما تقدم بما في هذه السورة من هلاك العاصين ونجاة الصالحين وما ولى ذلك من قوله « فاستقم كما أمرت » وما يصدّه (ذكرى للذاكرين) عظة للمتقين وتبصرة للمفكرين فيعرفون كيف تهلك الأمم إذا ظلمت ! وكيف تمسهم النار في الآخرة إذا ركزوا إلى الظالمين ! وأن الأنبياء الذين ورد ذكرهم في هذه السورة لم ينصروا إلا بعد الصبر ، ولذلك قال (واصبر) على ما اتلقى من قومك ومجادلاتهم وعداوتهم كما صبر الأنبياء قبلك المذكورون في هذه السورة وقد علمت أمرهم وأنه لم يضع أجرهم إذ أحسنوا في أعمالهم (فإن الله لا يضيع أجر المستبين) أي للمستبين أعمالهم بالاستقامة وعدم الركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلاة وفعل الحسنات وجميع الأعمال الظاهرة والباطنة ، فإحسان العمل الباطني يرقى أخلاقنا ، وإصلاح العمل الظاهري كالصناعات يرفع قدر الإنسان ويرقى عقله ويكسبه التقى وهذا بمدوح الله لا يضيع أجره كما هو مشاهد محسوس ، فكل من أحسن عملا لا يضيع أجره ، وهذا يوجب على المسلمين أن يحسنوا ما يصنعون في أعمالهم الظاهرة والباطنة .

ولما كان القول للتقدم وهو الأمر بالاستقامة للنبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه وتبهم عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا حتى لا تمسهم النار كما مست الأمم السابقة لما ظفوا كما هو مذكور في هذه السورة أشبه بالتحلية ثم أمرهم بما هو كالتحلية من الصلاة بالليل والنهار مرتبا على ما ذكر في هذه السورة من إهلاك الأمم السابقة في الدنيا لكفرها وفي الآخرة بالنار ، لذلك أيضا رجوع إلى تفصيل الكلام على تلك الأمم قاتلا هلا كان من هؤلاء الأقوام الذين ذكروا في هذه السورة وغيرهم من الأمم السالفة قبلكم رجال أولو رأي وعقل يهون الناس عن إنسادهم في الأرض بتطبيق الكيل والليزان ونحسهما وفصل القاحشة التي لم يأتها أحد من العالمين والكفر والعماسي الكثيرة .

نعم إن بعضهم نعى عن الفساد في الأرض فتجيتناهم ، فأما الأكثرون فإنهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض واتبع الذين ظلموا ما آترفوا فيه بالتبتم والترفة وحب الرياسة والثروة وطلب أسباب البيش المنهه ورفضوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبنوه وراء ظهورهم (وكانوا مجرمين) وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون وهذا قوله ( فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ) من الرأي والعقل أو أولوا فضد وإعاصي بقية لأن الرجل يستبق أفضل ما يخرج به ، ومن فلان من بقية القوم أي من خيارهم ( يهون عن الفساد في الأرض

إلا قليلا من أنجبنا منهم) أي لكن قليلا منهم أنجبناهم لأنهم كانوا كذلك فالاستثناء مقطوع فهو لا يستثنى منهم لم ينهوا عن الفساد في الأرض (واتبع الذين ظلموا) أنفسهم فلم ينهوا الناس عن الفساد (ما أترفوا فيه) أي ما عرفوا فيه التمتع والثروة الخ (وكانوا مجرمين) ولما كان ما تقدم يستدعي سؤالا فيقال : يا عجبا إن الله عز وجل رحيم وكيف يهلك الناس إذا كفروا ؟ وهما عن أولاء ترى الحيوانات راتعة في اللأ. والهواء والتراب ، فلما خص الإنسان بالإهلاك في الدنيا فليكن الكافر في الأرض كالحيوان ، أفلا يسع الله هؤلاء في أرضه ؟ لما باله يهلكهم في الدنيا وينزع ملكهم ويشمت عليهم .

لذلك قال الله ( وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ) بشرك ( وأهلها مصلحون ) أي وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين بأن يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والساد ، ولذلك قيل « الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم والمعاصي » وكان هذا تفريرا لما تقدم في السورة كأنه يقال إذا أهلكت قوم لوط وقوم شعيب وغيرها فإعنا إهلاكهم للذنوب الخلة بالأمن الضارة بالمجموع ، وإذا كان المجموع فاسدا فلا يقاء له بل يكون كالجسد البت تنين رآحته ، فالأمة التي تكذب وتظلم وتفسق ويرتضى حكامها وتضل في أعمالها ولا تحسن عملا حكمت عليها بالهلاك لأنها مجموع مختل غير منظم وهذه قاعدة طبيعية ؛ فالأمة كالجسم إذا اختل خلا عظمها رئيسيات ، وهذه حال كثير من أمم الشرق والإسلام الآن وسيغير الله الحال بل ابتداء سبحانه يفعل ذلك الآن

ولما كانت الأمم الإسلامية اليوم قلّة فيها علم الأخلاق والعمل بها صارت قلوب أهلها متباعدة متباعدة وهم لا يحسنون كثيرا من الأعمال وهي بأيدي غيرهم سلبت الله عليهم القرينة لأنهم لا ينهون عن الفساد في الأرض وقليل منهم الآن انتظموا في أعمالهم فاستقلوا في بلادهم وطرردوا القرينة والحمد لله .

فتعجب كيف أبان الله في هذه الآيات أن خراب الأمم تابع لظلمها الداخلي في أعمالها لا إيمانها وعلى ذلك لا يبالي بإيمان بلا عمل صالح ، بل ينزل بأهله المذاب الشديد في الدنيا كما أشار إليه في قوله تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسك النار » ومن الظلم ترك النهي عن المنكر ، واعلم أن الفقهاء لأجل هذه الآية قدموا عند تراحم الحقوق حقوق العباد على حقوق الله تعالى .

واعلم أن هذا اللقاه يقتضى أن يسأل سؤال فيقال إذا كان الله هو الخالق للعالم للنظم له وهو واحد فلم تطورت الأمم وكانوا مختلفين أخلاقا وديانات وآراء وكفرا وإيمانا ، وهلا جعل الله الناس أمة واحدة ولم هذا الاختلاف ؟ واعلم أن هذا السؤال يرد على عقول كثير من الناس ، وهو بهذا اللقاه أبقى لأنه في مقام هلاك الأمم وبقائها وتقرير حقائقها وقد تم البحث هنا ودقق أبحاثه دقيق ، واعلم أن العالم لو لم يكن مختلفا لكان معدوما .

ألا ترى أن الحكماء قد قرروا أنه لا يتساوى اثنين في الوجود ، فلا رجل ولا امرأة من الناس يمانلان غيرها من الرجال والنساء بل كل فرد من الناس والحيوان والنبات والمعادن والكواكب لا نظير له في الوجود ؟ وقد برهنوا على ذلك برهان قاطع لا يحل لذكره هنا ، فما دام هناك خلق فلا بد من اختلافه ، فالاختلاف ملازم للخلق ، وما دام هناك خلاف فهو في الأجسام والألوان والمقولات والآراء والديانات والأحوال وفي كل شيء .

فالمائل الحكيم يعتقد أنه لا يكون وجود بغير اختلاف للوجودات ، والجاهل يقول لم خلق الله الاختلاف مع أنه لا يمكن الخلق إلا مع الخلاف ، ولا فرق بين الخلاف القليل والكثير ، فكما يأتي بساعات النهار المختلفة أضواؤها يأتي بالليل الذي هو غاية الخلاف مع النهار هكذا يفصل في الديانات .

فكما يخلق تبيين متقاربين كأبي بكر وعمر وهما كساعتين يخلق كافرا ومؤمنا كأبي بكر وأبي جهل كما خلق الليل والنهار ، فالنظام واحد في الأطوار الإنسانية والأحوال الكونية ، ونتيجة ذلك هو أعلم بها وهذا قوله ( ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ) متفقين في الإيمان والطاعات ولكنه لم يشأ ذلك لأن الشبهة تتبع العلم ، والعلم يتبع للعلوم ، والمعلوم ليس يكون إلا على النظام الأكل ، والنظام الأكل لا يبدأ أن يكمل فيه جميع الأحوال كما كملت أحوال الليل والنهار بالظلام والضياء للتيان النتائج والثمرات ( ولا يزالون مختلفين ) في دياناتهم كما اختلفوا في جميع أطوارهم . وهذا الاختلاف يخلق راحتهم ويزعج نفوسهم ويكون سبب النزاع فيما بينهم . ( إلا من رحم ربك ) من أناس يكون اختلافهم غير داع إلى النزاع ، بل هو كالوفاق حيناً يرتقى نوع الإنسان ويكونون كأسرة واحدة يحب بعضهم بعضا ويكون اختلافهم في جميع أحوالهم ليتكلموا به ولكل منهم عمل خاص ينتفع الجميع به فيكون الاختلاف فيما بينهم كاختلاف البنوة والأبوة والذكورة والأنوثة كل له عمل ينفع به المجموع وتكون جميع أهل الديانات على حال لا يلبس بعضهم بعضا بل يكونون أشبه بأعضاء أسرة واحدة .

ذلك هو العسر الذهبي الذي عبر عنه بأنه ينزل فيه عيسى ابن مريم فتصلح القلوب بالمحبة ويصبح الناس إخوانا على سرر متقابلين في الدنيا . وقد ورد أن دين الإسلام يعم السكونة إذ ذاك . ولما كان الخلاف في جميع الأحوال أمرا طبيعيا أعقبه سبحانه وتعالى بقوله ( ولقد خلقناهم ) أي خلق الناس ( ونمت كلمة ربك ) وهي قوله لللائكة ( لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ) لفصامهم وهدم عن السكال ، فإذا أضهم في النازل التي استأهلوا لها ، كما أخلق الدود في الطين والحيات والمقارب في التراب والحشرات في القاذورات ولقد أكثرت في الدنيا من هذه المخلوقات في تلك الأماكن إلا يفي مكان في العالم معطلا بلا خلق ، ولم أخلق الخلق عبثا بل كلا لحكمة ، فأنا لا أذر الروث والطين للنتن والقاذورات بلا مخلوقات فأكثرت خلقها فهكذا .

إن أكثر النفوس الإنسانية نموت تافسة فأضهما في قاذورات العالم الثاني لأعمال أما علم فتكون معذبة وعذابها بحسب استعدادها كما خلقت الدودة في الروثة ، وكما أن الناس بأنفون من الروث ويقولون : لو خلقنا دودا لتمنينا الموت ولكرهننا الحياة ، والدود محصور مغمور مسكين يعيش كأنه ميت ولا يعلم من الحياة إلا ما عسى جلده فهو خال من السمع والبصر والشم والذوق .

هكذا يكون في الآخرة خلق من الناس بأنف أهل الجنة أن يكونوا معهم لما هم فيه من العذاب بالنار والجحيم فضلا عن خسة الحياة ودناءة للوقف وعذاب الحزى والذلة والخافة والضيق وانحسار القوى وانحباس النفوس .

وإلى هنا قد تم الكلام على الأمم وأحوالها وما استنتج الله منها وعلم نبيه وأتمته ووعظ وذكر وحذر وأندر .

ثم شرع سبحانه يبين للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتمته مقصود هذه القصص وأمثالها ، وأن القصود من هذه الأخبار تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد كل مؤمن يقرأ هذه القصص ، فإن الإنسان إذا علم ما أصاب الصالحين قبله من البأساء والضراء ثم تم البصر لهم في آخر الأمر يثبت قلبه وهكذا صلى الله عليه وسلم لما علم من هذه السورة كما علم من غيرها كيف كانت عاقبة الأنبياء وعاقبة أممهم من الأتباع والكفار تأسى وصبر وثبت قلبه لعله بالعاقبة وهذا قوله تعالى ( وكلا ) وكل نبأ ( نقص عليك ) وقوله ( من أنباء الرسل ) بيان لكل ، وقوله ( ما ثبت به فؤادك ) بدل من « كلا » ( وجاءك في هذه الحق ) أي في هذه السورة ( وموعظة

وه كرى للؤمنين) وثبت قلبه معناه زيادة يقينه ، فإن تكرار الأدلة أثبت للقلب وهكذا توارد القصص للشبهة المنزى في موضوع واحد توجب الاستئناس .

هكذا قراءة للؤمنين لأمثال هذه القصص نورنهم موعظة من العاصي وتذكرهم أحوال الأمم فيقبسون عليها أنفسهم .

ولما كان ماخدم نافع له وللؤمنين أمره أن يخاطب الكافرين قائلا : اعملوا على حالكم وجهتمكم التي أتم عليها ( إنا عاملون ) على مكاتنا وهذا كقوله « لكم دينكم ولي دين » ( وانتظروا ) بآل الدوائر ( إنا منتظرون ) أن ينزل بكم مثل ما نزل بالأمم السابقة كما قصه الله في هذه السورة من الهلاك اللاحق بهم لما كفروا كما كفرتهم .

ثم ختم السورة بالتوحيد وإرجاع الأمور كلها لله تعالى فقال ( والله غيب السموات والأرض ) وحده لا يخفى عليه شيء فيها ( وإليه يرجع الأمر كله ) ومنه أمرك وأمرهم فيبيك ويماقبهم ( فاعبده وتوكل عليه ) أي فمن كان كذلك فهو مستحق لعبادة لاغيره فاعبده وحده وتوكل عليه ، يفتى وتثق به في جميع أمورك فإنه يكفيك كما في قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » ( ومبارك بما نازل عما نعلمون ) أنت وهم وجميع الخلق فهو يحفظ أعمالهم جميعا لا يخفى عليه منها شيء فيجزى المحسن بإحسانه والسيء بإساءته ، والله أعلم . انتهى التفسير اللفظي .

#### لطيفتان

[الأولى] في قوله تعالى « فأما الذين شقوا الخ » .  
[الثانية] ما أهم العلوم التي كان يرعى إليها الأنبياء في هذه السورة وكيف خزنها الله في القرآن للمسلمين في هذا الزمان وكل زمان .

#### اللطيفة الأولى

اعلم أن من علماء الأمة الإسلامية من نظروا في هذه الدنيا ونظامها وحكمة خالقها ورحمته التي وسعت كل شيء ، وأن رحمته سبقت غضبه ، وأن أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم وصلاة للسلم كلها دعوات تسند جميع أصال الخلق إلى الله تعالى .

وهذا كله مما يوقع في النفوس أن خالق هذا العالم عنده رحمة عظيمة فوق رحمة الناس وفوق ما يعرفه الناس .

كيف لا وهو القائل في هذه السورة « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها . وعلم مستقرها ومستودعها » وهو القائل على لسان بعض رسله « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » فالنظر في العالم والنظر في بعض الآيات والأحاديث جعل بعض العلماء يشكر في هذه الآيات ويقول إن العذاب ليس يكون بلا نهاية .

قال الغضيف التلمساني : إذا بلغ الانتقام الناية انقلب رحمة ، وقام للصطفى صلى الله عليه وسلم لجنازة فقالوا إنه يهودي ، فقال أليس لك معها أليست نسا .

قال العلامة زين الدين محمد للدعوة عبد الرؤوف الحدادي الفاهري المعروف بالناوي للتوفي بالقاهرة سنة ١٠٣١ هـ في شرحه على ( قصيدة النفس ) لابن سينا ما نصه :

قاله في الفتوحات للنكية [ هذا أرجى ما يتمسك به أهل الله إذا لم يكونوا من أهل الكشف ولا التعريف الإلهي في شرف النفس الناطقة وأن صاحبها وإن شق بدخول النار فهو كما بشق هنا بأمرض

النفس والملل والمموم ، وأن ذلك كله غير مؤثر في شرفها إذا كانت من العالم الأشرف فقام لها لكونها تصا  
أى لذاتها وهذا يؤذن بتساوي النفوس .

وفي رسالة القشيري عن بعض الصلحاء أنه ذم من رأى نفسه خيرا من فرعون ، وقال وهذه مسألة من  
أعظم المسائل تؤذن بشمول الرحمة وعمومها لكل نفس وإن عمرت النفوس النارين ، ولا بد من عمارة  
النارين كما ورد أن الله سبحانه يعامل النفوس بما يقتضيه شرفها بسبب لا يعلو إلا أهل الله فإنه من الأسرار  
المخصوصة بهم ، فكأن الحد يجمعهم كذلك للقيام بجمعهم لذاتهم إن شاء الله تعالى .

وقال تعالى في الذين شقوا « إن ربك فعال لما يريد » ولم يقل « عطاء غير مجذوذ » كما قال في السعداء  
وقال أيضا « رحمى سبقت غضبي » وقال « ورحمى وسعت كل شئ » .

كل ذلك منه منة فإنه كتب على نفسه الرحمة . قال الناوي إلى هنا انتهى كلام ابن عربي .  
أقول : ولم يقتصر الأمر على الصوفية رحمهم الله بل تعداهم إلى غيرهم .

قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال تعالى « عطاء غير مجذوذ » ولم يخبرنا  
بالذي يشاء لأهل النار .

وروى عن ابن مسعود أنه قال « ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون  
فيها أحقابا » .

وعن أبي هريرة نحوه . وقال للناوي : إنه قد جاء في بعض الآثار ما يدل على خلاص الكل وأن النار تنفى  
وتزول عذابها دون الجنة .

قال ابن تيمية نقل ذلك عن عمر وعن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم .

وأخرج عبد الحميد بن حميد عن عمر بإسنادين رجالهما ثقات « لو لبث أهل النار في النار كمدد رمل  
عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه » وتداوله أئمة غير مقابلين له بالإسكار قال أعنى ابن تيمية وإنما أراد  
جنس أهل النار الذين هم أهلها ، وأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علموا هم وغيرهم أنهم لا يلبثون قدر رمل  
عالج ولا قريبا منه ، ولفظ أهل النار يختص بمن عدا للؤمنين كما يشير إليه عدة أحاديث ولا يناقضه قوله تعالى  
« خابدين فيها - وما هم منها بمخرجين » إلى أن قال « لكن إذا انقضت أجلها ونفيت كما تنفى الدنيا لم يبق نار  
فلم يبق عذاب » قال وورد في عدة طرق عن ابن عمر « وليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها  
أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا » .

وجاء نحوه عن ابن مسعود وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي « جهنم أسرع الدارين عمارا وأسرعهما  
خرابا » ثم إن ابن تيمية رحمه الله أورد قول من يقول إن الإجماع على خلاف ما ذكر ونحوه . ورد هذا  
القول قائلا إنما يظن الإجماع من لا يعرف النزاع . والصلحون جميعا أجمعوا أن عذاب جهنم دائم لا ينقطع ،  
هذا قام عليه الإجماع ، ولكن إذا بطلت جهنم بالكلية لا يقال إنهم خرجوا من جهنم ، بل يقال إنها فنيت  
فهم يمدبون ما دامت باقية ، فإذا خربت فأين يمدبون ؟ وفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله  
وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس .

هذا ما خص ما قاله للناوي ، ثم قال : حكى ذلك كله ابن القيم وأطنب فيه ودفع قوادحه في نحو كراسة .  
ثم قال والذي نتفده ما عليه هداة هذه الأمة وجمهور الأئمة أن النار لا تنفى ولا يزول عذابها ، قال ووافق  
ابن القيم على نحو ما زعمه جمع من الصوفية كما تقدم اه .

هذا وإنما أرى هذه الآراء المختلفة في هذا اللقمة لتعلم مقدار ما وصل إليه علماؤنا والمحققون منهم  
في هذا اللقمة والله يتولى هدايتنا .

## اللطيفة الثانية

اعلم أن هذه السورة أشبه بشجرة الجوز المقسمة إلى بيوت كل واحد منها فيه اللب الشهي النافع للأجسام للقدى لنوع الإنسان ، وإنما شبهتها بتلك النمرة لأن الجوز له قشر يحيط بلبه وفي داخله بيوت منظمة محتوية على اللب المطلوب للآكلين ، هكذا هذه السورة فيها القصص الدالة على نجات الطائفتين وهلاك الماصين . وللقصود من ذلك كله العلم بنظام العالم وجماله وبدائع حكته وغرائب خلقته ، ولعلك تقول يا للعجب ! كما وصلنا إلى آية أو قرأنا حكمة أرجعنا إلى الحكم الكونية والغرائب الخلفية .

فيا ليت شعري ما لقصة نوح في سفينه ، وهود في قبيله ، وصالح ونافه ، وإبراهيم وامرأته ، ولوط وقريته ، وشعيب وجماعته ، وموسى ونبوته ؟ .

فأين قصص هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأفلاك في دوراتها والأصمك في بحارها والنباتات في حقولها والحيوانات في فلواتها ؟ والذى يخيل لي أنك مغرم بالمعجائب الكونية تدور حولها كما صنعت ساعة أو برقت لك بارقة .

إذا قلت هذا أيها السكي ، أقول لك لا تسجل وانظر ما أقول : ابتداء الله السورة بأن الكتاب محكم الآيات مفصل كما تفصل الفرايد وهو حكيم خبير . وأفاد أن علمه يتم ما بطن وما ظهر ، وأن عليه رزق جميع الدواب وهو العالم بمستقرها ومستودعها وأن ذلك عنده في كتاب وقد أسس ملكه جميعه على العلم ، فلا دابة في الأرض من طير يطير وبهيمة تسير وممك يجرى وحشرة تسرى إلا وهو قائم بنظامه عالم بما يحتاج إليه رازق له منظم لأعضائه وحياته معطيه رزقه ، فإذا ليس لداية في الأرض إلا خالها ومنها الإنسان وهو أشرف المخلوقات ، فهذا أساس هذه السورة .

ألا ترى إلى قول هود « إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بماصيتها » :  
انظر كيف استدلل بجم الدواب وأن الله قابض على ناصيتها عالم بمستقرها ومستودعها ؟ أليس هذا ترديدا لما في أول السورة دلالة على أنها مؤسسة على هذا الأساس مبنية على هذا للبدأ قائمة على قرار مكين من علم شامل وعمل دائم وحكمة عالية ؟ .

ما هو ذ الذي هود يقول « إني توكلت على الله الخ » وما برهانه إلا ما جاء في أول السورة وهو جوهرها ومقصودها ، فيقول إن الله يمسك بنواصي الدواب ويعلم مستقرها ومستودعها فكيف أكون نبيا وأخاف من المخلوقات والله آخذ بماصيتي ، وربى على صراط مستقيم لا يبقى إلا ما كان أنفع في الوجود ، ولا شك أن العلم أتقى على المالمين والجهل أهدأ للمخلوقين ، وأما قد أرسلت بالعلم فهل يتخذ الله للصالحين وينصر الجاهلين ؟ كلامك كلا !

وانظر إلى نوح كيف يقول الله له « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » وذلك للبانة في الحفظ والرعاية كأنه يراه بيون كثيرة على سبيل التمثيل حتى لا يلحقه ضم فهو للنبي له ، وهذا كقوله في للبدأ « ويعلم مستقرها ومستودعها » .

وقال للملائكة لوط « إنا أرسل ربك لن يصلوا إليك » وتمد نجي الله شعيبا وبقية الأنبياء ، فانظر كيف رجع أمر الأنبياء جميعا إلى مراعاة الله لكل مادب على الأرض من الإنسان والحيوان وحفظه لها وأخذ الأنبياء برؤدود ذلك للمنى حتى قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في آخر السورة ما جمع ذلك كله فقال « وفيه غيب السموات والأرض » وهذا كالذى ذكر في الأساس من عموم علم الله ، وقوله « وتوكل عليه » هو عين ما قاله جميع الأنبياء لرسولهم ، وقوله « وما ربك بخائل عما تعملون » هو كقوله تعالى « ويعلم مستقرها ومستودعها » .



فأول الأمر وآخره في هذه السورة أن الله محيط بعالم الحيوان وغيره قائم بتدبيره وأن الأنبياء جميعا قد حققوا هذه الفكرة وعرفوها بما أوحى إليهم فلا يزالون بأعدائهم وهم متوكلون على الله ، والآية التي ختمت السورة أتت بمجمل ما جاء فيها ، هذا هو مقصود السورة ، وهذا هو الب .

واعلم أن إرسال الأنبياء والقصص الواردة في الكتب السماوية والأمر والنهي وغيرها ليس يقصد منها إلا ترقية الإنسان وإخراجه من ظلمات الجهالة بالعرفان وكل ماورد من علوم الأخلاق والآداب لم يقصد منها إلا ترقية العقول بالعلوم .

وهنا قد وصلنا إلى المقصود فنقول : كيف يعرف الإنسان أن الله أخذ بناصية كل دابة وأنه يعلم مستورها ومستودعها إلا بدراسة علم الحيوان ؟ .

بالحقيقة كيف يعرف الناس أن الله أخذ بناصيتها إلا بالدراسة التامة ؟ وما مثل الناس في أذعائهم أنهم يعرفون علم الحيران وهم لم يدرسوه إلا كمثل الجمال والبقر إذ زعم أنها تعرف الحيوان المحيط بها من الجمال ، قية اللهب . أو كمثل من يظن أنه عالم بالشمس والقمر والكواكب وهو لم يعرف إلا صورها الظاهرة ولم يدرس من علم الفلك درسا واحدا ، فكيف في الأرض من منورين ، وكف في بلاد الله من غافلين ، وكف من صم بكفهم فهم لا يحفلون ؟ .

أنزل الله سورة هود وبنى حجج الأنبياء على التوكل عليه لأنه القادر العالم الخالق العليم بأحوال الحيوان ، فعلى المسلمين دراسة علم الحيوان كما يدرسون علم الفقه كلاهما فرض كفاية .

فلأذكر لك أيها الذكي في هذا المقام عشرين عجيبة من عجائب الحيوان بعد ما قرأته في هذا التفسير وبعد ما بينته في هذه السورة نفسها لتكون أسلاك وجمالا وكالا ولتقبل بقلبك على دراسة العجائب الإلهية ولتكون من الوقيين .

#### خزائن الجواهر في سورة هود

اعلم أن هذه العجائب السكونية الحيوانية الآتية وغيرها من جواهر مخزونة في سورة هود مقصودة لنفسها ، فلعمرك ليس يراد من الإنسان إلا كماله الجسمي وكماله العقلي والأخير أرقاها مقاما ، وإن يتم ذلك إلا بنظام هذا العالم ، ومن نظامه الجواهر التي خزنها الله في سورة هود ، نعم خزنها للأجيال المقبلة وبعض الذين سبقوا من أولى العلم والحكمة الذين هم لله شاكرون « وقليل من عبادي الشكور » .

وأكثر الناس لا يشكرون الله لأنهم جهلاء بالحقائق مكثفون بالظواهر فلا يعرفون من سورة هود مثلا إلا التاريخ وتطبيقه والنحو وإعرابه والبيان ومجازه والمعاني وحقايقه والبديع وجنسه وتلهون بالبلاغة ، وأن القرآن معجز العالمين تارة بعشر سور ، وتارة بسورة واحدة من مثله ، كل ذلك اكتفى به أكثر الناس عن الحقائق وضلوا طريق الحقائق وما وصلوا إلى ما هم له طالبون .

ولعمرك لم يمتد أمثال هؤلاء أول الطريق ، ولا قاموا للدين بأدنى نصيب ، وما نالوا من ذلك كله إلا تصديق النبوة ولكنه تصديق يتبعه الأعمال والعلوم .

أما الأعمال فكالأخلاق التي تؤخذ من هذه القصص .

وأما العلوم فهناك هذه العشرين عجيبة تذكرك وبشرى للعاملين الذين درسوا هذه الكائنات وأحكواها وقهوا بعض أسرار هذا السكون وأدركوها ، وهم طوائف من أم شق وأزمان مختلفة ، اختلفت دياناتهم وشرائعهم وبلدانهم وأزمانهم وهم في الحقيقة متحدون لأن علمهم الذي حصلوه هو نظام هذا الوجود وعجائب هذا الملك مخدما عشرين عجيبة عسى أن تكون من أولئك الذين قال الله فيهم « إلا من رحم ربك » فإنهم لما أدركوا عجائب صنع الله لم يختلفوا فيها بل أخذوا وعرفوا بواطن الأمور ولم تلههم القشور .

## العجبية الأولى : لغات الحيوان

من غرائب أمر الحيوان أن لأنواعه طرقاً لتأدية المراد كما أبان أهل العلم والاختبار وقد شاهدوه في أدنى الحيوان كالنمل والنحل وقالوا إن النمل يفهم أمثاله بطريقة اللس بالقرون ، وفي تلك القرون من قوة اللس ما ليس للإنسان .

ويحكى أن (فرنسكلين) كانت عنده جرة من القند (عسل قصب السكر) ازدحم النمل فيها فظنى (فرنسكلين) على قنده فعلق الجرة بحبل من السقف فرأى نملة خرجت من الجرة وصعدت على الحبل وبعد نصف ساعة رأى ما لا يحصى من النمل نازلاً على الحبل إلى الجرة وكانت النملة حين تشبع تخرج تاركة مكانها لتغيرها ، وظل النمل بين ساعد وهابط إلى أن فرغت الجرة من القند اه .

وعلى ذلك تقول إن النملة أخبرت النمل حتى جاء إلى الجرة ، وليس يلزم من قولنا إن للنمل لغة أن تكون لغتها كلفاتها بل التصود أن يفهم عنها ما يلزمها ، فالمراد باللغة هنا كل ما أفهم للراد ، ومن هذا تفهم « ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها ومستودعها » ومن هذا وأمثاله فليفهم القرآن ، وبهذا وأمثاله فليرتق للسلون .

## العجبية الثانية : نظار النمل

قال بعض علماء العصر الحاضر : إن رؤساء العمل في النمل تضرب بقرونها حثا للعملة فتسرع وتبذل كل مجهود في العمل .

ولقد شاهد ذلك في حرب النمل فترى أنه عند التقاء الجيشين يضرب أمراء الجيش الأرض بقرونها فتلتحم الحرب ويشتد الكرب ويعظم المحول وعمى الوطيس وتقوم الحرب على قدم وساق ، وتفتك الأبطال بالأبطال ويكثر النزال ويحمل الجحفل على الجحفل وتحتجب الجنود في ظلام القسطل وتظل نار الحرب تظلى إلى أن يتم النصر للقادرين وهم الفاعلون ، ويجتمع النمل على مدب كتنصف محيط دائرة وينطح المنذرين (بفتح الدال) .

وبهذا تفهم « ومامن دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب » أي اللوح المحفوظ « من شيء » .

## العجبية الثالثة : لغة النحل ولغة النمل متقاربتان

يقال إن لغة النحل ولغة النمل متقاربتان كالإنجليزية والفرنسية ، وذلك أن هؤلاء العلماء جدوا حتى سموا الأصوات منهما بطرق طبيعية ووجدوا لصوتها ولتتواعتها متشابهة .

## العجبية الرابعة : حكاية نملة

استيقظت نملة صباحاً نحو الساعة السادسة من تلقاء نفسها بلا منبه فصلت وجهها وأصلحت من شأنها بالمفرشة وللشط الذين وهبا لها من الله بحسب جيلتها وهما في طرف قائمتها القدمتين ثم نظفت القاعتين بضمها وخرجت في سرب من أخوانها ماشيات في بعض دهاليز المنزل نحو غرفة الملك فالتقت بأسراب أخرى سائرة إلى أشغال أخرى ، وبينما هن سائرات وقفت هذه النملة فترعت قشة عنقت بيدن إحدى أخواتها في أثناء الطريق كما يلتقط الرجل خيطاً علق برداء صديقه ، فلما فرغت من ذلك أسرعت للحاق بسائر الرفاق فاعترضتها في أثناء الطريق تنف من القشي فنظفت الطريق منها وهي مع ذلك تنتم الفرص للبحث على ما قد تعثر عليه من أطراف الجذور أو قطع الأوراق أو غير ذلك لتدخرها لطعامها اه .

## العجبية الخامسة : الزنايب وتتاسلها

ومن عجيب أن للسلبين في أمحاء الكرة الأرضية إلا قليلاً ينظرون الزنايب السوداء والصفراء والحمر وهم عن

آياتها معرضون ويطردونها عن النحل وهم يملها جاهلون ، تبارك الله عز وجل ، فانظر أيها الذكي كيف تبيض الأنتى وكيف يخرج الدود ويأكل ما تقتنسه الأم له وكيف تصبح الدودة بعد ذلك (شرفيلجة) وكيف تصير بعد ذلك زنبورا كاملا يطير بجناحين ، إن الأنتى قبل أن تبيض بيضا الذي لا يحتوي على غذاء لصغارها كما يحتوي بيض الدجاج وبيض الأوز تذهب فتقتنص بعض الموائم كالخنافس والذباب والفراش والبعوض أو الديدان أو السناكب ، وتختلف القرية باختلاف أنواع الزناير ، فإن أنت الأم بالقرية ميتة فيها ونعمت وإن كانت حية أفرغت عليها من إرتها مما يسكرها ويخدرها فتعطل حركتها وهي محبوسة في نفقها البني ليضا ثم تلتقي بيضا على تلك القرية وتسد القفير سدا محكما ، وبعد يومين أو ثلاث يفقس البيض وتخرج ديدان تتنذى من جسم الحشرة التي هي عليها حتى تنفض اللدة الدودية ثم تصير شرنقة ثم تصير طائرا تطير وما ذلك الطير إلا الزنبور .

فانظر يارعاك الله كيف علمت أنتى الزناير بلا معلم ولا كتاب ولا نبي أرسل إليها ولا دراسة ولا تجربة أن بيضا الذي ستلقه لاقوت فيه لأبنائها ، وكيف ألهمت أن تتعوض بدله خنافس أو ديدانا أو ذبابا ؟ وكيف أعطيت مادة ممية لتخدر بها تلك القرية ، وكيف ألهمت استعمالها وكيف كانت تلك المادة السمية لا تقتل الحشرات لثلاثين جسما ولا تبقى قوية لثلاثهرب أو تسكر الحركات ، بل بقيت بين بين حتى يحصل للقصور للدود الذي يخرج من البيض ، وكيف تأكل منه الذرية وهي في عيشة راضية مرضية ، فانظر هذه الحكم الستة في الزناير التي تعيش في سقوفنا وحيطاننا ونحن غافلون، والله يقول «وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون» .

#### العجيبه السادسة : زنبور يلدع دودة

لبعض الزناير طريقة عجيبه في قتل الحشرات التي أعدها لصغارها فإنه يختار دودة لها نحو (١٣) حلقة ومعلوم أن لكل حلقة مركزا عصبيا ولا بد من لهما في جميع هذه المراكز وأهمها ما بين الحلقة الثالثة والرابعة فإنه في الدود أشبه بالخيخ في الإنسان ، فإن هذا الخيخ إذا أصيب مات الإنسان حالا ، يعلم ذلك الزنبور علما حقا إجماليا بالقرية فيأتي إلى الدودة ويقانلها وتدافعه مرات كثيرة حتى إذا أخذت تضعف عن المقاومة رفعها إلى أعلى وطرحها على الأرض ثم لسعها فيما بين الحلقة الثالثة والرابعة فتختر صريعة مخدرة ثم يبقى الزنبور ساكنا كما حل به من التعب حتى يستعيد قوته فينقض عليها ثانية وهي خاشعة فيلسعها فيما بين الحلقة الثالثة والثانية ثم فيما بين الحلقة الثانية والأولى ثم يطير حولها مدة ويعود إليها ويلسعها فيما بقي من الخلق فتخشع خشوعا تاما مخدرة ساكنة وتبقى حية على الأغلب لتسكون غذاء لصغار الأولاد .

#### العجيبه السابعة : الحشرات الصائده بلونها المشبه الزهرة

كل فلاح في بلادنا المصرية وغيرها رأى حشرة تطير بين الأشجار يسميها الناس في بلادنا [فرس النبي] ويسميها الترنسفالين والإفرنج [الجنذب المصلي] ويسميها غيرهم [فرس الشيطان] وهذه الدابة قادرة على الاحتيال بما يجير الألباب ، فهي تتلون بلون ماتع عليه ، فهي خضراء على الورق الأخضر ، حمراء على الزهر الأحمر كثيرة الألوان على الزهر للتلون ، وربما رأيتها على غصن من الأغصان أشبه بزهرة من الزهرات بحيث لا يفرق الناس ولا الحشرات ما بينها وبين زهرات تلك الشجرة حتى إذا جاءت ذبابة بقرها انقضت عليها فقتلتها .

ومن عجيب أمرها أن حيلتها تتم بكاملها ، فإذا تشكلت بشكل الزهرة وهي على النصن صارت من الشجرة في جميع أطوارها ، فحركاتها الطبيعية معدومة فهي أبدا ساكنة ، وإذا هبت الرياح والمواسف

والزنازع تحركت كأنها زهرة تلمب بها الرياح كما تلمب بغيرها ، وهذا يفهم من قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وقوله في هذه السورة « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » ولقد تقدم قريبا في هذه السورة ما جاء في العلم الحديث أن ألوان الحيوان إنما جاءت لحمايته ولبقاء حياته .

#### العجيب الثامنة : الجباب

وتعريف الجباب أنه ذباب يطير في الليل له شعاع في ذنبه كالسراج وهذا النوع في العلم الحديث ظهر منه أنواع كثيرة تشترك كلها في الإضاءة بأشعة تشع من بؤرة في ذنبه وليس لها مظهر إلا بالليل كالقمر والنجوم .

وقال العلامة (شوز) إن للذكر منها بؤرتين : واحدة منهما وراء الأخرى وكل منهما مركبة من [طبقتين] عليا تشع منها النور، وسفلى يظن أنها تمسكها إلى ماحول الحشرة ، ويقال إن الأنثى لا تضيء وقد وجدت الأنثى في إيطاليا كالدكر في الإضاءة .

وأعظم الجباب ما وجدت في جزائر الهند الغربية بأمريكا الوسطى يسمونها [ ذبابة الصباح ] لأنها تثير كالصباح ، وأهل تلك الجزائر في كوبا وجامليكا وسان دومينكو يستخدمونها كالصباح ، والسياح يستخدمون هذه الحشرة لإضاءة السبل فيطلقون واحدة أو اثنتين في أحذيتهم فتضيء الطريق أمامهم وهي كما تكون هدى للمسافرين جعلها النساء زينة لهن وجمالا في كوبا يفرسها في شعورهن بين الضفائر بدل الخلي من ألماس وعقيق وذهب ، وهذه تكسب نساء ( كوبا ) جمالا وبهجة وحسنا يفوق الجواهر اللدنية والأحجار الثمينة .

وأهل تلك البلاد ينتفعون بهذه الحشرة في الاستضاءة ليلا للخياطة ، فلو رأيت ثم رأيت جماعة من هؤلاء وقد عاقوا قديلا في سقف البيت بينهم وليس فيه إلا تلك الجباب والضوء منتور عليهم وهم يخيطون وهم فرحون بلا كهرباء ولا نار ولكن بالجباب السارة لناظرين . وهذا من سرّ قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » .

#### العجيب التاسعة : صاحب السفينة

إن في الحيوان لعجبا وأمى عجب ، فبينما تراه ذاققرات كالإنسان وذوات الأربع والسنك والطيور وأكثر الحيوانات والزحافات ترى منه ما ليس له فقرات ولا عظم له البتة ، وهذه الحيوانات تسمى بالحيوانات الرخوة .

فانظر كيف كان العمود الفقري والمظام عليها مدار القوة والحركة ، فأما هنا فقد انعكس الوضع وأعطى بدلا من الهيكل العظمي كساء خارجيا تتصل به العضلات للحركات الانتقالية ، وهذا الكساء الخارجى الذى قام مقام العمود الفقري والمظام إما أن يكون جلديا وإما أن يكون كالنضروف ، وإما أن يكون كالمظام وهو عبارة عن كساء كلسى ، وإما أن يكون أصلب من العظم وهو الصدف ، وهذه الحيوانات تسمى ذوات الأصداف ، ومن أنواعها :

(١) القوقع الذى منه الخازون للمروف في البحار ، ومنه الأبواق الكبيرة المائلة ، وهذا الكساء إما مستدير كالصحن وهو طبقة أو طبقتان مثل (أم الخلول) و (الكندوفلى) و (البطلينوس) وقد يكون هرمى الشكل كالأبواق وقد يكون حلزونيا وقد يكون مستطيلا كالأنبوب .

والذى يهمنا في هنا للقيام أن نذكر هذا الحيوان القذى نحن بسدده فإنه من الحيوانات ذوات الصدف والصدف هنا في هذا الحيوان كالسفينه يستخدمها كما نستخدمها نحن ، إنه يعم بها فوق الماء في بحر الهند

خصوصا بحوار (جزيرة ملقا) وقد أعطى ثمانية أصابع ، منها اثنان يحملهما كشرع السفينة يتسرها في الهواء وهما تسير السفينة كما يريد وهو يحولهما نحو الريح كما يحب ، وأما الأصابع الست الباقية فإنها جعلت كالمجاديف يرسلها على الجانبين وبها تسير السفينة بقوة التحريك ويسيرها الشراعيان بقوة الهواء الضاغط عليهما وهما منشوران غشائيان ، فالحب لسفينة حقيقية لم تلتصق بحجم الحيوان لها شراعيان غشائيان كأنهما من نسج القطن أو الكتان والمجاديف تحيط بها والنوق يمش فيها ، ومتى طرأ عليه خطر أو أحسن بأى مؤذ قبض المجاديف والشراعيين واختفى في الصدفة وغاص في قاع البحر ونجا من الخطر الدائم « وربك مخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » .

#### المعجبة العاشرة : سمك يطير

إن من السمك ما يمش في مياه الولايات المتحدة والبرازيل وفي البحر الأحمر يبلغ نحو شهر ، ألوانه جميلة زاهية سماوية وفضية ، وله زعانف بها يطير في الجوق أسرابا مسافات طويلة ثم يحوض في الماء ويعود فيطير . ومن عجب أن هذه للوهبة المعجبة والنعمة العظيمة وهي تمتع بالهواء في جوف السماء وسعادته بولوج ماء البحر قد قوبلت بما يناسبها من الهالك ، فهو يكون فريسة السمك الكبير في البحر إذا غطس في الماء وتصيده طيور البحر إذا علا إلى الجو ، وانظر قوله تعالى « ووضع لليزان . ألا تطفون في اليزان » فقد وزنت النعمة بالنعمة ليعدل العمل ويقوم الأمر بالقسط ، فإذا أعطى السمك الطيار نعمتين فقد سلطت عليه نعمتان « وماربك بظلام بعيد » وإنما يضع للوازين القسط .

#### المعجبة الحادية عشرة

الحيات التي لاسم لها أكثر من ذوات السم ، والثعبان الذي لاسم له ولكنه يتلع الإنسان قرأت في قصة (روبنسن) السويسرى للترجم بقلم الرحوم صديق صالح بك حمدى حماد ، قال إن الحيات السامة تبلغ نحو مائة صنف من الحيات ، أما الحيوانات التي ليست بسامة فهي تقرب من أربعمائة نوع ، ثم قال إن الأصناف السامة تمش عادة في الأحراش الكثيفة والستنقعات الدائمة والم التي فيها لا يكون إلا من تعاطها الحشائش السامة والأبغرة الحبيثة والروائح الكريهة في الهواء الفاسد في تلك الستنقعات وكذلك ما ينبت من الأراضي الرطبة التي لم تزرع فذلك كله يحدث السم في تلك الحيات ، ومتى أصلحت الأرض التي تأوى إليها تلك الهوام وزرعت وعمرت بالمساكن والقرى اختفت منها تلك الأنواع ، ومن أمم الحيات التي لاسم لها (البوا) وهو عظيم الجثة يختطف الرجل والحمار كما اتفق لروبنسن أن حماره كما في قصة الحياية اختطفه ذلك الثعبان العظيم وابتلعه من قبل رجله حتى إذا انتهى إلى رقبته ضربه (روبنسن) وأرداه بالبندقية فخر صريحا .

وأقول : إن للسافرين الذين يحبون الأقطار التي يسكنها يرفون طبعه وأنه يقتنص الإنسان من جهة رجله ، فإذا نام الرجل منهم وسع ما بين رجله ، فإذا جاء ذلك الثعبان وابتلع رجل النائم استيقظ حالا وسلى مديته وقطع بها حلقومه فيموت حالا « إن ربك هو القوى العزيز » .

#### المعجبة الثانية عشرة : الصفور الحياط

مالي أرى أمة الإسلام قد نامت نومة عميقة ؟ لماذا لا يدري للسلمون العلوم التي بها أمر الله ؟ يا هجا كيف يمتنى الإنجليز في متحفهم البريطانى بأنواع المش الذي يحيطه ذلك الصفور ؟ ليستيقظ عقل الشبان لما في هذا العالم من الجمال ، وأمة الإسلام نائمة عاكفة على الجهالة في النوم العميق ، إن نوعا من المصافير التي أنعم عليها بطول ذبولها تحيط أعشاشها خياطة يحار فيها الناس بلا إبرة ولا خيط ولا آلة خائطة ،

فيعد المصفور إلى ورقة شكلها أشبه بالرمح وهي في غصنها ثابتة ويأتي المصفور بورقة أخرى أصغر منها ويحيطها عليها بقطع من عيدان دقيقة على نسق عجيب ، فإذا فرغ المصفور من الحياطة عمد إلى القطن غشاه به وذلك كله قبيل وضع الأثني فتضع عليه بيضا ومتى قفس عاشت الفراخ أيامها الأولى على ذلك الفراش الناعم في بيت معلق في الهواء يتحرك بأخف النسيم .

#### العجبية الثالثة عشرة : المصفور النساج

إن من المصافير نوعا صنع عشه كهيئة الجراب قد نسجه من قطع القش وأقامه بين الأعصان وهو كروى أو إهليلجى أو مخروطى وله فتحة يدخل منها المصفور إلى أفراخه ، وفي الجدار من دقة الصنع وحسن الصورة العملية ما يدهش أولى الألباب .

#### العجبية الرابعة عشرة

المصفور الذى يبنى بيته ويصنع له بابا يقفله عند الحاجة فهو أرقى من بعض التوحشين

والمصفور الذى يحبس زوجته

إن هذا المصفور يبنى عشه في أواسط أفريقيا بفتح باب عشه ويقفله متى أراد ، وقد رأى العلماء من الناس من لا يصنعون لمنازلهم أبوابا .

وذكر العلامة (جبرون) في كتابه للسمى [طيور الهند] أن بعض المصافير إذا آن زمن التفريخ استعدت له كما يستعد الناس زمن الحمل ، فترى النساء يحضرن اللقائف قبل الوضع وترى اللبن يتقاطر إلى ندى المرأة شيئا فشيئا ، فهذا النوع إذ ذاك يحبس ذكره أثناء في عشاها ويقفل عليها بابا من الطين وفيه ثقب لا يسع إلا متقارها لتلتقط به الطعام وليدخل منه الهواء ، أما الأثني فإنها لا تأكل إلا ما يحضره لها الذكر فتلتقطه بمقارها ، والمصافير في هذا أشبه ببعض الناس إذ يتجنبون المرأة أيام نفاسها ، وهذه الأثني لا تزال محبوسة حتى يتم الإفراخ وبعد ذلك يتعاون الزوجان على كسر ذلك السجن .

#### العجبية الخامسة عشرة : المصفور الذى يصنع عشا كالجب

ذكر العلماء سونهم الرحالة (سوزنات) الرحالة النهر-طيرا يجعل عشه كالتنينية الكبيرة أو كالجرة ويتخذ له مكانا في داخله عند مدخله ليكون حارسا لها وحافظا لأولادها وذلك لأن الأثني إذا آن زمن وضع البيض اختفت في عشاها لا تخرج منه حتى يتم التفريخ .

فياجها نوعان من المصافير اتفقا أن أثني كل منهما تبقى محصورة بطبعها جائعة على بيضاها وأحد الذكرين يحميها بأن يسد عليها بالطين والآخر يحميها بأن يحرسها في باب عشاها حتى لا يفتاجتها خطر ، وهذان النوعان من المصافير أشبه أولهما الناس حين يتخذون الحصون ردها يتقون بها الخطرات ، والثاني أشبه الناس حين يشحون حصونهم ويوقفون جنودهم وهم شاكو السلاح .

ومن العجيب أن النوع للثاني الذى نحن بصدد الكلام عليه إذا أراد الزوجان سياحة أو خروجا لفرض ، ضرب الذكر بجناحيه باب العش فينطبق على مافيه من الفراخ حتى يرجعا وهما آمنان على الأفراخ . فانظر كيف قام الصنف الثاني بالطريقتين ، فإحداها حين وجود أثنائه ، وتانيتهما عند خروجهما من للسكان فيجعل العش حصنا للذرية حتى يرجعا إلى السكان .

#### العجبية السادسة عشرة : كيف تعيش جماعات هذا النوع من المصافير

إن جماعات هذه المصافير تعيش أسرابا وتكون أعشاشها مدينة عامرة حول جنج شجرة ضخمة ، وقد يجتمع حول ذلك الجنج نحو (٣٠٠) عش صغير ، وقد نقل بعض العلماء عشا من هذه من أفريقيا

وقد حملها بضمة رجال وثقلت في مركبة خاصة في سكة الحديد ، ومن نظر إليها من بعد خالها سقوطا معلقة  
بمذوع الشجر والمصافير تلعب فوقها .

#### اللطيفة السادسة عشرة : العنقاء

هل العنقاء موجودة ؟ كلا . هذا هو الرأي المعروف في العالم الإنساني ولكن الذي ظهر وتحقق الآن  
أن العالم الأرضي كان فيه حيوانات كبيرة من سائر الأنواع ثم انقرضت ، فمنها (الموت) وهو القيل العظيم  
الجلية لم يبق إلا آثاره ، وقد عثر الأستاذ (أوين) في زييلاندة الجديدة على عظام من طيور ونقلها إلى كلية  
الجراحة في لندن فوجدوا فيها هيكل عظم لطائر كبير ارتفاعه عشرة أمتار ، وأدق عظامه وأصغرها لا ينقص  
عن غذ الإنسان القوي وهذا الحيوان يسمى (الدينورنيس) وقد انقرض من أجل غير بعيد ، وسكان  
زييلاندا يتناقفون خبره فيما بينهم ، فأى مانع يمنع أن تكون العنقاء قد انقرضت من بلاد العرب وبقى الناس  
يتناقفون أخبارها وأصبحت خرافة وليس ينقص تحقيقها إلا العثور على بقايا عظامها كما عثر على طير زييلاندا  
وياليت شمري أمة عظيمة للعنقاء ، وأى غرابة فيها بعد ما تبين أن هناك طيوراً هائلة بقيت آثارها الآن وهي  
أعظم من العنقاء ، وأن هناك في متحف باريس بيضة لطائر منقرض يسمى (ايورنيس) كان في مداغسكار  
وحجم هذه البيضة يزيد على ستة أضعاف بيضة النعام الكبرى وهي تساوي (١٢٠٠٠) بيضة من بيض الطيور  
الصغيرة ونحانة قشرتها تساوي مليمترين بحيث لا تنكسر إلا بالطرفة ، فعلى ذلك تكون قوة منسر فرخ  
هذا الطائر عند خروجه من البيضة كقوة للطرفة حتى يتيسر له الخروج من البيضة بمنقاره .

إذا سمعنا القزويني يقول: العنقاء أعظم الطير جنة وأكبرها خلقة تخطب القيل كما تخطب الحدأة الفأر  
لم يكن في ذلك بعد إلا أنه مبالغ فيه ويكون ذلك حيوانا انقرض أشبه بما ظهر اليوم في العالم كما تقدم .  
ويقول علماء طبقات الأرض إنها كانت في غابر الدهور أوفر حرارة وأقوى حيوانات ، وكان نباتها وحيوانها  
أعظم جدا من النبات والحيوان اليوم ، وكما مرت عليها دهور صغرت حيواناتها ، ويقول علماء الأرواح:  
إن الأرضين التي حول الشمس مثل أرضنا تكون الأجسام فيها أعظم في أول أمرها ، فإذا جاء دور انحلالها  
أخذت المخلوقات التي فيها تنسر أجسامها ولكن عقول العقلاء فيها تقرب من عالم الأرواح وتكون  
أكثر صفاً وأجل أخلاقاً وأحسن علماً « والله يعلم وأتم لاتعلمون »

#### المعجبة السابعة عشرة : الحرباء

هذا الحيوان ودبع جبان يعيش في الأقاليم الحارة مثل أفريقيا وآسيا وأمريكا وهو من رتبة الورل  
رأسه كبير بالنظر إلى جسمه وظهره ذو أسنان وذنبه ولسانه طويلان ، وطول لسانه يساوي طول بدنه ،  
وفي هذا الحيوان ثلاث عجائب أصلية: لسانه ، وتغير ألوانه ، وطول أمانه وصبره . أما لسانه فهو عدة حربه  
يقوم مقام للدافع والأساطيل والجيش لفتح المدن لقصد تحصيل الغذاء .

لعمري لم يحارب الناس ولم يجمعوا الجيوش إلا لصد عدو أو جرم منم ، وكل ذلك لمقصد الحياة ،  
فهذا الحيوان إذا جثم على غصن يوقع في وهمك أنه مائت ، ذلك لأنه يبقى زمنا طويلا لاحرك به وليس له  
رائد إلا عينا ، يقلبها ليراقب حشرة طائرة ، ومتى مرت به فما هو إلا كالحب البصر حتى يختطفها به ويبتلعها  
ويتغذى بها . وذلك أن لسان هذا الحيوان مكسوف في آخره بمادة لزجة متى لامست حشرة التصقت بها  
بسبب تلك اللزجة ، ولهذا الحيوان أربع أرجل لكل رجل خمس أصابع ، وهذه الأصابع حزمتان  
مقابلتان ، وهذه الأرجل وأصابعها يتشبث بالأغصان ، وإذا انتقل فإنما يكون ذلك يبطه وحفر ، فلسانه  
وصبره هما عدة لاجتلاب الغذاء ، أما عدته لدفع الأعداء فهو تغير ألوانه ، إن لون هذا الحيوان يتغير بما

لما يحيط به وقد قالوا إنه يغير لونه كيفما أراد في أى وقت شاء وذلك ليشارك ما يحيط به من المخلوقات ، فإن كان بجانب شجرة صار أخضر مشاكلة لها ، ذلك ليكون بأمن من مفاجأة العدو الغير ، فلولا اللون وتغيره لأصبح فريسة الحيوانات الفانصة وكان ذلك مغزعا للحشرات فلا تقترب منه ، وهذا الحيوان إذا أخذه الإنسان باليد صار أبرش واكد لونه وظهر في جسمه بقع سود وحمرة وما بينهما ، وإذا غضب اشتدت سمرة حتى يصير أسود اللون ، وقد تمثّلوا في الحزم بالحرباء ومن أمثالهم أيضا [أصرد من عين الحرباء] أى أبرد يضرب لمن أسابه برد شديد ، لأن العرب تعتقد أن عين الحرباء تدور مع الشمس ويستقبلها حينه ليستدفى بها ، ولذلك شبه ابن الرومي الرقيب بالحرباء ، قال :

ما بالها حسنت وإن رقيها أبدا فييح قبح الرقبا

ماذا إلا أنها شمس الضحى أبدا يكون رقيها الحرباء

فانظر كيف كان الصبر والأناة وسكون الحركات سببا لاقتراب الحشرات منه ، وكيف طال لسانه حتى يختطفها ، وكيف انتهى بمادة لزجة فالتصقت بها الحشرات ؟ وكيف تنفخ في أوائها ليشارك ما حوله دفعا للدمات وطلبا للخيرات فأقرأ « وما كنا عن الخلق غافلين » وأقرأ « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وأقرأ « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » فهذه هي الهداية ، وهذا هو قوله تعالى « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فأقرأ القرآن فى هذه العجائب ولا تكن من الغافلين النائمين .

العجبية الثامنة عشرة ، من أهم سلاح بعض الحيوان الجلود اللينة .

إن لكل حيوان سلاحا ؛ فالعيلة بالخرطوم ، والإنسان بالعقل والسلاح للشهور ، والوحوش بالأنياب ، والسباع بالبرائن ، والفيضان ونحوها بالعدو ، والطيور بالتحليق فى الجو ، والثور بالقرون وما أشبه ذلك . وهناك حيوانات لا سلاح لها إلا جلودها كالنمساخ ؛ إنه لا يخترق جسمه الرصاص وكذا السلحفاة ، فإذا مشت ترى عليها قبة قوية متينة ، فإذا خافت مما يؤذيها انكسرت وأخفت رأسها وأرجلها فى ذلك الحصن الحصين ومن هذا النوع السرطان والقنافذ وغيرها .

العجبية التاسعة عشرة : شريعة الثيران

وقد تقدمت فى هذه السورة فلا نبديها .

العجبية العشرون : الفرس الحاسب المتعلم

كان قديما العلماء يقولون : إن الحيوان يتقابل مع الإنسان فى أوصاف شتى ، ففى الهيكل الظاهرى كالقرد ، وفى الذكاء كالغيل ، وفى الأدب كالفرس . وفى النطق كالبيغاء ، وفى حمل الأثقال كالجمال : فكل حيوان من هذه اقرب من الإنسان بمخلة ولم يقدر حيوان ما أن يشارك الإنسان فى سائر أحواله ، ولقد كان الفرنجة فى أول نهضتهم يظنون أن القرد وحده قد اختص بالقرب من الإنسان ، ولكن لما استمروا يجدون فى العلم ألحقوا به الفرس والكلب والمهر والغيل :

ولقد كان العالم الألمانى المسمى (هرفون أوستين) يقيم فى نيمالين متفرغا ليدرس طبائع الحيوان مدة (١٤) سنة ووجه عنايته إلى فرس عنده وعلمه فتجع خير نجاح وقد سمى هذا الحصان (حنا التيبه) ولقد علمه على أحدث طريق تعليمى مندرسى بالطباشير والألواح السود وبالخرز وبالروائح العطرية والألوان ، وعلمه الحساب بالأرقام فعلمه الجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور العشرية وغير ذلك .

ولما شاع أمر هذا الفرس شكلت لجنة من علماء الحيوان فامتحنوه فأقرّ العالم (هرشيلنس) أشهر علماء الحيوان فى (برلين) أن هذا الحصان يقرأ الخط ويمرر الأعداد والنقود وكم الساعة: دقائق وساعات وأجوبته



على مسائل الحساب بالضرب على الأرض بحافره ، وإذا أراد تأكيد الجواب ضرب الأرض بحافره الأيسر  
ورفس رفسا شديدا ، ولما غالطه أستاذة إذ قال له اثنين واثنين عبارة عن خمسة ضرب بحافره الأرض أربع  
مرات ومع كل منها ضربة بحافره الأيسر ، وسألوه في عملية حسابية طويلة فأجاب ولم يخطئ ، وملثوا  
قوة حرقا بألوان مختلفة وسألوه عن كل واحدة بألوانها فكان يجب ولا يخطئ وسألوه كم عدد الذين يتفقدون  
النظارات ، وعن السيدة التي على رأسها قبعة خضراء فأجاب ولم يخطئ .

واللجنة لما رأت هذه النباهة أخرجت الأستاذة الذين سألوه وابتدأ غيرهم في السؤال فقدم أحدهم له  
ريالا وقال متى الساعة؟ فلم يجبه ، وقال بعضهم: نظف معلك بخرقة وأما أزيد في علفك فالنتف بينا وشمالا حتى  
وقع نظره على حرفة أمام الأستاذ (شيلنس) فالتفتها بفيه وأسرع إلى الإصطبل وأخذ يمسح معلفه بتلك الحرفة  
حتى نظفه تماما ثم أعاد الحرفة ، ولقد أتوا له بثلاثة أسلاك في واحد أربع كرات ، وفي الثاني ست ، وفي الثالث  
ثلاث كرات وعلقوها بين يديه وطلبوا منه جمعها ف ضرب الأرض بحافره ١٣ ضربة ، وهو يعرف الحروف  
بالأعداد فلشكل حرف عنده عدد ، وأتوا له بصحيفة عليها رقم خمسة وسألوه كم واحدة من هذه تساوي  
عشرين ، ف ضرب برجله الأرض أربع مرات ، وقد ميز أمامهم بين الذهب والفضة والنحاس وجعل للذهب  
ضربة وللفضة ضربتين ، وأروه ساعة وكان الوقت ١١ ونصفا ف ضرب أولا ١١ ضربة ، وصبر قليلا ثم ضرب  
ثلاثين ضربة .

وقال العلماء : إن نباهة هذا الفرس تقابل نباهة الإنسان وعمره ١٣ سنة وكان يوم امتحانه مشهودا  
حضره الأطباء والعلماء وأعضاء الأكاديميات العلمية وكثير من الأمراء والأشراف وكان أمرا عظيما .  
ولما عرف ذلك واشتهر طلب أحد الأمريكان أن يشتريه بمبلغ (٥٧٠٠) جنيه فلم يقبل صاحبه وقال  
أنا لا أبيعهم بأى ثمن لأنى لا أطيق فراقه ، ووقع العلماء والفضلاء ورجال الأكاديميات على الشهادة بما شاهدوه  
من هذا التليذ النبيه .

ولقد أجمعت جرائد برلين أن (حنا النبيه) يمثل أعظم حادث يتعلق بعلم النفس في المملكة الحيوانية ،  
هذه هي العجائب العشرون التي وعدتكم بها تذكره لقوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » الخ  
فيمثل هذا يدرس القرآن ، ويمثل هذا فيلترقى للسلمون ، ويمثل هذا يكون مصداق قوله تعالى « ليظهره  
على الدين كله ولو كره المشركون » يمثل هذا يا أمة الإسلام ترتقون ، وعلى ذلك فلتعتولوا هو خير مما تقرعون  
من العلوم القشرية . فإياكم أن تفقوا على القشور فاخترقوها واطلبوا الأبواب .

هذه هي الحزائن الإلهية في الآيات القرآنية ، إنما مثل سورة هود كمثل قصر مشيد فيه حجرات فاخرة  
في كل حجرة ما غلامن الثياب وما جمل من اللناع وفي داخل تلك الثياب الجميلة جواهر يتيمة كل جوهرة منها  
في حجرة وتلك الجواهر هي عجائب الحيوان كما وصفتها عند ما مثلت ذلك بشجرة الجوز ، فمن اكتفى بالثياب  
غابت عنه الجواهر فلم ينلها وخرج صفر اليدين منها . إن القرآن يقرؤه الناس ويكتفون بظواهر القصص  
وهم عن الجواهر معروضون ، إنما هذه القصص بحر فيه أنواع المخلوقات ولكن أجملها وأعلاها وأسوأها  
وأبهرها الجوهر المسكون في صدقه فهذه ذه الجواهر في القرآن .

لقد ضل قوم انصرفوا عن الجواهر إلى الأصداف فقال الله فيهم « يضل به كثيرا » واهتدى قوم إلى  
الجواهر فقال الله فيهم « ويهدى به كثيرا » .

إن الكثير من المهتدين سيكونون من الآن إلى مستقبل الأزمان ، إن المسلمين سيقوم فيهم جيل جديد  
يتبعه أجيال وسيكون هذا التفسير وما مثله في أمم الإسلام من أنجع الوسائل لترقية للمسلمين ، إنى بذلك  
موقن ولولا إيقاني به ما كتبت حرفا ولا أضمت وقتا ، ومتى أراد الله أمرا هيا أسبابه .

وقبل ختام التفسير في هذه السورة أذكر حادثتين :

[الحادثة الأولى] إنني قرأت في الجرائد هذين اليومين أن الأب (موفيه) الفلكي الشهير ومدير مرصد بروج صرح بنبوءة أحدثت جزئا ، ذلك أنه تنبأ بوقوع حرب كبرى سنة ١٩١٨ أو أزمة خطيرة في العالم وقال إن الأمم تتأثر بنشاط الأفلاك في حركاتها ومواقع الشمس والنجوم وكذلك الأفراد ، وقد حذر الأب (موفيه) المذكور حينما كان في بروكسل سنة ١٩١٠ حكومات أوروبا من مصاب هائل يوشك أن يعصف بالعالم ما بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ ، وهاهوذا الآن يحذر العالم من جديد ، ويقول إن الاضطراب في مواقع الشمس يؤثر في الجهاز العصبي الإنساني كما يؤثر فيه الإقليم وهذه المقالة كتبت في جرائدنا يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٤ وإنما كتبتها لمناسبتها لما نحن فيه .

ألا ترى أن هذا العالم في نظر الحكماء كجسم واحد وحيوان واحد وإنسان واحد «ماخلقكم ولا بشتم إلا كنفس واحدة» وإلا فبأنه أرى فرق بين تأثير الزنبور في الدودة كما قدمنا وتأثير الشمس في الأمم والأفراد ، إن العالم كشخص واحد ، فالسكواكب والأقمار والنجوم لها ارتباط بكل حيوان وكل إنسان ، تلك هي الوحدة العامة في العالم ، والمحرك لها نظام واحد لا يختل ، وما قتل الزناير للدود ولا قتل الآساد بالفزلان والذئاب بالخلان إلا حركات متصلة بالبدأ الأعلى ، فظاهرها اختلال وباطنها حساب ونظام .

أعمال تطابق غرائز الحيوان وديانات الإنسان

ومن هذا للقيام أن ذلك للبدأ الأعلى أوحى إلى أمثال تلك الزناير فقال لها متى اقترب زمان يبضها أن اقتضى الذباب واصطادى العنكبوت واجذبهما وأمثالهما إلى منزلتكم للنظم وأنزلى عليهما ما لديك من اللادة السامة وأتركهما ثم يبض عليهما ، فإذا فعلت ذلك باضت وتركت يبضها ليتغذى دودها الذي سيخرج من البيض مما نحت من هذا الصيد ، إن هذه الحادثة التي قدمنا ذكرها وما مثلها فيما ذكرناه ترينا نظاما واحدا فكل حيوان نظام تام ليعيش به وليعد العدة لأولاده ، باض الطير فألهم أن يجثم على بيضه أياما ولم يلهم أن يجتذب حشرات لأولاده لأن ما في البيضة من الغذاء كاف ، حملت البقرة والشاة والمرأة ولم يجتجن قط إلى ما احتاجت إليه الدجاجة من حضنها يبضها ، ولا حشرة الزنبور من إحضار الصيد لأولادها ذلك لأن اللبن عندها قائم مقام ما ذكرناه .

يا أيها الناس . يا أيها الأذكىاء . انظروا كيف تم هذا النظام ؟ كيف ألهم كل حيوان قبل وجود أبنائه بما قصرت فيه الطبيعة فأحضره للبرية للقبلة ؟ انظروا لهذا النظام ، انظروا كيف كان الإلهام مطابقا للاحتياج ولا يلهم الحيوان إلا حاجته ويمنع عنه ما ليس إليه حاجة ، نمطف على الإنسان وننظر فنجد من أول التاريخ إلى الآن لا يزال يجد في العبادة وينصب التماثيل تارة ويوحده تارة أخرى وترسل له الأنبياء فيقولون : أيها الناس هناك عالم آخر فاستعدوا له ، فتراهم يبدون ويوحدون ، ومهما سافرت في البلاد واخترقت الطرق وجبت للدين لم تجد إلا مآذن شائعة ومساجد مشيدة وكنائس مبنية ويعا منصوبة وآيات مكتوبة وأذكارا مقروءة ودعوات مطلوبة وأورادا متلوة ودروسا مفهومة وعلوما مروية وأحاديث مرفوعة وكتبا مقدسة مسموعة ونواقيس مدقوقة ومؤذنين يؤذنون وقراء يرتلون وصواما يجوعون وقواما بالليل يصلون ، أليس ذلك من الاستعداد للعالم الذي سنصل إليه بالوحي والإلهام كما استعدت الطيور في أعشاشها والحشرات في أعشاشها ويكون هذا الوضع وفق للطلوب وبه يعيش الجيل الجديد . فكيف لا يكون الإنسان وأنبيأؤه قد استعدوا للمستقبل كما استعد أقل الحشرات وسائر الأمتام لمستقبل الأبناء والبنات .

إن صغار العقول من بني الإنسان قد استهزءوا بالبيانات وقد جهلوا نظام الأرض والسماوات ونظام  
الله كران والإناث من أنواع الحيوان وغفلوا عن قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها  
ويعلم مستقرها ومستودعها » ثم هو لا يلهمها إلا على مقدار احتياجها فألهم الإنسان ميعاده كما ألهم الحيوان  
ما يربى أولاده ، هذا هو المعنى من هذه الآية ، وهذا هو الذي قصده الأنبياء إذ استدلوا بهذه على الله وعلى  
العباد ، وتمت السورة بقوله تعالى « وثق غيب السماوات والأرض الخ » فهل يصدق الحيوان ويخطئ الأنبياء  
والإنسان وهما في النظام بيان ، وفي الخلق صنوان ، وهل يصدق للفضول والفاضل في بهتان ؟ إن العدل  
ينكر ذلك وللبرهان .

[الحادثة الثانية] إن سيدة من أشرف السيدات اطلعت على ما كتبه هنا في أمر الجبابر فدهشت  
وقالت يا عجبا إذا كانت الجبابر هكذا تضيء على الناس فكيف يكون نور الله ؟ ففكرت في نفسي وقلت :  
إن الجبابر للضيئة من العالم الأرضي ، والأرض مشتقة من الشمس ، وهذه الحشرة أضاءت أمها الكبرى  
وهي الشمس ، ونسبة ضوء الجبابر إلى ضوء الشمس كنسبة الجبابر نفسها إلى الشمس ، إن عقولنا لها  
نور معنوي ، فتورها مستمد من نور معنوي أوسع ، ونسبة إدراك عقولنا إلى ذلك العقل العالی المستمد من  
الله للدبر للعالم كنسبة ضوء الجبابر إلى ضوء الشمس ، هاتان الفكاهتان ختمت بهما تفسير هذه السورة .  
والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس من كتاب [الجواهر] في تفسير القرآن الكريم  
وبليته

الجزء السابع ، وأوله تفسير سورة يوسف عليه السلام

## فهرس

## الجزء السادس من كتاب تفسير الجواهر

صفحة	
٢	تقسيم سورة يونس إلى سبعة أقسام وتحديد كل قسم منها وبيان مقصوده إجمالاً .
٣	القسم الأول من أول السورة إلى قوله « أن الحمد لله رب العالمين » مكتوباً مشكلاً ، ثم بيان اتصال أول هذه السورة بآخر ما قبلها .
٤	تفسير ( الر ) وبيان بعض سر هذه الحروف وتفسير ألقاظ هذا القسم .
٥	تفسير بعض الألقاظ ، وبيان قوله تعالى « في ستة أيام » .
٦	بيان أن خلق السموات والأرض في ستة أيام كان معروفاً ، ولذلك جاء صلة اللوصول ، وذكر ماجاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين في التوراة وبيان قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » . العرش إما البناء وإما الملك والعرش مقرون بالتدبير ، وتبين أن ما غلب نفعه يبقى وذلك كالماء الذي جاء أنه استوى عليه العرش مع أنه قد يخرق الناسك والمرأة الجوز ، إذن الملك مبنى على علم والعلم به يصطنع ما غلب خيره .
٨	جمال في إثراق نسم المعارف من قوله تعالى « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » وشرح شجرة ( الكاوتشوك ) الأستيك وأن السائل اللبني للستخرج منها يحفظ الأسلاك البرقية في البحر ومنه إطار العجلات والعربات والسيارات وقل الماء الدافئ والوسائد ذات الهواء والأنابيب لإطفاء الحريق ، والمعاطف المانعة للطر ولسق الحداثق ، وهذه للنادة مع الكبريت تكون مساطر ومقايض الخ .
٩	رسم شجرة ( الأستيك ) بالتصوير الشمسي وبيان تدبير الله فيها الذي جاء في قوله « يدبر الأمر » فإنه خلق منفعتها في حفظ الأسلاك في البحر قبل أن تظهر الكمبرياء ولا شيء يسد مسد هذه الشجرة في حفظ كهرباء الأسلاك البرقية ، والله خلقها في أقطار بعيدة وعرف الناس بها وأحوجهم إليها فخلصوها بمشقة وعمل ليرتقوا وينشطوا .
١٠	آراء نوع الإنسان في مثل هذا اللقام ، وأنه ثلاث درجات : دنيا كالعاقبة ، ووسطى وهم أكثر للتعلين وعليها وهم الحكماء ، والقسم الأولان لا نظر لهما في التدبير العام ، والقسم الثالث هم قواد الأمم وهم الأفلون كنفقة هذه الشجرة ولكن علمهم بهم كما عمت منافعها وقل وجودها ، وبهذا اللثال ظهر أن العالم يحكم إنسان واحد أو حيوان واحد ، كبير مرتبط بصغيره ارتباط العين بإصبع الرجل مثلاً .
١٢	بيان تفصيل الآيات ، وبيان آراء علماء القرن التاسع عشر وآراء القرن العشرين ، والآخرون هم الناظرون في التدبير العام كنص الآية مثل ( ويسمان ) و ( سبفسر ) و ( كاميل فلامبريون ) و ( فون بار )

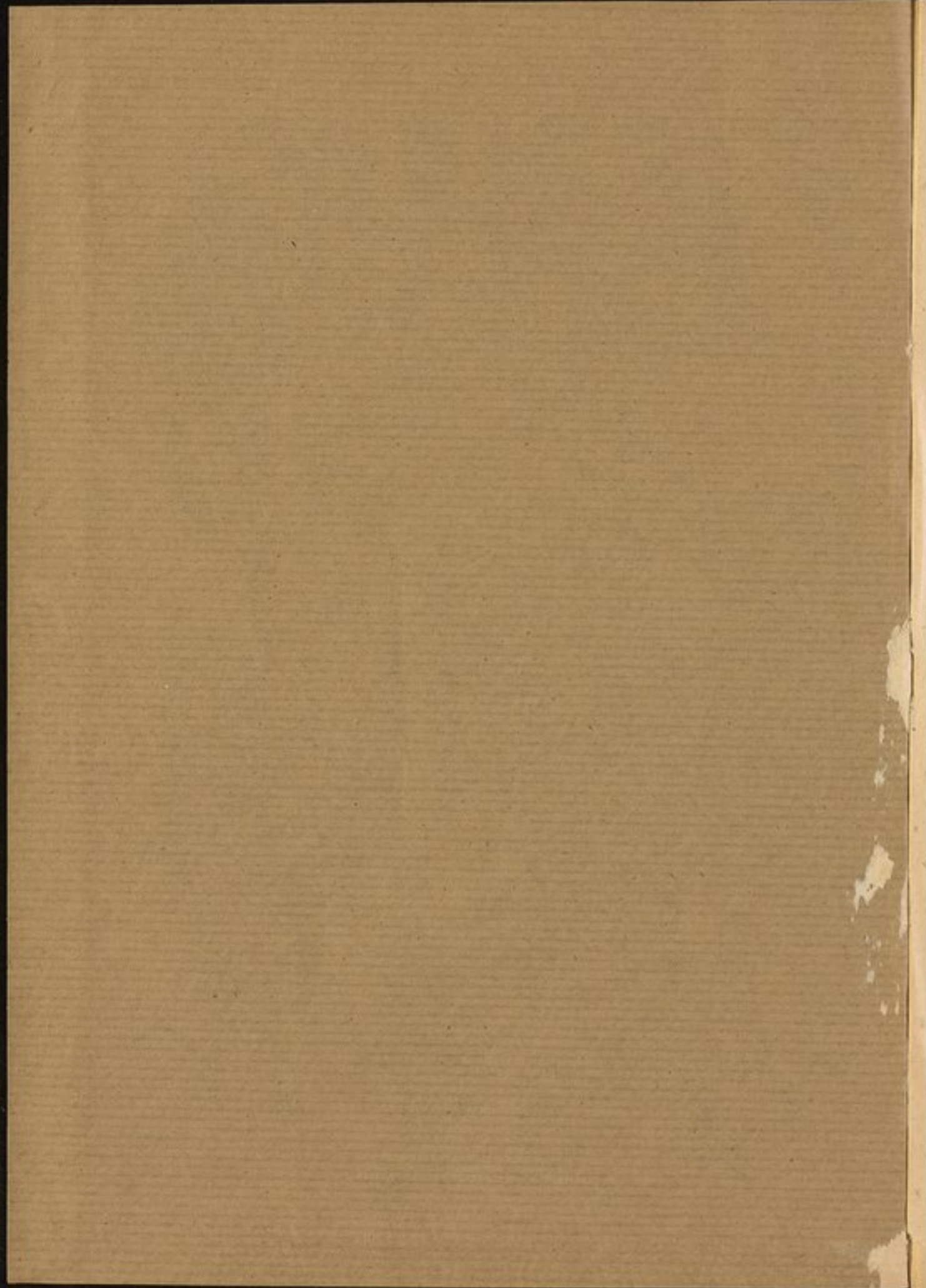
- و (جينو) وغيرهم، وأن آراءهم ترجع إلى قوله تعالى «نم استوى على العرش يدبر الأمر» وإن كانوا هم لا يعلمون ذلك.
- ١٣ الأرض كأم تربي أولادها إذ يخلق للأُم الثديان قبل خلق الولد، وهكذا خلقت هذه الشجرة قبل ظهور الكهرباء، ومثل ذلك إلهام الحشرات وسائر الحيوانات التي استدل بها علماء القرن العشرين على وجود مدبر للوجود، ويان أن هذا التفسير ظهر قبيل ظهور قادة من الأمم الإسلامية كما ظهرت الشجرة للتقدمة قبل ظهور الكهرباء، فهنا التفسير من دلائل النهضة القرية في بلاد الشرق، فريدة في التدبير العام، ويان أن القوى ثلاثة أقسام: قوى الفرائز الحيوانية، وقوة العقل، والقوة الفدسية والعقل فوق الفريزة وهو ينظر في الذي جاء به الوحي والإلهام في كل أمة بحسب طباعها.
- ١٥ الكلام على تدبير المادة فكما كان الأعلى في القوى يفيد الأدنى كالعقل بالنسبة للفريزة وكوحي الأنبياء بالنسبة للمفسول، هكذا في المادة بمد الأكبر منها الأصغر كالشمس بالنسبة للأرض تعطى الضوء.
- ١٦ لا معطل في الوجود، إن ما يزيد من الأنهر أيام الفيضان يكون في البحار العظيمة طبقات في القاع لتكون أرضا يابسة في المستقبل وجبالا كفضلة الرجل والمرأة يتكون منهما ذرية تبقى كما كانت الجبال من فيضان الأنهار، ازدياد الناس على الكرة الأرضية، ويان أن الناس قريبا ستحاسب كل أمة غيرها على ما عطلت من منافع موادها وعقولها وتبين أن ملابس صبي واحد قد أخذت أجزاءها من كل دولة من الدول.
- ١٧ واجب للسليخ الذين ألف لهم هذا الكتاب أن يفكروا في تدبير الأمر في الآية، والأمم قد أحاطت بهم فليدرسوا هذه الدنيا كالأمم، وهذا التفسير مقدمة لهذه النهضة.
- بيان «وقدره» نازل، وأن القمر أصل الشهور والأسابيع، ويان آراء الأمم في اليوم ومبدئه كالفرس واليهود وأهل إيطاليا وأمة العرب وفرنسا، وأن أسماء الأيام في الأسبوع مشتقات من أسماء الكواكب السيارة مثل (الثلاثاء) من مارس أي المريخ الخ.
- ١٨ بيان السنة عند الفرس والصريين والشهور مثل توت وياه الخ، والسنة عند الصينيين والعرب واليهود وقدماء الرومان، والكلام على الشهور عند الفرنجة، ويان أن الأصل في هذا كله سير القمر الذي اضطر الرومانيين إلى الرجوع إلى (١٢) شهرا كبقية الأمم، والذي تفتن لهذا (بوليوس قيصر) الذي سمى باسمه الشهر المعلوم، وهذا سرّ قوله تعالى «وقدره منازل لتعلموا الخ».
- ١٩ السنة الشمسية الكبيسة والبسيطة وشرح قاعدتها والتثيل بسنة ١٩٢٤ وهي سنة تفسير هذا المجلد وحسابها بالدقة، والكلام على تعديل (جرمجوار ليليوس) الطلياني وكيف قبلت الأمم هذا التعديل إلا ثلاث أمم.
- ٢٠ بيان أدوار السنين الكبيسة والبسيطة في الحساب العربي وهي ٢١٠ سنة من ضرب ٧ في ٣٠ سنة؛ أي أن الدور الكبير سبعة أدوار صغيرة.
- ٢١ بهجة العلم في هذه الآيات، تحذير للتنازل جعل الناس آمنين على أمرين: حساب المدرجات الأرضية،

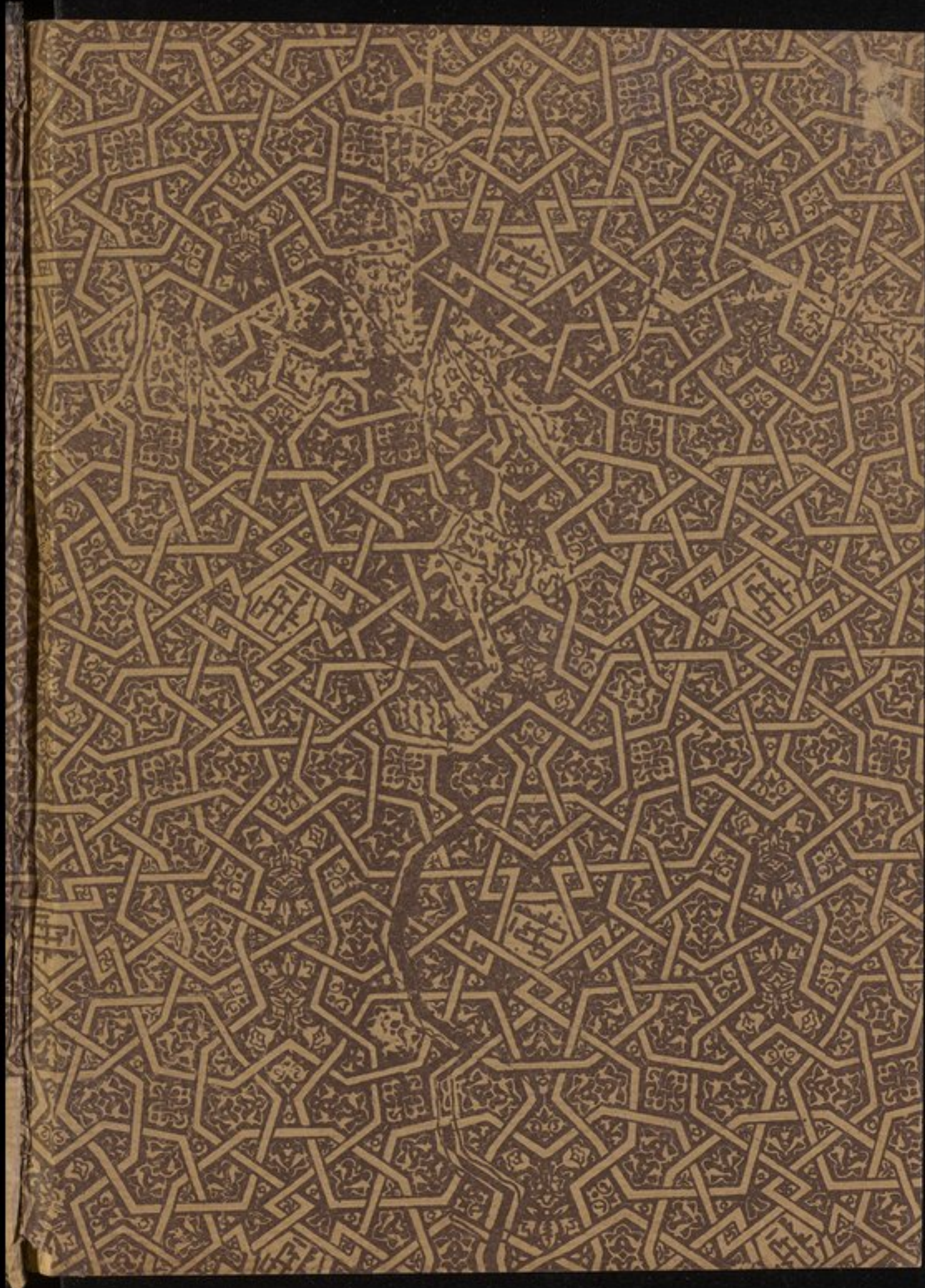
- وحساب اليزان والكيل والساحة ، فالأول جاء من فكرة كروية الأرض التي أول من فكر فيها (أراتوستانس) سنة ٢٧٦ ق م إذ قاس ما بين مدينة أسوان والإسكندرية وبهذا عرف كروية الأرض وأن للسافة بين أسوان واسكندرية جزء من خمسين من محيط الكرة الأرضية ، ذلك بسبب العمود الذي نصبه عند الإسكندرية وقاس ظله الخ .
- ٢٢ فصل في الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر في الأفلاك ومسألة الدوران ، وهل الشمس هي الدائرة أم هي الأرض ؟ من كتابي [جواهر العلوم] .
- ٢٣ فيثاغورس كان يعلم تلاميذه في مدرسة (كروتونيا) بإيطاليا على طريقة حركة الأرض حول الشمس سنة ٥٠٠ ق م ، وأن الأرض والسيارات كلها تجرى حولها وأن الطبقات سبع وهي الأقدار الستة ثم السابعة التي لأزهارها الخ ، فهذه سبع سموات الخ .
- وجاء بطليموس سنة ١٤٠ ق م فمكس الوضع وحكم بدوران الشمس وظهر ذلك على يد الفارابي وابن سينا حوالي القرن الرابع الهجري إذ يقولون إن الأرض ساكنة والشمس دائرة هي والكواكب حولها وهناك حركتان إحداهما قسرية والأخرى اختيارية لنفس الكواكب الخ ، فهذا للذهب كان ضد العقيدة الإسلامية ، وفيه أخذ ورد .
- ٢٤ ظهر (كوبرنيكوس) ببلاد لهستان من سنة ٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ ميلادية وهي سنة ٩٣٧ هجرية ورجع إلى رأى فيثاغورث وقد سبقه في ذلك عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد للتوفى سنة ٧٥٦ هجرية وشارحه السيد الشريف للتوفى سنة ٨١٦ هجرية ، فهما قالا بدوران الأرض لا الشمس وقد سبقا (كوبرنيكوس) بأكثر من قرن .
- ٢٥ بيان الأدلة العلمية على دوران الأرض من مسألة وضع الزيت في الكؤول ومن ذبذبة البندول ومن تغير ظل الأرض ومن أن الجسم الأكبر لا يدور حول الأصغر ومن للشاهبة للكواكب في دوراتها حول نفسها .
- ٢٦ إن علماء الإسلام قد كرهوا للذهب القديم لأن فيه النعس والسمد وفيه أنه لاخرق ولا التام في القلب وأن الأفلاك لها نفوس وأن بعد الهواء كرة النار ، وكل ذلك باطل عند المسلمين ، إذن للذهب الجديد هو للوافق للإسلام ، الشمس وشفاء الأمراض .
- ٢٧ الاستشفاء بنور الشمس ، الحمام الشمسي وذلك بتعرض الجسم للشمس بلا حائل بالتدريج بحيث يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه خمس دقائق وفي اليوم الثاني عن أطرافه الدنيا والسفلى خمس دقائق وفي الثالث يرفع عن البطن الخ ، وهكذا إلى السابع ، فيعرض الجسم كله ساعة فذلك قوة لجميع الجسم ظاهرا وباطنا ، ويان أن هذا الأمر محتم في أوروبا لتقوية الأطفال .
- ٢٨ صورة أوجه القمر (شكل ٢) .
- ٢٩ للقيام الثاني ، وهو يان أن للساحة واليزان واللكيال في بلادنا القمرية تابعات لسير الشمس ، وأن الرطل والأفة والوقية والدرهم والقنطار والكيكة واللوة والإردب والقصبه والقدان والذراع النبلي والذراع البلدي والهنداسة كل هذه مبنية على سير الشمس ، ذلك لأن محيط الهرم الأكبر جزء من مليار من محيط مدار الشمس السنوي ، ويان ارتفاعه ووضف الارتفاع وضمع الهرم ونسبة الذراع البلدي إليه وأن

- الدرهم منسوب لربع الذراع البلدي المكعب ، والاردمب ذراع بلدي مكعب ، والقدان (١٠٠) هنداسة في (١٠٠) هنداسة الخ .
- ٣٠ والذراع النبلي ٥ من ٦ من الهنداسة ، هذا فعل قدماء المصريين ، وهو نفسه قول الله « لتعدوا عدد السنين والحساب » والكلام على اللتر وهو مقياس القرنينين وأنه منسوب لمحيط الكرة الأرضية وعلى الباردة عند الإنجليز وهي منسوبة للساق المعدني التي هو رصاص الساعة المجدوب بالجذب العام .
- ٣١ من العار على السلم أن يموت وهو لا يعلم أن الكيلة والذراع البلدي الخ لها اتصال بدوران الشمس . تذكرة للأمة المصرية وللأمة الإسلامية وفيها صورة المذكورة المرسة لمجلس الشيوخ والنواب والوزراء في إصلاح التعليم الثانوي ، وأن الابتدائي ليس كافيا لأنحاء العقول والعالي للاختصاص والثانوي هو الذي يستقل العقول ويقرّبها وهو في زمن الاحتلال ضعيف لقلة العلوم الطبيعية والفلكية ، فالطالب يجهل ما فوقه وما تحته وإذن لا بد من رجوع هذه العلوم التي كانت قبل ٣٥ سنة في بلادنا .
- ٣٣ جوهره سنية في أن جمال الكواكب قبة من عوالم الجنات مجلت في هذه الدنيا والجمال على قسمين جمال يثير الشهوات وهذا عذاب ممجل في الدنيا بجمال بستان نملكه بمخالطة تكاليف الحياة وهو مومها وجمال بستان عام فلا حسد فيه ولا تكاليف ، ومن هذه البساتين للمدة للجمهور في كل أمة لراحة الناس من مشاق الحياة وهذا للجهلاء ، وهناك بساتين للحكام هي النجوم الجميلة التي تظهر ليلا .
- ٣٤ الكواكب جنات مجلت للمفكرين ولكن أكثر الناس عنها محجوبون ، ويان أن العامة إذا فرحوا بالزهر فالخاصة بالنجوم بدل الأزهار ، ويان أن من الكواكب ما لا يصل ضوءه إلينا إلا بعد ألف سنة وستين ألف سنة وقد يكون الكواكب أضواء من الشمس ثمانية آلاف مرة بل أكثر من ذلك .
- ٣٥ ذكر رياض الجذات التي أعدها الله في هذه الدنيا للعارفين .
- طريق الثبابة ، وهي الهجرة وعدد كواكبها ٢٤٢ ألف ألف شمس ، ورسم صورتها (شكل ٣) وهذه الرياض [ثلاثة أقسام] فنوان يمكن تحليلها ، وقنوان يحلل بعضها ، وقنوان لا تحلل .
- ٣٦ المجموعات الكوكبية ، اسم بعض المجموعات الكوكبية التي في الجنوب (شكل ٤) .
- ٣٧ وأشهرها قنوتوكان (شكل ٥) . القسم الثاني : السدام التي يمكن تحليل بعضها مثل :
- ٣٨ (شكل ٦) وفيه ست مجموعات في الجوزاء وفي الدلو وهكذا ، وشكل ٧ يقرب من التسقيم الخ .
- ٣٩ السدام الذي لا يحلل مثل (شكل ٩) ومثل (شكل ١٠) سديم للرأفة للسلسلة وسديم الأسد .
- ٤٠ بيان أنهم كشفوا نحو (ألفي ألف) سديم وبعدها عنا (١٤٠) مليون سنة وفي كل سديم منها مادة تكفي لتكوين مليون شمس مثل شمسنا ، وهذا قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم الخ »
- جوهرة في إشراق نور العلم في القلوب بإشراق نور الكواكب
- ٤١ صفة الهجرة هي كعبة عدس قطرها (٥٠) ألف سنة نورية ، وهناك عالمان آخران يمدان نحو ٢٠٠

- ألف سنة نورية، والكلام على سديم للرأفة للسلسلة التقدم وأنه يعد عنا مليون سنة نورية وقطره ٥٠ ألف سنة نورية وفيه ألوف لللايين من النجوم وهي شمس أضوا من شمسنا أضعافا مضاعفة ، هذا معنى قوله تعالى « ويخلق ما لاتعلمون » .
- ٤٢ بيان أن هذا معنى « إن الدين لا يرجون لقاءنا الخ » وذكر أن للسدين في حياة المؤلف وبعد موته سيهرعون إلى بناء الراصد الفلكية، وأنهم كانوا أول المعلمين لأوروبا كما قال (سديو) ثم جهلوا تخربت بلادهم، وها هو ذا أوان مجددم ورقبهم .
- ٤٣ (شكل ٨) وهو السدام الخلقى .
- ٤٣ فصل في قوله تعالى « إن في اختلاف الليل والنهار - الخ الآية » وفيه لطائف :  
[اللطيفة الأولى] النبات المفترس في أمريكا الشمالية .  
[اللطيفة الثانية] النبات اللأني الذي زهرته الأثني فوق الماء، أما زهرة الله كرفنها قرية من قاع النهر فعند الإلقاح تفصل وتذهب مقطوعة حتى تصل إلى الأثني .  
[اللطيفة الثالثة] شجرة مفترس إنسانا .  
[اللطيفة الرابعة] اختلاف مخلوقات باختلاف القصول كتلاؤو الزرع وكضج الأثمار في الصيف وصرم الثمار في الخريف وفي الربيع وتساقط ورق الشجر في الشتاء .
- ٤٥ بيان قوله تعالى « إن الدين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا » ومناسبة هذه لما قبلها ، وأن الأعمال موزعة على الأشخاص بالاستعداد ، وأن عشاق هذا الجمال في العالم مستعدون له بعد الموت ، والدين لا يتقاون إلا لللاذ البهيمية يكونون أدنى .
- ٤٦ قسمت الآية الناس [قسمين] : من لا يرجون لقاء الله ، ومن رجوا ، وهؤلاء لهم ثلاث درجات يصفون الله بصفات التنزيه، ويعي بعضهم بعضا وتحييم لللائكة وتشهد لتلك روح (غاليلو) الفلكي الشهير إذ قالت إن أرواح محبي العالم تنفرج على الكواكب كما تنفرج نحن على الزهر .
- ٤٧ مناسبة هذه السورة لما قبلها وهكذا مناسبات آخر الفاتحة لأول البقرة وآخر البقرة لأول آل عمران وهكذا إلى آخر التوبة وأول يونس .
- ٤٨ بيان الفارق بين توكل نبينا صلى الله عليه وسلم ، وتوكل هود ، وأن الأول توكل على ذى العرش العظيم إذن هو مستعد مع أمته لحفظ كيان الأمم ذوات العروش ، والثاني توكل على من بيده نواصي كل دابة يطلب حفظ نفسه وقومه ، وكل منهما نال ما طلب فليدبر المسلمون الأمر فليتعلموا أولا تعالما عاتما ، ثم يسوسوا العالم مع الأمم، هذا هو اللائق بهم ولن يكون ذلك طفرة كالجنين .
- ٤٩ العقائد لقاصد؛ فاللائكة لإصلاح الأخلاق ، والمسيح لإصلاح العمل .
- [القسم الثاني] من قوله تعالى « ولو يجعل الله للناس » إلى قوله « فينبشكم بما كنتم تعملون » .
- ٥٠ التفسير اللفظي للقسم الثاني .
- ٥١ تفسير قوله تعالى « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » كاختلاف الأشجار في البستان ، وهذا الخلاف سبب الجمال .
- ٥٢ تفسير قوله تعالى « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا » إلى قوله « فننبشكم بما كنتم تعملون » .







COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758400

BP  
130.4  
.J27  
v. 5-6

NOV 21 1973

